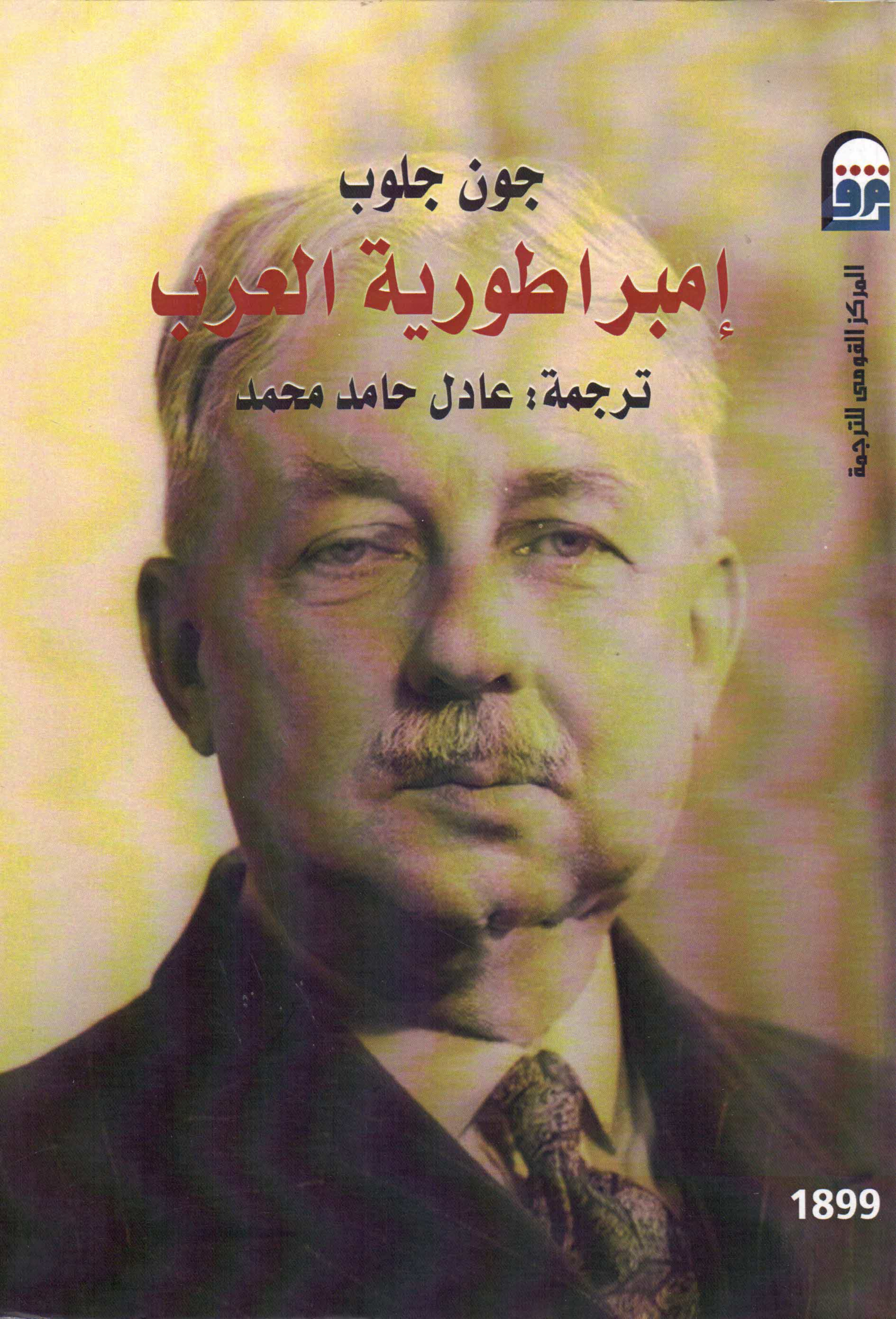
جون جلوب

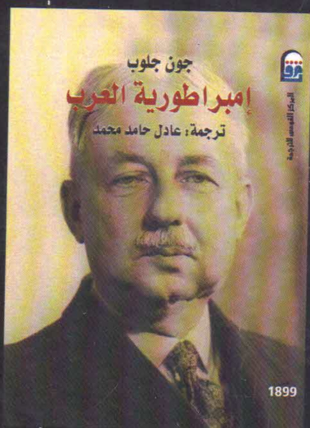
إمبراطورية العرب

ترجمة: عادل حامد محمد



المركز القومي للترجمة

1899



هناك حقيقة ملحوظة هى أن الشعوب الناطقة بالعربية التى تم تدوين تاريخها الإمبراطورى فى هذه الصفحات، قد أصبحت فى السنوات الحالية من ألد أعداء الإمبراطوريات. وهكذا نجد أنه فى وقت محدد، تدافع الأمم القوية عن مبدأ الإمبراطورية بينما ترفض هذا المبدأ الأمم الضعيفة. وبعد قرون قليلة عندما يتغير ميزان القوى تصبح تلك الأمم التي كانت إمبراطورية قبل ذلك عدوة للإمبراطورية، بينما تلك الأمم التى كانت ضعيفة وأصبحت قوية فى الوقت الحالى تتحول إلى أمم مدافعة عن المبدأ نفسه الذى كانت ترفضه قبل ذلك.

صورة الغلاف للسير جون جلوب.. تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح

إمبراطورية العرب

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 1899
- إمبراطورية العرب
- جون جلوب
- عادل حامد محمد
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

The Empire of the Arabs

By: Sir John Glubb

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

إمبراطورية العرب

تأليف : جـــــون جـلـــوب
ترجمة : عـــادل حـــامـــد محـمـد

2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جلوب ، جون.
إمبراطورية العرب/ تأليف : جون جلوب ، ترجمة: عادل حامد محمد
ط١، القاهرة - المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٤
٥٤٨ ص ، ٢٤ سم
١ - العالم العربى - تاريخ
(أ) محمد، عادل حامد (مترجم)
(ب) العنوان ٩٥٣

رقم الإيداع ١٦١٢٧ / ٢٠١١
الترقيم الدولى 8 - 745 - 704 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

قائمة الخرائط

كلمة المترجم

إن تاريخ العالم الإسلامي ملىء بالوقائع الإنسانية والحضارية التي تمكنت كثير من كتب التاريخ الإسلامي أن تبينها منذ مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ٥٧٠ ميلادية وحتى وفاته سنة ٦٣٢ ميلادية، ولكن نظر إليها بعض المؤرخين الغربيين نظرة موضوعية خالية من التعصب وذكروا ما زرعته الحضارة الإسلامية من القيم الثقافية والإنسانية والاجتماعية والأنظمة المدنية التي تنافس أنظمة الإمبراطوريات الأخرى التي كانت تتصارع مع العالم الإسلامي على مناطق النفوذ. وسير جون جلوب واحد من هؤلاء ذكر الوقائع التاريخية في هذا الكتاب وأغفل بعضها عن غير عمد ولكنه شهادة للحق والتاريخ كان موضوعيًا في ذكره لها، وذكر ما تحمله هذه الأحداث التاريخية من مدلولات اجتماعية وإنسانية وحضارية، وهذا لا يمنع من أنه ذكر بعض الوقائع التاريخية دون توضيح كافٍ لها، وكان لابد من وجود بعض التعليقات من المترجم آثر أن يضعها بين أقواس لتوضيحها وقد راعيت في هذه الترجمة ما يلي:

١- قمت بترجمة اللفظ الإنجليزي إلى اللغة العربية بالألفاظ التي كانت مستخدمة في ذلك العصر مع وجود ثبت باللغة الإنجليزية يوضح ذلك.

٢- قمت بترجمة أسماء الأماكن إلى الأسماء العربية القديمة المسماة بها.

٣- قمت بترجمة أسماء الأباطرة الرومان، كما هي بلغتها الأصلية وليس كما ترجمها المؤرخون العرب من قبل.

٤- قمت بكتابة أسماء الأعلام العرب كما هي.

٥- قمت بتوضيح بعض النقاط الغامضة التي أوردها المؤلف أو التي ألاحظ أن فيها تحيزًا إلى اتجاه معين في شروح صغيرة وبيان الحق فيها.

وعندما تقرأ هذا الكتاب أيها القارئ ستستمتع بذكر بعض الأحداث في الغرب الإسلامي التي قد لا تجدها في كثير من كتب التاريخ الإسلامي .

وأخيرًا وليس آخرًا أترك لك أيها القارئ الفرصة لكي تستمتع بقراءة هذا الكتاب.

تمهيد

كان كتابي السابق، الفتوحات العربية الكبرى، يبحث في نهضة الشعب العربي في غضون خمسة وعشرين عامًا إلى مصاف القوى العظمى في ذلك الزمان. أما الكتاب الحالي فيبحث في قصة المائتي عام التي كانت فيها الإمبراطورية العربية القوة السائدة في العالم. في الفصل الأول، اختصرت بشدة حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقصة أول خمسة وعشرين عامًا من الفتوحات، من أجل فائدة القراء الذين لم يقرءوا كتاب الفتوحات العربية الكبرى.

نحن نعيش في عصر تخضع فيه فكرة الإمبراطورية إلى جدال عالمي كبير. وهناك حقيقة ملحوظة، وهي أن الشعوب الناطقة بالعربية والتي تم تدوين تاريخها الإمبراطوري في هذه الصفحات، قد أصبحت في السنوات الحالية من ألد الأعداء للإمبراطوريات، كما لم تكن هي في وقت من الأوقات واحدة من القوى العظمى الكبرى في التاريخ. وهكذا نجد أنه في أي وقت محدد تدافع الأمم القوية عن مبدأ الإمبراطورية، بينما يرفض هذا المبدأ الأمم الضعيفة في لحظة معينة نحن بصددها. وبعد قرون قليلة عندما يتغير ميزان القوى تصبح تلك الأمم التي كانت إمبراطورية قبل ذلك عدوة للإمبراطورية، بينما تلك الأمم التي كانت ضعيفة وأصبحت قوية في الوقت الحالي تتحول إلى أمم مدافعة عن المبدأ نفسه الذى كانت ترفضه قبل ذلك. وبصورة أخرى تتشكل معظم الآراء المعبر عنها في هذا الموضوع تبعًا للموقف المحدد لكل أمة في لحظة معينة من تاريخها. ويشكل تاريخ العرب أهمية خاصة الآن؛ لأنهم يلعبون الآن بدرجة أكبر دورًا مهمًا في شئون العالم. وبالإضافة إلى ذلك، قد يساعد بحثنا في واحدة من إمبراطوريات الماضي العظمى في تكوين حصر شامل للزعامة الدولية عمومًا.

ولأسباب عديدة، قد تعني كلمة الإمبراطورية لشعوب كثيرة معنى الظلم وقمع الأمم الضعيفة من جانب الأمم الأكثر قوة من الناحية المادية. ولكي نتجنب هذا الحكم المسبق أقترح حاليًا أن نتجنب استعمال كلمة الإمبراطورية ونستعمل بدلًا منها كلمة الزعامة الدولية.

عندما نستعمل هذا التعبير الأوسع، نجد أنه كان دائمًا في أي لحظة تاريخية في أمة أو أكثر من الأمم القوية كانت الأمم الأخرى تنظر إليها بإعجاب أو تقلدها على الأقل. أضف إلى ذلك أن هذه المرحلة من الزعامة كانت تنتقل من أمة إلى أخرى بالتناوب، وفي الفترات التاريخية لم تتمتع أي أمة بالزعامة فترتين وربما نذكر – على سبيل المثال – المصريين القدماء والآشوريين والبابليين والفرس تحت قيادة الأسرة الأخمينية من عام ٥٥٠–٣٣٠ ق.م. ولكن ما زال يعيش في تفكيرنا إلى اليوم اليونانيون الأوائل. والجانب الأكثر بروزًا في زعامة اليونانيين للأمم الأخرى هو أن هذه الزعامة لم تأخذ الشكل السياسي لإمبراطورية فردية، فيما عدا أعوامًا قليلة في حياة الإسكندر. وبسبب ظروف عارضة ومحلية تفرقت إمبراطوريته بعد وفاته، لكن الأسر الحاكمة اليونانية والفكر اليوناني وطرق الحرب اليونانية، كانت لا تزال رغم ذلك تسيطر على جزء كبير من العالم على مدار ثلاثة قرون على الأقل بعد ذلك.

انتقلت السيادة إلى الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت الأفكار الرومانية والأزياء الرومانية والجيوش الرومانية تسود بلا منازع لمدة أربعة قرون بعد ذلك. وبعد مائتي عام من الاضطراب ظهر العرب بوصفهم قوة دولية، وبقيت إمبراطوريتهم أقوى إمبراطورية في زمانها من ٦٥٠ إلى ٨٥٠ ب.م. وبعد أفول نجم إمبراطوريتهم بقيت لهم الزعامة في الفكر والعلوم بعد ذلك بخمسة قرون.

بعد سقوط إمبراطوريتهم، كانوا قد نقلوا شعلة الفنون والمعرفة والعلوم والصناعة إلى أوروبا الغربية. وبعد ذلك كان يتولى الزعامة في البدء الإمبراطورية الرومانية ثم إسبانيا وفرنسا وبريطانيا بذلك الترتيب، وفي عصرنا رأينا الزعامة تنتقل إلى الولايات المتحدة وروسيا.

كما في كل الظواهر الإنسانية تختلف هذه الإمبراطوريات المتتابعة ولو قبلنا هذه الاختلافات الآن، نلاحظ أن هناك قوانين عامة تعمل في ذلك المجال من الزعامة الدولية.

مهما كانت تفاصيل العوامل التي تؤثر بها الأمة المتزعمة لعصرها على الأمم الضعيفة، فإنه يوجد عنصر قوة في ذلك. وسواء فرضت الدولة العظمى حكمها بالاحتلال العسكري أم لا فإنها تكون دولة تقلدها الأمم. وكمثال فإن فرنسا لم تغز بلادًا كثيرة في القرن السابع والثامن، ونتج عن ذلك أن أصبحت اللغة الفرنسية الآن اللغة الدبلوماسية في العالم، ودرب الضباط الفرنسيون جيوش الأمم الأخرى، وأصبح الأثاث الفرنسي والأزياء الفرنسية والأدب الفرنسي وطرق الطهي الفرنسية سائدة في كل مكان.

في عصرنا الحالي لم تفرض الولايات المتحدة الاحتلال العسكري بالقوة على الأمم الأخرى، والآن تنتشر العامية الأمريكية والملابس الأمريكية والموسيقى الأمريكية والعمارة الأمريكية في كل أنحاء العالم. ولا نكاد نزعم أن ذلك بسبب أن هذه الأشياء فعليًا أفضل من أي شيء ينتج في أي مكان آخر. ويوجد شيء ما واضح في الطبيعة الإنسانية يدعونا إلى تقليد الفكر والطرق المميزة لمن يملكون القوة المادية.

أصبح التنديد العام بالغزو العسكري الذي يروج الآن في الغرب بلا شك ظاهرة وقتية. وفي بداية القرن الحالي أصبحت ألمانيا وإيطاليا تشعران بأنهما أدنى منزلة من بريطانيا لأنهما ليسا من الدول الاستعمارية. ثم شعرت بريطانيا بأنها أدنى منزلة من الدول الأخرى القوية؛ لأن مستعمراتها قد تقلصت. وإذا كنا نستطيع أن نعزل أنفسنا عن الأزياء العصرية، فهل نستطيع أن نحدد بدقة مكان الغزو العسكري تاريخيًا ؟

إذا كان صحيحًا أن أمة بعد أخرى تتولى الريادة في الفنون والمعرفة والعلوم فلا شك أنه، تاريخيًا، كان الغزو العسكري هو الوسيلة الرئيسية التي تنتقل فيها شعلة الزعامة من أمة إلى أخرى. ونقلت غزوات الإسكندر الفكر اليوناني إلى الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن الإمبراطورية العسكرية الرومانية كانت عنيفة أحيانًا، فقد نقلت الحضارة إلى شعوب أخرى متخلفة لا يمكن حصرها. وعندما انهارت روما كان العرب على أتم استعداد لتلقي شعلة الحضارة المنهارة. وكما تظهر هذه الصفحات، كانت النتيجة المباشرة لسيادة

الإمبراطورية العربية سقوط الغرب مرة ثانية في الفوضى، ولكن قبل انهيار الإمبراطورية العربية أعاد العرب شعلة الحضارة مرة ثانية إلى أوروبا باهتمام.

ربما يبدو لنا جديرًا بالملاحظة تكرار انتقال ثوب الزعامة من الاستعمار السابق إلى الاستعمار اللاحق. وهكذا استمد العرب الكثير من العلوم من سوريا ومصر وشمال أفريقيا، وحتى المستعمرات (بالمعنى الحديث وليس بالمعنى اللاتيني) مثل مستعمرات روما وإسبانيا التي فتحها العرب كونت إمبراطورية كبيرة بعد انسحاب العرب منها. والولايات المتحدة التي تتزعم العالم الآن كانت مستعمرة لبريطانيا التي سبقتها في استعمار الدول.

عندما ننظر إلى الموضوع من هذه الزاوية، يمكن لنا أن نكوّن مفهومًا أوسع عن الاستعمار من الشعارات السياسية القصيرة الأمد المتداولة هذه الأيام. ولكن عندما يتحقق هذا المفهوم الأوسع عن الإمبراطورية، يجب أن نضع في بالنا انتقال الزعامة الدولية باعتبارها عملية مستمرة يمكن لنا أن نتتبعها من بداية التاريخ. ولكن هنا المحك؛ لأننا خلال الخمسمائة سنة الماضية محونا أي ذكر للعرب من كتب التاريخ عندنا، وهكذا لا يظهر لنا التطور المستمر للجنس البشري الذي تتجلى فيه معظم الاهتمامات والمعاني التاريخية. ومعظم مناهج تعليم التاريخ المتدرجة عندنا جعلت هذا المفهوم الطويل الأمد متعذرًا. وبعد ظهور الإسلام أصبح المسيحيون والمسلمون في حروب مستمرة في حوض البحر الأبيض المتوسط لمدة ألف عام. وخلال تلك الفترة تكوّن نظامنا التعليمي بدراساته التاريخية المقصورة على اليونان وروما، وعدم ذكر أي إشارة للعرب بصورة متعمدة.

لم تكن الحروب بين ممالك أوروبا الغربية والمسلمين بسبب أي مظاهر عداء متبادل ومتأصل بين الديانتين. ولكن على العكس، كانت الديانتان متصلتين ببعضهما بعضًا اتصالاً وثيقًا لدرجة أن الطوائف المسيحية أشارت إلى الإسلام بوصفه بدعة محضة في الديانة المسيحية. وكانت هذه الحروب التي لا تنتهي ترجع على الأرجح إلى عاملين.العامل الأول أن القرآن والنبي محمدًا (صلى الله عليه وسلم) قد أقرا تحت ظروف مختلفة بصفة عامة أنه من واجب المسلمين قتال الكفار (عندما صدرت هذه الأوامر كان الكفار هم العرب عبّاد الأوثان). أما العامل الثاني فكان القرب الجغرافي المحض، وهو قرب القسطنطينية إلى دمشق والصراع على السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط.

مهما كانت الأمور، نتج عن ألف سنة من العداء تودد أوروبا إلى اليونان وروما، لدرجة استبعاد أي ذكر للعالم العربي. وأصبحت اللغتان اليونانية واللاتينية تدرسان في التعليم وأصبح التاريخ اليوناني والروماني والأساطير الخاصة بهما يشكلان جزءًا من منهج التعليم، ولكن عرض منهج التاريخ عرضًا قصيرًا قصة حياة الإمبراطور تراجان أو أنطونيوس ثم انتقل إلى قصة شرلمان أو وليام الفاتح. ولا يرد أي ذكر عن مملكة العرب القوية في كتبنا الدراسية.

في العشرين سنة الماضية أتيح لكثير من الأوروبيين كانت عندهم إمكانية السفر والترحال الالتقاء وتكوين صداقات بسهولة مع المسلمين. ونظرًا لأن غالبية الأوروبيين وجدوا الأمم الإسلامية اليوم ضعيفة نسبيًا، فقد تصوروا بحسن نية أن هذه الدول كان يدب فيها الضعف دائمًا، ولم يتعلموا في المدارس أن العرب أيضًا مثل الرومان لهم تاريخ إمبراطوري طويل.

أدت المقاطعة المتعمدة للتاريخ العربي التي حدثت في أوروبا في عصر النهضة ليس فحسب إلى حرماننا نحن الأوروبيين من فهم الشرق الأوسط. ولكن إلى جعل تاريخ أوروبا غير مفهوم بالنسبة لنا. وعندما أقول للأوروبيين أن تجاهلنا للتاريخ العربي بسبب العداوات السياسية التي حدثت من سنين كثيرة مضت كان الرد العادي منهم (نعم بالطبع إن الحروب الصليبية هي السبب). وآمل في الواقع أن يثبت هذا الكتاب أن الحروب الصليبية كانت ماضيًا فحسب وإلى حد ما حدثًا صغيرًا. وأن سيطرة المسلمين البحرية على البحر الأبيض المتوسط هو الذي سبب ضررًا كبيرًا لأوروبا.

تنازع العرب مع البيزنطيين بحريًا عام ٦٥٠ م، واستمرت سفن المسلمين المعروفة عند الأوروبيين بسفن القراصنة البربريين في جعل الملاحة في البحر الأبيض غير آمنة حتى مائة وخمسين عامًا مضت تقريبًا (*).

(*) (تسمية سفن المسلمين بسفن القراصنة البربريين فيه تجنٍّ على المسلمين فلم تكن كل سفن المسلمين سفن قراصنة وإنما ساهم بعضها في الملاحة الدولية وكانت هناك سفن قراصنة تابعة للأوروبيين أيضًا – المترجم)

وتركت العداوة بين العرب والأوروبيين التي استمرت لأكثر من ألف عام الكثير من مظاهر التحيز للأوروبيين.

الآن على أية حال أصبح العالم صغيرًا جدًا، لدرجة أن هذه المظاهر يجب أن تختفي. وتاريخ الإمبراطورية العربية ضروري في التعليم بنفس قدر الدراسة الموجزة لتاريخ تطور اليونان وروما. وحان الوقت لنا أن نسجل بصورة محايدة إسهامات العرب في تاريخ الجنس البشري، وهي عملية قد تُمكننا بصورة صحيحة أكثر من دراسة التطور التاريخي للجنس البشري ككل. وإذا استطاع هذا الكتاب أن يعزز مفهومًا أوسع وأعدل للماضي فسأكون ممتنًا كثيرًا.

جون جلوب

ميفيلد

ساسكس

ملحوظة المؤلف

لقد استمددت جزءًا كبيرًا من مادة هذا الكتاب من المؤرخين العرب الأصليين، واستفدت أيضًا من مؤلفات العلماء الأوروبيين، خاصة المؤلفات الفرنسية والإنجليزية. ولقيت عونًا كبيرًا عند جمع الكثير من الخرائط من كتاب (بلاد الخلافة الشرقية) وخريطتي مدينة بغداد، وبغداد في عهد الخلافة العباسية من إعداد (جي لو سترينج).

عند كتابة الأسماء العربية استخدمت الهجاء الذي يبدو لي أنه سيمكن القراء الإنجليز على الأرجح من نطقها بطريقة صحيحة. وعند كتابة أسماء الأماكن، كنت متحيزًا لرأيي. وفي حالة الأسماء المعروفة مسبقًا للقارئ الإنجليزي، استخدمت أكثر الصيغ شيوعًا مثل (Constantinople، Damascus، Jerusalem) ولم أستعمل الصيغ العربية إذا لم تكن شائعة. وللعرب عادة إدخال أداة المعرفة (ال) في بعض الأسماء وليس في الأسماء الأخرى هكذا فإن كلمات مثل: لبنان وسوريا ومصر ليس لها أداة معرفة ولكنهم يقولون العراق، الأردن، اليمن. من أجل البساطة حذفت هذه الأدوات. توجد خاصيتان للأسماء الشخصية العربية التي ذكرتها؛ الأولى هي عادة العرب في تسمية الرجل بأبي ابنه الأول. هكذا قد يكون لرجل اسم كمثال (عبد الله) ويتزوج وينجب ولدًا من امرأته يسمونه محمدًا. بعد ذلك قد يسمى الأب عبد الله أو أبو محمد.

الخاصية الثانية للأسماء العربية هي عادة تسمية الرجل بعبد الله. كلمة عبد قد تستخدم لأغراض أخرى. هكذا بدلًا من استخدام كلمة الله بعد عبد قد يستخدم بعدها اسم آخر من أسماء الله الحسنى مثل عبد الناصر، وعبدالكريم، وعبد الرؤوف. هنا تكون أداة المعرفة داخلة في الاسم، كما في عبد الرحمن، وعبد الرحيم، وعبد العزيز، وعبد الودود. كل هذه الأمثلة النصير، والكريم، والرؤوف، والرحيم هي مرادفات لكلمة الله. ومن الشائع

في اللغة الإنجليزية كتابة Abdul Rahman،Abdul Aziz بدلًا من Abdi al Rahman ، Abdi al Aziz ... إلخ. وأحيانًا يعتقد القراء الإنجليز أن عبد الرحمن اسم شخصي واسم للعائلة أيضًا مثل توم جونز. وبناءً على ذلك يخاطبون هذا الشخص باسم عبد الـ إذا كانوا يريدون بذلك أن يكون هذا الاسم شائعًا أو السيد رحمن إذا أريد بالنداء أن يكون أكثر تهذيبًا والنتيجة مضحكة إلى حد ما؛ لأن عبد الـ ليست كلمة ولكنها الجزء الأول من كلمة مركبة وعبد الرحمن تعني عبد Merciful God.

أما الشعر فيمثل مشكلة كبرى لأي شخص يحاول أن يصف الحضارة العربية منذ ألف ومائتي عام مضت. ولعب الشعر هذا الدور الكبير في حياة العرب لدرجة أننا عندما نتجاهل ذلك فهذا يعني أننا نترك جزءًا مهمًا من التاريخ. وحتى المؤرخ العربي المغمور في ذلك الوقت كان يذكر في رواياته صفحات من الشعر. وتتميز القصائد العربية بالصياغة المتقنة والقافية والأوزان أكثر من الفكر العميق. هكذا فإن ترجمة الشعر حرفيًا إلى النثر الإنجليزي يكاد يكون أسوأ من حذفه. وقد أجاد الأستاذ نيكلسون الترجمة في هذا المجال حيث إن أي قصيدة شعر عربية كان يترجمها إلى الإنجليزية ترجمة صحيحة، وإذا لم أستعن بأي قصيدة يترجمها أحاول أن أبذل كل جهدي في ترجمتها.

هذا التساؤل عن الشعر يقودني إلى تساؤل آخر؛ فأي شعب يعيش في بلده تظهر الشعوب الأخرى له مشاعر عدوانية وقاسية وجافة. وفكرتنا عن العربي تنحصر في أنه محارب ملتح وشرير، يميل إلى قطع الرقاب. أو ربما ننظر إليه نظرة أكثر تمدنًا ونصوره سياسيًا هادئًا ولكنه غادر يميل إلى الشيوعية. لكن الشعوب العربية في الواقع هي شعوب عاطفية وطيبة القلب. وتكون الحياة العربية مفعمة بالسرور والبكاء ويغلب ذلك على سفك الدماء والبخل. في كلمات أستاذ أمريكي عاد أخيرًا من الشرق الأوسط «إنهم أكثر الشعوب المحبوبة في العالم»، ولا نستطيع أن نعطي هذه الصفات حقها في أي وصف تاريخي.

مرة ثانية يجب أن أعبر عن امتناني لمكتبة مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية التابعة لجامعة لندن من أجل إعارتي كتبًا باللغة العربية، وإلى مكتبة تانبريدج العامة على عونهم لي في استعارة كتب باللغة الإنجليزية من مكتبات في أنحاء مختلفة من إنجلترا.

الفصل الأول

محمد (ص) والفتوحات الباكرة

لم يكن محمدًا بوصفه نبيًا مصلحًا اجتماعيًا لقومه أكثر من كونه مصلحًا ثوريًا لأن دعوته الدينية لم تؤد إلى تغيير كامل في الموقف السياسي فحسب ولكن أيضًا إلى مساواة كاملة كبيرة في الأحوال الاجتماعية؛ فقد كان بالنسبة إلى أتباعه القائد والزعيم، وبقي صادقًا في مبادئه التي وضعها عن المساواة والأخوة الوثيقة لكل المسلمين.

(فون كريمر، الشرق في عهد الخلفاء)

مع القرآن في يد، والسيف في اليد الأخرى حقق العربي الشديد والقوي الذي لا يقهر سلسلة انتصارات رائعة وغير مسبوقة في تاريخ الأمم (*) وخلال مدة قصيرة حوالي ثماني سنوات ضمت سلسلة باهرة من الفتوحات إلى الإمبراطورية مساحة واسعة من الأراضي التي لم يفتحها الروم في خلال ثمانمائة سنة.

(أوسيلي، تاريخ الأندلسيين)

ولا ترتعب فالمعركة ليست معركتك ولكن معركة الله.

(الجزء الثاني من التاريخ ١٠، ١٥)

(*) (لم يتم الفتح إلا بالقرآن والدعوة إلى الله بالحسنى وهو الذي لم يدركه مؤرخو الغرب – المترجم).

كان بدء الدين الإسلامي على يد النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي رفع العرب إلى مصاف الأمم العظمى للمرة الأولى. قبل هذا الحدث الذي حدث في النصف الأول من القرن السابع الميلادي لم يكن الجنس العربي موجودًا سوى في صحراوات شبه الجزيرة العربية، وكانت الأغلبية العظمى من العرب تشكل قبائل بدوية ترعى الغنم والجمال والخيول، وكانت تعيش حياة البداوة والترحال في سهول الصحراء الشاسعة. هذه الحياة تجعل التعليم، وحتى معرفة القراءة والكتابة تقريبًا مستحيلة وكانت الإمبراطوريات القديمة سواء كانت الإمبراطورية المصرية أو البابلية أو الفارسية أو الرومانية تنظر إلى تخلف العرب ببعض الاحتقار. وعلى الرغم من ذلك كانت الجزيرة العربية مهمة بسبب موقعها الجغرافي. وتتمتع البلاد التي تقع على شواطئ المحيط الهندي وتلك التي تحيط بالبحر المتوسط بمناخ مختلف تمامًا؛ ونتيجة لذلك كانت تنتج محاصيل مختلفة ترغب في أن تقايضها كل واحدة مع الأخرى. وكان الممر الضيق الذي يؤدي من المحيط الهندي إلى البحر المتوسط يمر عبر شبه الجزيرة العربية أو البحار الضيقة مثل البحر الأحمر والخليج العربي الذي يغسل شواطئه. أما في الشمال فكان الطريق ما بين الهند وأوروبا تحيط به صحراء فارس وجبالها، وإلى الجنوب صحراء أفريقيا وجبالها. وهكذا وعلى الرغم من أن معظم أراضي شبه الجزيرة العربية تتكون من صحراء، فقد كانت الطرق التجارية تمر عبرها، تحمل وسائل الرفاهية الشرقية وسلعها التي لا تقدر بثمن، وعلى طول طرق المواصلات نشأت المدن التجارية الغنية التي يسكنها التجار العرب الأغنياء والمحنكون.

في العصور الكلاسيكية كان العالم ينقسم بين الشرق والغرب كما هو الحال اليوم، وكانت روما تمثل الغرب وفارس تمثل الشرق. وانهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٥ ميلادية تاركة الدولة البيزنطية لمساندة أوروبا ضد دولة الفرس الآسيوية. ودخلت الدولتان في صراع مستمر من أجل السيادة سواء في حروب ساخنة فعلية أو في سلام اسمي وتنافس تجاري ومكائد سياسية والدعوة لنفسيهما في فترات الهدنة. وتمتد الحدود بين الدولة البيزنطية ودولة الفرس من أعالي الفرات إلى القوقاز، أما العرب في الجنوب فكانوا على اتصال بكلتا القوتين العظميين. وفي عام ٦٠٢ ميلادية نشبت حرب ضارية بين الدولتين

استمرت ٢٦ عامًا. وعندما تم توطيد السلام أخيرًا عام ٦٢٨ ميلادية كانت الدولتان منهكتين ومدمرتين ومفلستين تمامًا.

ولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم عام ٥٧٠ ميلادية في مكة وهي مدينة كانت تعتمد في حياتها على القوافل التجارية من الهند إلى الأبيض المتوسط. وفي عام ٦١٠ ميلادية وفي سن الأربعين نزل أمين الوحي جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك بثلاثة أعوام تلقى الأمر من الله بالدعوة إلى الإسلام. ولم يقل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أنه يدعو إلى ديانة جديدة بل قال بأن العقيدة الحقة هي العقيدة التي تتفق مع عقيدة إبراهيم عليه السلام، والتي حرفها اليهود والنصارى عن موضعها الأصلى، وأن الله قد أرسله لكي يعيد ديانة إبراهيم عليه السلام إلى صورتها الأصلية. وكانت كل من اليهودية والنصرانية قد بدأتا تغزوان بلاد العرب قبل ذلك، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ظهر وكأنه قد تعلم الكثير من اليهود عن النصارى(*).

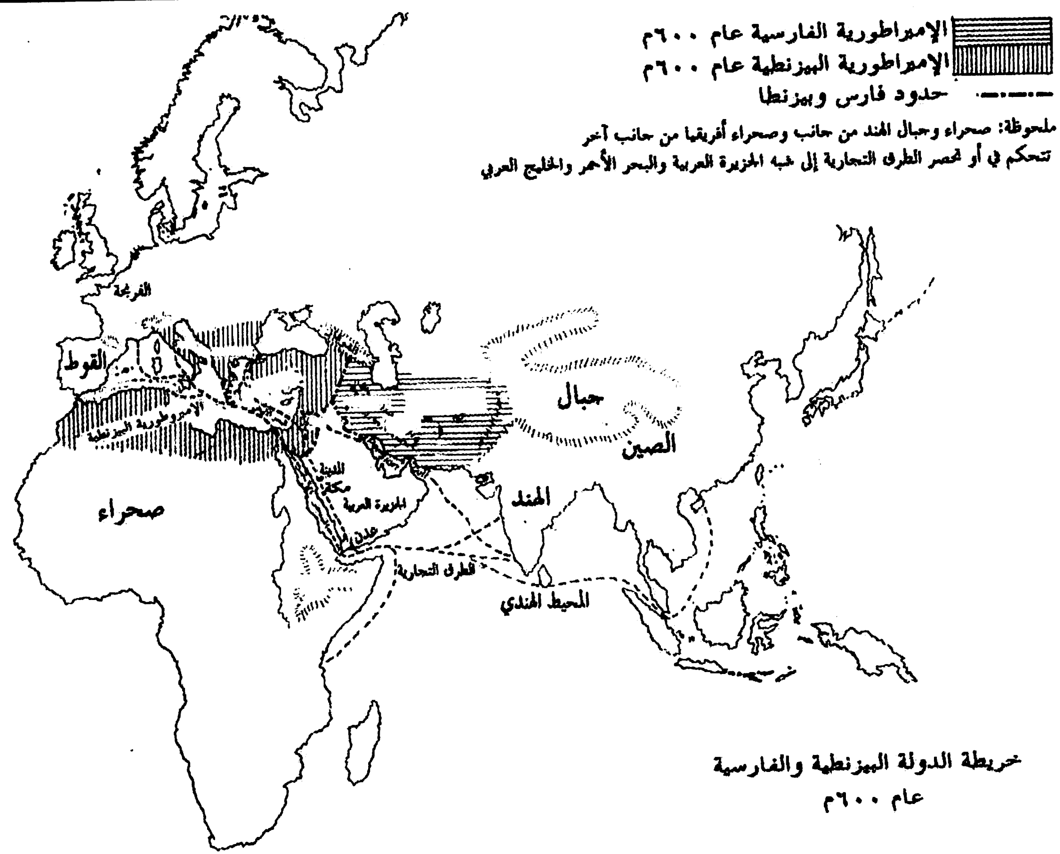
ونتيجة لرغبته في أن يعيد عقارب الساعة إلى ديانة الحنيفية ديانة إبراهيم عليه السلام كان لدعوته تشابه كبير مع دعوة أنبياء العهد القديم.

كانت قبيلة قريش تسكن مدينة مكة وتحكمها والتى لم تكن على أية حال تخضع لزعيم قبيلة واحد، ولكن كانت مقسمة إلى عشائر كثيرة يعادي بعضها بعضًا. وكانت زعامة القبائل لجيلين أو أكثر قبل النبي صلى الله عليه وسلم مقسمة بين أسرتين متنازعتين: بني أمية وبني هاشم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينتمي إلى أسرة بني هاشم. وبالإضافة إلى كون مكة مكانًا لتمركز القوافل التجارية، كان العرب ينظرون إلى مكة – ومعظمهم كان وثنيًا – على أنها مدينة مقدسة. وكانت الكعبة تقع في وسط المدينة، وهي مبنى مكعب صغير، يروى أنه كان فيه في ذلك الوقت ٣٥٦ صنمًا. وفي يوم محدد كل عام كان يتجمع

(*) (لم يتعلم النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود شيئًا ولكنه هوالذي علمهم وحادثة آية الرجم في التوراة كعقوبة للزنا عند اليهود عندما أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليها وكانوا لا يعلمونها خير دليل على ذلك وقد ذكرها المؤرخون في كثير من كتب التاريخ – المترجم).

زعماء القبائل لكي يؤدوا فريضة الحج إلى هذا الحرم المليء بالأوثان. وكانت قريش تفتخر بوصفها حامية لهذا الحرم المقدس، ولكون معظم رجالها تجارًا بصفة أساسية فقد استفادت بميزة وفود الحجيج لكي تحصل على رسوم ولتجري بعض الصفقات المربحة. أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد أنكر عبادة الأصنام في دعوته، ودعا إلى إله واحد، الذي سيأتي في يوم لكي يحاكم العالم، ويرحب بالمؤمنين إلى الجنة ويسوق الكفار إلى النار. وهذه العقيدة بدت للمكيين أنها تدمر شهرة الكعبة وبناءً على ذلك تضر بتجارتهم، ونتج عن عشرة أعوام من تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم في مكة دخول ستين أو سبعين رجلًا فقط في الإسلام، وكان هؤلاء معرضين للاحتقار والإذلال وأحيانًا الاضطهاد من سكان مكة الغاضبين. وحتى النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسخرون منه ويعاملونه معاملة مشينة ولكن الخوف من عشيرته بني هاشم منع أعداءه من اغتياله فعليًا. وأخيرًا عقد النبي صلى الله عليه وسلم عام ٦٢٢م البيعة مع مجموعة من الحجيج من المدينة المنورة وهي مدينة تقع على بعد ٢٥٠ ميلًا شمال مكة، التزمت هذه المجموعة فيها بإيوائه وإيواء أصحابه. وفي غضون الأسابيع القليلة القادمة بعد ذلك، نجح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الفرار بدينهم بصورة سرية واحدًا تلو الآخر خارج مكة والالتجاء إلى المدينة المنورة، حيث وصل إليها النبي صلى الله عليه وسلم يوم ٢٨ يونيو ميلاديًا. وأثبت سكان المدينة المنورة أنهم أكثر ترحيبًا من المكيين بتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي وقت قصير زاد عدد المسلمين من الأنصار عن المهاجرين زيادة كبيرة. وكان للرسول صلى الله عليه وسلم مطلق الحرية في إعطاء ألقاب إسلامية؛ فقد أطلق على سكان المدينة الذين آمنوا به الأنصار وأطلق على أصحابه من المكيين المنفيين لقب المهاجرين.

كان معظم المكيين الفارين بدينهم مضطرين إلى الفرار خلسة، تاركين كل أو معظم ممتلكاتهم وراء ظهورهم. وكثير منهم وجد نفسه لا يملك شيئًا في المدينة المنورة. وقريش كما هو معلوم قبل ذلك، كانت تعيش على قوافل التجارة إلى عدن من ناحية وإلى مصر وسوريا من ناحية أخرى. وكان الطريق إلى الشمال يمر بين المدينة المنورة والبحر الأحمر. وإذا تمكن المهاجرون من سلب قوافل المكيين التجارية، فإنهم بذلك يستطيعون استعادة ثرواتهم على حساب مواطنيهم الذين طردوهم من منازلهم.

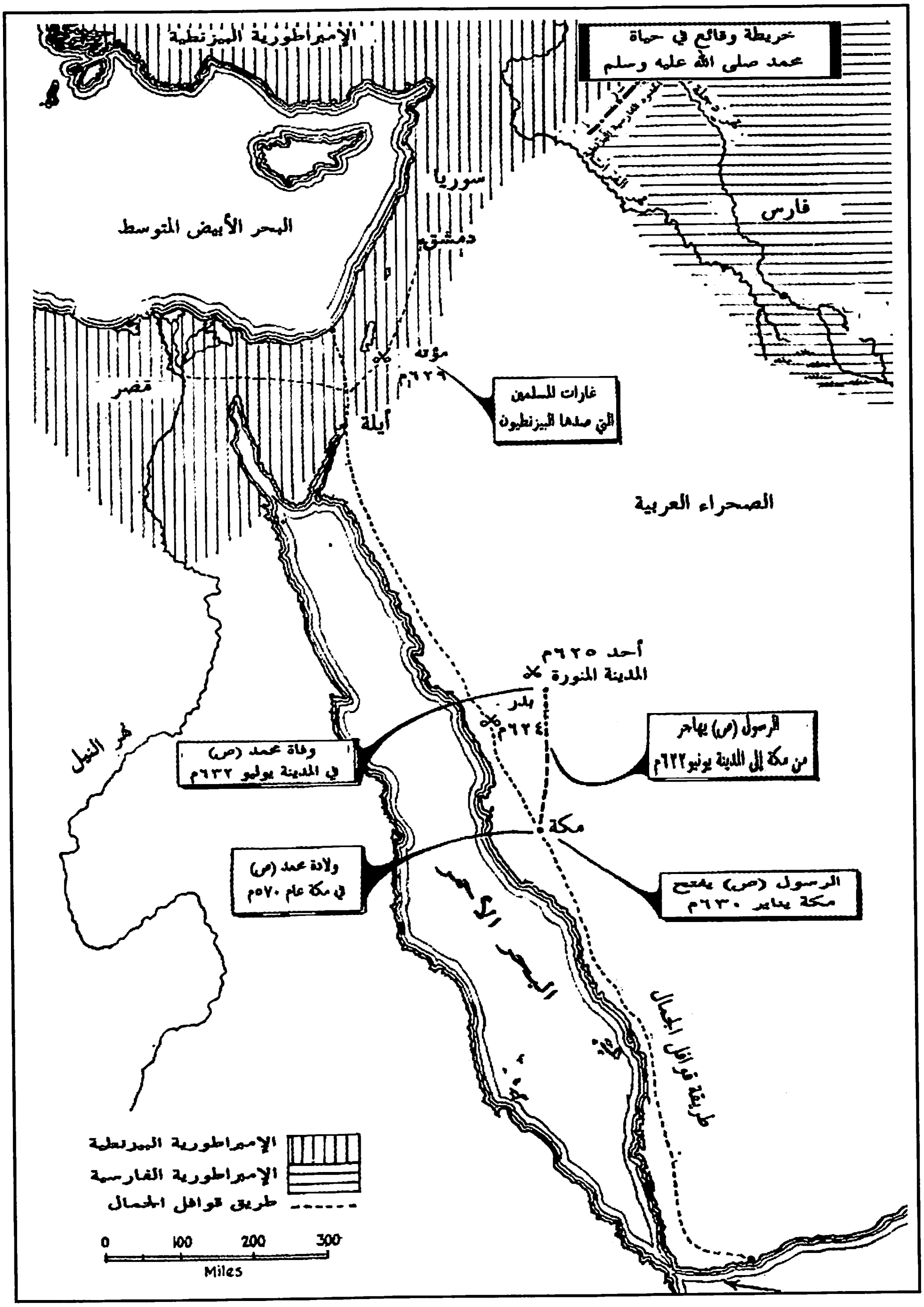


خريطة الدولة البيزنطية والفارسية
عام ٦٠٠م

في يناير عام ٦٢٤م كان متوقعًا لقافلة مكية ثرية وضخمة أن تمر على المدينة عائدة من سوريا، فقرر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستولي عليها ويغنمها. وكان رئيس القافلة هو أبو سفيان بن حرب، زعيم بني أمية والخصم اللدود لعشيرة محمد صلى الله عليه وسلم بني هاشم. وكان أبو سفيان قائدًا محنكًا للقافلة. وعندما كان في سوريا تلقى تحذيرًا عن نيات المسلمين وأرسل إلى مكة طالبًا من قريش أن ترسل قوة لكي تقابله وتحميه أمام المدينة.

في مستهل شهر يناير عام ٦٢٤ م خرج النبي صلى الله عليه وسلم بزهاء ثلاثمائة مسلم من المدينة إلى عيون بدر؛ حيث كان يأمل في اعتراض القافلة بعد ذلك بيومين، ولكن كان أبو سفيان على أية حال ذكيًا جدًا، فغير فجأة من مسار القافلة عن طريق المرور ببدر أثناء الليل وإسراع الخطا إلى مكة قسرًا. وفي تلك الأثناء خرج آلاف المقاتلين من مكة لمقابلة القافلة وحمايتها وعندما وصل المسلمون إلى بدر واجهوا هذه القوة التي تزيد ثلاث مرات عن قوتهم الخاصة. فنشبت معركة انتصر فيها المسلمون انتصارًا كاملًا، على الرغم من كون جيش أبي سفيان يفوق جيش المسلمين ثلاث مرات. وكنتيجة لذلك زادت هيبة محمد صلى الله عليه وسلم ودخل كثير من المشركين في الإسلام.

كان للتهديد بقطع طريق التجارة الشمالي أثره في وضع حياة المكيين في خطر، وفي عام ٦٢٥ ميلاديًا سار المشركون إلى المدينة بقوة مكونة من ثلاثة آلاف رجل لمحاربة المسلمين. وضد هذه القوة حشد النبي صلى الله عليه وسلم سبعمائة رجل لمجابهة هذه القوة. ونشبت معركة شرسة بين الفريقين عند أحد خارج المدينة وهُزم المسلمون تمامًا، وجرح النبي صلى الله عليه وسلم والتجأ بقية المسلمين الناجين حاملين النبي صلى الله عليه وسلم إلى تل صخري شمال المدينة. أما المكيون بقيادة أبي سفيان فلم ينهوا انتصارهم باحتلال المدينة بل رجعوا إلى مكة.



خريطة وقائع في حياة
محمد صلى الله عليه وسلم
الإمبراطورية البيزنطية
سوريا
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
فارس
مؤته
٦٢٩م
مصر
أيلة
غارات المسلمين
التي صدها البيزنطيون
الصحراء العربية
أحد ٦٢٥م
المدينة المنورة
بدر
٦٢٤م
الرسول (ص) يهاجر
من مكة إلى المدينة يونيو ٦٢٢م
وفاة محمد (ص)
في المدينة يوليو ٦٣٢م
نهر النيل
مكة
ولادة محمد (ص)
في مكة عام ٥٧٠م
الرسول (ص) يفتح
مكة يناير ٦٣٠م
البحر الأحمر
طريق قوافل الجمال
الإمبراطورية البيزنطية
الإمبراطورية الفارسية
طريق قوافل الجمال
0 100 200 300
Miles

لم ييئس الرسول صلى الله عليه وسلم، وانضم إلى المسلمين كثير من القبائل البدوية المجاورة، وبدأت شهرته في الانتشار. وكان سكان المدينة المنورة نصفهم من العرب ونصفهم من اليهود، وبطرد اليهود يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم تقديم المال والمأوى والأرض للمهاجرين من مكة (*) وفي عام ٦٢٧ م سارت قريش مرة ثانية إلى المدينة تحت قيادة أبي سفيان من بني أمية الذي أصبح الآن العدو الرئيسي للنبي صلى الله عليه وسلم. وفي هذه المرة دافع المسلمون عن المدينة رافضين الخروج للقتال خارج المدينة. وبعد حصار المسلمين سدى لمدة ثلاثة أسابيع تخلى أبو سفيان عن ذلك وعاد إلى مكة.

انقلبت الموجة الآن فقد أبدت كثير من القبائل البدوية إخلاصها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بينما بدأ الرأي العام في مكة يتغير لصالح النبي صلى الله عليه وسلم. وبعد فترة في يناير ٦٣٠ م؛ أي بعد ست سنوات من غزوة بدر سار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة على رأس عشرة آلاف من أصحابه. وتم فتح مكة دون مقاومة، وأعلن أبو سفيان قبوله بالإسلام وتم تطهير الكعبة من ثلاثمائة وخمسة وستين صنمًا. وقرر النبي صلى الله عليه وسلم على أية حال: أن الحرم هو بيت الله والذي وضع أساسه إبراهيم عليه السلام. ولقد أخطأ المكيون بوضع الأصنام في الحرم ولكن الآن تم تطهيره من كل الأصنام، وأصبحت الكعبة مرة ثانية بيت الله وأصبح الحج إلى بيت الله فريضة على كل المسلمين لمن استطاع إليه سبيلًا. وعندما علم المكيون أن مدينتهم ستبقى مركزًا للحج تخلوا عن معارضتهم للدعوة. وزادت شهرة مكة وثروتها من خلال انتصار الإسلام ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، واستخدمها مقرًا لقيادته. وبعد سقوط مكة في أيدي المسلمين أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم قوة في الجزيرة العربية، وأتت الوفود من كل أنحاء الجزيرة العربية للخضوع إليه والدخول في الإسلام. وفي يونيو عام ٦٣٢ م سقط الرسول صلى الله عليه وسلم مريضًا بمرض رئوي، ومات بعد ذلك بعشرة أيام في المدينة.

(*) (لم يطرد النبي صلى الله عليه وسلم اليهود متعمدًا ولكنهم ألجؤوه إلى ذلك بمكائدهم ودسائسهم – المترجم).

كان عباد الأصنام العرب في أوائل القرن السابع على أتم استعداد لقبول ديانة أرقى من ديانتهم، وكانت اليهودية والنصرانية منتشرة بينهم حقيقةً. ولكن لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع أساس ديانته على أساس دين إبراهيم عليه السلام، فقد أعطى للإسلام مذاق العهد القديم. كان لانتشار الإسلام بالفتوحات والاعتقاد بأن قتل الكفار يرضي الإله الغاضب تبرره نصوص كثيرة من السور الخمس الأولى من القرآن، ويتوافق مع السمات الحربية والخشنة للقبائل العربية (*). وعلى الرغم من تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم لاستعمال العنف ضد هؤلاء الذين اتهمهم بأنهم أعداء الله، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم كريمًا بالسليقة وذا مزاج عاطفي، وكان يكرس نفسه لتهذيب الأطفال بصفة خاصة، ولم يكن بأي حال من الأحوال محبًا للقتال ولم يهتم إلا قليلًا بالعمليات الحربية (**).

تكشف أجزاء القرآن الموحى بها في مكة أثناء سنوات الاضطهاد والاستضعاف، أنها تحمل سمات العاطفة العميقة والصادقة. أما بعد ذلك سواء رغب الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك أم لا، فقد وجد نفسه يتحول إلى سياسي وحاكم، ونجد أن الآيات الأخيرة من القرآن تحمل مضمونًا متزايدًا من الأمور الإدارية والتشريعية.

يمكن تفسير الحماس غير العادي الذي أثاره الإسلام وقت ظهوره فقط، بالإشارة إلى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ذاته، ومهما كانت الصفات التي يتسم بها أو الأفعال التي كان يسلكها، فلا يوجد أدنى شك في أنه كان فيه شيء ما ألهم أصحابه بالإخلاص إلى شخصيته الودودة.

عندما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم في يونيو عام ٦٣٢ م تم مبايعة صديقه الوثيق والمخلص أبي بكر كخليفة له، ومع ذلك فلم يتم ذلك دون معارضة؛ لأن الرسول

(*) (القتل لا يرضي الله إلا بالحق لأن المسلمين ظلموا وأخرجوا من ديارهم وأموالهم وقتل بعضهم ظلمًا وعدوانًا فكان لابد من قتل الظالمين – المترجم).

(* *) (كان الرسول صلى الله عليه وسلم جامعًا لكل السمات التي تجعل منه رجلًا حكيمًا وكان قائدًا عسكريًا محنكا – المترجم).

صلى الله عليه وسلم لم يترك أية توجيهات بخصوص القائد الذي يخلفه بعد وفاته. وكانت هناك حقيقة مترسخة عند كثير من العرب: وهي أن الإسلام هو محمد صلى الله عليه وسلم، وبمجرد أن أصبحت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم معروفة تخلت معظم القبائل عن ولائها للدولة الإسلامية. وهذه الثورة ضد الإسلام معروفة في التاريخ بالردة. أما أبو بكر فكان رجلًا عجوزًا بسيطًا ذا انحناءة قليلة ومع ذلك فقد ارتفع إلى مستوى الحدث، داعيًا كل المسلمين المخلصين إلى الاجتماع تحت قيادته، وأرسل قوة مكونة من أربعة آلاف رجل إلى وسط الجزيرة العربية بقيادة محارب قرشي محنك هو خالد بن الوليد. وفي موقعتين: اليمامة والبزاخ تمكن من هزيمة قبائل وسط الجزيرة العربية المقاتلة.

أرسلت تعزيزات إلى البحرين وعمان واليمن لمحو أي آثار للمقاومة. وفي يونيو ٦٣٢ م بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعام تم إخماد الثورة في النهاية.

قبل بزوغ فجر الدعوة لم تكن هناك حكومة مسيطرة على كل أنحاء الجزيرة العربية، وكانت القبائل المتعددة تقضي معظم أوقاتها في محاربة بعضها بعضًا. ولما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم منع المسلمين من محاربة المؤمنين الآخرين ولكن أعلن أن محاربة الكافرين فريضة على المؤمنين. وبمجرد أن دخلت كل القبائل في الإسلام توقفت الحروب بين القبائل. وهكذا أصبح الهجوم على القبائل المجاورة غير المسلمة حتميًا لإرضاء الروح الحربية للقبائل (*).

في منطقة الفرات السفلى دخلت عشائر الصحراء العربية في حرب عصابات مع المملكة الفارسية لعدة أعوام. وكانت القبيلة الرئيسية في المنطقة هي بنو بكر تحت قيادة زعيمها المثنى بن حارثة. وبعد هزيمة خالد لقبائل المرتدين اقترح المثنى عمل هجوم مشترك على حدود فارس. ولم يعارض أبو بكر الصديق الخليفة ذلك، وفي مارس عام ٦٣٣ م انضم المثنى بن حارثة إلى خالد وتقدم الجيشان إلى الفرات. وبعد الهزيمة الثانية للفرس استولى

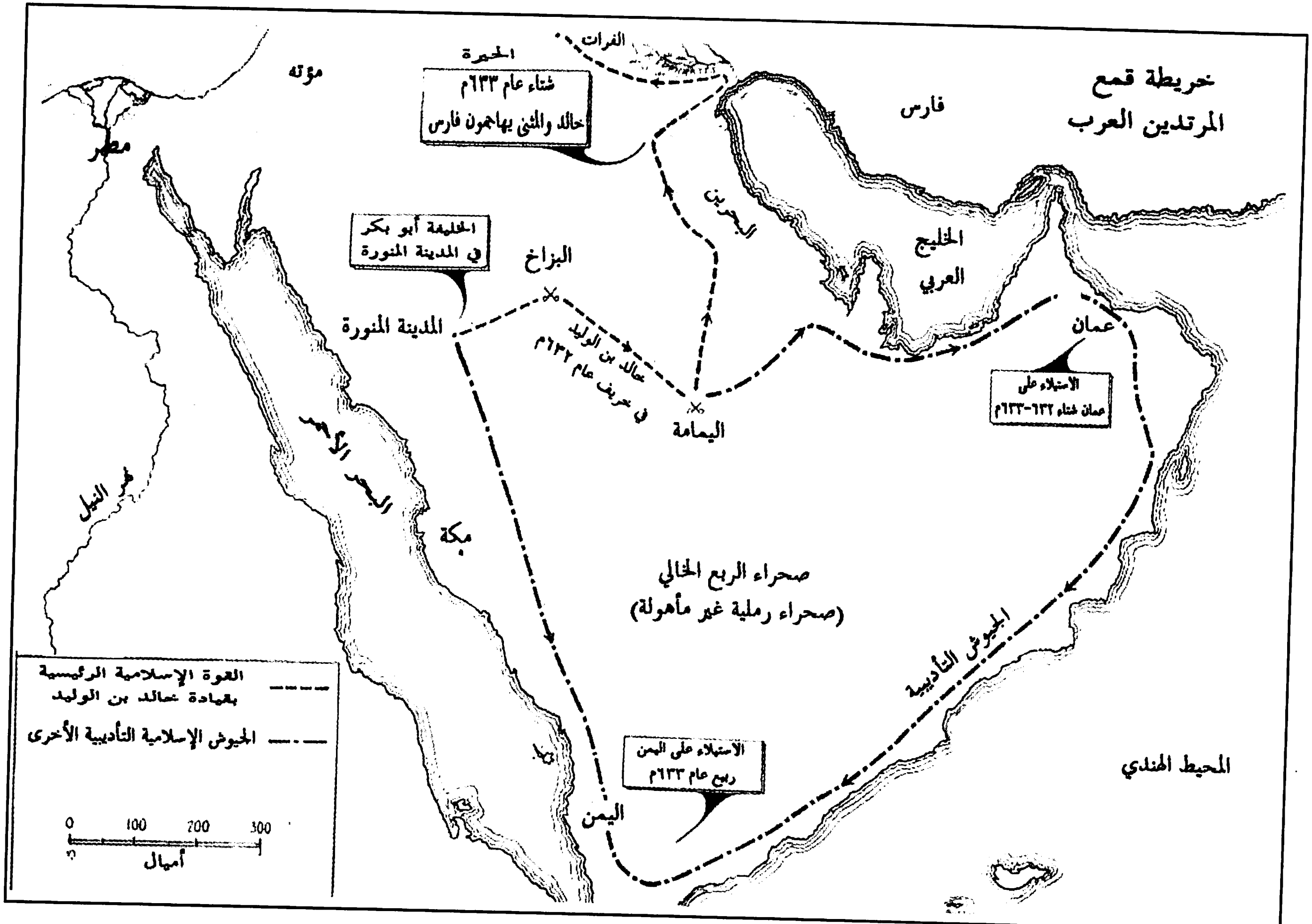
(*) (لم يأت الهجوم على القبائل عدوانيًا ولكن لأنها تألبت على المسلمين – المترجم).

المسلمون على مدينة الحيرة المهمة التي على الرغم من احتلالها بحامية فارسية كانت أغلبية سكانها من العرب.

كانت فارس في هذه الأيام تشمل ما نطلق عليه العراق، وكانت واحدة من أعظم القوى في عالم القرن السابع، ولكن تمت الإشارة فيما سبق إلى أن الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية دخلتا من عام ٦٠٢ م إلى ٦٢٨ م في حرب ضارية استنفدت قوى البلدين، وبعد ذلك بوقت قصير تم قتل كل ذكور الأسرة الساسانية الحاكمة لفارس وسقطت الإمبراطورية بأكملها في فوضى وحرب أهلية. وأدت ظروف الفوضى الداخلية إلى السماح للعرب بالهجوم على الدولة الفارسية بجرأة.

أما تجار قريش الذين كونوا على أية حال الحكومة في المدينة المنورة، فقد كانوا على اهتمام ومعرفة بسوريا التي كانوا يزورونها مع قوافلهم التجارية، بينما كانت فارس بالنسبة إليهم منطقة بعيدة وغير معروفة. وبناءً على ذلك قرروا تكريس مواردهم للحروب ضد الإمبراطورية البيزنطية.

في شتاء ٦٣٣-٦٣٤ م خرجت ثلاثة جيوش نحو الشمال من المدينة المنورة. وفي الوقت نفسه وجه الأمر لخالد بن الوليد بمغادرة العراق وعبور الصحراء لتعزيز المسلمين على الجبهة السورية. وفي مايو عام ٦٣٤ م، انضم خالد بن الوليد بجيشه إلى جيشين عربيين آخرين في الديرة. وقرر هيرقل الإمبراطور البيزنطي الذي كان في ذلك الوقت في حمص أن يأخذ زمام المبادرة، ويسحق الجيش العربي الذي كان يقاتل في جنوب فلسطين بينما كانت القوات العربية الرئيسية متعطلة في اليرموك في الديرة، حيث كان هناك ممر ضيق يسهل الدفاع عنه من جانب البيزنطيين. وتبعًا لذلك سار الجيش البيزنطي في اتجاه الجنوب إلى فلسطين. أما العرب الذين كانوا على أية حال أكثر إيجابية من البيزنطيين فقد قرروا نقل جيشهم الرئيسي إلى فلسطين بدوره؛ لكي ينقذ جيشهم الوحيد الرابض هناك من الدمار ولقى البيزنطيون هزيمة ثقيلة في أجنادين في يوليو عام ٦٣٤ م. ونتيجة لذلك تخلى جيش البيزنطيين عن منطقة اليرموك وسارت الجيوش العربية شمالاً إلى دمشق؛



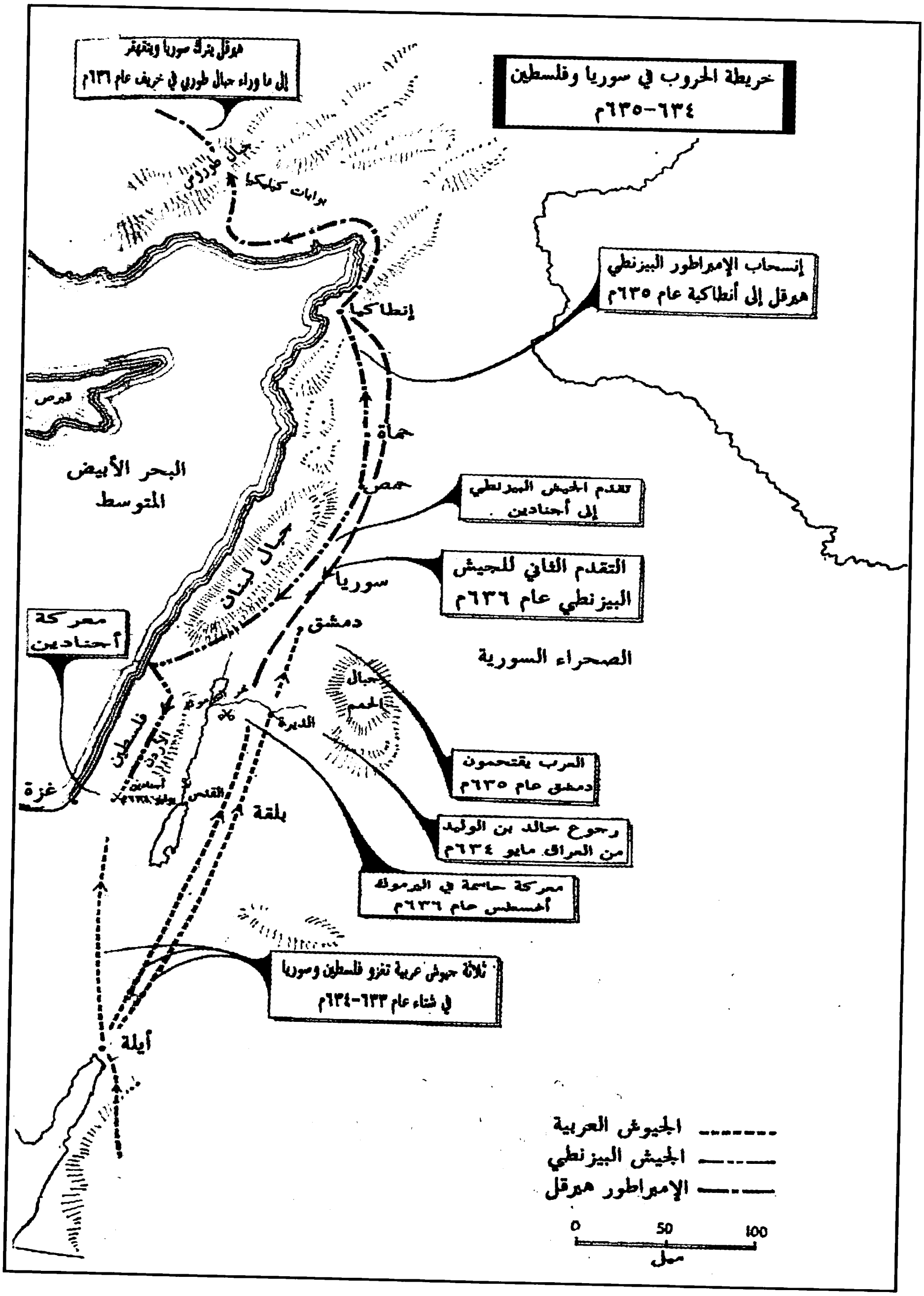
خريطة قمع
المرتدين العرب
فارس
الفرات
الحيرة
شتاء عام ٦٣٣م
خالد والمثنى يهاجمون فارس
مؤته
مصر
نهر النيل
البحر الأحمر
الخليفة أبو بكر
في المدينة المنورة
البزاخ
المدينة المنورة
البحرين
الخليج
العربي
عمان
خالد بن الوليد
في خريف عام ٦٣٢م
اليمامة
الاستيلاء على
عمان شتاء ٦٣٢-٦٣٣م
مكة
صحراء الربع الخالي
(صحراء رملية غير مأهولة)
الجيوش التأديبية
القوة الإسلامية الرئيسية
بقيادة خالد بن الوليد
الجيوش الإسلامية التأديبية الأخرى
الاستيلاء على اليمن
ربيع عام ٦٣٣م
اليمن
المحيط الهندي
0
100
200
300
أميال

حيث استولت عليها في خريف عام ٦٣٥ م. وإلى الشمال والغرب حيث استولت على معظم فلسطين وسوريا.

في أبريل عام ٦٣٦ م على أية حال سار جيش بيزنطي جديد في اتجاه الجنوب ليعيد الاستيلاء على سوريا وفلسطين. وتخلى العرب عن معظم فتوحاتهم وعادوا ثانية إلى جنوب الديرة. في العشرين من أغسطس عام ٦٣٦ م حدثت معركة عامة في اليرموك لقي فيها الجيش البيزنطي هزيمة ساحقة. وأعاد العرب معظم أجزاء سوريا إلى حوزتهم وتراجع الإمبراطور هيرقل بجيشه خلف جبال طوروس منسحبًا من سوريا وفلسطين إلى الأبد. عندما زحف خالد بن الوليد من العراق لتعزيز الجيش العربي في سوريا ترك الخليفة الحرية للمثنى بن حارثة زعيم قبيلة بني بكر للاستمرار في معاركه بقدر ما يستطيع ضد الفرس. ولم تشغل الخليفة في المدينة أخبار انتصار اليرموك عما نواه بإرسال كل التعزيزات الممكنة إلى الجبهة الفارسية. وفي الوقت نفسه وحد تتويج الملك الفارسي الجديد يزدجرد الثالث فارس مرة ثانية تحت قيادة قائد واحد.

في فبراير أو مارس عام ٦٣٧ م حدثت معركة شديدة الوطأة في القادسية على سواحل الفرات انتصر فيها العرب انتصارًا كبيرًا تحت قيادة سعد بن أبي وقاص. في أبريل عام ٦٣٨ م بعد معركة القادسية بعام احتل العرب المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية، ووقع وادي دجلة والفرات بأكمله تحت السيطرة العربية.

تُوفي أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثالث والعشرين من أغسطس عام ٦٣٤ م، لكن قبل وفاته عين عمر بن الخطاب خليفة له. وكان كل من أبي بكر وعمر صديقين حميمين للنبي صلى الله عليه وسلم، وكرسا أنفسهما تمامًا لخدمة الإسلام. وكانا زاهدين في المال مثل النبي (ص)، واستمرا عندما توليا الخلافة يعيشان حياة ريفية بسيطة لابسين ملابس مرقعة مصنوعة من قماش من الصوف الخشن، ولم يترفعا عن حلب الماعز كما كانا يفعلان دائمًا. واستمر عمر بن الخطاب خليفة لمدة عشرة أعوام وأثناء خلافته تم تحقيق أعظم الانتصارات العربية.


خريطة الحروب في سوريا وفلسطين
٦٣٤-٦٣٥م
هرقل يترك سوريا ويتقهقر
إلى ما وراء جبال طوروس في خريف عام ٦٣٦م
إنسحاب الإمبراطور البيزنطي
هرقل إلى أنطاكية عام ٦٣٥م
إنطاكيا
قبرص
البحر الأبيض
المتوسط
حماة
حمص
تقدم الجيش البيزنطي
إلى أجنادين
التقدم الثاني للجيش
البيزنطي عام ٦٣٦م
سوريا
دمشق
الصحراء السورية
جبال لبنان
معركة
أجنادين
العرب يقتحمون
دمشق عام ٦٣٥م
رجوع خالد بن الوليد
من العراق مايو ٦٣٤م
معركة حاسمة في اليرموك
أغسطس عام ٦٣٦م
فلسطين
غزة
القدس
بلقة
الأردن
الديرة
ثلاثة جيوش عربية تغزو فلسطين وسوريا
في شتاء عام ٦٣٣-٦٣٤م
أيلة
الجيوش العربية
الجيش البيزنطي
الإمبراطور هرقل
0
50
100
ميل

فرض استكمال فتح سوريا والعراق على الخليفة ضرورة اتخاذ قرارات سياسية معينة كبيرة. وكانت الحاميات العربية في البلاد المفتوحة يتكون كل منها من ثلاثين أو أربعين ألف رجل. فهل يسمح لهؤلاء بعد ازدياد المعارك بشراء الأراضي والمنازل والاستمرار هناك؟ فإذا سمح لهم بذلك وكانت أعدادهم قليلة فسيتم اندماجهم سريعًا في السكان المحليين، أو كحل بديل هل يتم تمييزهم وتركيز جهدهم في شن الحروب ممنوعين من تملك الأراضي ومستعدين للانتقال إلى أي منطقة للجهاد في سبيل الله وفي سبيل الإسلام؟

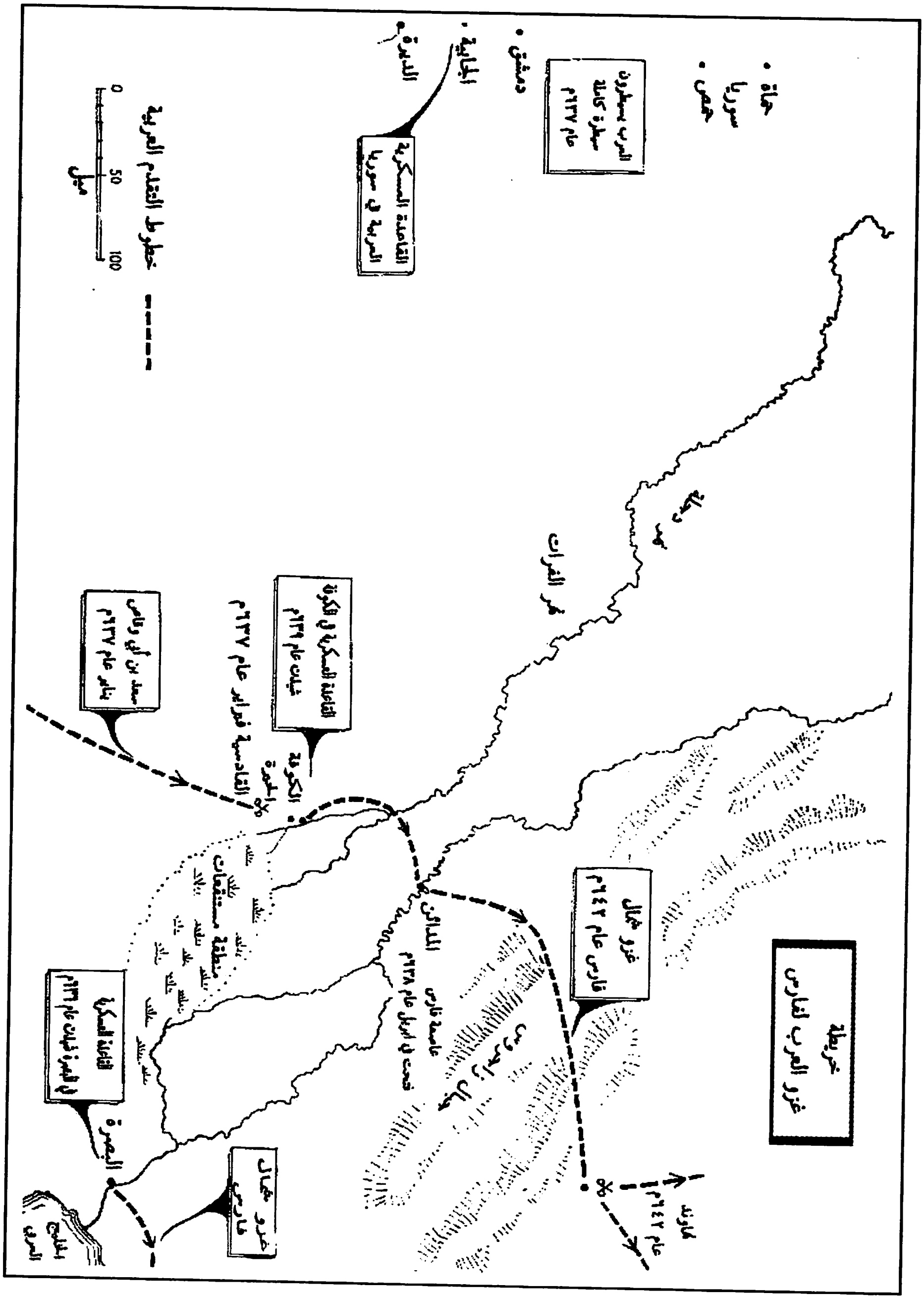
اختار عمر الحل البديل الثاني وأمر ببناء قواعد عسكرية في الجابية بسوريا والكوفة والبصرة في العراق. كانت الجيوش العربية الفاتحة تحتشد في هذه المعسكرات، وتشغل نفسها فحسب بالقتال والحكم كجنس متسيد أرقى من أفراد الشعوب المقهورة (*).

أدى اتجاه الخليفة إلى الحل الثاني إلى مواجهة مشكلة جديدة، ونظرًا لأن الخليفة كان حريصًا في مواقفه فلم يرد أن يتم فتح أي بلاد جديدة حتى يتم على الأقل تثبيت الحكم في البلاد التي تم فتحها قبل ذلك. ومن هنا تم توزيع غنائم الفتوحات على القوات بعد كل معركة، فيما عدا الخمس فقد تم إرساله إلى بيت المال في المدينة. وكان وقف الفتوحات معناه نهاية الحصول على الغنائم. وإذا لم يسمح للجنود بالمشاركة في التجارة أو الزراعة فيجب دفع عطاء الجنود، وهي عملية تستلزم إحصاءً رسميًا لكل العرب، وهو عمل رهيب في مثل حال قوم لا يكادون لا يعرفون القراءة والكتابة.

وكان الحصول على المال اللازم لعطاء الجنود يتم عن طريق جمع ضريبة رأس على كل إنسان من البلاد المفتوحة. وإذا أصبح رجل من أهالي البلاد المفتوحة مسلمًا بملء إرادته يتم استثناؤه من ضريبة الرأس، ولكن في الحقيقة لم يتم ممارسة أي ضغط على الشعوب المهزومة للدخول في الإسلام.

كانت القوة الرومانية مستندة على السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط بحريًا، وبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية اتبعت الإمبراطورية البيزنطية

(*) (لم يكن العرب يعاملون شعوب البلاد المفتوحة كجنس متسيد عنهم – المترجم).


خريطة
غزو العرب لفارس
حماة
سوريا
حمص
العرب يسيطرون
سيطرة كاملة
عام ٦٣٧م
دمشق
الجابية
الديرة
القاعدة العسكرية
العربية في سوريا
نهر دجلة
نهر الفرات
غزو شمال
فارس عام ٦٤٢م
نهاوند
عام ٦٤٢م
جبال زاجروس
المدائن
عاصمة فارس
فتحت في ابريل عام ٦٣٨م
القاعدة العسكرية في الكوفة
شيدت عام ٦٣٩م
الكوفة
الحيرة
القادسية فبراير عام ٦٣٧م
منطقة مستنقعات
غزو شمال
فارس
خطوط التقدم العربية
0
50
100
ميل
سعد بن أبي وقاص
يناير عام ٦٣٧م
البصرة
القاعدة العسكرية
في البصرة شيدت عام ٦٣٦م
الخليج
العربي

الأساليب البحرية نفسها. وعلى الرغم من أن العرب قد فتحوا فلسطين وسوريا على البر، فقد استمر الأسطول البيزنطي يطوف على كل سواحل هذين البلدين. ولهذا الغرض كان يملك قواعد بحرية في الإسكندرية في مصر وقبرص.

في بداية ديسمبر عام ٦٣٩ م عبرت قوة من القبائل العربية الحدود المصرية في العريش وسارت في اتجاه الغرب عبر شبه جزيرة سيناء، وكان قائد هذه القوة عمرو بن العاص يقود قبل ذلك جيشًا في فلسطين. وكانت مصر في ذلك الوقت دولة غنية للغاية، وكانت المورد الرئيسي للقمح لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية. وكانت تضم مدنًا كثيرة قديمة وثرية محاطة بأسوار، وكان بها حامية بيزنطية قوية، وكان الأسطول الإمبراطوري يرسو في ميناء الإسكندرية. وكانت محاولة فتح بلد عظيمة جدًا مثل هذه بجيش مكون من ثلاثة آلاف وخمسمائة بدوي أشعث محاولة مجنونة. ولذلك كان الخليفة على أية حال يحتفظ بجيش مكون من اثنى عشر ألف رجل في المدينة فقام بإرساله تحت قيادة الزبير بن العوام لتعزيز جيش الفاتحين. وقاتل عمرو بن العاص بجيش مكون من خمسة عشر ألف رجل ضد جيش البيزنطيين في هليوبوليس، وكانت في ذلك الوقت ضاحية من ضواحي القاهرة وألحق به هزيمة ثقيلة.

كان قيرس البطريك الأرثوذكسي للإسكندرية وحاكم مصر يتبنى اتجاهًا انهزاميًا بالكلية، فعقد مع عمرو بن العاص اتفاقية تخضع مصر بموجبها للعرب (*)، وأرسلت هذه الاتفاقية لكي يصدق عليها الإمبراطور وبعد ذلك بوقت قصير في ١١فبراير عام ٦٤١ م مات الإمبراطور العجوز هيرقل. وانتهز قيرس الاضطراب الناشئ عن ذلك لكي يمضي قدمًا في سياسته الانهزامية، وفتح العرب أخيرًا مدينة الإسكندرية في سبتمبر عام ٦٤٢ م.

بعد احتلال مدينة المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية في أبريل عام ٦٣٨ م، منع الخليفة عمر الجيوش العربية في العراق من عبور الجبال إلى فارس. وقال إن وادي دجلة

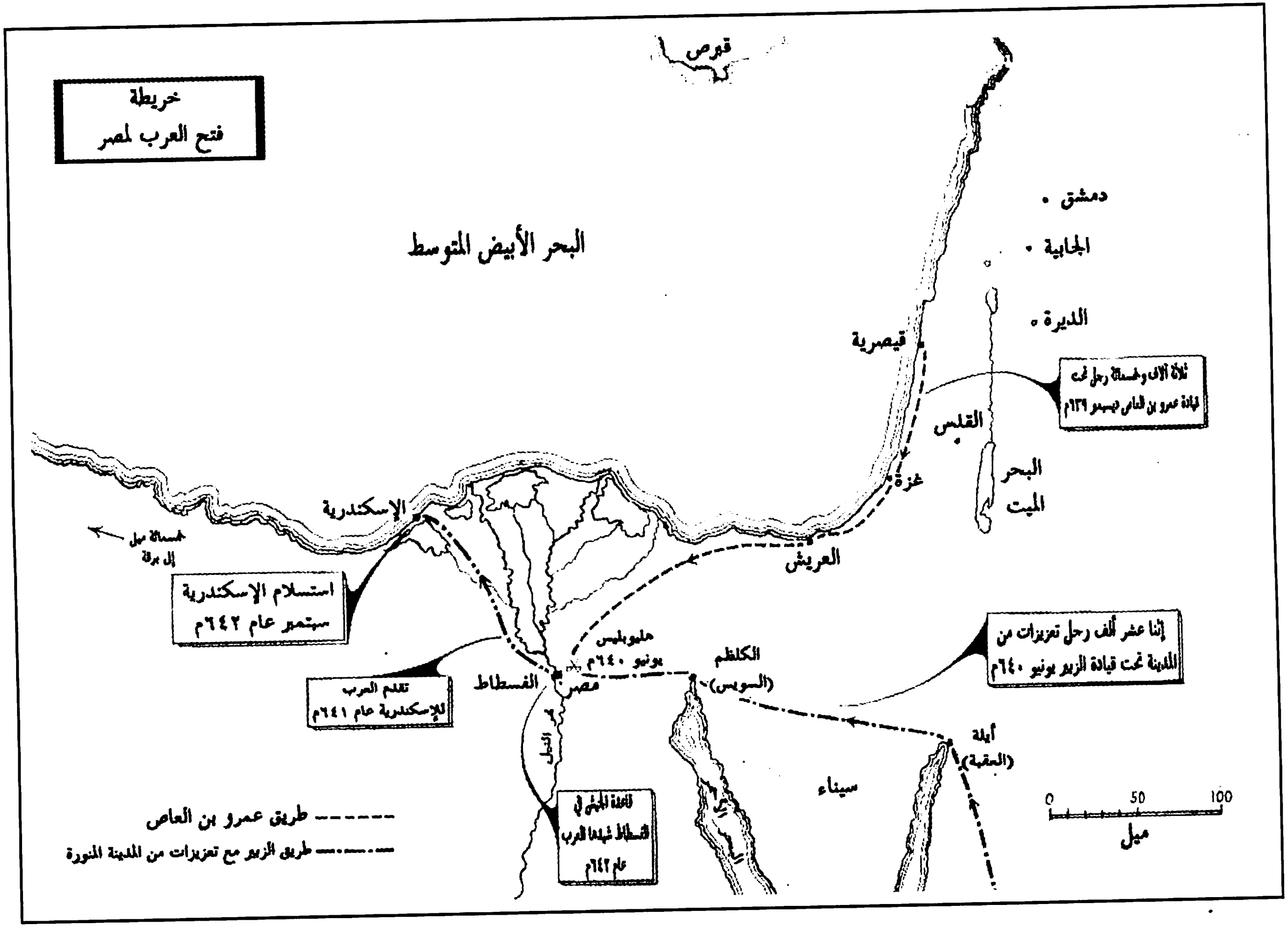
(*) (لم يتبن البطريك الأرثوذكسي للأسكندرية اتجاهًا انهزاميًا ولكنه أراد أن يحقن دماء الأقباط في ذلك الوقت بعد أن علم أنه لا قبل له بمقاومة العرب – المترجم).

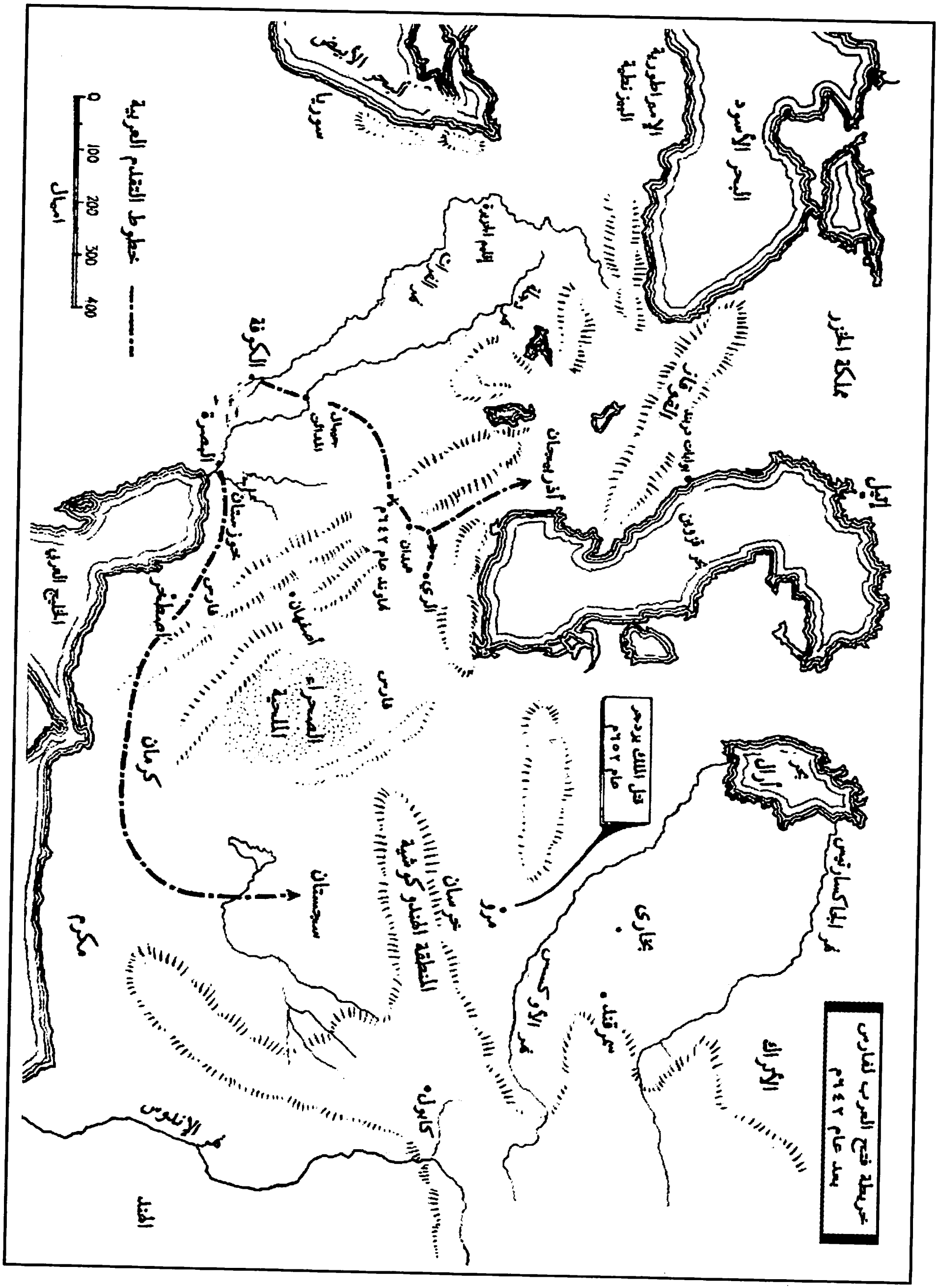
والفرات كافيان بالنسبة إلى العرب، وترك الحرية للفرس للاحتفاظ بالجبال التي في الشرق. وتلى ذلك هدنة لمدة ثلاثة أعوام كان الملك الفارسي الشاب يزدجرد فيها يشكل قوات عسكرية جديدة. ولعلم الجيش العربي هناك بهذا النشاط العسكري، فقد أرسل إلى الخليفة للسماح له بتدمير الجيش الفارسي الجديد قبل أن يغزو العراق. وفي عام ٦٤٢ م عبرت الجيوش العربية جبال زاجروس وهزمت جيش يزدجرد في معركة كبيرة في نهاوند.

لم يعد بعد ذلك لملك الملوك الفارسي أي جيش في المعركة ضد الجيوش العربية، ومن هنا تخلى الخليفة عمر بن الخطاب عن السياسة الحذرة التي كان يتبعها، وأمر الجيوش العربية بملاحقة الجيش الفارسي المنهزم في أي مكان يهرب إليه. وبعد ذلك بعام وصل العرب إلى شواطئ بحر قزوين، وتقدموا في الجنوب بثبات مستولين على أصفهان وفارس وكرمان وتقدموا نحو خراسان. وكان الملك يزدجرد يهرب من مكان إلى آخر أمام الجيوش العربية، حتى تم اغتياله في النهاية عام ٦٥٢ م في مرو بخراسان. ومرت ثمانية قرون قبل أن تستطيع إمبراطورية الفرس تنصيب ملكًا للمرة الثانية.

في الثالث من نوفمبر عام ٦٤٤ م اغتيل الخليفة عمر بن الخطاب من عبد فارسي في المدينة. ورشح وهو يموت خمسة زعماء مسلمين كلجنة الحل والعقد لاختيار الخليفة الذي يليه.

نحب أن نذكر هنا أنه قبل النبي صلى الله عليه وسلم بأجيال كثيرة كانت زعامة قريش متنازع عليها بين عشيرتين بني هاشم وبني أمية، وكان النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ينتمي إلى بني هاشم. وعندما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة كان يتلقى التأييد بصورة عامة من بني هاشم، بينما كانت المعارضة الرئيسية له تأتي من بني أمية تحت قيادة أبي سفيان بن حرب. وعندما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وأصبح الحاكم الفعلي للجزيرة العربية دخل بنو أمية في الإسلام وتولوا عددًا من الوظائف المهمة في الحكومة. وفي مجال الحماسة الدينية العامة تم نسيان الخصومات القديمة الضيقة بين العشيرتين.

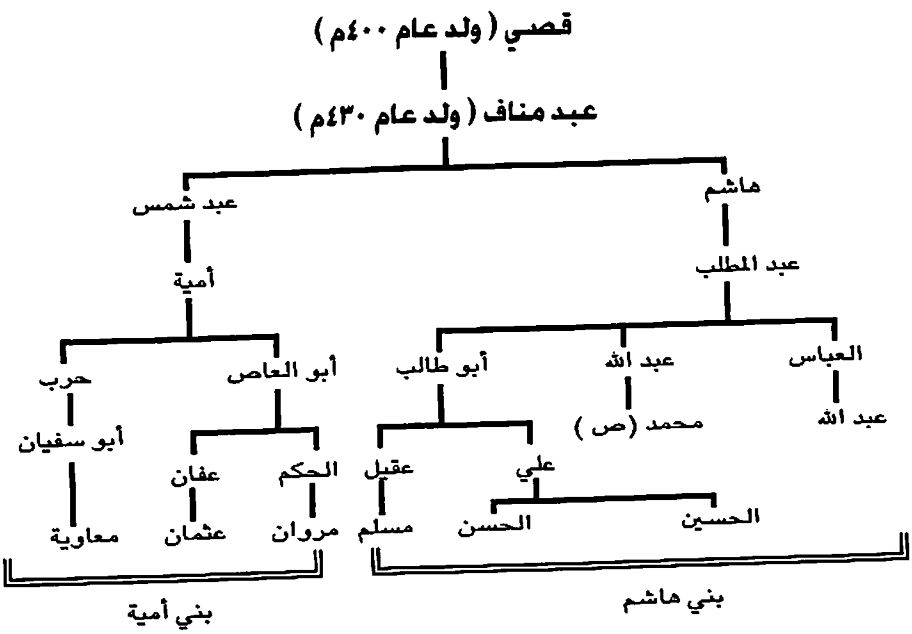

خريطة
فتح العرب لمصر
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
الجابية
الديرة
قيصرية
ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل تحت
قيادة عمرو بن العاص ديسمبر ٦٣٩م
القلس
البحر
الميت
غزة
العريش
الإسكندرية
خمسمائة ميل
إلى برقة
استسلام الإسكندرية
سبتمبر عام ٦٤٢م
هليوبليس
يونيو ٦٤٠م
الكلظم
(السويس)
إثنا عشر ألف رجل تعزيزات من
المدينة تحت قيادة الزبير يونيو ٦٤٠م
تقدم العرب
للإسكندرية عام ٦٤١م
الفسطاط
مصر
النيل
عام ٦٤٢م
أيلة
(العقبة)
سيناء
0
50
100
ميل
طريق عمرو بن العاص
طريق الزبير مع تعزيزات من المدينة المنورة


خريطة فتح العرب لفارس
بعد عام ٦٤٢م
مملكة الخزر
إتيل
البحر الأسود
الإمبراطورية
البيزنطية
القوقاز
بوابات دربند
بحر قزوين
أذربيجان
بحر
آرال
نهر الجاكسارتيس
الأتراك
بخارى
سمرقند
قتل الملك يزدجر
عام ٦٥٢م
نهر الأوكسس
مرو
خراسان
المنطقة الهندوكوشية
كابول
إقليم الجزيرة
نهر دجلة
نهر الفرات
البحر الأبيض
سوريا
الري
همدان
نهاوند عام ٦٤٢م
فارس
جبال المدائن
أصفهان
الصحراء
الملحية
سجستان
الكوفة
خوزستان
البصرة
فارس
اصطخر
كرمان
نهر الإندوس
الهند
خطوط التقدم العربية
0 100 200 300 400
اميال
الخليج العربي
مكرم

كان أبو بكر وعمر خليفتا الرسول (ص) يخصصان وقتهما تمامًا للدعوة، وكان الاثنان ينتميان إلى عشيرتين صغيرتين من قريش. وكان الرجال الخمسة المختارون من الخليفة عمر بن الخطاب لانتخاب خليفته كلهم بالطبع من قريش، ولكن لسوء الحظ كان اثنان منهم واحد من بني هاشم وواحد من بني أمية. وكان عثمان بن عفان الأموي واحدًا من أوائل المؤمنين بالرسول صلى الله عليه وسلم وتزوج بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة بعد الأخرى. وكان علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أصغر منه بكثير في العمر، وتربى تقريبًا في بيته كابن له لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعش له ولد. وتزوج واحدة من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبالتالي كان كل من علي وعثمان يملكان مواصفات كثيرة تؤهلهما للخلافة. فكلاهما كان من أوائل المؤمنين به وكلاهما تزوج من بناته. وبعد مداولات ساخنة وطويلة تم إعلان تولي عثمان أخيرًا الخلافة.

شجرة نسب قريش

* * *



أثناء اثنى عشر عامًا من خلافة عثمان (٦٤٤- ٦٥٦ م) استمرت الفتوحات العربية، ولكن بطريقة أقل حماسة مما كان أيام عمر بن الخطاب. وفي أفريقيا وصلت جيوش المسلمين إلى أبعد من طرابلس في شمال أفريقيا ولكن فشلت هذه الجيوش في تثبيت الحكم في البلاد المفتوحة، وكونت هذه الجيوش جبهة ثابتة في برقة. وفي الشمال وصلت جيوش المسلمين إلى حدود القوقاز المغطاة بالثلوج. وفي الشرق تم احتلال معظم مناطق فارس إلى حدود سمرقند وبخارى وإلى أبعد من نهر الأوكسس وإلى أعلى الحدود الهندكوشية والهندية، وحدود الهند القديمة. وفي الغرب حدثت تطورات مذهلة للجيوش العربية؛ ففي البحر أنشأ العرب أساطيل في مصر وفي سوريا استولوا بها على قبرص وهزموا الأسطول البيزنطي في سلسلة من المواجهات البحرية. وكما هو معروف من قبل كانت السيادة الرومانية وفيما بعد البيزنطية تعتمد على القوة البحرية في البحر الأبيض المتوسط. وكان فقدان السيطرة على البحر هو أثقل ضربة تلقاها البيزنطيون من العرب.

أثناء خلافة عثمان بن عفان استمر العرب في تحقيق الانتصارات، وبدأت الانشقاقات الداخلية تقسم الإمبراطورية الجديدة في معقلها. ونذكر أن الخليفة عمر قرر عدم السماح للفاتحين العرب بتملك الأراضي أو ممارسة التجارة في الأقاليم المفتوحة؛ ليبقوا جنسًا فاتحًا منفصلًا (*). وكان المجاهدون يعيشون على عطاءات مالية في مدن عسكرية مقامة لنفس الغرض في الجابية في سوريا، والكوفة، والبصرة في العراق، والفسطاط في مصر. ومع التباطؤ التدريجي للفتوحات بقي الجنود في معسكراتهم مسترخين لا يعملون. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمح باتخاذ السبايا من النساء زوجات أو جواري ملك يمين للمسلمين المنتصرين، والتي جعلتهم غنائم الحرب أغنياء. وكان للثراء الذي يؤدي إلى الاسترخاء أثره في أن جعل رجال القبائل الشجعان والفقراء متسلطين ومضطربين؛ مما أدى إلى اندماجهم في المكائد السياسية ومظاهر الفوضى. وعندما اشتكت حاميات كثيرة من قيادتها تعجل الخليفة الضعيف عثمان بعزل كبار القواد؛ لكي يحصل على تأييد

(*) (لم يكن ذلك هو السبب ولكن السبب هو خشية عمر من انشغال الفاتحين بالأمور الدنيوية عن الجهاد في سبيل الله وهو أسمى غاية يتبعها المؤمن – المترجم).

الجنود، وهذا أدى إلى زيادة روح الغطرسة والسخط بينهم. وبدأت روح الحماسة الدينية التي كانت القوة الدافعة للفتوحات الباكرة تفتر. وكانت الشكوى الرئيسية ضد عثمان هي وضع أقاربه من بني أمية في كل المناصب المهمة والمريحة (*).

في عام ٦٢٤ م وصل الخليفة العجوز إلى سن الثمانين. وكانت المعسكرات في الكوفة والبصرة والفسطاط تغلي من السخط. وكان الجنود في سوريا فحسب هم الذين يحملون الولاء للخليفة. وكانوا على درجة من النظام والانضباط جيدة. وكان معاوية بن أبي سفيان الذي كان الخصم اللدود للنبي صلى الله عليه وسلم، واليًا لهذا الإقليم، وكان الذي ولاه هو عمر بن الخطاب قبل ذلك بأربعة عشر عامًا. وأثناء تلك المدة الطويلة من الولاية نجح في اكتساب الولاء المتحمس للشعب والجيش له، ولم يكن يميل إلى سياسة عمر في عزل الحاميات العربية عن السكان الأصليين للبلاد المفتوحة وأقام عاصمته في دمشق، وليس في منطقة المعسكر الحربي في الجابية، وبناءً على ذلك استكمل حكمه للإقليم والسكان والجيش في سوريا.

في أوائل عام ٦٥٦ م وصلت روح الثورة إلى قمتها في معسكرات الفسطاط، والكوفة، والبصرة، وزحفت كتائب من كل من الثلاث حاميات إلى المدينة المنورة. وعند دخولها إلى المدينة تجمعت في المسجد الكبير في وسط المدينة، وحاصرت هذه الكتائب عثمان في منزله. وكان أربعة أعضاء من لجنة الحل والعقد التي اختارت الخليفة موجودين في ذلك الوقت في المدينة. وكان علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي تربى في حجره صلى الله عليه وسلم حقيقة، هو الأكثر تأثيرًا منهم. ولكن بينما كان الثلاثة الآخرون أسخياء في نصحهم للخليفة العجوز فإنهم لم يجروا أي محاولة لإنقاذه من المتآمرين.

بمجرد ما سمع معاوية في دمشق أن عثمان محاصر في منزله أرسل نجدة حربية لإنقاذه. وعندما كانت هذه القوة على بعد مائة وخمسين ميلًا من المدينة قرر المتآمرون وضع نهاية لهذا الأمر فاقتحموا المنزل وقتلوا الخليفة بسيوفهم، بينما كان جالسًا في خشوع يقرأ القرآن.

(*) (كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رجلًا بارًا بأقاربه ولكن هذا أدى إلى كثير من المشاكل له مما أدى إلى قتله شهيدًا دون وجه حق – المترجم)

غيّر قتل عثمان كل شيء في العالم الإسلامي؛ فلقد عاش العرب خمسة وعشرين عامًا في حلم حماسي بأن الله اختارهم لفتح العالم كله وإخضاعه للشريعة الإلهية (*)، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وسائل هداية لتحقيق إرادة الله، وكانوا متحمسين وزاهدين في الثروة والراحة والدعة. ولكن مع قتل عثمان اندثر الحلم الديني، وعادت أيام الطمع والنزاع التي كانت قبل الاسلام مرة ثانية.

بعد ستة أيام من وفاة عثمان بويع علي بن أبي طالب خليفة في المدينة. ولقد نقد كل إنسان عثمان أثناء حياته ولكن الآن تم قتله بصورة عنيفة، فخمدت مظاهر النقد هذه ولكن كان في كل مكان من يطالب بعقاب قتلة عثمان، وكانت الشكوى الرئيسية ضده أن كل حكام الولايات كانوا من أقاربه المقربين من بني أمية. ولكن عليًا بن أبي طالب كان من بني هاشم. ولا يمكن اتهامه بمحاباة الأقارب إذا ترك ولاة عثمان في وظائفهم على الأقل لفترة. ولكن بدلًا من أن يفعل ذلك خلعهم جميعًا على الفور، فرفض معاوية أن ينخلع من وظيفته. ووقفت ولاية سوريا بثبات خلفه وكان جيشه على درجة من التنظيم ومواليًا له. ولم يكن علي قادرًا على خلعه.

كان معاوية من بني أمية وكان علي من بني هاشم. وكان بين الخليفة الجديد وواليه المتمرد العداء القديم بين العشيرتين وكان على وشك أن يتجدد. ولكن معاوية في أول الأمر وعلى أية حال لم يعلن تمرده ولكنه طالب بمعاقبة قتلة عثمان في الحقيقة. وتغاضى علي عن الانتقام ممن سفك دم الخليفة السابق مما أدى إلى اتهامه بالتواطؤ مع قتلة عثمان (**)، واختفى عضوان آخران من لجنة الحل والعقد التي اختارت عثمان، وهما الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله من المدينة وحشدا ثلاثة

(*)(لم يكن حلمًا ولكن كان حقيقة فلقد ضحى المجاهدون الأولون بأرواحهم لهداية الشعوب المفتوحة بلادهم إلى الإسلام – المترجم)

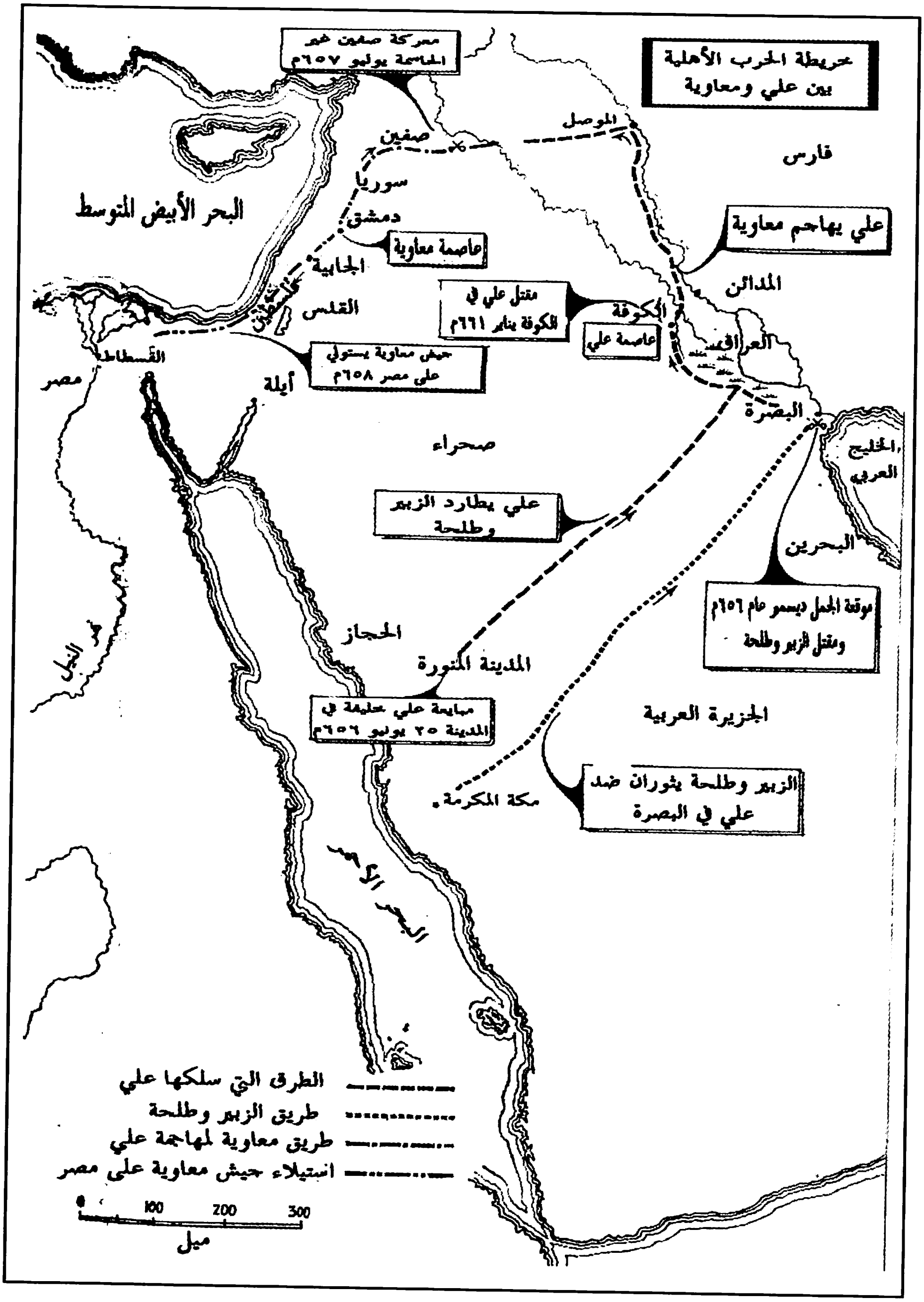
(* *) (كان علي يريد أن يحاكم قتلة عثمان ولكن لم يكن معروفًا بدقة من قتله بالإضافة إلى أنه عندما نادى في جيشه من قتل عثمان؟ رد الجيش كله بأن جميع من فيه قتلة عثمان فأراد أن يؤجل ذلك لفترة حتى يتبين له على الحقيقة من فعل ذلك وحتى المؤرخين أنفسهم قد اختلفوا فيمن قام بقتل عثمان، وأدى إلى قتله شهيدًا دون وجه حق – المترجم)

آلاف رجل في مكة وساروا عبر الصحراء العربية إلى البصرة حيث رفعوا شعار الثورة. وكانت شكواهم من أن عليًا رفض أن يعاقب قتلة عثمان، ولكن الطرفين كليهما فعليًا كان يشغلهما طموحهما الخاص. وبعد أن لقي علي بعض الصعوبات في حشد القوات اللازمة تبعهم ونشبت معركة معروفة في التاريخ العربي بموقعة الجمل خارج البصرة في ديسمبر عام ٦٥٦ م، وهزم الثوار وقتل طلحة والزبير.

سار علي إلى الكوفة بعد مقتل طلحة والزبير؛ حيث أنشأ بها مقر قيادته، وطلب علي من معاوية مرة ثانية أن يواليه ويعترف به خليفة للمسلمين فأعلن معاوية والي دمشق استعداده لذلك بمجرد أن يتم معاقبة قتلة عثمان. وبعد أن تبين لعلي أن تلك المفاوضات بينهما لا تؤتي ثمارها سار إلى سوريا بخمسين ألف رجل، وواجه معاوية في موقعة صفين على رأس جيش بنفس القوة والعتاد، وفي منتصف يوليو ٦٥٧ م، فشلت كل المحاولات بينهما لإيجاد حل وسط، واشتبك الجيشان في المعركة.

استمر القتال لمدة يومين دون الوصول إلى نتيجة محددة، ولكن في اليوم الثالث أصبح النصر في قبضة علي. ثم استفاد معاوية من خدعة ابتدعها. فقد أوعز لكتيبة من الفرسان أن تخرج من الجيش الأموي حاملين نسخًا من المصاحف على الرماح هاتفين « لنحكِّم كلام الله بيننا»، وفهم جيش علي مباشرة هذا الهتاف وأعلن الجنود في جيش علي أنهم لن يقاتلوا بعد ذلك. وفي لحظة النصر، كان علي مضطرًا إلى أن يوقع على هدنة، واتفق على ميعاد مع المحكمين لتسوية هذا النزاع بتحكيم القرآن. وحدث التحكيم بعد ذلك بستة شهور ولكن لم يتم الوصول إلى نتيجة محددة.

بدأت قضية علي تفقد أهميتها. وبدأ أهل الكوفة المتقلبون في الملل يؤيدونه ورفضوا القتال تحت قيادته. وفي عام ٦٥٨ م، أرسل معاوية جيشًا واستولى على مصر. وفى الوقت نفسه أعلن نفسه خليفة في القدس. وأصبحت الإمبراطورية العربية الجديدة التى كانت منذ خمسة أو ستة أعوام قبل ذلك في طريقها إلى غزو العالم الآن مقسمة إلى دولتين، دولة تحكم سوريا وفلسطين ومصر بزعامة معاوية من مقر قيادته في دمشق، بينما يحكم علي العراق وفارس من مقر قيادته في الكوفة.


خريطة الحرب الأهلية
بين علي ومعاوية
معركة صفين غير الحاسمة يوليو ٦٥٧م
صفين
الموصل
فارس
سوريا
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
عاصمة معاوية
علي يهاجم معاوية
الجابية
المدائن
مقتل علي في الكوفة يناير ٦٦١م
الكوفة
القدس
عاصمة علي
العراق
جيش معاوية يستولي على مصر ٦٥٨م
الفسطاط
مصر
أيلة
البصرة
صحراء
الخليج العربي
علي يطارد الزبير وطلحة
البحرين
موقعة الجمل ديسمبر عام ٦٥٦م ومقتل الزبير وطلحة
الحجاز
المدينة المنورة
نهر النيل
مبايعة علي خليفة في المدينة ٢٥ يوليو ٦٥٦م
الجزيرة العربية
الزبير وطلحة يثوران ضد علي في البصرة
مكة المكرمة
البحر الأحمر
الطرق التي سلكها علي
طريق الزبير وطلحة
طريق معاوية لمهاجمة علي
استيلاء جيش معاوية على مصر
0 100 200 300
ميل

كان كثير من الجنود المسلمين المتحمسين الذين أمضوا حياتهم يقاتلون الكفار، قد خاب أملهم تمامًا في هذا الصدام في طموحات الدولة بين الأميرين المتخاصمين علي ومعاوية. وكانوا يتبنون شعار «لا حكم إلا لله» فانشق هؤلاء الجنود عن جيش علي وقسموا أنفسهم إلى مجتمعات منفصلة تطورت إلى حكومات دينية وأطلق عليهم المسلمون لقب الخوارج، وتسبب هؤلاء القوم في مشاكل مستمرة لسنوات كثيرة. وقرر ثلاثة من هؤلاء الخوارج أن الطريقة الوحيدة لإنهاء هذا النزاع في الإسلام هي اغتيال أبطاله الرئيسيين على كلا الجانبين فتطوع واحد منهم لاغتيال حاكم مصر (عمرو بن العاص)، والثاني وافق على قتل معاوية والثالث وافق على اغتيال علي في الكوفة. وارتكبت الثلاث جرائم في اليوم نفسه ٢٠ يناير عام ٦٦١ م. وتبادل الرجال الثلاثة المتعصبون القسم باليمين وتسميم سيوفهم وانفصلوا لينطلق كل واحد إلى مهمته. وهرب حاكم مصر (عمرو بن العاص) ناجيًا لأن الذي أراد اغتياله قتل بدلًا منه رجلًا آخر. وفي دمشق هاجم بوراق التميمي معاوية، ولكنه جرح بدلًا من أن يقتل. أما في الكوفة فقد خرج عبد الرحمن بن ملجم للقاء علي عند دخوله المسجد للصلاة وشق رأسه بضربة واحدة من سيفه.

كان علي شابًا قد تزوج فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنجب منها ولدين الحسن والحسين. وتوفيت فاطمة بسرعة بعد وفاة والدها وبقي ولداها حفيدا النبي صلى الله عليه وسلم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم في حياته يحب حفيديه ولا يمل من اللعب معهما، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بتسعة وعشرين عامًا كان الحسن قد بلغ عمره سبعة وثلاثين عامًا. وبايعه الجنود في الكوفة مباشرة خليفة.

على الرغم من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استخدم العنف والحرب لنشر دعوته(*) فلم يكن محبًا لسفك الدماء بصفة أساسية. ولقد كان تأثيره محدودًا على وحشية

(*) (لم يستخدم النبي صلى الله عليه وسلم العنف والحرب ولم يكن بادئًا بالحرب بل كانت كل حروبه صلى الله عليه وسلم دفاعية محضة واستخدم الصلح والتسامح وهو في أوج نصره على قريش – المترجم)

أصحابه (*)، وكان علي بن أبي طالب ابن عمه الذي تربى في حجره حكيمًا ونقيًا ومحبًا للخير والسلام، ولكنه كان ينقصه القدرة على اتخاذ القرار السريع والقيادة الحصيفة. وورث الحسن الصفات البشرية الحسنة لجده محمد صلى الله عليه وسلم دون شجاعته الأخلاقية وإخلاصه لدعوته. وعندما واجه قضية الحرب الأهلية ضد معاوية قرر أن يتنازل عن الحكم وأن يعود إلى حياة العزلة في المدينة مع أخيه الحسين وهناك توفي بعد ثماني سنوات.

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ٦٣٢ م، وكان الحاكم الفعلي للجزيرة العربية، وبعد وفاته بخمسة وعشرين عامًا اندفع العرب من موطنهم الصحراوي لتدمير أعظم إمبراطوريتين عسكريتين في زمانهم في وقت واحد: الإمبراطورية الفارسية وتلك البيزنطية واقتطعوا من الإمبراطورية البيزنطية حوالي ثلثي أراضيها، بينما محقوا مملكة فارس.

العربي البدوي بطبيعته مجبول على الحروب والإغارة على الأعداء، بينما مرسته قسوة الحياة في الصحراء على التعب والحرمان. ولكن قبل الإسلام استنفدت قيمه العسكرية في حروب داخلية غير منتهية بين القبائل بعضها ببعض. ولم يوحد رسول الله صلى الله عليه وسلم عرب الجزيرة فحسب ولكنْ أيضًا أشعل حماسهم الديني والعاطفي مما جعلهم قوة لا تقهر، وهذه الروح الحماسية تشربها أصحابه منه مباشرة. وبعد وفاته بثلاثين عامًا لم يبق إلا القليل من الصحابة الذين عرفوه شخصيًا. وفترت الحماسة الأصلية في الجيل الثاني من الصحابة؛ فلقد قدمت عوامل مثل التمتع بالثروات الكبيرة والانغماس في الترف والنساءْ والجواري مجالاً دنيويًا لذلك. وعادت النزاعات القبلية للحياة من جديد وعادت حياة الجاهلية بما فيها من قتل ونهب.

بعيدًا عن هذا الفتور العام للحماس الديني، واجهت الإمبراطورية الجديدة عددًا من المشاكل الخاصة منها، أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يترك أي تعاليم بخصوص من يخلفه. وقد بويع أبو بكر خليفته عن طريق مبايعة عدد من المسلمين كانوا موجودين في تلك

(*) (كان تأثير الرسول صلى الله عليه وسلم قويًا في ذلك بدليل أنه نهر أحد أصحابه في أن يقاتل في الشهر الحرام وتبرأ من فعل خالد بن الوليد عندما قتل بعض المشركين دون أن يتأكد من إسلامهم – المترجم).

اللحظة الحرجة في المدينة. ورشح أبو بكر وهو على فراش الموت عمر بن الخطاب. وعندما قتل عمر نجح قبل وفاته في ترشيح عدد من الصحابة أعضاء في لجنة الحل والعقد لكي يختاروا خليفته. أما المرشحون فقد اختاروا عثمان دون مناقشة كبيرة وحادة استثناءً على علي وهكذا من بين الخلفاء الثلاثة لم يتم مبايعة اثنين بالطريقة نفسها.

أدى اغتيال علي إلى وقوع الإمبراطورية بأكملها تحت سيطرة معاوية الذي نجح في ذلك بالحيلة أكثر منها بالطرق المشروعة. وكانت أكبر حادثة أدت إلى اختيار الخليفة هي مبايعة أهل المدينة. وتم اختيار أبي بكر وعلي بالطريقة نفسها، ولكن نصف الإمبراطورية بالتالي لم يبايع عليًا. وعلى أية حال فقد نقل معاوية العاصمة إلى دمشق وأصبحت المدينة المنورة بعد ذلك مدينة إقليمية صرفة، ونتج عن ذلك أن مبايعة أهل المدينة لم تعد إلا وسيلة عملية من وسائل اختيار الخليفة. وهذه المشكلة في تدبير طريقة سليمة لاختيار الخليفة كانت تزعج الإمبراطورية العربية على مدار وجودها كله.

المشكلة الثانية التي واجهت العرب في عام ٦٦١ م هي الجنود الذين حشدهم عمر في معسكرات كبيرة وكانوا منعزلين عن السكان المدنيين. وتم التغلب على هذه المشكلة بصفة نهائية عن طريق التخلي عن سياسة عمر والسماح للجنود بممارسة التجارة وتملك الأراضي والاختلاط بشعوب البلاد المفتوحة. وهذا التطور كان بلا شك قد تحسن في الموقف الذي كان فيه الجنود المتعجرفون (*) يرهبون الإمبراطورية أو يشتبكون في حروب أهلية كل واحد ضد الآخر، ولكن أدى هذا من ناحية أخرى إلى عيوب كان عمر قد تنبأ بها عندما قرر أن يجعل العرب منفصلين عن الشعوب المفتوحة بلادها.

تكاد تكون الفتوحات العربية الأولى الباهرة قد قام بها سكان الجزيرة العربية فحسب وهؤلاء ارتبطوا بصلة مصاهرة مع سكان مناطق الفرات وشرق الأردن التي تسرب إليها

(*) (لم يكن الجنود من الصحابة متعجرفين ولكنهم كانوا في حاجة إلى من يرعاهم كما كان يفعل أبو بكر وعمر وافتقدوا ذلك عندما حدثت الحروب الأهلية بين علي ومعاوية – المترجم).

عرب الجزيرة العربية لقرون كثيرة. ولكن لم يرتبط عرب الجزيرة العربية بصلة مصاهرة مع سكان مصر ومناطق فلسطين الساحلية ولبنان. وكانت صفات العرب الخلقية لا يتفق بعضها مع بعض؛ فسكان وسط الجزيرة العربية كانوا شجعانًا محاربين وعلى قدر من الصراحة والتلقائية والبساطة، بينما كان أهالي المناطق الساحلية لشرق البحر الأبيض على العكس أذكياء مهذبين ومنظمين وعلى قدر من اللطف مع قليل من الميل إلى الحياة العسكرية. وأدى الاندماج والمصاهرة بين الاثنين إلى فقدان القيم العسكرية المتميزة لعرب وسط الجزيرة الذين كان عددهم قليلًا بالنسبة إلى سكان البلاد المفتوحة.

كانت المشكلة الثالثة التي تواجه الإمبراطورية العربية الجديدة عام ٦٦١ م هي ضعف الحماسة العسكرية؛ فقد كانت الفتوحات الباهرة التي تمت في الخمس والعشرين سنة التي تلت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تتم عن طريق الحماسة الدينية الكبيرة والإيمان البسيط بأن هؤلاء الذين قتلوا في الحروب ضد الكفار سيدخلهم الله الجنة مباشرة. وترجع هذه الحماسة الدينية الكبيرة بكاملها إلى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه. وبعد وفاته بثلاثين عامًا نشأ جيل جديد، كان وعيه الديني في المرتبة الثانية. وعلاوة على ذلك بينما كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يشقون طريقهم إلى النصر من خلال الأخطار العديدة التي واجهوها، كان الجيل الذي تلى ذلك يعيش في ثروة وترف. وكان الاختلاط مع شعوب الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية المتحضرتين له تأثير كبير في النظر إلى الدنيا أكثر، وهو الذي كان الخليفة عمر يخافه عندما أصدر الأمر بفصل الجنس العربي عن مصاهرة الشعوب الأخرى.

بتلك الطريقة يمكن لنا فصل الفترة الزمنية التي نتعامل معها إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى مرحلة الحماس الديني والفتوحات الباهرة، وهي تمتد من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عام ٦٣٢ م ولمدة خمسة وعشرين عامًا حتى عام ٦٥٦ م عندما اغتيل عثمان بن عفان. ثم مرحلة الحروب الأهلية، والتي أسهمت في التحول من الحماسة الدينية إلى نظام الدولة المدنية العادية، وأخيرًا في المرحلة الثالثة أصبحت الإمبراطورية العربية قوة عظمى عالمية مماثلة للإمبراطوريتين الفارسية والرومانية قبلها، أو الإمبراطورية التركية أو الإسبانية أو البريطانية التي أعقبت ضعفها وانهيارها.

تواريخ بارزة

- ٦٢٢ م هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.
- ٦٣٠ م فتح مكة.
- ٦٣٢ م وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.
- ٦٣٣ م عام الردة.
- ٦٣٦ م معركة اليرموك والفتح الأخير لسوريا.
- ٦٤٢ م معركة نهاوند والهزيمة النهائية للفرس.
- ٦٤٢ م احتلال الإسكندرية والفتح الأخير لمصر.
- ٦٥٦ م اغتيال الخليفة عثمان بن عفان.
- ٦٥٦ — ٦٦١ م الحرب الأهلية بين علي ومعاوية.
- ٦٦١ م اغتيال علي ومعاوية هو الخليفة الوحيد.

الشخصيات

- النبي صلى الله عليه وسلم
- الخلفاء الراشدون:

٦٣٢-٦٣٤ أبو بكر.

٦٣٤-٦٤٤ عمر بن الخطاب

٦٤٤-٦٥٦ عثمان بن عفان

٦٥٦-٦٦١ علي بن أبي طالب

- معاوية بن أبي سفيان أول خليفة بعد ذلك من بني أمية.
- أبو سفيان زعيم عشيرة بني أمية وألد خصم للنبي صلى الله عليه وسلم.
- يزدجرد الثالث آخر ملك ساساني لفارس.
- هيرقل الإمبراطور البيزنطي.

الفصل الثاني

مأساة كربلاء

في عصر بعيد ومناخ مختلف أثارت مأساة قتل الحسين عاطفة القراء عديمي المشاعر.

(جيبون – ضعف وسقوط الإمبراطورية الرومانية)

سقط المدافعون الواحد تلو الآخر حتى لم يبق إلا حفيد النبي صلى الله عليه وسلم مغشيًا عليه تنزف دماؤه وسقط سريعًا على الأرض واندفع القتلة نحو البطل المقتول.

(أميرعلي – تاريخ موجز للمسلمين)

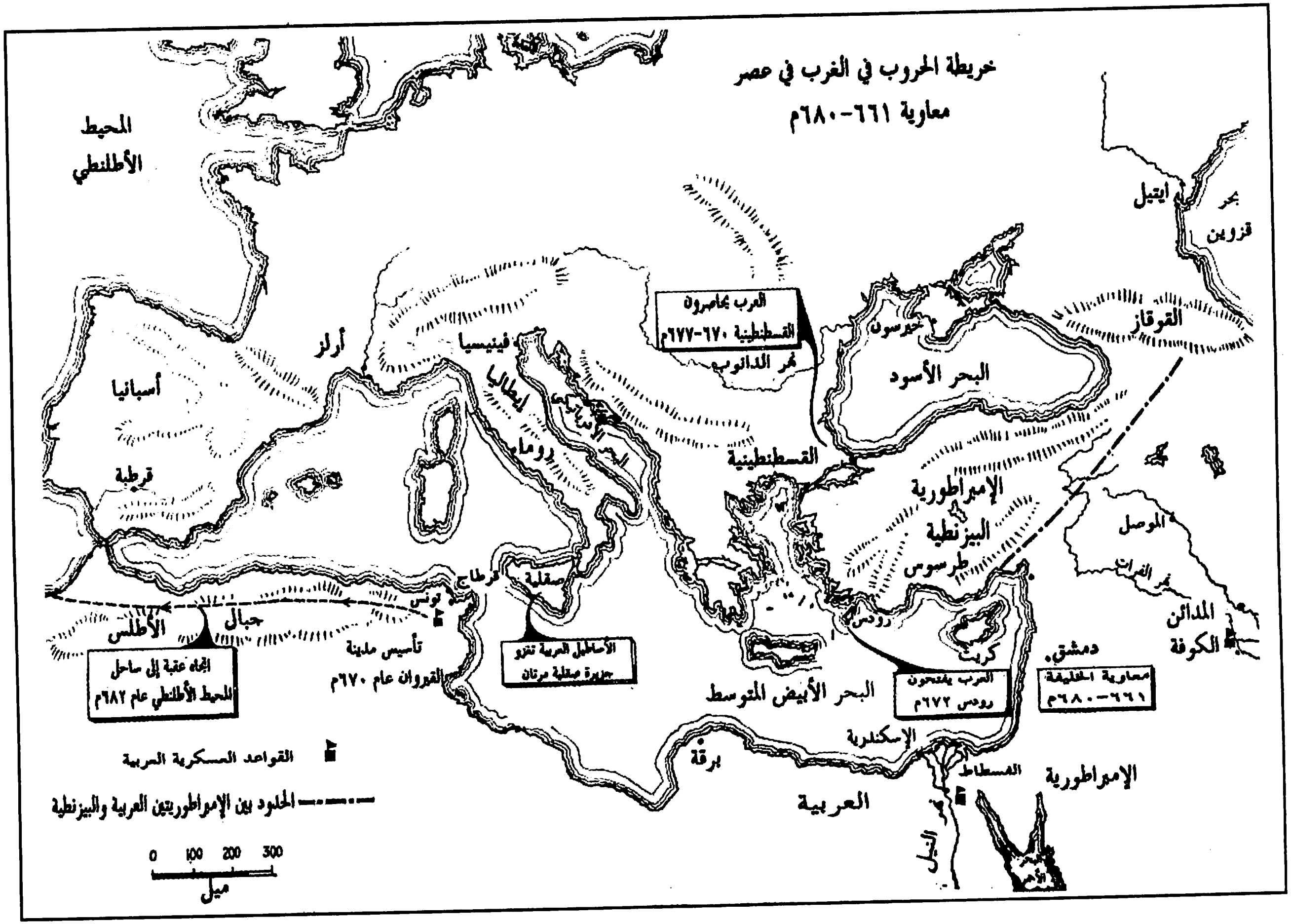
«إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم» (آل عمران ٢١).

أدى اغتيال علي بن أبي طالب وما أعقبه من تنازل ابنه الأكبر الحسن عن الحكم إلى زوال أي معارضة لحكم معاوية. ولم يكن عند بني هاشم أي منافس آخر صالح لخلافة المسلمين، وتبوأ بنو أمية سلطة لا ينازعهم فيها أحد من عاصمتهم في دمشق. وفي المدينة كانت تقاليد الحماسة الدينية والإخلاص لذكر النبي صلى الله عليه وسلم ما زالت متأصلة ولكن بدون قوة عسكرية لتدعيم المطالبة بالخلافة. ولم يخل الأمر من السخرية ؛ لأن بني أمية تحت زعامة أبي سفيان كانوا ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام. وكانت عوامل مثل الحماسة الدينية للمسلمين هي التي أدت إلى الفتوحات الإسلامية(*) ولكن الآن أصبح الأعداء السابقون للدين الإسلامي هم حكام تلك الإمبراطورية.

(*) (لم تكن الحماسة الدينية فقط هي سبب الفتوحات ولكن الإيمان بالجهاد في سبيل الله هو الذي يؤدي إما إلى النصر أو الهزيمة والشهادة في سبيل الله – المترجم)

لم يكد معاوية يوطد مركزه في الخلافة حتى استؤنف النشاط العسكري. ففي شمال أفريقيا تقدم العرب بقيادة عقبة بن نافع في اتجاه الغرب حتى تونس الحديثة، وفي عام ٦٧٠ م أنشئوا قاعدة عسكرية كبيرة في القيروان تماثل في تخطيطها حدود الفسطاط والكوفة والبصرة. أما في البحر فقد كان هناك نشاط عسكري أكبر لأن معاوية استوعب فكرة الاستيلاء على بيزنطة ذاتها، وبذلك يتم القضاء على الإمبراطورية البيزنطية في النهاية كما تم القضاء على مملكة الفرس. وفي عام ٦٧٠ م أبحر أسطول عربي خلال مضيق الدردنيل دون مقاومة وحاصر مدينة القسطنطينية ذاتها. وفي عام ٦٧٢ م استولى أسطول عربي على جزيرة رودس، وكانت هذه الجزيرة بلا شك قاعدة متقدمة للحروب ضد بيزنطة. وعلى مسافة أبعد غربًا أغارت الأساطيل العربية مرتين على جزيرة صقلية. وبعد حصار دام سبع سنوات تخلى العرب على أية حال عام ٦٧٧ م عن هجماتهم غير المثمرة على أسوار بيزنطة.

في الشرق كان المسلمون في خلافة عثمان بن عفان قد حملوا رايات النصر عبر الحدود الهندوكوشية واستولوا على كابول. وأثناء فترة الخمس سنوات من الحرب الأهلية بين معاوية وعلي ثارت كابول بنجاح على الحكم العربي، وفقدت عدة قلاع حدودية عديدة. وأثناء حكم معاوية تم تدعيم المواقع الحدودية في الشرق بصورة كاملة وكان هذا نتيجة عبقرية رجل محنك هو زياد بن أبيه. وكان زياد بن جارية تسمى سمية؛ جارية رديئة السمعة ومخلطة من مكة. وكان أبوه غير معروف، وكان يطلق عليه عمومًا زياد بن أبيه. وعندما تعلم القراءة والكتابة في الصغر، وهو إنجاز نادرًا ما يحدث في ذلك العصر في جزيرة العرب، ذهب إلى جيش البصرة في عصر الفتوحات كاتبًا متحملًا المشاق لكي يجيد في الجيش الذي يغزو فارس. وبقدرته واجتهاده شق طريقه إلى القمة وعينه علي واليًا على جنوب فارس، وكانت عاصمته مدينة فارس القديمة بيرسيبوليس التي كان العرب يسمونها إصطخر.


خريطة الحروب في الغرب في عصر
معاوية ٦٦١-٦٨٠م
المحيط
الأطلنطي
أسبانيا
قرطبة
أرلز
فينيسيا
إيطاليا
روما
صقلية
قرطاج
تونس
جبال
الأطلس
تأسيس مدينة
القيروان عام ٦٧٠م
اتجاه عقبة إلى ساحل
المحيط الأطلنطي عام ٦٨٢م
الأساطيل العربية تغزو
جزيرة صقلية مرتان
العرب يحاصرون
القسطنطينية ٦٧٠-٦٧٧م
نهر الدانوب
القسطنطينية
البحر الأسود
خرسون
القوقاز
إيتيل
بحر
قزوين
الإمبراطورية
البيزنطية
طرسوس
الموصل
نهر الفرات
المدائن
الكوفة
دمشق
معاوية الخليفة
٦٦١-٦٨٠م
رودس
كريت
العرب يفتحون
رودس ٦٧٢م
البحر الأبيض المتوسط
الإسكندرية
برقة
الفسطاط
الإمبراطورية
العربية
نهر النيل
البحر
الأحمر
القواعد العسكرية العربية
الحدود بين الإمبراطوريتين العربية والبيزنطية
0 100 200 300
ميل

بعد قتل علي كسب معاوية زيادًا إلى صفوف بني أمية عن طريق اختراع متقن وهو الاعتراف به كأخ له، مدعيًا أن أبا سفيان والده العجوز عدو النبي صلى الله عليه وسلم اللدود كان يتردد على سمية الفاسقة، وأقر زياد بن أبي سفيان واليًا على جنوب فارس وسانده في منصبه. وبعد ذلك جعله حاكمًا للكوفة والبصرة وكل فارس وهي منطقة تعادل تقريبًا نصف الإمبراطورية. وكرجل يتمتع بصفات غير عادية حكم زياد العراق وفارس بقبضة من حديد. وتم استعادة النظام في الجيش، وشنت حملات عسكرية ناجحة على حدود الهند وتركمانستان وحافظ معاوية على القانون والنظام. وعلى الرغم من ارتقاء معاوية الخلافة دون معارضة فقد بدأ مؤيدو علي بن أبي طالب وبني هاشم في التأليب على سيطرة بني أمية على الحكم، ولكن كانت أنشطتهم تسير تحت الأرض بسبب الاضطهاد الذي واجهوه.

ومات زياد بن أبيه عام ٦٧٣ م، ولكن في عام ٦٧٦ م وُلّي ابنه عبيد الله بن زياد وعمره آنذاك ثمانية وعشرين عامًا واليًا على البصرة. وسنسمع الكثير عن هذا الشاب بعد قليل. عندما كبر معاوية في السن كان السؤال عمن سيخلفه يشغل اهتمامه مرة ثانية. وقرر الخليفة أن يعين ابنه يزيد كوارث للحكم. ولم يكن مبدأ توارث الحكم معترفًا به عند العرب، وكان يزيد علاوة على ذلك مرشحًا غير مناسب بمنتهى الوضوح، ورجلًا غير متدين وعابثًا يعيش حياته في مدينة دمشق في ترف وبذخ، وكان معظم سكان المدينة لا يزالون من المسيحيين.

وهكذا كانت خطة معاوية، فبقدر معين من الرشوة والمكائد نجح في تأمين الولاء ليزيد من كل أقاليم الإمبراطورية تقريبًا.

كان الاستثناء الرئيسي لذلك المدينة المنورة التي كانت عاصمة الإمبراطورية أثناء سنوات الفتوحات الكبرى، والتي كان أهلها يشعرون أنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في حد ذاتها، والتي كان الصحابة الباقون فيها على قيد الحياة يحتفظون بذكريات أيام المثالية والحماس الديني. وقرر معاوية أن يزور المدينة المنورة بنفسه ويحاول أن يكسب تأييدًا شعبيًا لتولية يزيد. وكللت جهوده في ذلك بقليل من النجاح.

جاءت المعارضة الرئيسية لترشيح يزيد من أبناء الخلفاء السابقين. وكان أبرزهم الحسين الابن الأكبر الباقي على قيد الحياة لعلي بن أبي طالب. وكان هو وأخوه الحسن عزيزين جدًا عند جدهم النبي صلى الله عليه وسلم. والآن في منتصف العمر كان الحسين شخصية ثرية ومتدينة بإخلاص، وكان أهل المدينة يحبونه ويحترمونه. وبعده يأتي أبناء الخليفتين عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر. وكانت وجهة نظرهما أنه إذا كانت الخلافة وراثية فهما أحق بالخلافة من يزيد العابث. وإذا كانت طريقة اختيار الخليفة تتم عن طريق اختيار الأصلح فليس ليزيد واحدة من هذه الصفات الضرورية. وكان ألد أعداء سياسة معاوية في تولية بنه يزيد عبد الله بن الزبير بن العوام الذي ثار أبوه ضد علي وقتل في موقعة الجمل خارج البصرة. وكان عبد الله بن الزبير شابًا ذا طاقة لا تهدأ وشخصية قيادية ذات شجاعة باسلة. وقد دعا الخليفة لمواجهته دون شروط ولا شيء يمكن أن يقنعه بتقديم الولاء ليزيد. وبايع أهل المدينة يزيدًا بموافقة معاوية، ولكنهم فشلوا في إقناع الحسين أو عبد الله بن الزبير بمبايعته. وتوفي معاوية عام ٦٨٠ م عند عودته إلى دمشق وكان عمره حين وفاته سبعة وسبعين عامًا. وحكم لمدة عشرين عامًا الإمبراطورية العربية الواسعة الأطراف، واستعاد بعد الاضطرابات الأهلية التي صاحبت مقتل عثمان وصعود علي للخلافة السلام الداخلي والنصر الخارجي. وأدى فشله في تأمين من يخلفه إلى انغماس العرب مرة ثانية في سفك الدماء والانقسام.

كان يزيد على علم بالمعارضة التي تقابله بوصفه خليفة من جانب أهل المدينة المنورة وبمجرد أن تولى الخلافة بعد أبيه في أبريل عام ٦٨٠ م بعث بأوامره إلى والي المدينة أن يدعو عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر إلى مبايعته. فبعث الوالي أولًا إلى الحسين حفيد النبي صلى الله عليه وسلم لكي يبايع يزيد. ولكن الحسين على أية حال ماطل في هذا الأمر وترك مقر الوالي دون مبايعة يزيد أو إظهار التحدي للخليفة. وبناءً على ذلك استدعى الوالي عبد الله بن الزبير الذي أجاب بأنه سيأتي لاحقًا ثم خرج من المدينة عندما هل الليل وركب جواده بسرعة إلى مكة. أما عبد الله بن عمر ابن الخليفة الثاني فقد رد على استدعاء الوالي له وبايع يزيدَ. وفي الليلة التالية هرب الحسين بنفسه من المدينة واتجه إلى مكة أيضًا. وهكذا هرب أخطر عدوين ليزيد من الوالي.

لضيق يزيد من هذا الوالي الأخرق فقد ولى رجلًا جديدًا، أقسم أن يجلد ويقبض على المعارضين لخلافة يزيد. وكان الأمر شديدًا على أهل المدينة ومكة أن يتذكروا الأيام الأخيرة للنبي صلى الله عليه وسلم في الخمس والعشرين سنة التي سبقت وتلت وفاته، سنوات الإخلاص القلبي والإيماني وتمجيد المجاهدين عند خروجهم للجهاد معتمدين فحسب على تحقيق النصر في سبيل الله أو سقوطهم شهداء في سبيله. والشهيد عند سقوطه في جبهة القتال يدخل جنة الفردوس على الفور وترحب به حوريات الجنة ذوات العيون السود المبتسمة الخالدات الجميلات الوافرات الشباب. ثم إن كل المسلمين إخوة ولا فضل لأحد على أحد إلا إذا حصل على مجد الشهادة في حماسته. والآن هبط كل هذا المجد إلى كفاح دنيء للحصول على السلطة والجاه الدنيوي. أما الحسين على أية حال فقد ظهر وهو محاط بلفحة قداسة بسبب أنه حفيد النبي صلى الله عليه وسلم وبسبب حياته المستقيمة، ولكن كان عبد الله بن الزبير خصمًا سياسيًا عنيدًا للخليفة يزيد.

في خضم هذه الأحداث وصلت الرسل إلى مكة من الكوفة تحمل الرسائل للحسين تدعوه إلى أن يأتي ويتولى القيادة في العراق. وكانت لغة هذه الرسائل فصيحة ولكن لم يكن هناك أدنى شك في أن ما فيها يتضمن الثورة على حكم يزيد في دمشق خصوصًا في ضوء حقيقة أن عليًا والد الحسين كان يتودد إلى الكوفيين بينما كان معاوية والد يزيد والي دمشق وبأسلوب آخر كان مضمون الرسالة يؤدي بكل احتمالاته إلى تفجير حرب أهلية.

كان الحسين مترددًا فقد أصبح بعيدًا عن السياسة منذ اغتيال والده من عشرين سنة مضت وكان يدور في ذهنه أنه يستحق منصب الخلافة أكثر من يزيد. فهو حفيد النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، وهو إنسان تقي ولطيف وعظيم بينما يزيد هو حفيد أبي سفيان ألد عدو للرسول صلى الله عليه وسلم. وفي تلك الأثناء بدأت الرسائل تتوافد على مكة من الكوفة ومن البصرة تحث على الحاجة إلى عمل سريع وتطلب المساعدة العسكرية. وكان الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير أخطر عدوين ليزيد، ولكن كانت هيبة الحسين هي الأعظم مطلقًا بسبب صلة قرابته بالرسول صلى الله عليه وسلم وبسبب شخصيته. وطالما كان الحسين

حيًا فلا أمل للوصول للخلافة بالنسبة لعبد الله بن الزبير. وعندما رأى تردد الحسين في الذهاب حثه على الذهاب بقوة، وكما يرى معظم المؤرخين العرب فإنه كان يأمل أن يتخلص من منافسه اللدود.

أما محبو الحسين في مكة، فقد حثوه بلا نقاش على ألا يذهب إلى الكوفة حيث رفض أهل الكوفة المتقلبون أن يقاتلوا مع والده علي بن أبي طالب في ظروف مشابهة. ولأن الاحترام الذي يكنه له المسلمون كان كبيرًا؛ فقد أشاروا عليه بأن أفضل شيء له هو أن يستمر في الصلاة في المسجد الحرام في مكة. وفي تلك الظروف لن يجرؤ أتباع الخليفة على المساس به بسوء. وأشار عبد الله بن عباس على الحسين بأن الكوفيين سيثورون ويطردون واليهم ثم ينطلقون إلى الثورة على الخليفة. وإذا ترك الحسين المدينة بينما والي الكوفة لا يزال في منصبه وجنوده يجوبون الشوارع، ويقوم عماله بجمع الضرائب فإن الكوفيين سيتخاذلون في النهاية ويخونون الحسين. وأضاف بن عباس بأن الحسين إذا كان لا يشعر بالأمان في مكة فعليه أن يبحث عن ملجأ في جبال اليمن بدلًا من أن يمرح في سهول العراق الواسعة. وهنا تتجسد في عبد الله بن عباس النصيحة الحكيمة والمخلصة، بينما حث عبد الله ابن الزبير الحسين على الذهاب أملًا في القضاء عليه.

في النهاية بعث الحسين بن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب وأمره أن يذهب إلى الكوفة لكي يتحقق من الموقف ويفيده عند الرجوع. فاستقبله الدعاة السريون لبني هاشم بحماس، ولم يكن بين أيدي مسلم بن عقيل أقل من اثني عشر ألف ناصر سري للحسين وابتهج مسلم لهذا التأييد الكبير، فكتب إلى الحسين بسرعة يلتمس منه المجيء إلى الكوفة مباشرة. وفي تلك الأثناء أسرع الوشاة إلى والي الكوفة لكي يحذروه مما يحدث. وعلى أية حال كان والي الكوفة من المدينة المنورة وليس من عشيرة بني أمية، فاتهمه أنصار يزيد بالضعف وحثوه على اتخاذ إجراء عنيف لإجهاض التحريض على العصيان، فرد عليهم بأن الضعف مفضل على عصيان الله، وكان يشعر باليقين مثل مسلمين كثيرين مخلصين بعدم القدرة على ممارسة العنف ضد أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وأحفاده. ولما رأى أنصار يزيد تردد الوالي بعثوا برسالة سريعة إلى دمشق.

لم يكن إلا رجلًا واحدًا قاسيًا ليتعامل مع العصيان في الكوفة، نصح به مستشارو يزيد وهو والي البصرة عبيد الله بن زياد بن أبيه. وهو مولى عجوز كان موضع ثقة معاوية. وتأييدًا لهذه المشورة بعث يزيد برسالة كتبها ظاهريًا معاوية سلفه يولي فيها عبيد الله بن زياد على الكوفة، وزعم فيها يزيد أن معاوية توفي قبل أن يوقع عليها. ولكي يؤكد هذه المزاعم وقع يزيد الرسالة. وعند تلقي أوامر الخليفة ترك عبيد الله بن زياد البصرة سرًا ووصل إلى الكوفة قبل أن يعي أي إنسان بخبر توليته.

في تلك الأثناء خرج الحسين بناءً على الخطاب الذي تلقاه من ابن عمه مسلم بن عقيل في أغسطس أو سبتمبر ٦٨٠ م؛ لكي يعبر الثمانمائة ميل من الصحراء التي تفصل مكة عن الكوفة. ولم يحاول أن يكوّن جيشًا أو يجند أنصاره المسلمين. وكان يصاحبه أسرته كلها ومعظمهم نساء أو أطفال وعدد من الخدم والأصحاب. وقال الفرزدق الشاعر: «إن قلوب الناس معك يا حسين ولكن أسيافهم مع بني أمية والنتيجة في أيدي الله».

لم يتوان عبيد الله بن زياد عند توقفه في الطريق إلى الكوفة في أن يقدم ثلاثة آلاف دينار لأحد الموالي المخلصين، معلمًا إياه أن يدخل الكوفة من الشمال للبحث عن أنصار الحسين ولكي ينبئهم بأنه مبعوث من أحباء الحسين في سوريا؛ لكي يساهموا بأموالهم في نصرته وخدع العجوز الثوار فقربوه إلى مجالسهم وقبلوا المبلغ المعروض. ولم يكد عبيد الله بن زياد يستقر في قلعة الوالي حتى أخبره المولى العجوز بتفاصيل المؤامرة وأسماء المتآمرين الرئيسيين. وبناءً على هذا الخبر أعطى عبيد الله أوامره بالقبض على صاحب المنزل الذي كان يتخفى فيه مسلم بن عقيل. وبعث عندئذ لوجهاء الكوفة يحذرهم بأن أيًا منهم سيكون مسئولًا بصفة شخصية عن أصحابه الذين يشتركون في أي مؤامرة على الخلافة.

بمجرد أن سمع مسلم بخبر القبض على صاحب المنزل الذي يتخفى فيه حتى أشاع مباشرة أن الوالي علم بالمؤامرة وأن وقت التنفيذ قد حل. وطلب من أنصاره وأنصار الحسين أن ينفذوا تعهداتهم له فحاصر قلعة الكوفة بأربعة آلاف رجل. وقامت الحامية وعددها خمسون رجلًا فقط بغلق البوابات بسرعة وأحاط جنودها بأسوار القلعة، وكانت القلعة لا تستطيع أن تقاوم أي هجوم خطير عليها.

في تلك الأزمة أثبت عبيد الله نفسه قائدًا حقيقيًا للرجال، فلم يتهور ولم ينطلق أي سهم من أسوار القلعة. وبدلًا من اللجوء إلى العنف أرسل عبيد الله بعض أتباعه الموثوق بهم للاختلاط بالثوار وإعلامهم بخطورة الانغماس في معاداة الحكومة ولتحذيرهم بأن جيشًا سيأتي مددًا من دمشق. واتخذ احتياطاته بحجز وجهاء المدينة في القلعة بعد أن وبخهم في الصباح، وأمرهم بالوقوف على أسوار القلعة ودعوة الثوار إلى التفرق واحدًا تلو الآخر فانطلق الجمع إلى منازلهم. وفي المساء كانت الشوارع التي تحيط بالقلعة مهجورة.

وجد مسلم بن عقيل بن عم الحسين نفسه وحيدًا. ولم يستطع العودة إلى المنزل الذي كان متخفيًا فيه قبل ذلك لأن صاحبه ألقي القبض عليه. وذهب إلى منزل آخر وبمجرد أن استضافه صاحب المنزل وأخلد هو إلى الراحة ذهب أحد الوشاة إلى القلعة التي كانت قصر الإمارة وفي منتصف الليل اقتحمت الشرطة المنزل وكان مسلم متقلدًا سيفه في يده فقبضه وكان في وضع حرج حتى أمنه رئيس الشرطة بضمان سلامته الشخصية. وعندما أحضروه إلى عبيد الله بن زياد تنصل من هذا التأمين وأمر بضرب عنقه على الفور ورمى جسده المقطوع الرأس من القلعة إلى ساحة المدينة بأسفل.

في الفجر تم اقتياد مضيف مسلم الأول وضرب عنقه أمام الناس في سوق الغنم في وسط المدينة. وصلب في المدينة بأعلى كومة زبالة. وكان عند عبيد الله بن زياد العنيف البراعة في تبرير هذه التصرفات المقززة معللًا ذلك إلى صرامته في تنفيذ الأوامر. وتم وضع الرأسين المقطوعين أمام الوالي في مجلس في القلعة.

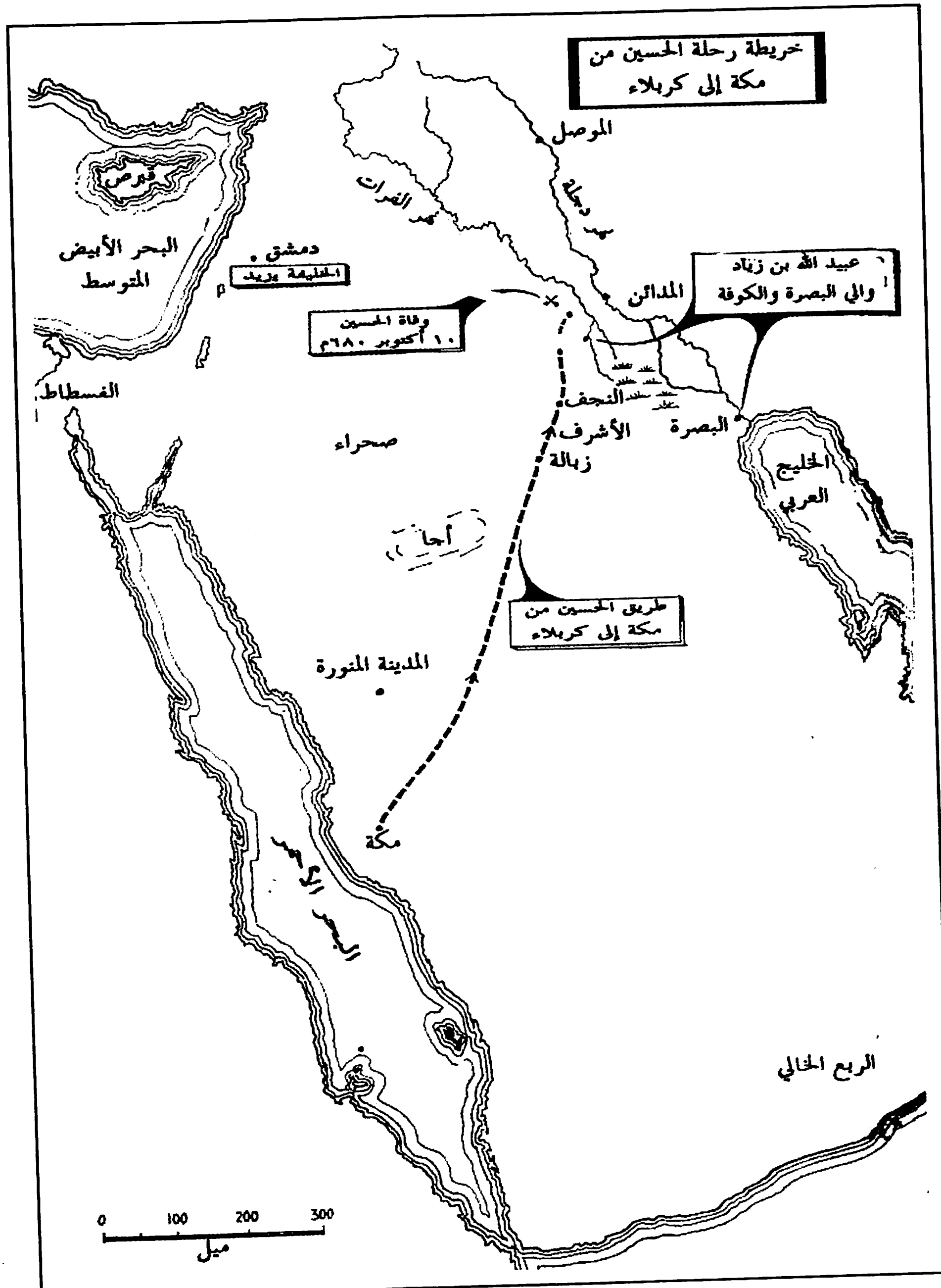
بهذه التصرفات التي تتسم بعدم الرحمة روع عبيد الله بن زياد أهالي الكوفة في أربع وعشرين ساعة، وفي اليوم التالي لم تسمع أي همسة عن الخليفة الجديد في المدينة وهو يوم ٩ سبتمبر عام ٦٨٠ م.

بينما كان يتم اقتياد مسلم بن عقيل وهو مقبوض عليه في شوارع المدينة صاح بصوت عال: «أليس هناك من رجل يقابل الحسين ويخبره ألا يأتي إلى هنا لأن أهل الكوفة خانوه كما خانوا أباه من قبل» فسمع واحد من أحباب الحسين الصيحة وهرب من الكوفة لكي يقابل الحسين في الصحراء.

قبل أن يغادر الحسين مكة بعث أخاه في الرضاعة إلى الكوفة؛ لكي يعلن عن وصوله مبكرًا إليها. وفي تلك الأثناء كان عبيد الله بن زياد قد روع أهل الكوفة إلى درجة الخضوع الكامل له وقبض على الرسول قبل أن يصل إلى الكوفة. وأخبره عبيد الله بن زياد بأنه إذا صعد إلى أسوار القلعة ونادى في الناس في مكان السوق أسفلها داعيًا باللعنات على الحسين فسيفكر في إنقاذ حياته. ولكن عندما وقف رسول الحسين على أسوار القلعة دعا بالبركة للحسين، وحث أهالي الكوفة على نصرته مما أدى بعبيد الله بن زياد إلى أن يصيح في غضب أن ارموه بأسفلها. فرمى الحراس الرسول المخلص من أسوار القلعة إلى الساحة بأسفل فانكسرت عظامه لأن الأسوار كانت عالية، ولكنه كان لا يزال حيًا حتى أبعده أحد المارة المتعاطفين مع الحسين عن الكوفة.

في تلك الأثناء كانت قافلة الحسين بمن فيها من نساء وأولاد تشق طريقها ببطء عبر صحراء الجزيرة العربية. وعندما وصل إلى مراعي العشائر البدوية تطوع الكثير من رجال القبائل بالانضمام إليه حتى يحصل على جند كافٍ لمواجهة عبيد الله بن زياد. وعندما وصلت القافلة بأكملها إلى منطقة تسمى زبالة، قابل الحسين الرسول الذي خرج لكي يحذره كنتيجة للصياح الأخير لمسلم بن عقيل. وفي لحظة تحول واضحة من بعد النظر أدرك الحسين أنه خسر كل أعوانه فجمع البدو الذين انضموا إليه على الطريق معًا، وأخبرهم بإعدام مسلم بن عقيل، وبالرسل الذين بعثهم وأوضح لهم أنه لم يعد له أي نصير في الكوفة وأمرهم بالتفرق والعودة إلى قبائلهم. وحثه الكثير منهم على العودة إلى مكة، ولكنه رد عليهم بأن مصيره في يد الله فحسب. وفي الصباح التالي حملت الإبل واتجهت شمالاً مرة ثانية بقافلة آل الحسين فحسب.

قابل الحسين أربعة من البدو من قبيلة طيئ وطلبوا منه أن يلجأ إلى القبائل في جبل أجا في صحراء شمال نجد، وأن قبيلتهم ستحميه كما قالوا؛ لأن بها عشرين ألف مقاتل بالسيف ولن تستطيع حكومة الخلافة أن تقبض عليه هناك، ولكن الحسين شكرهم واستمر في سفره، وبعد التزود بالماء في النجف الأشرف تحركت القافلة الصغيرة عبر سهل حجري


خريطة رحلة الحسين من
مكة إلى كربلاء
الموصل
نهر دجلة
نهر الفرات
قبرص
البحر الأبيض
المتوسط
دمشق
الخليفة يزيد
وفاة الحسين
١٠ أكتوبر ٦٨٠م
المدائن
عبيد الله بن زياد
والي البصرة والكوفة
الفسطاط
النجف
الأشرف
زبالة
البصرة
الخليج
العربي
صحراء
أجا
طريق الحسين من
مكة إلى كربلاء
المدينة المنورة
مكة
البحر الأحمر
الربع الخالي
0
100
200
300
ميل

مستدير حتى صاح شخص ما فيها بأنهم رأوا أشجار نخيل فارتحلوا جالسين على إبلهم يمدون أعينهم لكي يتفحصوا السراب المتوهج. وكانت أشجار النخيل تبدو وكأنها تتحرك وعندما اقتربت القافلة وجدت كتيبة من الفرسان بعثها عبيد الله بن زياد لكي يستطلع أنباء القافلة. وكانت جياد القافلة عطشى لذلك سقاها الحسين من أزقة الماء التي كان يحملها على ظهور الإبل، تصادف أن حان وقت الصلاة فاصطف فرسان العدو خلف قافلة الحسين. وأخبر قائد الفرسان الحسين بأن لديه أوامر بأن يحرسه إلى الكوفة. وبناءً على ذلك انحرفت القافلة بعيدًا في اتجاه الغرب وحاولت كتيبة الفرسان باهتمام شديد أن تدفع القافلة في اتجاه الشرق نحو الكوفة.

من المستحيل في تلك اللحظة من الزمن أن نعرف ماذا كان يدور في رأس الحسين بعدما سمع في منطقة زبالة أنباء تخيب آماله. وما زال هناك عندئذ متسع من الوقت للرجوع ولكن هل آمن هو بأنه إذا رجع سيلقى القبض عليه ويعدم في مكة؟ فإذا كان الأمر كذلك كان الحل الوحيد أمامه كما أشار عليه البدو هو أن يهرب إلى بعض الجبال البرية. ولكنه بوصفه قائدًا لقافلة آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم شعر أن هذا الحل سيقلل من كرامته أو ربما كان لا يعتقد أن بني أمية لن يغامروا بقتله.

أخيرًا مرت القافلة الصغيرة التي تحرسها كتيبة الفرسان باستمرار بصحراء تبعد عشرين ميلًا غرب الكوفة قرب مدينة كربلاء الحديثة. وفي تلك الأثناء تلقت كتيبة الفرسان أوامر جديدة من عبيد الله بن زياد بأن تستأسد على القافلة وتتوعدها وأن ترهق الإبل وركابها بالمثل، بأن تكرهها على النزول بمكان بلا مرعى وفوق كل ذلك بحرمان قافلة الحسين من السقاية بالماء. وكانت قافلة الحسين في ذلك الوقت على مشارف الفرات بحدائق النخيل والقرى التى على شواطئه ولكن أحاطت كتيبة الفرسان بمعسكر القافلة رافضة السماح لهم بالحصول على الماء. وحثه بعض أتباعه على مهاجمة الكتيبة، ولكن كان واضحًا أن العدو سوف يتلقى تعزيزات عسكرية بسرعة. ورفض الحسين أن يكون أول من يستخدم العنف وقال له ابنه الصغير علي المسمى بزين العابدين: «يا أبت لو متنا ونحن

متوكلون على الله فلن يصيبنا أي شيء»، فرد الحسين بهدوء: «فليثبك الله يا بني، إن الابن الذي يقوي أباه بهذه الكلمات هو ابن صالح»، وكان ذلك في يوم ٢ أكتوبر عام ٦٨٠ م. وفي هذا اليوم قضيت القافلة الليل كله دون ماء.

في تلك الأثناء وصل إلى الكوفة عمر بن سعد بن أبي وقاص ومعه أربعة آلاف رجل وكان أبوه بن خالة الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وواحدًا من أوائل المؤمنين به وواحدًا من فاتحي العراق من الفرس منذ أربعين سنة قبل ذلك. وبمجرد وصوله أبلغه عبيد الله بن زياد بأن يقتل الحسين بجنوده فاحتج عمر بن سعد بن أبي وقاص بشدة وطلب إعفاءه من هذه المهمة ولكن كان عبيد الله بن زياد عنيدًا. وفي الثالث من أكتوبر خرج عمر بن سعد بن أبي وقاص طبقًا لذلك بجنوده المكونين من أربعة آلاف رجل فعسكر في العراء على مسافة قصيرة من القافلة الصغيرة، والتي تتكون من اثنين وسبعين رجلًا واثنين وثلاثين فارسًا وأربعين رجلًا مشاة مترجلين.

أرسل عمر رسولًا إلى الحسين لكي يسأله لماذا جاء، فرد الحسين بأنه أتى بناءً على دعوة أهل الكوفة له، وإنهم إذا لم يكونوا يريدونه الآن أن يأتي فسيرحل من فوره. فهتف عمر عند استلامه للرد «بأن الله قد يحكم بألا نقاتله» ووصلت رسالة أخرى من عبيد الله تدعو الحسين إلى مبايعة يزيد. وفي المساء أخذ العباس أخو الحسين معه جماعة من الرجال معهم زقوق ماء خالية وزحف إلى الفرات، ولكن تم كشفهم فأتبع ذلك حدوث مصادمة بين الفريقين وقتل أحد أتباع الحسين وتم الحصول على بعض المياه برغم ذلك، وأرسلت إلى معسكر الحسين حيث كان الأطفال يكاد أن يغشى عليهم من العطش.

في صباح الرابع من أكتوبر طلب الحسين مقابلة عمر بن سعد فأشار عليه فيها بثلاثة حلول: إما أن يرجع إلى المدينة المنورة، أو أن يذهب إلى دمشق ويبحث قضيته أمام يزيد الخليفة نفسه، أو أن يتم السماح له بالذهاب إلى بعض الحدود البعيدة للجهاد ضد الكفار، فأسرع عمر بنقل هذه الاقتراحات إلى عبيد الله وأضاف إليها بالنيابة عن نفسه «أحمد الله أن هناك طريقًا لحل سلمي».

أما عبيد الله فقد بدا في أول الأمر أنه سيوافق، ولكن كان موجودًا معه قائد عسكري آخر يليه في المرتبة، وهذا القائد هو شمر بن ذي الجوشن، وحثه بشدة أن يصر على خضوع الحسين بلا شروط ملمحًا في الوقت نفسه أن عمر يتواطأ مع الحسين. واقتنع عبيد الله بذلك فبعث شمر بن ذي الجوشن برسالة إلى عمر يأمره أن يطلب خضوع الحسين بلا شروط، فهل يرفض عمر؟ نعم كان عمر على وشك أن يهاجم الحسين ويقتله. وبمجرد أن يقتل تطأ فرسان الكتيبة جثته تحت خيولهم حتى تتشوه تمامًا. ويقطع رأسه ويرسل إلى عبيد الله بن زياد. وما يرضي عبيد الله بن زياد ليس فقط قتل أعدائه ولكن التمثيل بجثثهم. وانتهت الرسالة بتهديد إلى عمر بن سعد كما كتب عبيد الله بن زياد «إذا نفذت أوامري ستتلقى هبات ومكافآت وإذا لم تفعل اعتبر نفسك معزولًا وسلم القيادة إلى شمر بن ذي الجوشن». في اليوم نفسه عصرًا أمر عمر بن سعد فرسان الكتيبة بالتقدم. وكان الحسين يجلس أمام خيمته في غفوة فجرت إليه أخته زينب تصيح بأن العدو قادم. فنظر الحسين وقال لها: «لقد كنت نائمًا ورأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقال لي إنك قادم إلي الآن». فبعث الحسين عندئذ أخاه العباس إلى عمر طالبًا تأجيل القتال حتى اليوم التالي حتى يستعد للموت فوافق على ذلك بترحاب.

قضى الحسين الليل في الصلاة والتسرية عن النساء والأطفال بإخبارهم بوضاعة هذه الحياة وأن كل الناس سيموتون. وأمر بتثبيت الخيام معًا لكي تتشابك حبالها. وأمر الرجال والأولاد أن يتفرقوا في الظلام ويأمنوا بأنفسهم وقال: «إنني فقط الذي يريدون أن يقتلوه وليس لزامًا عليكم أن تموتوا». ولكنهم تطوعوا أن يبقوا بجانبه حتى آخر لحظة.

عند الفجر خصص الحسين اثنين وسبعين رجلًا من أتباعه للقتال. وفي الوسط كان أخوه العباس يحمل الراية. وعندما اقترب صف طويل من الفرسان امتطى الحسين فرسه وهو يرفع يديه هاتفًا: «يا إلهي أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة» وعندما اقترب الفرسان من الحسين نادى على مقدمتهم قائلًا: «أنا ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم» ونادى واحد من أتباعه من خلفه: «أو ليس ابن فاطمة الزهراء أفضل من ابن سمية؟»

وتحدث قائد الفرسان، الذي التقى مع قافلة الحسين أول مرة في النجف الأشرف وقام بحراستها إلى كربلاء، إليه وكان مأخوذًا بشخصيته ووقف بجانب الحسين وهو يصيح خارجًا من صفوف الجيش بأنه يفضل الموت والجنة على أن يعيش حياة طويلة ويكون مصيره إلى النار. اقتربت كتيبة الفرسان إلى مسافة قصيرة من القافلة الصغيرة وخيامها، وبدأت مجموعات من السهام تنهال عليها. وقتل وجرح الكثير من أفراد القافلة. وكعادة العرب في حروبهم في هذه الأيام اندفع أبطال كثيرون من كل طرف يتحدون الطرف الآخر على المبارزة الفردية، وعلى الرغم من شدة المبارزة في هذا اليوم والقتال الذي حدث فيه فقد قام الحسين ورجاله بأداء الصلاة وكان النصف يصلي بينما النصف الآخر يقاتل الأعداء.

عند العصر نقص عدد أتباع الحسين بدرجة كبيرة بينما هو نفسه لم يصبه أي أذى، واستأنف الرماة توجيه سهامهم على الآخرين. وقدم أخوان من أتباعه إليه ليسألاه إن كانا يستطيعان التضحية بحياتهما بينه وبين أعدائه فوافق، ومن ثم مشيا معًا إلى صفوف الأمويين ثم توقفا ونظرا حولهما ونادا: «السلام عليك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم» ثم جريا نحو صفوف الأعداء مباشرة وسقطا مثكلين بالجروح.

قتل الابن الأصغر للحسين بسهم ثم ابن آخر يسمى القاسم. والتقط الحسين جثته الصغيرة ووضعها في الخيمة بجوار أخيه الميت. ولم يتبق مع الحسين أي رجل ومع ذلك لم يتجرأ أي رجل من الأمويين على قتله، ثم هاجمه مالك بن نصير من قبيلة كندة وضربه ضربة على رأسه فتدفق الدم منها وانسكب على ملابسه.

هذه الواقعة العنيفة والمأساوية أدت إلى شق عرا الإسلام ونتج عن ذلك انشقاق لم يتم معالجته حتى الآن. ولا يزال هناك ميل إلى التأسي بشخصية الحسين يقابله ميل إلى التعقل في التأسي بها إذا أردنا أن نتمسك بالدقة التاريخية. ومن الضروري في تلك المقارنة أن نذكر أنه في هذه اللحظات المؤثرة روي أنه دعا الله مرارًا أن ينتقم لموته من أعدائه: «ياالله اقتلهم جميعًا بالسيف ولا تدع أحدًا منهم يهرب واجعلهم من أصحاب النار». خلا الحسين بنفسه وهو جريح وينزف ويحوطه عدة آلاف من أعدائه المهاجمين، ولم يكن عند أحد منهم

الشجاعة لكي يقضي عليه. وفي بعض مراحل المعركة كان يبدو أنه يمتطي فرسه ولكن مضطهديه كانوا يعتقدون أنه أراد أن يهرب وسددوا الأسهم على فرسه فوقعت. وضربه سهم على وجهه فانطمر في حنكه ولكنه انتزعه بالقوة. وفي تلك اللحظة كان الحسين نصف واعٍ على الأرجح وظل يطلب السقاية بالماء وهو متهالك يقف أمام الخيمة. وفي تلك اللحظة اخترق الأعداء الخيام خلفه، ومع ذلك فقد دعاهم الحسين إلى ترك النساء. وخرج صبي صغير من الخيام إلى الحسين وهو يصيح بأنه سيموت مع والده وفي تلك اللحظة جرى جندي من الأعداء إلى الحسين بسيفه ولكن الصبي الصغير رفع ذراعيه لكي يحمي نفسه فجرح السيف معصمه فأخذه والده بين ذراعيه قائلًا: «أنا وأنت الآن سنكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقرب وقت».

وقف الحسين في تلك اللحظة في ساحة المعركة وحيدًا عندما دعا شمر بن ذي الجوشن فجأة جنوده إلى قتله. واندفع الجنود واحد يضربه بالسيف على ظهره والآخر على ذراعه الأيسر حتى ترنح إلى الأمام وإلى الخلف مثل الرجل السكير ثم اندفع إليه جندي من الأعداء برمح فسقط أخيرًا على الأرض. وجرى رجل يدعى سيران بن أريس إلى الجثة الملقاة وقطع رأسه وأزيل ستار الوقار. وجرت مجموعة من الجنود نحوه وفي ثوان قليلة كشفت جثته عارية فانتزع أحد الجنود عباءته وآخر قميصه وآخر سيفه والرابع خفيه، ثم التفوا منتشين من الدماء والطمع نحو الخيام ممتطين الخيول الباقية والإبل وناهبين الأطعمة والفرش وممزقين ملابس النساء.

في تلك اللحظة وصل القائد عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى مكان الحادثة وأنقذ النساء وأمر الجنود بإعادة ما نهبوه ولكن لم يهتم أحد بذلك الأمر. وأمر بوطء جثة الحسين تحت أقدامهم كما أمر عبيد الله بن زياد حتى تشوهت ولم يتم التعرف عليها. وأرسل رأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة مع رسول خاص. وتم قتل الاثنين والسبعين رجلًا مع الحسين. وقتل ثمانية وثمانون رجلًا من جيش الكوفة الأموي فيما عدا الجرحى وقضى شمر بن ذي الجوشن المتوحش الساعات الأخيرة من اليوم يقطع رؤوس الاثنين رجلًا من

أقارب الحسين المقتولين وأتباعه. وحدث ذلك في العاشر من أكتوبر عام ٦٨٠ م. في الصباح التالى كان عبيد الله بن زياد يجلس في قاعة الاستقبال في قصر الإمارة يستقبل التهاني من الناس. وكانت رؤوس أفراد قافلة الحسين موضوعة أمامه. وبينما كان يتحدث مع ضيوفه بابتهاج استمر هذا الرجل السادي يلعب بالرأس المخضب بالدماء بطرف سيفه وبعد برهة اندفع رجل عجوز قائلًا: «توقف عن اللعب بتلك الرأس بسيفك لأني والله قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل تلك الشفتين». ثم أراد أن يبكي فرد عليه ابن زياد بوحشية: «لعل الله يجعل عينيك تبكيان ولولا أنك رجل عجوز قد خرفت لضربت عنقك في تلك اللحظة». فقام الرجل العجوز بالخروج من القاعة وهو يبكى. وبينما كان يشق طريقه خلال الزحام وهو يحتك بكل ما يقابله في الخارج صاح: «الآن أصبح العرب عبيدًا فبعد المجد العظيم أصبحوا عبيدًا أذلاء».

اقتيدت نساء أسرة الحسين إلى قاعة الإستقبال بالكاد مغطيات بخرق قليلة تركها لهن الجنود. ثم حملت الرؤوس الاثنتان والسبعون أمام عبيد الله. فسأل عبيد الله بابتهاج موجهًا خطابه إلى النساء البائسات: «ما رأيكن فيما أصاب الله به أسرتكن الآن؟» فردت بشجاعة زينب أخت الحسين: «سيحكم الله بيننا وبينكم يوم البعث».

أرسلت رؤوس الحسين وأنصاره الاثنتان والسبعون إلى يزيد في دمشق عن طريق رسل معينين. وعندما وضعت أمامه روي أن يزيد بكى وهتف: «الله يلعن ابن سمية ولو كنت هناك لكنت قد أبقيت على حياته، عليه رحمة الله». وسافرت القافلة التي تضم النساء المغطيات بالخرق والمرتعشات ببطء شديد إلى دمشق. وعندما وصلت روي أن يزيد لعن عبيد الله مرة ثانية ثم أمر بتقديم الطعام والملابس إلى النساء وأن يرسلن بكل الاحترام وتحت الحماية إلى المدينة المنورة. وفي المدينة استقبلهن أهلها بالبكاء والعويل أدى ذلك إلى مشاكل – كما سنرى – لا نهاية لها لبني أمية وللإسلام.

يمكن قبول إظهار يزيد البكاء على الحسين ولعنه عبيد الله بن زياد أمام الناس كنوع من أنواع المظاهر والشكليات؛ فوالده معاوية الخليفة اتفق معه اتفاقًا عمليًا على

إخضاع أهل العراق بالعنف الشديد بينما يحصل معاوية على تأييد الناس عن طريق ادعاء حب الناس واستمالة عاطفتهم. وبالتالي لا يمكن لمن يأتي بعدهم من أولادهم أن يتجاهلوا ذلك. وبعد مذبحة كربلاء بشهور قليلة رُقي عبيد الله بن زياد إلى درجة والي الكوفة والبصرة وفارس كلها، وهو الجزء الشرقي من الإمبراطورية الذي حكمه أبوه زياد في خلافة معاوية.

في القرن السابع كانت كلمة الشيعة تعني فرقة من الفرق. وقد تكلم المؤرخون العرب عن شيعة يزيد وشيعة الحسين لوصف أنصارهم خاصة. ولكن مذبحة كربلاء قدمت للكلمة معنى جديدًا؛ فهؤلاء الذين اتبعوا عليًا بن أبي طالب زوج ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنه الحسين جعلوا هذه الذكرى لها قيمة عاطفية خاصة. وأصبحت هذه المجموعات المرتبطة برباط وثيق فرقة إسلامية وهي الشيعة ولها الأفضلية على حسب اعتقادهم. ولا يمكن محو فظائع كربلاء من التاريخ وأصبحت فرقة الشيعة وهي تضم محبي علي والحسين إلى يومنا هذا فرعًا ثانيًا منفصلًا للإسلام (*).

معظم سكان أسفل العراق وفارس لا يزالون شيعة. وكل عام في أول الشهر العربي – شهر محرم – وفي اليوم الذي نصبت فيه قافلة الحسين الصغيرة خيامها وهي عطشى على سهل كربلاء، يبدأ اليوم العاشر السنوي الذي يصومون فيه وينوحون فيه. وفي كل يوم في كل خيمة في المدينة والقرية تقرأ القصة المحزنة بصوت عال بكل تفاصيلها العاطفية ويبكي الجميع. وفي كل ليلة لمدة ثلاثة عشر قرنًا تقام العروض لرجال نصفهم الأعلى عارٍ يضربون ظهورهم بالسياط والسلاسل وينشدون الألحان الحزينة للحسين. وفي العاشر من محرم في يوم وفاة الحسين تمثل معركة كربلاء على ساحة مفتوحة خارج كل مدينة. حيث تمثل مجموعة من الأشخاص بخيمة صغيرة القافلة الصغيرة، وتمثل مجموعة أكبر من الفرسان الجيش الأموي. ويقوم رجل مميز بأداء دور شمر بن ذي الجوشن المغمور.

(*) (لا يمكن اعتبار الشيعة فرعًا ثانيًا للإسلام؛ لأن الخلافات بين السنة والشيعة خلافات سياسية لأن حرية الرأي في الإسلام مكفولة وليست خلافات عقائدية تخرج من اتبعها من الإسلام، واختلاف الفرق يدل على ثراء العقيدة – المترجم)

بعد المعركة يعود الموكب إلى المدينة، وتقوم محفات الجمال بحمل جثة الحسين وجثث عدد من الأطفال الصغار الحزانى، وتربط قمصانهم على رؤوسهم لكي تظهر جثثًا دون رأس. أما الرؤوس المقطوعة فتصنع من الخشب وتدهن باللون الأخضر الباهت الشاحب لكي تمثل الموت الذي يوجد بجانب الجثث. ويمتلئ ميدان المدينة وأسطح المنازل بالنساء والأطفال الذين يبدؤون في البكاء والعويل عندما تمر القافلة المتجهمة. وتأثير ذلك كله تأثير عاطفي وجداني وبالأحرى تأثير حزين. ومهما عانى الحسين في حياته فقد جلب له ذلك على الأقل الحب الشديد المتحمس والمتعاطف لملايين القلوب المسلمة البسيطة.

تواريخ بارزة

- تأسيس القيروان ٦٧٠ م.
- حصار القسطنطينية ٦٧٠ – ٦٧٧ م.
- فتح رودس ٦٧٢ م.
- وفاة زياد بن أبيه ٦٧٣ م.
- وفاة معاوية أبريل ٦٨٠ م.
- تولية يزيد أبريل ٦٨٠ م.
- مذبحة كربلاء ١٠ أكتوبر ٦٨٠ م.

الشخصيات

الخليفة معاوية بن أبي سفيان ٦٦١ - ٦٨٠ م.

الخليفة يزيد بن معاوية ٦٨٠-٦٨٣ م.

عقبة بن نافع قائد شمال أفريقيا ومؤسس القيروان.

زياد بن أبيه نائب الخليفة على العراق وفارس.

الحسين بن علي بن أبي طالب وحفيد النبي صلى الله عليه وسلم.

عبد الله بن الزبير عدو الخليفة يزيد بن معاوية.

عبيد الله بن زياد والي الكوفة.

شمر بن ذي الجوشن بطل مذبحة كربلاء.

الفصل الثالث

الفوضى العربية

علاج الفوضى هو الحرية وليس العبودية كما أن الدين وليس الكفر هو العلاج الحقيقي للخرافات.

(إدموند بورك)

الحكومة والتعاون هي قوانين الحياة بكل المعاني، أما الفوضى والتنافس فهي قوانين الموت.

(جون راسكن)

يقول الرب: أفإياي يغيظون؟ أليس أنفسهم لأجل خزي وجوههم ؟.

(إرميا إصحاح ٧ – ١٩)

في حومة الحرب التي لا تشتكي ... غمراتها الأبطال غير تغمغم

إذ يتقون بي الأسنة لم أخم ... عنها ولكني تضايق مقدمي

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحم

(عنترة بن شداد – من ديوان عنترة)

سواء كان الخليفة يزيد حانقًا فعلًا من وحشية عبيد الله بن زياد أم لا، فإنه سرعان ما أدرك أن النتائج السياسية لهذه المعركة ستكون خطيرة. وقد أثارت عودة نساء أسرة الحسين وأطفالها وهم غاضبون حسبما روينا بالفعل مشاعر الحزن والحداد والسخط العارم في المدينة التي رحبت بالنبي صلى الله عليه وسلم وذريته على مدى خمسين عامًا. وفي مكة وجد عبد الله بن الزبير موقفه يزداد قوة بصورة كبيرة. فمن ناحية خرج الآن من الساحة الحسين الذي كان مطالبته بحق الخلافة أكثر قوة من موقفه، ومن ناحية أخرى سببت الأعمال القاسية التي حدثت يوم كربلاء رد فعل كبير ضد يزيد في كل أنحاء العالم العربي. وإذ تشجع عبد الله بن الزبير بهذه العوامل، بدأ يدين صراحةً السلالة الأموية جهارًا. وسرعان ما أشيع بعد ذلك بوقت قصير أنه يتلقى المبايعة لنفسه سرًا.

إذ تنبه والي المدينة إلى التحريض الناشب في الحجاز، وأقنع وفدًا من أعيان المدينة للقيام بزيارة إلى يزيد في دمشق أملًا في أن الخليفة سيتمكن من أن يكسبهم إلى جانبه سواء بالإقناع أو الإسراف في منح الهدايا. ولكن محاولاته باءت بالفشل؛ لأن الأعيان الأتقياء -بدورهم- جعلوا الأمور تسوء بإشاعة أن يزيد يشرب الخمر وأن مدينة دمشق أصبحت مدينة للهو والعبث.

كل المؤرخين العرب تقريبًا الذين لا تزال كتبهم موجودة، كتبوا في أيام الأسرة العباسية التي أطاحت بالأمويين وخلفتهم. ونتيجة لذلك حاولوا جميعًا تشويه ذكرى بني أمية لدرجة أن المؤرخ يجد من الصعب تكوين تقدير يعتد به لشخصيات بني أمية. وكان عمر يزيد خمسة وثلاثين عامًا عندما تم تنصيبه خليفة، وعاش كل حياته في سوريا. أما أهل المدينة المنورة فقد حفظوا إلى مدى كبير السنة المطهرة للنبي صلى الله عليه وسلم الذي حرم الخمر والموسيقى ولبس الحرير والإسراف في المتع الدنيوية (*). وكانت دمشق

(*) (حرم الرسول صلى الله عليه وسلم الخمر ولبس الحرير أما الموسيقى فهناك اختلاف فيها هل حرمها الرسول صلى الله عليه وسلم أم لا؟ والأرجح أنها حلال ولم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم بحديث صحيح أنها حرام أما بقية متع الحياة كالزواج والطيب والشراب فيما عدا الخمر ولحم الخنزير فليست محرمة – الفرق يدل على ثراء العقيدة – المترجم)

بالنسبة إليهم منبع كل ظلم بسبب مظاهر الترف التي كانت تسود الحياة اليومية. وكانت أم يزيد ميسون من قبيلة كلب البدوية وأصبحت مشهورة كشاعرة، ولم تكن الحياة في قصر بدمشق تشدها جاذبية. وكانت تعبر عن شوقها للعيش في الصحراء في قصيدة مشهورة(*) تبدأ بالأبيات التالية:

- لبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إلي من قصر منيف

- ولبس عباءة وتقر عين

وخرق من بني عمي نحيف

ويروى أن معاوية قد طلقها عندما سمع هذه الأبيات، ونتج عن ذلك أن يزيد قضى وقتًا أكثر مما ينبغي مع بدو صحراء سوريا. وهؤلاء البدو كانوا متمرسين بصورة كبيرة على تقاليد الحرب العربية وكرم الضيافة وإلقاء الشعر، وهي تقاليد ترجع إلى قرون كثيرة قبل الإسلام. وعلى الرغم من أن هؤلاء البدو شكلوا التجمع الرئيسي في الجيش العربي خلال الفتوحات الكبرى فلم تكن هذه القبائل على درجة كبيرة من التدين. وهكذا نجد أن يزيد قد نشأ إلى حد ما بين أهل دمشق المبتهجين المحبين للترف وبين البدو المحاربين والشعراء الذين لا يزالون نصف وثنيين وبدوًا. وقد لا نعتبر شرب الخمر وعزف الموسيقي أو لبس الحرير خطايا شديدة، ولكنه بالنسبة إلى علماء السنة المتشددين في مكة والمدينة يعتبر من الكبائر (**). عمومًا يمكن أن نستنتج أن يزيد كان رجلًا دنيويًا يتمتع بأقصى المتع الدنيوية

(*) من كتاب البداية والنهاية لابن كثير .

(**) (شرب الخمر من الكبائر في الإسلام عمومًا وليس عند علماء السنة فقط. ولبس الحرير من المحرمات بالنسبة إلى ذكور أمة الإسلام وقد حرمه الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من حديث، أما عزف الموسيقى ففيه اختلاف والأرجح أنه حلال - المترجم).

ولذلك كان سمينًا جدًا وعمره خمسة وثلاثون عامًا. ويعتقد بعض المؤرخين العرب أنه كان يشرب الخمر باستمرار، وهذه كانت حقيقة. وبالنسبة إلي لاحظت أنه في أيامنا هذه يعتقد العرب الذين لا يشربون الخمر أن كل من يشرب الخمر فهو مدمن. ولكن لا يظهر للعيان أن يزيد قد أهمل كلية أمور الدولة.

في خريف عام ٦٨٢ م نتج عن الحماسة الدينية والمرارة التي سببتها مذبحة الحسين ورفاقه ثورة عامة في المدينة المنورة. وحوصر أفراد عشيرة بني أمية وأتباعهم الذين يصل عددهم إلى حوالي ألف رجل في منازلهم في المدينة المنورة عن طريق ثوار المدينة، ولم يكن الحصار محكمًا جدًا وعلى الرغم من حالة السخط والمرارة التي كانت تنتاب الثوار فقد كان ينتاب حركتهم سوء التنظيم والفوضى. ومع ذلك فقد تم تحدي سلطة الخليفة، وتم طرد الوالي من مقر ولايته وأهين وحوصر أقرباؤه.

لم ينتظر يزيد تلك الثورة وتم استدعاء جيش إلى أعتاب دمشق. وهذا الجيش كان يتكون من اثني عشر ألف رجل مسلحين، وصدرت الأوامر بقمع الثورة لمسلم بن عقبة بن نافع (الذي غزا والده شمال أفريقيا وقتل قبل ذلك بعام في جبال أطلس من البربر).

في أغسطس عام ٦٨٣ م وصل مسلم بن عقبة إلى المدينة المنورة. وكما أمر يزيد أعطى مسلم أهل المدينة مهلة ثلاثة أيام لكي يعودوا إلى بيعتهم ليزيد. وكانت المدينة المنورة تغلي من الغضب والسخط، وكان الثوار يشوبهم العناد الشديد والثقة بالنفس من الناحية الإيمانية فرفضوا هذا العرض بازدراء.

عند انتهاء مدة الإنذار تحرك الجيش الأموي الدمشقي في اتجاه طريق الكوفة، الذي نشأ من انحدار الحمم شرق المدينة. ولم ينتظر الثوار الساخطون الهجوم ولكنهم في اندفاعهم خارج المدينة هاجموا الجنود المتقدمين بشجاعة ضارية. ووقعت الفوضى في صفوف الجيش الأموي لفترة قصيرة، وسقط حامل الراية، وسقطت الراية على الأرض وقطع أهل المدينة الثائرين الطريق على قائد الجيش نفسه. وعلى الرغم من شجاعة أهل المدينة فلم يكونوا جيشًا منظمًا. أما جيش دمشق فكان مدربًا ومنظمًا. ولم يقاتل حتى

تنتهي مدة الإنذار ثم شن مسلم بن عقبة هجومًا مضادًا، وبعث مجموعة من الجنود لكي يشن حركة التفافية ويهاجم المدينة. وتراجع ثوار المدينة قليلًا حتى سمعوا صيحات الانتصار فجأة خلفهم. وعندما نظروا حولهم وجدوا الجنود الذين شنوا الحركة الالتفافية قد احتلوا المدينة من لحظات فهربوا ولاذوا بالفرار.

خضعت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لمدة ثلاثة أيام إلى الخوف والذل. حيث تم إعدام كثير من الزعماء بسبب رفضهم البيعة ليزيد. أما الباقون فكانوا مجبرين على البيعة بالطاعة للخليفة، ومع ذلك فقد أعلمهم مسلم بن عقبة أن مصيرهم النهائي يرجع فقط إلى عفو الخليفة عنهم. وكان قد بقي على قيد الحياة من مذبحة كربلاء بمعجزة ولد صغير للحسين يسمى عليّ زين العابدين وعاد إلى المدينة مع النساء بعد أن أصدر يزيد أوامر خاصة بألا يلحق بالطفل أي أذى. وبعد ذلك أصبح واحدًا من أئمة الشيعة بعد أن اتخذ لقب زين العابدين.

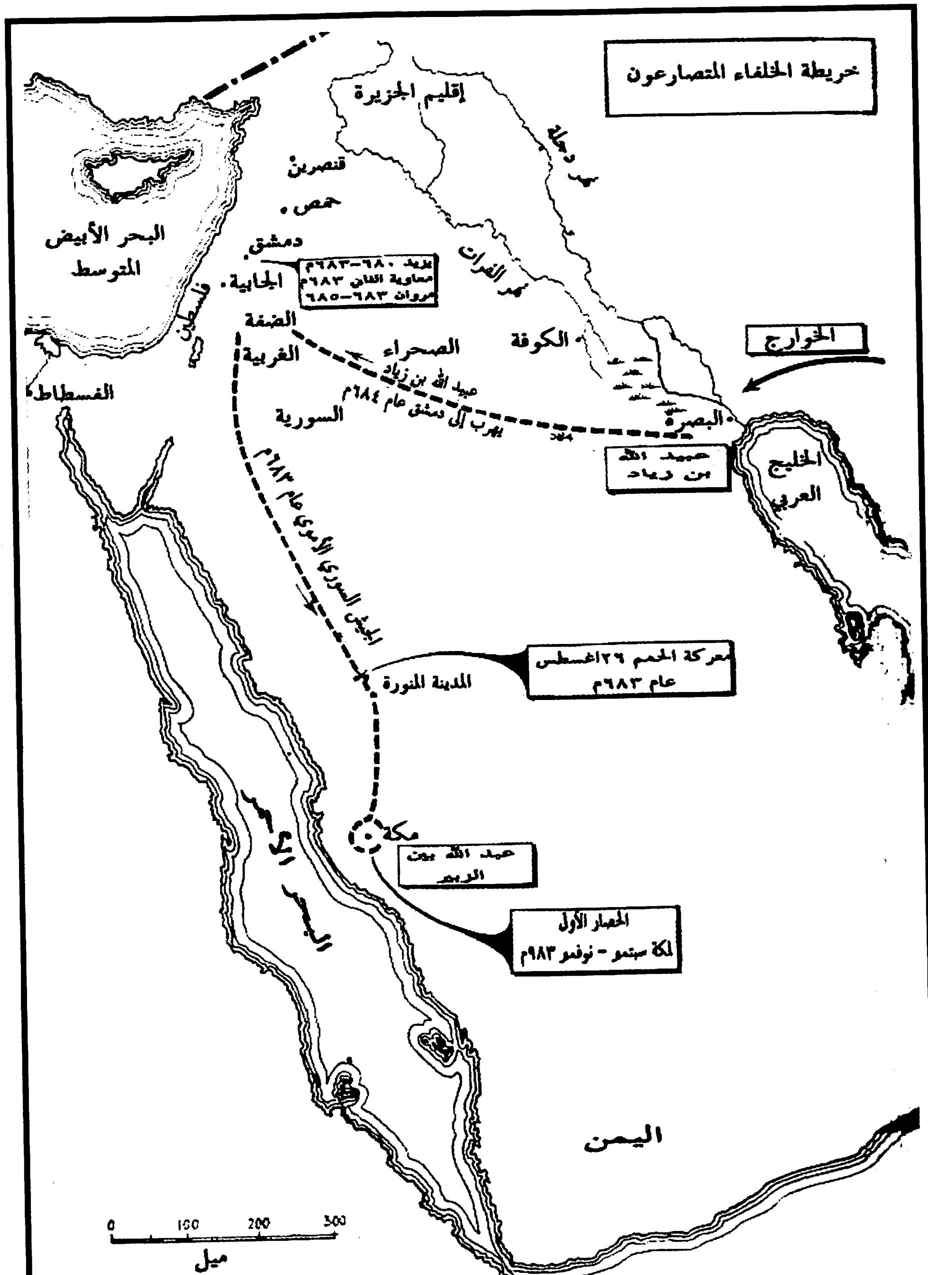
هذه المعركة تسمى في التاريخ بمعركة الحمم. وحدثت في السادس والعشرين من أغسطس عام ٦٨٣ م. ثم تحرك مسلم بن عقبة بعد ذلك في اتجاه الجنوب لمهاجمة مكة ولكنه مات بعد يومين أو ثلاثة من معركة الحمم. ولم يقدم المؤرخون سببًا لوفاته المفاجئة. بالنسبة لرجل الدين يعتبر اقتحام مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم واحدًا من الأفعال المشينة والمحرمة التي توضع في معية بني أمية الذين كانت سمعتهم سيئة بذلك؛ لأن المدينة المنورة كانت ملجأ النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان مجبرًا على ترك مكة وقضى بقية حياته هناك. وفي المدينة بدأ رسالته حتى خضعت له الجزيرة العربية كلها، وهناك دفن الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبيه أبي بكر وعمر بن الخطاب. وكان قد مضى على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسين عامًا ولا يزال هناك في المدينة أصحاب له، وكانت الحماسة الدينية المطهرة التي بثها الرسول صلى الله عليه وسلم في أصحابه في هذه الواحة الصحراوية المنعزلة لا تزال سنة حية.

عندما مات مسلم كانت آخر كلماته والتي كان يسر منها في حياته شهادة ألاّ إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وعقاب أهل المدينة. وغالبًا ما تكون الكلمات المسجلة الأخيرة للمشاهير مشكوك في صحتها، والآن يمكن لنا بطريقة ما تقدير السخط الذي عم على أنصار يزيد؛ لأن هذه الكلمات بالنسبة لأهل مكة والمدينة بأخلاقهم القويمة كانت ستثير حربًا أهلية. ولم يعد ممكنًا حكم إمبراطورية العرب الواسعة الأطراف من صحراء مقطوعة عن عالم التجارة والسياسة الرائج.

عقب وفاة مسلم بن عقبة صدر الأمر إلى حسين بن نمير السكوني بالمضي قدمًا والزحف جنوبًا لإخضاع مكة لحكم يزيد. وخلاف أهل المدينة أطاع أهل مكة قائدهم الوحيد عبد الله بن الزبير وكان يطالب بالخلافة لنفسه. وتقع مدينة مكة المقدسة في وادي ضيق يحوطه جبال لا تضع مجالاً فسيحًا كافيًا لأي معركة ضارية. وفي السادس والعشرين من سبتمبر عام ٦٨٣ م احتل الجيش السوري الأموي كل المرتفعات المحيطة بمكة وضرب المدينة بأسفل بالمنجنيق. وكان الحصار محكمًا بدقة وعانت المدينة بشدة من الضرب، وحتى الكعبة عانت أيضًا، وضُرب الحرم بصخور المنجنيق حتى تم تخريبه لنصفه. وفي الأول من نوفمبر عام ٦٨٣ م أحرقت الكعبة بطريقة غير مقصودة بالصدفة بالنار عن طريق واحد من المدافعين عنها.

استمر الحصار أربعة وستين يومًا، وفي السابع والعشرين من نوفمبر عام ٦٨٣ م نادى عبد الله بن الزبير من مكان مجهول: «يا رجال سوريا لقد مات الطاغية الذي يحكمكم». وبعد ذلك بوقت قصير وصل رسول إلى الجيش المحاصر بأنباء وفاة الخليفة يزيد في سوريا وكان عمره آنذاك ثمانية وثلاثين عامًا وحكم لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، تاركًا خلفه كوارث للحكم؛ صبيًا مريضًا عمره ثلاثة عشر عامًا، وتم تنصيبه في دمشق باسم معاويه الثاني.

عندما وصلت أنباء وفاة يزيد إلى مكة توقف الجيشان عن القتال ودعا الحسين بن نمير عبد الله بن الزبير لمقابلته بين خطوط القتال؛ وذلك لأن قائد الجيش السوري الأموي



خريطة الخلفاء المتصارعون
إقليم الجزيرة
نهر دجلة
قنصرين
حمص
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
يزيد ٦٨٠-٦٨٣م
معاوية الثاني ٦٨٣م
مروان ٦٨٣-٦٨٥
الجابية
فلسطين
نهر الفرات
الكوفة
الخوارج
الضفة الغربية
الصحراء السورية
عبيد الله بن زياد يهرب إلى دمشق عام ٦٨٤م
الفسطاط
البصرة
عبيد الله بن زياد
الخليج العربي
الجيش السوري الأموي عام ٦٨٣م
معركة الحرم ٢٦ اغسطس عام ٦٨٣م
المدينة المنورة
مكة
عبد الله بن الزبير
الحصار الأول لمكة سبتمبر - نوفمبر ٦٨٣م
البحر الأحمر
اليمن
0 100 200 300
ميل

خشي أن ينتج عن تولية طفل الخلافة فوضى. ومهما كانت دوافعه فإن الحسين بن نمير أخبر عبد الله بن الزبير بأنه أصلح رجل ليكون خليفة للمسلمين ودعاه إلى مرافقة الجيش السوري عند عودته إلى دمشق لكي يسيطر على الإمبراطورية. ولكن رفض بن الزبير ذلك لأسباب نستطيع أن نفسرها. وعاد قائد الجيش إلى دمشق وكان يلاحظ ببعض الازدراء أن ابن الزبير ليس الإنسان الذي تؤهله سمعته لكي يكون خليفة للمسلمين. وبعد تفكير طويل عدل عبد الله بن الزبير عن رفضه ذلك في حالة ما إذا قال قائد الجيش إن الجيش سيعود إلى دمشق وسينصبه خليفة فسيذهب إلى سوريا لكي يقوم بواجباته في ذلك. ورفض الحسين هذا الاقتراح ببعض الازدراء. وإذا لم يكن عبد الله بن الزبير رجلًا بصورة كافية لكي يذهب إلى دمشق شخصيًا فإنه لا يكاد يتوقع أن يقوم الجيش بكل ذلك نيابة عنه. ومن هناك رفع الجيش الحصار وعاد إلى دمشق. وكانت هذه الفرصة التي سنحت لعبد الله بن الزبير لكي ينقذ الإمبراطورية من حرب أهلية لا تتكرر أبدًا. وفي تلك الأثناء بويع معاوية الثاني الذي كان عمره ثلاثة عشر عامًا خليفة للمسلمين في دمشق، بينما تمت مبايعة عبد الله بن الزبير خليفة في المدينة المنورة، ومرة ثانية انقسمت الإمبراطورية بين غريمين كل منهما يطالب بالخلافة.

نستطيع أن نفسر الأسباب التي جعلت عبد الله بن الزبير يرفض العرض الذي قدمه له الجيش الأموي السوري، ومن ضمنها أن مصير الحسين في كربلاء كان واضحًا في ذهنه وهو أيضًا دعي وإذا أخذ الدعوة بجدية فسيقتل ويهان. وإذا كان هذا الآن هو السبب الوحيد فإنه يمكن له تكوين جيش في الجزيرة العربية؛ حيث تتطلب قضيته تأييدًا واسعًا، ويمكن أن يزحف إلى دمشق تحميه قوة عسكرية خاصة به. واستمر عبد الله بن الزبير لسنوات كثيرة في السعي للخلافة بينما هو نفسه يقيم في مكة. وعلى الرغم من أنه شاب قد ساهم في الفتوحات الكبرى فهو الآن يعيش في مكة لسنوات عديدة. وفي هذا الجو الديني الذي يحيط به باستمرار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الباقين على قيد الحياة وتحيط به ذكريات الماضي، لم يستوعب عبد الله بن الزبير حقيقة أن الإمبراطورية العربية أصبحت الآن قوة دولية مترامية الأطراف تعتمد قوتها على التجارة والمال والإدارة

والقوات المسلحة المدربة، وأن الحكومة الدينية القديمة تتمركز الآن في الأماكن المقدسة وأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعودوا ولاة الأمور. وتحولت العاصمة بصورة حتمية إلى بلد ثري ومتقدم ومزدهر على صلة وثيقة بالعالم المتحضر الحديث.

لاحظنا قبل ذلك أن عبيد الله بن زياد بعد مذبحة الحسين وأنصاره في كربلاء تمت ترقيته إلى نائب الخليفة على النصف الشرقي من الإمبراطورية، بما فيها البصرة والكوفة وفارس، وكان والده زياد بن أبيه قد تولى المنصب نفسه منذ أعوام قليلة مضت. وعندما وصلت أنباء وفاة يزيد إلى البصرة صعد عبيد الله بن زياد منبر المسجد الكبير ودعا أهل البصرة إلى مبايعته كخليفة للمسلمين – لأن المسجد آنذاك كانت تجري فيه أمور العبادة والسياسة – وأراد أن يحصي أعداد المقاتلين فوجد ثمانين ألف رجل من البصرة وحدها ومائة وأربعين ألفًا من النصف الشرقي من الإمبراطورية. وبالتالي لم يكن عند أهل البصرة أي منافس لعبيد الله يخافون منه فيستطيعون أن يبايعوا بأمان أي خليفة يختارونه هم بأنفسهم. وأحدثت خطبة عبيد الله التأثير المطلوب وبايع الحاضرون بن زياد حاكمًا جديدًا لهم.

عندما بعث عبيد الله بن زياد وفدًا لتأمين ولاء أهل الكوفة له رفض أهل الكوفة بشدة مبايعة عبيد الله وبايعوا واحدًا منهم زعيمًا لهم حتى يتبينوا من سيكون الخليفة.

كان هناك ثلاثة يطمحون أن يكون كل منهم أميرًا للمؤمنين، وذلك في ديسمبر عام ٦٨٣ م: الطفل معاوية الثاني وبويع له في دمشق، وعبد الله بن الزبير المعروف في الحجاز، وعبيد الله بن زياد في البصرة.

في تلك الأثناء وصل رسول إلى البصرة من مكة يدعو للبيعة لعبد الله بن الزبير كخليفة للمسلمين بعد أن بويع له في مكة والمدينة المنورة. واختلفت الآراء في ذلك في البصرة وكانت أول حرب أهلية بين المسلمين قد نشبت منذ ستة وعشرين عامًا قبل ذلك عندما بويع لعلي بن أبي طالب زوج بنت الرسول صلى الله عليه وسلم في الكوفة، بينما بويع لمعاوية في دمشق. وكان كثير من القادة الدينيين الذين شاركوا في الفتوحات الكبرى قد سئموا من هذه

المنازعات بين الخصمين الطموحين وأعلنوا ولاءهم لحكومة دينية صرفة. وكان شعارهم «لا حكم إلا لله» وهو شعار يصعب تحقيقه في الحياة الدنيوية. وسعى زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد بصرامة شديدة لقمع هؤلاء الخوارج. وفي ديسمبر عام ٦٨٣ م عندما أصر عبيد الله بن زياد على مطالبته بالخلافة في البصرة ظهرت في المدينة مجموعة كبيرة من هؤلاء الخوارج المتشددين، آخذين العهد على أن من يضطهدهم لن يستمر طويلًا في الحكم.

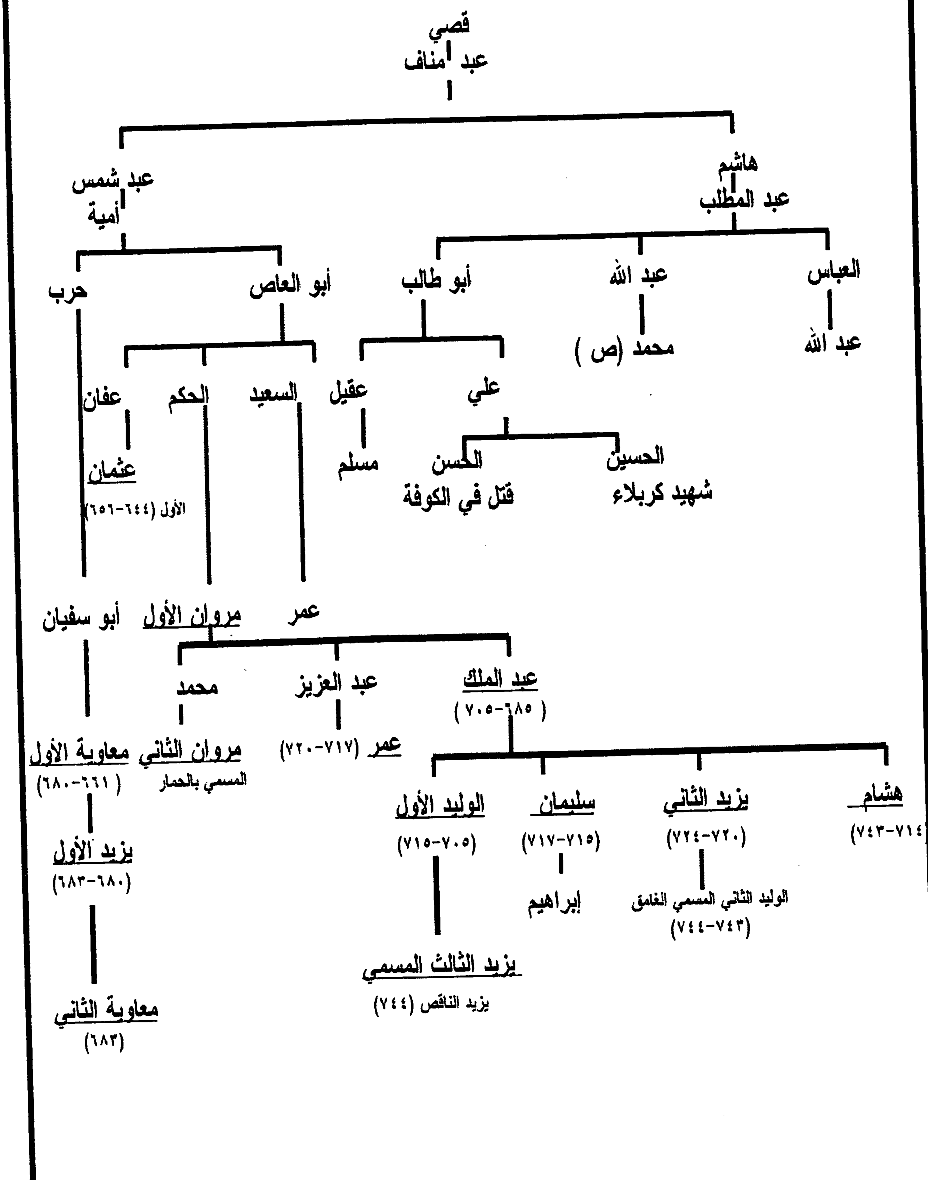
بهذه الفوضى التي حلت في الإمبراطورية العربية تمزقت البصرة إلى ثلاث مجموعات كل مجموعة تؤيدها قبائل معينة. وكانت الجيوش التي فتحت العراق لمدة أربعين عامًا من قبل تتكون من ممثلين لقبائل وسط الجزيرة العربية، وكل قبيلة كانت تشكل ما يطلق عليه وحدة عسكرية. وعندما أصبحت البصرة قاعدة عسكرية كبيرة كانت الوحدات العسكرية التي تمثل القبائل المختلفة تعسكر كل واحدة منها في معسكر خاص بها. وهكذا تم ضمان ولاء القبائل في الجيش.

أعلنت قبيلة الأزد في ذلك الوقت ولاءها لعبيد الله واشتراكها في الحروب ضد أعدائه من الخوارج المتشددين دينيًا. وانضم إلى قبيلة الأزد بنو بكر بينما وقفت ضدهم قبيلة بني تميم وقيس. وفي أوائل عام ٦٣٤ م انغمس إقليم البصرة في حرب أهلية دموية. وفي تلك الأثناء فقد عبيد الله بن زياد أعصابه ولجأ إلى الهرب يحرسه أنصاره من قبيلتي الأزد وبني بكر، وهرب إلى الصحراء متخذًا طريقه إلى دمشق فوصلها بأمان ومعه ما يضمه بيت مال البصرة.

أصبح عبيد الله بن زياد موضع الكراهية في العراق لأربعة أسباب: أولها وأكثرها أهمية المذبحة العنيفة التي حدثت للحسين وأنصاره في كربلاء، وبالإضافة إلى ذلك قسوته وخاصة العدد الكبير من الناس الذين أعدمهم مما جعله عدوًا لأهل العراق. وأغضبت غطرسته والمبالغ الكبيرة التي أنفقها في بناء قصر له رجال القبائل العربية. والسبب الرابع يلقي ضوءًا متزايدًا على الإدارة الداخلية للإمبراطورية.

أنساب بني أمية

***



قبل ذلك بخمسة وأربعين عامًا فتح العرب العراق من الفرس. ولم يستقروا بصفة عامة فيه ليزرعوا الأرض ولكنهم استمروا في حملاتهم العسكرية بعيدًا عن العراق في اتجاه فارس. وسمحوا لوجهاء فارس عندما خضعوا لهم واعتنقوا الإسلام بالبقاء في أراضيهم، وكانت واحدة من الشكاوى التي قدمت ضد عبيد الله بن زياد أنه فرض الضرائب على ملاك الأراضي الفرس (ومعظمهم في ذلك الوقت كان من الجيل الثاني الذي نشأ بعد الفتح) وكان رد بن زياد على هذه الشكاوى أنه لم يكن ممكنًا أن يفرض الضرائب على الوجهاء العرب؛ لأنه إن فعل ذلك واستدعى واحدًا منهم للحساب فسيستدعي قبيلته مما يؤدي إلى نشوب نزاع مسلح يهدد الإمبراطورية مباشرة. ولم يكن عند مالكي الأراضي الفرس قوة مسلحة يستندون عليها وكانوا مضطرين إلى تقديم خدمة مخلصة للإمبراطورية، وإن لم يفعلوا ذلك فسيتم إقصاؤهم ونزع الأراضي منهم(*).

بعد هروب عبيد الله بن زياد من البصرة حدث نزاع مسلح بين القبائل لفترة قصيرة. ثم ضجت القبائل من الخوف المستمر وسفك الدماء فعقدت هدنة وتم دفع فدية للمقتولين. ونُصِّب قائد محلي واليًا مؤقتًا حتى يتضح الموقف في الإمبراطورية برمتها. واختارت الكوفة واليًا خاصًا بها، ولكن لم يتمتع أي من هؤلاء الولاة بتأييد أي حكومة مركزية. ونتيجة لذلك انهارت الحكومة عمليًا، وسيطر العنف والنهب على الحكام وعوام الناس واتبعت كل قبيلة الطريق الذي يحقق لها امتيازات خاصة بها.

يشمل الجزء الشرقي من الإمبراطورية بلادًا معروفة لنا بفارس وأفغانستان وجزء من باكستان. وتحكم الكوفة شمال فارس، أما البصرة فتحكم شرق فارس وجنوبه؛ ونظرًا لأن الكوفة والبصرة كانتا في فوضى فإن الفوضى انتشرت في أقاليم فارس أيضًا. واستفاد الأتراك من هذه الفوضى التي عمت العرب فعبروا نهر الأوكسس لغزو فارس. وكانت قوة العرب الحربية لا تزال ديناميكية لدرجة أن جنود قبيلة بني تميم كانوا كافين وحدهم لهزيمة الأتراك الأشداء هزيمة منكرة وطردهم خارج الإمبراطورية، ومع ذلك فقد كانت قوات القبائل الأخرى في فارس يقاتل بعضها بعضًا.

(*) (كانت ضرائب الخراج تفرض على الفرس الذين لم يدخلوا في الإسلام مقابل الدفاع عنهم أما الفرس الذين دخلوا في الإسلام فلم تفرض عليهم ضرائب – المترجم).

في ديسمبر عام ٦٨٣ م كما أوضحنا من قبل كان هناك ثلاثة خلفاء متنافسين في الصورة: الطفل معاوية في دمشق، وعبد الله بن الزبير في مكة، وعبيد الله بن زياد في البصرة. وبعد ذلك بشهرين توفي معاوية وهرب عبيد الله بن زياد. ولفترة من الوقت بقي عبد الله بن الزبير المرشح الوحيد للخلافة في الميدان. وبعثت كل من الكوفة والبصرة وفودًا إلى مكة للحصول على مبايعة أهلها بينما وصلت وفود من قنصرين وحماة في سوريا ومن مصر، ولو كان عبد الله بن الزبير قد زحف الآن إلى دمشق لكانت الإمبراطورية قد أصبحت موحدة ولكنه أصر على البقاء في مكة بعيدًا عن مراكز الحياة والتجارة والثروة.

في ربيع عام ٦٨٤ م كادت الإمبراطورية أن تسقط كتفاحة ناضجة في قبضة عبد الله ابن الزبير. وتجمع بنو أمية كلهم في دمشق وكان مروان بن الحكم، أقدم الرجال وأكثرهم توقيرًا من بني أمية، على وشك أن يرحل إلى مكة لكي يقدم فروض الولاء والطاعة لابن الزبير ومن هناك يتم توحيد الإمبراطورية. ولكن حال رجل دون ذلك هو عبيد الله بن زياد الذي وصل في تلك اللحظة إلى دمشق هاربًا من البصرة.

على الرغم من القسوة والعنف اللتين كان يتسم بهما فهناك شيء ما في هذا الشاب الذي ما زال في العشرينيات من عمره أصغر بسنوات من مروان. وعندما سمع بنية مروان للخضوع إلى عبد الله بن الزبير رفض هذه النزعة الانهزامية الاستسلامية بلا قيد أو شرط، وأعلن أن مروان نفسه هو الخليفة الأصلح للعرب. وقد قدّم بنو أمية أربعة خلفاء من قبل وكانوا القادة الفعليين للأمة، فيجب على مروان أن يتولى عرش الإمبراطورية فجمع بنو أمية أنصارهم في الجابية متهللين من هذا الحماس، والجابية قاعدة عسكرية جنوب دمشق. وبايعت فلسطين وقنصرين عبد الله بن الزبير. أما الضفة الغربية ودمشق فاعترفتا بمروان خليفة للمسلمين وبدأت حرب أهلية أخرى.

من كل الأسباب التي بررها العرب لقتال بعضهم بعضًا نجد من أكبر الأسباب التي لا يمكن تفسيرها، هو انقسامهم إلى مجموعات شمالية ومجموعات جنوبية. وطبقًا للتقاليد القديمة كان سكان الجزيرة العربية يتكونون من جنسين: الجنس الشمالي وهم أولاد

عـدنان المنحـدر مـن إسمـاعيل بن إبراهيم عليهما السلام وكانوا يسكنون في شمال الحجاز، والجنس الجنوبي وهم ينحدرون من قحطان وأحيانًا يعرب بن قحطان وهو ينحدر من سام ابن نوح عليه السلام. وهذه الأنساب خرافية لا تهمنا (*). وسكن الجنس الجنوبي اليمن، ومع ذلك وفي الوقت الذي نكتب فيه هذا الكتاب نجد أن الجنسين قد اختلطا من الناحية المكانية، وكثيرًا مما يطلق عليهم القبائل الجنوبية استوطنت لقرون عديدة في الصحراء السورية.

يمكن القول إن بعض التقاليد القديمة تكونت على أساس صراع الأجناس في الماضي البعيد، ونتج عن هذه العداوات القديمة نظام كامل من التحالفات شمل كل القبائل في الجزيرة وهذا النظام أفضل من تقسيم ذرية المنحدرين إلى جنس شمالي وجنس جنوبي. وهذه التحالفات بين القبائل يمكن ملاحظتها في عصرنا هذا (وحتى بين دول العالم) فعندما ينشب الصراع بين قبيلة (أ) وقبيلة (ب). وعلى بعد ثلاثمائة ميل منهما ينشب النزاع بين قبيلة (ج) وقبيلة (د) على بعض الأمور المحلية وهذا النزاع ليس له علاقة بالصراع بين قبيلة (أ) وقبيلة (ب). ولكن كلاً من قبيلة (ج) وقبيلة (د) يشعر بالحاجة لوجود حليف، فتقترب قبيلة (ج) من قبيلة (أ) والنتيجة أن قبيلة (د) تتحالف مع قبيلة (ب) وبسرعة تنضم القبائل الأخرى كل واحدة بطموحاتها أو مخاوفها الذاتية إلى قبيلة أو جماعة أخرى، وتصبح التحالفات الخاصة في النهاية قوية جدًا لدرجة أنه لا تستطيع قبيلة واحدة أن يكون عندها الجرأة في أن تبقى منعزلة. وسواء أكان ذلك بقرابة الدم الفعلية أو بتلك الطريقة من التحالفات، تبقى حقيقة أنه في القرن السابع والثامن أعلنت كل قبائل الجزيرة العربية أنسابها سواء الجنس الشمالي أو الجنس الجنوبي.

في سوريا كانت القبيلتان الرئيسيتان هما كلب التي يرجع أصلها إلى الجنوب وقيس التي يرجع أصلها إلى الشمال. ويمكن لنا أن نذكر أن أم الخليفة يزيد بن معاوية كانت

(*) (هذه الأنساب ليست خرافية كما يتصورها الكاتب ، ولكنها حقيقية؛ لأن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام هو الذي يرجع نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام – المترجم).

ميسون الشاعرة ويرجع أصلها إلى قبيلة كلب التي حققت بذلك مكانة ممتازة مع الأمويين، وهي حقيقة امتعضت منها قبيلة قيس كثيرًا. وكان رئيس قبيلة كلب هو والي الأردن وهو إقليم طالما أيد الأمويين بتلك المكانة. ولذلك السبب وهو يفوق أي دافع ديني أعلنت قبيلة قيس في سوريا تمسكها بعبد الله بن الزبير خليفة شرعيًا.

في تلك الأثناء تمركز أنصار عبد الله بن الزبير على طرف الصحراء شرق دمشق فزحف مروان في منطقة مرج راهط ومعه ستة آلاف رجل. واستمر القتال لمدة عشرين يومًا فقط، وانتهى في يوليو عام ٦٨٤ م، وهزم أنصار عبد الله بن الزبير. وهرب الباقي إلى كيركزيا وهي سرسيا القديمة على نهر الفرات، واعترفت كل سوريا بخلافة مروان وكذلك فلسطين. وسار مروان إلى مصر وطرد الوالي الذي ولاه ابن الزبير، وألحق مصر بالأقاليم الأموية السورية. وأصبحت الإمبراطورية مرة ثانية مقسمة بين خليفتين متنافسين ينتسبان إلى أصلين مختلفين من قريش.

أثناء ولاية عبيد الله بن زياد هدأ أنصار الحسين في العراق، ولكن مع الفوضى التي تلت وفاة يزيد وهروب عبيد الله بن زياد من البصرة بدؤوا الاتصال بعضهم ببعض بهدف إعداد خطة للانتقام لدماء الحسين. ويمكن لنا أن نذكر أنه بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان دعا أهل الكوفة الحسين إلى العراق فسحق عبيد الله بن زياد المنشقين في المدينة وقتل الحسين بمنتهي القسوة بينما كان أهل الكوفة لا يزالون مهددين.

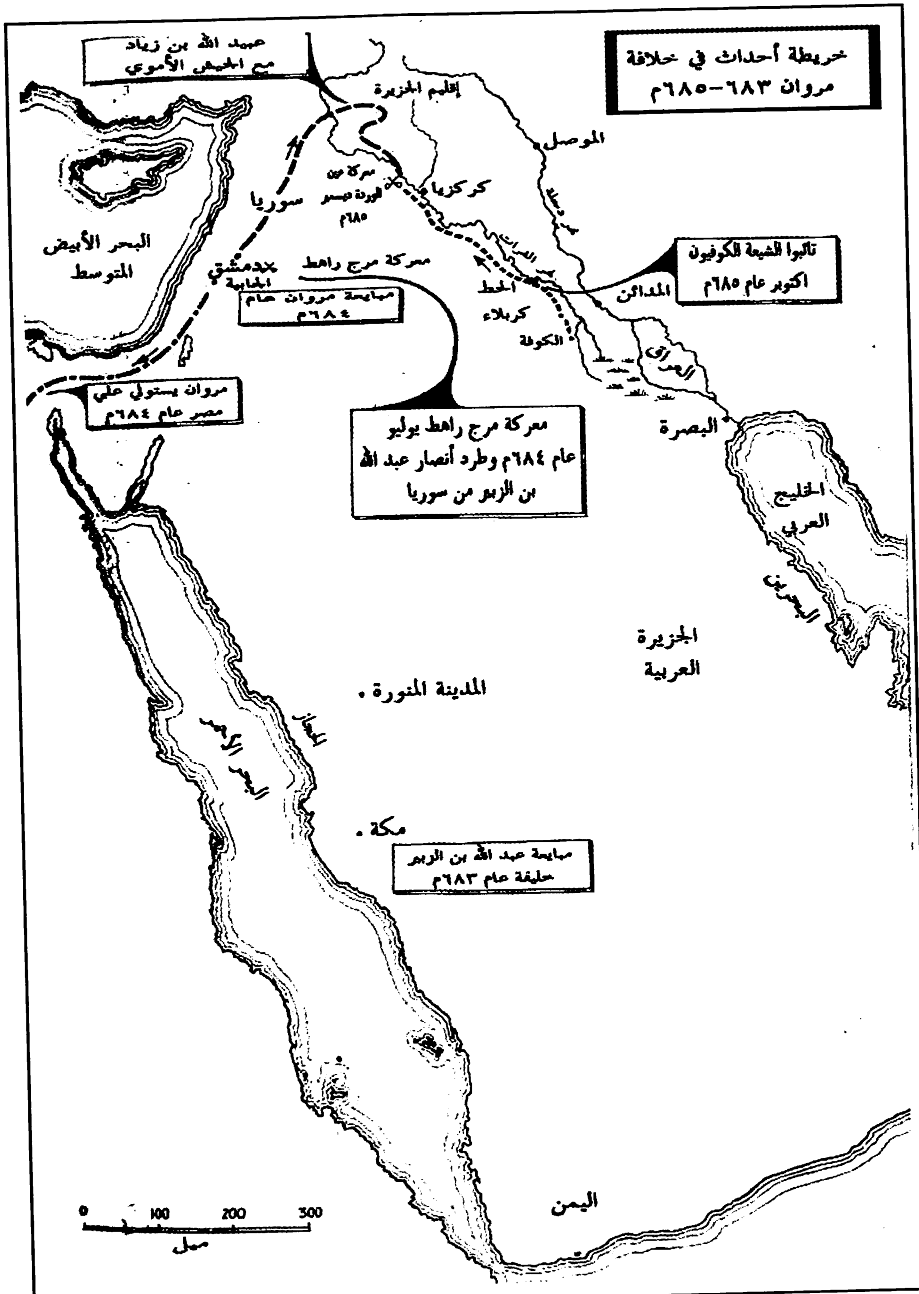
لكن عندما انتهت الصدمة وأبيد الحسين وأتباعه ندم أنصاره في العراق على فشلهم في الدفاع عنه. واعترفوا بأخطائهم بين أنفسهم ففكروا فحسب في كيفية التكفير عن ذنبهم وخيانتهم لحفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل كل منهم الآخر: «كيف سنكون قادرين على لقاء الله يوم الحساب؟»، «وكيف سنواجه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه في الجنة عندما نكون متهمين في الدنيا بتلك الخيانة الدنيئة؟»، «والطريقة الوحيدة التي نستطيع بها أن نكفر عن ذنبنا الخسيس هو أن نموت شهداء للانتقام لدمه». وفي بادئ الأمر تبادلوا هذه المشاعر بصورة سرية، ولكن هروب عبيد الله بن زياد شجعهم على

المجاهرة بها. وبدؤوا بزعامة سليمان بن الصرد في الالتقاء علنًا في الكوفة للتفكير فيما يجب أن يفعلوه.

في بداية أكتوبر عام ٦٨٥ م تجمع شيعة الكوفة المسلحون خارج المدينة. وكان عبد الله ابن الزبير قد أرسل واليًا مرشحًا منه من مكة، ولكن يبدو أنه كان ضعيفًا جدًا لدرجة أنه لم يتدخل لقمعهم. وبالإضافة إلى ذلك أعلن الشيعة نيتهم للانتقام لدم الحسين بمهاجمة الأمويين في دمشق الذين كانوا يتنازعون على الخلافة مع بن الزبير. ورغب عدد قليل من الشيعة العقلاء في الاتفاق مع بن الزبير على توحيد صف الجبهتين لتدمير الأمويين، ولكن هذه السياسة كانت أيضًا حلاً وسطًا للاستجابة إلى محبي علي والحسين الذين أطلقوا على أنفسهم التائبين، وتحركوا من الكوفة في العشرين من أكتوبر عام ٦٨٥ م وكانوا ستة عشر ألف رجل من أشداء الرجال ينوون غزو سوريا. وزحفوا أولاً إلى كربلاء وعسكروا مؤقتًا حول قبر الحسين الشهيد. وبأسلوب حزين صاحوا بصوت واحد يدعون «يارب سامحنا على ما فعلناه في الماضي، سامحنا لأنك الغفور الرحيم، يا ربنا ارحم روح الحسين وروح أتباعه الشهداء المخلصين الذين ماتوا معه، يا ربنا نعاهدك على أننا على أتم استعداد للشهادة، يا ربنا ارحمنا ولا تعذبنا بالنار». وهكذا يبكون ويصلون وينوحون ويبقون ليوم وليلة يسجدون حول مقبرة الحسين.

في عصر اليوم التالي تلقوا الأوامر باستئناف المسير. وأتت كل مجموعة بعد الأخرى إلى قبر الحسين للدعاء بالرحمة على روح الحسين ولتوديع هذه الذكريات، ثم استمروا في المسير كل مجموعة يتبعها الأخرى. وآخرهم كان القائد سليمان بن الصرد الذى ختم بالدعاء: «يا ألله إذا لم تكن قد رزقتنا الشهادة مع الحسين لا تحرمنا منها بعده».

ربما يهم الإنسانية أن نلاحظ هنا، أنه بعد وصف مشاعرهم الإنسانية عند قبر الحسين يقول الطبري إن الحرس المتقدم انطلق بزعامة عبد الله بن عوف وأن سيري بن كعب الذي كان حاضرًا شهد أن ابن عوف كان يركب دابته وهي فرس حمراء صغيرة ذات


خريطة أحداث في خلافة
مروان ٦٨٣-٦٨٥م
عبيد الله بن زياد
مع الجيش الأموي
إقليم الجزيرة
الموصل
كركزيا
سوريا
البحر الأبيض
المتوسط
دمشق
الجابية
معركة مرج راهط
مبايعة مروان عام
٦٨٤م
تألبوا الشيعة الكوفيون
اكتوبر عام ٦٨٥م
المدائن
كربلاء
الكوفة
مروان يستولي علي
مصر عام ٦٨٤م
معركة مرج راهط يوليو
عام ٦٨٤م وطرد أنصار عبد الله
بن الزبير من سوريا
البصرة
الخليج
العربي
الجزيرة
العربية
المدينة المنورة
مكة
مبايعة عبد الله بن الزبير
خليفة عام ٦٨٣م
اليمن
0 100 200 300
ميل

نيل مبتور» عاش الطبري أكثر من قرنين بعد ذلك، وتلك اللمسات القليلة تضمن الطبيعة الحقيقية لكثير من المواد في كتابه؛ لأن هذه الجملة قد جاءت مؤكدة إلينا من القرن السابع. ولا نعرف شيئًا عن سيري بن كعب أو عبد الله بن عوف، ولكن بعد ثلاثة عشر قرنًا يبدو لنا منظر فرس حمراء صغيرة لها ذيل مبتور تنطلق بخفة عبر الصحراء أمام القوات المتقدمة حيًا أمام أعيننا. وحتى في لحظات قمة التأثير العاطفي لم ينس العربي القبلي أن يذكر وصف الجياد(*).

بدأ مروان بن الحكم بعد تعزيز سلطته في سوريا بانتصاره في معركة مرج راهط في تشكيل جيش لغزو العراق، وولى القيادة الرئيسية لهذا الجيش لعبيد الله بن زياد الحاكم السابق للكوفة والبصرة. وتحرك الجيش على الفور من دمشق إلى إقليم الجزيرة وهو على أهبة الاستعداد لغزو العراق. وفي تلك الأثناء توفي مروان بن الحكم في دمشق وعمره ثلاثة وستون عامًا وخلفه بنه عبد الملك بن مروان. وفي الحقيقة أن هذا الجيش ليس فقط جيشًا أمويًا ولكن يقوده عبيد الله بن زياد الذي دبر مذبحة كربلاء مما جعل منه هدفًا مناسبًا للمنتقمين لدماء الحسين.

تأثرًا بالصدمة الماضية زحف التائبون إلى نهر الفرات حتى وصلوا كركزيا. وهذا المكان كان القاعدة الأمامية للبلاد التي أيدت على الأقل ترشيح عبد الله بن الزبير للخلافة، وبعد موقعة مرج راهط التجأ آخر أنصار عبد الله بن الزبير في سوريا إلى أسوارها ورحب والي كركزيا بالشيعة بحماس كرفاق سلاح ضد الجيش الأموي العام، واقترح عليهم توحيد إمكانياتهم مع أنصار ابن الزبير. ولكن التائبين لم يوافقوا على ذلك «إن عبد الله بن الزبير يقاتل من أجل السلطة الدنيوية ولكن هدفنا مختلف؛ لقد تركنا منازلنا وزوجاتنا

(*) (هذا يدل على دقة المؤرخين العرب وأنهم لم يغفلوا عن شيء حتى فيما يتعلق بالجياد في حين أن المؤرخين الأوروبيين قد غفلوا عن أشياء كثيرة في كتبهم – المترجم).

وأطفالنا وممتلكاتنا، نحن نبحث فحسب عن الشهادة لتكفير ذنوبنا والانتقام لدماء الحسين».

وبعد استيفاء إمداداتهم في كركزيا استمروا في المسير إلى عين الوردة، وهي لا تبعد عن الفرات إلا أميالًا قليلة. وفي اليوم التالي واصل الجنود التقدم إلى القواعد الأمامية للجيش السوري الأموي.

أمر عبيد الله بن زياد الحسين بن نمير الساكوني أن يتقدم (وهو الشخص نفسه الذي حاصر عبد الله بن الزبير في مكة في عهد يزيد) وفي الصباح بدأ القتال فعليًا. واتهم التائبون الجيش السوري الأموي بالعنف وعلى الرغم من قلة عددهم فقد أجبروه على التراجع بثبات دون قتال شديد. ولكن في ليلة وضحاها بعث عبيد الله بن زياد بتعزيزات تتكون من ثمانية آلاف رجل، وكان هناك كفاح ضارٍ خلال اليوم الثاني من القتال من جانب التائبين بدون الوصول إلى نتيجة محددة. وكان عدد التائبين ستة عشر ألف رجل قوي. ومن غير المرجح أن يكون الجيش الأموي الذي تعبأ لغزو العراق لديه أقل من ثلاثين أو أربعين ألف رجل، ولكن لم يكن الجيش الأموي محتشدًا عندما وصل الشيعة، ولذلك كان لواء واحد فقط من الجيش الأموي السوري متلاحمًا في القتال في اليوم الأول.

في الليلة التالية وصل عدد الجيش الأموي إلى أكثر من عشرة آلاف رجل وكان نتيجة ذلك أنه في اليوم الثالث للقتال وجد الشيعة أنفسهم أقلية. وأحاط الجيش الأموي بالباقين بعنف ولذلك كان التائبون يقاتلون يدًا بيد يائسين لدرجة أن العدو تبنى تكتيك التراجع عن قرب ورمي السهام على الباقين من كل اتجاه. وعندما رأى سليمان بن الصرد أن رجاله يتساقطون بسرعة – وهو قائد الشيعة – نزل من على جواده وسحب سيفه وشق جراب السيف وتبعه الآخرون وشقوا طريقهم كمجموعة متماسكة بقلة حيلة بسيوفهم المدببة إلى صفوف الأمويين. وكسب سليمان بن الصرد ثواب الشهادة بسرعة وهو يقاتل الصفوف الأمامية للجيش الأموي. وتقدم قائد آخر وهو يصيح على قومه: «من يريد الحياة التي ليس بعدها موت دعوه يقترب من ربه بقتل الفاسقين حتى تحلق روحه في الجنة». أما الشرذمة الباقية فقد ضيقت صفوفها واستمرت في القتال. وفي فترة خمود قليلة للقتال اندفع رجل

من قبيلة كندة يتبعه ابنه الصغير من صفوف الشيعة ونادى على الجيش الأموي السوري عما إذا كان هناك رجل من كندة بينهم. فتقدم أربعة رجال من صفوف الأعداء: «أنا عبد الله بن عبد العزيز الكندي» فصاح التائب: «خذ هذا الولد واعتنِ به وأرجعه إلى أهله في الكوفة» فصاح رجل من صفوف الأمويين: «أنت ابن عمي تعال أنت والصبي وسنحافظ على حياتكما»، فصاح والد الصبي: «لا أستطيع ذلك، إن أصحابي الذين كانت تقواهم محط أنظار كل البلد قد سبقوني الآن إلى الجنة وأنا متعجل الانضمام إليهم»، ودفع ولده الذي تعلق به وهو يبكي إلى صفوف العدو ثم تراجع خطوات قليلة وتقدم إلى صفوف الأمويين وسيفه في يده ثم قاتلهم حتى قتل.

هذا الموقف يذكرنا بأن هذا ليس قتالًا بين السوريين والعراقيين كما نعرفه؛ فكلا البلدين فتحتهما قبائل وسط الجزيرة العربية المحاربة منذ خمسين سنة مضت، والجيوش التي كان يحارب كل منها الآخر في سبيل مطالب بالخلافة أو مطالب أخرى كانت ولا تزال جيوشًا من قبائل وسط الجزيرة العربية التي لم تندمج بعد في السكان المحليين للبلاد المفتوحة.

في ليلة اليوم الثالث للقتال كان واضحًا أن العدد الضئيل من الشيعة سيتم القضاء عليهم بسرعة. وقام أحد قادة الشيعة – رفاعة بن شداد – بانسحاب متدرج. ورفض أحد التائبين إطاعة الأوامر، وقامت مجموعة مكونة من مائة رجل وأخرى مكونة من ثلاثين رجلًا متلاصقي الأكتاف، وتسابقوا براياتهم القبائلية شاقين طريقهم في صفوف الأمويين حتى تم قتلهم جميعًا؛ فانسحبت البقية الباقية تحت جنح الظلام وتركت ميدان القتال عندما أشرق الصباح. ولم يُجرِ الجيش الأموي أي محاولة لملاحقتهم.

عندما بزغ ضوء النهار ندم كثير من التائبين على بقائهم بعد القتال ورغبوا في العودة مرة ثانية للقتال. ونجح قادتهم بصعوبة بالغة في إقناعهم باستمرار الانسحاب. ولكن واحدًا منهم أصر على العودة في اليوم التالي، وهو الشخص الوحيد الذي كان على مرأى من الجيش السوري الأموي. وهذا الشخص رتب عدته وسحب سيفه وهاجم آلاف الرجال الأقوياء في صفوف العدو مباشرة. ولم يُخِب الله شوقه للشهادة.

حدثت معركة عين الوردة في ديسمبر عام ٦٨٥ م. وعندما عادت بقية الجيش مغتمة إلى الكوفة واجهت جنودًا من شيعة المدائن والبصرة قادمين للانضمام إلى الحملة العسكرية، وكانوا مثل رجال القبائل العربية النمطيين جهودهم غير منسقة وتم القضاء على رجال الكوفة فعليًا قبل رجال البصرة وأصبحت صفوف شيعة المدائن ظاهرة للعدو. وعند سماعهم عن القتال المأساوي في عين الوردة تفرق الجنود آسفين وعادوا إلى منازلهم.

من الجائز أن نشعر بالدهشة والتعاطف للإخلاص والشجاعة التي أظهرها تائبو الكوفة، ولكننا نلاحظ الآن أن توبتهم على خيانة الحسين تأخذ شكل الانتقام من قاتليه. وأخلاق الانتقام لعبت دورًا عميقًا في تاريخ العرب وتاريخ الإسلام كما هو مستحق أن نفكر فيه للحظة (*).

كانت منطقة وسط الجزيرة العربية قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ليس لها أي حكومة؛ بسبب فقر السكان الذين كانوا بالكاد يعين كل منهم الآخر وتشتتهم. وحيث لا يوجد قانون ولا شرطة ولا سلطة عامة، فالرجل الذي يظلم لا يتم القصاص منه إلا نتيجة لجرمه الخاص به. وإذا سرقت أمتعته فأمله الوحيد لتعويض خسائره هو أن يسرق أمتعة السارق وإذا لم يستطع أن يفعل ذلك بمفرده فعلى أقاربه التزام بأن يساعدوه في ذلك. وإذا قتل إنسان لا يمكن تعويض حياته ولكن يحاول أقاربه على الأقل تحقيق التوازن بقتل القاتل، وهذا النظام - العين بالعين والسن بالسن - كان في كل مكان فاعلًا في الجزيرة العربية حيث كان يدعو النبي صلى الله عليه وسلم(**). والرسول صلى الله عليه وسلم كان يفضل الإقناع على العنف بالكلية، ولكنه كان أيضًا رجل عصره؛ فكان يؤيد التسامح والعفو حينما يكون ذلك ممكنًا، ولكنه لم ينكر حق الانتقام.

(*) (التاريخ مليء بلحظات الانتقام سواء تاريخ العرب أو غيرهم، والانتقام هو رغبة في دفع الظلم سواء بظلم آخر أو أكبر منه ، وهو شعور طبيعي يجتاح كل الجماعات سواء عرب أو غيرهم - المترجم).

(**) (كان قتل القاتل يتم عن طريق إما حكم زعماء القبائل معًا قبل الإسلام في دار الندوة إذا لم تكن هناك حروب بين القبائل بسبب ذلك، أو عن طريق ولي الأمر وهو النبي صلى الله عليه وسلم نفسه عند ظهور الإسلام، ولم يترك النبي صلى الله عليه وسلم الانتقام للأهواء الشخصية - المترجم).

مع استقرار الحكومات المنتظمة لم يكن الانتقام الخاص غير ضروري فحسب، ولكنه أصبح تهديدًا للمجتمع. والآن لسوء الحظ أصبح من الصعوبة بمكان أن نشجبه؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقره بنفسه(*). ونتيجة لذلك استمر هذا المسلسل المرعب من الانتقام ينتاب المجتمع العربي حتى أيامنا هذه (**). وبنفس الطريقة لم يستخدم التائبون الشيعة إخلاصهم وحبهم للحسين حافزًا للاقتداء به في فضائله، ولكن أرادوا أن يظهروا إخلاصهم الوجداني له بقتل كل من له علاقة بوفاته أو بالاستشهاد للدفاع عن قضيتهم.

(*) (أقر النبي صلى الله عليه وسلم الانتقام عن طريق ولي الأمر وهو النبي صلى الله عليه وسلم نفسه أو الخليفة بعده ولم يتركه للأهواء الشخصية ولكنه دعا إلى العفو والتسامح أيضًا – المترجم).

(* *) (لم يكن دافع الانتقام نتيجة لأن النبي صلى الله عليه وسلم أقره ولكن نتيجة فوضى الحكومات وتمزقها والشعور بالظلم بين أفراد المجتمع في ذلك الوقت – المترجم).

تواريخ بارزة

- ٦٨٢ م الثورة في المدينة ضد الخليفة يزيد بن معاوية.
- ٦٨٣ م (أغسطس) موقعة الحمم.
- ٦٨٣ م (سبتمبر إلى نوفمبر) الحصار الأول لمكة.
- ٦٨٣م (نوفمبر) وفاة يزيد - مبايعة معاوية الثاني في دمشق - مبايعة عبد الله بن الزبير في مكة.
- ٦٨٤ م (فبراير) وفاة معاوية الثاني - معركة مرج راهط.
- ٦٨٤ م (يوليو) مبايعة مروان في دمشق.
- ٦٨٥ م (ديسمبر) معركة عين الوردة.

الشخصيات

الخلفاء:

* ٦٨٠ - ٦٨٣ م يزيد بن معاوية.

* ٦٨٣ - ٦٨٤ م معاوية الثاني بن يزيد.

* ٦٨٤ م مبايعة عبد الله بن الزبير خليفة في مكة.

* ٦٨٤ - ٦٨٥ م مروان بن الحكم (سوريا ومصر فحسب).

* ٦٨٥ م عبد الملك بن مروان - عبيد الله بن زياد يحاول أن ينصب نفسه خليفة في البصرة ولكنه أقصي منها.

الفصل الرابع

الانتقام للحسين

يقول إنهم سيقتلون والدم يأتي بالدم.

(ويليام شكسبير)

الانتقام هو نوع من العدالة الهمجية التي كلما جنحت إليها طبيعة الإنسان أكثر كلما هذبها قانون الإنسان أكثر.

(فرانسيس بيكون)

١- التاريخ الأدبي للعرب.

(نيكلسون)

هذا ابن سيدة النسوان فاطمة وابن الوصي الذي في سيفه نقم

(الفرزدق – من ديوان الفرزدق)

عندما تمت مبايعة عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الجديد في دمشق عام ٦٨٥ م، واجه الخليفة الأموي موقفًا يرهب أكثر الرجال شجاعة. وبغض النظر عن المنافسات فيما بين القبائل، مثل حرب محلية جرت في خراسان، كانت هناك أربع مجموعات من المتشددين مشتبكة في حرب أهلية. وكان الأمويون يسيطرون على سوريا ومصر، أما عبد الله بن الزبير فكان يحكم الجزيرة العربية، أما العراق فكانت القبائل تتصارع فيه على الحكم. وقبل

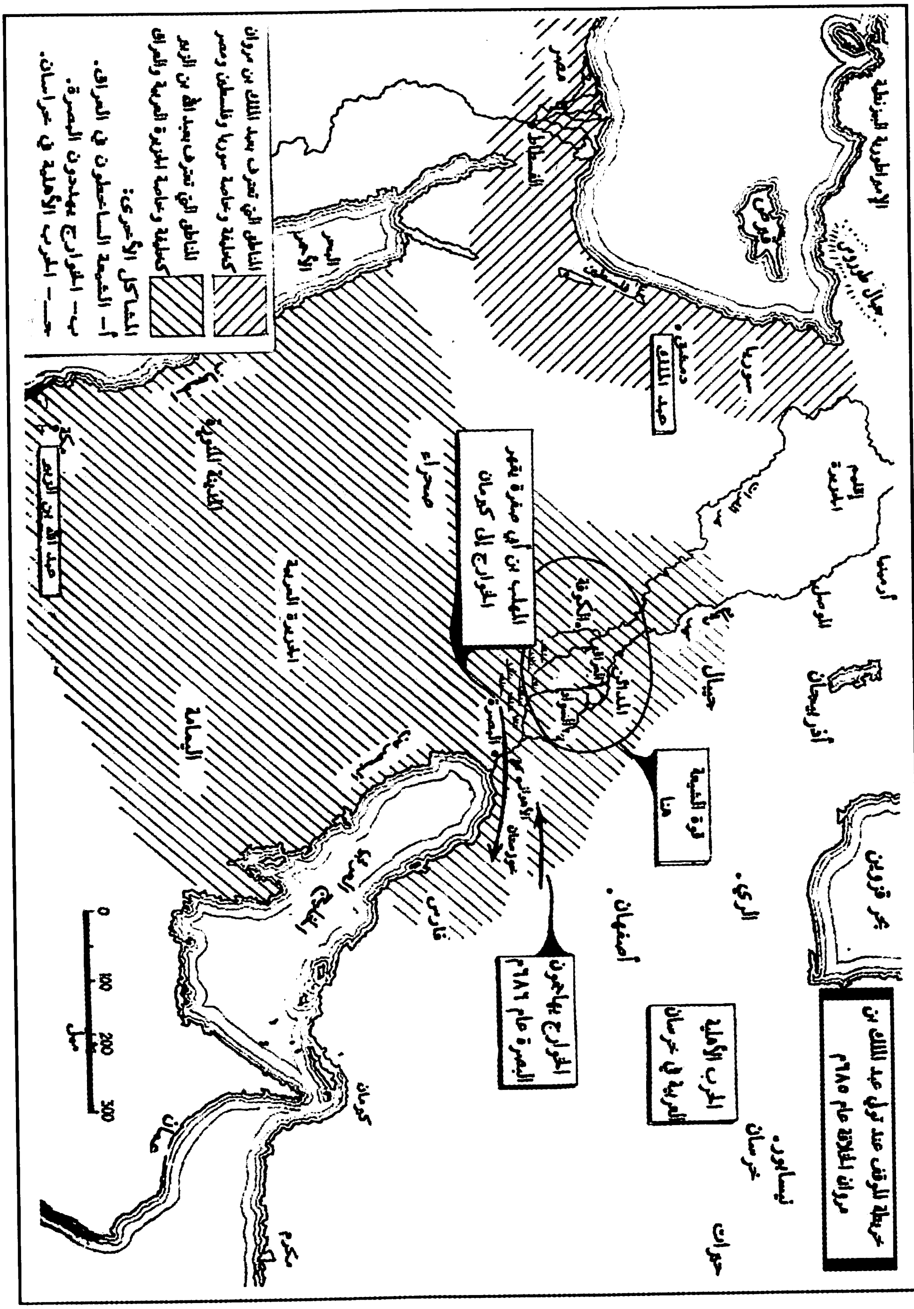
وفاة مروان بمدة قصيرة أرسل جيشًا إلى الحجاز لكي يستولي على المدينة المنورة، ولكن تمت هزيمته وقتل قائده. ولما تمت مبايعة عبد الملك بن مروان في دمشق وجد نفسه يسيطر بصورة مستقرة على سوريا وفلسطين ومصر فحسب.

هناك زعم بأن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب هو الذي وضع القاعدة القائلة بأن من يريد أن يصبح خليفة شرعيًا يجب أن يحظى باعتراف المسلمين جميعًا. ومرت فترة بينية قصيرة قبل أن يرفع مروان رايته في دمشق، وذلك عندما حظي عبد الله بن الزبير باعتراف جميع الأمصار. ووفقًا لآراء الأتقياء كان قد صار خليفة، ولما لم تكن هناك آلية لخلع الخليفة يجب أن يبقى هو الخليفة الوحيد الشرعي حتى وفاته. وتبعًا للحقيقة الفعلية أصبح هناك في الصورة متنافسان يتنافسان على الخلافة.

بالإضافة للخليفتين المتنازعين كانت هناك جماعتان دينيتان مسلحتان: الأولى في العراق الشيعة، أو أنصار علي بن أبي طالب وابنه الحسين الشهيد وكانت أقوى جماعة تسيطر على وسط العراق في المنطقة من الكوفة إلى المدائن، وكانت تعترف بالحاجة إلى خليفة مؤقت ولكنها رفضت مبايعة بني أمية بالخلافة، وكذلك عبد الله بن الزبير وأصرت على أن الخلافة يجب أن تكون وراثية في ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة زوجة علي بن أبي طالب. وزاد تعصبهم لوجهة نظرهم بصورة كبيرة عن طريق شعورهم بالذنب بأنهم بأنفسهم الذين خانوا الورثة الشرعيين للحكم؛ عليًا بن أبي طالب والحسين.

أما الجماعة الأخرى المسلحة في الميدان فكانت الخوارج الذين يمكن مقارنتهم بحركة المقاتلين في عصر كروميل. ولأنهم كانوا مشمئزين من الحروب الأهلية التي لا تنتهي بين المطالبين بالخلافة والمتنافسين؛ فإنهم اتبعوا نموذج الحكومة الدينية. أما أقل الخوارج تطرفًا فقد اعترف بالحاجة إلى خليفة إنساني، ولكنهم طالبوا بأن يكون المسلم كفئًا تمامًا لذلك المنصب، وليس بالضرورة من قريش أو أن يكون عربيًا.

عندما تمت مبايعة عبد الملك بن مروان خليفة في دمشق عام ٦٨٥ م، وكان هناك جيش من الخوارج الأشداء مكون من عشرة آلاف رجل يحارب في خوزستان ويهدد بالاستيلاء


خريطة الموقف عند تولي عبد الملك بن مروان الخلافة عام ٦٨٥م
بحر قزوين
أرمينيا
أذربيجان
الموصل
إقليم الجزيرة
الإمبراطورية البيزنطية
جبال طوروس
قبرص
سوريا
دمشق
عبد الملك
مصر
الفسطاط
نيسابور
خرسان
حيرات
الري
جبيال
قوة الشيعة هنا
الحرب الأهلية العربية في خرسان
أصفهان
المدائن
الكوفة
الخوارج يهاجمون البصرة عام ٦٨٦م
المهلب بن أبي صفرة يقهر الخوارج إلى كرمان
البصرة
خوزستان
فارس
صحراء
البحر الأحمر
الجزيرة العربية
كرمان
مكرم
الخليج العربي
المدينة المنورة
اليمامة
عمان
مكة
عبد الله بن الزبير
0 100 200 300
ميل
المناطق التي تعترف بعبد الملك بن مروان كخليفة وخاصة سوريا وفلسطين ومصر
المناطق التي تعترف بعبد الله بن الزبير كخليفة وخاصة الجزيرة العربية والعراق
المشاكل الأخرى:
أ- الشيعة الساخطون في العراق.
ب- الخوارج يهددون البصرة.
جـ- الحرب الأهلية في خراسان.

على البصرة. وكان والي هذه المدينة الذي ولاه عبد الله بن الزبير قد قاد جيش البصرة مرتين ضد هؤلاء الخوارج، ولكن في كلتا الحالتين تمت هزيمة الجيش هزيمة ثقيلة حتى ظهر بعد فترة جيش الأزارقة الخارجي على شواطئ النهر أمام المدينة. وفي تلك الأزمة عين عبد الله بن الزبير المهلب بن أبي صفرة قائدًا جديدًا للجيش لكي يقوده في البصرة ونجح في قيادته بالقرب من الأهواز، وفي إلحاق الهزيمة بالخوارج المتعصبين الذين انسحبوا شرقًا في اتجاه كرمان. وسنسمع عن المهلب بن أبي صفرة مرة ثانية. وفي تلك الأثناء نشأ عن ذلك الموقف وضع خطير في شمال العراق.

في عام ٦٣٤ م، أثناء خلافة عمر بن الخطاب، عين أبو عبيد بن مسعود لكي يقود الجيش الذي كان على وشك أن يفتح فارس. فعبر جيش المسلمين الفرات بإقدام أمام جيش الفرس فهاجمهم هذا الجيش الذي كان الفيل في مقدمته. ومع انه كان قائدًا سيئًا فإنه كان رجلًا شجاعًا؛ هاجم الفيل الذي كان في المقدمة وسيفه في يده فوطِئه الفيل حتى مات وعانى جيشه من هزيمة كارثية.

كان بن هذا القائد الشجاع المقدام يعيش في الكوفة باسم المختار بن أبي عبيد، ولما كان وصول الحسين متوقعًا في تلك المدينة ألقاه عبيد الله بن زياد في السجن لتعاطفه المثير للشبهات مع أسرة علي بن أبي طالب. ووضع في السجن حتى بعد وفاة الحسين. وتم إطلاق سراحه في النهاية، وبينما كان عبيد الله يستجوبه ضربه في وجهه بمقبض سيفه وسبب له جرحًا خطيرًا. وكانت عادة عبيد الله ضرب الأشخاص الذين يمثلون أمامه وهي عادة جلبت عليه عداوات حادة، ومنها كانت عداوة المختار له. فترك المختار الكوفة وهو يقسم على الانتقام من عبيد الله بن زياد، واتجه إلى مكة وانضم إلى الخوارج لفترة من الوقت، وعندما عاد إلى الكوفة بعد هروب عبيد الله سجنه الوالي الذي عينه عبد الله بن الزبير، وفي النهاية تم إطلاق سراحه مرة ثانية فاتصل بالشيعة في الكوفة، ومع ذلك فقد رفض أن يصاحب سليمان بن الصرد في الحملة التي أدت إلى معركة كارثية في عين الوردة. وكان لموت كثير من قادة الشيعة في تلك المعركة تأثير في تمكين المختار عام ٦٨٥ م في أن

يجعل نفسه القائد المعترف به من بقية شيعة الكوفة. ثم ثاروا فجأة. وعندما خرجوا من منازلهم وتجمعوا في مجموعات في الشوارع الضيقة والأماكن المفتوحة اجتمعوا ثانية بعد حلول الظلام ولجؤوا إلى صيحة المعركة: «أيها المنتصرون انتقموا للحسين» ونادى الوالي بالنيابة عن عبد الله بن الزبير على زعماء المدينة أن يتسلحوا وأن يقضوا ليلة مضرمة بالقتال في الشوارع المظلمة بعد ذلك. وعند الفجر وعلى الرغم من كون الشيعة أقلية فقد سيطروا على المدينة، وجلس المختار بنفسه في قاعة الاستقبال في قصر الإمارة.

صعد المختار المنبر في صلاة الجمعة، وأعلن برنامجه على المجتمعين؛ وهو أنه سيهتدي بالقرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه سينتقم لدماء أهل بيت الرسول الشهداء، وسيقاتل هؤلاء الذين اغتصبوا الخلافة. وتعهد بالدفاع عن الفقراء والمظلومين بصفة خاصة. واستمر في إلقاء خطبته، ودعا أهل الكوفة لمبايعة سيدهم الجديد. وبعد ذلك بعث الولاة باسمه لكي يفرضوا سيطرتهم على أقاليم أرمينيا وأذربيجان والموصل وجبال الإقليم الشمالي الشرقي الفارسي من الكوفة.

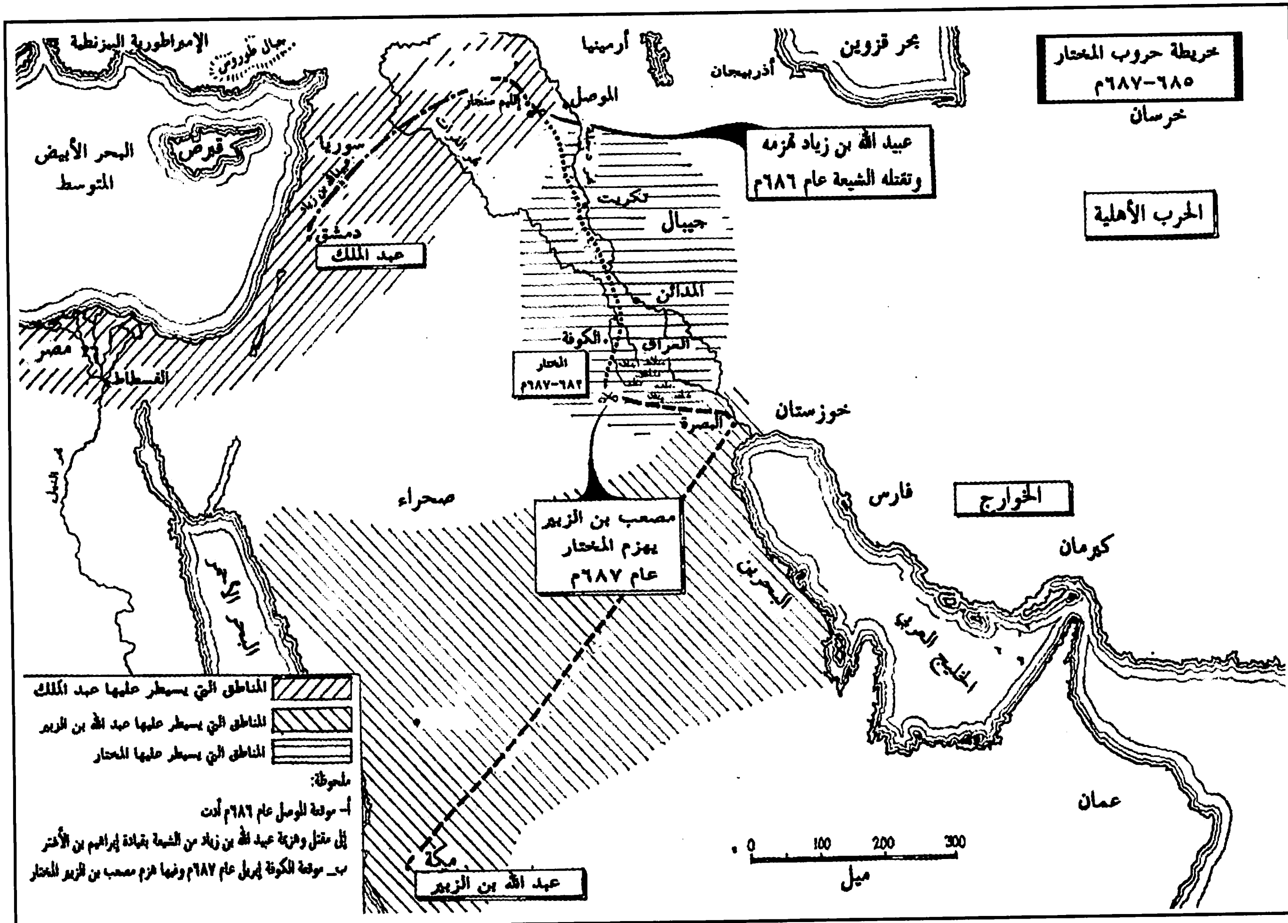
كنتيجة لثورة المختار في الكوفة تغير الموقف بناءً على ذلك في خريف عام ٦٨٥ م فتم طرد الخوارج من البصرة ولم يعد لهم وجود، أصبح هناك ثلاثة مطالبين بحكم الإمبراطورية. عبد الملك بن مروان في دمشق يحكم سوريا ومصر، وعبد الله بن الزبير يحكم في ذلك الوقت الجزيرة العربية والبصرة فحسب، والمختار بن أبي عبيد الذي تمت مبايعته في الكوفة وأقاليم شمال فارس. أما كل مظاهر الحكم فقد اختفت من خراسان حيث كانت القبائل العربية المتصارعة لا يزال بينها حرب أهلية.

يجب أن نذكر أن عبيد الله بن زياد كان قد انتقل إلى شمال الجزيرة بعد معركة عين الوردة؛ حيث كان مشغولاً لمدة عام في قمع قبائل قيس التي كانت تناصر قضية خلافة عبد الله بن الزبير. وبعد وصول الوالي المختار إلى الموصل بوقت قصير اقترب عبيد الله من تلك المدينة على رأس الجيش الأموي، ولكن جيش الشيعة الذي كان يفوقه عددًا أخلى الموصل بصورة يائسة وانسحب إلى تكريت فأصبح موقف المختار فجأة حرجًا. فمع أنصار

عبد الله بن الزبير الذين يسيطرون على البصرة من جانب والجيش الأموي بقيادة عبيد الله بن زياد في الموصل من جانب آخر أصبح بين شقي الرحى.

كانت أغلبية عرب الكوفة ليست من الشيعة. أما المختار فقد استولى على السلطة بطريقة مباغتة محددة، وأما الشيعة فقد كانت فرقة صغيرة ومخلصة لأهدافها ولكنها أصبحت الأغلبية بطريقة مدهشة. وشجعت أخبار انسحاب المختار من الموصل الزعماء الذين بدؤوا يجتمعون سرًا في منازلهم للتآمر على هزيمة الشيعة. وكانت شكاوى الكوفيين الرئيسية ضد المختار، هو أنه ادعى أنه يعمل بالنيابة عن آل علي بن أبي طالب الباقين في مكة، وكان يرسل الرسائل مستعينًا بتأثيرهم، ولكن هذه الرسائل ثبت أنها لا تفصح عن نيته الحقيقية. وثانيًا ثبت أن ادعاءه بمساعدة الفقراء والمظلومين قد اتخذ شكل تحرير العبيد وإغواء الموالي من القادة العرب وتجنيدهم في جيشه. وكان أسلوبه في تجنيد العبيد والموالي يعبر بوقاحة عن الانتهازية القصيرة الأمد بحق. وكانت أغلبية عرب الكوفة ضده، وكان مضطرًا إلى تجنيد الشعوب الخاضعة لحكم الخلافة. وكانت أغلبية العبيد دون شك من الفرس الذين أسر العرب آباءهم أثناء فترة الفتوحات الكبرى من خمسين سنة مضت. وكثير من هؤلاء العبيد كان قد تم تحريرهم ولكنهم ظلوا في خدمة أسيادهم حراسًا تابعين لهم.

في الواحد والعشرين من يوليو عام ٦٨٦ م ثارت المدينة ضد المختار وأتباعه، ونتج عن ذلك يوم آخر من القتال الضاري والهرج في الشوارع. ونادرًا ما يقدم لنا المؤرخون العرب رواية كاملة للموقف، ولكنهم يفضلون أن يسجلوا تتابعًا لسلاسل معلومات يتلقونها بالرواية من خلال سلسلة طويلة من الوسطاء، أو من شخص ما كان موجودًا في الحدث المرويّ عنه. وغالبًا ما تكون هذه الروايات المتعددة يناقض بعضها بعضًا، ولكن من وقت لآخر تبدو هذه الروايات أنها تسجل حقيقةً حدثًا كاملاً فيه من الإتقان والحيوية التي نضمن بها القصة كحدث حقيقي وصل إلينا نقيًا من القرن السابع. وهذه الروايات اقتبسها الطبري في غضون وصف طويل ومضطرب عن القتال في الكوفة في


خريطة حروب المختار
٦٨٥-٦٨٧م
خرسان
الحرب الأهلية
بحر قزوين
أذربيجان
أرمينيا
الموصل
عبيد الله بن زياد تهزمه
وتقتله الشيعة عام ٦٨٦م
تكريت
جبال
المدائن
الكوفة
العراق
المختار
٦٨٢-٦٨٧م
البصرة
خوزستان
فارس
الخوارج
كيرمان
عمان
الخليج العربي
البحرين
مصعب بن الزبير
يهزم المختار
عام ٦٨٧م
صحراء
مكة
عبد الله بن الزبير
البحر الأحمر
النيل
مصر
الفسطاط
عبد الملك
دمشق
سوريا
الإمبراطورية البيزنطية
جبال طوروس
قبرص
البحر الأبيض
المتوسط
0 100 200 300
ميل
المناطق التي يسيطر عليها عبد الملك
المناطق التي يسيطر عليها عبد الله بن الزبير
المناطق التي يسيطر عليها المختار
ملحوظة:
أ- موقعة الموصل عام ٦٨٦م أدت
إلى مقتل وهزيمة عبيد الله بن زياد من الشيعة بقيادة إبراهيم بن الأشتر
ب- موقعة الكوفة إبريل عام ٦٨٧م وفيها هزم مصعب بن الزبير المختار

تلك الظروف. أما المتكلم فيها فهو كان مولى يقاتل إلى جانب المختار، وهو مع مجموعة من رفاقه أخذهم عرب الكوفة أسرى. وتم سحب الواحد تلو الآخر وكان يستجوبهم رجل يقود مجموعة كـانت هـي التـي أسرتهم. ويقرر الراوي أنه لاحظ أن كل العبيد والموالي تم ضرب أعناقهم، في حين أن الأحرار من العرب لم يكونوا مسلحين وقيل لهم أن يذهبوا إلى بيوتهم. ولما وجد الراوي أن المولى سيتم استجوابه وتم اقتياده أمام القائد العربي سأله من أين أتى؟ وفي رده على السؤال أراد أن يذكر قبيلة سيده، وسأله القائد «هل أنت عربي أم فارسي؟» فقال «إنه عربي حر» فرد قائد الجيش العربي «حسنًا، انطلق إلى منزلك وابتعد عن الطريق». وهذه الواقعة ذات أهمية كبيرة؛ حيث يظهر أنه في عام ٦٨٦ م وبعد خمسين عامًا من الفتوحات الكبرى لم يستطع العرب بأنفسهم أن يميزوا العبيد العرب المحررين من الفرس؛ فالعبد الفارسي ولد وترعرع بلا شك كعبد أو مولى لقبيلة عربية وتعلم اللغة العربية كلغة أم له. وكان أسياده بالطبع يعلمون أصله ويعاملونه بالتالي كتابع لهم، ولكن العرب الذين لا يعرفونه شخصيًا لا يستطيعون تمييزه عن العربي المولود عربيًا. وهذه الحقيقة ذات مغزى كبير عندما ننظر بعمق إلى التكوين الجنسي للعرب اليوم.

بعد قتال شديد في الشوارع أسرع الشيعة إلى ترديد نوبة صياح للحرب: «انتقموا للحسين». وأصبحت لهم الكلمة العليا في النهاية. وعندما تولى المختار السلطة في البدء بذل كل جهده لكي يكسب تأييد الكوفيين إلى جانبه، ولكن بعد ثورتهم المفاجئة غير رأيه وكل الذين حضروا مع الجيش الكوفي لقتال الحسين تم قتلهم الآن. ومع فكرة الانتقام العربية العين بالعين تم قتلهم بالطريقة نفسها التي قتلوا بها شهداء أهل بيت الحسين. وهؤلاء الذين رموا سهامهم عليهم تم إطلاق السهام عليهم «حتى ظهروا مثل القنافذ» كما يسجل ذلك المؤرخ العربي. والرجل الذي طعن الحسين قُتل بالطريقة نفسها. والرجل الذي جرد الحسين من ملابسه جُرد هو أيضًا من ملابسه قبل قتله.

عم رضاء كبير بين الناس بقتل شمر بن ذي الجوشن، الذي سنذكر أن عبيد الله بن زياد السادي الذي كان يميل إلى الدماء عندما وصل إلى حل وسط بعدم قتل الحسين أقنعه

هذا الرجل – شمر – بضرورة قتل الحسين. أما عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد جيش الأمويين الذي قتل الحسين فتم قتله أيضًا. ولقد أسس أبوه سعد بن أبي وقاص فعليًا مدينة الكوفة وأرسلت رأسا شمر وعمر إلى الباقين من أسرة علي بن أبي طالب في مكة. أما قادة المدينة العرب الموالين للأمويين الذين لم يتم القبض عليهم فهربوا بأسرع ما يمكن ولجؤوا إلى أنصار عبد الله بن الزبير في البصرة.

بمجرد أن قمع جيش الأمويين بقيادة عبيد الله بن زياد ثورة الكوفيين أرسل المختار جيشًا إلى الموصل لكي يوقف تقدم عبيد الله بن زياد. وولى القيادة إلى إبراهيم بن مالك الأشتر الذي كان والده مقاتلاً شهيرًا ومتعصبًا في جيوش علي بن أبى طالب، من خمس وعشرين سنة مضت. ومن الملاحظ هنا أن كثيرًا من الرجال البارزين عام ٦٨٠ م كانوا أبناء القادة الرئيسيين في الفتوحات المبكرة. وساعدتهم شهرة آبائهم على الإجادة، ولكن بدلًا من التضامن معًا كطبقة عسكرية حاكمة نجدهم هنا يقضي كل واحد منهم على الآخر في حروب أهلية انتحارية (*).

تقدم إبراهيم بن مالك بن الأشتر بسرعة إلى الموصل ووجد عبيد الله بن زياد يعسكر مع الجيش الأموي خارج المدينة. وفي فجر اليوم التالي تواجه الجيشان معًا. وكان إبراهيم وهو يمتطي جواده في صفوف الشيعة يقف بجانب راية الحرب لكل قبيلة ويصيح: «يا شرطة الله، أيها المدافعون عن الدين، يا جماعة الحق أمامكم عبيد الله بن زياد الذي قتل الحسين بن فاطمة ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي منع الحسين ونساءه وأطفاله من الشرب من مياه الفرات، وفرعون نفسه لم يضطهد بني إسرائيل كما اضطهد هو أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم».

كان الجيش الأموي أكثر عددًا إلى حد كبير، وكان جناحه الأيسر يضم قبيلة قيس، التي كان ولاؤها إلى الأسرة الأموية في دمشق يثير شكوكًا أكثر. وعندما شن الشيعة هجومهم

(*) (الحروب الأهلية قد تحدث نتيجة بغي طائفة على طائفة أخرى وهكذا الأحوال على مدار التاريخ ونتيجة أن الصحابة كانوا بشرًا فلابد أن يتعرضوا هم وأبناؤهم لنفس للظروف التاريخية نفسها التي تحدث للأمم الأخرى– المترجم).

تقهقرت قبيلة قيس، وبعد قتال ضارٍ انهار الجيش الأموي. واخترق ثلاثمائة رجل من الشيعة الذين تقاسموا على قتل عبيد الله الصفوف جنبًا إلى جنب، وتقدموا صفًا صفًا في صفوف الأعداء حتى وصلوا إلى بن زياد وبروا بقسمهم وقتلوه. وقتلوا معه الحسين بن نمير السكوني الذي ضرب مكة بالمنجنيق في عهد يزيد، ثم احتل إبراهيم بن مالك الأشتر الموصل وبعث جنودًا استولت على نصيبين وسنجار.

في مثال بارز للعدالة الباهرة وضع رأس عبيد الله بن زياد القاسي أمام المختار في قاعة الاستقبال لقصر الكوفة، والتي فيها لعب عبيد الله بن زياد برأس الحسين الشهيد المخضب بالدماء من أربع سنوات مضت.

بينما كانت هذه الأحداث البارزة تحدث في منطقة الموصل جاء مصعب بن الزبير شقيق عبد الله بن الزبير إلى البصرة لكي يتولى القيادة. وأدى الظهور المفاجئ للمختار إلى وأد قضية خلافة ابن الزبير أكثر مما فعل الخليفة الأموي نفسه. وأصر عبد الله بن الزبير على أن عاصمته هي مكة المكرمة في شبة الجزيرة العربية؛ وهي منطقة قدمت مقاتلين أشداء ولكنها كانت بلا موارد. وبناءً على ذلك كان يعتمد كليةً على موارد العراق وفارس وكان لاستقرار المختار في الكوفة أثره في حرمان الخليفة المكي من موارد العراق فيما عدا إقليم البصرة وقطع اتصالاته بجميع أنحاء فارس. أما عبد الملك بن مروان فكان من الناحية الجغرافية والمالية في وضع أفضل بكثير؛ لأن سوريا ومصر كانتا قريبتين من بعضهما وكانتا أغنى منطقتين في الإمبراطورية العربية. وكان الأمويون بناءً على ذلك، قادرين إذا استدعت الأحوال على حكم سوريا ومصر بصورة واضحة كمملكتين منفصلتين. ولكن كان على عبد الله بن الزبير أن يستعيد موارد العراق مباشرة وإلا سينهار حكمه. وكنتيجة لذلك تقدمت قوات بن الزبير الآن من البصرة في اتجاه الكوفة.

قبل مغادرة البصرة استدعى مصعب بن الزبير مساعده المهلب بن أبي صفرة الذي نراه في النهاية يطرد الأزارقة من البصرة. وبعد انتصاره عينه عبد الله بن الزبير واليًا على جنوب فارس. والآن يستدعيه مصعب بن الزبير لكي ينضم إليه في حملة عسكرية ضد

المختار بن أبي عبيد، وتمهل هو في الاستجابة لهذا الاستدعاء. وعندما وصل إلى البصرة بعد فترة من الوقت ومعه جيش كبير ذهب لكي يرى مصعبًا بن الزبير. وعندما سأله الحاجب أن يعطيه اسمه ضربه على وجهه ضربة جعلت أنفه ينزف ودخل بالقوة. وربما يكون عبيد الله بن زياد يتلذذ بتعذيب الناس أو لا يكون، ولكننا هنا نجد مثالًا آخر لأحد أسياد العرب المتغطرسين الذي يضرب على الوجه. ومن السخرية بمكان أن نذكر أنه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أظهر أحد القادة العرب ملامح للغطرسة فوصف الرسول صلى الله عليه وسلم تصرفه هذا كبقايا للكفر وعبادة الأوثان؛ فالمسلم في نظر الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجب أن يكون متكبرًا أو متغطرسًا. والآن قليلًا ما يستطيع جنس من الأجناس أن يحقق الفتوحات الباهرة التي حققها العرب في خمسين عامًا دون خسارة كبيرة. ويوجد حديث مؤثر للنبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى أنه إذا جمعت كل الغطرسة في العالم معًا فإن تسعة أعشارها تخص البيزنطيين. ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يتوقع، إلا قليلًا، أن أتباعه في غضون خمسين عامًا سيرثون نفس الصفات من أعدائهم المنهزمين(*). ويكفي بالنسبة لنا أن نلاحظ أن العرب الآن أصبحوا طبقة أرستقراطية متعالية؛ لأن غطرستهم ستؤدي بعد فترة ليست طويلة إلى فقدان الحكم.

هناك نقطة مهمة في مسألة المهلب بن أبي صفرة؛ وهي أنه للوهلة الأولى نرى حاكم إقليم فارس يستدعى لكي يساند أحد الأطراف في الحرب الأهلية العربية. وكانت قواته كما يزعم المؤرخون ضخمة جدًا، ولكن لم يكن ممكنًا التأكد من تشكيل هذا الجيش أمن العرب أم من الفرس؟ ولكن بلا شك فقد كان الجيش يضم فرسانًا مسلمين وموالي. وكانت القيادة ما زالت بالطبع للجنس العربي.

زحف مصعب بن الزبير بجيشه بعد أن تم تعزيزه بجيش جنوب فارس إلى الكوفة. وبقي المختار بنفسه في الكوفة ولكنه خرج بجيشه لمواجهة الغزاة. ونذكر أن جزءًا ضخمًا

(*) (نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية الصحابة على الأخلاق الحميدة والصفات الطيبة، أما من جاءوا بعد ذلك فليس لهم أي علاقة بتصرفات الصحابة خصوصًا إذا لم تكن طيبة – المترجم).

من قوات المختار تم تجنيده من العبيد الفرس والموالي من عرب الطبقة الأرستقراطية في الكوفة وهرب كثير من هؤلاء الموالي إلى البصرة، وهم الآن يتقدمون مع جيش مصعب بن الزبير، وهكذا في هذه الحملة العسكرية نجد الفرس في كلا الطرفين. ولقد حتمت المجازر الانتحارية المتبادلة بين القادة العرب القبائل العربية على تجنيد الفرس(*) وهي عملية أدت بالتدريج إلى تغيير التكوين الجنسي الديموجرافي في الإمبراطورية العربية.

عندما تواجه الجيشان كان الشيعة بقوتهم العادية وكفاحهم مترددين لبعض الوقت. ثم تقدم المهلب لهجوم حاسم فاستسلم مشاة الكوفة وأبيد جيش المختار عند هروبه. وعندما وصلت أنباء الكارثة إلى المختار في قلعة الكوفة سأله أحد أنصاره عما يمكن فعله الآن، فرد بهدوء: «إنه ليس أمامنا شيء نفعله إلا الموت» فجمع بقايا أنصاره وكون منهم صفوفًا للقتال في الحرورة، وهي قرية تبعد أميالاً قليلة عن الكوفة. وفي قتال ثانٍ استمر لمدة يوم وليلة كان جيش الشيعة في النهاية مشتتًا، وأمر مصعب بقتل كل الأسرى. وفي النهاية حبس المختار نفسه في القلعة ومعه حفنة من أتباعه.

لكن الموقف الآن لا يبشر بخير، وأغلق المحاصرون أبواب القلعة بإحكام بحيث لا يستطيع من بداخلها أن يحصل على الماء أو الطعام. وفي النهاية خاطب المختار أنصاره: «عندما أرى اضطراب الإمبراطورية فمن مطالب بالخلافة في دمشق وآخر في مكة والثورة في اليمامة واضطراب الجزيرة العربية، وأنا أيضًا وضعت نفسي كواحد منهم ولم أفعل أكثر من الآخرين فيما عدا أني انتقمت لدم علي والحسين الذين أهمل المسلمون الانتقام لهم، ولكن الآن من الأفضل أن أموت بشرف والسيف في يدي بدلاً من أن أظل في الحصار في هذه القلعة في خوف وذل». وسحب المختار سيفه واتبعه تسعة عشر من أصحابه المخلصين ولقي حتفه ووجهه يطل على العدو من القلعة إلى شوارع المدينة. أما هؤلاء الذين بقوا في القلعة فقد استسلموا بسرعة بعد ذلك وأعدموا بدم بارد. وقتل المختار في أبريل عام ٦٨٧ م وكان عمره سبعة وستين عامًا.

(*) (هذه المذابح تدل على جهل بعض من جيل التابعين بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نهى عن التنازع على الحكم وقتل المسلم إلا بالحق والمثلة بالمسلم – المترجم)

هؤلاء العرب المرعبون الذين كانت فتوحاتهم في خمسين عامًا تذيق الرعب لكل الأمم حولهم، ظهروا الآن من خلال خلافاتهم الضيقة والمتنافسة ينوون هلاك جنسهم. والآن مع كل هذه الحماقة من المستحيل ألا نتأثر من الشجاعة الكلية التي كانوا يبدون فيها في أي لحظة أنهم مستعدون لمواجهة الموت. ولأن الفاتحين الأولين كانوا يتصفون بذلك فقد يلاحظ ذلك الآن بصورة أقل؛ لأنهم كان يستلهمون الحماسة الدينية الجياشة وكانوا يؤمنون أن الموت في ساحة القتال ضد الكافرين يعني الدخول الفوري إلى السعادة الأبدية في الجنة. ولكن الآن كما يبدو مدهشًا فقد استمروا في خلافاتهم الدنيوية المتنافسة غير مبالين بالموت وهو أقل قليلًا مما كان يفعله الفاتحون الأولون.

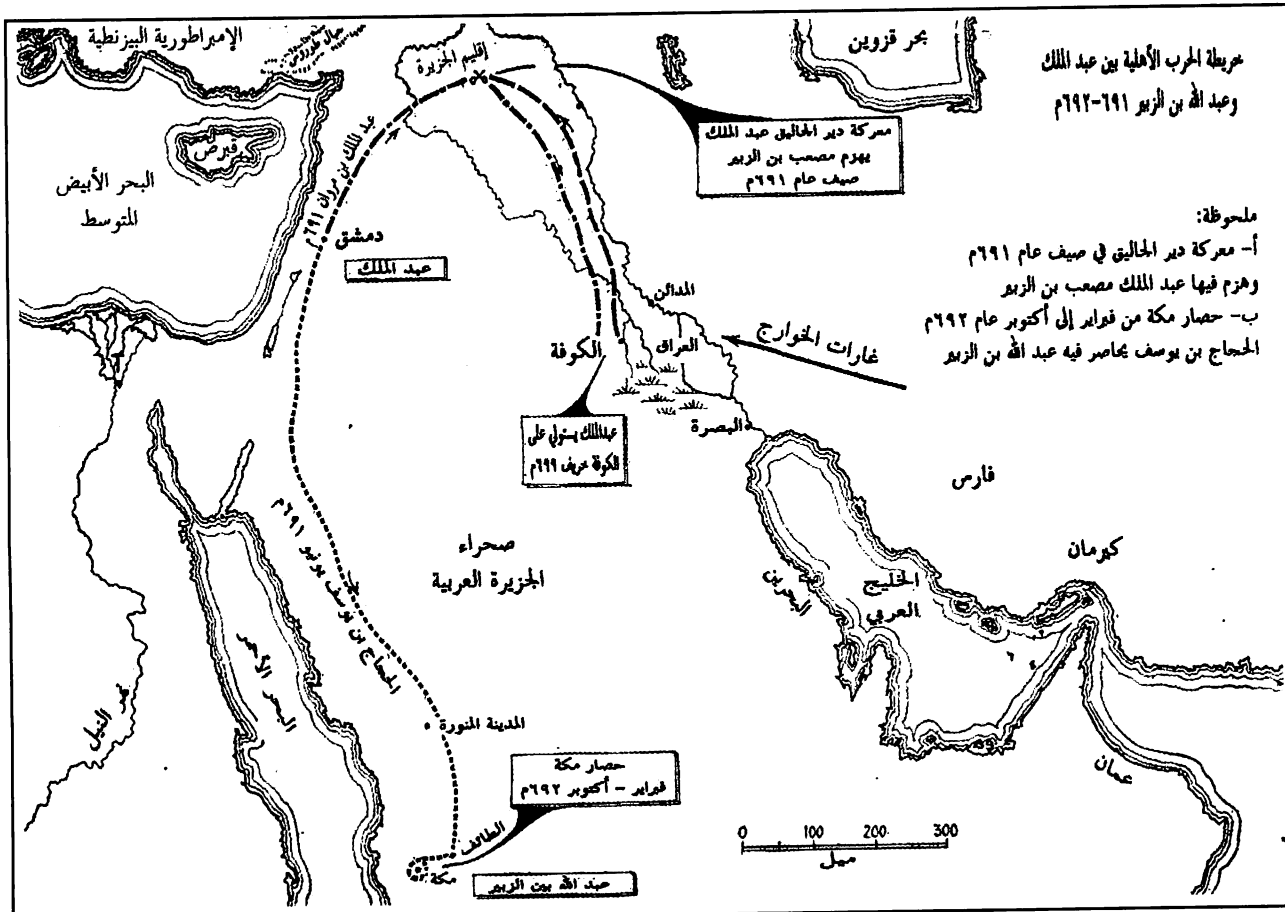
كان لزوال المختار أثره في بقاء حسم الخلاف بين الخليفتين المتنافسين في دمشق ومكة عن طريق القتال، مع أن الخوارج في جنوب فارس استمروا في الإغارة على منطقة دجلة السفلى من المدائن إلى البصرة. وقبل أن يوجه عبد الملك بن مروان كل طاقاته للحرب ضد منافسه، كان مضطرًا إلى التعامل مع خصم قريب منه. فقد كان عمر بن سعيد بن العاص بن عمه قد أعلن أن مروان قد وعده أن يترك له عرش الخلافة، ولكنه الآن نكث بوعده وعين ابنه عبد الملك بن مروان كوارث له. ونتيجة لذلك أعلن عمر بن سعيد أمام الناس أنه هو الخليفة الشرعي وليس عبد الملك. وأصبح بنا العم يعادي كل منهما الآخر بصورة متزايدة. ومع ذلك فقد ظهرا أمام الناس في صداقة علنية. وكان عبد الملك يعيش على أية حال في خوف مستمر من الاغتيال أو انقلاب السلطة لصالح عمر. وفي النهاية في أحد الأيام دعا الخليفة ابن عمه لكي يزوره في مساء اليوم نفسه في مقره الخاص. ورحب به في بادئ الأمر من قلبه مع أنه لاحظ أن عبد الملك يحوطه إخوته وأنصاره المخلصون، وبعد دخوله بفترة أغلقت الأبواب خلفه. وبعد تبادل الاتهامات بينهما أشار الخليفة إلى أحد الخدم فضرب عمر ولكنه فشل في أن يقتله؛ لأن الضحية أخذ احتياطاته وارتدى سترة مكونة من سلاسل من الدروع تحت ثوبه. وتردد بنو مروان في قتله وتلا ذلك مقاومة غير متكافئة. وفي النهاية تم إلقاء عمر على الأرض إلى أن ركع الخليفة بنفسه على صدره وقطع عنق بن عمه بيديه. وفي تلك الأثناء حدث تجمع خارج القصر وهدد أنصار عمر بن سعيد بالثورة. وبسرعة تم

فصل رقبة عمر بن سعيد عن جسده وألقيت للناس لكي تقنعهم أن القضية قد انتهت، ثم تفرق الجمع بعد ذلك من هناك.

ربما يبدو غريبًا بالنسبة إلينا أن يستمر الناس بناءً على ذلك في خدمة خليفة بإخلاص مع أنه قتل بن عمه بكلتا يديه. وخصوصًا من أناس معتادين على الحروب وعلى أهبة الاستعداد لمواجهة الموت بأنفسهم أن يظنوا أنه من الطبيعي أن يتخلص الإنسان من غريم له بتلك الطريقة. وصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قاتل أعداءه ولكنهم كانوا كافرين ويعارضون انتشار الإسلام. وقد أدان بشدة قتل المسلم لأخيه المسلم.

في عام ٦٨٩ م هددت الإمبراطورية البيزنطية بالقيام بهجمات إيجابية أكثر على الحدود العربية، وكان عبد الملك بن مروان الذي كان يشوبه القلق قبل كل الناس من إعادة توحيد الإمبراطورية، قد وافق على أن يدفع للبيزنطيين جزية مكونة من ألف دينار كل أسبوع وبذلك يعتبر نفسه آمنًا من الهجمات البيزنطية، ولم يعد خائفًا من مغادرة دمشق خوفًا من أن يتولى ابن عمه الخلافة في غيابه، وكان في أوائل عام ٦٩١ م قد تأهب جديًا لحملة عسكرية، وكان أقرب عدو له هو مصعب بن الزبير في العراق وليس أخاه عبد الله في مكة.وكان الكوفيون المتقلبون قد ملوا من حكم مصعب بن الزبير وكان عبد الملك بن مروان يراسل كثيرًا من زعماء الكوفة الذين وعدوه بتقديم تأييدهم له. وتقدم في تلك اللحظة بجيشه بقيادة عبيد الله بن زياد إلى أعالي الفرات بينما تحرك مصعب في اتجاه الشمال من الكوفة لكي يواجهه. وفي صيف عام ٦٩١ م تواجه الجيشان في دير الجيليق في إقليم الجزيرة بسوريا وكان إبراهيم بن مالك بن الأشتر الشجاع الذي كان يعمل لصالح المختار قد هزم عبيد الله بن زياد وقتله في الموصل، وهو الذي قاد طليعة جيش مصعب وقام بشن هجوم على مقدمة جيش الأمويين واضطرهم إلى الفرار بسرعة، وتلى ذلك قتل إبراهيم نفسه عندما تم تعزيز الجيش الأموي.

عندئذ أمر مصعب الكثير من قادة الجيش بالتقدم، ولكن بدا كل واحد منهم يعتذر عن ذلك وقال أحدهم: «لا أريد لرجالي أن يعانوا من إصابات غير ضرورية». وقال الآخر


خريطة الحرب الأهلية بين عبد الملك
وعبد الله بن الزبير ٦٩١-٦٩٢م
ملحوظة:
أ- معركة دير الجاثليق في صيف عام ٦٩١م
وهزم فيها عبد الملك مصعب بن الزبير
ب- حصار مكة من فبراير إلى أكتوبر عام ٦٩٢م
الحجاج بن يوسف يحاصر فيه عبد الله بن الزبير
الإمبراطورية البيزنطية
بحر قزوين
إقليم الجزيرة
معركة دير الجاثليق عبد الملك
يهزم مصعب بن الزبير
صيف عام ٦٩١م
قبرص
البحر الأبيض
المتوسط
دمشق
عبد الملك
عبد الملك بن مروان ٦٩١
المدائن
غارات الخوارج
العراق
الكوفة
عبد الملك يستولي على
الكوفة خريف ٦٩١م
البصرة
فارس
كرمان
صحراء
الجزيرة العربية
الخليج
العربي
البحرين
البحر الأحمر
نهر النيل
الحجاج بن يوسف خريف ٦٩١م
المدينة المنورة
حصار مكة
فبراير - أكتوبر ٦٩٢م
الطائف
مكة
عبد الله بن الزبير
عمان
0 100 200 300
ميل

«أطلب منك المعذرة». وقال آخر: «لماذا أتقدم بينما لا يتقدم قائد آخر». وبدأ قلب مصعب يرتج لأنه أدرك فجأة أن كل هذه الأمور قد تم ترتيبها مقدمًا في مراسلات سرية مع عبد الملك بن مروان وكانت غير معروفة له فصاح: «يا إبراهيم» «ولكن إبراهيم لم يعد معي» لأن إبراهيم ابن مالك بن الأشتر كان في الحقيقة أكثر القادة إخلاصًا في ذلك الوقت. وبينما كان الجيشان يتواجهان خرج محمد بن مروان أخو عبد الملك من الجيش الأموي وصاح ببطء: «يقدم لكم ابن عمكم فرصة للنجاة بسلام يا مصعب» لأن كلًا من الأمويين وابن الزبير كان من قريش وبناءً على ذلك أولاد عمومة، فرد عليه مصعب بن الزبير: «إن رجلًا مثلي لا يترك جبهة تلك المعركة إلا ميتًا أو منتصرًا». ولكن عندما التفت إلى ابنه الصغير حثه على قبول العرض الأموي فقال: «أنا على وشك الموت ولكن الموت بالسيف ليس عارًا ولست معتادًا على الفرار» فصاح الشاب مندفعًا: «إن نساء قريش لن يقلن إني تركتك تموت وحيدًا»، وركب الشاب جواده وانطلق إلى الجيش الأموي ومات أمام أعين أبيه.

سقطت على مصعب مجموعة من السهام حتى هاجمه فجأة فارس وضربه برمح وهو يصيح بأعلى صوته: «الانتقام للمختار». وقطع أحدهم رأسه بسرعة وحمله إلى عبد الملك بن مروان. وتم حسم المعركة دون قتال على الأرجح في ديسمبر عام ٦٩١ م؛ حيث عسكر الخليفة الأموي خارج الكوفة وتلقى البيعة من القادة المحليين والقبائل. وعندما جلس في قاعة الاستقبال في القلعة وضعت رأس مصعب أمامه وقال أحد الناظرين: «في هذا المكان نفسه رأيت رأس الحسين موضوعًا على قدمَي عبيد الله بن زياد ثم رأيت رأس عبيد الله موضوعًا على قدمَي المختار ثم رأس المختار أمام مصعب والآن رأس مصعب أمام عبد الملك بن مروان». وارتعد الخليفة وأعطى أوامره بتدمير هذه القلعة حتى لا يتكرر هذا الأمر مرة ثانية، وعندئذ عين الخليفة عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وأقاليم فارس التابعة للإمبراطورية.

عندما اعتلى عبد الملك بن مروان منبر مسجد الكوفة الكبير لكي يدلي بأول بيان سياسي له أشار إلى أنه إذا كان عبد الله بن الزبير يستحق الخلافة ما كان ليمكث كل هذه السنين

في مكة بصورة سلبية، ولكنه كان سيأتي بنفسه إلى جبهة القتال لكي يدافع عن البلاد التي يحكمها. وكان يوجد في هذه الإشارة كثير من الصدق. وفي الحقيقة كان تصرف عبد الله ابن الزبير من الصعب تفسيره؛ خصوصًا أنه كان مشهورًا بالشجاعة. وكان إصراره على إقامة العاصمة في مكة يبدو كما لو كان رئيس الولايات المتحدة يريد أن ينتقل بالبيت الأبيض إلى ألاسكا(*). ومن المهم أن نشير إلى أن عبد الله بن الزبير جعل مكة عاصمته وليس المدينة المنورة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم. وقبل الإسلام كانت مكة من أغنى المدن في ثرائها وكانت أهميتها أكبر من أهمية المدينة المنورة. وهكذا فقد يكون في اختيار عبد الله بن الزبير عنصر من عناصر امتعاض المكيين من المدينة وأيضًا الغيرة من دمشق عاصمة الأمويين. ويمكن أن نذكر أن والد عبد الله بن الزبير قد اتخذ أنصاره في مكة عندما ثار ضد علي ابن أبي طالب.

كان لضياع العراق وفارس أثره في أن يجعل موقف بن الزبير تقريبًا يدعو لليأس لأن ذلك حرمه من مصادر الدخل تقريبًا، وكان عبد الملك بن مروان يعي ذلك حقيقة بصورة كلية ولذلك لم يكد يعود من الكوفة إلى دمشق حتى بعث جيشًا إلى الحجاز لكي يوجه ضربة قاضية إليه. وتولى قيادة هذه الحملة العسكرية الحجاج بن يوسف الثقفي الذي روي أنه مر بالمدينة متوجهًا إلى الطائف ثم اتجه غربًا وهاجم مدينة مكة المقدسة. ويزعم المؤرخون أن حصار مكة بدأ في فبراير عام ٦٩٢ م ولكن هذا بالكاد يسمح بوقت كافٍ، وإذا كان عبد الملك موجودًا في الكوفة في ديسمبر عام ٦٩١ م فربما كانت الحملة على العراق في أوائل عام ٦٩١ م.

استمر حصار مكة ثمانية شهور وسبعة عشر يومًا. وبرغم الحصار فقد يكون عبد الله ابن الزبير قد بدرت منه مبادرة صغيرة خلال العشرة أعوام السابقة على ذلك في الدفاع عن قضيته، وأظهر شجاعة لا تكل وعزيمة عندما خسر قضيته. ونصب الحجاج

(*) (نظرًا لأن مكة كانت ولا تزال العاصمة الروحية للعالم الإسلامي فإن عبد الله بن الزبير كان محقًا في ذلك ولكنه لم يكن محقًا في المكوث في مكة وعدم الانتقال إلى خصومه لكي يدافع عن حكمه – المترجم).

المنجنيق على الجبال التي تحيط بالمدينة. وكانت الذخيرة المستخدمة فيها تتكون من قطع من الصخور التي توجد في الجبال وهكذا استمر قذف المنجنيق المتواصل. وبينما تم تشديد الحصار على المكيين كانت الإمدادات كافية في معسكر الأمويين حتى قطع الكيك والحلويات الدمشقية فقد كانت بكميات كافية.

استفاد الحجاج من الدبلوماسية بنفس النجاح الذي أدار به العمليات الحربية. وقدم عهد العفو والأمان عن هؤلاء الذين هجروا قضية عبد الله بن الزبير. ونجح في التقليل من قوة حامية مكة تدريجيًا. وروي أنه ليس أقل من عشرة آلاف رجل لجؤوا إلى الجيش السوري الأموي أثناء الحصار. وأصبحت الروايات التي يرويها المدافعون عن مكة والتي كانت تروى مرارًا غير واقعية لأن الحامية ضعفت. وفي النهاية لم يبق مع عبد الله بن الزبير بالكاد إلا حفنة من الرجال حتى إن اثنين من أبنائه تركاه بالليل ولجأا إلى الجيش الأموي خاضعين.

كانت أسماء بنت أبي بكر هي أم عبد الله بن الزبير، وكان أبو بكر أخلص صديق وأول من آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم. وكان النبي صلى الله عليه وسلم عرضة للاضطهاد، وكان المكيون يهددونه بالقتل لمدة سبعين عامًا قبل الدعوة في مكة وبعدها. وخرج النبي صلى الله عليه وسلم خلسة في الغسق، وظل مختبئًا مع أبي بكر في غار يقع في الجبال التي تنطلق منها الآن القذائف والحمم الأموية على المدينة المقدسة. ولمدة ثلاث ليالٍ وبينما استمر الاضطهاد لصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أسماء تحمل الطعام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه تحت جنح الظلام. وفي الليلة الرابعة قرر الرسول صلى الله عليه وسلم الهجرة إلى المدينة مع صاحبه(*). فحملت لهما أسماء لفافة من الطعام كالعادة. وشقت نطاقيها اللتين كانت ترتديهما حول جلبابها واستخدمتهما لربط لفافة الطعام على سنام أحد الجملين فعرفت بذات النطاقين لمدة سبعين عامًا، وأصبحت إحدى بطلات الإسلام وكانت ولا تزال حية وقت حصار مكة. وذهب عبد الله بن الزبير بعد

(*) (كانت النية متجهة من الرسول صلى الله عليه وسلم للهجرة إلى المدينة في أول الأمر ومعه أبو بكر الصديق – المترجم).

أن تخلى عنه تقريبًا كل أتباعه حتى أقرب أقربائه إلى أمه العجوز لكي يستشيرها والتي كان عمرها في ذلك الوقت يتعدي الثمانين عامًا. وروي أنه قال: «لقد تخلى عني كل من معي حتى ابني وأسرتي ولم يبق إلا حفنة من الرجال بالكاد قادرة على الصمود لساعة أخرى. وعرض عليّ العدو أن أنجو بحياتي وأن يعطوني كل ما أحتاجه لكي أعيش، أخبريني يا أماه ما رأيك؟»، فردت عليه أمه العجوز: «إنك تعلم أكثر مني يا بني، إذا كنت تؤمن أنك على الحق فيجب أن تكون مستعدًا للموت في سبيله؛ لأن الأحرار لا يستسلمون أبدًا لأن رفقاءهم الجبناء قد تخلوا عنهم، ومن منطلق آخر إذن كان هدفك من هذه الحرب هو المكاسب الدنيوية فحسب فمن المعقول إذن أن تقبل بالحلول الدنيوية» فمال عبد الله على أمه الضعيفة وقبل شعرها وقال :« هذا هو أيضًا رأيي من اليوم الذي توليت فيه الخلافة؛ حيث كنت أنظر إلى الدين وليس الدنيا ولم أستمتع بالمتع الدنيوية ولكني كنت أريد أن أسمع رأيك سأقتل يا أماه ولكن لا تحزني علي». وخرج عبد الله وحيدًا والسيف في يده من واحد من أبواب حرم الكعبة، وطارد العدو في الأزقة الضيقة بأسفل الجبال التي تحف بالمدينة. وبسرعة ضربته قذيفة آجرة في وجهه وانسال الدم بأسفل لحيته وملابسه. وبعد أن توقف لثانية صاح بصوت جهوري:

ولسنا على الأعقاب تدمي كلومنا ... ولكن على صدورنا نقطر الدما (*)

ثم ضربته قذائف أخرى فسقط ساجدًا. وانتقل خبر موته بسرعة إلى الحجاج الذي أسرع مع أحد أصحابه إلى حيث يرقد جسده فصاح صاحب الحجاج «لم تلد امرأة قط أحسن من هذا الرجل»، فرد عليه الحجاج «ماذا؟ هل تمدح رجلًا ثار ضد أمير المؤمنين؟». فرد صاحبه: «نعم لقد حاصرناه هنا لمدة ثمانية شهور في مدينة لا يحميها سور ولا خندق وفي كل هجمة كان يهجمها كان يجعلنا نتقهقر». وكان يوم وفاة عبد الله بن الزبير هو الثالث من أكتوبر عام ٦٩٢ م. يعتبر التبسيط الأكثر من اللزوم واحدًا من المآزق الكبيرة التي

(*) من كتاب البداية والنهاية لابن كثير.

يواجهها المتتبع للأمور السياسية، فمن السهل جدًا أن تدين بني أمية الأشرار وأن تمدح الشهداء الذين هزموا أو قتلوا، ولكن النتيجة ليست مرضية كلية لأننا نجد رجال دين ورجالاً مشهورين يقاتلون إلى جانبهم وينكرون المعارضة المغرضة لأعدائهم. ولن نستطيع أن نبرر بصورة كاملة إدانة كل هؤلاء الذين يشتركون كثيرًا في القتال؛ فالعرب يتنازعون على الغنائم(*). والعاطفة الدينية لتائبي الشيعة تنقيهم من الأغراض الدنيوية. أما الخوارج الذين كانوا يطالبون بجمهورية تحكمها حكومة دينية وكان يحكمهم مجلس استشاري من رجال الدين، فكانوا يثيرون أكثر مظاهر الإدانة القاطعة من المؤرخين(**). ومع أن الولاة المتعددين للبصرة والكوفة قد قضوا على آلاف منهم، فقد استمروا على معتقداتهم مظهرين طاقات غير عادية على الصبر والاحتمال. بالطريقة نفسها كان يجب أن يكون هناك الكثير الذي يتضمنه النزاع الذي دب بين بني أمية وعبد الله بن الزبير عما هو معروف من التنافس الغيور بين الأمراء. وكما قلنا من قبل فإن مكة والمدينة اللتين كانتا مكانًا لتمركز القوافل الصحراوية كانتا بعيدتين عن مركز الجاذبية للإمبراطورية الغنية والباهرة التي أسسها حماس المسلمين الأوائل. وأصبح بنو أمية الآن فعليًا سكان دمشق وازداد نفوذهم في أجواء سوريا المكانية، التي ظلت الثقافة والتاريخ الروماني واليوناني يحكماها لمدة ألف عام وبتاريخ طويل يمتد إلى ما قبل ذلك. كان الجزء الأكبر من سكان سوريا – بما فيها الطبقة المتعلمة منهم – لا يزالون مسيحيين، وهم الذين أمدوا الخليفة بأغلبية موظفي الحكومة الذين كان مضطرًا إلى العمل معهم. وأن نترك مركز هذا العالم النشيط ونعود بمكانة الإمبراطورية التوسعية إلى واحات صحراوية بعيدة؛ فقد كان هذا يبدو للأمويين غير عملي على الإطلاق. وعلاوة على ذلك فقد كانت سوريا تواجه الإمبراطورية البيزنطية التي كانت القوة العالمية الوحيدة التي تنازع العرب، وإذا عادت الحكومة إلى الحجاز فلن يحاول البيزنطيون أن يستعيدوا سوريا. ولنا أن نتصور وجود أنصار حكماء وأتقياء

(*) (كان ذلك في الجاهلية ولكن الإسلام حرم قتال المسلم لأخيه المسلم إلا دفاعًا عن الحق ومناصرة المظلوم – المترجم).

(* *) (كان ذلك لأنهم خرجوا على الجماعة وارتكبوا أفعالاً مشينة – المترجم).

لقول بني أمية: «نحن نحترم بشدة الأماكن المقدسة كمكة والمدينة، ولكن لم يعد عمليًا من الناحية السياسية أن تمارس حكومة مدنية مهامها من هناك وهؤلاء الذين يثورون ضد الخليفة الأموي سيدمرون الإمبراطورية والمجتمع الإسلامي بكل بساطة».

يروى أن عبد الله بن الزبير قد برر ثورته بأن الذي حركه هو الدافع الديني عندما، رأى هذه الأعمال التي حرمها الله تمارس جهارًا. وبناءً على ذلك سيكون عندنا المبرر عندما نستنتج أنه رأى في نفسه أنه هو المدافع عن العقيدة الحقة التي دعا إليها الرسول صلى الله عليه وسلم. وكانت أمه أسماء كما ذكرنا بطلة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، وتكاد تكون الزهرة العربية مكدونالد إذا كانت هذه المقارنة مقبولة. وكان أبوه الزبير بن العوام من أخلص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت أم أبيه عمة الرسول الله صلى الله عليه وسلم. وتوجد قصة غريبة وهي أنه عندما كان عبد الله بن الزبير غلامًا جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا بسبب وعكة ما. وعندما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلام عبد الله ناداه وقال له «يا عبد الله خذ هذا الطست من الدم فأهريقه حيث لا يراك أحد». ولكن عندما غادر الغلام الحجرة النبوية شرب الدم. ويقول المؤرخون العرب إنه «استمد قوته وشجاعته من الدم» وربما هو نفسه اعتقد ذلك.

يشهد المؤرخون بصفة عامة لعبد الله بن الزبير بالتقوى والإخلاص الديني الكبير، وتعلقه ببيت الله الكعبة الحرم المكي. ويروي آخرون أنه كان يقضي الليالي راكعًا أو ساجدًا في الصلاة، أما الأمويون فيعزون تقواه إلى النفاق؛ أي أنه كان يظهر التقوى. ويوجد عامل آخر على أية حال يمكن تقصيه أحيانًا في سلوك المسلمين الأوائل وخاصة الخوف من النار. والرسول صلى الله عليه وسلم وصف بأشد لهجة العذاب الأليم الذي سيصيب الكفار(*) ولذلك لجأ كثير من المؤمنين إلى الصيام والبكاء وقيام الليل على أمل تجنب هذا المصير النهائي البشع جدًا.

(*) (لم يصف الرسول صلى الله عليه وسلم العذاب الأليم فقط ولكن آيات القرآن الكريم تصف ذلك أيضًا– المترجم).

روي أن ابن الزبير امتاز في ثلاثة أشياء: الشجاعة والتقوى والفصاحة. وكان له صوت عندما كان يعظ يرن في التلال التي حول مكة. واتفق أعداؤه وأصدقاؤه على عيب واحد فيه، وهو بخله فلم يكن كريمًا وهو عيب خطير في رأي سكان الجزيرة العربية. ولكن يروى أنه كان قاضيًا عادلًا.

حكيت لنا الصديق لما وليتها

وعثمان والفاروق فارتاح معدم

وسويت بين الناس في الحق فاستووا

فعاد صباحًا حالك اللون مظلم (*)

كانت السحب المظلمة التي تلت وفاة عبد الله بن الزبير، هي التي جعلت مركز الإمبراطورية النهائي في دمشق، وأدت إلى جعل مكة مركزًا سياسيًا غير مهم ومجرد مدينة دينية قديمة تبعد مسافات عن مركز الحياة الحديثة.

استمرت الحرب الأهلية لمدة اثني عشر عامًا بدءًا من ثورة الحسين ثم ثورة عبد الله بن الزبير، إلى أن استقر الأمر بعبد الملك بن مروان خليفة وحيدًا للمسلمين. والآن نرى بصورة أوضح في هذه الحروب الدموية والمدمرة ليس فقط منازعات (**) تافهة لعرب متنازعين ولكن برزت الحاجة ضرورية لظهور نظام اجتماعي جديد. وفي هذا النظام يؤمن كل من الخلفاء الأمويين والقادة الدينيين في المدينة والحكومة الدينية للخوارج بصواب قضاياهم الخاصة بالخلافة.

(*) من كتاب البداية والنهاية لابن كثير.

(* *) (كانت هذه المنازعات ترجع أساسًا إلى عدم وجود نظام لتولي السلطة، أو تولي السلطة من لا يستحقها. وقد وضع الخلفاء الراشدون قواعد لذلك لم يتم احترامها بعد ذلك وهذه القواعد كانت مبنية على السنة النبوية والمبايعة والاحتكام إلى الشورى أو أهل الحل والعقد – المترجم).

طبيعة الجنس العربي البسيط المولع بالقتال نتج عنها بلا شك أن أي محاولة لتسوية أي نزاع تتم عن طريق الحرب.

على ظهر فرسي ورمحي بجانبي   هكذا كان عيشي أسخر ممن حولي (*).

هكذا كان ينشد الشاعر البدوي، فيما معناه، ولكن هذه العقلية المحبة للحرب لم ينتج عنها اختلافات في الرأي تفرق بين المؤمنين؛ وهذا يعني حقيقة أن كل خلاف في الرأي كان يتم حله عن طريق الحرب والقتال.

(*) هذا الشعر لم يستدل عليه فاضطر المترجم إلى ترجمته ترجمة شعرية تبعًا للقافية والوزن.

تواريخ بارزة

- ٦٨٥ م تولية عبد الملك بن مروان الخلافة في دمشق.
- ٦٨٥ م ثورة المختار في الكوفة.
- ٦٨٦ موقعة الموصل وقتل الشيعة لعبيد الله بن زياد.
- في أبريل ٦٨٧ م هزيمة المختار ومقتله.
- صيف عام ٦٩١م موقعة دير الجيليق وهزيمة مصعب بن الزبير ومقتله.
- خريف عام ٦٩١ م خضوع الكوفة لعبد الملك بن مروان.
- فبراير وأكتوبر ٦٩٢ م حصار الحجاج لمكة ووفاة عبد الله بن الزبير.
- ٣ أكتوبر عام ٦٩٢ م عبد الملك بن مروان الخليفة الوحيد.

الشخصيات

- عبد الله بن الزبير........................ خليفة في مكة.

- عبد الملك بن مروان..................خليفة في دمشق.

- المهلب بن أبي صفرة........... قائد عسكري هزم الخوارج.

- المختار بن أبي عبيد............قائد ثورة الشيعة في العراق.

- عبيد الله بن زياد............الرجل الذي أمر بقتل الحسين وقتله الشيعة بعد ذلك في الموصل.

- مصعب بن الزبير أخو عبد الله هزم المختار وقتله عبد الملك بن مروان.

- الحجاج بن يوسف......حاصر مكة وقتل عبد الله بن الزبير.

الفصل الخامس

عبد الملك البارع

بينما كانت مصر بلا قوة قتالية تم فتح أفريقيا الرومانية بعد ستين عامًا. وتم غزوها لأول مرة عام ٦٤٧ م، ولكن لم تخضع قرطاج للحكم العربي حتى عام ٦٤٨ م ولا تم التوسع في ذلك الإقليم كلية بعد ذلك بأحد عشر عامًا.

(إيي.إيه.فريمان، تاريخ العرب)

كانت مشكلة عبد الملك بن مروان في ذلك الوقت هو كيفية ابتداع نظام جديد للحكم. وكانت الإجابة الحتمية هو نظام فيه درجة كبيرة من تمركز وتركيز السلطة في يد الحاكم وتأسيس ذلك على القوة العسكرية للجيش الأموي. ولم تكن خلافة عبد الملك هي حكم فردي من الطراز الشرقي القديم، ولكن مملكة تتركز فيها كل السلطات تغيرها التقاليد العربية وبقايا الأفكار الدينية.

(أ/ برنار لويس – العرب في التاريخ)

كان لمقتل عبد الله بن الزبير أثره في سيطرة عبد الملك بن مروان المحكمة على الإمبراطورية فيما عدا خوزستان شرق البصرة؛ حيث استمر الخوارج في حكمهم الإرهابي. وكان المهلب بن أبي صفرة يشتهر بأنه الرجل الوحيد الذي استطاع أن يتعامل معهم، وأمر الخليفة الآن مجموعة من القوات من الكوفة والبصرة أن تعمل تحت قيادته وأن تطارد هؤلاء المتعصبين العتاة. وبصعوبة كبيرة تم تجنيد عشرة آلاف جندي في الكوفة

وإرسالهم للانضمام للمهلب في رامهرمز، ولكن ترك معظمهم القتال ورجعوا إلى منازلهم قبل الوصول إلى وجهتهم. وكان الكوفيون كعادتهم يثورون باستمرار ويرفضون مرارًا المشاركة في القتال عندما تستدعيهم السلطة الشرعية. وغالبًا ما يستنفدون صبر كل حكومة. وفي يناير عام ٦٩٥ م كتب الخليفة إلى الحجاج بن يوسف في المدينة المنورة وهو الرجل الذي هزم عبد الله بن الزبير أن يتولى فورًا ولاية الكوفة والبصرة.

لم يكن الحجاج بالرجل الذي يضيع هذه الفرصة؛ فعبر صحراء شبه الجزيرة العربية ومعه مجموعة مكونة من اثني عشر رجلًا على إبل سريعة ووصل إلى الكوفة قبل أن يعلم أي أحد أنه ترك المدينة، وصعد منبر المسجد الكبير بعد أن دخله وهو ملثم، وجمع الناس وبعد أن نزع اللثام من على وجهه فجأة عندئذ قال: «أرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها وإني لأنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى، من وجدت في الكوفة بعد ثلاثة أيام من بعث المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله». ثم رجع إلى دار الإمارة ولم يزد على ذلك.

في اليوم الثالث صعد المنبر مرة ثانية ودعا الجنود الذين تخاذلوا إلى الانضمام إلى المهلب، فوقف رجل من بني تميم وبدأ في الجدال، ولكن الوالي الجديد الحجاج أشار إلى الحراس فتقدم أحد الجنود وقطع رأس المجادل. وطاف منادٍ بالمدينة يعلن «أن عميرًا ابن ضابئ التميمي قد أتي بعد انتهاء فترة الثلاثة أيام للانضمام إلى جيش المهلب واعترف بذلك ومن ثم أمرنا بقتله. وأيما امرئ من بعث المهلب لا يزال هنا هذه الليلة فسيقتل بتلك الطريقة». ويضيف المؤرخون بصورة جدية أنه بعد ذلك بساعة كان هناك ازدحام شديد على جسر الفرات بسبب الجنود الخارجين للانضمام إلى جيش المهلب. وهكذا بعد أن تم تعزيز جيش المهلب طارد الخوارج المتعصبين وأجبرهم على الهروب والتراجع إلى جبال فارس.

كان الخوارج يطورون التكتيكات الخاصة بهم التي تعتمد على التعبئة المكثفة والاحتفاظ بالمبادرة للقتال. وإذا انقلب الموقف ضدهم كانوا يلوذون بالفرار ويظهرون فجأة بعد ذلك بأيام قليلة وبصورة غير متوقعة في مكان آخر فإما أن يفاجئوا أي جيش

من الجنود ويقضوا عليهم أويذهبوا ويختفوا مرة ثانية. وكانوا ماهرين خاصة في القتال الليلي وكثيرًا ما كان يفاجأ جيش من الجنود كبير أثناء الليل بمجموعة من البدو يضربون بسيوفهم يمينًا وشمالاً وسط الجنود النائمين. ولكي يواجه المهلب هذه التكتيكات كان من عادته أن يحيط معسكره كل ليلة بخندق. ورفض الجنود الكوفيون غير المنضبطين حتى بعد انضمامهم لجيش المهلب أن يحفروا الخنادق بعد مسيرتهم بيوم، وكانوا مندهشين حقيقة من ضربات سيوف هؤلاء الخوارج المتعصبين وعانوا من إصابات كبيرة بينهم.

بينما كان المهلب يتقدم بثبات غير مسبوق في خوزستان، اندلعت فجأة ثورة للخوارج في مايو عام ٦٩٥ م في إقليم الجزيرة غرب الموصل بزعامة رجل يسمى شبيبًا، وزحفت بكثافة قوة صغيرة مسلحة من هؤلاء المتعصبين عبر العراق من الموصل إلى الكوفة والمدائن والخانقين وعادت مرة ثانية. طاردتها قوات متتابعة فكمنت لها وفاجأتها وقطعت عليها الطريق. وفي سبتمبر عام ٦٩٥ م كان الخوارج يهددون الكوفة نفسها. ولمدة أكثر من عام كان شبيب ينشر الفزع والدمار بأعلى العراق وأسفلها. وكانت صفوة الخوارج تتكون من موالٍ صارمين ومحاربين شجعان يتخذون شعار «لا حكم إلا لله» ونتج عن وجودهم الطويل في العراق وعدم هزيمتهم أن انضم إليهم كثيرون لهم دوافع أقل من ذلك كقتلة ومدنيين ساخطين ومجرمين. وكان الأكثر أهمية على أية حال من وجهة النظر الاجتماعية علاقات المتمردين الخوارج بأهالي الريف؛ وذلك لأن الفلاحين والعمال الزراعيين وخاصة على نهر دجلة كانوا ولا يزالون من الفرس. ومر ستون عامًا في ذلك الوقت على الفتح العربي للعراق. وعندما استولى العرب عليه كاملاً تمركزت الجيوش العربية في منطقتين أساسيتين: الكوفة والبصرة، وتم منع الجنود من تملك الأراضي أو القيام بالزراعة. وبقي المزارعون الأصليون في أراضيهم يدفعون الجزية للفاتحين. ورأينا قبل ذلك عبيد الله بن زياد يسمح لملاك الأراضي الفرس بدفع مبلغ محدد سنويًا كضريبة.

كان الفاتحون العرب الأصليون في معظمهم بدوًا رحلاً من الصحراء، استقروا في هاتين المنطقتين اللتين أصبحتا الآن مدينتين. وأصبحت حقيقة ملحوظة أن البدو الرحل سرعان

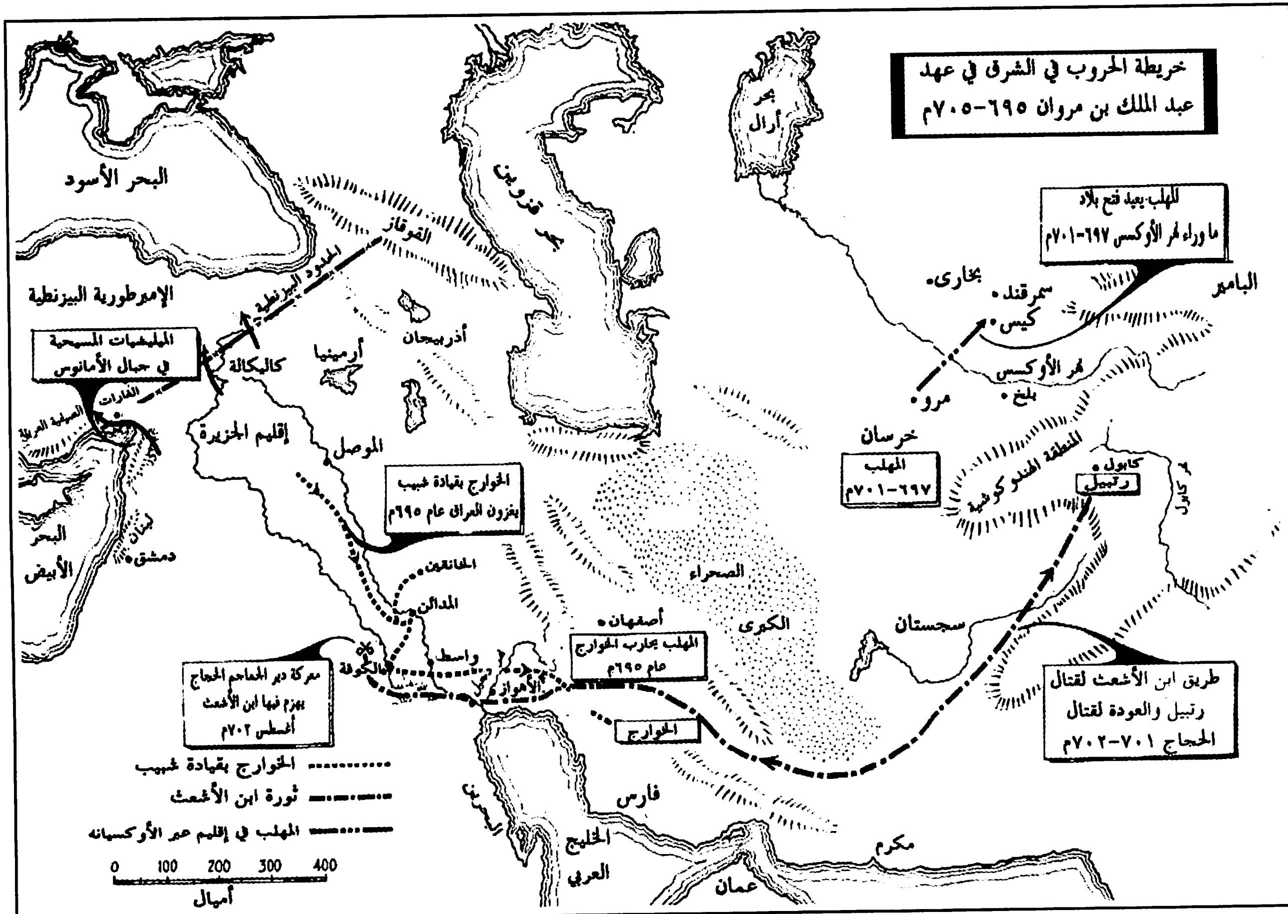
ما يتحولون إلى قاطني مدن بسهولة أكثر من العمال الزراعيين؛ لأن البدوي مثل المواطن يكسب رزقه بأساليب بارعة. ويعتبر العمل التقليدي والجامد للعامل الزراعي بالنسبة إليه مثيرًا للملل بصورة قصوى.

بسبب السياسة والهوى كانت الأعمال الزراعية ما زالت في يد الفرس الذين كانوا ذات مرة سكان الإمبراطورية الساسانية القوية، والآن تقلص مركزهم إلى جنس مستعبد يجاهد لمد أسياده العرب بالطعام، ولكن دون أي صوت في الحكومة ودون إمكانية للحصول على السلطة أو التقدم (*). وهؤلاء الفرس تعاطفوا جيدًا مع هذه العصبة الجريئة من الثوار ضد الحكومة القائمة. وتتحدث الروايات القديمة عن مناسبات عديدة دعا فيها القرويون الخوارج إلى تناول الطعام معهم بينما كان ملاك الأراضي الفرس يراقبون تقدم القوات الحكومية لمطاردتهم. وكان قادة الخوارج المتعصبون وقادة القوات الحكومية كلهم على قدم المساواة من العرب الذين كانت العداوات المتبادلة بينهم تقدم الأمل لشعوب البلاد المفتوحة، وتمكنهم في النهاية من استعادة إذا لم يكن السيادة فعلى الأقل المساواة.

كتب الحجاج أخيرًا إلى الخليفة عبد الملك بن مروان وهو يائس من الكوفيين المتقلبين والمشاغبين وطلب منه قوة من الجيش الأموي. وقال إن الجنود المحليين أصبح لا يعتمد عليهم كثيرًا لدرجة أنه من العبث استعمالهم في القتال ضد الخوارج.

من الطريف أنه بعد اثني عشر قرنًا من هذه الأحداث نقرأ عن وصول هذه القوة من دمشق غير مسلحة، مع أن المؤرخين العرب يقولون إن حرفة الجيش والقتال نشأت في سوريا حيث يكون الحراس يقظين والمعسكرات محصنة قبل سدول الليل ويقوم القائد باستدعاء الضباط التابعين له، ويشرح لهم الموقف على الطبيعة ويتأكد أن كل وحدة عسكرية تعرف ما الذي عليها أن تؤديه. ولم يتغير إلا الشيء اليسير من الأمور العسكرية

(*) (لم يكن الفرس الذين استمروا على ديانتهم مستعبدين كما يقول المؤلف بدليل أنهم استمروا يمتلكون الأراضي كما كانوا قبل دخول الإسلام إلى أراضيهم، وسمح لهم العرب الفاتحون بذلك مقابل دفع مبلغ قليل من المال كخراج ومقابل حمايتهم من قبل العرب الفاتحين – المترجم).


خريطة الحروب في الشرق في عهد
عبد الملك بن مروان ٦٩٥-٧٠٥م
البحر الأسود
الإمبراطورية البيزنطية
الميليشيات المسيحية
في جبال الأمانوس
القوقاز
الحدود البيزنطية
كاليكالا
أرمينيا
أذربيجان
بحر قزوين
بحر أرال
المهلب يعيد فتح بلاد
ما وراء نهر الأوكسس ٦٩٧-٧٠١م
البامير
بخارى
سمرقند
كيس
نهر الأوكسس
بلخ
مرو
خرسان
المهلب
٦٩٧-٧٠١م
كابول
رتبيل
نهر كابول
المنطقة الهندوكوشية
إقليم الجزيرة
الموصل
الخوارج بقيادة شبيب
يغزون العراق عام ٦٩٥م
البحر
الأبيض
لبنان
دمشق
الخانقين
المدائن
الصحراء
الكبرى
أصفهان
سجستان
معركة دير الجماجم الحجاج
يهزم فيها ابن الأشعث
أغسطس ٧٠٢م
الكوفة
واسط
الأهواز
المهلب يحارب الخوارج
عام ٦٩٥م
الخوارج
طريق ابن الأشعث لقتال
رتبيل والعودة لقتال
الحجاج ٧٠١-٧٠٢م
الخوارج بقيادة شبيب
ثورة ابن الأشعث
المهلب في إقليم عبر الأوكسيانه
فارس
الخليج
العربي
مكرم
عمان
0 100 200 300 400
أميال

خلال ألف ومائتي عام. وعندما وصل الجيش الأموي كان شبيب يهدد الكوفة. واصطف الجنود في صفوف في المعركة، وكان الفرسان على الأجنحة، واصطف المشاة ثلاثة صفوف في وسط المعركة. وكان الصف الأمامي يتكون من حاملي الرماح يركعون على ركبة واحدة ويغرسون أطراف رماحهم على الأرض، ويوجهون الأطراف الصلبة المدببة لرماحهم على الأعداء. وخلف حاملي الرماح يقف حاملو السيوف مستعدين لمواجهة الأعداء الذين يخترقون الرماح. وفي الصف الخلفي يقف رماة السهام وأقواسهم متأهبين وكناناتهم مليئة بالسهام.

كان الخوارج دائمًا ما يهاجمون ولم يحاربوا قط في معركة دفاعية، فهم إما أن يكونوا مسلحين بشجاعة ضارية أو يختبئوا طول النهار مثل دراويش أم درمان، يرمون أنفسهم هباءً في صفوف الأعداء المنتظمة. وبعد العصر عندما تضعف هجماتهم يتقدم الجيش الأموي ببطء وبخطوة ثابتة وهو يسحق الباقين على قيد الحياة من الأعداء من ميدان القتال وهذا الجيش كان متمرسًا على قتال شبيب، ومعتادًا على الانتصارات السهلة على الجنود الكوفيين الخوارج. وفي ثاني يوم من المعركة هرب الخوارج وظهروا مرة ثانية بسرعة بالقرب من الأهواز؛ حيث ذهبوا للانضمام إلى أتباعهم المؤيدين لهم في جنوب فارس فتبعتهم الحملة العسكرية الأموية، ونشبت معركة ثانية على شواطئ جسر دجيل ويسمى قارون حاليًا. وتكررت القصة نفسها وضغط الغلاة الخوارج بكل هجماتهم الضارية على صفوف الجيش الأموي بلا أي فائدة. وعند غروب الشمس انسحبوا إلى جسر نهر دجيل وكان شبيب في مؤخرة جيشه آخر من عبر النهر ونزل عن فرسه ومشى من وإلى الجسر وهو يقود فرسه. وفي منتصف الطريق ارتعب الجواد وسقط بحافره بقوة دافعًا شبيب إلى النهر فهبط إلى قاع النهر مثل الحجر متدثرًا في درعه. وهرب بقية جيشه إلى التلال الفارسية.

يتعجب كثير من الناس من الإنجازات العسكرية الضخمة للعرب في القرن السابع والثامن، والقدرات العسكرية الضئيلة التي تبديها الجيوش العربية اليوم. ومعظم ما

نطلق عليه الآن الشعوب العربية لها صلة عرقية ضئيلة بهؤلاء الرجال الذين خرجوا من الجزيرة العربية في القرن السابع(*). وعلى أية حال فإن فلول عزيمة الكوفيين السريعة كان له أهمية في ذلك الوقت. وقبل ذلك بستين عامًا كانت الجيوش العربية الفاتحة الكبيرة تقاتل قتالًا أكثر جرأة على شواطئ الفرات ضد جيوش الإمبراطورية الفارسية الكبيرة. وحدثت معركة القادسية الحاسمة وهي معرقة مرهقة استمرت لمدة أربعة أيام وصاحبتها خسائر جسيمة، وهذه المعركة حدثت على بعد أربعة أميال من الكوفة. وعندما حدث الانتصار على فارس بنى العرب الفاتحون قاعدتهم الرئيسية في الكوفة. وفي عام ٦٩٥ م كان الكوفيون الذين فروا من أمام شبيب إما أحفادًا أو في أحوال قليلة أبناء أبطال القادسية.

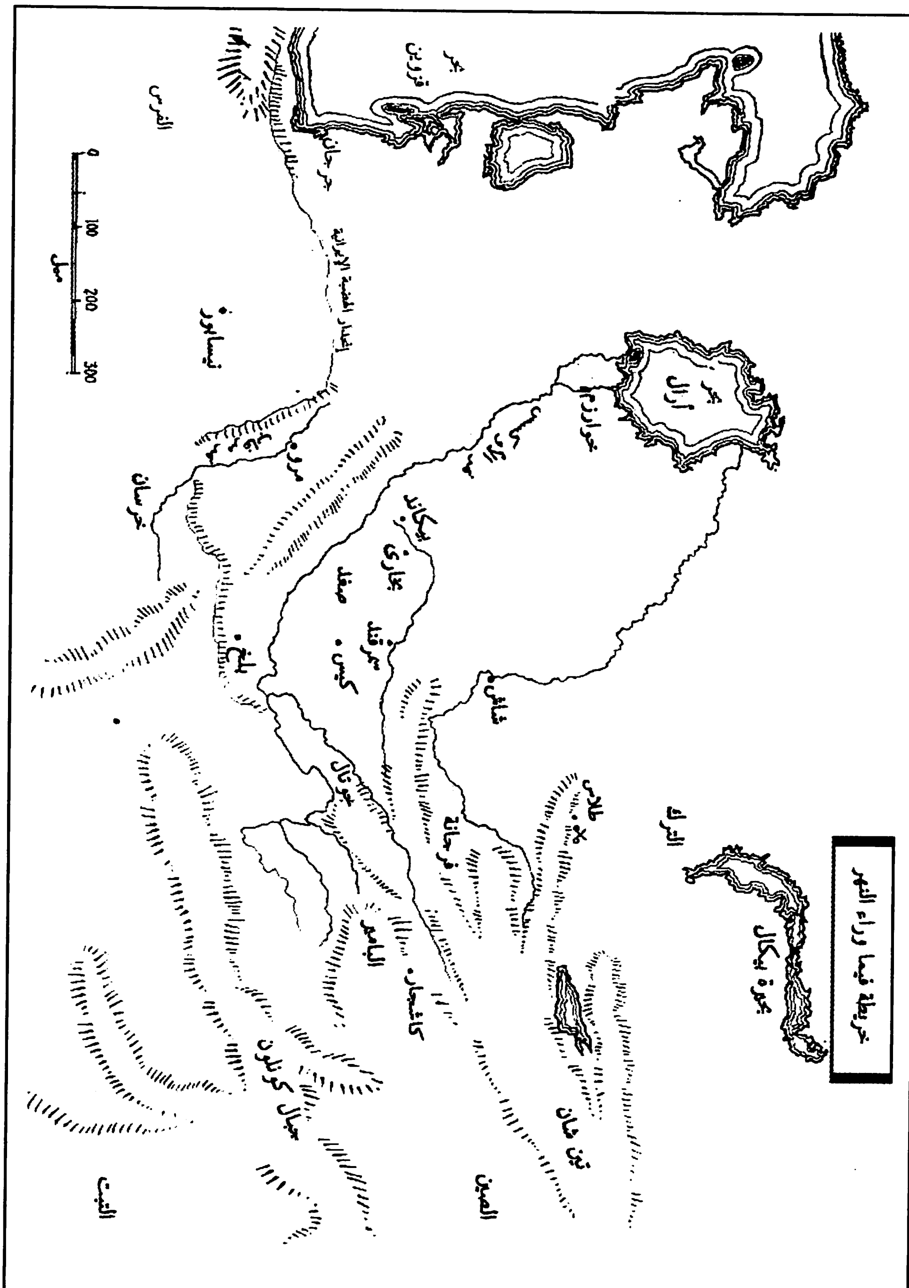
يمكن استقصاء ثلاثة أسباب لهذا الهبوط السريع غير المعتاد لعزيمة الكوفيين: أولها أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر باتخاذ نساء الكفار المأسورات كملك يمين (**)، وجلب فتح الإمبراطورية الفارسية القديمة الغنية والمترفة مكاسب مدهشة للمجاهدين؛ فكل جندي عربي كان قادرًا على اتخاذ عدد كبير من الزوجات والجواري وثروة كافية للإنفاق عليهم وهكذا أصبح محاربو الصحراء الشجعان مصابين بالوهن بسبب الترف والتراخي.

السبب الثاني لهبوط الأداء العسكري للكوفيين ينبثق مباشرة من المصدر نفسه، وخاصةً تعدد الزوجات والجواري(***). وكان ذلك ضعفًا في الولاء والإيمان الراسخ أكثر

(*) (هذا الكلام من الكاتب ليس له أي أساس من الصحة؛ فقد خرج الصحابة من الجزيرة العربية بعد أن سمح لهم عثمان بن عفان بذلك وتزوجوا من نساء الشعوب المفتوحة بلادهم وأنجبوا منهم، وضعف القدرة العسكرية للعرب بسبب الاستعمار وعدم وجود إستراتيجية واضحة للتصنيع العسكري في معظم البلاد العربية – المترجم).

(**) (لم يقر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من نفسه ولكن أشار الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز إلى ذلك كجائزة للمجاهدين، ولكن ذلك لم يكن سببًا من أسباب الضعف العسكري – المترجم).

(***) (تعدد الزوجات ليس سببًا للتراخي العسكري لأن هناك من الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من كان له أكثر من زوجة وجارية ومع ذلك فقد أبلى بلاءً حسنًا في ميدان القتال – المترجم).


خريطة فيما وراء النهر
بحيرة بيكال
الترك
بحر أرال
خوارزم
بحر قزوين
جرجان
الفرس
إنحدار الهضبة الإيرانية
نيسابور
مرو
خراسان
بلخ
بخارى
بيكاند
صغد
سمرقند
كيش
الشاش
طلاس
فرغانة
البامير
كاشغر
جبال كونلون
تين شان
الصين
التبت
0
100
200
300
ميل

من كونه تراخيًا عسكريًا جسمانيًا. ومن البديهي أن نفترض أن كثيرًا من هؤلاء الجاريات اليونانية والفارسية والأرمينية لم تكن من النساء العربيات المتحمسات ولا حتى من النساء المسلمات اللاتى يؤمن بالجهاد في سبيل الله حقيقة. وكانت تربيتهن لأبنائهن قد تكون قد زرعت في عقولهم بناءً على ذلك أفكارًا تحبط فيهم الروح العربية المحبة للقتال والإخلاص الإسلامي الذي لا ريب فيه. ومعروف أن أم الولد أو أقاربها كانوا يونانيين أو فارسيين قد تكون قد أدت بلا وعي، إلى نظرة أرحب للمستقبل، وإلى إضعاف الاستعداد للموت في سبيل انتصار العرب بلا مناقشة.

أما السبب الثالث الجديد لعدم استعداد الكوفيين للقتال، فيرجع على الأرجح إلى انقسام ولائهم؛ فبعضهم كان يفضل الشيعة والآخرون كانوا يؤيدون عبد الله بن الزبير، والآن تتعاطف طائفة أخرى مع الخوارج. وبالإضافة إلى ذلك كان كثير من الكوفيين عبيدًا سابقين لهم أصول عرقية متعددة وأعتقهم أسيادهم العرب.

من الجدير بالملاحظة بصورة خاصة، أن الفرق الصغيرة المنشقة كانت قادرة على إبراز الصفات القتالية غير العادية التي تحلى بها المسلمون منذ ستين عامًا. وكان الشيعة والخوارج على السواء يظهرون الحماس الديني الذي يبحث عن الشهادة في القتال والذي كان السبب في الفتوحات العظيمة قبل ذلك. وأظهرت الحقائق قبل ذلك أن الخلافة الأموية لأنها خلطت بين الحكم الديني والسياسي؛ فقد أدى ذلك إلى إخماد الحماسة الدينية. فقد كان الخلفاء الأمويون حكامًا متمكنين ولكنهم ليسوا قديسين. والذين كانوا يؤمنون بالحاجة إلى حكومة مستقرة لم يقبلوا بالحكومة الدينية. وحتى لو كان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب الخمر ويلبس الحرير وله فرقة موسيقية خاصة به فقد كان من الضروري مبايعته تبعًا للرأي العام [*]. وكان المسلمون السنة مثل كل الكنائس التي تقيمها

(*) (وضع الفقهاء ضوابط وأحكامًا لخليفة المسلمين منها ألا يشرب الخمر ولا يلبس الحرير ولا يرتكب الكبائر والموبقات ومنها أن يكون عادلا وإلا يتم خلعه من الخلافة بمعرفة مجلس الحل والعقد وأولي الأمر - المترجم).

الدولة يميلون بفتور إلى تشكيل حكومة مستقرة مع أن الدين الإسلامي يستوعب كل أشكال الملاءمة السياسية، فتعلق المتشددون بالفرق الصغيرة الإسلامية الأكثر ترابطًا بين أتباعها.

أما في الشرق فقد رقّى الخليفة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مرتبة نائب الخليفة على العراق وفارس. وأطلق للمهلب بن أبي صفرة العنان للقضاء على الخوارج؛ فعينه الخليفة على خراسان والحدود الشرقية الشمالية. وللمرة الأولى لمدة أربعين عامًا استقر السلام في الإمبراطورية وانتقلت رايات الحرب العربية مرة ثانية لقتال الأتراك على الحدود الشرقية، واحتل المهلب كيس بعد أن عبر نهر الأوكسس حيث بقي هناك لمدة عام يجمع الجزية ويعاقب العصاة. وكان العرب قد غزوا مناطق ما وراء نهر الأوكسس لعدة أعوام قبل ذلك ولكن لم يستطيعوا السيطرة عليها أثناء سنوات الحرب الأهلية.

بالنسبة إلى العرب كان كل شيء يبعد عن نهر الأوكسس يطلق عليه ببساطة بلاد ما وراء النهر. ومن الناحية الجيولوجية كانت الهضبة الجبلية لإيران تنتهي بنهر مرغاب على بعد مائتي ميل في الاتجاه الغربي الجنوبي من نهر الأوكسس، حيث يقع في وسط سهل واسع يمتد إلى نهر الجاكسارتيس. وفي أيام قورش ودارا كانت الإمبراطورية الفارسية تمتد إلى نهر الجاكسارتيس ولكن تبع ذلك موجات من الغزو المغولي أدت إلى تقهقر الفارسيين إلى نهر مرغاب، حيث بقيت الحدود كما هي حتى فتح العرب فارس. وكان سكان المنطقة التي تقع بين نهري مرغاب والجاكسارتيس إيرانيين بأكملهم مع أن هذه المنطقة ظلت لقرون كثيرة بدرجات مختلفة تخضع لحكم الأتراك، الذين كانوا يسكنون منطقة شرق نهر الجاكسارتيس. أدى ذلك إلى أن أصبحت مناطق ما وراء النهر ميدان معارك وسط آسيا وكانت هذه الأراضي متنازعًا عليها باستمرار بين الأتراك والفرس وبسبب تأييدهم لهذا الجانب أو ذاك كان سكان منطقة ما بين نهري مرغاب والجاكسارتيس يفشلون في الاتحاد من الناحية السياسية. وعندما وصل العرب إلى تلك المناطق كانت عبارة عن إمارات متعددة وهو وضع يسهل على الفاتحين فتحها.

وعلى الرغم من النزاع السياسي كانت منطقة عبر الأوكسيانة غنية جدًا ومتحضرة ومزدهرة، وكان ازدهارها يعزى إلى أن الطريق التجاري الرئيسي الذي يمر بين الإمبراطوريتين الصينية والفارسية يمر من خلالها، وكان تجار هذه المنطقة يذهبون ويعودون بانتظام من الصين. وكانت مدن سمرقند وبخارى وبيكاند تزداد ثراءً بسبب هذه التجارة.

لم تنجح حملات المهلب العسكرية وراء نهر الأوكسس في إرساء سيادة مستقرة للعرب على تلك المناطق، وترك الحكام المحليون في إماراتهم يدفعون الجزية. وعلى الأقل تم استعادة الهيبة العربية على أية حال. وعندئذ وجه الحجاج اهتمامه إلى رتبيل حاكم كابول وهي مدينة تم الاستيلاء عليها من قبل العرب قبل الحرب الأهلية بين علي ومعاوية ولكن في الوقت نفسه فقدت من أيديهم مرة ثانية. وأمر الخليفة والي سجستان أن يقاتل رتبيل ويخضعه لحكم العرب، ولكنه أخفق في ذلك فصمم الحجاج على إرسال حملة عسكرية جديدة وقوية بصورة كافية لضمان الانتصار. ولهذا الغرض بعث عشرة آلاف رجل من البصرة والكوفة وعهد بقيادة الجيش إلى عبد الرحمن بن الأشعث، وهو واحد من القادة العرب الرئيسيين في الكوفة، وتقدم عبد الرحمن بجيشه إلى سجستان. وأمد الحجاج هذا الجيش بكل العتاد العسكري اللازم، والذي تكلف مليوني درهم لدرجة أن العرب كانوا يسمونه جيش الطواويس. وتقدم عبد الرحمن بن الأشعث بجيشه قليلًا ودخل أراضي كابول وكان الجيش يأخذ البقر والغنم غنائم، ولكنه فشل في أن يصل إلى الهدف المحدد فكتب إليه الحجاج يؤنبه، فقرأ عبد الرحمن التأنيب بامتعاض على القادة الذين يرأسهم فارتفعت صيحات الغضب: «فلتسقط حكومة الأمويين» وكانت هذه الصيحات تتكرر من فم إلى فم. فعقد عبد الرحمن بسرعة هدنة مع رتبيل الكافر، وعاد الجيش بخطوات قوية إلى العراق معلنًا عن نية بن الأشعث خلع الحجاج وخلع عبد الملك بن مروان. وحدث مرة ثانية التخلي عن الدفاع عن حدود الإمبراطورية لصالح حرب أهلية يقتل فيها الأخ أخاه. وفي فبراير عام ٧٠٢ م اضطر الحجاج من هول المفاجأة إلى إخلاء البصرة التي احتلها الثوار على الفور ثم تقدموا واحتلوا الكوفة التي أحرز فيها عبد الرحمن بن الأشعث أول انتصار له، وبايعه أهل الكوفة في القلعة التي شهدت ثورات سابقة.

بمجرد ما انسحب الحجاج في اتجاه الشمال تلقى تعزيزات عسكرية من سوريا. وكان الخليفة يقظًا جدًا لهذه الثورة العامة في العراق لدرجة أنه بعث أخاه لكي يتفاوض مع بن الأشعث فوعد بطرد الحجاج من منصبه إذا كان العراقيون لا يرحبون به، ففسر الثوار هذا العرض بأنه مؤشر خوف من الخليفة فرفضوه باحتقار. وفي مايو عام ٧٠٢ م وقف الجيشان كل منهما تجاه الآخر في دير الجماجم بالقرب من الفالوجا الحالية. وحفر كل من الجانبين خنادق وقاما بتحصين معسكراتهما. واستمر العراقيون في مناوشاتهم لمدة مائة يوم حتى أغسطس عام ٧٠٢ م عندما قام الجيش الأموي بهجوم محدد فاستسلم العراقيون وانهار جيشهم، وعاد الحجاج منتصرًا إلى الكوفة. واستجمع الثوار قوتهم مرة ثانية فكان من الضروري على الجيش الأموي أن يشن هجومًا ثانيًا لاستعادة سلطة الحكومة بأسفل العراق فهرب عبد الرحمن بن الأشعث عندئذ إلى سجستان ومن هناك إلى رتبيل حاكم كابول الكافر الذي كان مبعوثًا لقتاله في البداية فضرب رتبيل عنقه وأرسله إلى الحجاج.

لسوء الحظ توفى المهلب بن أبي صفرة المحارب الأمين والعجوز والذي كان واليًا على خراسان في فبراير عام ٧٠١ م فتولى بنه يزيد الولاية، وبعد انهيار ثورة بن الأشعث استعاد النظام بين القوات العراقية المتمردة شرق فارس. ويروى أن المهلب وهو على فراش الموت أخبر بنه أن يتذكر أن الحرب عمل شاق وأن النظام في الحرب أفضل من الشجاعة البدنية وهي نصيحة بارزة من عربي من العرب يعمل أكثرهم على عكس ذلك (*). وهذه النصيحة تتضمن درسًا لنا وخصوصًا هؤلاء الذين كانوا يتصورون أن الحروب في الأزمنة القديمة كانت تتضمن هجمات جريئة بالخيول وأنها أصبحت في زماننا فحسب من دون الأزمنة عملاً ثابتًا وإدارة دقيقة، فالمهلب بن أبي صفرة كان يعرف ذلك جيدًا من ألف ومائتي سنة مضت.

يبدو أن الحجاج كان مخلصًا تمامًا لبني أمية، ولكنه لم يكن الرجل الذي يزيل العداوة المتزايدة بين الأمويين والعراقيين، بل إنه مال أكثر لإشعالها. ويروي لنا المسعودي خطبة

(*) (يؤمن أكثر العرب بالنظام في الحرب والانضباط وإلا لما غزت الجيوش العربية وفتحت بلادًا كثيرة وإمبراطوريات كان يؤمن أكثر من فيها بذلك — المترجم).

للحجاج في جامع الكوفة كرر فيها افتراضه بأن الأمويين قدوة للعراقيين وهو افتراض لا يبدو على الأرجح أنه يزيد محبة الكوفيين للدولة الأموية. وبعد اندحار ثورة بن الأشعث كان الحجاج، وهو مشمئز من تقلب أهل الكوفة، قد أسس مدينة جديدة على نهر دجلة وسماها واسط أو المدينة المركزية؛ لأنها كانت على مسافة متساوية بين الكوفة والبصرة والأهواز.

قبل ذلك بستين عامًا خرج العرب من وسط الجزيرة العربية فاتحين. وفتح أحد جيوش وسط الجزيرة العربية سوريا، بينما هاجم الجيش الآخر العراق في الوقت نفسه. والآن بعد ذلك بستين عامًا نجد جيش العراق مأمورًا بإلحاح أن يقاتل الجيش الأموي. وفي بعض الخصوص يكون سبب الخصومة الجغرافيا؛ فكل من سوريا والعراق دولتان متميزتان يبعد كل منها عن الآخر مئات الأميال الصحراوية. وإذا كانت عاصمة الإمبراطورية العربية هي دمشق فإن الكوفة والبصرة أصبحتا إقليمين بعيدين محرومين من التقدم والميزات. ومن ناحية أخرى إذا كانت العاصمة هي الكوفة فإن دمشق تصبح مدينة مهملة بعيدة. وهكذا أدت المسافة الجغرافية بين العراق وسوريا إلى موقف يعبر عن الغيرة المتزايدة بين الجيشين العراقي والأموي السوري، حتى لو كان جنود هذين الجيشين ينتمون للأمة نفسها.

لكن هل ما زال جنود الجيشين ينتمون إلى الأمة نفسها؟ ومع أن الجيل الثاني من الفاتحين كانوا يسمون أنفسهم بالأسماء العربية فإنهم كانوا من جنس مختلط (*). وبالإضافة إلى ذلك هناك نقطة نعتبرها في غاية الأهمية وهي أنه قبل الفتوحات العربية كانت سوريا جزءًا من الإمبراطورية الرومانية وكان العراق جزءًا من الإمبراطورية الفارسية. ولم تكن الحدود بين أوروبا وآسيا قبل الفتوحات كما ننظر إليها الآن في مضيق البسفور، ولكن على طول الحدود البيزنطية الفارسية بأعالي الفرات. وهكذا وجد الفاتحون العرب الذين استقروا في سوريا أنفسهم يعيشون في نطاق حضارة رومانية كلاسيكية بينما عاش سكان العراق في بيئة شرقية.

(*) (حتى ولو كانوا من جنس مختلط فإن روح الإسلام ما زالت تدب فيهم وتحثهم على المزيد من الفتوحات- المترجم).

هناك ملمح آخر جدير بالملاحظة في ثورة بن الأشعث وهو أن هذا الرجل القائد العربي المسلم كان يثق في رتبيل ملك كابول وهو غير مسلم وغير عربي ضد أمير المؤمنين في دمشق. وكان الحجاج قد بعث بن الأشعث من قبل ليقاتل شبيبًا والخوارج وهزم أمامهم فاتهمه الحجاج بالجبن ولامه جهارًا على أعين الناس. ومن المحتمل أن تكون هذه الواقعة قد زرعت الضغينة في صدره ضد الحجاج وكما يحدث غالبًا مع العرب ترجح كفة الأحقاد الشخصية على الشعور بالواجب نحو الأمة ونحو الدين (*). ولا يجب أن نحكم على العربي في ذلك الوقت بالمقاييس الحديثة للوطنية؛ ففي عصر النهضة في أوروبا كان النبلاء الكبار كثيرًا ما يثورون لأمور تتعلق بالشرف الشخصي، ومع ذلك فإن الكبرياء العربي الفردي يميز تلك الأمة ولا يمكن أن تمر هذه المواقف دون أن نلاحظها.

بينما كانت تنشب فتن كثيرة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية، كان الوضع في كل مكان في الجزء الغربي على أهبة الاستعداد للقيام بفتوحات مرة ثانية. ولم يكد يمر صيف إلا وواحد من أبناء الخليفة أو آخر يقوم بهجوم لاختراق حدود الإمبراطورية البيزنطية. وفي عام ٧٠٠ م غزا الوليد بن عبد الملك آسيا الصغرى. وفي عام ٧٠١ م جاء الدور على عبيد الله بن عبد الملك الذي غزا منطقة كاليكالا بالقرب من منابع الفرات، وفي عام ٧٠٢ م جاء الدور على عبد الله بن عبد الملك. ولكن لم ينتج عن أي من هذه الغزوات الصيفية أية مكاسب دائمة على الأرض، ولكنها أثبتت على الأقل أن العرب قد استعادوا روحهم المعنوية وشيئًا من نضالهم السابق.

كانت الأنشطة التي يمارسها الجاراجيما في جبال أمانوس عاملًا مهمًا في الحروب ضد الإمبراطورية البيزنطية. وهؤلاء القوم كانوا مسيحيين تركوا ليعيشوا في الخلف بعد انسحاب البيزنطيين عبر جبال طوروس قبل ذلك بستين عامًا. ولقد دافعوا عن استقلالهم ضد المسلمين بقوة من معاقلهم الجبلية، وأحيانًا كانوا يتجهون جنوبًا نحو جبال لبنان

(*) (توجد الأحقاد الشخصية عند جميع الأمم وليس العرب فقط ويكفي أن الصحابة في غزواتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم نسوا هذه الأحقاد وتذكروا فحسب واجبهم نحو ربهم ونحو دينهم فانتصروا – المترجم).

التي يسكنها رفقاؤهم المسيحيون المارونيون. وكانت الطائفتان مثيرتين للقلاقل ضد العرب لدرجة أن كلًا من معاوية وعبد الملك بن مروان كانا يقدمان لهما معونة مالية لإسكاتهم. ومن العجيب أن نلاحظ أنه تقريبًا كل مشاكل عصرنا؛ وهي الغيرة بين العراقيين والسوريين والخصومة بين الشيعة والمسلمين السنة والمقاومة العنيدة من مسيحيي لبنان ضد سيادة المسلمين - كانت بارزة في القرن السابع.

كان فشل العرب في إخضاع لبنان بأكمله لحكمهم أو على الأقل قبولهم لدينهم وثقافتهم يعتبر مثالًا آخر لكراهية العرب لسكان الجبال. ولا يمكن أن نتصور أنه مع وجود دمشق كعاصمة للإمبراطورية كان العرب قادرين على قمع العدوان ضدهم في لبنان. وإذا كان المسيحيون مجبرين على الخضوع للعرب كما هو الحال في فارس فقد قاتلوا ببسالة في الجبال(*). ولكن مرات ومرات عندما تقع سلسلة من الجبال داخل بلد فقد أهمل العرب أن يطهروها من أعدائهم. وكانت النتيجة أن سكان المناطق الجبلية لم يثوروا عندما كان العرب أقوياء. ولكن بمجرد أن أصبحت الحكومة مشغولة بشيء آخر أو ضعيفة كانت نواة المقاومة تظهر في كل أنحاء الإمبراطورية. وهكذا كان الوضع في ليون وجاليسيا في إسبانيا وجبال أطلس في شمال أفريقيا وبلاد الديلم في الطرف الجنوبي من بحر قزوين.

في تلك الأثناء حدثت أحداث كبيرة على أية حال في شمال أفريقيا. ولكن قبل أن نسردها بالتفصيل سيكون من المفيد أن نستطرد استطرادًا قصيرًا لكي نصف البلد وسكانها.

في العصر الروماني كان اسم أفريقيا ينطبق فقط على المناطق التي تقع قريبًا من قرطاج وهو ما يساوي بالتقريب تونس الحديثة، فحرّف العرب الاسم إلى أفريقيا وطبقوه على الجزء الأوسط من الساحل الذي يمتد بالتقريب من طرابلس إلى وسط ما نسميه بالجزائر. أما غرب الجزائر والمغرب بأسمائهم الحديثة فكانا معروفين للعرب باسم المغرب أو بلد غروب الشمس. ولم يكن هناك داع لإطلاق اسم أفريقيا أو أفريقيا على الجنوب

(*) (كان الحكم الإسلامي في لبنان متسامحًا مع المسيحيين بدليل تقديم المعونات لهم ولم يجبرهم على تغيير ديانتهم - المترجم).

القاري للصحراء. أما المغرب وأفريقية فيكونان وحدة جغرافية واحدة. وتبدأ جبال الأطلس بالقرب من الحدود الجنوبية للمغرب وتمتد أميالاً كثيرة جنوب مدينة تونس. ويفصلها عن البحر من ناحية الشمال سهل ساحلي يبلغ اتساعه مائة ميل تقريبًا. وجنوب السهل الساحلي تغطي جبال الأطلس منطقة يبلغ طولها ألفًا ومائتين وخمسين ميلًا (تقريبًا المسافة من لندن إلى بوخارست)، ويبلغ عرضها مئات الأميال. وهناك حاجز رهيب جدًا من الجبال يحجب بصورة طبيعية الكثير من قطرات المطر عن الداخل، أما البلاد التي تقع جنوب الجبال فتنغمس سريعًا في حزام من المراعي الطبيعية والواحات المتناثرة إلى أن نصل إلى الصحراء العربية الكبرى.

هذه المناطق الملتفة من السهول الساحلية والمنحنيات شبه الصحراوية أدت خلال التاريخ إلى نشوء ثلاثة طرق مختلفة للحياة. فالسهول الساحلية تكون فيها الزراعة كثيفة وتمتلئ بالمدن والقرى، التي ترتبط من هنا وهناك بالمدن القديمة والثرية التي لعبت دورًا مهمًا في تاريخ التجارة والفن المتوسطي. وترتبط بحريًا من ثم بأكثر شعوب العالم تحضرًا مصر واليونان وروما والإمبراطورية البيزنطية وفرنسا وإسبانيا، إذن فسكان السهول الساحلية عبارة عن خليط من كل جنس عاش في حوض البحر الأبيض المتوسط.

على أية حال فقليل من الشعوب الكثيرة التي استقرت على السهول الساحلية حاولت أن تتحكم في الشعوب الأخرى وأقلها حاول أن يستعمر شعوبًا أخرى، أما سلسلة جبال أطلس المتشابكة فمن قديم الزمان كانت تضم جنسًا يتكون من سكان الجبال الأشداء، وبعضهم كان يعيش كمزارعين في محل إقامتهم لأنه كانت توجد سهول خصبة بين سلاسل الجبال والآخرون كانوا يشكلون قبائل شبه بدوية، إما أن تعمل بالزراعة وإما أن ترعى الماشية والماعز. أما المنطقة التي تقع جنوب الجبال إلى أسفل الصحراء الكبرى فكانت منطقة القبائل البدوية التي تعمل بالرعي والتي كانت تنتقل بدون توقف عبر الصحراء مع قطعان الجمال.

كان السكان الأصليون للمنطقة معروفين بالبربر. أما السهل الساحلي فكان يسكنه خليط من البربر والفينيقيين واليونانيين والإيطاليين والونداليين والإسبان وشعوب البحر

المتوسط الأخرى، أما سكان الجبال والصحراء فكان معظمهم من البربر الذين اختلطوا بالشعوب الأخرى إلى حد ما.

في العصور التاريخية بنيت مدينة قرطاج قبل المسيح بثمانمائة وأربعة عشر قرنًا تقريبًا وبناها فينيقيون من صيدا وصور نطلق عليهم لفظ اللبنانيين. وكان الفينيقيون تجارًا وبحارة، وأقاموا مستعمرات على طول سواحل شمال أفريقيا وإسبانيا وصقلية. ولم يحاولوا غزو بربر الصحراء الداخلية. وبعد حروب طويلة دمر الرومان قرطاج عام ١٤٦ ق. م واحتلت روما هذه المنطقة وضمتها إليها. وفي عام ١٤ ق. م جعل الحاكم الروماني لشمال أفريقيا قرطاج مرة ثانية عاصمة للإقليم. ومع انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية غزاها الونداليون عام ٤٣٩ م وهم عبارة عن قبيلة بربرية من شمال أوروبا. وظلت تحت الحكم الوندالي حتى استعادها عام ٥٥٣ م البيزنطيون تحت قيادة بيليزاريوس في عهد الإمبراطور جوستنيان. وظلت عاصمة المقاطعات البيزنطية في أفريقيا حتى دمرها العرب كما سيظهر بعد قليل.

عمومًا كانت حروب قرطاج وروما والإمبراطورية البيزنطية مشتعلة في السهول الساحلية، أما بربر جبال أطلس فظلوا مستقلين فعليًا كشعب مقاتل. وعملوا مرتزقة في جيوش الإمبراطوريات التي احتلت الساحل بعد ذلك. وكثير من البربر بلا شك أتموا تعليمهم في المدن على شاطئ البحر واتبعوا عادات وحضارة شعوب البحر الأبيض ولكن ظلت قبائل جبال أطلس والصحراء كما هي لا تتغير، وأبدت مقاومة شديدة لكل محاولات إخضاعها. بمجرد ما فتح العرب مصر في خريف عام ٦٤٢ م أبحروا إلى الغرب وفتحوا برقة وفي عام ٦٤٣ م فتحوا طرابلس، ولكن بعد أن غنموا غنائم من المدينة انسحبوا مرة ثانية إلى برقة. وفي عام ٦٤٧ م عادوا مرة ثانية وهزموا جريجوري حاكم قرطاج البيزنطي في سوفيتولا في جنوب تونس. وعلى أية حال لم يكن القائد العربي قادرًا على محاصرة الحصون الساحلية البيزنطية؛ ونظرًا لأنه كان على بعد سبعمائة ميل من مركز قيادته في مصر فلم يكن قادرًا على الاستيلاء على المدينة فعاد إلى برقة بالغنائم التي غنمها وعاد البيزنطيون إلى السيطرة على المدينة من عاصمتهم في قرطاج.

على الرغم من أن هيبة بيزنطة قد اهتزت بشدة، واجتاح العرب أجزاء كبيرة من أفريقيا وغنم العرب غنائم من المدن وسيق سكانها عبيدًا فإن المسلمين في النهاية انسحبوا طوعًا وأثبتت الإمبراطورية البيزنطية أنها أضعف بكثير من أن تحمي رعاياها.

تلى ذلك دون شك غارات أكثر من العرب، ولكن وضعت الحرب الأهلية بين علي ومعاوية نهاية للفتوحات العربية. ولم يكن حتى عام ٦٦٥ م بعد مرور ثمانية عشر عامًا على الانتصار العربي في سوفيتولا، ومبايعة معاوية كخليفة رسميًا حتى وصل جيش عربي آخر إلى المنطقة، وهزم الحامية البيزنطية بالقرب من سوسة ثم انسحب من هناك مرة ثانية بغنائمه إلى مصر.

في عام ٦٧٠ م بذل العرب محاولة جادة لفتح دائم بعد أن أدرك عقبة بن نافع ضرورة وجود قاعدة أمامية للقيام بعمليات حربية كبيرة في أفريقية، وأسس مدينة القيروان كقاعدة إمداد حربية متقدمة. وتم اختيار الموقع بعناية وسط سهل كثيف ومتموج قليلًا ومغطى بالأشجار المنخفضة التي ترعى الجمال عليها بلذة. وواجه العرب في أفريقية عدوين: البيزنطيين في حصونهم الساحلية من جانب، وقبائل البربر في جبال أطلس من جانب آخر، وكل من هذين العدوين تحركا بطريقة غير معتادة بالنسبة للعرب؛ البيزنطيون في البحر والبربر في جبال أطلس. ولو كان عقبة أسس قاعدته على شاطئ البحر لكان قد تعرض لهجمات البيزنطيين البحرية؛ ولو كان قد أقامها في الجبال لكان البربر قد تعرضوا لها دون أي إمكانية لتعقبهم. ولكن المكان المختار كان على بعد خمسة وثلاثين ميلًا من شاطئ البحر بينما على بعد خمسة وعشرين ميلًا إلى الغرب كانت توجد المنحنيات المنخفضة لجبال أطلس زرقاء باهتة عبر السهول الواسعة. ومن يريد أن يهاجم القيروان فيجب عليه أن يفعل ذلك عبر منطقة ملتفة ومنحنية مشابهة لتلك المناطق التي أحرز فيها العرب تقريبًا كل انتصاراتهم الكبيرة.

في عام ٦٨٢ م خرج عقبة لفتح الغرب الأفريقي دون توقف لمحاصرة الحصون البيزنطية على الساحل، وتقدم آلاف الأميال في اتجاه الغرب نحو طنجة، وهزم العديد من

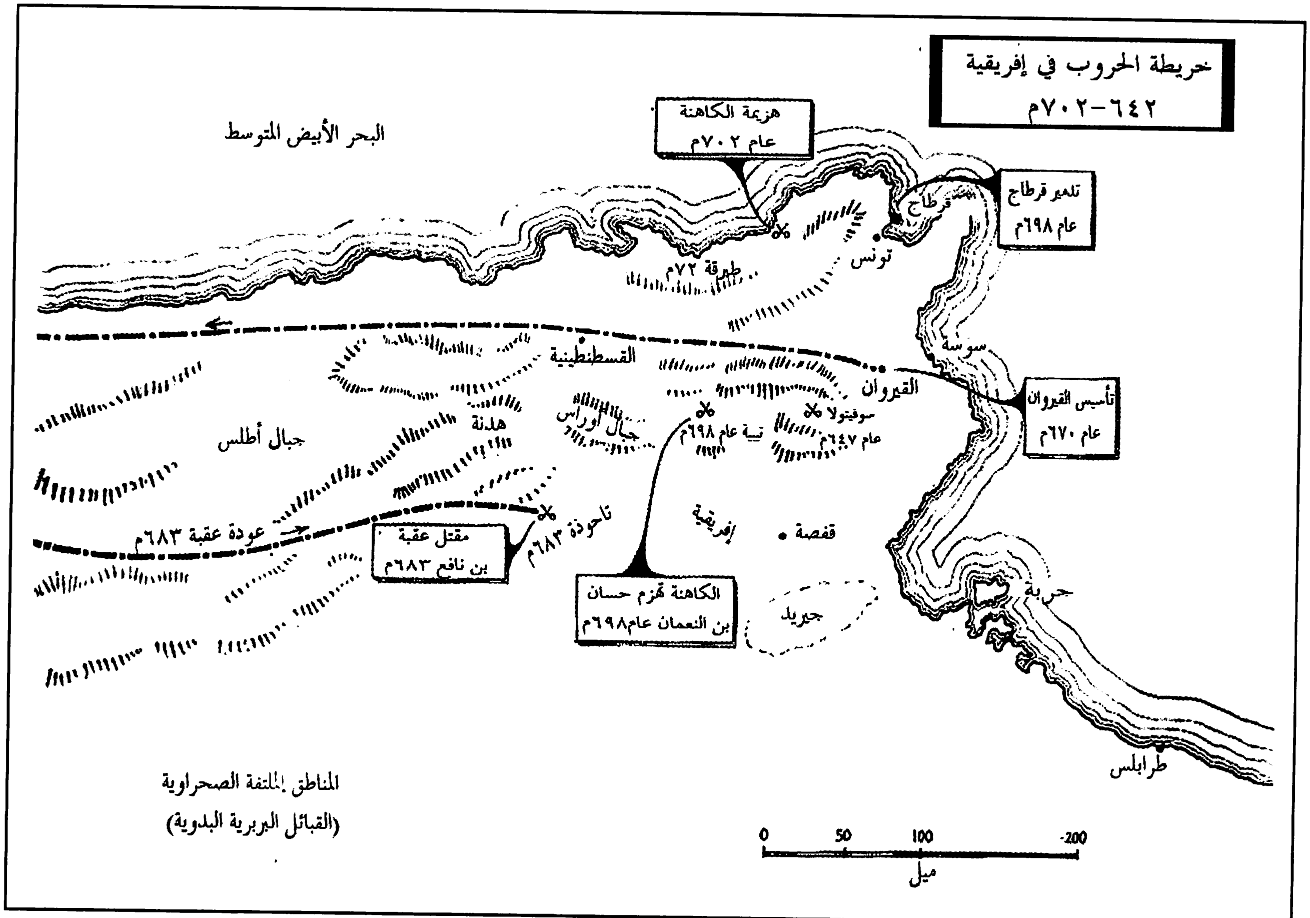
الحاميات البيزنطية وكذلك البربر الذين حاولوا أن يقفوا في طريقه. وروي أنه من طنجة حاول أن يعبر ساحل المحيط الأطلنطي لمسافة أكبر من خمسمائة ميل بالقرب من مدينة أغادير الحديثة حيث تصوره الروايات يدعو الله أن يشهد أن المحيط الأطلنطي منعه من الإبحار عليه في اتجاه الغرب إلى الأبد؛ لكي يقاتل ويضرب أعناق كل هؤلاء الذين يعبدون غير الله الواحد الأحد.

في عام ٦٨٣ م عند عودته في اتجاه الشرق شاقًا طريقه خلال جبال أطلس قسم جيشه بسرعة إلى عدة ألوية مستقلة حاميًا نفسه بحراسة مكونة من ثلاثمائة فارس، وانطلق خلال جبال أوراس قلب بلاد البربر فكمنت له هنا قوة كبيرة من البربر الأشداء. وفي منطقة تاحوزة قتل عقبة وكل أفراد حاميته وهو يقاتل. والآن يحترمه البربر كقديس وتعتبر مقبرته الآن مزارًا لأحفاد البربر الذين حاربوه بعزيمة كبيرة.

مع وفاة عقبة وهزيمته تخلى العرب عن كل فتوحاتهم وانسحبوا مرة ثانية إلى برقة واحتل البربر المنتصرون القاعدة العربية في القيروان. وفي هذا العام ٦٨٣ م توفي الخليفة يزيد، ودخل العرب في سلسلة من الحروب الأهلية بما فيها ثورات الشيعة والخوارج وقصة المختار وعبد الله بن الزبير.

برغم تلك الظروف في عام ٦٨٦ م تمكن جيش عربي بقيادة زهير بن قيس من الدخول مرة ثانية إلى أفريقيا (تونس حاليًا) وهزم جيش البيزنطيين والبربر في سهل القيروان، ولكن زهير كان ضعيفًا جدًا بصورة لا تمكنه من أن يستقر في القيروان، وبعد هذا الانتصار الباهظ انسحب مرة ثانية إلى برقة.

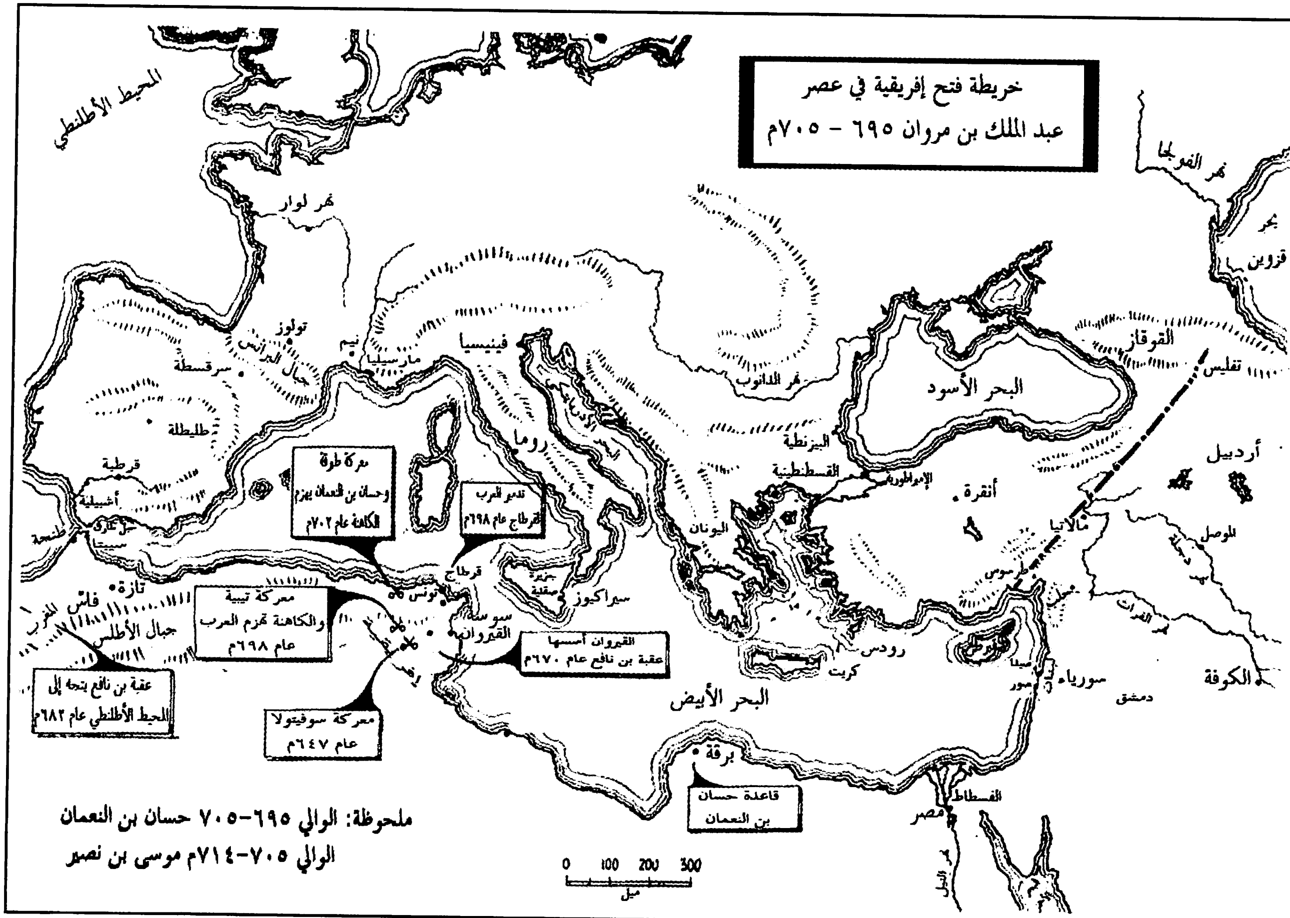
في عام ٦٩٥ م بعد مقتل عقبة بن نافع وهزيمته باثني عشر عامًا، وجد الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه من القوة بحيث يمكنه استئناف سياسة الفتوحات في أفريقيا. وفي ذلك العـــام كـــان حسان بن النعمان يقود جيشًا كبيرًا وهذا الجيش لم يفتح أفريقيا فحسب (تونس)، ولكن استولى على قرطاج بهجوم خاطف. وهكذا سحق البيزنطيين بصورة واضحة، وتقدم لقتال بربر جبال أطلس. وكان رد فعل الإمبراطور البيزنطي ليونسيوس


خريطة الحروب في إفريقية
٦٤٢-٧٠٢م
البحر الأبيض المتوسط
هزيمة الكاهنة
عام ٧٠٢م
تدمير قرطاج
عام ٦٩٨م
قرطاج
تونس
طبرقة ٧٢م
القسطنطينية
القيروان
سوسة
تأسيس القيروان
عام ٦٧٠م
سوفيتولا
عام ٦٤٧م
تبية عام ٦٩٨م
جبال أوراس
هدنة
جبال أطلس
تاحوذة ٦٨٣م
عودة عقبة ٦٨٣م
مقتل عقبة
بن نافع ٦٨٣م
الكاهنة تهزم حسان
بن النعمان عام٦٩٨م
إفريقية
قفصة
جريد
جربة
طرابلس
المناطق الملتفة الصحراوية
(القبائل البربرية البدوية)
0
50
100
200
ميل

غير متوقع؛ فبعث أسطولًا بالقرب من قرطاج وأعاد احتلال المدينة، بينما كان حسان بن النعمان بعيدًا يقاتل البربر في جبال أطلس. ولكن لم يستطع الإمبراطور أن يحافظ على تقدمه لأنه ترك الحامية البيزنطية دون تعزيزات أو إمدادات، وفي عام ٦٩٨ م أعاد حسان فتح قرطاج مرة ثانية ومثلما فعل الرومان من ثمانمائة وأربعة وأربعين عامًا سواها بالأرض. وبعد ألف وخمسمائة عام بقيت قرطاج واحدة من أعظم المدن في العالم، ولم يُعَد بناؤها مرة ثانية، وبعد سقوط العاصمة قرطاج ترك البيزنطيون كل حصونهم إلى غرب سبتا القاعدة الأخيرة التي بقيت في أفريقيا.

في تلك الأثناء حدث تغيير كبير في موقف البربر، فالبربر الذين طردوا العرب من قبل كانوا من سكان الجبال مزارعون ورعاة غنم من أعالي جبال أطلس. ولكن ظهرت فجأة قبيلة "الزناتا" وهي قبيلة من رعاة الغنم البربر البدويين من الصحراء التي تتفرع جنوب جبال أطلس، واجتاحت السهول الساحلية لأفريقية وألحقت هزيمة كبيرة بالفاتحين العرب في منطقة تيبية على بعد مئات الأميال غرب القيروان. ونجح حسان بصعوبة بالغة في الانسحاب بقوته المبعثرة إلى برقة تاركًا كل المناطق التي فتحها. ومر أكثر من خمسين عامًا منذ أن فتح العرب برقة لأول مرة عام ٦٤٢ م، والآن بعد انتصارات وهزائم متتابعة كبيرة عادوا مرة ثانية إلى حيث بدءوا منذ نصف قرن مضى. ولكن بعيدًا في دمشق كان عبد الملك ابن مروان في قمة قوته. وفي عام ٧٠٢ م بعث بتعزيزات إلى حسان بن النعمان مكونة من جيش قوي وأمره أن يستأنف هجماته.

أما البربر البدو الذين طردوا العرب من أفريقيا من خمس سنوات مضت فقد تولى قيادتهم امرأة لا نعرف اسمها، ولكن يعرفها المؤرخون بالكاهنة أو المتنبئة. ويروي لنا ابن خلدون الذي كتب كتابه بعد سبعمائة عام من هذه الوقائع، الذي كان أحد سكان تونس الأصليين، أن الكاهنة كانت تعتنق اليهودية. وكان سر نفوذها الكبير هو ادعاءاتها الدينية، وكانت هي وقبيلتها في الوقت نفسه عبارة عن بدو أصليين يركبون الجمال من الصحراء الكبرى. ويروى أنها أخبرت أتباعها أن العرب يحبون أفريقية (تونس) بسبب مدنها الثرية


خريطة فتح إفريقية في عصر
عبد الملك بن مروان ٦٩٥ - ٧٠٥م
المحيط الأطلنطي
نهر لوار
تولوز
جبال البرانس
سرقسطة
طليطلة
قرطبة
أشبيلية
طنجة
نيم
مارسيليا
فينيسيا
روما
نهر الدانوب
البيزنطية
القسطنطينية
البحر الأسود
القوقاز
تفليس
نهر الفولجا
بحر قزوين
أردبيل
أنقرة
ملاتيا
طرسوس
الموصل
نهر الفرات
الكوفة
دمشق
سورية
صور
اليونان
رودس
كريت
البحر الأيض
برقة
الفسطاط
مصر
نهر النيل
سيراكوز
جزيرة صقلية
قرطاج
تونس
سوسة
القيروان
تازة
فاس
جبال الأطلس
معركة طرقة
وحسان بن النعمان يهزم
الكاهنة عام ٧٠٢م
تدمير العرب
لقرطاج عام ٦٩٨م
معركة تيية
والكاهنة تهزم العرب
عام ٦٩٨م
القيروان أسسها
عقبة بن نافع عام ٦٧٠م
عقبة بن نافع يتجه إلى
المحيط الأطلنطي عام ٦٨٢م
معركة سوفيتولا
عام ٦٤٧م
قاعدة حسان
بن النعمان
0 100 200 300
ميل
ملحوظة: الوالي ٦٩٥-٧٠٥ حسان بن النعمان
الوالي ٧٠٥-٧١٤م موسى بن نصير

ومحاصيلها الوفيرة وبساتين الزيتون وأشجارها التي تنمو في السهل الساحلي. ولو تم تدمير كل هذه الأشياء فلن يأتي العرب مرة ثانية وستتمكن قبائل الزناتا من رعي قطعان الجمال الكبيرة حينما تريد بدون أي إزعاج. وأن البدو جعلوا الصحراء مسالمة لمدة خمس سنوات.

في عام ٧٠٣ م كما هو مذكور من قبل بعث الخليفة بتعزيزات عبارة عن جيش كبير إلى حسان بن النعمان. وكانت أعمال التخريب التي قامت بها قبائل الجمال في السهل الساحلي طبقًا لسياسة الأرض المحروقة التي أمرت بها الكاهنة قد قلبت سكان المدن والمزارعين ضدهم. ووجد العرب حلفاء لم يتوقعوهم من السكان اليونانيين والبربر سكان المدن، وحدثت معركة كبيرة بالقرب من طبرقة على السهل الساحلي على بعد خمسة وثمانين ميلًا غرب قرطاج. وحدث في اليوم الذي سبق هذه المعركة أن الكاهنة بعثت أولادها للانضمام لصفوف العدو كمعارضين لقضيتها وهو نوع من السياسات المألوفة للقبائل العربية والبربرية على حد سواء، وذلك حينما يقوم هؤلاء في محاولة مستميتة بتقسيم أفراد العائلة. وبهذه الوسيلة ماذا تكون النتيجة؟ بالطبع واحد منها في جانب المنتصر وبذلك يستطيعون إنقاذ ثروات العائلة. وعندما نشبت المعركة انهزم البربر كلية وقتلت الكاهنة. وبعث حسان برأس قائدة جيش البربر إلى عبد الملك بن مروان في دمشق.

عاد حسان بن النعمان منتصرًا إلى القيروان. وتم قمع كل المعارضين للحكم العربي في النهاية، وبعد ستين عامًا من الحروب والانتصارات والهزائم المتغيرة تم تعيين حسان ابن النعمان على قرطاج لتنظيم إدارة هذا الإقليم البعيد وماليته. وكما ذكرنا من قبل فإن قرطاج كانت قد سويت بالأرض ذات مرة، ولكن حسان أحل محل المدينة القديمة قرية تونس التي تم تطويرها على بعد عشرة أميال غربًا. وكانت هذه القرية تقع على بحيرة ضحلة بدلًا من البحر المفتوح وهو ما مكنها من هناك من حماية نفسها من أي هجوم بحري مباشر.

في عام ٧٠٥ م تم خلع حسان من وظيفته وحل محله موسى بن نصير الذي تم توليته لتعزيز هذا الانتصار الذي حققه سلفه فزحف أولًا عبر السهل الساحلي، ووصل إلى طنجة

واحتلها، وعلى الرغم من فشله في فتح سبتا عن طريق الهجوم المباغت فإنه جعل السلام يدب على ساحل الأطلنطي بفتح ما نسميه الآن بالمغرب. وعند عودته مرة ثانية عبر السهول التي تقع جنوب جبال أطلس استكمل فتح مدينة قرطاج. ونظرًا لأن السياسة والدين يسيران جنبًا إلى جنب فقد حسم الانتصار العربي النهائي مصير أغلبية البربر الذين تناوبوا من هنا بعد كل هزيمة أو انتصار على اعتناق الإسلام وقبوله وتغيير ديانتهم (*). ومن هنا فصاعدًا كان كثير منهم متحمسًا للإسلام أكثر من العرب أنفسهم على الرغم من أن رفضهم لسلطة العرب جعلهم يتبعون فرقة إسلامية تختلف في أصولها عن الحكومة المركزية في دمشق.

منذ أن بدأت أول الفتوحات العربية عام ٦٣٠ م كان الموظفون البيزنطيون مستمرين في ممارسة الإدارة المدنية في سوريا وفلسطين، بينما في فارس كان العمل نفسه يقوم به الموظفون الفرس. أما في المناطق البيزنطية السابقة فكانت الحسابات العامة تكتب باللغة اليونانية، وفي الجزء الشرقي من الإمبراطورية كانت تكتب باللغة الفارسية. في عصر عبد الملك بن مروان فحسب صدرت الأوامر بكتابة الحسابات باللغة العربية. وكان أول خليفة يصك العملات الخاصة به، أما العملات البيزنطية والفارسية فكانت غطاءً رسميًا للعملة العربية. واستعمل البيزنطيون العملة الذهبية الصلدوس كغطاء أساسي لعملتهم. أما الدينار الذهبي فكان المكافئ العربي للصلدوس. أما الفرس فقد تعاملوا بالدرهم الفضي وصك العرب الدراهم الفضية على الطريقة نفسها. وهكذا كان للعرب عملتان رئيسيتان الدينار الذهبي والدرهم الفضي. وفي عهد عبد الملك بن مروان كان الدينار يكافئ عشرة دراهم فضية. وبعد ذلك هبطت قيمة الدرهم إلى ثني عشر أو خمسة عشر قيمة الدينار ومن المستحيل كليةً أن نقارن القوة الشرائية لهذه العملات بأي عملة في عالمنا الحديث ولكن بصورة تقريبية نفترض أن الدينار يقارب قيمة الجنيه الإسترليني، والدرهم بأي قيمة عملة يقارب (٢) شلن.

(*) (لم يكن ذلك من البربر إلا عن اقتناع بالإسلام ولم يتم إكراههم على اعتناق الإسلام – المترجم).

أما الضرائب التي كان يجمعها عبد الملك بن مروان فكانت على أساس النظام الذي وضعه النبي صلى الله عليه وسلم وأقره عمر بن الخطاب. والضرائب الأساسية كانت تتكون من:

١- ضريبة الفقراء، وهذه الضريبة شرعها النبي صلى الله عليه وسلم. وهي تحمل مضمونًا اشتراكيًا. وكانت تجمع على الماشية والمنتجات الزراعية وتوزع على الفقراء. ودفع هذه الضريبة كان فريضة أساسية في العقيدة الإسلامية(*).

٢- ضريبة الرأس أو الجزية وتجمع من أهل الذمة غير المسلمين. وكل ذكر بالغ يدفع جزية سنوية تتراوح بين واحد إلى أربعة دنانير على الفرد.

٣- الخراج ويزيد على غير المسلمين منه عن المسلمين.

٤- نقود تدفع باتفاقات خاصة تعقد عندما تخضع مدن معينة أو مناطق معينة إلى الفاتحين العرب الأصليين.

٥- خمس كل غنائم الحرب.

تبعًا للنظام الفائق البساطة والديمقراطي الذي وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، كل دخل الدولة الإسلامية يخص مجتمع المسلمين عامة ويقسم بينهم بالتساوي، ولا يبقى شيء في بيت المال ولا يقدم للإنفاق الحكومي أي شيء. وكان من المستحيل بوضوح أن تحكم إمبراطورية دون وجود مال في بيت المال، وكان أول عبء على الدولة هو العطاءات السنوية التي تدفع للعرب على الأسس التي وضعها عمر بن الخطاب.

في عهد عبد الملك بن مروان نحت الحكومة منحى في هذا السبيل يشبه ما تفعله الدولة الحديثة. وتحت بند الدواوين تولت دواوين كثيرة مهام الحكومة. فكان هناك كمثال ديوان للمالية وديوان للجيش وكانت نسخ الأوراق الحكومية تحفظ في الأرشيفات. وكانت كل إدارة تحتفظ بنسخ من كل المكاتبات الصادرة.

(*) (هذه هي الزكاة ويسميها الكاتب ضريبة، وهي زكاة الماشية والمحاصيل الزراعية وقيمتها تبلغ العشر وتوزع على الفقراء والمساكين وهي إحدى أسس العدالة الاجتماعية في المجتمع - المترجم).

كان في دمشق نظام بريدي أكثر تنظيمًا يحافظ على الاتصال بأبعد أماكن الإمبراطورية. وكانت هناك مجموعات من الجياد على أهبة الاستعداد على طول الطرق الرئيسية لتخرج من دمشق إلى كل أركان البلاد الخاضعة للخليفة. وكان الحمام الحامل للبريد أو الزاجل يستخدم لإرسال المكاتبات الملحة.

لم تكن المهمة الرئيسية لمكتب البريد أن يحمل البريد الخاص، ولكن البريد الحكومي أيضًا ومن المشكوك فيه عما إذا كان يرسل الخطابات الخاصة على الإطلاق وحتى إذا فعل ذلك كما يقول المسعودي، فإن ذلك كان جزءًا من واجبه الرسمي أو معروفًا يبديه لتعريف الأصدقاء أو المشاريع التجارية الخاصة بدور رجل البريد. وفي الأقاليم كان رئيس البريد واحدًا من أهم موظفي الإمبراطورية؛ لأنه كان يخلط في عمله بين الإشراف على البريد وأعمال المخابرات. وكان واحد من أهم واجباته هو تسليم تقارير سرية إلى الخليفة في دمشق بكل شيء يحدث في الإقليم الذي يعمل فيه. وهكذا كان يجري تقييم لأنشطة الولاة والموظفين الكبار الآخرين. وكان ما يقوم به جامعو الخراج من اختلاس الأموال أو شراء الولاة لجاريات جديدات تشكل موضوعات للتقرير السري الذي يبعث به رئيس البريد. وكان ذلك يزيد من أقاويل الشيعة حول نزاهة الحكم وكان رؤساء البريد مدربين على إرسال تقرير مفصل بكل موضوع لأن كل موضوع عند استلامه في دمشق كان يتم اختصاره وإرساله إلى الديوان المناسب.

كان عبد الملك بن مروان يهتم اهتمامًا شخصيًا بحكم الإمبراطورية. وفي إحدى المناسبات تلقى تقريرًا يتعلق بوال معين من ولاة الأقاليم، وكان من عادته قبول الهدايا فاستدعاه الخليفة إلى دمشق وعندما دخل سأله بفظاظة: «هل سبق لك أن قبلت هدية منذ أن أصبحت واليًا؟»، فرد: «يا أمير المؤمنين إن المناطق التي تحكمها غنية والضرائب تنهال عليك ويعيش رعاياك في يسر وراحة»، فقاطعه الخليفة بصرامة: «رد على سؤالي» «هل سبق لك أن قبلت هدية منذ أن أصبحت؟ فاعترف الرجل التعيس «نعم يا سيدي»، فاعترضه عبد الملك: «لقد خنت الأمانة» وهو يقطع أي جدال بعد ذلك فأعطى أوامره بخلعه مباشرة.

اختلط الجنس العربي السائد بسكان العراق الأصليين كما سبق أن ذكرناه. وحدث الشيء نفسه في سوريا. وكان تكوين المجتمع الذي فتحه الفاتحون العرب الأوائل يتكون من مجتمع بقي فيه العرب المسلمون يكونون طبقة أرستقراطية إمبريالية، وهذه الطبقة تعيش في مدن عسكرية كبيرة، وكانت واجباتها هي الحرب والحكم فحسب، وكانت تتلقى كل رواتبها من الدولة (*). وعند مقارنة عدد السكان العرب بالسكان الأصليين لهذه المناطق الكثيفة نجد أن عددهم قليل للغاية. وتقريبًا في عام ٧٠٠ م كمثال كان عدد العرب المسلمين الذين يتلقون رواتب من الدولة في إقليم دمشق يبلغ خمسة وأربعين ألفًا، بينما كان في إقليم حمص يبلغ عشرين ألفًا. وفي عصر عبد الملك بن مروان كان معظم سكان سوريا مسيحيين. وبالإضافة إلى ذلك كاد العرب يستقرون كليةً في المدن الكبيرة أو لا يزالون يعيشون كقبائل صحراوية بدوية بصورة بديلة. وكما في العراق كان القرويون والعمال الزراعيون يتكونون بصفة أساسية من السكان الأصليين ولم يتغير تكوين سكان المناطق الريفية من الفتوحات العربية.

كانت أكبر التغيرات الاجتماعية في عصر بني أمية في دمشق، ونتجت من الممارسات الكبيرة التي تمارس فيها، العبودية. وكان أهم مصدر للعبيد هو أسرى الحرب، فبعد كل حملة عسكرية كان الآلاف أو عشرات الآلاف من أسرى الحرب يباعون عبيدًا. وبعد ذلك امتلك القادة العرب عدة مئات من العبيد. وترك الزبير بن العوام والد عبد الله بن الزبير عند وفاته ألف عبد وأمة. أما النبي صلى الله عليه وسلم نفسه فقد قرر أن تحرير العبيد عملاً يستحق صاحبه المكافأة، ونتج عن ذلك أن الآلاف من العبيد الأجانب أسرى الحرب أصبحوا أحرارًا، وأثناء حكم بني أمية في دمشق نجد ذكرًا متزايدًا باستمرار لموالٍ أو عبيد نفذوا مهامًا سرية لأسيادهم أو قاتلوا مع حاشيتهم في المعارك. ونجد أن واحدةً من الشكاوى التي قدمها الزعماء العرب لعشائر الكوفة ضد المختار بن عبيد، هي أنه جندهم في جيشه وبالتالي أبعدهم عن سيطرة أسيادهم. وعادة ما يبقى المولى في خدمة مالكه الأصلي حارسًا له أو في بعض الأحوال كمساعد خاص. ومعظمهم أصبح مسلمًا.

(*) (كانت هذه الطبقة مميزة فقط لأنها كانت تجاهد في سبيل الله ولم يكن هناك تمييز كبير بينها وبين السكان الأصليين بدليل واقعة حكم عمر لصالح الأقباط ضد ابن عمرو بن العاص – المترجم).

كانت هناك محاولات قليلة أو لم تكن في الأيام الأولى لبني أمية لتحويل ديانة السكان الأصليين نحو الإسلام، وذلك لسببين: أولهما أنه منذ الفتوحات وضع تشريع أن أهل الذمة عليهم أن يدفعوا مقدارًا مختلفًا وكبيرًا من الضرائب عن المسلمين (*)؛ ولذلك كان أي تحول جماعي نحو الإسلام يكلف خزانة الدولة خسارة مبلغ كبير من المال. ولقد هبط دخل مصر التي كان سكانها أكثر استعدادًا من أي بلد آخر مفتوحة للدخول في الإسلام إلى أقل من النصف عما سبق في أول عشرين عامًا بعد الفتح. والسبب الثاني هو أن كل المسلمين متساوون نظريًا. والعرب على أية حال كانوا شعبًا فاتحًا يعتبر المصريين والسوريين والفرس أقل منه اجتماعيًا.

لكن على الرغم من أن العرب لم يفرضوا على أي أحد الدخول في الإسلام فإن عدد الداخلين في الإسلام من الشعوب المفتوحة بلادهم استمر في التزايد، سواء في صورة عبيد وموالٍ وأيضًا بين الناس العاديين الذين رأوا في اعتناق الإسلام وسيلة للحصول على المساواة الاجتماعية مع الفاتحين. وعمليًا كان الفاتحون العرب الأولون متلهفين بكل وسيلة لقبول الداخلين في الإسلام كأشخاص مساوين لهم. أما معتنقو الإسلام الجدد فكوّنوا بناءً على ذلك طبقة اجتماعية ساخطة بصورة كبيرة تحاول عبثًا أن تصل إلى المساواة مع أسيادها.

مات عبد الملك بن مروان في أكتوبر عام ٧٠٥ م وعمره ستون عامًا، وحكم تقريبًا في دمشق لمدة واحد وعشرين عامًا، ولكن أثناء السبع سنين الأولى كان ينازعه عبد الله بن الزبير الخلافة. وعندما كان شابًا حينما تولى والده مروان ولاية المدينة في عصر معاوية الأول كان يكرس نفسه لدراسة الدين وكان يقارن نفسه مع أكثر الفقهاء علمًا في مكة والمدينة في تفسير القرآن أو أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. وعندما أصبح خليفة في دمشق شغلت الأمور الدنيوية معظم وقته فيما عدا دراسة الدين. وكان شديد الفصاحة وروي أنه لم يرتكب أي خطأ نحوي باللغة العربية. وكان شاعرًا مثل كل الأمويين ومعظم العرب، وفي سنواته الأخيرة روي أنه كتب هذه الأبيات يرثي غرور هذه الحياة:

(*) (الجزية التي يدفعها غير المسلمين كانت مبالغ قليلة وكانت تدفع سنويًا مقابل الخدمات التي يقدمها المسلمون لأهل الذمة كالدفاع عنهم وتأمين ديارهم؛ إذن لم تكن بلا مقابل – المترجم).

لعمــــري لقـــد عمـرت في الملك برهـة

ودانت لي الدنيا بوقع البواتر

وأعطيت حمـر المال والحكم والنهي

ولي سلمت كل الملوك الجبابر

فأضحى الذي قد كان مما يســرني

كحلم مضى في المزمنات الغوابر

فياليتنـــي لم أعـــن بالملك لـــيلة

ولم أسع في لذات عيش نواخر (*)

ولقد وبخ المؤرخون العرب عبد الملك بن مروان توبيخًا كبيرًا لأنه أيد الحجاج في تجاوزاته. ولقد نصب الأمويون ثلاثة نواب للخليفة متتابعين في العراق، وكل منهم كان عنيفًا وقاسيًا وقويًا. الأول كان زياد بن أبيه، والثاني عبيد الله بن زياد الذي تسبب في مقتل الحسين شهيدًا، والثالث الحجاج بن يوسف الثقفي. وللدفاع عنه فمن السهل أن نرد على ذلك بوصف تقلب الكوفيين وغدرهم وخيانتهم، وهم الذين أيدوا عليًا بن أبي طالب أولًا ثم اغتالوه فيما بعد وكذلك ابنه الحسين. والآن لا يمكن أن نتجنب تأثير أن القسوة قد تكون ضرورية أحيانًا، ولكن ذلك القمع الجماعي نكس كل أهدافه النبيلة ودفع أهل الكوفة والبصرة إلى ثورات جديدة، والتي أدت في النهاية إلى أفول شمس الدولة الأموية وانهيارها. وبقدر ما تمتزج بعقلية العرب لمسة كبيرة من الرحمة تجاه الفقراء والضعفاء، وبقدر ما كانت الحكومة العربية الأموية معنية بذلك الآن فإنه كانت هناك نظرة متدنية تفترض أن الإنسان لا يحكم إلا بالقوة والخوف.

(*) من كتاب البداية والنهاية لابن كثير.

الآن تصبح روايات المؤرخين العرب متصارعة ومتحيزة لدرجة أنه من الصعب بمكان أن نتوصل إلى نتائج نهائية. وهناك مستشرق أوروبي بارز قدم لنا تقييمًا دقيقًا عن الحجاج وزياد بن أبيه فكتب: «هل نائبًا الخليفة الأموي في العراق كلاهما قد نظرا إلى أنفسهما كمؤيدين للنظام والحكومة ودفعا ثمن الثقة الملقاة عليهما بتأدية واجباتهما بصورة كاملة بدون إزعاج أنفسهما بالنظر إلى الرأي العام؟». ولم يكن الحجاج يتحمل مسئولية سلفه؛ فتقديراته الإدارية بخصوص نظام الضرائب وتشجيع الزراعة كانت مهمة جدًا. وكانت كلماته لها قوة القانون. ولكن هل خانته شجاعته؟ على العكس ارتفعت إلى قمة هامته. وبالرغم من كونه شديدًا وعنيفًا أحيانًا فإنه لم يكن قاسيًا ولا بخيلًا. وكان ضميره صافيًا في حياته ومماته، أما الجرائم الأخرى الملصقة به فكانت محض افتراء ونتيجة للحقد عليه؛ ففي مجال الإدارة حفر الحجاج عدة قنوات للري اعتمد عليها العراقيون، ووفر قروضًا من الدولة إلى الفلاحين كما تقوم بها حاليًا البنوك الزراعية. وعندما مات لم يترك شيئًا خلفه إلا القرآن وأسلحته وقطعًا قليلة من الفضة.

وعلى الرغم من ميل عبد الملك بن مروان المبكر إلى الدراسات الدينية، فقد كان معتادًا على شرب النبيذ بعد توليته الخلافة في دمشق. وكان متحيزًا للجنس اللطيف وروي أن زوجته عتيقة كانت تؤثر عليه كثيرًا. وكان يجادل النساء، وروي أنه قال «إن الرجل الذي يرغب في أن يتخذ جارية لتسري عنه فليتخذ جارية بربرية أصلية، ومن يريد أن يتخذ جارية ينجب منها أطفالًا فعليه بالجارية الفارسية، ولكن إذا احتاج إلى واحدة لكي تخدمه عندئذ فمن الأفضل له أن يختار جارية يونانية». وهذا الموقف يوضح وفرة الإماء والذي يبدو أنه كان متاحًا بسهولة في ذلك الوقت.

على الرغم من التسري بالجاريات فقد كان مركز المرأة العربية لا يزال قويًا. وتبعًا لرواية مؤرخ حديث لم يتم جلب العبيد المخصيين حتى عصر الوليد الثاني حفيد عبد الملك ابن مروان. وفي عام ٧٤٣ م تم جلبهم إلى دمشق من بيزنطة. ولم يحدث عزل للنساء حتى العصر العباسي طبقًا للاتجاه العام نحو الشرق والذي سنشير إليه في الفصول القادمة.

على الرغم من اهتمام عبد الملك بن مروان بالنساء فلم يكن منغمسًا في الملذات. وعندما سئل أي الرجال أفضل؟، روي أنه رد «من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وعدل عن قوة» ولامه بعضهم على بخله الشديد فحسب؛ لأنه كان حريصًا على بيت المال من تبديد المال بإنفاق المبالغ، والذي كان النموذج التقليدي لأي أمير عربي(*).

باختصار فإن عبد الملك بن مروان كان رجلًا متمكنًا بصورة فريدة، فأحيانًا يظهر في صورة رجل الدين العالم به جيدًا مع ميوله الأدبية وسعادته الاجتماعية، ولكن أحيانًا يبدو قاسيًا عندما يظهر شيئًا يهدد سلامة الدولة. وككل لا يمكن أن ننكر عليه لقب البارع كحاكم حتى وإن كنا نميل إلى أن نرفضه كرجل بارع من الناحية الأخلاقية.

قبل وفاته بعام دعا المسلمين إلى مبايعة ابنه الوليد وارثًا وحيدًا له. وتم ترشيح بنه الثاني سليمان كخليفة للوليد بن عبد الملك. واعتبر الأخير أن الخلافة ستكون من نصيبه يومًا ما، وفي الثامن من أكتوبر عام ٧٠٥ م كانت وفاة والده.

(*) (لم يكن كل الأمراء العرب مسرفين ويبددون الأموال بل كان منهم من ينفق الأموال في فعل الخيرات والإحسان إلى الفقراء، والتعميم في ذلك من الكاتب خطأ – المترجم).

تواريخ بارزة

تعيين الحجاج واليًا على الكوفة يناير ٦٩٥ م.

ثورة الخوارج في العراق بزعامة شبيب مايو ٦٩٥ م.

حسان بن النعمان يستولى على قرطاج ٦٩٥ م.

ثورة الكاهنة في أفريقيا ٧٠٠ م.

حسان بن النعمان ينسحب إلى برقة ٧٠٠ م.

ثورة بن الأشعث في العراق فبراير ٧٠٢ م.

هزيمة بن الأشعث في معركة دير الجماجم أغسطس ٧٠٢ م.

هزيمة الكاهنة في معركة طبرقة ٧٠٢ م.

موسى بن نصير يخلف حسان بن النعمان ٧٠٥ م.

وفاة عبد الملك بن مروان ٨ أكتوبر ٧٠٥ م.

الشخصيات

عبد الملك بن مروان... الخليفة ٦٨٥ - ٧٠٥ م.

المهلب بن أبي صفرة... قائد عسكري كبير في فارس.

الحجاج بن يوسف... والي العراق.

عبد الرحمن بن الأشعث... الذي اختاره الحجاج لكي يقود المعارك في كابول ثم ثار ضد الحجاج.

حسان بن النعمان... القائد العربي الذي فتح أفريقيا (تونس).

الكاهنة... زعيمة ثورة البربر.

موسى بن نصير... الوالي الجديد لأفريقيا.

الوليد بن عبد الملك... الخليفة في ٨ أكتوبر ٧٠٥ م.

الفصل السادس

الأندلس

نهر رقيق نهر رقيق

تتلطخ مياهه بالدم

وكثير من القباطنة النبلاء والشجعان

يرسون على شواطئه الصفصافة

والكل بجانب مياهه الصافية

والكل بجانب رماله المصقولة

والقادة العرب والمحاربون المسيحيون

يتقاتلون في قتال ضار ومميت

(توماس بيرسي– من مقطوعة شعرية إسبانية قديمة)

تقدم طارق مسافة حتى منطقة لاجونة دوجاندا عندما سمع أن الملك رودريك كان يسير ضده على رأس جيش كبير. ولم يفكر طارق في التراجع؛ وكان الطموح والتعصب والطمع يحثه على التقدم، وكان يترأس قوة تتكون من اثني عشر ألف جندي. وهذه القوة كانت صغيرة بالمقارنة إلى جيش رودريك، ولكن الخيانة رجحت كفة المسلمين.

(دوزي، المسلمون في إسبانيا)

لقد أنجز عبد الملك بن مروان أعمالًا كبيرة للإمبراطورية على الرغم من الحروب الأهلية الكثيرة التي حدثت في الشطر الأول من عصره. وعم السلام الداخلي الإمبراطورية، وتم إصلاح الإدارة ودونت الحسابات والسجلات كلها باللغة العربية وقوي النظام الحكومي ككل، ومن الصواب أن نقول إن هذه الكفاءة المتزايدة في الحكم قد تحققت إلى حد ما عن طريق الحكم المطلق الاستبدادي. ومعاوية كأول خليفة أموي كان في أساليبه أحسن قليلًا مما تفرضه الزعامة في التقاليد العربية، يجلس عمومًا مع المواطنين الذين ينقدون أمامه مباشرة تصرفات الحكومة علنًا. وكان عبد الملك هو أول خليفة منع نقد الحكومة. وكان عندما يخطب يقف الحرس خلفه رافعين أسيافهم.

أما الخليفة الثاني بعد النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب فعندما سمع أن والي العراق قد أغلق باب منزله بصورة عادية أرسل إليه رسالة يدعوه فيها إلى أن يترك باب منزله مفتوحًا حتى يستطيع العامة أن يصلوا إليه في كل الأوقات. والآن يعيش الخلفاء في دمشق في قصر يحرسه جنود القصر وحاشيته وضباطه. ويجب أن نعترف أن الأساليب الديمقراطية التي اتبعها الخلفاء الأوائل الراشدون لم تعد مطبقة في الإمبراطوريات الكبيرة والمتحضرة. والآن مضى على وفاة عمر بن الخطاب واحد وأربعون عامًا قبل تولية عبد الملك بن مروان الخلافة. أما التغيير الذي حدث فهو ليس أقل من ثورة اجتماعية سارت في غاية السرعة بناءً على ذلك. وكلا الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية كانتا معتادتين على الحكم الفردي المطلق وكان العرب قد أثرت فيهم هاتان الإمبراطوريتان تأثيرًا كبيرًا.

من الجدير بالملاحظة أن ثلاثة من أول أربعة خلفاء في هذه الأيام الديمقراطية قد تم اغتيالهم، وهي حقيقة تبرر اتخاذ بعض الاحتياطات الأمنية. ولكن جانب الخلافة الذي كان أكثر عرضة للنقد هو العنف المطلق الذي تم به قمع كل حركة انشقاق في الإمبراطورية، وكانت المشاكل العرقية والدينية والاجتماعية محتمة خصوصًا في إمبراطورية فتحت بلادها بسرعة كبيرة وتتكون من أجناس مختلفة متعددة. والآن كما رأينا كانت كل ثورة يتم قمعها بعنف لا يلين.

يمكن أن نعزو الوحشية التي تم بها قمع الثوار إلى حد ما إلى حقيقة مفادها: أن كل حركات العصيان حدثت لتأييد بعض خصوم السلطة المطالبين بالخلافة أكثر منها لتأييد هدف سياسي. وكان مجال الإصلاحات السياسية المحضة حقيقةً مقصورًا على الاعتقاد بأن كل ذلك كان مطلوبًا لهداية الناس كأفراد أو كمجتمعات، وهو ما تضمنه القرآن وتضمنته السنة النبوية الشريفة. أما الآن فتوجد طبقات عديدة ساخطة وأفراد. ولأن الساخطين لم يكونوا علانية قادرين على معارضة نظام حكومي يتمسح ظاهريًا بأوامر الله، فقد مالوا إلى التعبير عن سخطهم بتأييد أي خصم للخليفة يطالب بالخلافة لأنه لا يوجد في القرآن والسنة قواعد تتعلق باختيار خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي أي تعبير عن الاضطراب السياسي يتجلى بصورة واحدة في معارضة الخليفة شخصيًا؛ وهي حقيقة دعت الخلفاء إلى استخدام إجراءات قمعية مؤلمة.

نتج عن هذه الإجراءات بالطبع مرارة ونشوء مظاهر العداء والكراهية، التي لا تزال آثارها موجودة حتى الآن. وحقيقةً فإن دارس التاريخ العربي لا يكاد يتجنب الوصول إلى نتيجة؛ أن الخطأ الذي يتكرر مرارًا في التاريخ العربي هو استخدام الحكام العنيف والسريع للقوة. وبصرف النظر عن أي خلاف سياسي نتج عن هذه الإجراءات وفاة عشرات الآلاف من أشجع العرب وأنبلهم في حروب أهلية في اللحظة نفسها التي كانت الحاجة فيها ماسةً لمعظمهم لخدمة الإمبراطورية التي لا تزال تتوسع. وفي عام ٧٠٥ م عندما نجح الوليد بن عبد الملك في تولي الخلافة بدون معارضة عم السلام الداخلي الإمبراطورية وكانت الراية العربية تتقدم مرة ثانية على طول الحدود.

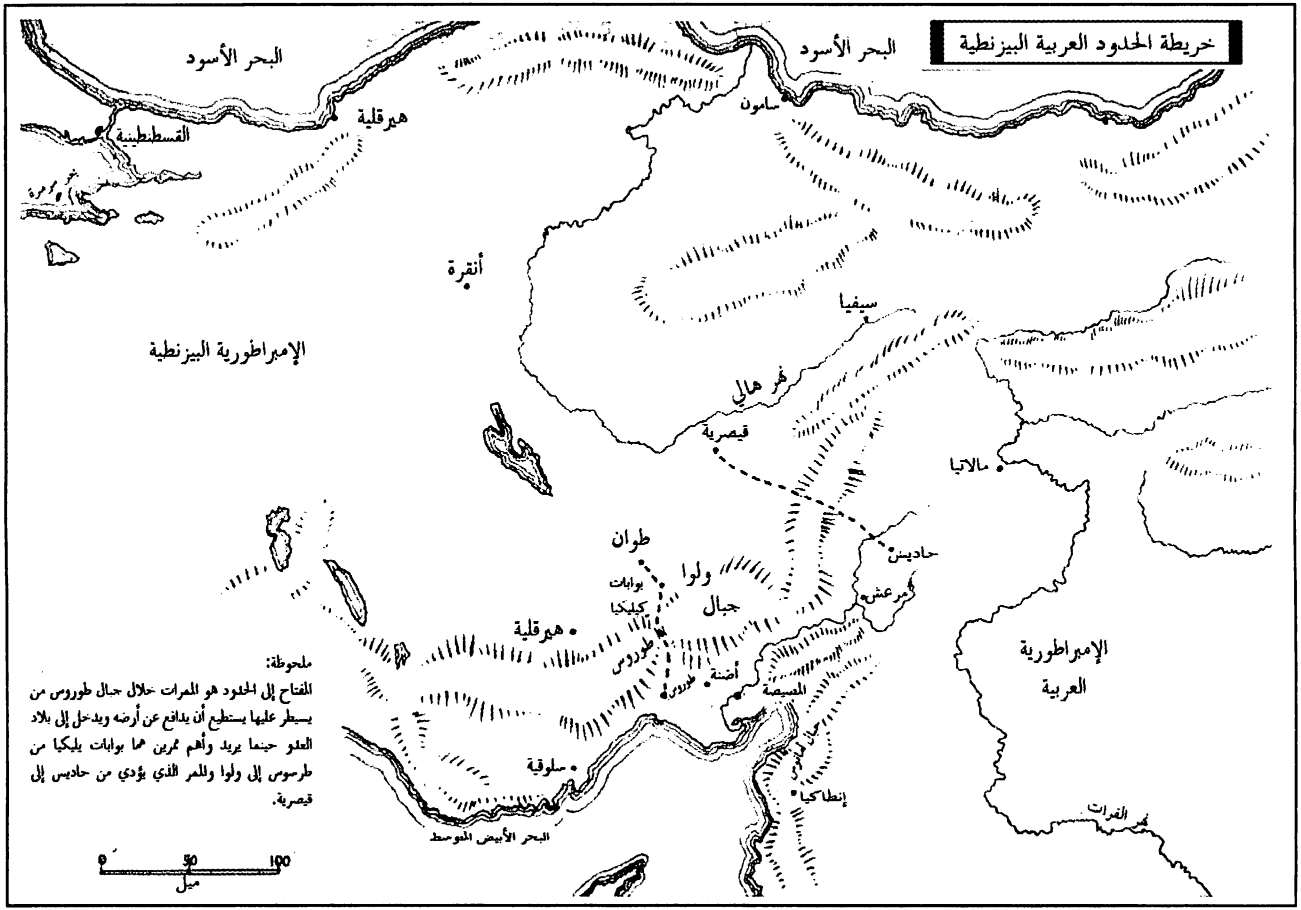
عندما مات المهلب بن أبي صفرة البارع في خراسان تولى ولاية الإقليم بنه يزيد فعزله الحجاج من منصبه وسجنه متهمًا إياه بالإسراف وإساءة استعمال المال العام. ويبدو أنه تسبب في نشوب قتال مع جماعة قيس اليمني الخارجية، بينما كان المهلب يحفظ توازن الدولة. وحقيقةً فإن المهلب كان سيدًا بارعًا يده مليئة بحسن الضيافة والإحسان إلى الناس. وفي هذه الأيام الأولى للإمبراطورية كان لغياب نظام متقن للحسابات والتدقيق أثره فيما نتج

عنه حتمًا من الخلط الذي حدث بين الأموال العامة وأموال الأفراد عند ولاة الأقاليم. مما مكن هؤلاء من تكوين مصالح مالية كبيرة لضمان استغلال النفوذ والولاء الشخصي لهم عن طريق توزيع الأموال بسخاء، وهذه الأموال تبعًا لتفكيرنا كانت أموال الحكومة حقيقةً وبذلك كانوا يعززون نفوذهم. وكان هؤلاء قادرين على حفظ النظام الداخلي والتوسع في حدود الإمبراطورية لأن الخليفة البعيد عنهم كان بعيدًا جدًا لدرجة أنه لا يضمن ولاءهم له شخصيًا، ولكي يمنع الخليفة هؤلاء الولاة ذوي النفوذ الكبير من تأسيس دولهم الخاصة بهم كما فعلوها حقيقةً بعد ذلك بقرنين، عندما أصبح الخلفاء ضعافًا، أشار المستشارون على الخلفاء أن ينقلوا هؤلاء الولاة من منصب إلى آخر أحيانًا.

هكذا كان عزل يزيد بن المهلب من الولاية التي تولاها والده المهلب خطوة حكيمة من جانب الحجاج. وكالمعتاد كان الإجراء المتخذ عنيفًا جدًا؛ لأنه أُلقي في السجن بدون محاكمة وهو إجراء أدى إلى ثورة أخرى.

عين الحجاج مكان يزيد بن المهلب قتيبة بن مسلم ليكون على خراسان، وبرر الوالي الجديد بإسهاب اختياره لذلك المنصب بأنه أثبت نفسه كقائد عسكري ناجح للغاية. وبمجرد توليته في هذا المنصب عبر نهر الأوكسس على رأس جيش كبير وفي سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة فرض عقابًا عاجلًا على الذين كانوا يضمرون العداوة للحكم العربي أثناء فترة الحرب الأهلية. ومن نهر الأوكسس عبر نهر الجاكسارتيس كما سنعرف في الفصل القادم. وفي جنوب فارس قاد محمد بن القاسم، وهو قريب للحجاج، جيشًا عبر ميكران. وفي عام ٧٠٨ م خاض حروبًا مع ملك السند.

حدثت الحروب نفسها على الحدود البيزنطية. وتم الاستيلاء على حصون عديدة في غارات صيفية سنوية شنها العرب على جنوب هيراقليا وطوان، وهي أماكن مهمة تقع على مسافة بعيدة عن جبال طوروس. وقاد مسلمة بن عبد الملك شقيق الوليد بن عبد الملك معظم الحملات التي تم شنها ضد الدولة البيزنطية. وكان قبل ذلك جنديًا بارزًا.


خريطة الحدود العربية البيزنطية
البحر الأسود
البحر الأسود
هيرقلية
القسطنطينية
بحر مرمرة
سامون
أنقرة
الإمبراطورية البيزنطية
سيفيا
نهر هالي
قيصرية
مالاتيا
طوان
ولوا
بوابات
كيليكيا
جبال
طوروس
هيرقلية
حاديس
مرعش
أضنة
طرسوس
المصيصة
إنطاكيا
سلوقية
البحر الأبيض المتوسط
الإمبراطورية العربية
الفرات
ملحوظة:
المفتاح إلى الحدود هو الممرات خلال جبال طوروس من يسيطر عليها يستطيع أن يدافع عن أرضه ويدخل إلى بلاد العدو حينما يريد وأهم ممرين هما بوابات يليكيا من طرسوس إلى ولوا والممر الذي يؤدي من حاديس إلى قيصرية.
0 50 100
ميل

وفي عام ٧٠٨ م وعام ٧١٠ م أغار أيضًا على بلاد الخزر شمال بوابات دربند وهو ممر ضيق على الشاطئ الغربي من بحر قزوين.

بينما كان الإسلام يتقدم مرة ثانية في الشرق، كان أكبر فتح في العهد الجديد للوليد بن عبد الملك هو فتح إسبانيا. وقبل وصف وقائع تلك المعركة يجب أن نتقصى التطورات التي حدثت في أوروبا من انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٥ م إلى الغزو العربي لإسبانيا عام ٧١١ م.

في منتصف القرن الرابع قبل النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة قرون، كانت الدولة القوطية تقع في منطقة شرق أوروبا الواسعة وتمتد من بولندا إلى مدخل الدانوب. وفي عام ٣٧٧ م هاجمها الهانز المتوحشون على حدودها الشرقية، وكانوا يتقدمون في اتجاه الغرب من حدود الصين. ومن هناك انقسم القوطيون إلى مجموعتين: المجموعة الغربية أو الفيسيوقوطيين وهم الذين عبروا نهر الدانوب، وفي ٩ أغسطس عام ٣٧٨ م قضوا على الجيش الروماني في أدريانوبل بقيادة الإمبراطور فالينز. وطاردوا العدو المنهزم، وتقدم الفيسيوقوطيون المنتصرون نحو القسطنطينية فصدهم بصورة تثير الدهشة كتيبة فرسان من المرتزقة العرب الذين تستأجرهم الدولة الرومانية. أما القوط الشرقيون أو الأستروقوط فقد خضعوا في الوقت نفسه لحكم الهانز. وبعد ذلك بقرون كانوا على وشك غزو إيطاليا.

في عام ٣٨٢ م عقد القوط الغربيون معاهدة سلام مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية وسُمح لهم بالاستقرار داخل حدود الإمبراطورية من تراقيا إلى البحر الأدرياتيكي.

وفى عام ٣٩٥ م قاموا بثورة وتركوا الأرض الممنوحة لهم وغزوا إيطاليا بزعامة ملكهم المشهور ألاريك، والذي نهب روما نفسها عام ٤١٠ م.

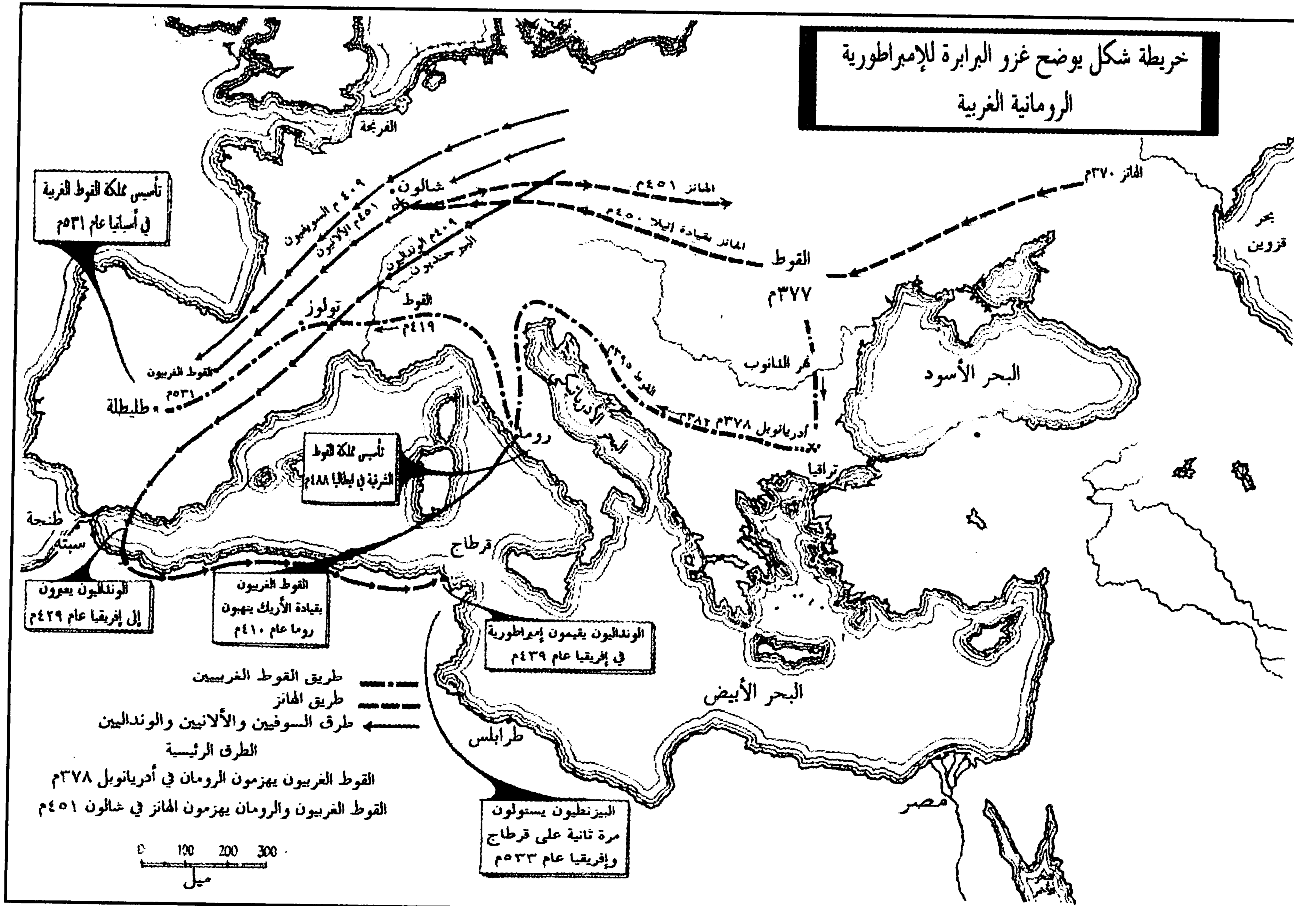
هذه كانت السنوات التي كانت فيها الإمبراطورية الرومانية الغربية تلفظ أنفاسها الأخيرة. وبينما كان القوط ينهبون إيطاليا كان السويفيون والونداليون والألانيون ذوو

الأصل الألماني يزحفون عبر فرنسا وغزوا إسبانيا وقهروها عام ٤٠٩ م. وتحرك القوطيون من إيطاليا إلى جنوب فرنسا حيث أسسوا عام ٤١٩ م مملكة تقع عاصمتها في تولوز. وفي عام ٤٢٩ م عبر الونداليون من إسبانيا إلى شمال أفريقيا حيث تمكنوا بمعاونة البربر لهم من طرد الرومان. وفي عام ٤٣٩ م أقاموا إمبراطورية أفريقية تقع عاصمتها في قرطاج ومن هناك أغاروا عبر البحر على المناطق الخصبة لجنوب إيطاليا وأيضًا الإمبراطورية الرومانية نفسها. وفي خلال عشرين عامًا تمكن الونداليون وهم يمتازون بالشعر الجميل والعيون الزرقاء من الزحف من جبال الألب عبر ألمانيا وفرنسا وإسبانيا إلى الإمبراطورية الأفريقية والتي كانت تمتد من طنجة إلى طرابلس.

أما السويفيون فقد كانوا الشعب البربري الوحيد الذي استقر في إسبانيا لأن فرنسا كانت مقسمة بين الفرنجة والبرغنديين والقوط. وقبل ذلك بثمانين عامًا طرد الهانز القوط من نهر الدانوب. والآن في عام ٤٥٠ م غزا الهانز فرنسا يقودهم المتوحش أتيلا بمعنى «سوط الله». وفي عام ٤٥١ م هزم القوط والرومان في معركة كبيرة في شالون وطردوا من فرنسا مرة ثانية. وفي عام ٤٨٨ م غزا القوط الشرقيون أو الأستروقوط إيطاليا وأقاموا مملكة خاصة بهم هناك. ويتركز اهتمامنا فقط من هنا على القوط الغربيين.

هؤلاء استأنفوا أسفارهم مرة ثانية وعبروا جبال البرانس بسهولة وهزموا السويفيين وغزوا إسبانيا حيث أقاموا في عام ٥٣١ م مملكة غير مستقرة واستمرت لمدة قرنين، وكانت مملكة القوط الإسبانية مملكة ديموقراطية منتخبة من الناحية النظرية ولم تكن مملكة متوارثة، وهذا النظام كان يثير القلاقل بصفة مستمرة وأثبت عدم جدواه في ذلك الزمان.

كانت إسبانيا لمدة سبعة قرون جزءًا من الولايات الرومانية. وعندما غزاها القوط كانت أحوالها الاجتماعية يرثى لها. وكان عدد من الأسر القليلة التي لها ما يمثلها في البرلمان يملك أراضي كبيرة، وكان يعمل بها الآلاف من العبيد والأرقاء الذين يشكلون جوهر السكان، بينما كان يسكن الريف عصابات من اللصوص والخارجين على القانون. ثم كما رُوى من قبل غزاها السويفيون والونداليون الذين أضرموا فيها النيران وأعملوا السيوف والسلب والنهب على طول شبه الجزيرة وعرضها.


خريطة شكل يوضح غزو البرابرة للإمبراطورية
الرومانية الغربية
تأسيس مملكة القوط الغربية
في أسبانيا عام ٥٣١م
الفرنجة
شالون
٤٠٩م السوفيون
٤٥١م الآلانيون
٤٠٩م الوندال
تولوز
القوط
٤١٩م
القوط الغربيون
٥٣١م
طليطلة
الهانز ٤٥١م
الهانز بقيادة أتيلا ٤٥٠م
القوط
٣٧٧م
الهانز ٣٧٠م
بحر
قزوين
نهر الدانوب
البحر الأسود
أدريانوبل ٣٧٨م
تراقيا
روما
تأسيس مملكة القوط
الشرقية في إيطاليا ٤٨٨م
طنجة
سبتة
قرطاج
الوندال يعبرون
إلى إفريقيا عام ٤٢٩م
القوط الغربيون
بقيادة الأريك ينهبون
روما عام ٤١٠م
الونداليون يقيمون إمبراطورية
في إفريقيا عام ٤٣٩م
البحر الأبيض
طرابلس
مصر
البيزنطيون يستولون
مرة ثانية على قرطاج
وإفريقيا عام ٥٣٣م
طريق القوط الغربيين
طريق الهانز
طرق السوفيين والألانيين والونداليين
الطرق الرئيسية
القوط الغربيون يهزمون الرومان في أدريانوبل ٣٧٨م
القوط الغربيون والرومان يهزمون الهانز في شالون ٤٥١م
0 100 200 300
ميل

كان عدد القوط الذين غزوا إسبانيا قليلاً ويتكون فحسب من طبقة حاكمة أرستقراطية ولها عبيد وأرقاء كما كان لأسلافها الرومانيين. وفي عام ٥٨٧ م تحول الملك ريكارد ملك القوطيين إلى العقيدة الكاثوليكية، وفي عام ٦١٦ م بدأ يضطهد اليهود الذين كانوا على درجة عالية من الثراء والكثرة في العدد في إسبانيا.

في فرنسا بدأ الضعف يدب في دولة الفرنجة، بينما اختفت بيزنطة أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي هزمت الوانداليين في تلك الأثناء، وسيطرت سيطرة محفوفة بالمخاطر على شمال أفريقيا. وكنتيجة لذلك تحررت إسبانيا من الغزو الأجنبي لأكثر من قرن من الزمان. وكان القوط المحاربون الذين في عهد ألاريك قد نشروا الرعب في إيطاليا ونهبوا روما قد تركوا القتال وقضوا بقية حياتهم يعيشون في رفاهية واستمتاع بأراضيهم وأطيانهم وهم يعتمدون اعتمادًا كاملًا على العبيد والأرقاء.

كان ويتيزا ملك القوط من ٦٩٧ م إلى ٧١٠ م، ولكن ليس واضحًا عما إذا كان قد مات أو قتل في نهاية حكمه. ويكفي أن نقول إن نبيلاً قوطيًا يسمى رودريك كان أبوه قد قتله الملك السابق جهارًا قد ارتقى عرش القوط مكانه. ونظريًا كانت مملكة القوط منتخبة ولكن عارض أبناء ويتيزا الملك الجديد سواء لأنهم أرادوا أن يؤمنوا توارث العرش بينهم أو لأن والدهم ربما تم إقصاؤه عن العرش بطرق فاسدة.

كان موسى بن نصير قبل ذلك في عمله متورطًا في قضية اختلاس في البصرة وتم خلعه من وظيفته(*). ولكن كان لنفوذ عبد العزيز بن مروان نائب الخليفة على مصر وأخي الخليفة عبد الملك بن مروان أثره في توليته بوضوح على شمال أفريقيا، ولكنه على أية حال أثبت نفسه واليًا نشيطًا ومتمكنًا، فتحت قيادته تم بسط السيطرة العربية بفاعلية للمرة الأولى على مناطق تبعد مسافات عن غرب المحيط الأطلنطي. وكانت مدينة سبتا فحسب هي التي قاومت محاولاته لفتحها بقيادة الكونت جوليان. وكانت سبتا نظريًا مستعمرة بيزنطية ولكن كانت الإمبراطورية البيزنطية ضعيفة وبعيدة جدًا؛ لدرجة أنها لا

(*) (هذه الرواية التاريخية مصطنعة ولا أدري من أين جاء بها الكاتب – المترجم).

تتحمل أية مقاومة. وكان جوليان الذي كان يملك أراضي في جنوب إسبانيا يرتبط بعلاقة وثيقة مع الملك السابق ذكره ويتيزا، وكان قد تزوج ابنته وحاول هو وأبناء ويتيزا أن يخفوا استياءهم من رودريك. وطبقًا للتقاليد كانت بنة الكونت جوليان (والتي قد تكون ابنة أخت أبناء ويتيزا إذا كانت زوجة جوليان حقيقة ابنة الملك ويتيزا) حاضرة في قصر الملك رودريك ففتنه جمالها ومارس معها الرذيلة.

مهما كانت الأسباب التي جعلت جوليان في بادئ الأمر يصد بحماس الهجوم العربي على سبتا فإنه بعد ذلك قام بمراسلة موسى بن نصير، واقترح عليه أن يقوما بهجوم مشترك على إسبانيا، وعرض عليه أن يوفر الإمداد للسفن التي تنقل المسلمين عبر المضايق البحرية، فنقل موسى هذه التطورات إلى الوليد بن عبد الملك، ولكن كان رد الخليفة مترددًا؛ وهو أن ذلك الاقتراح خطير جدًا ولكنه سمح بالاتصال بجوليان.

طبقًا لذلك بعث موسى بن نصير في يوليو عام ٧١٠ م بقوة مكونة من أربعمائة رجل ومائة فارس على سفن أمده بها جوليان. وهبطت القوة في الجيسيراز (الجزيرة الخضراء) وأُخذت غنائم من البلاد المجاورة وعادت إلى أفريقيا. وشجع نجاح هذه الغارة موسى بن نصير على أن يبعث في أبريل ٧١١ م بسبعة آلاف رجل تحت قيادة طارق بن زياد وهو عبد بربري له كان قد أعتقه. وكان معظم أفراد القوة من البربر. وكانت الفترة التي استغرقها العرب لفتح شمال أفريقيا ستين عامًا، ولكن الآن للمرة الأولى كان كل البربر قد خضعوا للحكم العربي واعتنقوا الإسلام. ولكن ما المدة التي استغرقها مثل ذلك الشعب المحارب للخضوع للحكم العربي؟ وهل كان ممكنًا أن ينظر موسى بن نصير إلى الإغارة على إسبانيا فحسب كمنفذ مفيد لطاقات البربر المحاربين أكثر منها فرصة لإضافة مناطق جديدة واسعة إلى الإمبراطورية؟ والحقيقة تفسر على الأقل السبب في أنه لماذا كانت هذه الحملة العسكرية تتكون من البربر بصورة كثيفة، والأكثر إبهارًا في ذلك هو تولية هذه الحملة لقائد بربري. وأقام طارق قاعدته على صخرة جبل طارق. وتلى بعث تلك الحملة الأولى على إسبانيا تعزيزها بأكثر من خمسة آلاف رجل حتى وصل إجمالي

عدد جنود الحملة إلى اثني عشر ألف رجل. وفي تلك الأثناء استدعى الملك رودريك الجيش وتقدم في اتجاه الجنوب لكي يرد الفاتحين. وتقابل الجيشان في منطقة وادي البيكا على بعد أميال قليلة من شرق قادس.

كان رودريك يقود جيشًا مكونًا من خمسة وعشرين ألف رجل مقابل اثنى عشر ألفًا يقودهم طارق بن زياد، ولكن هذه الأرقام لا يمكن الاعتماد عليها بصورة كبيرة. ونظرًا لأن الملك رودريك لم يكن مدركًا لأي خيانة يمكن أن تبدر من ابني ويتيزا فقد عهد بقيادة جناحي الجيش إليهما. وبمجرد أن حمي وطيس المعركة انسحب جنود جناحي الجيش القوطي من المعركة. أما وسط الجيش بقيادة رودريك فقد أظهر مقاومة أطول، ولكن الجيش العربي سحقه في النهاية. ولم يُرَ الملك رودريك بعد ذلك ولكن يفترض أنه قتل، ومع ذلك فإن جثته لم يتم التعرف عليها بين العدد الكبير من القتلى في المعركة. وتمت إبادة الجيش القوطي فعليًا.

التفسير الأكثر وجاهةً لخيانة جوليان وأبناء ويتيزا هو أنهم تصوروا حملة طارق ابن زياد العسكرية مجرد غارة عسكرية على بلادهم. وحقيقة كما سيظهر قد يبدو ممكنًا أن أوامر موسى بن نصير إلى طارق كانت إلى هذا الحد، وقد يكون قد أخبر جوليان أن غارة فقط على إسبانيا هي المتوقعة ثم العودة إلى القاعدة الرئيسية. وفي ذلك اليوم في يوليو عام ٧١١ م كان طارق، الرجل الذي غير مصير العرب عند رؤيته التدمير الكلي للجيش القوطي، قد اتخذ قرارًا مصيريًا أن يستمر في حملته العسكرية وليس ذلك فحسب ولكنه بعد أن بعث جيوشًا للاستيلاء على قرطبة وأرشيدونا وإلفيرا قرر أن يزحف مباشرة على توليدو (طليطلة) عاصمة مملكة القوط.

إذا كان طارق لديه في الأصل اثنا عشر ألف رجل لكان للجيوش التي بعثها لكي تستولي على المدن الثلاث أن تصل بالكاد إلى أقل من ألفي جندي بينما يفترض أن عدد الجرحى في هذه المعارك وصل إلى ١٠٠٠ جندي مسلم جريح على الأقل. وهذا يبقي له على أكثر شيء تسعة آلاف جندي كقوة أساسية. وبهذه القوة الصغيرة زحف طارق مباشرة


خريطة فتح العرب لأسبانيا
طريق طارق بن زياد
طريق موسى بن نصير
معركة وادي المبكا يوليو ٧١١م
معركة إسيجا أغسطس ٧١١م
موسى بن نصير يغزو أسبانيا يونيو ٧١٢م
استسلام ميريدا يونيو ٧١٣م
0 50 100
ميل
المحيط الأطلنطي
جاليسيا
ليون
جبال سانتندر
جبال البرانس
قشتالة
سرقسطة
نهر دورو
نهر ابرو
سيرا دي جوادارما
نهر تاجوس
طليطلة
سيرا دي توليدو
فالنسيا
ميريدا
نهر جواديانا
سيرا مورينا
الأندلس
موسى ٧١٢م
نهر الوادي الكبير
قرطبة
إسيجا
إلفيرا
أشبيلية
أرشيدونا
سيرا نفادا
ملقة
مدينة سيدونيا
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
طنجة
سبتا
البحر الأبيض
إفريقية

إلى قلب مملكة القوط على بعد مائتين وخمسين ميلًا عبر سلاسل غير معروفة من الجبال بالنسبة له.

يمكن أن ننظر إلى الشك المحيط بالنصر الذي يفت في عضد قائد جيش على وشك أن يسير إلى بلد عدو غير معروفة له كشيء مقدر بالنسبة إلى هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم حقيقة في ذلك الموقف. وبالنسبة إلينا فمن يعرف ما سيحدث في النهاية؟ وقرار طارق بالمضي قدمًا في فتوحاته قد لا يبدو مأساويًا ولكن لو تخيلنا أنفسنا في موقفه فقد نجد أنفسنا مضطرين إلى الاعتراف بأن هذا القرار يحمل شجاعة فائقة. ولكن طارق كان رجلًا يبدو مثل قائد القوات الألمانية عام ١٩٤٠ م يفهم التأثير الذي يحدثه الشلل في الحركة في الحرب، فأدرك أنه إذا استطاع أن يستفيد من انتصاراته على الفور فسيحقق نتائج باهرة بينما ما زال عدوه يعيش بدون قائد وعلى خوف منه وأي تأخير في التحرك ولو لأيام قليلة سيقدم لعدوه الوقت الكافي لكي يستعيد عافيته من الناحية النفسية، ولكي يختار قائدًا جديدًا ويتخذ إجراءات احتياطية أكثر. وكان خوف عدوه منه يصل إلى أقصى درجة. وبعد جولة أخرى من المعارك في إسيجا انطلق طارق بن زياد بأقصى سرعة إلى توليدو (طليطلة). ويمكن تبرير جرأته بالتقدم بصورة كاملة بأنه حينما وصل إلى هناك وجد العاصمة نصف مهجورة ووجد النبلاء وممثلي الحكومة على حد سواء قد فروا من الرعب. وساعد اليهود الفاتحين بإمدادهم بالمعلومات؛ لأن القوط كانوا يضطهدونهم.

بالنسبة لجنود الجبهة الأمامية المندفعين مثل طارق غالبًا ما ينسون في حماسة المعارك أن يبلغوا موقفهم إلى قيادتهم المسئولة عنهم. ويمكن لنا أن نتعاطف مع موسى بن نصير، حينما نراه يضع قدمًا ويرفع الأخرى في قلق في مركز القيادة في طنجة حينما تم إبلاغه أن طارقًا مولاه بعد انتصاره الكبير في إسيجا وصل إلى قلب إسبانيا ومعه تسعة آلاف رجل فقط.

بعد أن استولى طارق على توليدو (طليطلة) أظهر سماحة يضرب بها الأمثال؛ فهؤلاء الذين أرادوا أن يذهبوا إلى المنفى سمح لهم بذلك ومعهم أملاكهم وأمتعتهم. وأما إخوة

ويتيزا الذين خانوا الملك رودريك فقد منحهم أراضي ملكية قوطية تضم أكثر من ثلاثة آلاف مزرعة كمكافأة على ذلك. وخصص طارق عددًا من الكنائس للعبادة وسمح للقساوسة والأساقفة بممارسة عبادتهم. وبعد أن نصب قاعدته في طليطلة وضع طارق أمامه هدفًا وهو إعادة الهدوء والسكينة إلى المناطق الشمالية لكاستليون وليون.

في صيف يونيو من عام ٧١٢ م عبر موسى بن نصير بنفسه المضايق البحرية تاركًا ابنه الكبير عبد الله كنائب للخليفة على شمال أفريقيا ومعه جيش يتكون من ثمانية عشر ألف رجل، معظمهم من العرب من وجهاء قريش وأحفاد صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم لاستكمال فتح إسبانيا. وخضعت له مدينة سيدونيا بسهولة ولكن قاومته مدينة سيفيليا (إشبيلية) بشدة واستعصت عليه ميريدا فحاصرها لعدة أشهر وكلف افتتاحها الجيش الإسلامي الكثير من الشهداء. وقبل ذلك بسبعة قرون استقرت فيالق جيش أغسطس في هذه المستعمرة الرومانية.

قبل ذلك بستين عامًا وأثناء الفتوحات العربية الكبرى كان العرب لا يقهروا في ميادين القتال، ولكن كانت أقل مدينة تكفي لأن تصدهم. ولكن الآن حصل العرب على أية حال على أكثر مهارات القتال العلمية؛ فشيدت أبراج خشبية تطل على حصون المدينة يتم دفعها إلى الأمام عمليًا على عجلات حتى تستطيع أن تنطلق الصخور على المدينة من مدى قريب، وأيضًا يقذف المنجنيق المدينة بالصخور الكبيرة، ويتم إرسال قوة مراقبة لصيقة لكي تمنع وصول الإمدادات أو التعزيزات من مراكز القيادة في البلد. وتبرز المقاومة الشديدة من مدينة ميريدا القيمة الكبيرة لقرار طارق بن زياد بالاستفادة من الانتصارات التي حققها بينما يشل الخوف الميداني مقاومة القوط. ولو كان حقيقة قد انتظر لكي يبلغ موسى بن نصير بما حققه فسيكون عند المدافعين عن المدينة الوقت الكافي لاستعادة توازنهم وستكون كل مدينة مثل ميريدا في شدة المقاومة.

نظرًا لظهور المجاعة في المدينة فقد عقدت المدينة اتفاقية استسلام مشرفة. وخُيِّر سكان المدينة بين دفع الجزية أو اختيار مدن بديلة كمنفى اختياري. وقسمت الكنائس بين

المسلمين والمسيحيين أما أراضي القتلى وثرواتهم أو الذين هجروا المدينة فتم الاستيلاء عليها كمكافأة للمسلمين. واستسلمت ميريدا في ١ يونيو عام ٧١٣ م بعد عام من نزول موسى بن نصير إلى إسبانيا. وليس واضحًا لماذا لم يبلغ طارق بن زياد الذي كان مقر قيادته في توليدو (طليطلة) على بعد مائة وخمسين ميلًا فقط من ميريدا قائده موسى بن نصير بما حققه أثناء هذا العام.

بعد قبول استسلام ميريدا سار موسى بن نصير إلى توليدو، وفقدم طارق لكي يقابله فحياه موسى بجفاء، ووبخه بعنف، وأمر بالقبض عليه وجلده بالسياط. ومعظم المؤرخين الغربيين يمرون على هذه الواقعة بملاحظة أن موسى كان غيورًا من نجاح مولاه. ولأن طرق تفكير العرب الأوائل قد تختلف على أي حال كثيرًا عن طرق تفكيرنا، فمن الجدير بالذكر أن نتوقف قليلًا لكي نتأملها؛ فموسى بن نصير كان ينظر إلى طارق بن زياد كتابع بربري له؛ وبمعنى أوضح عبد سبق له أن أعتقه (*).

تبعًا لفكر ذلك الزمان يجب على العبد الذي أعتق أن يبقى تابعًا مخلصًا للرجل الذي أعطاه حريته. وفي روايات عديدة عن معارك حديثة نجد الوجهاء العرب فيها يحرسهم موالٍ من البربر، أو الفرس، أو الأتراك الشباب الذين يقدمون حياتهم في ميادين القتال دفاعًا عن أسيادهم. وبناءً على ذلك فإن موسى بن نصير اعتبر طارقًا رجلًا بكل الاحتمالات يدين له بكل شيء ومن واجبه أن يموت منكرًا ذاته فداءً لسيده. وهذا الخلط في الحقيقة بين الخدمة الشخصية والواجب الرسمي نلاحظه في كل تاريخ البلاد العربية؛ فذو النفوذ يرقي هؤلاء الذين يثق فيهم، ومن يستحق الثقة أكثر من عبيده ومواليه؟ وهذا التفسير يفسر علاوة على ذلك تلك الحقيقة المدهشة وهي أنه بعد أن عاقب موسى بن نصير طارقًا بتلك العقوبة عين طارقًا مرة ثانية قائدًا في معارك مهمة، فبالنسبة لموسى كان ينظر إلى طارق بدون شك ليس كضابط بربري تحت قيادته ولكن كخادم يحتاج إلى وضعه في مكانته، وعلى الرغم من أنه قد نال عقابه فما زال فردًا يملكه في منزله.

(*) (العرب يسمون العبد الذي اعتق مولى – المترجم).

هذه المسألة تؤدي بنا إلى إثارة قضية محاباة الأقارب ككل، والتي تكون بصفة عامة سببًا لسوء الفهم، فمن الملاحظ أنه عندما يعين الخلفاء عربيًا بارزًا ويعطونه سلطة مستقلة فإنه يعين مباشرة أولاده وإخوته وعبيده في المناصب الرئيسية التي تليه. وعندما وَلّى الخليفة عبيد الله بن زياد كنائب له على العراق وفارس عين هو إخوته كلًا منهم واليًا على إقليم من أقاليم فارس. وعندما أصبح المهلب بن أبي صفرة واليًا على خراسان ولى أولاده مقاليد الأمور في هذا البلد. وعندما عبر موسى بن نصير البحر بنفسه إلى إسبانيا عين بنه كنائب للخليفة على شمال أفريقيا. والأمثلة على ذلك كثيرة ولا يمكن حصرها.

هذا النظام عام جدًا وواسع لدرجة أنه لا يمكن بأية طريقة تجاهله. وفي مجتمع تسود فيه خيانة الأمانة وتتكرر فيه الثورة بصورة نسبية يكون لهذا النظام مميزات معينة. وبالنسبة للوالي البعيد في خراسان أو شمال أفريقيا فمن المحتم أن يصون نفسه بهذا النظام نظرًا لطول الوقت المطلوب لتلقي الأوامر وتعذر وصول تعزيزات أكثر من دمشق. وعندما يكلف الخليفة موثوقًا به بتولي مسئولية إقليم بعيد يُتوقع من الوالي أن يستعين في إقليمه بمن يثق فيهم ثقة مطلقة. ومن الطبيعي مع وجود العائلات الكبيرة بين العرب أن يكون هؤلاء محل الثقة من أوثق أقرباء الوالي وعبيده ومواليه؛ وذلك للحفاظ على النظام الذي يكون فيه الوالي كبير العائلة والمسئول عنه وليس الحكومة.

بينما كان موسى وطارق يعملان على إخضاع شمال إسبانيا عين موسى ابنه الأكبر عبد العزيز بن موسى مسئولًا عن حفظ النظام في الجنوب. وهنا في أبريل عام ٧١٣ م وبينما كان موسى لا يزال يحاصر ميريدا عقد اتفاقية مع تيودمير النبيل القوطي الذي كانت له السلطة في ذلك الجزء من إسبانيا والذي بسَّط المؤرخون العرب اسمه إلى تدمير. وكانت بنود الاتفاقية تنص على أن تدمير ستبقى له السلطة في مقاطعته، وأنه لا ضرر يقع على الأرواح والممتلكات والنساء والأطفال وديانة أو كنائس المسيحيين. والتزم تدمير فيها بأن يعمل على استسلام سبع مدن للحاميات العربية وألا يساعد أعداء الخليفة ولكن على العكس أن يبلغ عمّا ينتويه وأن يلتزم بأن يدفع جزية مكونة من قطعة واحدة من الذهب عن كل فرد

من النبلاء ونصف قطعة من ذهب عن كل فرد من الشعب، وأن المسئولية القانونية عن أي تصرف تقع على البالغين. وأن يتعهد بتوفير كميات من القمح والشعير والعسل والزيت من أجل الحاميات الإسلامية. وهذه الشروط تشبه بدقة تلك الشروط التي اتفق عليها العرب قبل ذلك بخمسين أو ستين عامًا أثناء الفتوحات العربية الأولى في سوريا والعراق وفارس.

خضعت بقية أجزاء إسبانيا بدون أي مظهر من مظاهر المقاومة. وهذه النتيجة ما كانت لتحدث لولا ملمح آخر يميز السياسة العربية في كل مكان تم فيه الفتح، فهؤلاء الذين يتفاوضون على الاستسلام بإرادتهم كما في حالة تدمير كانوا يتفاوضون على شروط تحفظ لهم كرامتهم، ولكن هؤلاء الذين قاوموا الفاتحين لم يحصلوا على أية حقوق على الإطلاق ولكنهم أنفسهم وزوجاتهم وأطفالهم كانوا يباعون عبيدًا وكانت ممتلكاتهم توزع على المسلمين إلا في حالة إذا كان هناك أمل قوي في تحقيق النصر على العرب في النهاية ولم يكن هناك ذلك الأمل في إسبانيا، فكان من الحكمة بمكان التفاوض على الاستسلام بدلًا من القتال للنهاية وذلك فيما عدا المناطق الجبلية لمدينة جاليسيا، وبقية أجزاء ما يطلق عليه إسبانيا والبرتغال فتم إعادة الهدوء والسكينة إليها في خلال عام من استسلام ميريدا.

هناك عادة متكررة من المؤرخين الأوروبيين وهي أن يقولوا إن العرب ليس لديهم أي علم بالسياسة فيما عدا النزاعات القبلية، ولكن يجب أن نعترف أن الكثير مما يروى من تاريخ العرب وخصوصًا في عصر بني أمية يبرر هذا النقد القاسي(*). ولكن الآن علينا أن نعترف بالحكمة البالغة والسنة التي سارت عليها سياستهم كفاتحين، وهي حكمة تفوق ما تبديه القوى العظمى في عصرنا في إصرارها على الاستسلام غير المشروط بعد الحرب العالمية الأولى والثانية. وحقيقةً كان الفاتحون العرب الأوائل في أحسن حالاتهم؛ فالبسالة والشجاعة التي كانوا يقاتلون عليها وشروط الاستسلام بكرامة التي كانوا يقدمونها للأمم

(*) (هذا القول ليس له أساس من الصحة؛ فمعاوية بن أبي سفيان كان أكبر سياسي في تاريخ العرب وكان يؤلف الناس إليه إما بالمكر وإما بالمال وإما بغيرهما – المترجم).

التي خضعت لهم والقيم الإيمانية التي كانت تتحلى بها هذه الشروط، كل هذه قدمت نماذج يقتدى بها لكثير من أمم العصر الحديث. ولكن بعد اكتمال هذه الفتوحات فقط كان للتمتع بالثروات والرفاهية والدعة أثره في جعل هذه القيم تهبط هبوطًا سريعًا.

كان موسى بن نصير يحاصر ويضغط بشدة على المسيحيين الذين كانوا يحملون السلاح في جبال جاليسيا البرية عندما تلقى في صيف عام ٧١٤ م أمرًا قاطعًا من الخليفة الوليد بن عبد الملك أن يعود مباشرةً إلى دمشق. وكذلك تلقى طارق بن زياد استدعاءً مماثلًا.

كان موسى بالنسبة للخليفة الوليد بن عبد الملك قد ارتكب جريمة أشد من الظلم أو القسوة؛ فقد أصبح ناجحًا وقويًا جدًا فهو كحاكم لأفريقيا من طرابلس إلى المغرب وفاتح للأندلس، وهي منطقة إسبانيا كما يسميها العرب، يتحكم في منطقة واسعة كوسع المناطق التي يحكمها الخليفة من مصر إلى الهند. وإذا أراد يمكن أن يستقل بتلك المنطقة عن الخليفة في دمشق ولا أحد من المؤرخين العرب يقول إن موسى بن نصير كانت تراوده مثل تلك الأفكار، ومع ذلك فكثير منهم يزعم أنه اعتبر فتح فرنسا وإيطاليا والعودة إلى سوريا عن طريق اليونان وفتح بيزنطة في الطريق غاية ما يريده. ثم ألم يفقد العرب من قبل الكثير من الأرواح والسنين في حروب أهلية يقتل فيها الأخ أخاه؟ فمثل تلك الأفكار لم تكن بعيدة عن مرماهم؛ لأنه لم تكن هناك في ذلك العصر قوى عظمى في أوروبا تجابههم. وعلاوة على ذلك فقد أضيفت إلى قوتهم قوة بشرية إضافية ضخمة وهي قوة البربر الذين اعتنقوا الإسلام وهو جنس شجاع ومحارب وإلى حد ما بدوي مثلهم. ولكن العرب فقدوا كل هذه الفرص فبعد فتح إسبانيا استأنفوا الحروب الداخلية فيما بينهم ومنعهم كبرياؤهم العربي من مساواة أنفسهم بالبربر في مشاركة حميمة مع هؤلاء الذين فتحوا أوروبا معهم.

إذا كانت غيرة الخليفة الوليد بن عبد الملك كانت في الحقيقة السبب في استدعاء موسى ابن نصير، فإن الأخير بدأ في انتهاج سياسة خاطئة لتهدئة مخاوف سيده فسار من سبتا خلال أفريقيا ومن مصر إلى فلسطين في موكب انتصاري كبير. يتبعه إذا كانت هذه الرواية

حقيقية أربعمائة نبيل قوطي يرتدون التيجان الذهبية ومعه حوالي ثمانية عشر ألف عبد وثروة كبيرة من غنائم مدن الأندلس القديمة.

عندما وصل موسى بن نصير إلى طبرية بهذه الحاشية الفخمة سمع للمرة الأولى أن الخليفة الوليد مريض بمرض عضال. وفي الوقت نفسه تلقى رسالة من شقيق الخليفة سليمان بن عبد الملك يأمره فيها أن ينتظر في طبرية أوامر أخرى منه. وكان عبد الملك بن مروان قد دعا الناس قبل وفاته لمبايعة سليمان بن عبد الملك خليفة بعد الوليد بن عبد الملك إذا مات الوليد.

لم يكن الشقيقان الوليد وسليمان متوافقين. ولكن الآن بعد توقع وفاة الوليد المبكرة كان سليمان بن عبد الملك يأمل في أن يحدث الانتصار وفتح إسبانيا في خلافته. وكان موسى ابن نصير أمام قرار حرج فلو أخر قدومه إلى دمشق بناءً على أوامر سليمان له وشفي الوليد من مرضه فسيكون الأخير ناقمًا عليه. لذلك قرر أن يتجاهل رسالة سليمان بن عبد الملك له وأن يذهب إلى سوريا. وهناك كان الخليفة الوليد بن عبد الملك بصحة كافية لكي يستقبله ولكنه بعد ذلك بفترة قصيرة عانى من انتكاسة ومات. وبمجرد ما تولى سليمان الخلافة وبدلًا من أن ينظر إلى موسى بوصفه بطلًا منتصرًا نظر إليه كمجرم فأمر بجلده بالسياط وظلمه وأهانه وحكم عليه أن يدفع غرامة مائتي ألف قطعة ذهب، وهي تقريبًا مقدار الثروة التي غنمها من فتح إسبانيا وخلعه في النهاية من جميع وظائفه. وقضى بقية أيامه يعيش في فقر ومهانة في واحة وادي القرى على بعد مائة ميل شمال المدينة المنورة.

أما طارق بن زياد والذي يعزى إليه فتح توليدو (طليطلة) وسهولة فتح إسبانيا فكان أكثر حظًا من سيده؛ فلم يعاقب على ما أداه فهو مجرد تابع بربري، وبالتالي لم ينظر إليه على أنه يمثل خطورة على سلطة الخليفة، وبناءً عليه تم إطلاق سراحه وسمح له بأن يعود إلى مهنته الأصلية كخادم في المنازل.

لم يهدئ إقصاء موسى بن نصير وطارق بن زياد كليةً من مخاوف الخليفة؛ لأن موسى قبل مغادرته لإسبانيا كان قد عين بنه عبد العزيز لكي يحل محله كوالٍ على شمال أفريقيا

وإسبانيا. وعندما علم عبد العزيز بما حدث لأبيه العجوز خلع الطاعة للخليفة في دمشق فبعث الخليفة بمجموعة من القتلة بأقصى سرعة من سوريا إلى الأندلس حيث نجحت في قتل عبد العزيز في قرطبة. وحملوا رأسه المقطوع إلى دمشق حيث بعث به الخليفة بأسلوب خاص من القسوة والكراهية إلى موسى بن نصير العجوز في ملجئه الصحراوي.

لم يكن فتح العرب للأندلس كارثة كبيرة لكثير من سكان إسبانيا الذين كان معظمهم عبيدًا وأرقاء في عصر القوط. ولم تكن الطبقة الحاكمة العربية ككل على درجة كبيرة من التدين، ولكنها كانت متسامحة وواسعة الأفق فلم تجر أية محاولة لتحويل المسيحيين إلى الإسلام وهو أحد الأمور التي كان ينتج عنها كما أوضحنا من قبل نقص في دخل الحكومة الإسلامية. في بعض المناطق سمح لملاك الأراضي بالاحتفاظ بأراضيهم كما رأينا في حالة تدمير، أما الأراضي التي يصادرها العرب فكانت الأراضي التي كان أصحابها يفرون أو يقتلون، أو الأراضي التي تملكها الكنيسة فكانت تقسم على المسلمين. وكان العرب في تلك المرحلة يهجرون الزراعة ويزدرون الفلاحة. وكنتيجة لذلك ترك المزارعون الأصليون في أراضيهم شريطة دفع جزء من المحصول إلى المالكين العرب الجدد.

أما الإسلام على أية حال فلم يقدم حلاً بديلاً جديدًا للعبيد والأرقاء الذين يستعبدهم غير المسلمين لأنه بنطقهم للشهادة «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، يتمكنون من استعادة حريتهم من أسيادهم اليهود أو المسيحيين. ووضع النبي صلى الله عليه وسلم مبدأ التسامح مع اليهود والمسيحيين، ولكن على شرط معاملتهم معاملة أقل من معاملة المسلمين وبمعنى أصح أن يصبحوا طبقة اجتماعية أقل من المسلمين[*]. وطبقًا لهذا المبدأ لم يكن المسيحيون يملكون عبيدًا مسلمين؛ لأنهم كانوا يعتقون بصورة آلية بمجرد

(*) (هذا القول محض افتراء على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فقد عامل غير المسلمين واليهود بالتحديد في المدينة معاملة مثالية كالمسلمين سواءً بسواء ويكفي المعاهدة التي وقعها مع يهود المدينة والتي يذكر فيها هذه الجملة التي ستكتب في التاريخ بأحرف من نور: لهم ما لنا وعليهم ما علينا – المترجم).

اعتناقهم الإسلام. أما المسلمون فلهم عبيد مسلمون(*). وهكذا كان النبيل القوطي الذي يعتنق الإسلام قادرًا على الاحتفاظ بعبيده، أما الذي يظل مسيحيًا فلا يستطيع ذلك إلا إذا كان العبيد أنفسهم مسيحيين أيضًا.

كان حكم الرسول صلى الله عليه وسلم أن النطق بالشهادة يجعل الإنسان مسلمًا واحدًا من الأمور التي تدل على بعد نظر الرسول صلى الله عليه وسلم. حتى إن أخلص أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا غالبًا ما يشتكون من عدم إخلاص معتنقي الإسلام لأنهم بمنتهى السهولة عندما يرون أنفسهم في لحظة خطر أو ضعف فما عليهم إلا أن ينطقوا بكلمات قليلة وينجوا بأنفسهم بناءً على ذلك. ولكن لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبل الدخول في الإسلام بتلك الكلمات بدون نقاش فقد كان شديدًا جدًا مع المرتدين الذين يرتدون عن الإسلام بعد ذلك والذين كانت عقوبتهم عادةً ما تكون القتل. والدخول في الإسلام ولو بالكلمات كان سهلًا ولكن الارتداد عنه ليس ممكنًا. وعلاوة على ذلك كان أطفال الداخلين في الإسلام يتم تربيتهم كمسلمين حقيقيين.

هكذا أسرع كثير من العبيد والأرقاء إلى استرداد حريتهم بالنطق بالشهادة فيما عدا قليلاً بعد ذلك أحسوا بوخز الضمير، لذلك ظهرت إلى الوجود جمعيات سرية مسيحية. ولأن الارتداد عن الإسلام جهارًا يعني القتل لذلك بقي هؤلاء يعتنقون الإسلام علنًا ويمارسون طقوس المسيحية سرًا. ولكن بالنسبة إلى الأغلبية العظمى من أفراد الطبقات الدنيا لم تكن المسيحية على أية حال تعني لهم شيئًا.

من الناحية الاجتماعية كان لفتح العرب لإسبانيا بعض النتائج البالغة الأهمية؛ منها أن مصادرة أراضي الكثير من النبلاء وأراضي الملك والكنيسة قد زاد من عدد صغار ملاك الأراضي المزارعين. وحينما يتملك بعض الوجهاء العرب أراضي زراعية ولا يعمل بها لعدم رغبته في ذلك فإن ذلك يقدم لحائزي الأراضي مطلق الحرية في تنميتها حسبما يريدون

(*) (حارب الإسلام العبودية ولكن بالتدريج مما أدى إلى زوال هذا النظام بعد ذلك – المترجم).

بشرط أن يدفعوا مقابل استئجارها. وهكذا كان ازدراء البدو للمزارعين والأعمال الزراعية يحمل في طياته نعمة مقنعة إلى حد ما بالنسبة للمزارعين الإسبان. ولكن على الرغم من أن العبيد والأرقاء كان يتم عتقهم بمجرد نطقهم للشهادة، فإنهم في الواقع لم يحققوا المساواة الاجتماعية مع أسيادهم. فنظريًا كل المسلمين متساوون ولكن عمليًا كان العرب يكونون طبقة حاكمة أرستقراطية لا تعترف بالمساواة مع غير العرب المسلمين. وهذه النظرة غير العادلة أثارت السخط على الحكم العربي في فارس والعراق وسوريا، وبعد ذلك في كل أنحاء الإمبراطورية مما أدى إلى تصاعد غضب غير العرب المسلمين ضد التسلط العربي. وفي إسبانيا كان العرب يزدرون المسيحي المرتد من المسيحية إلى الإسلام أكثر من هؤلاء الذين تمسكوا بعقيدتهم الأصلية(*).

أما الجالية الوحيدة التي استفادت من الفتح العربي فوق كل الجاليات فهي الجالية اليهودية؛ ونظرًا لأن اليهود كان المسيحيون في إسبانيا يضطهدونهم قبل ذلك فقد تمتعوا الآن بالتسامح الديني نفسه الذي كان يوفره لهم أسيادهم المسيحيون السابقون. وعلاوة على ذلك ولأنهم كانوا ممتعضين من الذين كانوا يضطهدونهم فيما سبق فقد عملوا باستمرار جواسيس ووشاة ومستشارين للمسلمين ضد المسيحيين.

(*) (هذا الكلام من الكاتب يخلو من الصحة؛ فقد نشأت أجيال في إسبانيا ممن دخلت في الإسلام وتولت وظائف عليا في الدولة الإسلامية – المترجم).

تواريخ بارزة

- ٩٠٥ م... فتح العرب لإسبانيا.

- ٨ أكتوبر ٧٠٥ م... تولية الخليفة الوليد بن عبد الملك.

- ٧١٠ م... رودريك يصبح ملكًا للقوط.

- صيف ٧١٠ م... أول غارة إسلامية على إسبانيا.

- أبريل ٧١١ م... غزو طارق لإسبانيا.

- يوليو ٧١١ م... معركة وادى البيكا.

- يونيو ٧١٢ م... غزو موسى بن نصير لإسبانيا.

- يونيو ٧١٣ م... استسلام ميريدا.

- ٧١٤ م... استدعاء موسى بن نصير.

- فبراير ٧١٥ م... وصول موسى إلى دمشق.

- ٢٣ فبراير ٧١٥ م... وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك.

الشخصيات

– الوليد بن عبد الملك... الخليفة.

– موسى بن نصير... والي شمال أفريقيا وفاتح إسبانيا.

– رودريك... ملك القوط.

– الكونت جوليان... حاكم سبتا الذي اقترح على موسى بن نصير فتح إسبانيا.

– طارق بن زياد... الفاتح الحقيقي لإسبانيا.

– عبد العزيز بن موسى بن نصير... تم اغتياله في قرطبة.

– سليمان بن عبد الملك... الخليفة بعد الوليد بن عبد الملك.

الفصل السابع

نهاية بحرنا

منذ أن امتلكت الشرق

وحمت الغرب

أرادت أن تتزوج

فتزوجت البحر الذي ينساب دائمًا

(وردث ورث)

بعد فتح إسبانيا أصبحت منطقة غرب البحر المتوسط بحيرة إسلامية. وخرق الإسلام وحدة البحر المتوسط الذي تركته الغزوات الجيرمانية سليمًا (*) وكانت هذه أهم واقعة في التاريخ الأوروبى حدثت منذ حروب قرطاج. وكانت هذه نهاية المرحلة الكلاسيكية وبداية العصور الوسطى.

(هنري بيرن – محمد وشارلمان)

وهكذا تحقق أن من يتحكم في البحر تكون حريته كبيرة ويستطيع أن يتحكم في طول الحروب وقصرها حينما يريد.

(فرانسيس باكون)

(*) (لم يخرق الإسلام وحدة البحر المتوسط ولكنه واجه أساطيل دولة عاتية باغية مثل الدولة الرومانية بشجاعة فائقة – المترجم).

بعد أن استكملنا وصفنا لفتح شمال أفريقيا وإسبانيا سنخرج من الوصف التاريخي الدقيق للإمبراطورية العربية لكي ننظر إلى واحدة من أهم نتائج الفتوحات العربية وهي عصور الظلام الأوروبية؛ لأن إهمالنا المتعمد عن الكتابة في التاريخ العربي والذي أشرت إليه من قبل نتج عنه سوء فهم كبير؛ وهو التوهم بأن عصور الظلام في أوروبا ترجع إلى فتح البرابرة الشماليين لأوروبا.

من يعش في أوروبا الغربية يمل إلى الاعتقاد بأن إنجلترا وفرنسا لعبتا دورًا كبيرًا في تكوين الإمبراطورية الرومانية. وفي الحقيقة كان المجتمع الروماني عبارة عن شعب بحري بصفة أساسية يعيش حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط. ولقرون كثيرة ظل البحر الأبيض المتوسط كليةً بحرًا رومانيًا وكان الرومان يسمونه «بحرنا». ولم تكن أي قوة أخرى تملك أي جزء من شواطئه. وعند النظر إلى الآثار فمن الضروري أن نجرد عقولنا من النظر إلى أوروبا وآسيا وأفريقيا كثلاث قارات مختلفة. ولم يكن عند المؤرخين العرب والرومان هذه النظرة. وبالنسبة للرومان والبيزنطيين كانت كل شواطئ البحر الأبيض المتوسط تشكل وحدة جغرافية واحدة وهو تصور أقرب إلى الواقع مما يمليه المؤرخون في العصر الحاضر إلى تصنيف البلاد إلى مجموعات، وكمثال لذلك الجزائر وتونس وأفريقيا الوسطى كأجزاء من قارة أفريقيا.

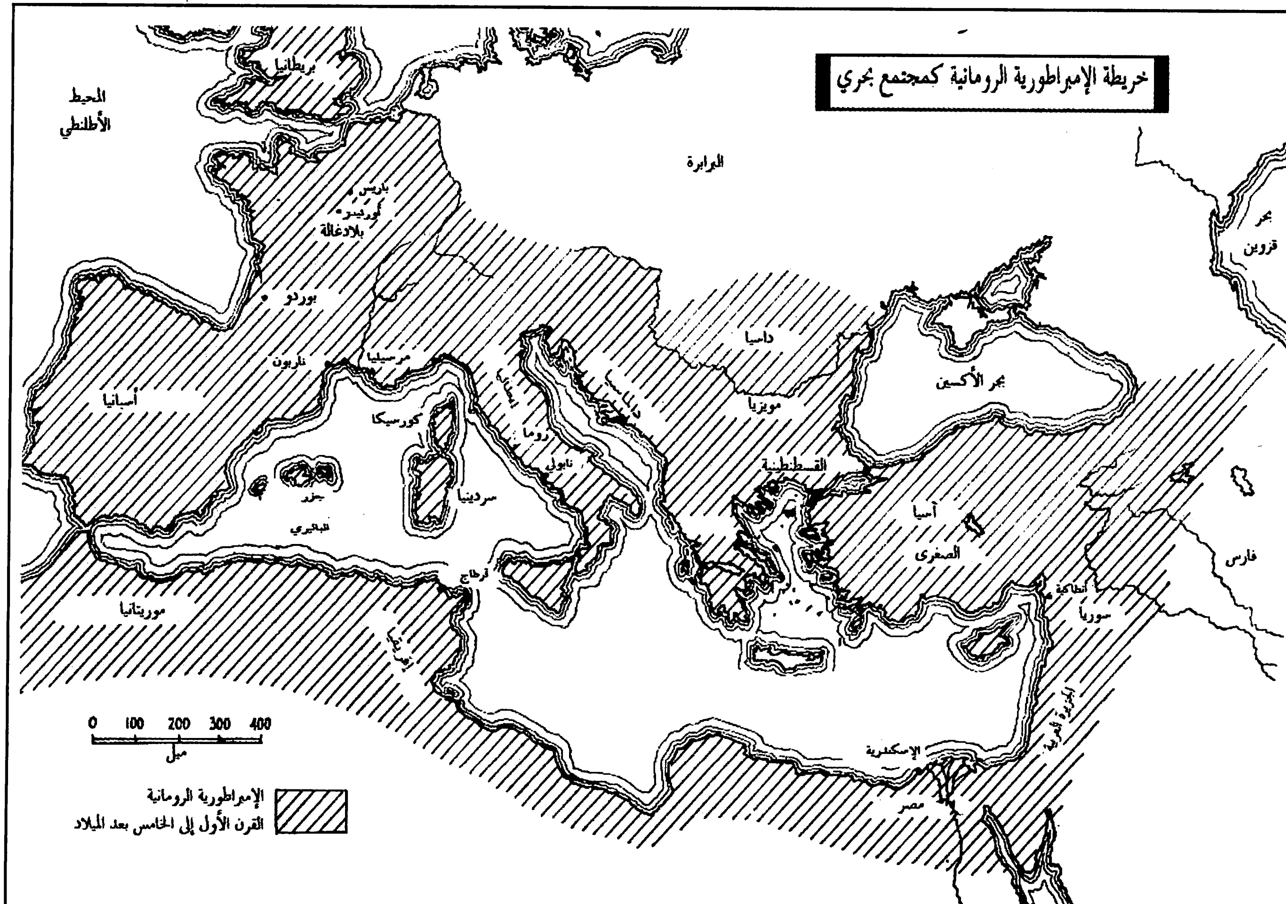
نتيجة لكون المجتمع الروماني مجتمعًا بحريًا كانت كل حدود الإمبراطورية الرومانية حدودًا برية تسير موازية عمومًا لشواطئ البحر الأبيض بمسافة تقع ما بين مائتين وأربعمائة ميل للداخل من ذلك البحر، ولهذا السبب كانت حروب الرومان على الأقل بعد القضاء على قرطاج حروب برية كلها، وهذا مؤداه أنه لم تكن هناك قوة أخرى على شاطئ البحر الأبيض تستطيع شن حرب بحرية ضدهم. ولذلك نميل إلى النظر إلى روما بوصفها قوة عسكرية أكثر منها قوة بحرية. وفي الواقع كانت سيادة الدولة الرومانية تعتمد على القوة البحرية، وكان الاستعمار الروماني لشمال فرنسا وبلجيكا وهولندا وبريطانيا إذا سميناهم بأسمائهم الحديثة في صورة قواعد عسكرية استعمارية لمنع البرابرة الشماليين من التقدم إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

كما نعلم أنه في بداية القرن الخامس بدأ البرابرة في غزو الإمبراطورية على نطاق واسع للوصول إلى شواطئ البحر الأبيض، ولكن كان غزو البرابرة الشماليين يختلف بطريقة ملحوظة عن الفتوحات العربية. وكان القوط والوانداليون واللومبارد والفرنجة يتأثرون تأثيرًا عميقًا بأهمية روما وحضارتها. ولم تدفعهم أية قوة معنوية للتقدم ومهاجمة الإمبراطورية لأن معظمهم كان وثنيًا. وبمجرد أن غزوا المناطق الرومانية بعد ذلك اتخذوا أسماء لاتينية وقلدوا عادات الرومان واعتنقوا المسيحية واتخذوا الألقاب والتشريعات التي يتخذها البلاط الإمبراطوري الروماني. أما العرب فعلى العكس كانوا يدّعون في حماسهم الديني أنهم يملكون عقيدة أرقى من المسيحية مما أدى بهم إلى معاملة شعوب الإمبراطورية معاملة أدنى، وهكذا لم تلغ الغزوات البربرية من شمال أوروبا حقيقة أن البحر الأبيض المتوسط ما زال بحيرة رومانية؛ لأن البرابرة أرادوا أن ينضموا للعالم الروماني كما هو لا أن يغيروه(*).

وبعد زوال الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٥ م أصبحت بيزنطة الممثل الوحيد الباقي للإمبراطورية ولكن بيزنطة كانت مهتمة بالأمور البحرية أكثر من روما؛ فكانت القسطنطينية أكبر ميناء بحري في العالم، وكانت تضم صناعات متعددة تنتج السلع المصنعة للتصدير. وعلاوة على ذلك كان موقع القسطنطينية يجعل منها مركزًا تجاريًا كبيرًا وكانت السلع التجارية من الشرق تتجمع فيها من سوريا وفارس، أما منتجات روسيا فكانت تأتي إليها من البحر الأسود ومنتجات أوروبا وشمال أفريقيا من البحر الأبيض المتوسط.

كانت أول ضربة خطيرة تتلقاها القوة البحرية الرومانية عام ٤٢٧ م عندما عبر الواندليون من إسبانيا إلى أفريقيا واستولوا على قرطاج أو قرطاجنة، أكبر قاعدة بحرية

(*) (واضح أن الكاتب متأثر بالحضارة والثقافة الرومانية أبلغ تأثير ونسي الضرائب الباهظة التي كان يفرضها الرومان على الشعوب المستعمرة المغلوبة على أمرها والتي خففها المسلمون. ونسي أيضًا محاولة الدولة الرومانية فرض الكاثوليكية على بقية الشعوب المستعمرة بالقوة بينما كان المسلمون متسامحين وسمحوا بحرية العقيدة، وغيرها من الأمور – المترجم).



خريطة الإمبراطورية الرومانية كمجتمع بحري

بيزنطية عند التقاء الجانب الشرقي والغربي من البحر الأبيض المتوسط، وفي عام ٤٣٩ م أقام الوانداليون قاعدة لهم في قرطاج واستولوا على سردينيا وكورسيكا وجزر الباليري. وظهرت قوة بحرية جديدة في البحر الأبيض المتوسط كانت تهدد وجود الإمبراطورية ذاتها. وكانت بيزنطة على علم بذلك، ولكن للتو واللحظة كان وصول الهانز إلى حدود نهر الدانوب يجعل من المستحيل عليها أن تتخذ رد فعل مناسب.

عندما أصبح الإمبراطور جوستنيان إمبراطورًا لبيزنطة عام ٥٢٧ م كان يقدر الموقف من جميع جوانبه فعقد اتفاقية مهينة مع الفرس لكي يتخلص من تعهداته بمحاربتهم. ونظرًا لأن الفرس كانوا خطرًا على بيزنطة فإن الملاحة في البحر الأبيض كانت تعني مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم. وفي عام ٥٣٣ م ركز جوستنيان كل قوته ضد الوانداليين. وفي خلال عام تمت هزيمتهم وعادت شمال أفريقيا ككل إلى الحكم البيزنطي. وأصبح القوط في إسبانيا على درجة كبيرة من الثراء والرفاهية. أما الفرنجة الذين كانوا يؤسسون دولتهم في فرنسا فلم يكونوا مولعين بالقتال البحري. وأعاد جوستنيان إيطاليا إلى السيادة البيزنطية، وأصبح البحر الأبيض المتوسط مرة ثانية بحيرة رومانية.

منذ عام ٥٣٣ م فصاعدًا أصبحت شواطئ البحر الأبيض المتوسط مزدحمة من خلال التجارة. وأصبحت منتجات الهند، وأندونسيا، والملايو، والصين متاحة هناك. وكانت كثير من مظاهر الملاحة التجارية يتولاها السوريون، أو بالمصطلح الحديث ينبغي أن نسميهم اللبنانيين وهم أحفاد الفينيقيين القدامى. وكان التجار السوريون لهم قدم في كل شواطئ البحر الأبيض المتوسط في القسطنطينية، وإنطاكيا، والإسكندرية، وقرطاج ومرسيليا. وأيضًا في نابولي، وبوردو، وأورلينز، وباريس. وكان سكان ناربون عام ٥٨٩ م يتكونون من القوط والرومان، واليهود، واليونانيين، والسوريين.

أدت سلامة الملاحة في البحر الأبيض المتوسط إلى تكوين شعوب تجارية متمدنة وثرية، وكان هناك نشاط كثيف في موانئ البحر الأبيض المتوسط. وكان الذهب والفضة والمنسوجات الشرقية متوافرة في كل مكان في إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا. وكان الحرير يتم

استيراده بكميات كبيرة، وكانت أزياء القسطنطينية يتم نسجها في الغرب كما كانت أزياء باريس في القرن الثامن والتاسع عشر. ومن المدهش أن نقرأ أن النبيذ السوري كان يتم تصديره إلى فرنسا. وكذلك العطور والبخور والتوابل كبهارات تقدم مع الطعام، ولعبت هذه المنتجات دورًا كبيرًا في ذلك العصر أكثر من عصرنا الحاضر. وكانت روما تستورد من الصين والهند والجزيرة العربية الفلفل والكمون والقرنفل والقرفة والتمر والناردين والتين واللوز والفستق والزيتون والأرز، وكل هذه المنتجات كانت تصل إلى أوروبا الغربية عن طريق شرق البحر الأبيض المتوسط. وكانت كميات كثيرة من زيت الزيتون تستورد من المصدر نفسه وتستخدم إما في الطعام أو إنارة المصابيح.

كان هناك منتج آخر ذو قيمة كبيرة وهو البردي الذي كان يصنع في مصر فحسب. وكانت مادة شائعة الاستخدام في الكتابة وكذلك كان يعتمد عليها في التدوين لآثار الحضارات السابقة وكانت حمولات كاملة منها يتم إفراغها في موانئ البحر الأبيض المتوسط الغربية. وكانت واحدة من الحمولات الرئيسية على السفن عند عودتها إلى الشرق تحمل عبيدًا ذوي شعر حسن من بريطانيا وشمال أوروبا. وكانت الأخشاب تستورد من أوروبا الغربية إلى الشرق. كانت هناك ميزة كبيرة أخرى تتمتع بها التجارة عبر البحر الأبيض المتوسط في ذلك العصر وهي أن العملة الذهبية البيزنطية الصلدوس كانت عملة رسمية في كل مكان في مملكة القوط ومملكة الفرنجة في فرنسا وإسبانيا وأيضًا في أفريقيا ومصر وسوريا واليونان وهكذا كان التجار يتخلصون من مشاكل العملات وصرفها. ويبدو أنه كانت هناك عملات كثيرة متداولة وكان كثير من التجار الأغنياء والرأسماليين كثيرًا ما يقرضون أموالًا بفائدة ثابتة.

كذلك منذ هزيمة الوانداليين عام ٥٣٣ م وحتى الفتوحات العربية وبعد مرور أكثر من قرن، استمر نمط التجارة الذي كان سائدًا طوال الخمسمائة سنة من الحكم الروماني. أما النصف الشرقي واليوناني من البحر الأبيض المتوسط فكان الجزء الأكثر ثراءً والأكثر تحضرًا، وخلال هذا القرن التجاري كان أكبر التجار وأكبر السفن التجارية تقريبًا إما

سورية أو يونانية. وكان الاقتصاد يشبه الاقتصاد في العصر الحاضر، ويتميز بالملاحة التجارية إلى ما وراء البحار والموانئ الكبيرة والتجار الأثرياء والرأسماليين وحرية تداول الأموال والمدن التجارية وإعارة الأموال بفائدة. ومن الناحية السياسية انقسم النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية إلى عدد من الدول البربرية، أما القوط واللومبارديون والفرنجة فلم يكونوا يكنون العداء لبيزنطة بل على العكس كان الإمبراطور الروماني ما زالت له هيبة كبيرة واعترف كثير من ملوك هؤلاء بسيادته، وطلبوا منه أن يؤيد جلوسهم على العرش ومع ذلك فقد قاوموا أي محاولة من بيزنطة لفرض السيطرة السياسية عليهم وهو موقف يشبه دول الكومينويلث البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى.

كذلك لم يقطع الانفصال السياسي لأجزاء الإمبراطورية الرومانية الغربية طرقها التجارية أثناء كونها إمبراطورية واحدة متصلة ولم يؤد غزو البرابرة للإمبراطورية إلى نشوء نظام إقطاعي أو اقتصاد زراعي مثل ذلك الذي نشأ بعد ذلك في أوروبا الغربية. ولم يكن عند ملوك البرابرة رغبة في تغيير النظام التجاري الروماني المربح؛ وجنى هؤلاء أرباحًا كثيرة من ازدهار هذه التجارة، وكنتيجة لذلك ربحوا أموالًا كثيرة فورية بالضرائب والجمارك وأصبحت بيزنطة فقيرة بسبب الحروب مع الفرس ولكن كانت موانئ البحر الأبيض المتوسط ثرية ومزدهرة. ولم يتوقع أحد حدوث كارثة. ولم يكن العرب مصدر تهديد لجيرانهم؛ لأنه في الماضي كان الغزاة يأتون من روسيا ووسط آسيا. ولكن الآن ظهر البرابرة وأصبحوا يهددون الموانئ التجارية الرومانية.

لو كان العرب قد خرجوا من الجزيرة العربية لكي يقهروا الإمبراطورية البيزنطية بسبب ثروتها لكانت النتيجة مختلفة تمامًا. ولهذا السبب خرج البرابرة الشماليون الذين وصفناهم بأنهم استوعبوا عادات الإمبراطورية وديانتها بمجرد تكوين دولهم. وإذا خرج العرب لهذا السبب لكانوا قد أصبحوا رومانيين مسيحيين، ولكانت الحياة التجارية لحوض البحر الأبيض المتوسط تسير كما كانت من قبل. ولكن العرب خرجوا مقتنعين أن ديانتهم الجديدة ترقى بهم عن الآخرين. وبناءً على ذلك لم يصبحوا رومانيين كما كان يفعل البرابرة الشماليون، ولكن على العكس أصبح سكان المقاطعات الرومانية السابقة عربًا.

يصور المؤرخون العرب موسى بن نصير وهو يفكر في فتح فرنسا وإيطاليا والعودة إلى سوريا عن طريق اليونان لكي يستولي على بيزنطة من الغرب. ولو كان هذا التخطيط نجح لأعاد توحيد بلاد البحر الأبيض المتوسط، ولكن كبحيرة عربية بدلًا من كونها بحيرة رومانية. ولكن بدلًا من ذلك ركن الخلفاء إلى الرفاهية والاستبداد فتلاشت الفتوحات وأصبح البحر الأبيض المتوسط مشطورًا إلى نصفين. وعمومًا انتقلت السيادة البحرية في البحر الأبيض المتوسط إلى المسلمين.

على الرغم من أن الإمبراطور البيزنطي كان يحتفظ بأسطول بحري فإنه كان منحصرًا في ربع البحر الأبيض المتوسط على طول شواطئ آسيا الصغرى واليونان وجزيرة صقلية. استولى المسلمون في النصف الثاني من القرن التاسع على جزيرة صقلية وكورسيكا وسردينيا وظهر أنهم ينوون فتح كل شواطئ البحر الأبيض المتوسط ولكنهم فشلوا للمرة الثانية.

إذا لم يأمر الإسلام بالجهاد في سبيل الله لم يكن الفتح العربي لشمال أفريقيا وإسبانيا ليدمر تجارة البحر الأبيض المتوسط (*). ولتلى ذلك الفتح سلام واستئناف لحركة التجارة العالمية. وفي الحقيقة كان البحر الأبيض المتوسط لقرون عديدة شريان التجارة، وكان لمدة ستة قرون بحر عالمي يبحر فيه بصفة أساسية الأساطيل الحربية والقراصنة.

حتى قبل فتح إسبانيا كادت حركة التجارة بين أوروبا الغربية والشرق أن تتوقف فعليًا؛ فقد فتح العرب سوريا عام ٦٣٦ م وكما وصفنا كان معظم التجار والسفن التجارية سورية. وفتح العرب مصر عام ٦٤٢ م وكان الجزء الأكبر من التجارة عبر الشرق يمر من قبل عبر تلك البلد. وفي عام ٦٤٨ م بدأ العرب بأنفسهم في تكوين الأساطيل الحربية في مصر وسوريا ولهذا الغرض دشن العرب بلا شك معظم السفن للأغراض الحربية. وبعد ذلك مزقت الغارات العربية المتعاقبة وثورات البربر ولايات شمال أفريقيا المزدهرة والمسالمة

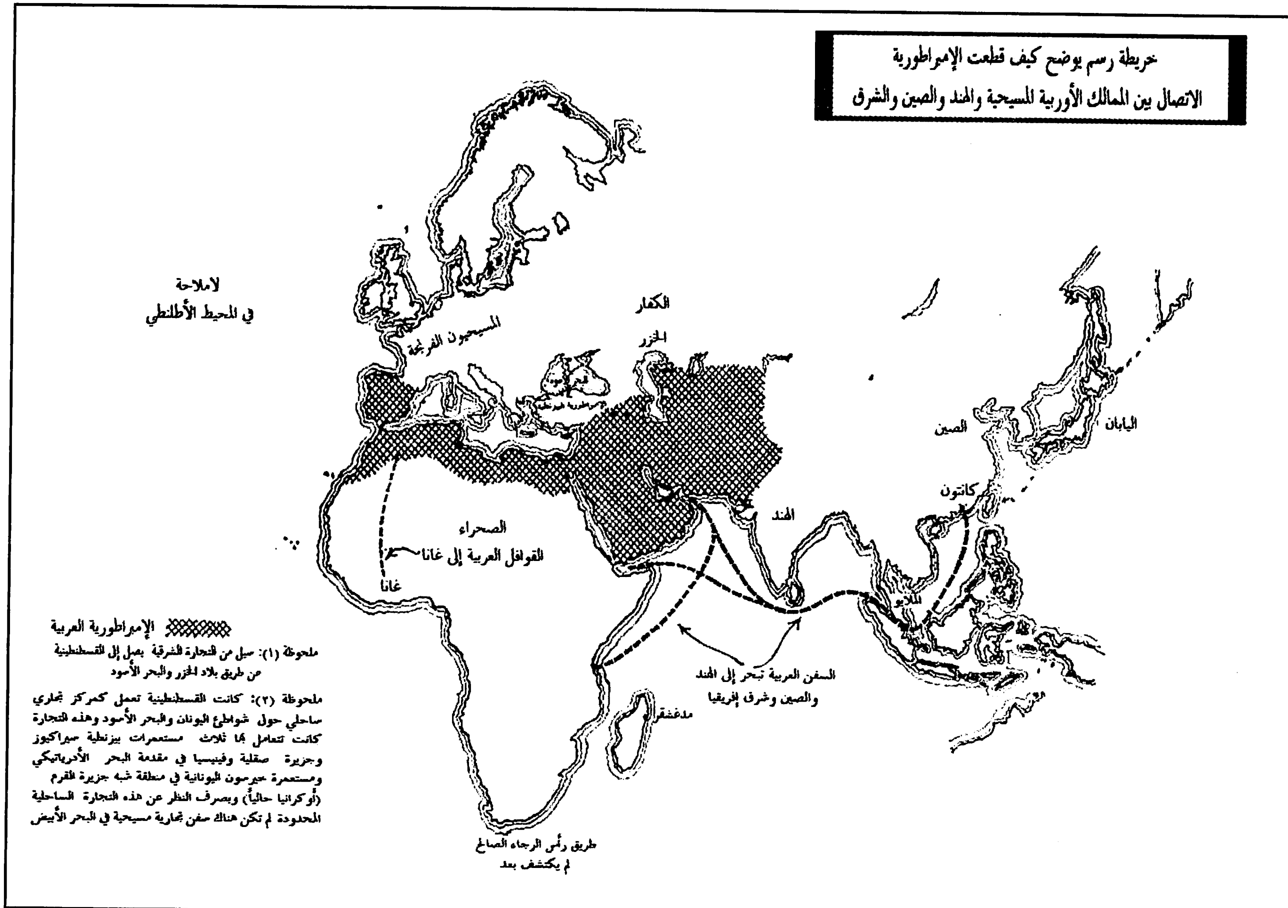
(*) (الجهاد في سبيل الله لا يعني التخريب أو القرصنة أو وقف الأحوال كما يتصوره المؤلف – المترجم).

حتى استولى العرب عام ٦٩٨ م على قرطاج أو قرطاجنة؛ القاعدة البحرية الرومانية والميناء الكبير ودمروها.

بعد ذلك انقطعت أوروبا كليةً عن التجارة العالمية فقد انفتحت الصين والهند والملايو وقارة أفريقيا إلى جانب مدغشقر وغانا للتجارة العربية، وانعزلت الممالك الأوروبية المسيحية كليةً وكان الأسطول البيزنطي ما زال قادرًا على حماية التجارة الساحلية بين القسطنطينية واليونان والبحر الأدرياتيكي ولكن ليس أكثر من ذلك. ووجدت فرنسا وإيطاليا أن كل تجارتها الشرقية الثرية أصبحت مقطوعة الأوصال. وطبقًا لكلمات ابن خلدون: «لم تعد أية سفينة مسيحية تبحر عبر البحر الأبيض المتوسط».

نتج عن ذلك انقلاب كامل في حياة أوروبا الغربية. وكان البردي مادة الكتابة الشائعة اليومية أول من توقف نقله عبر البحر الأبيض. وكانت كل أرشيفات المحكمة الفرنجية الميروفنجية تحفظ على ورق البردي الذي توقف فجأة عن الورود وتم إحلال الرق المحلي المصنوع من جلود الحيوانات محله.

وكانت أول وثيقة ملكية للحكومة الفرنجية مصنوعة من رق الحيوانات ترجع إلى ١٢ سبتمبر عام ٦٧٧ م. وبعد ذلك بوقت قصير اختفت التوابل التي كانت تستخدم يوميًا أيضًا، وتلى ذلك أيضًا الفلفل والقرنفل والناردين والقرفة والتمر والفستق. ومن هنا خلت قوائم المواد الغذائية من السلع المستوردة إلا السلع التي تنتج محليًا مثل الخبز ولحوم الخنازير ولحوم الدجاج والبيض والخضروات والسمك والجبن وغيرها. وبالطريقة نفسها كانت كميات زيت الزيتون ناقصة بصورة كبيرة. وصحيح أن بعض أشجار الزيتون تنمو جنوب فرنسا أو إيطاليا، ولكن كمية الزيت المستخرجة كانت لا تكفي جزءًا من الطلب فلم يعد في الإمكان توفيره للمصابيح فتحولت الكنائس إلى استعمال الشموع. وتوقف الناس عن استخدام الملابس المصنوعة من الحرير مع أنه في العصور القديمة كان الرجال والنساء يرتدونها في المحاكم الميروفنجية.



خريطة رسم يوضح كيف قطعت الإمبراطورية
الاتصال بين الممالك الأوربية المسيحية والهند والصين والشرق

بالطريقة نفسها انقطعت إمدادات الذهب. وكان الميروفنجيون في بادئ الأمر يخلطون عملاتهم الذهبية بخليط متزايد من الفضة، ولكن في آخر الأمر أصبح ذلك متعسرًا، وفي عصر شارلمان كان يتعامل بالعملات الفضية فحسب. وعندما أصبح شارلمان حاكمًا لفرنسا وألمانيا عام ٧٧١ م وجد نفسه يقود دولة داخلية ليس لها تجارة خارجية.

هناك نتيجة مهمة أخرى لسيطرة العرب على حوض البحر الأبيض المتوسط، وهي أن هذه السيطرة قضت على نفوذ بيزنطة في أوروبا الغربية. وبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٥ م، وحتى عصر الفتوحات العربية بعد ذلك بقرنين كان النفوذ البيزنطي يزداد ببطء في الغرب سواء بسبب التجارة والتجار البيزنطيين أو العلماء والفنانين. ولم تهدد فحسب الأساطيل والقراصنة العرب في البحر الأبيض المتوسط أوروبا الغربية من ناحية مصر والهند، ولكن عزلتها عن بيزنطة. وبالتالي كان شارلمان ومن خلفه على الحكم مضطرًا إلى إقامة حضارة جديدة مستقلة كليةً عن بيزنطة والتقاليد الرومانية. وإذا لم تحدث الفتوحات العربية (*) لكانت أوروبا الغربية قد أقامت على حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية حضارة متمدنة تعتمد على التجار الأثرياء والمدن القوية ومثل تلك الحضارة التي ترجع إلى الغرب ما كانت لتضمحل إلا بعد ستة أو سبعة قرون، ولكانت أوروبا فيها تتعامل مع العالم بحرية من ناحية التجارة.

أما في عصر شارلمان فلم تكن الإمبراطورية لها تجارة خارجية وبالتالي ليس لديها تجار كبار، وكانت تملك أموالًا ضئيلة. وكانت البلاد التي يحكمها تعيش على المنتجات المحلية، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضي الزراعية وليست الأموال هي مصدر الثروة. وكان الوجهاء وذوو النفوذ في الدولة ليسوا من رجال الأعمال المتحضرين والرأسماليين ولكن من البارونات أصحاب الأراضي، وهو نظام بقي إلى حد ما على الأقل إلى ما بعد القرن التاسع عشر. أيضًا لعدم وجود تجارة وأموال فورية في أيدي الحكومة وهو ما تطور بعد

(*) (أغفل الكاتب الإنجازات الحضارية التي حققتها الفتوحات العربية مثل اختراع الأسطرلاب والساعة الرقمية والخرائط وعلم الجبر والهندسة وغيرها ولا يمكن لتجارة وتجار أثرياء أن يصنعوا حضارة- المترجم).

ذلك إلى النظام الإقطاعي نفسه. وبالنسبة إلى الإمبراطور أو الحكام المحليين فإنهم كانوا يملكون ثرواتهم في صورة أراضٍ زراعية وليس أموالاً، وبذلك كانوا غير قادرين على دفع مخصصات الجنود في الجيش. ولكي يعوضوا عدم وجود نقود لديهم فقد تبرعوا بالأراضي مقابل الخدمة العسكرية. ونظرًا لعدم وجود تجارة تضاءلت أهمية المدن وأصبحت قصور البارونات وليس قاعة مجلس المدينة هي مراكز القوة والنفوذ.

تأثر التعليم بسرعة من فقر المدن ونقص مواد الكتابة. ورأى الفلاحون أنهم ليسوا في حاجة ماسة إلى معرفة القراءة والكتابة بأية طريقة فلم يتعلموها. ورويدًا رويدًا أصبحت الكنيسة فقط هي التي تخرج من يعرف القراءة والكتابة. وقاربت العصور المظلمة لأوروبا على الظهور. وهذا اللجوء إلى الأمية كان ينسب بصورة خاطئة إلى غزوات البرابرة بينما في الحقيقة فإنه ينسب بصفة أساسية إلى فتح العرب لأوروبا (*). ولم تبدأ عصور الظلام في أوروبا مع غزوات البرابرة في القرن الخامس ولكن مع غلق العرب للبحر الأبيض في القرن السابع(**). ولكن انتهى ذلك ببطء بعد عام ١٠٠٠ م عندما دب الضعف في الإمبراطورية العربية.

لكن بينما أصبحت فرنسا وألمانيا تتبع النظام الإقطاعي الزراعي والمكتفي ذاتيًا كليةً، كانت هناك مناطق معينة في إيطاليا تتمتع بتجارة غير مستقرة مع القسطنطينية. وكانت أول هذه المناطق وأكبرها هي فينيسيا. وفي القرن الخامس كان أول سكان تلك الجزر الصغيرة غير الصالحة للعيش التي تقع في مقدمة البحر الأدرياتيكي هو بعض الهاربين السيئي الحظ من المناطق الرئيسية في أوروبا، وكان يعتريهم الخوف من قبائل الهانز وأتيلا السافكة للدماء. وفي البداية كان هؤلاء اللاجئون يقتاتون على صيد الأسماك. وكان من الطبيعي أن يلجؤوا إلى البحر كمصدر للرزق؛ لأن مظاهر الحرمان التي تحملوها جعلتهم مغامرين وشجعانًا وبعد ذلك بوقت قصير طوروا وسائل للملاحة. وفي القرن الثامن عندما أغلقت موانئ إيطاليا وفرنسا نتيجة لسيطرة العرب على البحر الأبيض المتوسط. كانت السفن الفينيقية تبحر

(*) (كانت أوروبا في عصور الظلام قبل الغزو العربي لها، المترجم).

(* *) (لم يكن مع العرب الأساطيل التي تتيح لهم غلق البحر الأبيض المتوسط، المترجم).

بانتظام حول اليونان إلى القسطنطينية. وكانت في ذلك الوقت تحت الحماية البيزنطية وهو نظام سياسي مناسب لها لأن الإمبراطور البيزنطي كان بعيدًا جدًا ولا يستطيع أن يتدخل لحماية هذا البلد. وأثناء القرن التاسع مدت فينيسيا سلطتها إلى جزء من ساحل دلماسيا وتمتعت بسيطرة غير مستقرة على البحر الأدرياتيكي. وتنافست موانئ إيطالية قليلة على الساحل الجنوبي الغربي مع فينيسيا في التجارة مع الشرق ولكن على نطاق ضيق. وكل هذه الموانئ الإيطالية كانت موانئ تجارية محضة، ومع ذلك فإن أساطيلها أحيانًا كانت تساعد الأباطرة الرومانيين وتقاتل الأساطيل العربية في البحر الأبيض. وفي عصور أخرى عندما تهدأ الأمور كانت تتاجر مع المسلمين وتصدر الرقيق الأبيض إلى البلاد العربية.

كنتيجة لاستمرار هذه التجارة على الرغم من أنها كانت تضم سلعًا هزيلة تشمل التوابل والعطور، والأقمشة الثمينة، والذهب وورق البردي فإنها استمرت تفد إلى فينيسيا وجنوب إيطاليا. وكانت هناك عملات ذهبية متداولة في جنوب إيطاليا عندما اضطرت الضائقة المالية الإمبراطور شارلمان إلى التعامل بعملة فضية.

من وجهة نظرنا فإن الجانب الأكثر إثارة إلى حد بعيد في القرون التي كان للعرب فيها سيادة بحرية على البحر الأبيض المتوسط هو النتائج الاجتماعية لذلك. وكيف أن توقف التجارة عبر البحار قد غير التكوين الاجتماعي لأوروبا الغربية فزالت طبقة التجار والرأسماليين وتضاءلت أهمية المدن وأصبحت فرنسا وألمانيا بلدين زراعيين يحكمهما ملاك الأراضي. ونظرًا لأن الأمراء والأباطرة لم يكن عندهم المال الكافي لدفع مرتبات الجنود في الجيوش النظامية فظهر إلى الوجود نظام السخرة في الخدمة العسكرية. ومن المهم أن نلاحظ أن العرب عندما أصبحوا أكثر ثراءً من التعامل في التجارة العالمية الكبيرة ساروا في اتجاه آخر، فبينما كانت فتوحاتهم العسكرية الأصلية تتم على أساس قبائلي بقيادة زعيم القبيلة وهو مرادف عربي للنظام الإقطاعي سنرى الخلفاء بعد ذلك يستأجرون جيوشًا مرتزقة.

الحضارة التي تنشأ من الزراعة والطبقة الأرستقراطية ينتج عنها دولة تختلف كليةً عن الدولة التجارية والصناعية. والزعماء في ذلك النظام يفتخرون بصفة أساسية بالإنجازات العسكرية والأعمال البطولية وكرم الضيافة والحب العاطفي. وهذه هي المثل التي اتبعها العرب في الوقت نفسه الذى كانت روما وبيزنطة تؤسسان قوتهما على الثروة والتجارة والملاحة والمدن الكبيرة. وعندما سيطر العرب على حركة التجارة اتجهت أوروبا الغربية إلى إعلاء شأن القيم العربية في الحرب وكرم الضيافة والحب العاطفي، بينما تحولت الإمبراطورية العربية بثروتها الكبيرة الواسعة إلى المادية كما سنرى بعد ذلك عند مناقشة نظام الخلافة في بغداد.

لكن ما زال هناك جانب أكثر بريقًا، فقد كان العرب في إسبانيا، وهم على مسافة بعيدة عن مادية بغداد الفاسدة، يعجبون بقيم الحرب وحسن الضيافة والحب. وكان إخلاصهم المستمر لهذه القيم العربية يهز الناحية العاطفية للطبقة الأرستقراطية الإقطاعية لأوروبا الغربية التي حرمها العرب من التجارة فعادت للقيم والفضائل العربية نفسها. وعلى الرغم من أن الخلافات الدينية جعلتهم يتحاربون دائمًا فإن فرسان فرنسا المسيحيين وفرسان الأندلس المسلمين كان كل منهم يكن الاحترام والإعجاب للآخر.

بناءً على ذلك، بينما في عام ٧٠٠ م وبعده كانت المهنة السائدة هي الزراعة في أوروبا الغربية والتجارة والصناعة في الإمبراطورية العربية، كانت إسبانيا تمثل إلى حد ما استثناءً من هذه القاعدة في الغرب. وفي الشرق نجحت الولايات البيزنطية من البحر الأدرياتيكي إلى القسطنطينية في الاحتفاظ بالخبرة التجارية القديمة. وفي القرن الثامن والتاسع بقيت التجارة بالكاد على قيد الحياة بسبب أخطار الملاحة نتيجة القرصنة العربية، وكانت القسطنطينية لا تزال تتعامل بالتجارة مع روسيا عبر البحر الأسود وبقى بصيص من التجارة مع الشرق سواء من خلال الخزر الكفار شمال القوقاز أو من خلال المهربين أو عن طريق التجار اليهود الذين كانوا على اتصال بكلا الطرفين. وبالنسبة إلى الطرفين المتخاصمين اللذين واجه كل منهما الآخر عبر البحر الأبيض المتوسط وهما المسلمون

والممالك المسيحية الغربية، فقد كان كل منهما مستعدًا للتعامل التجاري مع اليهود أو الكفار الذين كانوا محايدين في ذلك الزمان.

دفع بقاء هذه التجارة على قيد الحياة طبقة التجار والمدن إلى التعامل في نطاق هذه التجارة الضيقة. وكان التجار في بيزنطة وجنوب إيطاليا في صراع مستمر أو على الأقل في خصومة سياسية مع ملاك الأراضي والطبقة الأرستقراطية، ولكن استمرار التجارة إلى ما وراء البحار أدى إلى منع نشوء نظام إقطاعي كامل. وفي جنوب إيطاليا اندمجت المدن الساحلية مثل ساليرنو ونابولي وأمالفي في نزاع دوري مع دوق بينيفنتو الذي نجح في الاحتفاظ بعملة ذهبية تحت سيطرته من خلال التجارة معها. واحتفظت فينيسيا وهي آمنة بنظامها الحكومي الذي يتكون من طبقة حاكمة ثرية. ومن القرن العاشر فصاعدًا سمح ضعف الإمبراطورية العربية لأوروبا باستئناف حركة التجارة المنتظمة مع الشرق والتي نتج عنها عصر النهضة وعودة روح التجارة والتي نشأت معها الحياة المدنية والرأسمالية، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الشعور بأن ملاك الأراضي أعظم من التجار ورجال الأعمال سائدًا في أوروبا الغربية حتى القرن التاسع عشر.

ربما كان الازدهار الكامل لأي ثقافة يستلزم الاندماج بين الروح المادية والعاطفية للمجتمع الزراعي مع ثراء مجتمع التجار ومعرفته وتنويره، فلا يمكن فهم السبب الذي من أجله حققت أوروبا مثل ذلك الازدهار الثقافي في القرن الثامن والتاسع عشر إذا لم نكن مستعدين أن نضع في اعتبارنا تأثير عصر الإمبراطورية العربية على تطور الغرب.

الفصل الثامن

سنوات الانتصار

رحم الله الوليد وأين مثل الوليد؟! افتتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق وكان يعطينى صاعًا من الفضة أقسمها على فقراء مسجد بيت المقدس.

(السيوطي – تاريخ الخلفاء)

نطاعن ما تراخى الناس عنا	ونضرب بالسيوف إذا غُشينا
بسمر من قنا الخطيِّ لُدْن	ذوابل أو ببيضٍ يختلينا
نشق بها رؤوس القوم شقًا	ونختلب الرقاب فتختلينا
نجد رؤوسهم في غير بر	فما يدرون ماذا يتقونا
ورثنا المجد قد علمت معد	نطاعن دونه حتى يبينا
فإنَّ قناتنا ياعمرو أعيت	على الأعداء قبلك أن تلينا
إليكم يا بني بكر إليكم	ألما تعرفوا منا اليقينا
ألما تعرفوا منا ومنكم	كتائب يطَّعِنَّ ويرتمينا

(عمرو بن كلثوم – من كتاب المعلقات السبع: تأليف الحسين الزوزني).

قبل إعادة سرد قصة الفتح العربي لإسبانيا تركنا الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق عام ٧١٠ م. والآن يجب أن نرجع عدة سنوات لكي ننظر إلى الدولة البيزنطية التي ستحدث على أراضيها أحداث كبيرة في أقرب وقت حيث كان شرق الإمبراطورية البيزنطية على وشك أن يزول مرة ثانية. وفي الحقيقة بدا الأمر كما لو كان صعب التصديق أنه كان أمامه سبعة قرون من البقاء وهي فترة أطول من فترات الحكم الكاملة لمعظم الإمبراطوريات التاريخية.

في عام ٦٨٥ م وهو العام الذي بويع فيه عبد الملك بن مروان خليفة في دمشق اعتلى الإمبراطور جوستنيان الثاني عرش الإمبراطورية وعمره ستة عشر عامًا. وكانت الإمبراطورية البيزنطية تلفظ أنفاسها الأخيرة، فعلى الشواطئ الأوروبية كانت القسطنطينية يهددها السلافيون والبلغار من الناحية الآسيوية وكان العرب يسلطونهم. وفي بادئ الأمر واجه جوستنيان الثاني هذا الأمر ببعض النجاح؛ نظرًا لأن العرب كانوا منشغلين بالحرب الأهلية بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير فهاجم أرمينيا واحتلها ولكن لأنه فعل ذلك لم يستطع أن يقاوم الرغبة في إجبار الكنيسة الأرمينية على التوافق مع المذهب الأرثوذكسي اليوناني. وثار الأرمن ضده وطردوا جيوشه خارج أراضيهم.

في الوقت نفسه انتهت الحرب الأهلية بين العرب ونقض المسلمون الهدنة التي عقدوها قبل ذلك فغزوا آسيا الصغرى. وانسحب جوستنيان على أمل شن حرب جديدة ضد العرب من جبال الأمانوس؛ وهي حصون عسكرية مسيحية منعت حتى ذلك الوقت العرب بصورة كبيرة من شن حروب ضد الإمبراطورية.

في عام ٦٩٥ م أُقصي جوستنيان الثاني الذي كان طاغية قاسيًا عن العرش بانقلاب ضده في القسطنطينية فتم قطع أنفه ونفي إلى شبه جزيرة القرم (أوكرانيا) ولكنه رفض أن يتخلى عن العرش فاتصل بالخزر وتزوج تيودورا ابنة خان تلك الأمة فاحتجت الحكومة البيزنطية على ذلك. ويبدو أن الخزر قد ملوا منه، فبعثوا رجلًا لكي يقتله فقام بخنق القاتل وهرب بمعجزة وتحطمت سفينته في عاصفة في البحر الأسود، فأبحر بمركب إلى نهر

الدانوب وعقد صداقة مع تيربيليس ملك البلغار. وأخيرًا في عمل بطولي يكاد يكون معجزة استرد عرش الإمبراطورية عام ٧٠٥ م وهو العام الذي تولى فيه الوليد بن عبد الملك الخلافة.

لم تكن فقط القسطنطينية هي التي يهددها البلغار من الغرب والعرب من آسيا الصغرى ولكن الجزء الأكبر من إيطاليا كان يحتله البرابرة، وعلى الرغم من أن روما ورافينا اعترفتا بولائهما للإمبراطورية البيزنطية الشرقية فإن جوستنيان الثاني في هذا الموقف الصعب قرر بعد أن اتخذ لقب سليتنوز أن يصدر قرارًا دينيًا فاحتج عليه البابا مباشرة فأمر بالقبض عليه ولكن القوات التي بعثها للقبض عليه تحيزت إلى البابا بونتيف ورفضت تنفيذ أوامر الإمبراطور. وفي عام ٧١٠ م ثارت القوات في رافينا وقتلت الحاكم الذي بعثه الإمبراطور، وهكذا في التاريخ العاصف للإمبراطورية البيزنطية عندما كان الموقف متأزمًا بصورة خاصة في أركانها كان الأباطرة يصدرون قرارات دينية كانت تنفر منها الشعوب القليلة التي ما زالت تعترف بسيادتها.

بعد حكم عاصف مليء بالمغامرات يستحق عمل فيلم عنه في هوليود اغتيل جوستنيان سليتنوز عام ٧١١ م. وإذا كان حكمه مثيرًا للقلاقل فقد أدت وفاته إلى فوضى كاملة. وفي ذلك الوقت بلغت إمبراطورية دمشق الأموية قمة قوتها. وفي الغرب كانت جيوشها المنتصرة تجتاح إسبانيا. وفي الشرق كما سنذكر بعد ذلك كانت تطأ حدود الصين.

كان تقطع أوصال الإمبراطورية البيزنطية فرصة لا تقاوم للعرب، فركبوا في حملات فاتحة في كل الجبهات ضد الإمبراطورية. وفي عام ٧١١ م وهو عام وفاة سليتنوز اخترقت حملات إسلامية كبيرة الأراضي البيزنطية؛ اثنتان منها بقيادة ابنَي الخليفة الوليد بن عبد الملك وواحدة بقيادة أخيه المحارب العريق مسلمة بن عبد الملك. وفي العام التالي ٧١٢ م فتح العباس بن الوليد إنطاكيا في بيسيديا في منتصف المسافة إلى القسطنطينية.

تغيرت الإستراتيجية العربية بوصفها نتيجة للانهيار الواضح للدولة البيزنطية؛ فكانت الغارات الصيفية السنوية عليها تجري بصفة مستمرة، ولكن لم نتوقع أي نتائج حاسمة من تلك الغارات. ولكن الآن على أية حال أصبح العرب يتقدمون في صورة غزو منظم

مخطط له وكانت جيوش الخليفة تتقدم إلى الأمام بثبات بنية الوصول إلى القسطنطينية وفتحها وإزالة الإمبراطورية البيزنطية للأبد.

في عصر الفتوحات العربية الكبرى قبل ذلك بسبعين عامًا كانت أول الجيوش الإسلامية المتحمسة تخرج من وسط الجزيرة العربية وتهاجم جيرانها في الوقت نفسه ومن كل النواحي، وعلى الرغم من أن الحماس الديني الأولي قد فتر الآن فإن الحماس نفسه كانت الجيوش الإسلامية ما زالت تحتفظ به. وقامت حامية كل ولاية رومانية بمهاجمة الأعداء الموجهين ضدها مباشرة. وإذا كانت القوة الكلية للإمبراطورية مركزة على جبهة واحدة لكان تاريخ العالم بعد ذلك قد تغير تمامًا. وإذا كانت القوة الرئيسية للإمبراطورية العربية قد تركزت حول فتح إسبانيا، لكان العرب قد فتحوا فرنسا وإيطاليا وحققوا حلم موسى بن نصير بمهاجمة القسطنطينية من خلال إيطاليا واليونان. وبصورة بديلة لو تركزت الجيوش العربية في آسيا الصغرى لكانوا قد فتحوا القسطنطينية ودمروا الإمبراطورية البيزنطية من الشرق. ومن الشرق تستطيع أن تواصل المسير لفتح اليونان وإيطاليا. ولكن لم يتم النظر في هذه الإستراتيجية ربما لأنها على أية حال قد تبدو غير ممكنة. وكانت معظم مقاطعات الإمبراطورية البيزنطية غير ماهرة عسكريًا بصورة متزايدة. وكانت مهمة حماية الحدود الفارسية مسئولية مشتركة لكل من حاميتي الكوفة والبصرة. وقام الجيش الأموي السوري بعمليات عسكرية على حدود طرسوس. أما إسبانيا فكان لها عالمها الخاص بها تحتفظ بجيوشها المحلية. وليس ذلك فحسب ولكن كما وصفنا كانت هناك ثغرة دائمة الاتساع تفصل جيوش العراق وسوريا الذين كانوا أحيانًا على أتم استعداد لمحاربة بعضهم بعضًا أكثر من العدو الأجنبي.

يمكن قبول بطء الاتصالات في هذه الأيام بوصفه تفسيرًا كافيًا لعدم المهارة من الناحية العسكرية ولكن نلاحظ أن الإمبراطورية الرومانية في عز مجدها كانت تسيطر على منطقة ضخمة، ولم تسمح بأي إجراءات محلية لتقييد سياستها الدفاعية. وهناك تفسيران يمكن أن يفسرا النجاح الكبير الذي حققه الرومان في هذا المجال العسكري: واحد منهما وهو

الأكثر أهمية: هو السرعة التي تم إنشاء الإمبراطورية العربية بها؛ فلقد توسعت روما في الغزو ببطء شديد لعدة قرون، وهكذا تكونت لديها أجيال من الخبراء في الوقت الذي وصلت فيه إلى أقصى مدى للتوسع. أما الإمبراطورية العربية فوصلت إلى أقصى اتساع لها في خلال سبعين عامًا وهي فترة غير كافية لكي تخرج من مجتمع قبائلي جاهل ولا يعرف القراءة والكتابة طبقة حاكمة من الأباطرة تمتلك عقلية واسعة بصورة كافية لكي تنظر في السياسات العالمية.

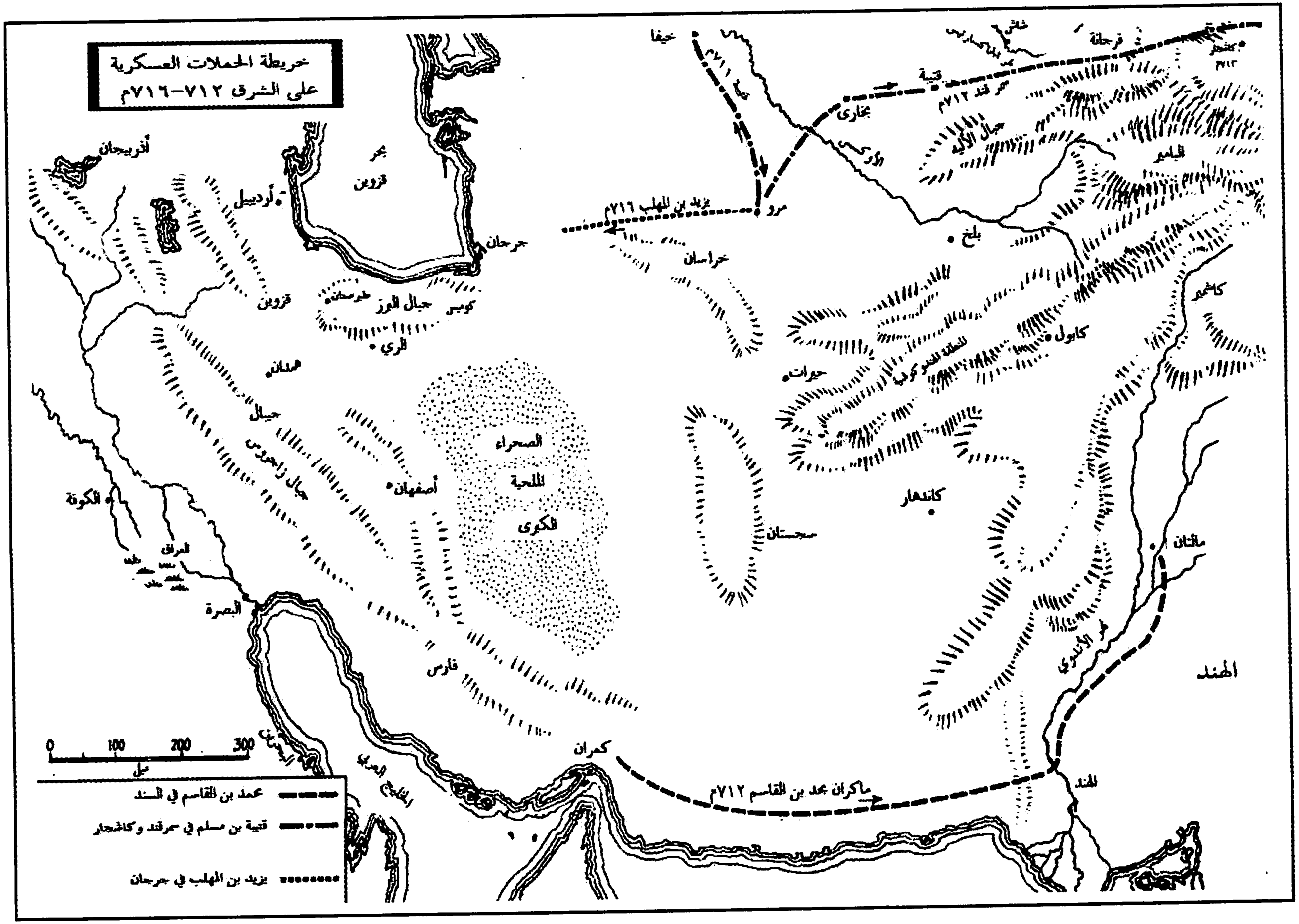
السبب الثاني وهو نتيجة على الأرجح للسبب الأول: ففي السنوات الأولى لم يكن أحد في روما يتوقع هذه المشاكل فقد كان العراقيون يجندون في فارس وكان الأمويون السوريون يقفون ضد بيزنطة لأنه في قمة الأحداث كانت هذه تبدو أسهل طريقة. وفيما بعد كان قد فات الأوان على ابتكار نظام مستقر للمناوبات العسكرية بالنسبة للجنود، وكانت الوحدات العسكرية العراقية ترسل إلى إسبانيا والعكس بالعكس. وحتى الآن استعملت روما هذه الأساليب العسكرية قبل ذلك بخمسمائة سنة. ونلاحظ على أية حال أنه حينما كانت الإمبراطورية الرومانية ضخمة كما كانت الإمبراطورية العربية فيما بعد، كانت تقيم مواقعها المميزة حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وكان أقصى اتساع لها هو ٢٦٠٠ ميل بينما كانت سيادة الخليفة على ٤٢٥٠ ميلًا. ونظرًا لأن الجيوش العربية الإقليمية كانت تعمل على حدودها الخاصة بها؛ فقد كان من غير الممكن أن تركز في هجوم عسكري كبير على عدو واحد في وقت محدد.

بعد تركنا الجيوش العربية تشق طريقها عبر آسيا الصغرى في عام ٧١٢ م يجب أن نعود لننظر في تقدم سير الأحداث على الجبهة الشرقية. وبعد أن قمع الحجاج الثورات في العراق وفارس أصبح الآن يتقدم وراء حدود الإمبراطورية. وفي عام ٧١١ م عين محمد بن القاسم الثقفي ابن عمه لكي يغزو الهند. وفي عام ٧١٢ م، وهو عام الانتصارات المدهش، عبر فيه موسى بن نصير إلى إسبانيا، وكان فيه العباس بن الوليد في منتصف المسافة إلى القسطنطينية، وهزم فيه محمدًا بن القاسم الثقفي ضاهرًا وقتله؛ وهو ملك السند البراهمي

في معركة ضارية، وفي عام ٧١٣ م استولى على مالتان وبسط سيطرته على معظم ما نسميه الآن غرب باكستان.

في تلك الأثناء ونتيجة للحملات العسكرية المنتصرة تمركز قتيبة بن مسلم في مرو وفي خراسان ثم عبر نهر الأوكسس واستولى على خيفا وبخارى. وفي عام ٧١٢ م حاصر سمرقند. وعندما ضاق المجال على المحاصرين بعثوا بنداء سري إلى شعب فرجانة يطلبون منهم أن يفاجئوا المعسكر العربي بهجوم ليلي في ليلة محددة، فقام جواسيس قتيبة بتبليغه بالخطة التي ينوونها مع تاريخ التنفيذ المقترح. وبعد أن حل الظلام في الليلة المذكورة بعث قتيبة بأربعمائة فارس سرًا خارجين من معسكره إلى الطريق الذي يأتي من فرجانة. وبعض هؤلاء اتخذ مكانه عبر الطريق بينما تخفت كتيبتان أخريان بالقرب من طريق أبعد منه قليلًا وفي ساعات الصباح القليلة كان جيش بارز من الفرسان الفرجانيين يركب عبر الطريق وهم يتصورون بأمل كبير أنهم سيفاجئوا المعسكر العربي بهجوم مباغت. ووجدوا أنفسهم فجأة يجرون نحو الكتل الخشبية التي وضعها العرب لإعاقتهم على الطريق ويهاجمونها بكل قوة وعندما تلاحم الطرفان العرب والترك في المعركة بصورة كاملة خرج صفان من الجنود العرب الذين كمنوا للترك وهاجموهم في المؤخرة فأبيد جيش الأتراك عن آخره. وعند شروق الشمس عاد الفرسان العرب الأربعمائة بخيولهم إلى المعسكر، وكل فارس معه رأس بطل من أبطال الترك يتدلى من سراج فرسه. وعكس سير أحداث فتح إسبانيا السهل وبعد خمسين عامًا من القتال على نهر الأوكسس حدثت معركة شديدة أسر فيها العرب عددًا قليلاً من الأسرى. وفي تلك المعارك التي حاصر العرب فيها أعداءهم نقرأ لأول مرة عن المسلمين، وهم يحملون رماحهم تحت أسوار مدينة أعدائهم. وأصبح العرب الآن يملكون جنودًا محترفين وعلى مستوى عالٍ من الكفاءة.

تم فتح سمرقند عام ٧١٢ م وكانت البوذية هي العقيدة السائدة فيها. وكان يوجد أيضًا المجوس أو عبّاد النار الذين كانت لهم معابد تحرق فيها النار المقدسة على حسب ما


خريطة الحملات العسكرية
على الشرق ٧١٢-٧١٦م
أذربيجان
أردبيل
بحر
قزوين
جرجان
قزوين
جبال البرز
كومس
الري
همذان
جبال
جبال زاجروس
أصفهان
الكوفة
العراق
البصرة
فارس
الصحراء
الملحية
الكبرى
خيفا
مرو
يزيد بن المهلب ٧١٦م
خراسان
بخارى
قتيبة
سمرقند ٧١٢م
جبال الألية
البامير
بلخ
هيرات
كابول
سجستان
كاندهار
كشمير
ملتان
نهر الأندوس
الهند
كمران
ماكران محمد بن القاسم ٧١٢م
السند
فرغانة
كاشغر
٧١٣
0
100
200
300
ميل
محمد بن القاسم في السند
قتيبة بن مسلم في سمرقند وكاشجار
يزيد بن المهلب في جرجان

يعتقدون فدمرها المسلمون وأمر قتيبة بتدمير كل الأصنام في المدينة، فحذر سكان المدينة المسلمين بأن تدنيس تلك الأصنام سينتج عنه فناؤهم، ولكن قتيبة لم يعبأ لكلامهم وحطم هذه الأصنام ثم أحرقها بيديه.

هناك نتيجة واحدة لفتح سمرقند أكثر أهمية من إحراق المعابد أو قطع رؤوس الأسرى، وهي أن المدينة كانت تضم مصنعًا لصناعة الورق وهي صناعة اخترعها الصينيون للمرة الأولى، وهذا المصنع جلبه إلى سمرقند مجموعة من الحرفيين الصينيين فنقل العرب هذه الصناعة إلى بغداد، ودمشق، والقاهرة، وشمال أفريقيا، وجزيرة صقلية، وإسبانيا. ولا تزال المخطوطات العربية المكتوبة في القرن التاسع والمصنوعة من الورق موجودة. ولم تنتشر هذه الصناعة في أوروبا إلا بعد أربعمائة سنة من استعمال العرب للورق فوصلت إلى الغرب في القرن الثاني عشر من خلال المصانع التي أقامها العرب في جزيرة صقلية وإسبانيا. وكان لحصول العرب على سر صناعة الورق من الصينيين أثره الكبير في الازدهار الكبير للعلم والثقافة بين العرب في القرن التاسع والعاشر كما سنرى في الفصول القادمة.

على الرغم من شدة هذه المعارك الطويلة في آسيا الوسطى فقد حقق العرب تقدمًا ثابتًا بقيادة قتيبة بن مسلم. ودخل عدد متزايد في الإسلام من بين سكان البلاد من الفرس والأتراك، وكان يصحب جيوش المسلمين عدد كبير من الداخلين في الإسلام من الجنود المحليين. وهذا التطور في الموقف ينسب إلى السياسة الحكيمة لقتيبة بن مسلم؛ فقد أدرك أن العرب لا يمكن لهم أن يأملوا في حكم هذه البلاد البعيدة في وسط آسيا حتى يأمنوا صداقة سكان هذه البلاد وتعاونهم. وكان قتيبة يعين مرارًا الفرس موظفين ونوابًا وأيضًا حكامًا محليين حتى شكاه بعض العرب من أنه يفضل سكان هذه البلاد علي العرب. ومن الجدير بالذكر أن كل نواب الخليفة الكبار على فارس مثل زياد بن أبيه وقتيبة بن مسلم والمهلب بن أبي صفرة كانوا حريصين على استمالة الفرس، ولكن جهودهم في ذلك السبيل كانت غير كافية للتغلب على الآثار السيئة لعجرفة كثير من القادة العرب.

في عام ٧١٢ م تقدم قتيبة إلى نهر الجاكسارتس مستوليًا على ساش وفيرجانا. وفي عام ٧١٣ م أغار على مدينة كاشجار في الأراضي الصينية عابرًا جبال شرق فيرجانا، واحتل الجيش العربي المدينة، واستولى على غنائم وأسر جنودًا. وتبعًا لرواية ابن الأثير تقدم الجيش العربي إلى ما وراء كاشجار إلى الصين. ومن سوء الحظ أنه لم ترد لنا أي رواية تفصيلية عن تلك الحملة بما فيها عبور بعض الجبال العالية في العالم.

بعد ذلك وردت إلى قتيبة رسالة من إمبراطور الصين يدعو فيها وفدًا عربيًا لزيارة البلاط الإمبراطوري. واختار قتيبة لهذا الغرض مجموعة تتكون من اثني عشر رجلًا مشهورين بهيئتهم الحسنة وفصاحتهم. وأمر بتسليحهم تسليحًا كاملًا وبعد أن أعطاهم أوامر شخصية منه بعثهم من كاشجار لمقابلة الإمبراطور. وقبل ذهابهم إلى اللقاء الأول مع إمبراطور الصين اغتسلوا ولبسوا أحسن ثيابهم وأشيكها وتزينوا بأطيب العطور. وكان عدد الحاضرين في المقابلة قليلاً ولم يتم أي حديث، ولكن بعد انصرافهم سأل الإمبراطور حاشيته عن رأيهم في الغرباء فردوا بأنهم كانوا يبدون كالنساء بملابسهم الأنيقة ورائحة العطر التي تفوح منهم.

في اللقاء الثاني لبس الموفدون العرب أحسن ثيابهم ولكن بطريقة أبسط. واستشار الإمبراطور مرة ثانية أفراد حاشيته فردوا بأنهم يبدون كالرجال أكثر. وفي المقابلة الثالثة ارتدى الموفدون العرب أسلحتهم وخوذاتهم، وكانت سيوفهم معلقة على جوانبهم، وأقواسهم محمولة على ظهورهم، وامتطوا خيولهم ورماحهم الطويلة في أيديهم اليمنى وعندما اقتربوا من قصر الإمبراطور رموا رماحهم على الأرض ونزلوا من على خيولهم وتقدموا إلى قصر الإمبراطور وهم مسلحون تسليحًا كاملًا. وكانت ملابسهم تبدو كأنهم مستعدون للقتال. وفي نهاية اللقاء ركبوا خيولهم واندمجوا في قتال مصطنع بالسيوف والرماح وكأنها معركة حقيقية. واستشار الإمبراطور أفراد حاشيته مرة ثالثة فردوا بأنهم بلا شك لم يروا مثل هؤلاء من قبل.

في النهاية روي أن الإمبراطور استدعى قائد الوفد العربي لمقابلة شخصية، وهي المناسبة الوحيدة التي يروي فيها مؤرخ عربي منطوق ما دار من حديث بينهما، قال الإمبراطور: «لقد رأيتم عظم ملكي»، كان ملكه يمتد إلى ألفي ميل من كاشجار «إنه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي وإني سائلكم عن أمر فإن لم تصدقوني قتلتكم». قال القائد العربي: «سل» قال: «لم صنعتم بزيكم الأول اليوم الأول والثاني والثالث ما صنعتم؟» فرد القائد العربي: «أما زينا في اليوم الأول فلباسنا في أهلنا وأما الثاني فزينا إذا أمنا أمراؤنا وأما الثالث فزينا لعدونا».

قال الإمبراطور: «ما أحسن ما دبرتم دهركم!» ورد الإمبراطور بلطف: «عندما تعودون إلى صاحبكم قولوا له أن ينصرف فإني قد عرفت قلة أصحابه وأطماعه ومن الأفضل له ألا يهاجمني وإلا بعثت إليكم من يهلككم».

قال القائد العربي بجرأة: «كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يطمع في هذه الدنيا التي لا تساوي شيئًا؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالًا إذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه».

رد الإمبراطور: «ماذا يريد صاحبكم؟» فرد هبيرة بن مشمرج الشجاع: «قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويضع الختم على رقاب ملوككم وتعطوا الجزية».

رد الإمبراطور برقة غاضبًا بشدة من كلامه عن الجزية: «فإنا نخرجه عن يمينه ونبعث إليه بتراب أرضنا فيطؤه ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها». تم إحضار صحن ذهبي بناءً على ذلك، ووضع فيه حفنات قليلة من التربة الصينية وأمر الإمبراطور بإحضار أربعة غلمان لمرافقة العرب حتى يضع قتيبة خاتمه على رقابهم ويردهم. وأهدى الإمبراطور أعضاء الوفد العربي هدايا ثمينة من الذهب والحرير من أجل سيدهم قتيبة بن مسلم لكي يخلصه من القسم الذي أقسمه بأن يأخذ الجزية من إمبراطور الصين.

هذه هي الرواية التاريخية الوصفية التي قدمها لنا الطبري. ومن المحتمل أن تكون هذه الحملة لها أهداف تجارية في الحقيقة. وكان سكان منطقة عبر الأوكسيانة يكتسبون ثروتهم من التجارة مع الصين. وربما تكون غارات العرب على مدينة كاشجار قد أنذرتهم. وأي حالة من الحرب بين العرب والصينيين ستنهي هذه التجارة وتؤدي إلى إفلاسهم ماليًا. وكان قتيبة متلهفًا إلى استمالة سكان هذه البلاد إليه، وقد يكون بعث هذا الوفد بناءً على طلبهم لكي يتأكد من عدم انقطاع هذه التجارة. وقد زارت عدة إرساليات البلاط الصيني بعد ذلك، أما المصادر الصينية فتؤكد على أن عام ٧١٣ م هو عام وفد قتيبة الذي أرسله، وتسجل هذه المصادر أن العرب رفضوا الركوع المعتاد لإمبراطور الصين.

بينما كانت رايات الحرب العربية المنتصرة ترتفع في إسبانيا وآسيا الصغرى والسند وآسيا الوسطى عيّن الوليد عام ٧٠٥ م شابًا بوصفه واليًا للمدينة المنورة، لم يكن مثل بقية أقرانه وجيله يهتم بالحرب. وكان عمر بن عبد العزيز ابن عم الوليد، وكان والده عبد العزيز بن مروان شقيق الخليفة عبد الملك بن مروان. وبمجرد وصوله إلى المدينة لكي يتبوأ منصبه استدعى القادة الدينيين والقضاة إلى منزله، وأبلغهم بأنه يريد أن يحكم فقط طبقًا لشريعة الله، والتمس منهم أن ينصحوه ويشيروا عليه باستمرار لكي يستدل بنصائحهم ويتبعها. ولأنه كان متواضعًا بشدة فقد سَرّ ذلك أهل المدينة ومكة؛ فبعد الحصار الكثير الذي فرض عليهم وقطع أعناقهم حتى أصبحوا يعتادون على ذلك في الخمس وعشرين سنة الماضية جاء ذلك الوالي.

في تلك الأثناء كان الحجاج بن يوسف الثقفي لا يزال يحكم الجزء الشرقي من الإمبراطورية بقبضته الحديدية. وصحيح أن الثورة والمقاومة قد توقفتا وأصبحت القوات النظامية والمنتصرة تغزو الصين والهند، ولكن الدم الذي سفكه المستبد لا يمكن نسيانه بسهولة. ولم يعد كثير من العراقيين يرغب في العيش في بلد يحكمها الحجاج؛ ولذلك فضلوا أن ينتقلوا إلى المدينة أو مكة حيث اكتشف الوالي الشاب التقي عمر بن عبد العزيز جهارًا سر الحفاظ على النظام دون سفك الدماء. وبقي عمر لمدة ستة أعوام واليًا على

المدينة وكان يكرس معظم أوقاته للدراسات الدينية، ومع ذلك فقد كان يعيش في راحة ولم تكن تنقصه المتع الدنيوية. وخلال هذه السنوات كانت هجرة العراقيين إلى المدينة تؤرق الحجاج الذي كتب إلى الوليد بن عبد الملك بعد ذلك يشكو من أنه تحت حكم عمر بن عبد العزيز أصبحت المدن المقدسة مراكز للتآمر ضده من طرف العراقيين المنشقين. وكان عبد الملك بن مروان وهو في مرضه الأخير قد رجا ابنه الشاب الوليد بن عبد الملك أن يسترشد بنصيحة الحجاج الخادم المخلص كليةً للأسرة الأموية. وقال: «يا بني إنك في حاجة إليه أكثر من حاجته إليك».

أخلص الوليد بن عبد الملك لنصيحة والده وكان يستجيب بلا نقاش لأي طلب يقدمه له الحجاج والي العراق وفارس. ولم يقرر الوليد فحسب عزل عمر بن عبد العزيز من منصبه ولكنه كان يولي في الوظائف من يرشحه له الحجاج. وعندما وصل الوالي الجديد إلى المدينة المنورة أصدر أوامره إلى كل العراقيين أن يعودوا إلى بلدهم على الفور أو يواجهوا عقوبة قطع الرأس المعتادة. وعاد عمر بن عبد العزيز عام ٧١٢ م إلى دمشق بدون تقديم أي احتجاج. وأصبح غضب العراقيين على وشك أن ينتهي لأن الحجاج مات في أغسطس عام ٧١٣ م بعد حكمه للأقاليم الشرقية من الإمبراطورية لمدة عشرين عامًا. وكان عمر عُمَر عند وفاته أربعة وخمسين عامًا.

يروي المسعودي قصة طريفة عنه؛ وهو أنه حينما كان واليًا على العراق زاره ابن عم له شاب من قبيلة ثقيف وسأله لماذا لا يولي عربًا أحرارًا مثله لكي يحكموا أهل المدن مثلًا؟ وكان الحجاج نفسه على قدر كبير من العلم يتكلم العربية بفصاحة ويقرض الشعر ويقتبسه وكان هذا الشاب القبلي الخشن لا يعرف القراءة والكتابة تمامًا، فرد الحجاج عليه: «أهل المدن الذين تتكلم عنهم يمكنهم أن يقرؤوا وأن يكتبوا وأن يتعلموا الحساب» ثم أوضح»: «أما أنت فإنك أمي ولا أظن أنك تستطيع الجمع أيضًا، فقال البدوي بغضب: «أنا أجرؤ على القول بأني أستطيع الكتابة والجمع مثلما يستطيعون»، فرد الحجاج وعيناه تومضان: «حسنًا دعنا نرى، كيف يمكن لك أن تقسم ثلاثة دراهم على أربعة؟».

للحظة ظهر البدوي مرتبكًا ثم رد بانشراح: «بالتأكيد يا أمير سأعطي درهمًا واحدًا إلى أول ثلاثة» ثم فتح كيسًا قذرًا مربوطًا بالحزام الخاص به «ثم أقدم للرابع درهمًا من كيس الدراهم الذي أملكه ولا يمكن لك أن تخدعني بحيل أهل المدينة هذه».

قهقه الحجاج من الضحك لهذه الفكاهة وقال: «أقسم بالله أن أهل أصفهان قد تأخروا في دفع الجزية لمدة ثلاثة أعوام ولم ينجح واحد من الحكام الذين بعثتهم في أن يجعلهم يدفعون شيئًا، فأنت أصلح رجل لهذه المهمة».

فرح الأصفهانيون المعقدون عندما وصل إليهم الوالي الجديد الذي لا يعرف القراءة والكتابة فمثل ذلك الساذج يمكن خداعه بسهولة ولذلك حيوه باحترام شديد وهم يقبلون يديه وقدميه.

سألهم الوالي الجديد بفظاظة: «لماذا لا تدفعون الجزية؟». فرد الأصفهانيون وهم يتندرون بشدة على سذاجة هذا الوالي القروي: «لقد ظلمنا الوالي السابق» فرد الوالي: «حسنًا ماذا تنوون أن تفعلوا الآن؟»، فقالوا له بوقاحة: «قدم لنا مهلة ثمانية شهور وسنجمعها» فقال الوالي البدوي «خذوا عشرة شهور،ولكن قدموا لي أسماء عشرة ضامنين لي بذلك». وعندما انتهت فترة العشرة شهور بعث الوالي إلى الضامنين يطلب مبلغ الجزية فقدموا كل الأعذار القديمة: «لقد كان موسم الزراعة سيئًا وركدت أعمالنا وتوقف المطر عن النزول في الشتاء»، فقال الوالي: «اقطعوا رأس أول الضامنين وعلقوها على باب مقر الوالي» .

بعد ساعات من قطع رأس أول الضامنين لحق الضامن الثاني بالأول، وقبل قطع رأس الثالث كانت متأخرات أربعة أعوام من الجزية تدفع. وأثبت هذا الرجل البدوي نجاحًا كبيرًا في مهمته كوالٍ لأصفهان لعدة أعوام بعد ذلك.

أصبح اسم الحجاج بن يوسف الثقفي في التاريخ نموذجًا لطاغية قاسٍ. وكان البعض يتهمه بالقسوة والسادية (*). وبغض النظر عن الكثيرين الذين أعدمهم يروى عنه أنه ملأ

(*) (الذي يتلذذ بتعذيب الآخرين – المترجم).

السجون بالنساء والرجال على حد سواء. وهناك آخرون من الذين لا يحبون العراقيين يقولون بإعجاب بأنه كان الرجل الوحيد الذي تعامل معهم كما يستحقون. وصحيح أن أهل الكوفة كانوا مشهورين بتقلبهم وتحريضهم على الثورة، ولكن للتعامل مع هذه العيوب تم ترقية ثلاثة من الحكام المستبدين: زياد بن أبيه، وعبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف الثقفي. وكل من هؤلاء قدم للعراق وفارس سنوات عديدة من السلام والأمان، في حين أنه عندما تولى حكام معتدلون ناصية هذا البلد عادت الفوضى. وهؤلاء الثلاثة السابقون أثبتوا مقولة أن العراقيين لا يمكن حكمهم إلا بالقوة، وهذه المقولة لا تزال إلى حد ما تنتاب السياسة العربية. ولم يثبتها فقط المسلمون الأوائل ولكن أثبتها معاوية مؤسس خلافة بني أمية والذي سمح بقدر معقول من حرية الرأي، وكان الخليفة الوحيد الذي لم تقم أية ثورة ضده.

كما قلنا من قبل أوصى عبد الملك بن مروان بأن يكون الوليد بن عبد الملك هو خليفته ويعقبه ابنه الثاني سليمان بن عبد الملك. وكان المسلمون قد بايعوا الاثنين. وقبل وفاة الوليد بعامين حاول أن يقصي أخاه سليمان عن الخلافة، وكما روينا لم يكن الاثنان على وفاق وذلك لكي يؤمن البيعة لبنه الوحيد بوصفه وارثًا له. ورفض سليمان أن يتخلى عن حقه في الخلافة. وكتب الوليد إلى ولاة الأقاليم بمبايعة ابنه فلم يستجب إلى ذلك إلا الحجاج وقتيبة بن مسلم في خراسان. وفي دمشق قرر عمر بن عبد العزيز الشاب والوالي التقي السابق للمدينة المنورة أن يبايع سليمان بن عبد الملك وألاّ يرجع في ذلك، فأمر الوليد بن عبد الملك بسجنه.

مات الوليد فعلًا في نهاية فبراير عام ٧١٥ م وعمره ستة وأربعون عامًا بعد أن حكم لمدة عشر سنوات تاركًا وراءه تسعة عشر ابنًا. وكان عصره سلسلة لا تنتهي من الانتصارات العسكرية. وفي خلافته توسعت الإمبراطورية بسرعة أكثر من أي فترة أخرى قبله إلا في عصر عمر بن الخطاب من عام ٦٣٤ م إلى ٦٤٤ م. وعلى الرغم من أن الوليد لم يتول قيادة جيوشه شخصيًا فإن أبناءه وأخاه مسلمة بن عبد الملك بخاصة كانوا يشتركون في القتال

ضد البيزنطيين. ومع أن الوليد لم يقد جيوشه بنفسه فإن حكمته وسيطرته الكاملة على مقاليد الأمور كانت السبب في السلام الداخلي الذي عم الإمبراطورية، وبالتالي في التوسع الخارجي. وكان أعداؤه يتهمونه بالعناد والاستبداد والطغيان أما أصدقاؤه فينسبون إليه صفة القوة والعزيمة. وكان غنيًا وينفق الأموال الكثيرة على المباني والمرافق العامة.

ترتبط ذكراه بذكرى توسعة وتزيين الجامع الكبير في دمشق. وقام كل الخلفاء الأمويين بتوسعة العاصمة دمشق وتطويرها ولكن الوليد بن عبد الملك كان أكثرهم في ذلك. وقام خلفاء بني أمية بشق القنوات وتنظيم الري من مياه نهر بردى التي تتدفق من خلال المدينة حتى إن كل منزل في المدينة كان له نافورة وحوض مياه من الرخام في فنائه. وكما يصف أحد المؤرخين العرب القدامى فإن قصر الخليفة كان مبلطًا بصورة كاملة بالرخام الأخضر. وفي وسط فنائه كان يوجد حوض ماء كبير يروي الحديقة حيث كان يوجد فيها كل أنواع النباتات والأشجار الجميلة، وتغرد فيها بلابل كثيرة وكان تغريدها الذي كان يشبه أجمل الألحان يملأ حديقة القصر بالبهجة والحيوية.

كما يصف فون كريمر فإن قصر الخليفة كان يضيء من الذهب والرخام وكان الموزاييك الجميل يزين الجدران والأرضيات ونوافير المياه تتدفق باستمرار والشلالات الصغيرة تنشر المياه المعطرة وخريرها اللطيف يؤدي إلى النوم المنعش. وكانت أسقف الحجرات تتلألأ من الذهب. وفي الحجرات الداخلية كانت تعيش أجمل النساء في العالم.

كان الوليد بن عبد الملك محبوبًا بصورة خاصة في سوريا حيث خصص أوقافًا لصالح الفقراء والذين فقدوا أبصارهم والمجذومين. وكان مهتمًا بصورة خاصة بتشجيع الصناعة ولكن كان الاهتمام بالعمارة هو هوايته الأساسية.

كان لا يلتزم بالنحو في كلامه لأنه رفض أن يهتم بدروسه عندما كان صغيرًا. وأخبر والده عبد الملك بن مروان المتساهل مدرسيه بأن يتركوه في حاله. ولكن طريقته غير النحوية في الكلام مع ذلك سببت الحرج لعبد الملك بن مروان الذي كان يتكلم بالفصحى. وروي أن عمر بن عبد العزيز عندما كان واليًا على المدينة المنورة كان الوليد بن عبد الملك يقوم بأداء

مناسك الحج ويخطب في المسجد النبوي. وأثناء خطبته اقتبس آية من القرآن ﴿يا ليتها كانت القاضية﴾ ولم يكمل الكلام. وكان عمر بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك شقيق الوليد يقفان أسفل المنبر فصاح سليمان «بالله عليك هل هذا يليق؟». ومن الجدير بالذكر أن هيمنة اللغة العربية على الناس كانت موجودة في ذلك الزمان.

عمومًا كان الوليد حاكمًا متمرسًا وجادًا، حققت الإمبراطورية في عصره أعلى قمة مجدها. أما النقد الموجه ضده فبسبب قسوة الحجاج الذي كانت تصرفاته يؤيدها الوليد بلا تحفظ.

بويع سليمان بن عبد الملك خليفة في رام الله بفلسطين في اليوم الذي توفي فيه الوليد بن عبد الملك في دمشق في فبراير عام ٧١٥ م. وفي الحال تم خلع الذين أيدوا الوليد بن عبد الملك من مناصبهم بينما تم ترقية هؤلاء الذين ثاروا عليه. وكان الحجاج محظوظًا بصورة كافية لأنه مات قبل وفاة الوليد. ونحب أن نذكر أن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي سجنه الحجاج قد هرب من محبسه ولجأ إلى سليمان بن عبد الملك؛ حيث رحب بهؤلاء الذين كانوا ممتعضين من حكم الوليد. كان الوليد بن عبد الملك قد أمر سليمان أخاه مباشرة بتسليم يزيد الهارب، ولكن تبعًا للتقاليد العربية على المضيف أن يدافع عن ضيفه ولذلك رفض سليمان ذلك. وكان التوتر بين الخليفة وأخيه ينذر بأن يتطور إلى الاقتتال، ولكن عرض يزيد بن المهلب أن يسلم نفسه من أن يكون سببًا في حرب أهلية بين الخليفة وأخيه، وبعد ذلك سلم يزيد نفسه ولكن سليمان بعث بنه معه مقيدًا بالقيد نفسه لكي يرجو الخليفة ألا يدنس شرفه كعربي بإلحاق أي أذى بضيفه. واعترف الوليد بعدالة مطلبه وأطلق يزيد.

حاول الوليد بن عبد الملك أن يضمن البيعة لبنه بوصفه وارثًا للخلافة، فبعث إلى حكام الولايات بذلك فلم يرحب بذلك إلا الحجاج وقتيبة بن مسلم. ومات الحجاج بعد ذلك ولكن قتيبة بن مسلم كان لا يزال يقود الجيش على حدود الصين. وعندما وصلت الأخبار بوفاة الوليد واستخلاف سليمان بن عبد الملك توقع الموت وخراب الأمور

فاستشار إخوته وأصدقاءه، فأشار الكثير منهم عليه بأن يقوم بالعصيان الفوري للخليفة الجديد فهو في منطقة خراسان البعيدة ومعه جيش منتصر يؤيده، لذلك فهو بعيد جدًا عن سلطة الخليفة في دمشق.

في لحظة مأساوية قبل قتيبة نصيحتهم فجمع الجنود وألقى خطبة خلع فيها الخليفة الجديد وناشد الجيش أن يؤيده في خلعه للخليفة وصاح في الجيش: «انسبوني ستجدوني عراقيًا في كل شيء عراقي الأم عراقي الأب عراقي المولد وعراقيًا في تفكيري ومشاعري وفي ولائي ولا تسمحوا للأمويين بأن يأتوا ويدمروا بلادكم. وانظروا كيف أنكم هنا تعيشون في رخاء في خراسان حيث يستتب الأمن العام والطرق الآمنة والتجارة المزدهرة بينما كانت تحتدم الحرب قبل ذلك، فإنكم الآن يمكنكم أن تسافروا بدون خوف أو منع إلى بلخ وبخارى وسمرقند. قفوا بجانبي ولن نسمح للأمويين أن يدخلوا».

عندما أنهى قائد الجيش قتيبة خطبته لم يكن الجيش متهللًا ونظر كل واحد من الجنود إلى الآخر وقالوا بريبة وشك: «ما يقوله ويعلنه هذا الرجل هو خلع للطاعة، وهذا جلب على البلاد محنًا لا يمكن وصفها في الماضي». ومن المهم أن نلاحظ أن رجال الكوفة والبصرة في الجيش كانوا يشكلون أقلية فحسب، وكان معظم جنود الجيش من القبائل البدوية. ويصف الطبري تشكيل الجيش في خراسان في ذلك العصر كما يلي:

٩٠٠٠ جندي.......... عدد جنود البصرة

٧٠٠٠ جندي.......... عدد جنود الكوفة

٧٠٠٠ جندي.......... من بني بكر

١٠٠٠٠ جندي......... من أسد

١٠٠٠٠ جندي......... من بني تميم

٤٠٠٠ جندي........... من عبد القيس

٧٠٠٠ جندي........... من موالي الإسلام ومعتنقيه المحليين

٥٤٠٠٠ جندي

بصرف النظر عن الأربعة والخمسين ألف رجل فإن ستة عشر ألفًا كانوا من الكوفة والبصرة. ولابد أن محاولات قتيبة المضنية لزرع الشقاق بين السوريين والعراقيين قد وصلت إليهم، ولكنها على الأرجح وجدت استجابة قليلة من رجال القبائل. ولما شعر قتيبة بأن دعوته لم تلق نجاحًا فقد أعصابه واندفع يذم بني بكر وبني تميم وعبد القيس وأسد ذاكرًا كل قبيلة باسمها. ولا يمكن لشيء أن يثير هؤلاء الرجال الجبارين العاطفيين إلى درجة شدة الغضب من نقطة الشرف. فالقائد الذي تبعوه إلى الانتصارات لسنوات عديدة يذمهم الآن بأشنع الألفاظ. وكان كل شيء قد انتهى بالنسبة إليهم فلا شيء قد بقي إلا إزالة الإهانات بالدم.

كان المعسكر مضطربًا وجرى كل واحد لكي يحمل سلاحه، وكان هناك من يصرخ وهناك من يجادل. وأدرك قتيبة أنه قد قدم بنفسه سند موته، فتراجع وجلس في خيمته. وفي أول الأمر أراد أن يمتطي فرسه، ولكنه أدرك أن ركوب فرسه لا يفيد فقام بارتداء وشاح كانت والدته قد بعثته إليه ذات مرة وكان دائمًا ما يرتديه في الحروب. (من الغريب أن نجد مثل ذلك المقاتل الشديد البأس في الحروب عاطفيًا جدًا). وارتفع صوت الجنود المتمردين عليه فجلس قتيبه بهدوء على الوسادة وكان هؤلاء الرجال دائمًا يعرفون ما سيموتون عليه. وأحاط الجنود المشاغبون بالخيمة فهرب بعض جنود الحرس المحيطين به وهجروه فوقف قتيبة وواجه جنوده وتلا هذه الأبيات:

أعلمه الرماية كل يوم

فلما اشتد ساعده رماني

بعد ذلك اندفع الجنود الغاضبون إلى الخيمة التي هو فيها وفي دقائق قليلة كان كل شيء قد انتهى وقتل قتيبة الذي كان قائدًا عسكريًا قديرًا فقد انتصر في كل معاركه على مقاتلين أشداء. وأكثر من ذلك خاض حملات عسكرية في بلاد نائية ووعرة على سطح الأرض حيث كان مضطرًا إلى الاعتماد كلية على حسن تصرفه. ولا نعلم لماذا تصرف بتلك الطريقة، وقد يكون مقبولًا أن يطلع على أسرار وخبايا بطريقة تجعل سليمان بن عبد الملك يريد أن يقتله وبالتالي كانت وسيلته الوحيدة للبقاء حيًا أن يحمل جيشه على خلع الخليفة.

بمقتل قتيبة وموت الحجاج توقف تقدم المسلمين إلى آسيا الوسطى لمدة خمسة وعشرين عامًا؛ فهذين القائدين البارزين لا يمكن لأحد بسهولة أن يحل محلهما. بمجرد مبايعة سليمان بن عبد الملك كخليفة في دمشق عين يزيد بن المهلب حاكمًا على العراق. ولاعتقاد يزيد بأنه كخليفة للحجاج لن يكون عمله سهلًا أقنع الخليفة أن يعفيه من هذا المنصب وأن يختاره حاكمًا لخراسان خلفًا لقتيبة بن مسلم. ونذكر أن والد يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة المعروف قد شغل هذا المنصب نفسه. وكان سكان جرجان من الأتراك وكانوا يصعبون الأمور على العرب بالإغارة على كومس وطبرستان. ونلاحظ أن وسط فارس كان عبارة عن صحراء ملحية كبرى تصل إلى مدى مائة ميل من الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين. وهذا الممر الضيق الذي يصل اتساعه إلى مائة ميل عبارة عن جبال تسمى جبال البرز. وعند الإغارة على هذه المنطقة كان سكان جرجان قادرين باستمرار على قطع الاتصالات بين الري وخراسان وكنتيجة لوعورة هذا الممر كانت الاتصالات العربية مع خراسان تسير في ذلك الممر من البصرة إلى فارس وكرمان.

قرر يزيد بن المهلب أن يتعامل مع سكان جرجان الأتراك؛ فبعث حملة عسكرية شديدة البأس إليهم فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة في المعركة وقتل الأسرى، وباع النساء والأطفال عبيدًا. وبعث بغنائم تقدر بأربعين مليونًا أو أكثر من الدراهم إلى الخليفة في دمشق وهي نسبة الخمس الشرعية. وفي رسالته التي بعث بها إلى الخليفة يبلغه بنجاح الحملة افتخر يزيد بأنه لا سابور ولا كوسريوس الأباطرة السابقين لفارس قبل الإسلام

ولا عمر بن الخطاب ولا عثمان بن عفان ولا أحد من الخلفاء الراشدين الفاتحين نجح في إلحاق الهزيمة بالأتراك. وعلى طول الحدود الشرقية من بحر قزوين إلى نهر الأندوس كان العرب قد تجاوزوا حدود فارس واشتركوا في معارك في كل مكان مع الأتراك والمغول والصينيين والهنود. ووقفت حملة يزيد العسكرية على حدود جرجان عام ٧١٦ م و ٧١٧ م.

تواريخ بارزة

- ٦٨٥ م تنصيب جوستنيان سليتنوز إمبراطورًا لبيزنطة.

- ٦٨٥ م مبايعة عبد الملك بن مروان خليفة للمسلمين.

- ٧٠٥ م وفاة عبد الملك بن مروان.

- ٧٠٥ م مبايعة الوليد بن عبد الملك خليفة.

- ٧١١ م وفاة جوستنيان سليتنوز.

- ٧١٣ م تنصيب أناستاسيوس الثاني إمبراطورًا.

- ٧٠٥ – ٧١٠ م تولية عمر بن عبد العزيز واليًا للمدينة.

- ٧١٢ م عام الانتصارات:

- موسى بن نصير يغزو إسبانيا.

- العباس بن الوليد يستولي على إنطاكية في بيسديا.

- قتيبة بن مسلم يفتح سمرقند.

- حملة محمد بن القاسم العسكرية في الهند.

- ٧١٥ م وفاة الوليد ومبايعة سليمان خليفة.

- ٧١٦ – ٧١٧ حملة يزيد بن المهلب العسكرية على جرجان.

الشخصيات

الخلفاء

- عبد الملك بن مروان
- الوليد بن عبد الملك
- سليمان بن عبد الملك
- مسلمة بن عبد الملك القائد العربي على الحدود البيزنطية
- موسى بن نصير القائد العربي في إسبانيا
- قتيبة بن مسلم القائد العربي على الحدود الصينية
- محمد بن القاسم القائد العربي على الحدود الهندية
- الحجاج بن يوسف والي العراق وفارس
- يزيد بن المهلب الذي سجنه الحجاج وولاه سليمان بن عبد الملك واليًا على خراسان
- عمر بن عبد العزيز والي المدينة المنورة
- جوستنيان الثاني سليتنوز الإمبراطور البيزنطي

الفصل التاسع

الخليفة الطيب

تعزى مقاومة القسطنطينية إلى كفاءة النار اليونانية وهذا التطور في الفنون الحربية كان يميز تلك الفترة الكئيبة، التى كان فيها الرومان الفاسدون غير قادرين على مواجهة الحماس الحربي والقوة الشديدة للعرب.

(جيبون– ضعف وسقوط الإمبراطورية الرومانية)

كان رأيه خاصًا به ومع أنه لم يكن رأى الشعب فقد كان مستعدًا أن يثبت أن الحق في الحكم ليس تشريفًا ولكنه تكليف.

(تشارلز جيمس فوكس)

إن الشهامة في السياسة ليست من الحكم البالغة، والإمبراطورية الكبيرة والعقول الضيقة الأفق يسيء بعضهما إلى بعض.

(إدموند بيرك)

هل هناك من يفهم الرجال بينكم؟ إذا كان قلبكم مفعمًا بالغيرة والعداوة، عندئذ لا تفتخروا بحكمتكم...؛ لأنكم أينما وجدتم الغيرة والعداوة ستجدون أيضًا التنازع وكل أنواع الشرور والحكمة تأتي من الله... وحب السلام واللطف متلازمان ومفعمان بالأفكار المتسامحة.

(جيمس الثالث عشر، ١٣-١٧)

عندما يروى أن الملك رجل طيب يفشل الحكم.

(نابليون بونابرت)

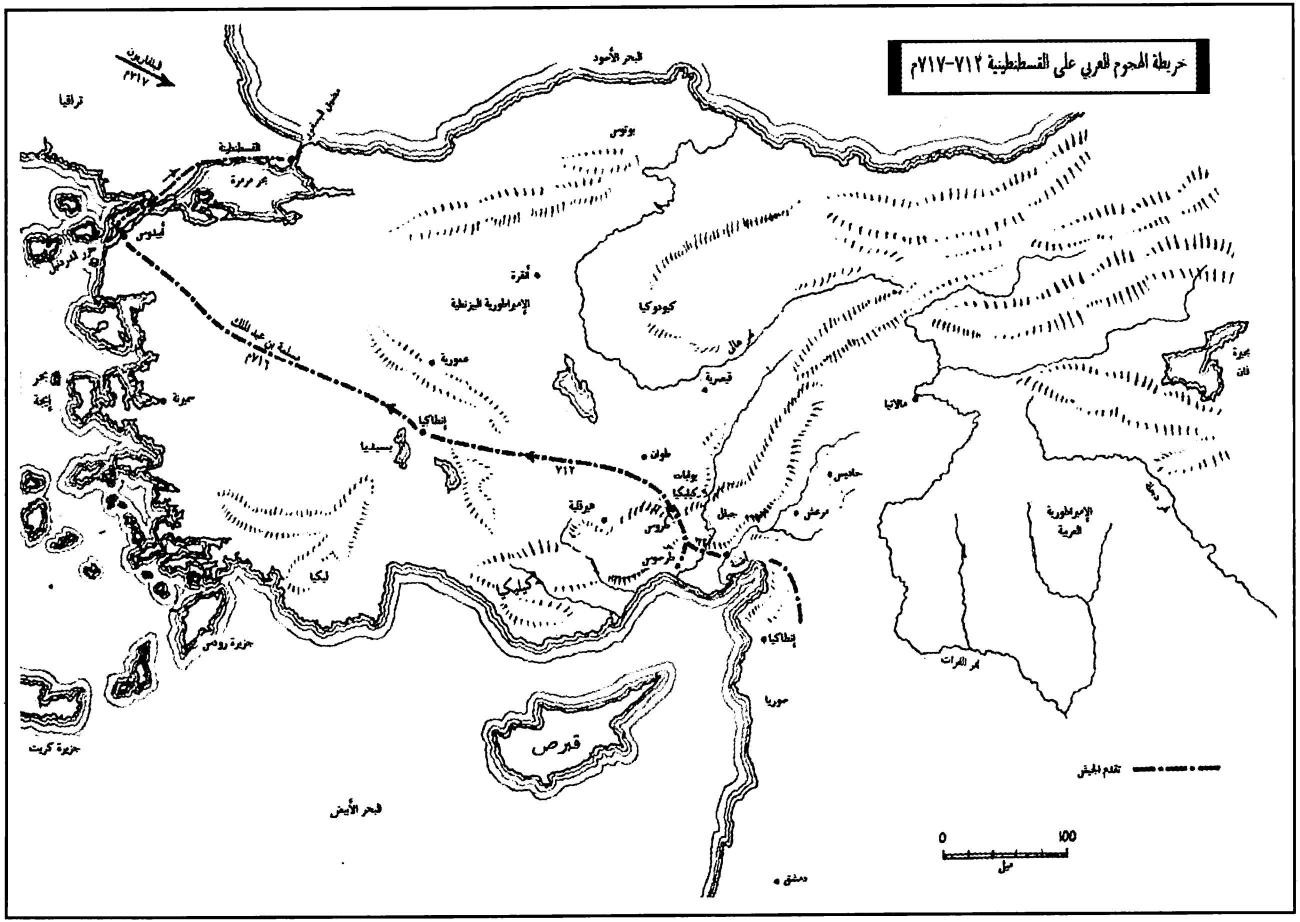
كان أكبر عمل تم في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك هو حصار القسطنطينية. وكان الذي يشجعه على ذلك هو نبوءة تزعم أن عاصمة الإمبراطورية البيزنطية سيفتحها المسلمون في عصر حاكم يحمل اسم نبي. وروينا قبل ذلك أن الجيوش العربية قد شقت طريقها عبر آسيا الصغرى إلى بعد يصل إلى مائة وخمسين ميلًا من القسطنطينية في عصر الوليد بن عبد الملك، وكان الذي يسهل تقدمها بصورة كبيرة الظروف الفوضوية السائدة في الإمبراطورية البيزنطية أثناء عصر جوستنيان الثاني سليتنوز. ولكن بعد مقتل الأخير ساءت الاضطرابات أكثر في الإمبراطورية.

نجح القائد الذي قاد الثورة التي خلعت الإمبراطور عن العرش في فرض سيادته. وبعد أن حكم لمدة ثمانية عشر شهرًا فقط، تم اغتيال مغتصب العرش فيليبيكوس نفسه واتخذ الإمبراطور الجديد وسط مطالب شعبية لقب أناستاسيوس الثاني. وخلال حكمه القصير وصلت معلومات إلى القسطنطينية عن الاستعدادات الكبيرة التي تسير قدمًا في سوريا نحو الاستيلاء الكامل على بيزنطة. واتخذت الحكومة البيزنطية احتياطاتها بالتزود بكميات كافية من الأغذية داخل أسوار المدينة وأمرت الضعفاء والعجزة بمغادرة المدينة. وتم إصلاح الأبراج الواسعة والتحصينات وتعليتها وجمع مخزون كافٍ من الأسلحة وقذائف اللهب والذخيرة الحربية وتم توسيع الأسطول بالتدشين السريع لسفن إضافية.

في عام ٧١٦ م تم خلع أناستاسيوس من العرش وتولية موظف حكومي غير معروف يسمى تيودوسيوس كإمبراطور. وعندما اقترب مسلمة بن عبد الملك قائد الجيش العربي من القسطنطينية تحولت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية إلى فوضى عارمة. والآن في لحظات الأزمات الشديدة يولِّد الإحساس بالخطر رجلًا يقوم بإنقاذ الدولة.

كان هذا الرجل هو ليو الملقب بالآزوري الذي كانت نشأته متواضعة؛ فقد ولد عام ٦٨٠م على حدود سوريا بالقرب من مرعش. ويزعم المؤرخون بأنه كان يتكلم العربية بطلاقة وكان قد حقق مكانة عسكرية كبيرة في الجيش البيزنطي وعينه أناستاسيوس الثاني قائدًا للجيش الشرقي، الذي كان مكلفًا بالدفاع عن أرمينيا. وعندما اغتصب تيودوسيوس العرش من أناستاسيوس زحف ليو بجيشه إلى القسطنطينية وخلع تيودوسيوس من العرش وألجأه إلى دير، وتم تنصيب الآزوري إمبراطورًا وحمل لقب ليو الثالث. ولم يضيع مسلمة لحظة واحدة فعبر الموانع المائية في أبيدوس على جزر الدردنيل واتجه إلى تراقيا لكي يهاجم المدينة من جهة الغرب ومعه ثمانون ألف رجل. وكان الخليفة قد أمره أن يواصل حصار القسطنطينية حتى تسقط مهما كان الثمن. ولكي يؤكد عزمه على ذلك أمر مسلمة كل فارس في الجيش بأن يحمل زكيبتين من بذور الحبوب على فرسه. وبمجرد أن وقف الجيش على أسوار المدينة حرث الجنود المحاصرون التربة خارج معسكراتهم وبذروا البذور التي أحضروها معهم، وقرروا أن ينتظروا وقت الحصاد حتى يحين وقت الانتصار. وحفر الجنود خنادقهم أمام أسوار المدينة وأقاموا أكواخًا خشبية لكي تستوعب قذائف العدو وأعدوا الأبراج المتحركة وقذائف المنجنيق استعدادًا للهجوم.

كان الموقف يائسًا بالنسبة للبيزنطيين لدرجة أن الإمبراطور ليو قرر أن يجرب الدبلوماسية على أمل الوصول إلى تفاهم، أو الحصول على وقت كافٍ؛ فبعث برسالة إلى مسلمة يطلب فيها إرسال مبعوث سياسي؛ لكي يعرض عليه جزية عبارة عن قطعة ذهب واحدة عن الفرد لكل سكان المدينة، إذا وافق العرب على رفع الحصار عن المدينة. فرد المبعوث العربي ابن هبيرة: «نحن نقاتل من أجل الدين وليس للمكاسب الدنيوية»، فرد ليو: «صحيح أننا وأنتم في الماضي قاتلنا من أجل الدين ولكن الآن لم يعد هذا صحيحًا فنحن نقاتل من أجل السلطة والدولة»، وهذا الرد كان صحيحًا بقدر ما كان بنو أمية مهتمين بذلك وعلى أية حال، فإن عرض الفدية المالية تم رفضه وبدأ الحصار جديًا. وكانت مدينة بيزنطة أو القسطنطينية مبنية على نتوء جبلي ضيق محاط بالمياه من ثلاثة جوانب. أما الجانب الرابع فكان تحميه أسوار كبيرة وأبراج، وعلى الرغم من أن المدينة كانت تتعرض للهجوم

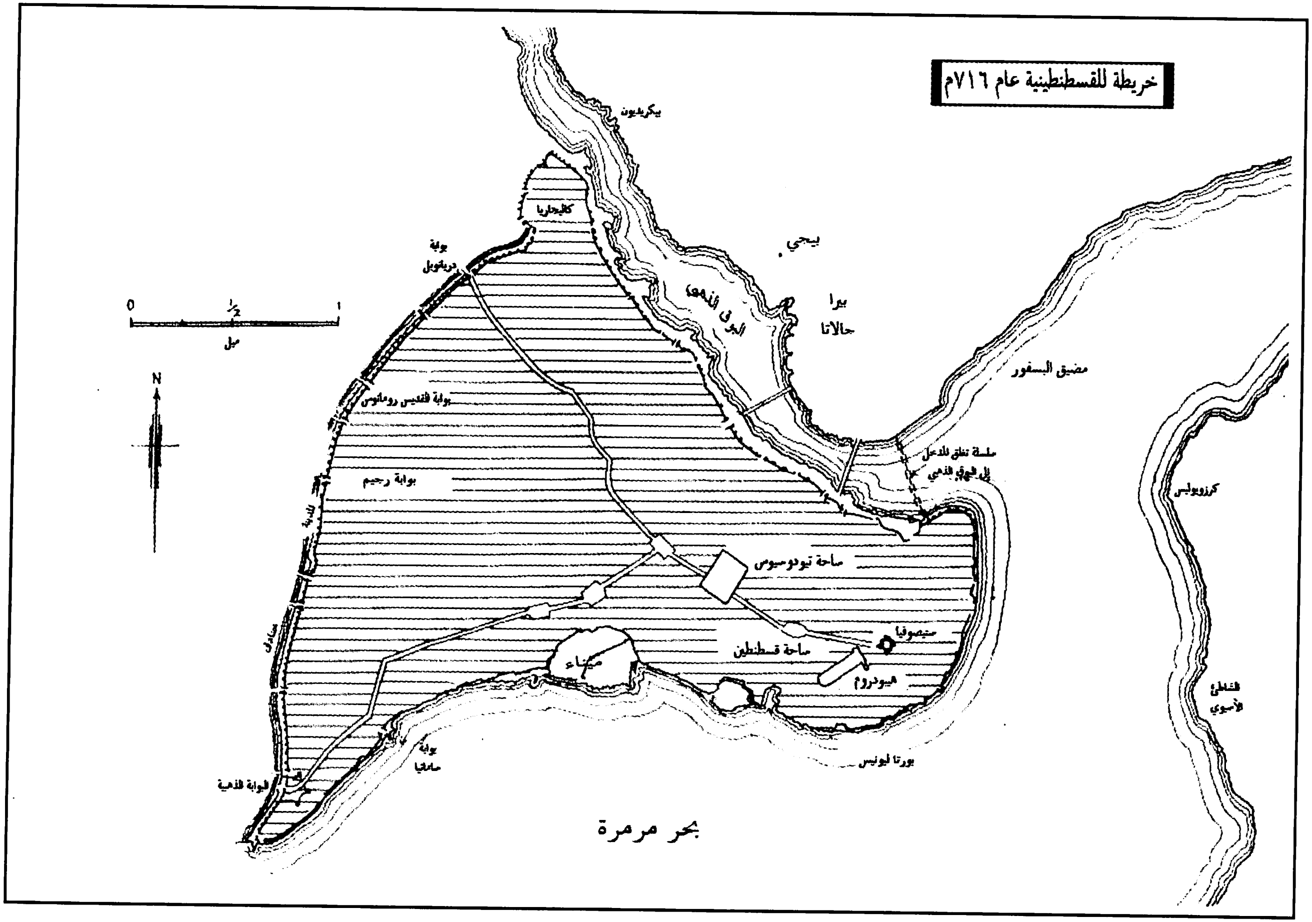


خريطة الهجوم العربي على القسطنطينية ٧١٢-٧١٧م
تراقيا
البحر الأسود
بونتوس
القسطنطينية
بحر مرمرة
أبيدوس
أنقرة
الإمبراطورية البيزنطية
كبدوكيا
عمورية
مسلمة بن عبد الملك
٧١٦م
قيصرية
ملاطية
إنطاكيا
بسيديا
طوانة
٧١٢
هرقلة
طرسوس
مرعش
ليكيا
كيليكيا
الإمبراطورية العربية
نهر الفرات
إنطاكيا
سوريا
قبرص
البحر الأبيض
جزيرة رودس
جزيرة كريت
دمشق
تقدم الجيش
0
100
ميل

لمدة ألف سنة، فإنه لم يتم فتحها عن طريق الهجوم حتى سقطت في أيدي الترك العثمانيين عام ١٤٥٣ م. وفي الحقيقة كانت هذه المدينة منيعة على جيوش القرن الثامن الميلادي.

بعد وصول الجيش العربي أبحر الأسطول العربي خلال جزر الدردنيل وعبر بحر مرمرة؛ لكي يواصل حصار المدينة من البحر كما أن الجيش كان يحاصرها من البر، فقام البيزنطيون بسحب سلسلة عبر المدخل إلى البوق الذهبي. وعندما كان الأسطول العربي يتخذ موقعه تجاه المدينة أرخيت هذه السلسلة فكان أسطول من السفن البيزنطية يطلق قذائف النار الإغريقية المشهورة التي كانت تصب حممها على الأسطول العربي، الذي كان يعاني من كارثة بحرية كاملة. وكانت تكتيكات العرب في البحر تعتمد كلية على الهجوم والاشتباك مع سفن الأعداء، ومن هنا تحول التلاحم معها إلى اشتباك فردي ضارٍ كان العرب يألفونه على البر. ولكن هذا التكتيك كان متعذرًا ضد السفن المزودة بحاملات اللهب. وكانت السفن اليونانية مزودة بفوهة في مقدمتها كان ينطلق منها تيار من اللهب، وفي وقت الأزمة تطلق النار على سفن الأعداء قبل أن ترسو. وكان السائل القابل للاشتعال نفسه يستعمل على قاذفات مربوطة بقماش كتاني، وهذا القماش كان مشبعًا بزيت قابل للاشتعال. وكانت القذيفة تطلق من منجنيق، عندما كان القماش الكتاني يشتعل، وتنطلق في الهواء مربوطة باللهب وكانت تحدث صوتًا صاخبًا ومتميزًا. ويمكن صب سائل اللهب من حصون في المدينة على القوات العسكرية التي تحاول تسلق أسوار المدينة.

ونتيجة لانتصار دفاعي غير عادي أصبح سر السائل الذي أشعل النار الإغريقية تحتفظ به السلطات البيزنطية لمدة أربعمائة سنة، حتى حصل عليه المسلمون بعد ذلك واستخدموه ضد الصليبيين. وبعد اكتشاف البارود في القرن الرابع عشر قلت أهمية النار الإغريقية التي سبقته بسبعة قرون، وإذا لم تكن هذه النار متاحة للبيزنطيين في ذلك الزمان لأصبح العالم الذي نعيش فيه اليوم مختلفًا؛ لأن كثيرًا من المؤرخين يعتقدون أنه بدون هذه النار لم تكن بيزنطة لتصمد أمام الهجمات العربية، والذين لو أتيح لهم فتح عاصمة الشرق لكانوا قد أبحروا إلى أوروبا. ولم تستطع الحكومات البربرية لليونان وإيطاليا وبلاد الغال



خريطة للقسطنطينية عام ٧١٦م

(فرنسا) إلا بشق الأنفس مقاومة تقدم المسلمين الشديد خصوصًا أنه في الوقت نفسه كان العرب والبربر الإسبان يغزون جنوب فرنسا.

مثل تلك الأفكار التي يرويها المؤرخون تعتبر ذات أهمية أكاديمية بحتة اليوم. ويكفي أن نقول إن ليو الآزوري بتدميره للأسطول العربي انتصر في أول معركة تحاصر فيها مدينته. والأمر الثاني هو أن الانتصار تحقق في فصل الشتاء. وكان سوء الحظ يلازم العرب فقد كان شتاء عام ٧١٦-٧١٧ م قارصًا بصورة خاصة وغطت الثلوج معسكر العرب لمدة تزيد عن ثلاثة شهور. وكان الطعام نادرًا وكذلك علف الماشية، وأيضًا الكساء لرجال أتوا من مناخ دافئ غير كافٍ تمامًا بدون شك. وكما يروي ابن الأثير المؤرخ العربي فقد كان المسلمون مضطرين إلى أكل لحوم وجلود الماشية التي أحضروها معهم، وكذلك جذور الأشجار وأوراقها وكل شيء يعثرون عليه إلا تربة الأرض. وتلك الصعوبات التي واجهها المسلمون وهم يرتجفون في أكواخهم الخشبية تذكرنا رغمًا عنا بمظاهر الفاقة والحرمان التي عانى منها الجيش البريطاني لمدة أكثر من أحد عشر قرنًا وهو يقاتل في شبه جزيرة القرم (أوكرانيا حاليًا). وأكثر من ذلك كان لتدمير الأسطول العربي أثره في أنه جعل من المتعذر على المسلمين توقع إمدادات إضافية أو أسلحة من سوريا أو مصر.

مع قدوم الربيع تحسنت حالة المسلمين المحاصرين، فوصلت تعزيزات وأسلحة وأطعمة في أساطيل جديدة مدشنة في أفريقيا ومصر. ولكن بينما كانت هذه السفن ترسو بحمولاتها على مسافة من القسطنطينية لم يعد من الممكن محاصرة المدينة خشية هجوم ناري آخر على السفن العربية. وهكذا كانت إمدادات كافية تصل إلى البيزنطيين من البسفور بينما بقي المحاصرون نصف جائعين خارج أسوار المدينة. وفي الوقت نفسه كانت الروح المعنوية للبيزنطيين يبعثها باستمرار حماسة وشجاعة ليو.

بلا شك كان أعظم انتصار حققه الإمبراطور هو نجاحه في إقناع البلغار على نهر الدانوب بمهاجمة العرب من الغرب. وبعد وقت قصير وجد المحاصرون أنفسهم محاصرين

بين أسوار المدينة من ناحية والقبائل البربرية التي تتقدم نحوهم من خلال مدينة تراقيا من ناحية أخرى. ويزعم المؤرخون أن البيزنطيين نجحوا في نشر إشاعة في المعسكر العربي أن الفرنجة والأمم الأخرى الغربية غير المعروفة يزحفون للدفاع عن القضية المسيحية ضد الغزاة. وهكذا في فصل الصيف الذي كان يقدم للعرب الفرصة لتشديد الحصار بقوة قضاه العرب في قتال ضارٍ علي جبهتين ضد البلغار والبيزنطيين، بينما تناقصت أعداد الأسلحة والأطعمة لأن تقدم البرابرة جعل من المستحيل على العرب أن يعلفوا ماشيتهم في ريف تراقيا.

بينما كان القتال تحت أسوار القسطنطينية، يقرر تاريخ العالم أنه تمت مبايعة الخليفة الشاب سليمان بن عبد الملك من جميع أنحاء الإمبراطورية العربية، الذي كان المؤرخون العرب يذكرونه بالخير أكثر من غالبية الخلفاء الأمويين. وتفضيلهم له يعزى من ناحية على الأقل إلى حقيقة أن عبد الملك بن مروان والوليد بن عبدالملك كانا يؤيدان الحجاج، بينما يعتقد أن سليمان بن عبد الملك كان يستهجن الأساليب التي كان يتبعها. وكان الحجاج وقتيبة ومحمد بن القاسم قائد الحملات العسكرية على الهند من قبيلة قيس، بينما كان سليمان يؤيد القبائل اليمنية.

يـذكر أن الوليد ابن عبد الملك حاول إقصاء سليمان بن عبد الملك من أن يكون خليفة بعده، ورفض ابن عمه الأول عمر بن عبد العزيز أن يغير مبايعته لسليمان الذي كان قد أقسم بأن يبر به بجانب عبد الملك بن مروان عند موته. نتيجة لذلك سجن الوليد عمر بن عبد العزيز، وكان سليمان يشعر بامتنان كبير لعمر بن عبد العزيز لإظهار هذه الشجاعة الأخلاقية، ونتيجة لذلك بمجرد أن تولى الخلافة استمع كثيرًا إلى نصائح عمر بن عبد العزيز. وكان الرجلان يختلفان بصورة كبيرة في شخصيتهما؛ لأن سليمان كان دنيويًا وعابثًا بينما كان عمر تقيًا وجادًا. والآن أصبح الخليفة الجديد معجبًا بابن عمه وكان يثق فيه بصورة كاملة. وكان أول عمل قام به سليمان هو إبطال بعض الممارسات الشاذة التي طرأت على صلاة الجماعة وهذا الإجراء يعزى إلى نصائح عمر بن عبد العزيز. وأيضًا

تحريم الغناء لاستهجان النبي صلى الله عليه وسلم للموسيقى يعود إلى عمر بن عبد العزيز أيضًا.

كان سليمان بن عبد الملك وهو لا يزال في الثلاثينيات يحب المتع. ويروى عنه أنه كان يرتدي حلة حريرية خضراء مستوردة من فارس، وكان يعجب بنفسه عند النظر في المرآة، ويجهر بقوله «أنا حقًا الملك الشاب»، وكانت هذه الكلمات إذا كانت روايتها صحيحة تدل على تغير العصور؛ لأن الخلفاء الراشدين كانوا يعتبرون أنفسهم قادة مجتمع ديني، وكانوا يرفضون بغضب أي اتهام لهم بأنهم ملوك.

أما سليمان بن عبد الملك فكان معروفًا بشره شهيته وهي صفة أدت إلى وفاته المبكرة. ويروى كمثال أنه في وجبة واحدة تناول حملًا كاملًا وست دجاجات وسبعين رمانة وسلة من الزبيب. وحتى وهو نائم بالليل كانت توضع سلال من الحلوى بجانب سريره حتى إذا استيقظ كان يمد يده ليتناول منها بعض اللقيمات الشهية. ويكاد يكون مدهشًا أنه مات من مرض في الجهاز الهضمي. وعلى الرغم من نهمه فقد كان يهتم بالشئون العسكرية بصورة كبيرة، وكان مصممًا على فتح القسطنطينية، ومات في المعسكر مع الجيش.

عندما رقد سليمان بن عبد الملك من مرضه الذي مات فيه استشار واحدًا من أصدقائه المقربين بخصوص من يخلفه. وكان ابنه الأكبر داود مع الجيش أمام القسطنطينية فهل يتولى مكانه؟ وحدثت فترة كبيرة من خلو منصب الخليفة قبل رجوعه إلى دمشق، وفيها كانت ستنشب حرب أهلية مرة ثانية. وكان ابنه الثاني صغيرًا جدًا، وكان صديقه المقرب قد أشار عليه بأن يستخلف عمر بن عبد العزيز، فرد بأن لا أبناءه ولا أبناء عبد الملك بن مروان سيقبلونه، فرد رجاء بن حيوة صديقه المقرب بأن يستخلفه، وأن يستخلف أخاه يزيد بن عبد الملك لكي يخلفه. وعندما يرى الناس أن الخلافة تعود إلى أبناء عبد الملك بن مروان سيقبلون عمر بن عبد العزيز لعدم وجود خليفة.

قبل سليمان بن عبد الملك هذا التدبير اللبق فكتب وصيته يذكر فيها عمر بن عبد العزيز خليفة من بعده، ولكن مشترطًا أنه عند وفاته يقصد بذلك عمر بن عبد العزيز تعود الخلافة

إلى يزيد بن عبد الملك. ووضعت هذه الوصية في خطاب مغلق. ومع ذلك فقد كان سليمان قلقًا بخصوص رد فعل الناس تجاه هذه الوصية. وتبعًا لذلك أمر رجاء بن حيوة أن يستدعي أمراء بني أمية لكي يبايعوا الشخص الذي سيتولى الخلافة، والمذكور في الوصية المذكورة آنفًا. وبعد ذلك بأيام قليلة مات سليمان بن عبد الملك.

عندما فتح الخطاب المغلق علم الناس أن عمر بن عبد العزيز هو المرشح للخلافة، وكان أبناء عبد الملك بن مروان السبعة عشر هم أول من اعترض على ذلك. ولكن عندما علموا أن واحدًا منهم هو يزيد بن عبد الملك سيخلف عمر بن عبد العزيز وافقوا وأعدت المواكب بسرعة لمبايعة عمر بن عبد العزيز من الناس. وكان هناك وقع لأصوات حوافر الخيول على الأبواب، وكان هناك سائس خيل يقود فرسًا كبيرًا وانضم إلى الاحتفال الأمراء والوجهاء وهم يمتطون خيولهم فإستفسر الخليفة الجديد:«ما كل هذا؟»، فرد واحد من الحاشية: «إنه فرس أمير المؤمنين الذي سيركبه في الموكب»، فرد عمر بن عبد العزيز بهدوء: «ليست لي حاجة لذلك»، «احضروا لي بغلتي القديمة». وكانت هذه الواقعة البسيطة تضع مؤشرًا للعهد الجديد.

في تلك الأثناء كان هناك قتالٌ ضارٍ يدور تحت أسوار القسطنطينية واستحكاماتها وفي تراقيا. وكانت النتيجة النهائية له في علم الغيب بالنسبة للخليفة الجديد، ولأن الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك كان مصممًا على استمرار القتال إلى حين وفاته، وكان يجمع الرجال والإمدادات بنهم لتعزيز الجيش فإن عمر بن عبد العزيز كان رجلًا له نظرة مختلفة إلى الحياة بصورة لافتة للنظر؛ لأن الذي كان يهتدي به هو ضميره ودينه وليس الطموح الحربي أو المتع الحسية. وكان من أول الأعمال التي قام بها هو الكتابة إلى مسلمة بن عبد الملك يأمره أن يترك حصار القسطنطينية ويعود إلى سوريا.

في الأيام الأولى للإسلام من حوالي ثمانين أو تسعين سنة قبل عصر عمر بن عبد العزيز كان أبو بكر وعمر يعيشان عيشة الفلاحين البسطاء في المدينة، بينما كانت جيوشهم تهزم جيوش الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية. وكان عمر بن عبد العزيز من خلال أمه

الحفيد الأكبر لعمر بن الخطاب الخليفة الراشد الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم، والذي كانت حياته قائمة على الزهد في الحياة، وهي حياة كانت تختلف اختلافًا كبيرًا عن طريقة حياة الصحابة الذين كان كل منهم متدينًا ومتحمسًا. ولكن منذ هذه الأيام الأولى شيد العرب أكبر إمبراطورية في حياتهم. وكان خلفاء بني أمية يعيشون في قصور يحيط بهم حاشية كبيرة ويحيط بهم في المقدمة والمؤخرة حرس من الجنود وحرس خاص بهم.

في مدينة دمشق الدنيوية المبهجة، ووسط هذه الظروف المحيطة المبهرة حاول عمر بن عبد العزيز أن يقتدي بطريقة حياة جده عمر بن الخطاب المتقشفة؛ فيروى أنه كان يملك فقط قميصًا واحدًا مرقعًا، وأنه كان يعيش كليةً ويقتات على حساء العدس. وكان يفرق جيدًا بين أملاكه الخاصة والأموال العامة لدرجة أنه كان يستعمل شمعة حكومية عندما كان يكتب المراسلات الرسمية، ولكن بمجرد انتهاء عمله كان يضيء مصباحًا خاصًا به ولا يستعمل الشمعات الحكومية.

كثير من تلك الروايات التي تروى عنه تحمل طابع المبالغة بلا شك، بينما تبدو الروايات الأخرى عنه حقيقة منافية للعقل. وأحيانًا وعلى الرغم من روايات المؤرخين عن عمر بن عبد العزيز فإننا نشك في أنه بوصفه خليفةً كانت له نظرة ثاقبة دقيقة في الشئون العامة(*). وكانت الإمبراطورية لمدة ستين سنة مقسمة إلى معسكرين متخاصمين بصورة ضارية نتيجة العداء بين قبيلتي بني أمية وبني هاشم، وهو العداء الذي أدى إلى مقتل الحسين وظهور الشيعة كفرقة إسلامية. وحتى في عصر معاوية بن أبي سفيان كانت مساجد سوريا تصب اللعنات على بني علي بن أبي طالب في صلاة الجماعة. أما في خلافة عمر بن عبد العزيز فقط فقد توقفت هذه الممارسات. وكان منع هذه الممارسات يعزى بحق إلى تقوى الخليفة، وكانت بلا شك سياسة حكيمة من عمر أن يعالج هذا العداء الذي أودى بالأمة الإسلامية إلى حرب أهلية.

(*) (لأن الكاتب لم ير حاكمًا زاهدًا في الدنيا أو يسمع عن ذلك سواء في بيزنطة أو أوروبا فهو معذور في ذلك – المترجم).

بدلًا من هذه اللعنات التي كانت تطلق على أعداء بني أمية أمر عمر بأن يدعى بهذه الدعوات على المنابر في صلاة الجمعة:

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ «الحشر: ١٠»

جعل عمر يحيى الغساني واليًا على الموصل. وعندما تولى منصبه وجد السرقة والسطو على المنازل منتشرَيْن في المدينة فكتب إلى الخليفة بناءً على ذلك لكي يبلغه بحالة المدينة ولكي يسأله: «عما إذا كان يأخذ الناس بالشبهات ويؤدبهم بالاتهام فحسب أو يقبض عليهم بالأدلة الواضحة وطبقًا لما أمرت به الشريعة»، فرد عمر بن عبد العزيز: «إن الناس لا يقبض عليهم إلا بالأدلة الواضحة وكما أمرت به الشريعة؛ لأن الشريعة إذا لم تجعلهم أمناء فلن يصلحهم الله».

هذه المقتطفات الصغيرة من المكاتبات بين عمر بن عبد العزيز وولاته في القرن الثامن تلقي ضوءًا حيًا ليس فحسب عن آراء الخليفة التقي، ولكن أيضًا عن ممارسات الحكومة العملية؛ فطريقة تأديب الناس وقطع رقابهم بالشبهات فقط كانت هي الوسيلة التي اتبعها عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف الثقفي، ولذلك كان واضحًا أمام والي الموصل الجديد أنه من الضروري بالنسبة إليه أن يستفسر عن أوامر الخليفة الجديد بخصوص أساليب التأديب المتبعة. وعندما روى الوالي بعد ذلك حياته كوالٍ للموصل كتب بالإشارة إلى رسالة عمر «لقد عملت بما تمليه عليّ هذه الرسالة ولم أترك الموصل إلا وأصبح النظام فيها على أحسن ما يكون وقلت فيها السرقات والسطو على المنازل».

ربما قد نكون مدفوعين إلى إدانة العدالة العربية بسبب أن: هل هذا السؤال الذي سأله والي الموصل كان ضروريًا؟. وبناءً على ذلك نتذكر أن أساليب العدالة المتفق عليها في عالمنا هذا وحتى أساليب العدالة الرومانية التي تتبجح بها هذه الإمبراطورية كانت تأخذ مصادرها من نظام قانوني ثابت وقاسٍ وبمساواة واضحة؛ ففي المادة القانونية رقم ٢٢ و٢٤ كمثال نقرأ عن ضابط روماني أنقذ مع جنوده بولس من مجموعة من اليهود

المشاغبين. وعندما أخذه إلى القلعة تساءل الضابط: «أأمر بمحاسبته بالضرب بالسياط حتى يعترف لماذا صاحوا هكذا ضده؟». وحتى في تاريخ بريطانيا فكلمة الاستجواب تعني أن يعذب المتهم بآلة تنتزع منه الاعتراف. أما آراء عمر بن عبد العزيز بخصوص العدالة فقد كان يسبق فيها عصره.

ينسب المؤرخون العرب اللوائح الإدارية التي كان يتبعها عمر إلى تقواه فحسب وإلى رغبتهم في الاستطراد حول زهده وإحسانه إلى الفقراء، والأسلوب الذي كان يتبعه ينحصر في قضائه جزءًا كبيرًا من الليل يصلي والدموع تنساب حول وجهه. أما المؤرخ الساخر جيبون فقد كان وهو يقتفي أثر المؤرخين العرب يلخص عصر عمر بن عبد العزيز في جملة واحدة «بأن العرش قد انحط بفضائل ضارة وغير مفيدة لحاكم متعصب لدينه»(*). هل نقبل هذه الحسابات بظاهرها أو هل كان عمر في الحقيقة حاكمًا وإداريًا يسبق أقرانه من الحكام؟ أولم يكن عمر يعمل رجل دولة حكيمًا في محاولة للقضاء على العداوة المستحكمة التي فرقت بين بني أمية وبني هاشم؟ وهل كان الفصل الدقيق للمالية العامة عن المالية الخاصة، ومعاقبة المتهمين فقط إذا ثبت جرمهم طبقًا للشريعة فضائل ضارة لحاكم متعصب لدينه؟.

يدهش الدارس للإمبراطورية العربية الأولى باستمرار من فجائية التغيير من الحكم الديني المثالي لأول خليفتين من ٦٣٢–٦٤٤ م إلى الطغيان والطمع والحروب الأهلية المريرة والتي أصبحت قاعدة فيما عدا الخمسين عامًا التي تلت ذلك. ومن المعروف أن الحكم الاستبدادي والصراعات الداخلية كانت تعم الإمبراطورية البيزنطية المسيحية في ذلك الوقت، وكمثال في عصر جوستنيان سليتنوز كانت الثورة والمؤامرات والطموح الشخصي هي الأشياء التي تميز الشئون العامة في كل دولة في القرن الثامن، والقتل والتعذيب والسجن بدون محاكمة هي الأساليب التي تتبعها كل الأطراف ضد بعضها بعضًا. وكانت مثالية أبي بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز مستثناة في حد ذاتها.

(*) (هذا القول يدل على جهل هذا المؤرخ بالعدل والعدالة التي كان يتبعها الخلفاء الراشدون الخمسة ومنهم عمر بن عبد العزيز ولم ينحط العرش بتلك الفضائل بل ازداد تألقًا وتوهجًا وترك أثرًا في التاريخ لمن يقتدي بهم من الحكام – المترجم).

هناك إشارة إلى حقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم حدد أن اليهود والنصارى لا يجب إكراههم بالقوة على اعتناق الإسلام وأن يدفعوا جزية باهظة للمسلمين(*). وهكذا كان اعتناق الإسلام لرجال كانوا يعتنقون ديانات أخرى يعني أن الداخلين الجدد في الإسلام يدفعون جزية أقل وأن بيت المال يعاني من نقصان في الإيرادات. وفي الحقيقة كانت هذه الاشتراطات لا تنفذ في الغالب وكان معتنقو الإسلام مضطرين إلى الاستمرار في دفع الجزية على المستوى القديم. وحكم عمر بن عبد العزيز بأن السياسة الأصلية التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن تنفذ. ونتج عن ذلك زيادة كبيرة في عدد معتنقي الإسلام في كل أنحاء الإمبراطورية. وكان تغيير الديانة يتم لأسباب اقتصادية ومالية أكثر منها دوافع تنبع من الضمير الإنساني، ولكن مع ذلك نتج عنها مكاسب كبيرة للإسلام وربما يكون معتنقو الإسلام غير مخلصين ولكن تمت تربية أبنائهم كمسلمين. وبعد جيلين أو أكثر نسي معتنقو الإسلام الدوافع التي جعلتهم يفعلون ذلك.

كان عمر بن عبد العزيز محقًا بلا شك في إصراره على أن غير العرب المسلمين يجب أن يعاملوا كالعرب قدمًا بقدم؛ لأن العرب أصبحوا طبقة حاكمة أقلية في الإمبراطورية وأصبحت الأغلبية غير العربية أكثرية تعيش في ضجر. والبديل الوحيد للثورة هو الاندماج بين العرب وغير العرب. وبمعنى أصح فإن مساواة كل المسلمين مبدأ أساسي من مبادئ الإسلام بدون أي نظرة إلى الجنس.

من الناحية المالية واجهت عمر مشكلة فشل في حلها؛ لأن قبول غير العرب المسلمين ومساواتهم بالمسلمين نتج عنه نتيجتان: الأولى أن بيت المال عانى من نقص شديد في الأموال، والثانية أن غير العرب المسلمين سيخصص لهم مبلغ سنوي كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يدفعه لمن تم تسجيلهم وإحصاؤهم كعرب. وهكذا سيهبط دخل الدولة في اللحظة نفسها التي تلتزم فيها الحكومة من جديد بدفع هذه المبالغ السنوية. وكان الخليفة

(*) (كانت هذه الجزية تدفع بمبالغ قليلة مقابل حماية أهل الذمة الكتابيين والدفاع عنهم، أما المسلمون فلا يدفعون لأنهم يجاهدون ويدافعون عن أراضي الإسلام بما فيها أراضي أهل الكتاب – المترجم).

عمر بن عبد العزيز ينظر بلا شك إلى المسألة من وجهة نظر دينية محضة عنها مالية. وعندما قيل له إذا اعتنقت الشعوب الخاضعة للعرب الإسلام سيفلس بيت المال رد: «إن الله قد أرسل نبيه لكي يكون رسولًا وليس جامع جزية». وكان هدفه الأول هو تفعيل النظام الذي شرعه النبي صلى الله عليه وسلم والخليفتان الراشدان أبو بكر وعمر. ومن السهل أن نقول إن الظروف قد تغيرت وأن الخليفة عمر بن عبد العزيز يتصرف بحماقة، ولكننا بذلك نتجاهل حقيقة أن هناك مشكلة موجودة في الواقع لا يمكن حلها.

أمر عمر بن عبد العزيز الذي كان يملك شجاعة الإقناع بأن يدفع غير العرب المسلمين الضرائب نفسها التي يدفعها العرب وأن يخصص لهم راتب سنوي. ونتيجة لذلك واجهت بيت المال صعوبات شديدة في ذلك، ومن المستحيل أن نعرف ما كان سيحدث لمالية الدولة لأن الخليفة مات بعد ذلك بوقت قصير. وألغى خليفته الإجراءات التي اتبعها وعاد إلى النظام السابق وهو أن يدفع غير العرب المسلمين الجزية كما لو كانوا غير مسلمين. وهذا أدى بصورة تلقائية إلى سخط متزايد بين الشعوب الأخرى المحكومة مما أدى إلى ثورة بعد ذلك بثلاثين عامًا.

عندما نعود إلى الوراء الآن يمكن لنا أن نرى المشكلة بصورة أوضح مما كان ممكنًا بالنسبة إلى عمر والمعاصرين له، ولكن حتى الآن ليس من السهل أن نعثر على حل لها إذا كان متاحًا. وإذا كان الأمر كما أمر عمر إن عاجلًا أو آجلًا كان غير العرب المسلمين سيدفعون الضرائب نفسها مثل العرب. وكان نظام الضرائب ككل سيتم إصلاحه وكان العرب سيدفعون أكثر لكي يتم الحفاظ على الدخل القومي للدولة الإسلامية ككل. وبمعنى أصح كانت النظم المالية التي شرعت قبل ذلك بقرن في مجتمع المدينة المنورة البسيط لم تعد كافية لأكبر إمبراطورية في العالم.وكانت الإمبراطورية بحاجة إلى إصلاح مالي تام.

لم ير عمر بن عبد العزيز ولا المعاصرون له ذلك، فبالنسبة إليهم كانت القضية محددة في سؤال بسيط هل يدفع غير العرب المسلمين الضرائب كما يدفعها العرب المسلمون أم لا؟ ولكن حتى إذا أدرك عمر الحاجة إلى إصلاح مالي فمن غير المحتمل أن يكون هو أو

غيره عنده السلطة لكي يفعل ذلك؛ فقد كانت هناك صعوبات تقف في طريقه؛ أولها أن العرب الذين كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة قد يقاومون ذلك ويتسببون في حرب أهلية، والصعوبة الثانية هي أن طرق جمع الضرائب في ذلك العصر ومعدلات الضرائب هي التي شرعها النبي صلى الله عليه وسلم ومن خلفه أبو بكر وعمر، وهكذا صبغت الضرائب بصبغة دينية كان من المستحيل تعديها.

لم تجر أي حملات عسكرية كبيرة في عصر عمر بن عبد العزيز. وتم قمع ثورة الخوارج في إقليم الجزيرة. وتعامل عمر بن عبد العزيز مع هذه الواقعة بأسلوب يختلف تمامًا عن أساليب أسلافه من الخلفاء الذين كانوا يستخدمون أساليب مثل: قطع الرقاب والأيدي والأقدام ضد الخوارج أكثر من الثائرين الآخرين، فدعا الخوارج من ناحيته لكي يبعثوا وفدًا إلى دمشق لكي يقدموا شكاواهم.

عند وصول ممثلي طائفتين من الخوارج كان الخليفة يبذل قصارى جهده لكي يفند مزاعمهم ولكي يوضح لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم على المسلم قتل أخيه المسلم، ومع ذلك فقد كان الخوارج يعتقدون أنه من الصواب قتل المسلم الذي لا ينتمي إلى طائفتهم ضيقة الأفق. وعلى الرغم من أن الخوارج الهراطقة استمروا في معتقداتهم الخاطئة فلم يثيروا أي اضطرابات طوال عصر عمر بن عبد العزيز.

كان عصر الخليفة الطيب خاليًا بصورة ملحوظة من القلاقل والحروب الأهلية، ويمكن أن نشير إلى أن عصره هو العصر الذي بذرت فيه بذور الثورة التي ستقضي على الحكم الأموي كليةً. ولم يكن هذا مفاجئًا ولكن كان يتفق مع التطور السياسي المعتاد؛ لأنه من المألوف جدًا أن تظل الدول هادئة أثناء فترات الحكم الاستبدادي والديني ولكن تنشب هذه الثورات والقلاقل بمجرد أن يتم إرساء دعائم حكم أكثر عدالة وأكثر حرية. وهكذا فتحت الخلافة الصالحة لعمر بن عبد العزيز المجال لحركة سياسية أدت إلى القضاء على بني أمية.

مات عمر بن عبد العزيز في العاشر من فبراير عام ٧٢٠ م وعمره تسعة وثلاثون عامًا بعد حكم دام فقط لمدة عامين وخمسة شهور. وهناك بعض الروايات التي تزعم أن بني عمه

الأمويين قد سموه عندما أنقص رواتبهم، أو أن بني عمه خافوا أن تؤول الخلافة إلى من سيحاكمهم بتهم كما حاكموا الناس من قبل. وكانت كثير من الدعوات السياسية قد وجهت بعد ذلك ضد بني أمية هذه التهم التي ارتكبوها ضد الأبرياء والتي لا يمكن تبريرها بصورة واضحة.

حينما هاجر بنو أمية كليةً إلى سوريا حيث حكموا من هناك إمبراطورية تمتد من جبال البرانس إلى جبال الأندوس بقي خصومهم من بني هاشم في مكة والمدينة؛ حيث ظلوا يعيشون في الظل بدون أن يشاركوا في الشئون العامة. وانقسم بنو هاشم أنفسهم إلى فرعين: فرع علي بن أبي طـالب وفرع عبد الله بن عباس. وكان الاثنان – علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس– على قرابة وثيقة بالتساوي مع النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أعمامه لأن؛ أبي طالب والعباس كانا عمي النبي صلى الله عليه وسلم. لكن بنى علي نالوا فضل زواج الأخير من فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وريحانته. ومن خلالها أصبح بنو علي أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرةً. وبناءً عليه لعبوا دورًا بارزًا في نهضــة الإسلام، وأصبح علي خليفة وقُتل ابنه الحسين كما روينا في معركة كربلاء شهيدًا، ومن هناك نشأت طائفة الشيعة.

أما بنو العباس فلم يلعبوا أي دور سياسي حتي عصر عمر بن عبد العزيز. وفي عام ٧١٨ م كان رجلًا بارزًا من بني العباس يسمى محمدًا بن علي بن عبد الله بن العباس يعيش في الشراة، وهي منطقة تقع غرب معان والآن تقع في مملكة الأردن بجوار سوريا التي كانت مخلصة لبني أمية. وبعد ذلك بعث هذا الرجل برسل سرية إلى العراق وإلى خراسان، وكانت هذه العواصم تغير وتغضب من دمشق فظلت تدعو إلى بني العباس من الناحية السياسية. وانتشرت هذه الحركة السياسية بسرعة وخاصة في خراسان وهي منطقة ذات شهرة في الخروج على القانون والتمرد والصفات العسكرية.

في عام ٧٢٢ م وُلد في جنوب الأردن وَلد لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس زعيم بني العباس القرشيين ومنظم هذه الشبكة من الدعوة السرية ضد بني أمية. وكان هذا الطفل

يسمى عبد الله. بعد ذلك بأيام قليلة قدم وفد سري من المتآمرين من خراسان لكي يناقش خطط الثورة مع محمد بن علي بن عبد الله، ورووا لمحمد بن علي بن عبد الله أن السخط قد انتشر بسرعة وأن ولاة الأقاليم أصبحوا غير قادرين على التعرف على الثوار الذين يتظاهرون بأنهم تجار؛ لكي يبرروا تحركاتهم من مكان إلى مكان. واحتضن محمد بن علي ابن عبد الله ابنه الوليد بين ذراعيه، وعندما كبر عرفه بأنصاره السريين. وهذا الولد سيكون واحدًا من سلسلة طويلة من الأباطرة وسيأخذ اللقب المشهور أبا العباس السفاح.

بمجرد وفاة عمر بن عبد العزيز بويع ليزيد بن عبد الملك بالخلافة تبعًا لترتيب الخلافة الذي وضعه أخوه الأكبر سليمان بن عبد الملك. وكانت شخصيته إلى حد ما بلا ملامح، وحكم لمدة أربع سنوات ومات في إربد، وهو ما نسميه الآن شمال الأردن في ٢٨ يناير عام ٧٢٤ م. وكان يتأثر بعمر بن عبد العزيز عندما كان حيًا وأخذ يتأسى به لمدة أربعين يومًا بعد أن أصبح خليفة ثم كانت إغراءات السلطة والنفوذ كبيرة عليه فخصص حياته للمتع الدنيوية.

كان يزيد يمتلك محظيتين مغنيتين هما حبابة وسلامة. وكان قد اشترى حبابة مقابل أربعة آلاف دينار عندما كان يحج في مكة وهو يتبع أخاه الأكبر سليمان بن عبد الملك. وكان سليمان الذي لم يكن مستقرًا على حال قد منع شراء الجاريتين فبيعت حبابة إلى رجل من مصر. وبعد ذلك بأربع سنوات أصبح يزيد خليفة. وبهذه المناسبة السعيدة سألته زوجته سعدة إن كان قد بقي في نفسه من أمر الدنيا شيء، فرد الزوج غير اللبق «ما زلت أريد حبابة» فبعثت سعدة إلى مصر من يبحث عن الجارية واشترتها له بأربعة آلاف دينار ورتبت لتهريبها إلي القصر. وحمّتها وزينتها وألبستها أحسن الثياب وأجلستها من وراء الستار وعندما دخل زوجها كررت عليه سؤالها السابق الساذج «هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء»، فرد يزيد بملل «لقد سألتني عن ذلك من قبل»، وقلت لك إنني ما زلت أريد حبابة» فردت «حسنًا ها هي حبابة يا عزيزي»، وكان رد هذه الزوجة الوفية وهي تسحب الستارة بإشارة لافتة وترجع ببساطة من الجناح الخاص به.

لكن كان مسار الحب الحقيقي الذي جمع يزيد بحبابة قصيرًا؛ لأن حبابة ماتت بعد ذلك بفترة قصيرة، فغمر الحزن الخليفة فبقي مختليًا في حجرته لمدة سبعة أيام رافضًا أن يرى أي أحد، فأفزع ذلك أخاه الجندي مسلمة الذي لم يصبر على تلك العواطف الجياشة؛ لأن هناك من حذره بأن يزيد يجعل الخلافة مدعاة للضحك، فأقنع يزيد بأن يخرج للحياة العامة مرة ثانية.

ترك يزيد الثاني عندنا الانطباع بأنه شخصية ضعيفة وضحلة. وقد كان متأثرًا بالتقوى التي أظهرها عمر بن عبد العزيز عندما كان حيًا، ولكنه أصبح بسرعة دنيويًا عندما زال ذلك التأثير. ويكفي أن نقول إننا نتذكره بصفة أساسية كصاحب جاريتين جميلتين هما حبابة وسلامة.

تواريخ بارزة

- ٧١٥ م .... تولية سليمان بن عبد الملك.
- ٧١٦-٧١٧ م........... حصار القسطنطينية ووفاة سليمان بن عبد الملك.
- ٧١٧ م................ تولية عمر بن عبد العزيز.
- ٧٢٠ م................ وفاة عمر بن عبد العزيز.
- ٧٢٠ م................تولية يزيد الثاني بن عبد الملك.
- ٧٢٢ م............... ولادة عبد الله بن محمد بن علي العباسي.
- ٧٢٤ م............. وفاة يزيد بن عبد الملك.

الشخصيات

الخلفاء

- سليمان بن عبد الملك
- عمر بن عبد العزيز
- يزيد بن عبد الملك

الأباطرة البيزنطيون

- ٧٠٥–٧١١ م....جوستنيان الثاني سليتنوز.
- ٧١١–٧١٣ م..........فيليبكوس.
- ٧١٣–٧١٦ م........... أناستاسيوس الثاني.
- ٧١٦ م............... تيودوسيوس الثالث.
- ٧١٦–٧٤١ م .... ليو الثالث الآزوري.
- مسلمة بن عبد الملك قائد جيوش المسلمين.
- محمد بن علي العباسي منظم الدعوة الثورية لبني العباس.

الفصل العاشر

جورج الفلاح

لقد تمتعت بكل المتع الدنيوية فيما عدا واحدة وهي صحبة صديق حقيقي لا أعبأ فيه فيما يحدث بيننا.

(الخليفة هشام بن عبد الملك)

على سهول تور فقد العرب إمبراطوريتهم العالمية عندما كادت أن تكون في حوزتهم، وأدت الخلافات القبائلية والثورات التي كانت دائمًا لعنة المجتمعات الإسلامية إلى تلك النهاية المفجعة.

(أمير علي – تاريخ موجز للعرب)

كان فتح إسبانيا أقرب شيء فعله العرب لتكوين إمبراطورية عالمية.

(آر.إيه. نيكلسون – تاريخ العرب الأدبي)

بويع هشام بن عبد الملك خليفة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك، وكان عمره آنذاك أربعة وثلاثين عامًا. وبينما كان يزيد يفضل قبيلة قيس، كان هشام يميل إلى القبائل اليمانية. وبعد تولي هشام بعام حدث قتال في خراسان بين القبيلتين على الرغم من أن حدود الإمبراطورية كان يهددها الأتراك.

استمرت الغارات المعتادة على الأراضي البيزنطية ولكنها اقتصرت على غزوات صيفية فحسب. ولم يعد هناك أي محاولة لغزو الإمبراطورية البيزنطية وحصار

القسطنطينية. وفي الحقيقة بعثت الشخصية الحماسية للإمبراطور ليو الأزوري حياة جديدة في الإمبراطورية المنهكة. وعلى الرغم من هذا البعث فإن مسلمة بن عبد الملك فتح قيصرية عام ٧٢٦ م، واحتفظ العرب بممرات جبال طوروس. وكان هناك تقليد في ذلك العصر وهو إرسال الأسطول كل عام لكي يقوم بغارته الصيفية في حوض البحر الأبيض المتوسط.

في عام ٧٢٨ م أخذت مشكلة فرض الجزية على معتنقي الإسلام فجأة تحتد في خراسان؛ فبعث الوالي الجديد لها، الذي كان قد ولاه هشام بن عبد الملك، وفدًا يلف بلاد ما وراء نهر الأوكسس ويحض الناس على الدخول في الإسلام قبل فتح بلادهم، فاستفسر الذين يرغبون في الدخول في الإسلام من الوالي عما إذا كان الكفار الذين يعتنقون الإسلام سيتم إعفاؤهم من ضريبة الرؤوس أو الجزية أم لا. ويجب أن نذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه والقرآن قد قررا أن الجزية يدفعها غير المسلمين وهم صاغرون. وأكد الوالي أن معتنقي الإسلام سيعفون من دفع الجزية، وهي إجابة صائبة بلا شك من الناحية النظرية.

خرج الوفد متحصنًا بهذا الوعد لكي يلف بلاد نهر الأوكسس ونهر الجاكسارتس فلقي ردًا خارج كل توقعات الوالي؛ فقد تزاحم العامة لكي يدخلوا في الإسلام وبدءوا يطمئنون على إعفائهم من الجزية. ولكن وصلت بسرعة إلى الوالي رسائل من جامعي الضرائب في الأقاليم «كل الناس اعتنقوا الإسلام وبنوا المساجد»، واستطردت الرسائل «لن يكون هناك فعليًا من يدفع الجزية، فكيف سيتم إدارة الدولة دون أموال؟»، ومن المهم أن نلاحظ الكلمات التي وجهها الطبري إلى موظفي الضرائب «لقد أصبح كل الناس عربًا». وهذه الجملة الخالية من المضمون توضح لنا في خمس كلمات الاضطراب الذي يوجد اليوم في استعمال كلمة عربي. وقد كان الفاتحون الأولون عربًا ومسلمين وكانت الإشارة إلى الكلمتين في بادئ الأمر تدل على أنها مترادفات. وعندما أصبح أتراك آسيا الوسطى وقوط إسبانيا مسلمين كان لا يقال عليهم في الغالب إنهم عرب. ولم يتوقع الوالي أن تحدث أزمة مالية، ولكنه فجأة واجه واقعًا حرجًا فأمر جامعي الضرائب بأن يستمروا في جمع الجزية من كل مكان يدفعها قبل ذلك سواء دخل أهله الآن في الإسلام أم لا. ولكن محاولات جمعها

من معتنقي الإسلام الجدد كان لها رد فعل عنيف جدًا. وارتد الكثير عن الإسلام. وكتب البعض منهم إلى خاقان الترك يدعوه إلى القدوم والاستيلاء على المدينة. وكان موقف الذين ارتدوا عن الإسلام خطيرًا؛ لأن القتل كان عقوبة الارتداد عن الدين. وبعد ذلك اشتد السخط العام، وفي صيف عام ٧٢٨ م ثارت منطقة عبر الأوكسيانة.

تغير الموقف من الناحية المادية منذ انتصارات قتيبة بن مسلم قبل ذلك بخمسين عامًا، وكانت حملاته العسكرية موجهة ضد الحكام الأصليين لمنطقة عبر الأوكسيانة. وكانت قبائل الترك وراء نهر الجاكسارتس تنشغل بمحاربة بعضها بعضًا. وبدأت قبيلة تركية في عام ٧١٦ م، وبعد عام من وفاة قتيبة بن مسلم، كان يتزعمها قائد جديد كان يطلق عليه الصينيون سولو، تقيم مملكة تركية في وادي إيلي. وكان الصينيون على الأرجح لا يحبون وجود اتحاد تركي قوي؛ ولكن لأنهم حتى هذه اللحظة لا يستطيعون منع تكوينه فقد شجعوا الخاقان الجديد على مهاجمة العرب. وكان أول ظهور للترك في منطقة عبر الأوكسيانة عام ٧٢٠ م عندما نشبت ثورة ضد نظام الضرائب العربي الفادح، وانضم إلى هذه الثورة جيش تركي قوي من منطقة وراء نهر الجاكسارتس. ووجد العرب أنفسهم في ضيق شديد؛ فالحاميات العربية المعزولة تمت محاصرتها ووقعت كل بلاد ما وراء نهر الأوكسس في يد الثوار والمتحالفين معهم من الأتراك.

في عام ٧٢٩ م تم عزل والي خراسان، وبعث هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن لكي يتولى مكان الوالي السابق. وأشيع أن الوالي الجديد قد اختير لأنه قدم قلادتين كبيرتين من الجواهر إلى هشام وزوجته. ولم يكن عند الجنيد خبرة سابقة بالحرب ضد الأتراك في هذه الحدود الجبلية الوعرة؛ فارتكب كل الأخطاء التي يرتكبها الرجل غير الخبير بالمعارك وبعث بجيش من الجنود يزحف أعلى الوادي الجبلي بدون أخذ احتياطاته بتأمين المرتفعات، وكانت النتيجة أن القوة التي أرسلها هوجمت بسلسلة من القذائف الحجرية من أرض مرتفعة على جانبي الوادي، فغضب الجنود المخضرمون الذين أفنوا حياتهم على الحدود يقاتلون وحنقوا على جهل القائد الذي بعثه الخليفة بالشئون العسكرية. وأمسك

أحدهم فرسه من لجامه وصاح «إذا كنت ستتصرف مثل ذلك فلن تفقد هذا الجيش ولكن ستفقد كل خراسان».

لكي ننصف الجنيد فهو لم يكن متعجرفًا أو ربما قد أدرك أن القتال الضاري مع قبائل المغول في سلاسل الجبال المغطاة بالثلوج في آسيا الوسطى ليس سهلًا، مثل تقديم عقود الجواهر إلى الملكات في قصور دمشق. وبأي ثمن حاول أن يبحث عمّن ينصحه ممن هو أكثر خبرة من أصحابه، وبعد حملة عسكرية طويلة وحرجة نتج عنها الكثير من الجرحى اضطر خاقان الترك إلى أن ينسحب إلي بلاده، وأعاد الجنيد بن عبد الرحمن في صيف عام ٧٣٠ م فتح سمرقند وبخارى.

شجع تقهقر العرب وراء نهر الأوكسس الخزر على الجانب الآخر من القوقاز بلا شك، وفي صيف عام ٧٣٠ م خرجوا من بلادهم وغزوا أذربيجان وهزموا القوات العربية وقتلوا قائدها واحتلوا أردبيل. وكان من الضروري أن يبعث الخليفة أخاه الذي لا يكل مسلمة بن عبد الملك قبل أن يطردوا المسلمين مرة ثانية ويجبروهم على التراجع إلى ممر بوابات دربند في بلاد شمال القوقاز. وقبل العودة إلى سوريا غزا مسلمة بن عبد الملك بلادهم (بلاد الخزر) واقتحم مدنًا عديدة، وأسر الرجال، وساق معه النساء والأطفال عبيدًا، وأحرق قراهم، وقتل ابن خان الخزر. وقضى عندئذ عامًا يقيم تحصينات في ممر دربند الضيق؛ لكي يحول دونهم ومهاجمة المسلمين بعد ذلك. وقبل رجوع مسلمة بن عبد الملك ولّى الخليفة مروان بن محمد واليًا على الجزيرة وأذربيجان عام ٧٣٢ م.

من المهم أن نلاحظ أن الإمبراطورية الرومانية قد خاضت حروبًا لمدة تزيد عن ثلاثة قرون؛ لكي توقف البرابرة على حدود الراين والدانوب، بينما قاوم العرب في فترة متساوية تقريبًا حشود الأتراك والمغول على الممر الذي يوجد في آسيا الوسطى بين القوقاز والحدود الهندوكوشية. وكلتا الإمبراطورتين عندما دب فيهما الضعف باعتا هذا الممر عن طريق الاختلاط بالبرابرة ومشاركتهم كقراصنة. وفي النهاية دمر البرابرة واقتحموا الإمبراطوريتين العربية والرومانية اللتين دخلتا في معارك معهم لفترة طويلة، وفي الوقت نفسه جندتهم في جيوشهما.

في صيف عام ٧٣٧ م عين الخليفة أسد بن عبد الله واليًا على خراسان فقام بحملة عسكرية تأديبية ضد خوتال، غنم فيها الكثير من الغنم والغنائم والأسرى. وهرب كثير من سكان تلك المدينة عبر الحدود إلى الأراضي الصينية. وفي أكتوبر انسحب الجيش العربي وعسكر بصفة مؤقتة على الضفة الشمالية من نهر الأوكسس ليستريح ويفرز الغنائم. أما خاقان الترك، الذي كان يسبب الكثير من الإزعاج للعرب على الحدود في تلك الأيام حتى إن الجنود العرب كانوا يسمونه المزعج القديم، فقد توقف عن الهجوم.

على غير المتوقع أخبر أحد الوجهاء المحليين أسد بن عبد الله قائد الجيش العربي أن الخاقان سيقوم بهجوم. ولكن القائد لم يصدق ذلك الخبر وكان رد فعله بلا شك الخوف والحذر المعتاد فحسب. ولكن فجأة كان الأتراك على بعد ميل أو ميلين من الجيش العربي. وكان يمكن رؤية كتائب الاستطلاع والفرسان مبعثرين هنا وهناك وهم يقتربون. وكان الجيش العربي غير مستعد للقتال ومبعثرًا ومتراخيًا، وكان النهر يفصل بينه وبين الأعداء. وكان الشعور بالخوف يغمر الجيش العربي تقريبًا. وفي تلك اللحظات أبى أسد بن عبد الله أن يترك كل الغنائم فنادى على كل جندي أن يحمل معه خروفًا. وغاص الجميع في النهر في فوضى، وكان هذا النهر في بعض الأماكن عميقًا جدًا. فصارع بعض الجنود المياه مع الغنم لدرجة أنهم انزلقوا من على خيولهم حتى نادى عليهم أسد بن عبد الله أن يتركوا الغنم. وكان الجنود لا يزالون يعبرون النهر عندما ظهر الترك على الضفة الأخرى، وكان معهم الكثير من الأسلحة والغنم المسلوبة وتابعوهم وكثير من الأسرى العرب. ثم دون توقف نضحوا الماء على مؤخرة الجيش العربي، ونجح العرب في الوصول إلى مكان ما على الضفة الأخرى للنهر والعسكرة هناك. ونجا الجيش العربي من هذه الكارثة عند حلول الظلام.

عند تقسيم غنائم خوتال اتجه أسد بما معه إلى مرو قبل أن يسبقه إليها الترك. وفي صباح اليوم التالي عندما تحرك الجيش العربي بقلق من خطوطه لم يجد أي جنود أتراك على الإطلاق من فجر ذلك اليوم. وسار الخاقان مساءً وهو يلاحق الجيش العربي المحمل

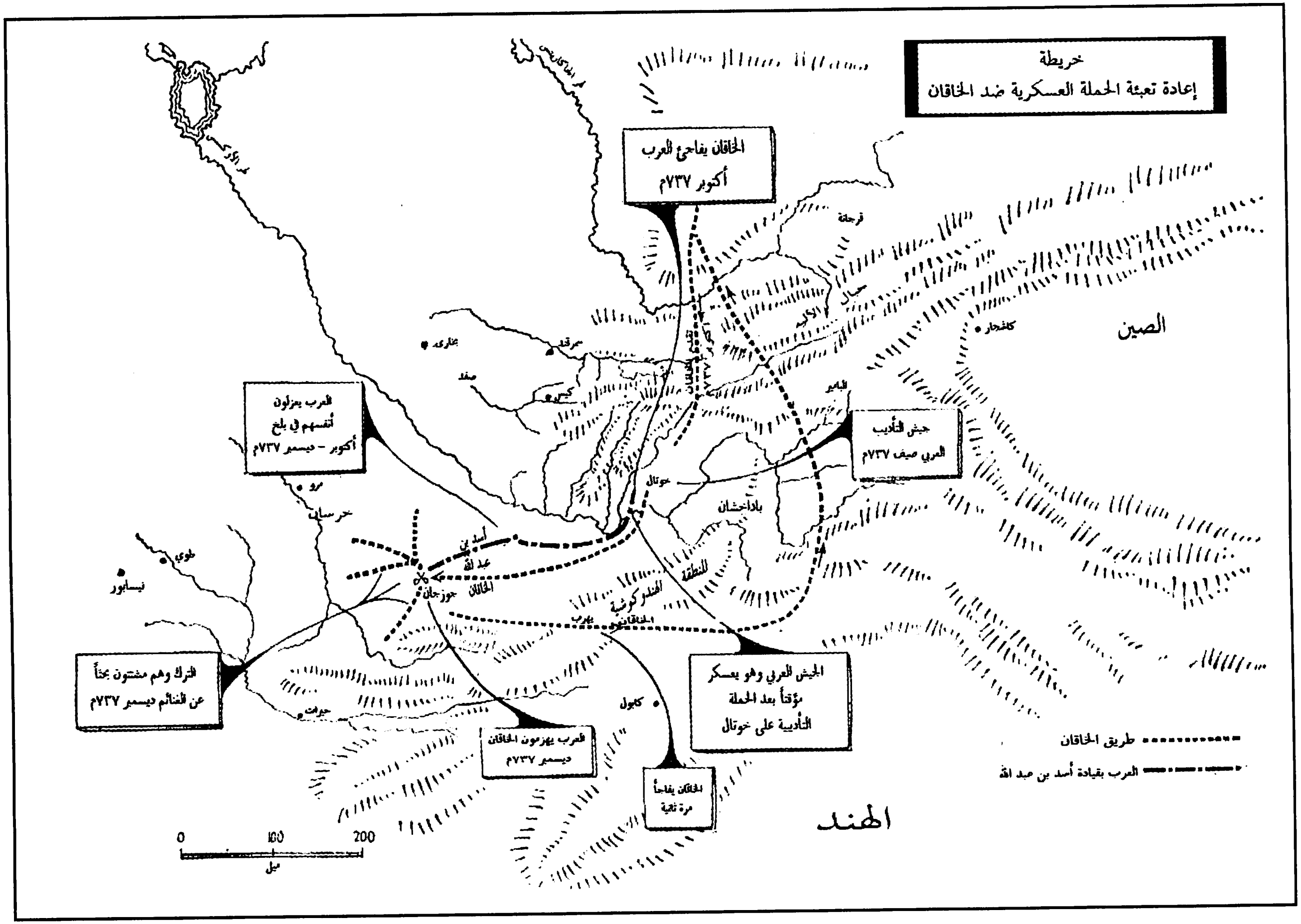
بالغنائم. وكان الترك قد كونوا جيشًا كبيرًا غير معروف بالنسبة لجنود الاستطلاع العرب الذين أهملوا في مراقبته بصورة كبيرة، ووجد أسد أن جيشه المسلم يفوقه عددًا فتابع المسير ببعض الحذر، ولكن الخاقان استولى على الجيش العربي المحمل بالغنائم، على الرغم من أن الجيش العربي كان يناور بحرص دون اتخاذ أي إجراء على الأرض، ونجح من نجا منهم في استعادة بعض الجنود الباقين على قيد الحياة. وعاد أسد بن عبد الله عندئذ بعد الهزيمة واعتزل في مدينة بلخ تاركًا خراسان مفتوحة نهبًا للأعداء. وجمع أسد مجلسًا مهيبًا للحرب، فنصح البعض الوالي أن يبقى داخل أسوار مدينة بلخ وأن يبعث بالرسل إلى الخليفة لطلب تعزيزات. واقترح البعض الآخر الخروج سرًا واختراق صفوف الترك والسيطرة على مرو عاصمة خراسان قبل وصول الخاقان إلى هناك، وهناك من تجرأ ونصح الوالي بالقتال حتى ولو كان العدد قليلًا.

في ديسمبر عام ٧٣٧ م تحرك الخاقان في اتجاه الغرب نحو قلب خراسان وغلب الخوف على العرب الباقين. وكما يروى فإن الخاقان الذي كان عنده جيش مكونٌ من ثلاثين ألف رجل قد تصور ذلك الهلع الذي أصاب الجنود العرب المذعورين الذين لجؤوا إلى بلخ فقسم معظم جيشه إلى قوات للإغارة وقوات للمؤن. وكان الشتاء قاسيًا دون شك وكان نقل المؤن متعذرًا. وخرج كل جندي في البداية من منزله ومعه كيس من اللحم المملح معلق على سرج فرسه، ولكن هذه المؤن نفدت الآن.

أمر أسد بن عبد الله بفتح واحدة من بوابات بلخ وأن تنصب له خيمه على سهل واسع خارج البوابة فقدم عليه عدد من قادة الجيش وقالوا له «فليوفق الله الأمير». «لا تخيب طاعتنا لك بعزلنا في بلخ قدنا إلى النصر».

دعا القائد أسد الجنود إلى الصلاة وبعد استكمال أدائها التفت إليهم وصاح «فليدع كل جندي الله من أجل النصر». وكانت الدعوات طويلة وحارة ثم قام أسد على قدميه وهو يواجه الجنود مرة ثانية فنادى ثلاث مرات «ستنتصرون ورب الكعبة».

سار الجيش العربي بخفة وسرعة. وعسكر الخاقان ومعه قوة صغيرة في سرية تامة في خاريستان في جوزجان. وكان جنوده مبعثرين هنا وهناك، وبعد أن غنم مغانم من القرى



خريطة
إعادة تعبئة الحملة العسكرية ضد الخاقان
الخاقان يفاجئ العرب
أكتوبر ٧٣٧م
العرب يعزلون
أنفسهم في بلخ
أكتوبر – ديسمبر ٧٣٧م
جيش التأديب
العربي صيف ٧٣٧م
الجيش العربي وهو يعسكر
مؤقتاً بعد الحملة
التأديبية على خوتال
الترك وهم مشتتون بحثاً
عن الغنائم ديسمبر ٧٣٧م
العرب يهزمون الخاقان
ديسمبر ٧٣٧م
الخاقان يفاجأ
مرة ثانية
الصين
الهند
كاشغار
فرغانة
بخارى
سمرقند
صغد
كيش
مرو
خراسان
طوس
نيسابور
هراة
كابول
خوتال
باداخشان
جوزجان
أسد بن عبد الله
الخاقان
طريق الخاقان
العرب بقيادة أسد بن عبد الله
0
100
200
ميل

الخصيبة التي مر عليها أُبلغ أن هناك سحابة غبار من ناحية الشمال. وكان الخاقان تملؤه الريبة والشك، ويسأل نفسه هل هذا الغبار ممكن أن يكون أسد بن عبد الله المذعور في بلخ؟ وأمر جنود الاستطلاع بأن يعدوا بخيولهم للتعرف على الخيول القادمة، وبينما كان الترك يتسلحون ويمتطون خيولهم بسرعة قدم العرب مباشرة وقاتلوا دون توقف. وعلى الرغم من المفاجأة فإن الجناح الأيمن للجيش التركي قاتل لدرجة أن صفوف الجيش العربي اضطربت. وعلى الجانب العربي تحملت قبيلتا أسد وبني تميم اللتان هبتا لنجدة الجيش العربي المهزوم كل أعباء ذلك القتال. وبسرعة تقهقر الترك من المعركة، وكان الخاقان محظوظًا فهرب ومعه أربعمائة من الفرسان وبعض الغنائم والملحقون بالجيش. وغنم المنتصرون العرب عددًا من الغنم يصل إلى مائة وخمسة وخمسين ألفًا.

هرب الخاقان إلى الشرق نحو الأودية الجبلية البرية. وهناك اعتقد أنه في أمان حيث نصبت له الخيام، وأشعلت النيران، وكانت النساء تقوم بتقطيع اللحم ووضع القدور على اللهب. وأخيرًا أصبح الخاقان قادرًا على أن يمد رجليه ويستريح خاصة لكي يلوم نفسه على الثقة الزائدة التي قلبته فجأة من الانتصار إلى الهزيمة.

عرض بعض رجال القبائل المحلية على المسلمين أن يرشدوهم إلى المقر الجبلي الذي يستريح فيه الخاقان، فزحفت مجموعة من الجنود العرب إلى أعلى طريق جبلي، ومن مرتفع علوي رأوا الخاقان بجسمه الضخم في الوادي بأسفل، ورأوا القدور التي تغلي على النار في معسكر الترك. وانطلق جرس الإنذار، ونقرت الطبول للهرب ولكن كان العرب يحيطون بالترك. وسقط فرس الخاقان على الطريق المليء بالوحل ولكنه هرب متنكرًا. وترك الترك الهاربون كل شيء خلفهم بما فى ذلك نساؤهم وبعض الفتيات العربيات المأسورات. وهرب الخاقان بطريقة محكمة، وعاد إلى بلاده عاقدًا العزم على شن حرب جديدة على العرب ولكنه بعد ذلك بفترة قصيرة قتل من أحد قادة القبائل التركية الأخرى بتحريض من الصينيين، وكان اتحاد الأتراك بزعامة ذلك الخاقان قد انحل وعادت القبائل التركية إلى مشاحناتها القبلية السابقة.

بعث أسد بن عبد الله برسول على وجه السرعة لكي يحمل أخبار الانتصار إلى دمشق، وكان الرسول وهو متعب وملطخ بآثار السفر يقف خارج باب القصر ويصيح «الله أكبر الله أكبر» وصاح عندما دخل على الخليفة «الانتصار الانتصار يا أمير المؤمنين». وعندما روى حكايته خطا هشام خطوات من الأريكة التي كان يجلس عليها وسجد على الأرض، وحمد الله على ذلك.

من كل الأجناس التي غزاها العرب قاوم بربر شمال أفريقيا العرب أشد مقاومة. وكما روينا فإن مقاومتهم هدأت عندما غزاهم موسى بن نصير، وفي عام ٧١٢ م عبر إلى إسبانيا تاركًا ابنه عبد الله لكي يخلفه على شمال أفريقيا. وبعد ذلك دخل كثير من البربر الإسلام ولكن دخولهم في الإسلام لم يجعلهم خاضعين للسيادة العربية. ولكن على العكس أضاف إلى الساخطين منهم المظالم نفسها التي رأيناها قبل ذلك تؤدي إلى الثورة في خراسان؛ وهي الشكوى من أن العرب لم يعترفوا بالمساواة الاجتماعية للبربر الداخلين في الإسلام مع العرب المسلمين. وروينا مرارًا عن الخوارج المتعصبين والمتزمتين، وبحثهم عن حكم الله فقط، وشجبهم لظلم الأمراء والخلفاء، وزهدهم الشديد، وصفاتهم القتالية الشرسة وادعائهم أن كل المسلمين الذين لا ينتمون إلى طائفتهم يجب أن يقتلوا. وقد تم قمعهم بشدة بعد عهد عبد الملك بن مروان، وبعد ذلك بدءوا يتسللون إلى شمال أفريقيا. ولاقت دعوتهم نجاحًا كبيرًا بين بربر شمال أفريقيا؛ لأن كليهما يكره الحكومة الأموية. وإضافة إلى ذلك فإن الخوارج كانوا يعترفون بمساواة كل المسلمين، ولا يؤيدون العنصرية وبناءً على ذلك أيدوا قضية البربر الذين اعتنقوا الإسلام. ونظرًا لأن البربر كانوا بسطاء وسذجًا ويأخذون الأمور بجدية، وكانت تنقصهم النزعة الساخرة التي كانت تميز العرب فقد أثارتهم إلى أقصى مدى الروح الحماسية للخوارج.

في ثورات البربر السابقة كانوا يناهضون الإسلام. أما الآن فإن الخوارج يثيرون فيهم أنهم مسلمون أكثر من أمير المؤمنين نفسه. وفي تناقض غريب للأدوار.أصبح البربر الآن على أتم استعداد للثورة باسم العقيدة الإسلامية ضد أهل السنة الذين قبلوهم كمسلمين في

بادئ الأمر. وعندما بويع هشام بالخلافة عام ٧٢٤ م كان الحكم العربي في شمال أفريقيا قد وصل إلى مرحلة خطرة. وفي عام ٧٤٠ م اشتعلت ثورة عامة شملت كل البربر من طنجة إلى القيروان. وواجه الثوار القوات العربية في معركة كبيرة في وادي شيليف بين الجزائر العاصمة ووهران. وأحاط عدد كبير جدًا من رجال قبائل البربر بالعرب الذين أثبتوا مرة ثانية واحدة من أنبل صفاتهم؛ وهى أنهم دائمًا ما يعرفون كيف يموتون، فاستمروا في القتال حتى أبيدوا جميعًا. وفقد كثير من القادة العرب حياتهم في تلك المعركة لدرجة أنها عرفت عند العرب بعد ذلك بمعركة النبلاء.

كان الخليفة هشام بن عبد الملك غاضبًا جدًا عندما سمع عمّا حدث في هذه المعركة لدرجة أنه أقسم أن يلقن البربر درسًا، فجهز جيشًا مكونًا من سبعة وعشرين ألف رجل في سوريا ووصل هذا الجيش إلى أفريقية (تونس) في صيف عام ٧٤١ م. وتقدم إلى مسافة أبعد من إقليم طنجة حيث هُزم كليةً من قبائل البربر في بجدورة في وادي سيبو. وفقد العرب جزءًا من شمال أفريقيا غرب القيروان.

رفض الخليفة أن يستسلم. وفي عام ٧٤٢ م وصل جيش جديد من سوريا بقيادة هندال ابن صفوان وهزم البربر. وعاد البربر إلى الثورة من جديد، ووجد الوالي الجديد نفسه محاصرًا في القيروان من عدد كبير من رجال قبائل البربر. وكان لا يأمل في وصول نجدات حربية من سوريا؛ لأن الاحتياطى العسكري هناك كان يقل بسرعة فقرر هندال بن صفوان حلًا يائسًا، وهو توزيع الأسلحة والدروع من مخازن الأسلحة على كل ذكر. وعند ظهور أول ضوء للفجر تتجمع الحامية العربية في ميدان بمدينة القيروان، حينما تضيء نيران الحشود الكثيرة للبربر السهل الذي يحيط بالمدينة.

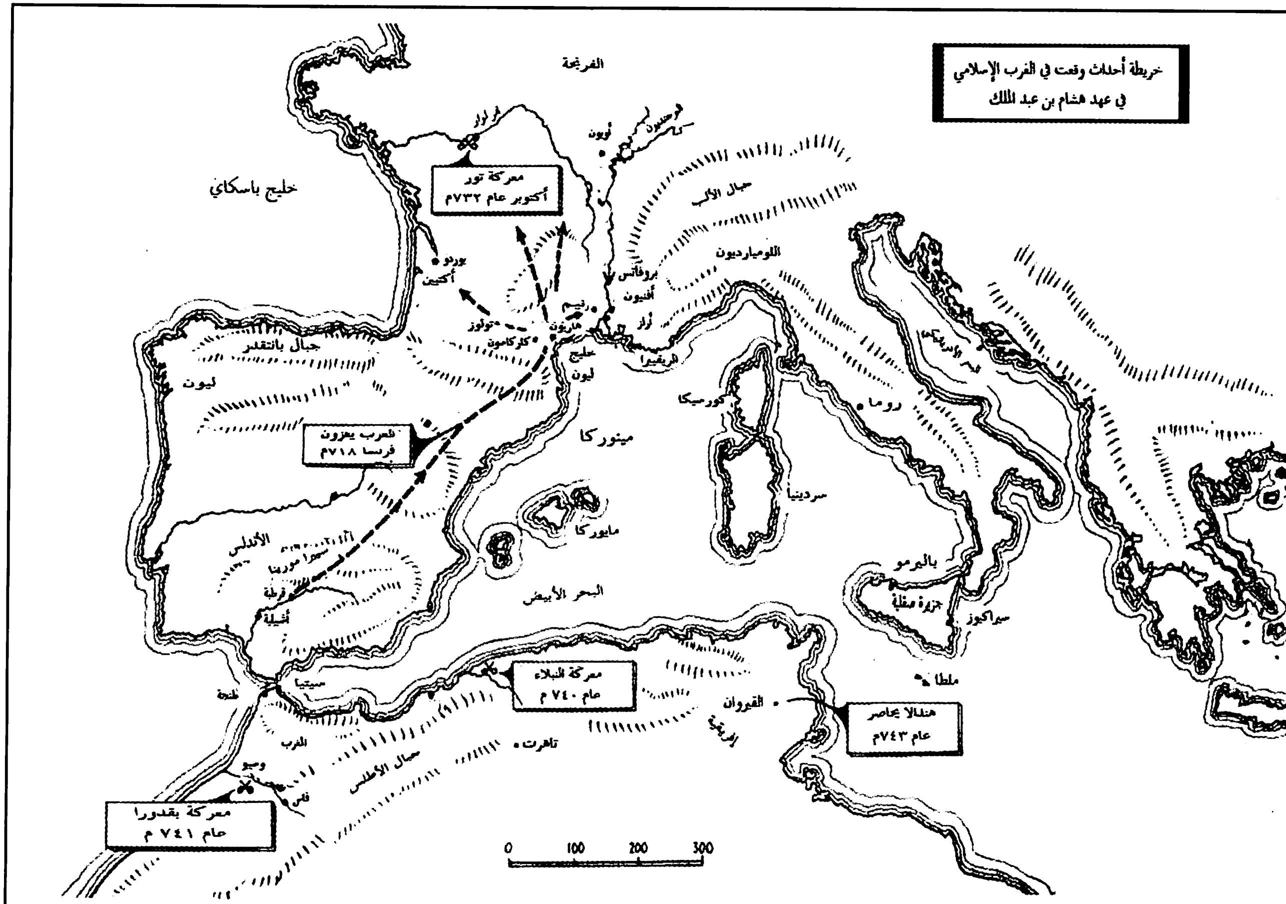
عندما يزداد ضوء النهار إشراقًا يسحب كل رجل عربي سيفه ويقذف بالخنجر الذي معه البربر، الذين يحرسون بوابة المدينة، ففتحت بوابة المدينة وقامت الحامية العربية بهجوم لفك الحصار الذي يحيط بها يقودها البطل الشجاع هندال، وهو رجل رائع لنبل صفاته وشجاعته، وقام العرب بهذا الهجوم يدفعهم الغضب اليائس. وكان القتال يدًا بيد

طويلًا وضاريًا ولكن بعد فترة بدأ البربر في الانسحاب ثم التراجع والهروب. وقتل الآلاف في المطاردات الشديدة، ورفع الحصار وعاد منتصرًا لكي يحمد الله على النجاة من هذا الحصار الذي يشبه المعجزة. وفي عام ٧٤٢ م عاد الحكم العربي لكي يوطد من جديد في أفريقيا (تونس) والمغرب.

تركنا إسبانيا في عام ٧١٤ م عندما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير فترك ولده عبد العزيز لكي يخلفه في ولاية إسبانيا. ورأينا أيضًا كيف أن الخليفة سليمان بن عبد الملك بعث بقتلة نجحوا في قتل عبد العزيز في جامع قرطبة الكبير. وبقيت إسبانيا نظريًا على الأقل إقليمًا خاضع إلى والي أفريقية (تونس) في القيروان الذي كان مشغولًا في الحروب التي لا تنتهي مع البربر.

هكذا ترك مسلمو إسبانيا وعربها وبربرها لكي يدافعوا عن أنفسهم فنجحوا في ذلك مبدئيًا لأنهم كانوا يمتلئون بالنشاط وروح المبادرة. وفي عام ٧١٨ م اخترقوا الطرف الشرقي من جبال البرانس واحتلوا كاركاسون ناربون، ومن هناك أغاروا على مناطق أبعد من أكيتين وبرغندي. وفي عام ٧٢١ م صدهم إيدس دوق أكيتين عن أسوار تولوز. وكانت مملكة الفرنجة في ذلك الوقت في قمة انحطاطها. وكانت أسرة ميروفنجيان الحاكمة التي أسسها كلوفيس من عام٤٨١ –٥١١م عاجزة، وفقد ملوكها سلطتهم التي اغتصبها منهم ما يسمون بأمناء القصر. وكنتيجة لذلك تركوا إيدس في أول الأمر لكي يدافع عن نفسه دون حماية ضد المسلمين.

في عام ٧٢٥ م تقدم العرب أكثر واحتلوا معظم أراضي ريف نيم، ومن هناك أغاروا في اتجاه الشمال نحو وادي الرون، ووصلوا في النهاية إلى أوتون (مناطق بفرنسا)، ومن هناك استعادوا ليدن وغنموا مغانم كثيرة. وفي عام ٧٣٢ م حاصر العرب بقيادة واليهم عبد الرحمن بن عبد الله بوردو، وهزموا الكونت إيدس ودمروا البلاد التي تقع إلى أقصى الشمال من نهر لوار، فاستنجد إيدس بتشارلز مارتل أمين قصر مملكة الفرنجة الذي زحف في اتجاه الجنوب. وحدثت معركة ضارية في أكتوبر عام ٧٣٢ م بين العرب والفرنجة


خريطة أحداث وقعت في الغرب الإسلامي
في عهد هشام بن عبد الملك
الفرنجة
خليج باسكاي
معركة تور
أكتوبر عام ٧٣٢م
ليون
بوردو
أكتين
جبال الألب
اللومبارديون
بروفانس
أفنيون
أرلز
ناربون
كركاسون
تولوز
خليج ليون
الريفيرا
العرب يغزون
فرنسا ٧١٨م
مينوركا
كورسيكا
روما
سردينيا
مايوركا
الأندلس
قرطبة
أشبيلية
البحر الأبيض
باليرمو
جزيرة صقلية
سيراكوز
مالطا
معركة النبلاء
عام ٧٤٠ م
القيروان
إفريقية
تاهرت
جبال الأطلس
المغرب
طنجة
سبتة
معركة بقدورا
عام ٧٤١ م
0 100 200 300

بالقرب من تور قتل فيها عبد الرحمن بن عبد الله وتقهقر العرب بعد ذلك، وأصبح تشارلز قائدًا عسكريًا وسقط من الفرنجة عدد كبير من الجرحى لدرجة أنهم لم يعقدوا العزم على مطاردة العرب ولكنهم انسحبوا هم أيضًا. وفي عام ٧٣٥ م مات إيدس وأضاف تشارلز مدينة أكيتين إلى سيادة الفرنجة. ولم يحاول أن يهاجم العرب الذين كانوا يسيطرون على آرل.

من العبث أن نخمن ماذا كان سيحدث لو أن العرب هزموا الفرنجة في تور؟. هل كانوا سيتقدمون مائتين وخمسين ميلًا إلى مضايق دوفر؟ أو هل كانوا سيتجهون نحو الشرق نحو إيطاليا ويسيرون إلى روما؟ وكما ثبت فإن مدينة تور كانت أكبر حد مائي لتوسع العرب.

كان المسلمون يحتلون الشاطئ الكلي لخليج ليون لمدة أربع سنوات فاصلين مملكة الفرنجة عن البحر الأبيض المتوسط. وفي عام ٧٣٧ م احتل العرب أفينيون، ولكن تشارلز مارتل استعاد المدينة، وتقدم مسافة إلى مدينة ناربون. ومن الصعب أن نتتبع كل هذه الحملات العسكرية؛ لأن البلد التي نعرفها الآن باسم فرنسا لم تكن في ذلك الوقت متحدة تحت حكم الفرنجة، وكانت مدينة أكيتين في ذلك الوقت غالبًا مستقلة وكانت تعادي تشارلز مارتل جهارًا، وكان البيرغنديون وأهل بروفانس يعادون تشارلز مارتل كذلك.

في عام ٧٣٨ م فتح العرب مرة ثانية آرل وكانوا يهددون أيضًا حدود إيطاليا على ما نسميه الآن شاطئ الريفيرا. ووجد ليتبراند ملك اللومبارديين في شمال إيطاليا أن عليه أن يزحف ضد العرب ويطردهم من هناك. وكان العرب لمدة أكثر من عشرين عامًا يسيطرون على منطقة كبيرة في فرنسا تصل في أقصى اتساعها إلى نصف فرنسا. ويعزى فشلهم النهائي في الاحتفاظ بهذه المنطقة أولًا إلى عبقرية تشارلز مارتيل وثانيًا إلى خلافاتهم الداخلية في إسبانيا.

من عام ٧٣٢ إلى عام ٧٤١ م عين الخليفة عقبة بن الحجاج بن يوسف الثقفي واليًا على إسبانيا وكانت إسبانيا هادئة في عهده. ومات في يناير عام ٧٤١ م وخلفه عبد الملك

ابن قطان من المدينة المنورة. وبعد معركة النبلاء التي أباد فيها البربر الجيش السوري الأموي في أفريقيا لجأ آلاف الأمويين الباقين على قيد الحياة إلى إسبانيا. وحدثت معركة النبلاء في أفريقيا (تونس) عام ٧٤٠ م. وفي العام التالي لتلك المعركة ثار بربر إسبانيا ضد العرب متأثرين بالنجاح الذي حققه بربر شمال أفريقيا، ونتج عن ذلك حرب أهلية إسلامية مريرة، وبعد قتال شديد تم قمع الثورة. وبعد ذلك نشبت معركة بين العرب أنفسهم؛ لأن أهل المدينة المنورة منذ معركة الحمم في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان كانوا يعارضون حكم الأمويين؛ ولذلك اشتركوا في معارك مع الأمويين، وانتقلت هذه العداوات المريرة إلى إسبانيا. وفي آخر الأمر تم قمع أهل المدينة المنورة ووصل والٍ جديد إلى هناك من أفريقية، وتم استعادة النظام هناك. وفي عام ٧٤٥ م يجب أن نترك عرب إسبانيا لكي نعود إلى الأحداث التي وقعت في دمشق.

في عام ٧٤٠ م حدثت مأساة أخرى مروعة في الكوفة؛ وهي أن زيدًا حفيد الحسين الشهيد ذهب إلى الكوفة في دعوى قضائية. ولكن بعد استقراره فيها لمدة عام أخذ يجند الأنصار له سرًا. والتتابع الوراثي من علي بن أبي طالب على حسب معتقدات الشيعة لا يصل إلى زيد ولكن يصل إلى أخيه الأكبر محمد الذي مات في ذلك الوقت. وأصبح جعفر بن محمد الملقب بالصادق إمام الشيعة في ذلك الوقت. وزار وفد من الكوفة جعفر الصادق في الحجاز لكي يستفسر عن أوامره بخصوص زيد فأخبرهم أن يؤيدوه. واختار زيد السادس من يناير عام ٧٤٠ م للقيام بالثورة في الكوفة، وكان قد أعلم أنصاره بتاريخ الثورة. وأحيط والي الحجاز بسرعة بتفاصيل المؤامرة فدعا أهل المدينة إلى اجتماع في الجامع الكبير قبل تنفيذ الثورة بساعات قليلة، وأغلقت أبواب المسجد ووجد الثوار أنفسهم معتقلين.

في الساعة المحددة عرّف زيد نفسه للناس فصاح بعض أنصاره «يا منصور يا منصور»، فلم يظهر إلا عدد قليل من أنصاره مسلحين ومبعثرين. وبعد فترة تجمع ثلاثمائة من الفرسان وأخذوا زيدًا معهم. وحدثت بعض المناوشات لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، وقتل عدد من الأشخاص وجرحوا. وأخيرًا قُتل زيد بسهم وتفرق أنصاره بسرعة. وقطعت رقبة زيد

وأرسلت إلى هشام في دمشق، وصلب جسده خارج الكوفة. وهكذا انتهت في إخفاق تام واحدة من محاولات بني علي بن أبي طالب لتولي الخلافة. وتلى ذلك محاولات أخرى منهم ولكنهم تقريبًا كانوا لا يصلحون لتولي الخلافة من الناحية السياسية. ويتذكر الإنجليز جيدًا آل ستيوارت الذين كان عدم نجاحهم يزيد من تعاطف الناس معهم.

كانت ثورة زيد عام ٧٤٠ م لها معنى خاص؛ لأنها خرجت من عباءتها الطائفة الزيدية التي لا تزال موجودة وخاصة في اليمن، والتي تنتمي إليها العائلة المالكة سابقًا في اليمن. ولجأ حسن بن زيد إلى الجبال في الطرف الجنوبي من بحر قزوين حيث أقام بعد ذلك دولة زيدية، وتعتبر طائفة الزيدية فرع من فروع الشيعة.

في تلك الأثناء كانت هناك حركة ثورية أخرى تزداد قوة أكثر فأكثر وهي الدعوة إلى بني العباس، التي كانت تمضي قدمًا وتذكرنا بالحركات الثورية في عصرنا هذا. وكانت شبكة خلاياها تغطي العراق وفارس، وكانت أقوى خلاياها في خراسان العنيدة. وكانت السلطات تعي في ذلك الوقت بأن هناك تحريضًا سريًا على الثورة. وفي كل لحظة تقبض على القليل من الرجال وتعدمهم وتقطع أيديهم وأرجلهم، وتعتقل الآخرين في السجون، ومع أن عدد المعتقلين كان قليلًا بالمقارنة إلى المعتقلين في معسكرات الاعتقال في الدول الدكتاتورية في عصرنا هذا. وكما يحدث غالبًا في حالة الحركات السرية لم تكن السلطات قادرة على إيجاد دليل ضد المشبوهين.

في عام ٧٤٢ م مر على الكوفة بوكير بن ماهان، وهو موظف كان يعمل معاونًا لوالي السند وكان واحدًا من المنظمين الرئيسيين لحملة الدعوة لبني العباس، ووجد عددًا من أنصاره معتقلًا في القلعة. وكان ينتظر هؤلاء المعتقلين صبي عبد يسمى أبو مسلم الخراساني. وكان يسمع المعتقلين يتناقشون في مساوئ الخلفاء، ويتأثر بذلك بعمق ويذرف الدموع. وكانت هذه المشاعر تؤثر في بوكير الذي اشتراه مقابل أربعمائة دينار. وسنسمع أكثر عن أبي مسلم فيما بعد.

توفى الخليفة هشام بن عبد الملك وعمره ثلاثة وخمسون عامًا أو أربعة وخمسون عامًا وكان حاكمًا ذكيًا وحكيمًا عمل بجد في حكم الإمبراطورية. وكان يراقب بدقة إيرادات

بيت المال، وكان مجتهدًا للغاية في قراراته الفقهية. وقال واحد ممن عاصروه: «لم أر واحدًا من الخلفاء كان سفك الدماء مكروهًا لديه من هشام بن عبد الملك». وكان يربي أولاده على النظام الدقيق ويبعث بهم إلى الحملات العسكرية على الإمبراطورية البيزنطية. وكان واحد منهم متغيبًا عن صلاة الجمعة، وعلل غيابه عنها بأن فرسه كان قد مات، فرد الخليفة بأن ذلك ليس بعذر لعدم حضور الصلاة، وأمره بأن يذهب إلى المسجد كل يوم جمعة لمدة عام.

كتب ابن آخر له ويبدو أنهما كانا خائفين أو لا يستطيعان مخاطبته وجهًا لوجه بأن بغلته ضعيفة جدًا ولا يستطيع أن يركبها، وطلب منه واحدة أخرى، فرد هشام بطريقة لا يؤيده فيها أن بغلته بلا شك ضعيفة لأنه تركها للسايس يعلفها. وقال له: «زن العلف الذي تأكله وقدمه لها بنفسك»، واستطرد والده العنيد «ستجد أن بغلتك ستصبح قوية في وقت قصير».

كان يشرف على كل شيء بنفسه بما في ذلك زراعة أراضيه، وعلّم المزارعين أن يجمعوا الزيتون ويحصدوه يدويًا وألا يضربوا الأشجار بالعصي لكي يسقطوا الثمرات، وكانت هذه الطريقة غالبًا متبعة حاليًا وكان يمنعها موظفو الحكومتين الأردنية والسورية. ونتساءل كيف أن هذه الطريقة لم تتغير إلا قليلًا منذ عام ٧٤٠ م؟

نتيجة لحرص هشام فإنه كان مشهورًا بالبخل. وقد نقبل هذه الرواية بتحفظ لأن الكرم كان يصل إلى كونه نقيصة بين العرب: فلقد أدى إسراف كثير من الخلفاء في الإنفاق إلى ضعف الإمبراطورية. وكان هشام أحول العينين وكان فظًا وقصيرًا وبدينًا يشبه الفلاحين، وكان مغرمًا بشدة بالخيل، وكان ينظم الكثير من سباقات الخيل في دمشق، وكان يدعم الحصون على الحدود ويبني قنوات وصهاريج المياه على طريق الحجاج إلى مكة. وباختصار كان يعمل بجدية، وكان حريصًا بالنسبة للمال وكان نشيطًا وعمليًا.

هناك نادرة لطيفة تظهر أنه حتى في هذا العصر كانت هناك مساحة ديمقراطية معقولة من حرية الرأي نحو الخلفاء، وهي نقطة جديرة بالملاحظة فيما سيأتي بعد ذلك. فقد كان

الخليفة هشام في أحد الأيام يستعرض الجيش في حمص. وعندما ركب فرسه جمح فرس واحد من ضباط الجيش بعنف فسأل الخليفة الضابط: «ما الذي جعلك تختار فرسًا مثل ذلك كفرس للقتال؟».

رد الضابط: «لا والله يا أمير المؤمنين إنه ليس فرسًا نافرًا، المشكلة أنه فرس أحول مثلك تمامًا ولذلك حسبك عين غزوان البيطار».

كان غزوان البيطار رجلًا مشهورًا بالحول فرد الفلاح جورج أو الخليفة هشام بفظاظة ولكن دون سخط: «فليلعنك الله وليلعن فرسك».

يروي المسعودي أن بني أمية قدموا ثلاثة خلفاء كبار: معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك. وبالنسبة للأخير فإنه وإن لم يكن عبقريًا فقد كان على الأقل متمرسًا، وجادًا في عمله، وموثوقًا به، وناجحًا. ومات عام ٧٤٣ م تاركًا الإمبراطورية منتصرة وهادئة بعد تسعة عشر عامًا من الحكم المزدهر.

انتهى عهد هشام بن عبد الملك وكان العرب لا يزالون في عنفوان قوتهم العسكرية، وهنا تبدو اللحظة مناسبة لذكر ملحوظة حول أساليب القتال عندهم.

حقق العرب إمبراطوريتهم الواسعة في وقت قصير جدًا بصورة مدهشة على الرغم من أنهم لم يخوضوا حروبًا عسكرية كقوة عظمى. ويمكن إيجاد السبب لذلك بلا شك في الحماس الديني الذي كان يصاحب الفتوحات العربية الأولى. ولكن لا يجب أن ننسى أنه بعد انتصاراتهم الأولى من ٦٣٤ م إلى عام ٦٥٤ م أصبحوا بلا منازع أكبر قوة عسكرية في العالم لمدة مائتي سنة، وهي مدة بطول فترة استيلاء وولف على كويبك بكندا حتى اليوم. ولكن لا يمكن أن نعزو بقاء عظمتهم العسكرية لمدة طويلة إلى الظهور المفاجئ لحماس مفرط؛ وهذا يعني أنهم كانوا يملكون أعظم جنود زمانهم علمًا لمدة قرنين.

لسوء الحظ فإن معلوماتنا عن عملياتهم الحربية في الأيام المزدهرة للدولة الأموية ضئيلة، ولكن مع ذلك فإننا يمكن أن نذكر بعض الملاحظات المهمة. ونميل إلى توقع تكتيكات

العرب الحربية بأنها تتكون من هجمات متصاعدة تلقائية بأقصى سرعة، وهذه الهجمات تنفذ في حالة من الإثارة المتهورة والمسعورة. وبناءً على ذلك من المدهش أن نكتشف أن العرب كانوا يفضلون أن يأخذوا موقف المدافع في بداية القتال. ولهذا الغرض كانت قوات المشاة العربية تتشكل من صفوف متلاصقة. وكان حملة الرماح يركعون على ركبة واحدة ويغرزون الطرف الغليظ لرماحهم على الأرض ويغطون أجسامهم بدروع طويلة، ومن هنا يشكلون حائطًا صلبًا من الدروع والسنون الحادة. أما صفوف مؤخرة الجيش فتتكون من حملة السيوف وخلفهم حملة السهام. وبهذا التشكيل كانوا يواجهون هجوم الأعداء. وإذا تمكنوا من صد الهجوم يتقدمون، وإذا تقدموا يتحركون إلى الأمام ببطء تقريبًا ياردة كل لحظة بهدف الحفاظ على خطوطهم قوية تمامًا. ورأينا الجيش الأموي السوري يستخدم هذه التكتيكات ضد الخوارج خارج الكوفة.

مما يثير الدهشة أيضًا أن الفرسان لا يهاجمون بكامل قوتهم ولكن ببعضها لكي لا يفقدوا تماسكهم ويتورطوا في مطاردات عديمة القيمة. وبمجرد أن ينكسر تشكيل قوات العدو يتجمعون من جديد ويعودون إلى أماكنهم الأصلية في جبهة القتال. وخلال كل الروايات التي قيلت عن المعارك الحربية نجد أن التركيز فيها يكون على أن الشجاعة العسكرية لا تتكون في لحظة واحدة ولكن بقوة الاحتمال.

لا يبدو ممكنًا أن نكتشف التاريخ المحدد الذي انخرطت فيه القبائل في وحدات عسكرية منظمة. ولكن في معركة صفين عام ٦٥٧ م نجد وحدة عسكرية مكونة من أربعة آلاف رجل يرتدون زيًا عسكريًا فيه خوذات خضراء. وكان تنظيم الجيش بلا شك مقتبسًا بصورة أصلية من البيزنطيين الذين كانوا يملكون قرونًا من الخبرات في هذا السبيل[*].

كان العرب يستفيدون استفادة كاملة من الكمائن في أي معركة ضارية. وقبل المعركة بليلة تخرج كتائب تحت جنح الظلام وتربض في ميدان المعركة في سرية فحسب ككتائب

(*) (كان العرب يمتلكون خبرات عسكرية من النزاع بين القبائل والحروب بينهم استطاعوا بها أن يقهروا الروم في معركة اليرموك – المترجم).

استطلاع لمراقبة تقدم العدو. ويصطف الجيش العربي الرئيسي في الفجر أمام العدو. وفي لحظة مناسبة في المعركة يخرج متجاوزًا الكمائن فجأة ويهاجم العدو في أجنحته ومؤخرته. وكان أول ذكر لتلك المناورة عام ٦٤٠ م في معركة هيليوبوليس، وكان القائد العربي فيها هو عمرو بن العاص.

أخذ العرب فيها احتياطات كبيرة لضمان سلامتهم ضد المفاجآت. وعند الذهاب للقتال كان الجيش العربي يمشي بخطوات الاشتباك بالحرس المتقدم وحرس الأجنحة والجيش الرئيسي وحرس المؤخرة. وكان رجال الاستطلاع والجواسيس يسبقون الجيش كله. وعندما يتيقنون أن العدو يسير على بعد خمسة أيام يسير الجنود بكل راياتهم مستعدين للاشتباك في المعركة. وكانت الرايات هي التي تجمع شمل الجيش، وتؤدي دورًا بارزًا في المعارك.

كانت الجيوش باهظة الثمن كما في زماننا هذا. وكان الجندي العربي يتسلم عطاءً أكبر بكثير من نظيره البيزنطي، ويوزع عليه جرايات للطعام. وكان تقليد توزيع الغنائم على الجنود لا يزال متبعًا. وفي حالة الغارات الصيفية السنوية على الأراضي البيزنطية كانت الغنائم غالبًا ما تكون ثمينة جدًا. وبالإضافة لهذه المميزات كان عطاء الجنود في تلك الفترة في الأجور الإضافية أقل من البيزنطيين. وكان متوسط أجر الجندي العربي يصل تقريبًا إلى خمسمائة درهم في العام، وكان الفرسان يتلقون ضعف هذا الأجر مقابل تقديم خيولهم للمعركة.

لم تتغير أسلحة الجندي كثيرًا عما كانت أيام النبي صلى الله عليه وسلم، فيما عدا أن الجيش قد أصبح نظاميًا والأسلحة والدروع أصبحت قياسية. وبالإضافة إلى الخوذة والسترة المدرعة كان الفرسان يرتدون قطعًا من رقائق الدروع على سيقانهم. وفي عهد الوليد ابن عبد الملك يذكر الفرسان وهم يحملون رماحًا وقضبانًا حديدية. وفي كل ليلة كان الجيش ينصب معسكراته بطريقة منظمة ويقويها بحفر الحفر. وبقدر الإمكان إذا كان الاشتباك العام في المعركة سيحدث توضع الأمتعة في معسكر محصن خلف خطوط القتال. قبل بدء

المعركة كانت مستلزمات الحصار للأعداء تتطلب كميات كبيرة من المعدات الغالية الثمن بما فيها المنجنيق والقاذفات لقذف قطع الصخور والسهام ضد أسوار المدن المحاصرة. وكانت قوات القذف يصاحبها بنّاءون يقطعون الصخور من الجبال القريبة ويشكلونها على شكل مناسب للقذف. وتعلم العربي كل الطرق الفنية لفرض الحصار. وكانت هناك آلات رمي لمهاجمة بوابات المدن مع وجود حام للرأس من المقذوفات الملقاة من أسوار المدن المحاصرة. وكانوا يحفرون خنادق سطحية وأنفاقًا. وكانت قوافل الجمال تستخدم لحمل الأمتعة والخيام والأسلحة والمؤن والمعدات ومستلزمات الحصار. وكانت البغال تستخدم للتحميل عليها.

كانت تنفق مبالغ كبيرة على الحصون؛ ففي الجبهة البيزنطية كانت مدن مثل طرسوس ومالاتيا ومرعش والمصيصة وأضنة هي الحصون الرئيسية، ولكن كانت هناك حصون أصغر. وعلى الرغم من زيادة الأموال التي تنفق على تحصين الحدود البيزنطية عن أي مكان آخر كانت التحصينات نفسها تستخدم في كل مكان على بوابات دربند ضد الخزر وفي خراسان وعبر الأوكسيانة.

باختصار يمكننا القول بأن العرب بقدرتهم المعتادة على التكيف مع الظروف قد غيروا كليةً الأساليب التلقائية للحروب القبلية في أيام النبي صلى الله عليه وسلم. وأجادوا بسرعة الأساليب العلمية للبيزنطيين والفرس. وأصبح العرب لقرنين من الزمان أكبر قوة عسكرية عالمية فنية ومتمرسة للغاية. بل وأكثر من ذلك كانت أساليبهم العسكرية تتميز بالتروي والتنسيق والتنظيم والمنهجية. وفي جبهة المعركة ذاتها كانت تكتيكاتهم بطيئة وحذرة ودقيقة، وفوق كل ذلك كانت صفات مثل الصبر وقوة الاحتمال والمثابرة والحذر متوافرة باستمرار عندهم.

في البحر كان تفوق العرب أكبر من تفوقهم على الأرض. وهذا كان يثير الدهشة أكثر؛ لأنه حتى عام ٦٥٠ م كان معظمهم يجهل أي شيء عن البحر كليةً. وبين الشعوب التي فتح العرب بلادها وبالذات على شاطئ سوريا البحري وإلى حد أقل في مصر، كان يوجد الكثير من البحارة يمارسون مهنة تقليدية قديمة وهي العمل في السفن التجارية.

في السنوات القديمة من عام ٦٥٠ م إلى ٧٠٠ م كان البحارة من هذه الشعوب يبحرون ويجدفون على سفن، في حين أن العرب أخذوا مكانهم على ظهر السفن وهم يظهرون بطولتهم القتالية. وكان القبطان المسئول عن القتال عربيًا. والريس الذي كان لبنانيًا أو مصريًا مسؤولاً عن الإبحار وقيادة طاقم السفينة. وبعد عام ٧٥٠ م أصبح معظم البحارة مسلمين واختفت الفروق العنصرية.

كانت السفن العربية التي كانت تدشن بصفة رئيسية في موانئ لبنان تشبه بلا شك السفن البيزنطية. وكانت ولايات مثل أفريقيا (تونس) والأندلس تدشن السفن الخاصة بها. وكانت الوسيلة الرئيسية لدفع السفينة هي قوة المجدّفين. وفي السفن الكبرى كان يوجد مائة من المجدفين على جانبي السفينة يجلسون على خمسة وعشرين مقعدًا بمعدل رجلين على كل مقعد. وفي مقدمة السفينة يوجد معقل الجنود حيث يقف كل جندي مصوبًا قوسه وسهامه ومستعدًا لاقتحام السفن الأخرى. وفي بعض السفن الكبرى كانت السفينة مكونة من دورين يشغل الجنود فيها الدور العلوي بينما يشغل المجدفون الدور السفلي.

كانت تكتيكات العرب في البحر ترمي إلى مهاجمة سفن الأعداء مباشرة وربط كل سفينة للأعداء إلى سفينتهم بالخطاطيف وحسم الأمر بالقتال بالسيوف على ظهرها. وأحيانًا، كما روينا، كانت السفن البيزنطية تجهز بفوهات يطلق منها نار سائلة. ولم يستطع العرب أن يردوا على هذا السلاح، وهزم أسطولهم كليةً أثناء حصار القسطنطينية. والآن لا نسمع أي ذكر لقاذفات اللهب في السفن في المعارك البحرية في البحر الأبيض المتوسط؛ ربما لأن النار السائلة لا تصلح للسفن التي تبحر أعالي البحار خشية أن يتم أسرها أو تحطيمها ويتم كشف سر هذا السلاح الرهيب إلى الأعداء. ويكفي أن نقول إن العرب تمتعوا بالسيطرة البحرية على البحر الأبيض المتوسط لمدة أربعمائة عام، وهي فترة طويلة تقارب الفترة منذ معركة الأرمادا الإسبانية إلى عصرنا الحاضر.

تواريخ بارزة

- ٧١٨ م....... غزو العرب لجنوب فرنسا.
- ٧٢٤ م....... مبايعة هشام خليفة.
- ٧٢٥ م....... العرب يحتلون نيم.
- ٧٢٨ م....... الثورة في خراسان.
- ٧٣٠ م....... الخزر يغزون أذربيجان.
- ٧٣٢ م....... معركة تور.
- ديسمبر ٧٣٧ م....... هزيمة خاقان الترك في خريستان.
- ٧٣٧ م......العرب يستولون على أفينيون ثم يفقدونها.
- ٧٤٠ م...... ثورة زيد بن علي في الكوفة ووفاته.
- ٧٤٠ م....... ثورة البربر في شمال أفريقيا.
- ٧٤٠ م........ معركة النبلاء.
- ٧٤١ م......... معركة باجدورا في أفريقيا.
- ٧٤٢ م.........هندال يهزم البربر خارج القيروان.
- ٧٤٢ م...... إعادة توطيد الحكم العربي في شمال أفريقيا.
- ٧٤٣ م......... وفاة هشام بن عبد الملك.

الشخصيات

- الخليفة هشام بن عبد الملك.
- مسلمة بن عبد الملك شقيق هشام وقائد الجيش.
- مسلمة يولي مروان بن محمد واليًا على أذربيجان.
- خاقان الترك المزعج القديم.
- هندال بن صفوان والٍ على القيروان.
- إيديس دوق أكيتين.
- تشارلز مارتل أمين قصر ملك الفرنجة ٧١٧-٧٤١ م.
- القائد العربي عبد الرحمن بن عبد الله يهزم ويقتل في تور.
- زيد بن علي حفيد الحسين يقتل في ثورة الكوفة.
- أبو مسلم الخراساني مولى (عبد سابق) يتطوع للمساعدة في حملة الدعاية لبني العباس.

الفصل الحادي عشر

انهيار دولة بني أمية

كانت دمشق معقل الأمويين. وفي عهد الوليد الثاني حدث فيها تغيير مصيري للوهلة الأولى. وكان ولعه بالموسيقى وسباق الخيل وفجوره وتحديه الصريح للمبادئ الأخلاقية يضع أحسن المدافعين عنه في معزل؛ فثار الناس ثورة عارمة وانضم إليهم سكان دمشق وعرضت رأسه المقطوعة في شوارع دمشق.

(أمير علي- تاريخ العرب)

إن تقلبات الحياة التي لا ترحم الإنسان ولا من يعتز بأعماله تدفن الإمبراطوريات والمدن في مقبرة التاريخ.

(إدوارد جيبون)

كان يزيد بن عبد الملك الخليفة السابق على هشام بن عبد الملك قد مات شابًا في الوقت الذي كان فيه ابنه الأكبر الوليد قد بلغ الخامسة عشرة من عمره. وكان يزيد غير قادر على ترشيح خليفة له شاب فرشح أخاه هشامًا للخلافة ولكنه كان قد دعا الناس إلى مبايعة ابنه الشاب الوليد كخليفة بعد هشام.

كان الوليد بن يزيد بعد وفاة والده قد تغيرت أحواله بصورة سيئة. ويزيد نفسه صاحب الجارية الحسناء حبابة لم يكن حاكمًا سويًا وكان الوليد بن يزيد معروفًا بإدمانه للخمر وسخريته واستهزائه بالدين. وكان يعبر جهارًا عن كراهيته الشديدة لعمه هشام

الذي تجنبه بقدر الإمكان، وكان الوليد بن يزيد يعيش بعيدًا عن دمشق. وكان هشام يلوم الوليد ويوبخه على طريقته الماجنة في الحياة، فرد الوليد بأبيات شعر بذيئة وتعليقات مهينة مشيرًا إلى عمه بهذا الأحول العجوز الملعون. ويروى أن الوليد قال إنه يريد أن يحج إلى مكة لكي يستصحب مجلسًا للشراب على ظهر الكعبة.

أراد هشام ببعض التبرير أن يقصي الوليد عن خلافته، وأن يوصي بالخلافة لابنه فنشأ عن ذلك بعض المشاكل المعتادة لأن أولي الأمر في الدولة الأموية كانوا قد التزموا بالاعتراف بالوليد كخليفة بعد وفاة هشام. ولا يستطيعون أن يتنصلوا من هذه المبايعة حتى يحلهم الوليد نفسه من هذه المبايعة، ورفض الوليد أن يفعل ذلك. وكنتيجة لذلك عند وفاة هشام نجح الوليد بن يزيد في أن يصبح خليفة بدون معارضة.

وعلى الرغم من أنه كان مدمنًا للخمر بصفة مستمرة وفاجرًا جهارًا، وروي أنه كان يستخدم القرآن كهدف لسهامه، فإنه كان كريمًا وسخيًا في حين أن هشامًا كان متهمًا بالبخل الشديد. وبدون شك أراد الوليد متعمدًا أن يجعل سلوكه مناقضًا تمامًا لعمه المكروه فزاد عطاء الجنود في الجيش مباشرة بنسبة عشرة في المائة. أما الشعراء والمغنون والموسيقيون الذين كان عطاؤهم قليلًا في عهد هشام فقد أجزل لهم الهدايا وتدفقوا على دمشق لكي يجنوا مكسبًا ذهبيًا ولقد كان الوليد نفسه شاعرًا كبيرًا وفي أبيات شعرية (*) ساخرة وعاطفية يقول:

أنا الوليد الإمام مفتخرا

أنعم بالي وأتبع الغزلا

أنقل رجلي إلى مجالسها

ولا أبالي مقالاً من عذلا

(*) من كتاب الأغاني للأصفهاني.

ما العيش إلا سماع محسنة

وقهوة تترك الفتى ثملا

لا أرتجي الحور في الخلود وهل

يأمل حور الجنان من عقلا

كانت واحدة من هوايات الوليد الثاني التي يعشقها سباق الخيل؛ ولذلك نظم عدة سباقات للخيل خارج دمشق في حلبة سباق جديدة.

بعد فترة قصيرة من تولي الوليد الخلافة رفع يحيى بن زيد بن علي بن الحسن راية العصيان في خراسان حيث هرب عندما قُتل أبوه في الكوفة. واستمر يثير بعض القلاقل لفترة ما من الوقت ولكنه قتل بعد ذلك في معركة مع الجيش الأموي من سهم قاتل. وعلق جسده الميت جهارًا وصلب. وطبقًا لرواية المسعودي لم يولد في تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمي بيحيى أو زيد لما داخل أهل خراسان من الحزن والجزع على الشهيدين.

بعد ذلك بفترة قصيرة نشبت ثورة في دمشق نفسها. وكان على رأس هذه الثورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك وحوصر الوليد بن يزيد في قلعة خارج دمشق. وكان معه عدد قليل من الأنصار، وحاول الخليفة الوليد عبثًا أن ينهي حياة المجون والفسق بإظهار شجاعة فائقة ضارية. ولكن كان قد فات الأوان. واقتحم الناس القلعة التي كان يلجأ إليها وقتلوه. وفي اليوم التالي وهو يوم ١٧ أبريل عام ٧٤٤ م رفع رأسه على رمح وطافوا به في شوارع دمشق. واستمرت خلافته سنة واحدة وثلاثة شهور.

كان يقود الثورة كما قلنا يزيد بن الوليد بن عبد الملك فبايعه الناس مباشرة خليفة للمسلمين في دمشق. وكان هو الخليفة الثالث الذي يحمل هذا الاسم. وكان يزيد الأول والثاني عابثين ولاهيين، أما يزيد الأول فكان الحاكم الذي قُتل الحسين بن علي في عهده، ويزيد الثاني كان العاشق الذي يحب الجارية حبابة. ويزيد الثالث كان يعد بأن يؤدي واجباته بما يمليه عليه ضميره.

كانت أمه الحفيدة الكبرى ليزدجرد آخر ملوك فارس. وكانت ابنة قيصر أم أمه، وكذلك كانت أمه ابنة خاقان الترك. وفي قصيدة تحمل معنى الفخر صرح يزيد:

أنا ابن كسرى وأبي مروان (*) وقيصر جدي وجدي خاقان

من المثير للجدل أن نذكر أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كان يعيش ويخاف أن يتصرف كملك. وروي أنه سأل مجموعة من أصحابه: «هل أنا ملك أم خليفة ؟» «الخليفة لا يأخذ أي شيء إلا بحقه» فرد واحد من الصحابة: «وأنت تحمد الله على ذلك؛ لأن الملك يظلم قومه». وفي الحقيقة لقد تغيرت تلك الأيام التي كان الخليفة فيها يفتخر بقرابته إلى الملوك والأباطرة غير المسلمين.

وعلى الرغم من افتخار يزيد بنسبه فلقد كان جادًا في سلوكه. وفي خطبته الاستهلالية في دمشق أعلن أنه خرج غضبًا لدين الله الذي أُمتهن وهُدمت معالمه من الوليد الفاسد. وتعهد في خطبته أن يخدم فقط مصالح الناس والدين الحق وأنه إن لم يوف للناس كل ذلك فلهم أن يخلعوه وأن يولوا عليهم واحدًا من أهل الصلاح والدين، يعطيهم من نفسه مثلما يعطيهم. كان أول ما فعل يزيد بن الوليد في مقتبل عهده أن منع المغنين والموسيقيين الذين كان يشجعهم سلفه الوليد بسخاء شديد جدًا من الغناء. ونذكر أن الوليد بن يزيد كان مبذرًا جدًا في إنفاقه وحاول أن يحصل على تأييد الجيش بزيادة عطاء الجنود. أما يزيد بن الوليد الحريص والذي كان يراعي ضميره فقد رأى أن عطاء الجنود في الجيش قد أصبح كبيرًا جدًا، أو أكثر مما يتحمله بيت المال؛ لذلك حاول أن يخفض هذا العطاء، فجادله الجنود مباشرةً «أتنقص من عطائنا يا يزيد؟»، فاشتهر باسم يزيد الناقص في التاريخ.

على كلٍ فإن يزيد الثالث كان خليفة ناجحًا وأعاد لفترة من الوقت لبني أمية المهابة والثروة وللأسف الشديد لم يعش طويلًا لكي يمنع الكارثة التي ستحل ببني أمية.

(*) من كتاب البداية والنهاية.

من الجدير بالذكر أن مسلمة بن عبد الملك كان القائد العسكري العام للإمبراطورية لعدة أعوام. وأصبح أربعة من أشقائه خلفاء: الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، ولكن لم يبد مسلمة أي اهتمام بالسياسة أو يبدي أي رغبة في الحكم. وكان يزيد بن المهلب يصفه بالهزيل والأسمر والنشيط وكان يسميه بالجرادة الصفراء، وكانت كل اهتمامات مسلمة موجهة إلى الجيش والمعسكرات. ولما أصبح في منتصف العمر درب ابن عمه مروان بن محمد بن مروان على طريقته العسكرية في الحياة نفسها. ورأينا كيف أن مسلمة في عام ٧٣٢ م قد أسند إلى مروان ولاية إقليم الجزيرة وأذربيجان.

كانت هذه التولية منه محاباة لمروان. وكانت هذه الولاية تضم سلسلة طويلة من الحدود البيزنطية في الغرب والقوقاز التي كان يحتلها الخزر المحاربون في الشمال. وفي عام ٧٣٧ م في حملة عسكرية بارزة عبر مروان بوابات دربند وهزم جيش الخزر كليةً، واقتحم بلادهم واستولى على العاصمة إتيل فاستعطف خان الخزر الكبير العرب لكي يتجنب نهاية أليمة له. ووافق على اعتناق الإسلام جهارًا. وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة التى يملكها الخزر لضمان انسحاب الجيش العربي من بلادهم.

كانت ابنة الخان متزوجة من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس، ومارس عليه الإمبراطور البيزنطي ضغطًا لكي يعتنق المسيحية فترك الإسلام واعتنق اليهودية على أساس أن كونه يهوديًا لن يضعه تحت تأثير كلتا القوتين العظميين: الإمبراطورية الإسلامية والبيزنطية؛ لأنه اعتقد أن اليهودية هي أنسب ديانة لبلد صغير.

قضى مروان أعوامًا طويلة في حروب عسكرية مستمرة. ومثلما كان قائده الأسبق مسلمة كان مروان قلبًا وروحًا جنديًا محترفًا. وأكسبته قوة احتماله وشجاعته لقب حمار الجزيرة؛ لأنه بالنسبة إلى العرب لا يمثل الحمار حيوانًا أحمق فقط ولكن حيوانًا صبورًا وطويل الاحتمال بالنسبة إلى العمل الشاق ونقص الطعام. ويمكن ترجمته إلى الإنجليزية كذلك.

بمجرد أن سمع مروان بنبأ مقتل الوليد بن يزيد ترك حدود القوقاز وسار في اتجاه الجنوب على رأس جيش مكون من عشرين ألف رجل. ولما يئس يزيد بن الوليد من تحقيق الانتصار على قائد مشهور ومحنك مثل مروان بن محمد بن مروان كان هناك حل وسط واتفاق كان على وشك الانعقاد، ثم توفي يزيد بن الوليد فجأة في ١٢ أكتوبر عام ٧٤٤ م بعد حكم دام ستة شهور فقط.

ساءت الأحوال مرة أخرى. وبويع إبراهيم شقيق يزيد بن الوليد وابن الوليد ابن عبد الملك خليفة في دمشق. وبينما كان مروان مستعدًا للتفاوض مع يزيد كما سبق رفض أن يعترف بإبراهيم بدون شروط وأعلن تأييده لولدي الوليد بن يزيد السكير الصغيرين، وكان كل منهما محبوسًا في دمشق. ومما زاد من خطورة الموقف أن إبراهيم في دمشق كان يؤيده اليمانيون بينما كان مروان يؤيده بنو قيس.

بالسرعة نفسها التي اتسم بها مروان في عملياته الحربية سار مروان من حران. واستولى على قنصرين وحمص في طريقه، وتقدم بمشيات عسكرية نحو العاصمة دمشق. وفي عين الجر بين بعلبك ودمشق سد جيش الخليفة إبراهيم الطريق. وعلى الرغم من أن جيش الخليفة كان يفوق جيش مروان عددًا فإن جيش مروان كان جيشًا محترفًا، ومتمرسًا على الحروب والانتصارات على البيزنطيين والخزر، ويقوده قائد بارز. واشتبك جيش مروان مع جيش إبراهيم في المقدمة بينما بعث برتل من الجنود لكي يشتبك معه في المؤخرة. ودامت هذه المعركة تقريبًا كل اليوم ولكن بمجرد أن هجم جناح الجيش على جيش إبراهيم تباعدت صفوف جيشه وحدثت به مذبحة رهيبة علي يد جنود جيش مروان. وهرب إبراهيم من دمشق، ولكن قبل هروبه أمر بقتل ولدي الوليد بن يزيد الصغيرين المحبوسين. وثار مروان دفاعًا عن حقوق هذين الولدين اليتيمين. وبويع مروان بالإكراه خليفة في دمشق وحمل لقب مروان الثاني في ٢٣ نوفمبر عام ٧٤٤ م.

قبل ذلك بعامين عندما كان يحكم هشام بن عبد الملك كان بنو أمية لا يزالون في أمن وطمأنينة، ولكن في عامين من ٧٤٣ إلى ٧٤٥ م فقد بنو أمية كل شيء. وأصبح مشهد الوليد

ابن يزيد السكير والخليع ثم الحرب الأهلية بين أفراد بني أمية يدمر رصيد هذه الأسرة إلى الأبد. وكان مروان مقاتلًا محترفًا، وقائدًا متمرسًا وزاهدًا. ولو نجح في أن يصبح خليفة مباشرةً بعد هشام لكانت الأمور قد سارت سيرًا حسنًا. ولكن في عام ٧٤٥ م كان قد فات الأوان تمامًا.

قبل أن نصف المصيبة التي حدثت لبني أمية قد يكون جديرًا بالذكر أن نلخص النزاعات الداخلية المريرة والمتعددة التي كانت تمزق الأطراف الرئيسية لإمبراطورية العرب الكبيرة. أول هذه النزاعات كان النزاع بين أجناس العرب الشمالية والجنوبية عدنان وقحطان، أو كما نسميهم قيس واليمن. ويبدو أن الخلفاء أنفسهم كانوا المحرض الرئيسي على هذا النزاع؛ لأنهم كانوا يتزوجون كثيرًا فكانوا يتزوجون قيسيات وأحيانًا يمانيات. ونشأ أولاد الخلفاء بين غيرة الزوجات المتخاصمات لكي يكرهوا إخوانهم غير الأشقاء وكأولاد لسيدات مكروهات متخاصمات يمانيات أو قيسيات. ويكفي بأي ثمن أن نقول إن خلفاء بني أمية المتأخرين كانوا يعادون أقاربهم بمرارة مع حب أو كراهية كل خليفة للآخر وللقبائل الأخرى، وربما كان النزاع بين الزرق والخضر في الإمبراطورية البيزنطية طبقًا لرأينا ليس له معنى، ومع ذلك فلم يجلب الكوارث الشديدة على الدولة البيزنطية. وفي التاريخ الأوروبي كان النزاع بين الجيبلينيين والجويلفيين من الصعب فهمه بالنسبة إلينا.

لم يكن النزاع القيسي اليماني النزاع الوحيد الذي يهدد بتدمير الإمبراطورية، ولكن كان أيضًا الشقاق الذي يقسم الجزء الشرقي والغربي؛ أي العراق ضد سوريا والدولة الفارسية السابقة ضد الدولة البيزنطية السابقة. وهذا النزاع كان أكثر شدة من النزاع بين العرب القيسيين والعرب اليمانيين؛ لأنه كان الحاجز الذي يفصل الشرق عن الغرب والذي ما زال يشغل بالنا حتى اليوم. وقبل الفتوحات بمائة عام كانت الإمبراطورية البيزنطية مسيحية والإمبراطورية الفارسية زرادشتية وكان الخلاف بين الديانتين يبرز ثقافتين مختلفتين وفرض العرب أنفسهم على الفرس والبيزنطيين كطبقة حاكمة، ولكن كانت رغبتهم في الزواج من نساء الشعوب المفتوحة بلادها؛ يعني أنه بعد أربعة أجيال سيكون عرب سوريا وفلسطين نصف بيزنطيين بينما يكون عرب العراق والشرق نصف فارسيين.

يرجع المصدر الثالث للخلاف إلى الدين، وبصفة أساسية النزاع حول من يخلف الخليفة. وهنا توجد أربع فرق إسلامية، فمن ناحية أنصار بني أمية بصفة عامة من الأصوليين أو السنة. وكانت الشيعة على خلاف معهم، وفرقة الشيعة هي التي تؤمن بأن الوراثة الشرعية للخلافة مقصورة على بني علي بن أبي طالب، وعلى الرغم من أن فرقة الشيعة تأسست بناءً على الخلاف حول تولي الخلافة فإن نقص الإمكانيات المادية حوّل فرقة الشيعة إلى فرقة دينية عاطفية نصف روحية أكثر منها سياسية عملية.

بالإضافة إلى هؤلاء الذين أيدوا بني أمية أو بني علي يوجد هؤلاء الذين أيدوا بني العباس حديثًا. وكان هؤلاء أكثر مهارة وحداثة من الشيعة في أساليبهم فقد أنشئوا تنظيمًا سريًا واسع الانتشار ملأ النصف الشرقي من الإمبراطورية بالخلايا السرية. وكان هذا التنظيم سريًا جدًا ومحكومًا من خلية مركزية لدرجة أن كثيرًا من المنخرطين فيه لم يكونوا يدركون أهدافه، وكانوا يعتقدون أنهم يعملون لتأييد آل علي بن أبي طالب. وأخيرًا في مجال الدين كان الخوارج، الذين كانت طموحاتهم تتعارض مع طموحات الخلفاء والأمراء.

هناك سبب آخر للشقاق الذى نشأ من سخط الشعوب المفتوحة بلادها لأن الروح الوطنية كما نعرفها لم تكن توجد في القرن الثامن، وهذا يعني أن الشعوب لم تكن تعتقد أن الخلافات بين الأجناس تؤدي بالضرورة إلى العداوة. ولذلك بدأت هذه الشعوب في الاستياء بشدة من تسلط الطبقة العربية الحاكمة. واعتنق الكثير من الفرس والسوريين والمصريين والبربر والإسبان الدين الإسلامي لأسباب اجتماعية ودينية واقتصادية، ولكن مع ذلك وعلى خلاف الدين الإسلامي حرموا من المساواة الاقتصادية والاجتماعية مع العرب.

كل هذه الأسباب التي تؤدي إلى السخط العام كانت بمصادفة من الأحداث تتجمع الآن ضد مروان. وعارضه العرب اليمانية لعلمهم بأنه يميز العرب القيسيين. وتحزب ضده أنصار بني علي وبني العباس كأموي. وتمنى الخوارج إقصاءه من الخلافة. وثار ضده أصحاب الجنسيات الأخرى كعربي. وعلى كلٍ اشتعل السخط المتجمع ضد بني أمية وكان الكل مقتنعًا بأن الحظ قد حالفهم وأن الأمويين قد حانت نهايتهم.

قبل رواية الأحداث التي أدت إلى سقوط بني أمية نتوقف للحظة لنستعرض التسعين سنة التي حكم فيها بنو أمية إمبراطورية العرب.

سيرجع القارئ الآن إلى قائمة خلفاء بني أمية. وسيجد أن ثلاثة منهم: معاوية وعبد الملك وهشامًا كانوا حكامًا ذوي شخصية بارزة أو قدرة فذة. وبالإضافة إلى ذلك تصل فترات حكم هؤلاء الثلاثة إلى ثمانية وخمسين عامًا من التسعين عامًا التي حكم فيها بنو أمية أو تقريبًا ثلثي فترة حكمهم. والوليد، وهو أول من حكم عشر سنوات يطلق عليه الخليفة المناسب، أما سليمان أخوه فيطلق عليه الخليفة الشعبي، أما عمر بن عبد العزيز فيطلق عليه الخليفة الحكيم والتقي والمحبوب حتي ولو كان غير كفء من الناحية الاقتصادية. وإذا أضفنا فترات حكم هؤلاء الثلاثة إلى الثلاثة الأول نجد أن بني أمية قد حكموا لمدة ثلاث وسبعين سنة من التسعين سنة. وكان يزيد الأول ويزيد الثاني عابثين وفاسقين وإلى حد ما تأثيرهما غير مُجدٍ. واستمرت فترة حكمهم حوالي سبعة أعوام. وكان الوليد الثاني مدمن خمر وفاجرًا وشهوانيًا ولكنه حكم فقط لمدة تتعدى العام. وكانت فترات حكم مروان الأول ومروان الثاني مليئة بالحروب الأهلية ولكن مع ذلك فقد كانا رجلين بارعين. وكأفراد كان بنو أمية بارعين في الحكم على الأرجح كأي أسرة ملكية في التاريخ.

كان لغياب أي نظام مقبول لاختيار من يتولى الخلافة بعد الخليفة أثره في نشوب كل الحروب الأهلية وأيضًا نشوء الفرق الإسلامية التي تفرق بين المسلمين إلى اليوم. وأيضًا أدت الحروب الأهلية الطويلة بين معاوية وعلي بن أبي طالب وبين مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير إلى توقف الفتوحات الإسلامية. وإذا لم تحدث تلك الحروب الأهلية واستمر العرب في التوسع والفتوحات التي باشروها في عهد عمر بن الخطاب وعثمان لكان لا يمكن حصر متى ستنتهي تلك الفتوحات. ولكن لم ينشغل العرب بالحروب الأهلية لعدة أعوام فقط ولكنهم قضوا على المثالية والشعور بالأخوة الذي كان يحمس المسلمين الأوائل. وبالإضافة إلى ذلك قتل عدد كبير جدًا من المحاربين الشجعان في هذه الحروب التي يقتل فيها الأخ أخاه.

قد يكون جديرًا بالذكر أن نلخص باختصار تاريخ وتطور إجراءات اختيار من يخلف الخليفة فقد كانت النظرية الأصلية أثناء فترة الخلافة في المدينة المنورة أن الخليفة يتم اختياره بمبايعة كل أفراد المجتمع المسلم. وقد كان هذا ممكنًا طالما كان هذا المجتمع مقصورًا فقط على أهل المدينة، ولكن مبايعة أهل المدينة لم تكن تعني شيئًا طالما أنها لم تكن تضم كل أجزاء الإمبراطورية. وبالإضافة إلى ذلك لأن كل سلطات الحكومة كانت متركزة في يد الخليفة، ولم يكن ممكنًا السماح لفترة طويلة خالية بعد وفاة الخليفة مع الضرورة لذلك لاستطلاع آراء الأقاليم البعيدة للإمبراطورية. وكان هناك بعض الفقهاء الذين أيدوا ضرورة إجراء استفتاء عام ولكن هذه الفكرة كانت نظرية إلى حد ما ولم تنفذ وهكذا كانت المبايعة عمليًا مقصورة بعد ذلك على الوجهاء وحاشية القصر وأفراد الأسرة الحاكمة والموثوق بهم والموظفين الكبار ورجال الدين وقادة الجيش في العاصمة.

كان خطر الحرب الأهلية عند وفاة الخليفة كبيرًا جدًا لدرجة أنه جرت العادة على أن يختار الخليفة من يخلفه قبل وفاته. وهذه الطريقة يسرت الحصول على موافقة الأقاليم وحتى مع ذلك لم يكن هناك نظام كافٍ للحصول على موافقة الناس ككل. وما كان يحدث هو أن الولاة وكبار الموظفين وقادة الجيش والوجهاء هم الذين تؤخذ مبايعتهم لمن يخلف الخليفة قبل وفاة الخليفة الحاكم. وكانت هذه المبايعات تؤخذ بجدية قصوى وكما رأينا فإن أغلبية من يبايعون يشعرون بالتزام نحو هذه البيعة.

أما الشيء الغريب في ذلك الأمر فهو أن من سيخلف الخليفة والذي تمت مبايعته مقدمًا كان يختاره عادة الخليفة الحاكم. وبناءً على ذلك لم يكن واضحًا إلى أي مدى للخليفة الحق في ترشيح من سيخلفه وهو نظام استبدادي مطلق، وإلى أي مدى كانت الحقوق الانتخابية للمسلمين وهو نظام ديمقراطي كامل. وكما رأينا رشح سليمان بن عبد الملك عمر ابن عبد العزيز كخليفة له في خطاب مغلق لا يفتح إلا بعد موته؛ لأنه كان يشك في أن رغباته ستنفذ. لم يكن العرب يحبذون نظام تولي الابن البكر للخلافة وهذا يتجلى في أنه من الأسرة الأموية كلها كان هناك أربعة خلفاء يرثهم أولادهم في الخلافة. أما النظام العربي فطبقًا له من

جدول يظهر خلفاء بني أمية

الاسم	فترة الحكم بالأعوام	الصفات	ملاحظات
معاوية الأول بن أبي سفيان ٦١١-٦٨٠م	١٩	رجل دولة بارز وأول خليفة لا يختار لأسباب دينية محضة	حارب من أجل الخلافة في حرب أهلية ضد علي ابن أبي طالب
يزيد الأول بن معاوية الأول ٦٨٠-٦٨٣ م	٢,٥	عابث وسطحي إلى حد ما، بدين وبطين	في عهده القصير حدثت مذبحة الحسين ورفاقه في كربلاء
معاوية الثاني ٦٨٣م	شهران	صبي مريض وضعيف ويروى أنه كان فاضلاً وفاعلاً للخير وكان مريضًا بالسل	كان مريضًا عندما بويع بالخلافة
مروان الأول - مروان بن الحكم	٢	ثار ضد عبد الله بن الزبير وقضى عامين يحاربه	لم يكن مروان خليفة من الناحية الشرعية بالرغم من مبايعة دمشق، وثار ضد عبد الله بن الزبير
عبد الله بن الزبير ٦٨٣-٦٩٢م	٩	ليس من بني أمية وكانت فترة حكمه كلها حروبًا أهلية	كان معروفًا في كل الأقاليم بعد وفاة معاوية الثاني وقتل بعد ذلك في حصار مكة في عهد عبد الملك بن مروان

الاسم	فترة الحكم بالأعوام	الصفات	ملاحظات
عبد الملك بن مروان ٦٨٥-٧٠٥م	٢٠	حاكم كبير ورجل دولة، لامه الناس لأنه ساند الحجاج ابن يوسف الثقفي مساندة لا يرقى إليها الشك في العراق	بدأ حكمه بحرب أهلية ضد عبد الله بن الزبير وأصبح الخليفة الشرعي الوحيد عام ٦٩٢ عند وفاة عبد الله ابن الزبير
الوليد الأول بن عبد الملك ٧٠٥-٧١٥ م	١٠	حاكم جاد جدًا وفي ظل حكمه حققت ا لإ مبر ا طو ر ية أقصى امتداد عسكري لها وأيد الحجاج أيضًا	–
سليمان بن عبد الملك ٧١٥-٧١٧م	٢	ليس شخصية بارزة ولكنه اهتم بالجيش وحـــوصـــرت القسطنطينية في عهده، آكل شَرِهٌ	كان يبدو ملكًا شابًا يلبس الحرير الأخضر أمام المرآة

الاسم	فترة الحكم بالأعوام	الصفات	ملاحظات
عمر بن عبد العزيز ٧١٧-٧٢٠م	٣	حاكم تقي جدًا وحكيم أيضًا يراعي ضميره وفي ظل عدله الوارف توقفت الحروب الداخلية التي كانت تمزق الإمبراطورية	خليفة طيب
يزيد الثاني بن عبد الملك ٧٢٠-٧٢٤ م	٤	شخصية غير مؤثرة إلى حد ما، عابث ومع ذلك لم يكن شريرًا أو فاسدًا، مالك الجارية حبابة	—
هشام بن عبد الملك (الفلاح جورج) ٧٢٤-٧٤٣م	١٩	رابع أولاد عبد الملك بن مروان حاكم بارز ذو طبيعة خشنة وعملية	—
الوليد الثاني بن يزيد الثاني ٦٤٣-٦٤٤م	سنة وثلاثة شهور	خليع ومدمن خمر قتل بعد عام وثلاثة شهور	السبب المباشر للقضاء على الدولة الأموية

الاسم	فترة الحكم بالأعوام	الصفات	ملاحظات
يزيد الثالث بن الوليد ابن عبد الملك ٧٤٤ م	ستة شهور	لا نعرف إلا القليل عنه وقاد الثورة ضد الوليد السكير وأعلن أنه سيحكم بالدين ولكن آراءه كانت غير متشددة دينيًا	يزيد الناقص
إبراهيم شقيق يزيد الثالث وبن الوليد ابن عبد الملك ٧٤٤	شهران	لا نعرف عنه إلا القليل ومع ذلك يعتقد معظم الناس أنه كان غير مناسب للخلافة	خلعه مروان بن محمد الحمار، وبعد ذلك بايعه
مروان الثاني بن محمد بن مروان	٦	جندي طيب ومتحمس ولكنه ليس سياسيًا وعلى أية حال فلقد انقلبت الأمور نتيجة لحكم الوليد السكير ويزيد الثالث وإبراهيم	مروان الحمار

يتولى الخلافة بعد الخليفة يجب أن يكون أنسب أفراد الأسرة الحاكمة للخلافة وهذا النظام كان قبل الإسلام. وكان متوسط عمر خلفاء بني أمية عندما ماتوا هو ثلاثة وأربعون ونتج عن ذلك أنه في أحوال عديدة لم يكن أولادهم قد بلغوا سن النضج بعد. وتبعًا لما هو متعارف عليه عمومًا فإن الطفل لا يمكن له أن يكون خليفة، وهذا القصر في عمر الخلفاء غالبًا ما يعوق تولي الأبناء للخلافة.

في تناقض واضح مع العباسيين الذين خلفوهم فيما بعد كانت أمهات خلفاء بني أمية زوجات عربيات. وكان مروان الحمار الذي كانت أمه أمة محظية كردية استثناءً من ذلك. وعمومًا وبناءً على ذلك، فإن خلفاء بني أمية كانوا عربًا حقيقيين من أبناء الجزيرة العربية الأصليين.

باختصار فإنه على الرغم من أن قدرة الخليفة الحاكم على ترشيح من يخلفه قد زادت فإن نظرية الانتخاب الشعبي لقيت قبولًا متزايدًا، وأثرت بلا شك على اختيار من يخلف الخليفة، وكان الخليفة يسدى إليه النصيحة بأن يختار رجلًا مقبولًا عند الناس إذا كان يريد أن يتجنب الثورات والحروب الأهلية. وكان استبداد بني أمية لافتًا للأنظار بصفة خاصة؛ لأن عرب ما قبل الإسلام كانوا مثل كل الناس على الأرض مرتبطين بحريتهم الشخصية. ولأن الفاتحين العرب الأوائل كانوا ينحدرون من قبائل بدوية صحراوية فإن زعماءهم على الرغم من أنهم يدينون لهم بتلقي العطاء فإنهم تلقوا قدرًا معينًا من الاحترام ولم يتمتعوا بأي سلطة. وكان السبب لذلك واضحًا وهو أن الرجل الذي تتكون أملاكه من حيوانات ومقر إقامته خيمة ويعتمد على هذه الحيوانات وينتقل باستمرار إذا كره المجتمع الذي يعيش فيه أو الزعيم الذي يحاول أن يجبره على الطاعة فإنه يحمل خيمته على جمل وينتقل بعيدًا لكي ينضم إلى مجتمع أو جماعة أخرى. وبناءً على ذلك فإن ساكن الخيمة البدوي في الحقيقة كان يتمتع بالحرية وكان لا يهتم إلا قليلًا بما يأمره به زعيمه أو ما تريده أغلبية المجتمع الذي يعيش فيه وكان في الحقيقة له قانونه الخاص الذي يطبقه حرفيًا على نفسه.

يزعم سكان بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية اليوم بأنهم يعيشون في بلاد حرة، ولكن الحرية هنا نسبية فحسب. وعمليًا فهم يسلكون طريقًا وسطًا بموافقتهم على خضوع حريتهم لكيان غامض يعرف بالأغلبية التي تشرع القوانين التي يجب على الآخرين أن يطيعوها. وبمعنى أصح فإن سكان المجتمعات المستقرة ليسوا أحرارًا من الناحية الشخصية ولكي يتمتع هؤلاء بقدر محدود من الحرية تحت تلك الظروف فإن الأغلبية وافقت على إخضاع المعارضة.

لكي نزعم أننا في ظل هذا النظام لا نزال أحرارًا فإن هذا الزعم يجعلنا نفشل في فهم ماذا تعني الحرية للعربي البدوي؛ فهو لا يعرف شيئًا عن الأغلبية. وهو يتمسك بالحق في أن يفعل ما يريد حتى لو استهجن هذا الفعل كل إنسان على وجه الأرض. وبحق فإن البدوي حر ومفتاح حريته الكاملة هو قدرته على التنقل. وبمجرد أن يأتي هؤلاء البدو للعيش في المدن ويحصلون على ممتلكات ثابتة فإنهم يفقدون قدرتهم على التنقل وبالتالي يفقدون حريتهم الكاملة ولكنهم بالطبع لايفكرون بمثل هذا الأسلوب؛ لأن الحرية الشخصية أصبحت بالنسبة إليهم غريزة أساسية. وعلى الرغم من استقرارهم الآن في منازل ومدن فإنهم ليسوا مستعدين لتلقي الأوامر من أي أحد. وهؤلاء الذين يحاولون أن يحكموا وينظموا إمبراطورية فيها هؤلاء الرعايا البدو سرعان ما يجدون أن هذه المهمة مستحيلة.

عندما يتعرض الحاكم لهذا الموقف فإن أمامه حلين بديلين. إما أن يتم إقناع هؤلاء البدو الفوضويين والقاسين، وإما إجبارهم على التنازل كراهية عن جزء من حريتهم. وبالنسبة للخليفتين الأولين أبي بكر وعمر فقد كان الدين يساندهم بصورة شديدة. وكانا يصرحان بأن الناس لا يعبدونهما ولكن يعبدون الله. وبينما استمرت الحماسة الدينية كان الجدل مع أبي بكر وعمر كافيًا لضمان الطاعة، أو على الأقل حفظ النظام. وذهبت الخلافة إلى معاوية عندما فترت الحماسة الدينية واستبدل هو ذلك بالإقناع السياسي. ولم يحاول أن ينتحل لنفسه سلطة استبدادية. ولم يحاول أن يكون أفضل من الأوائل من الصحابة بصفته الموجه الرئيسي للعرب. وكان يقضي ساعات طويلة يتحدث ويتناقش مع وجهاء

المجتمع ويقبل بروح دعابة هادئة الملاحظات الفظة لأعدائه وهي تلقى إليه. ولقد كان أول خليفة بصورة واضحة لا تقوم ضده أي ثورة.

لا يمكن لأي شعب أن تخرج منه أسرة حاكمة تتكون من عباقرة فقط. ولكن الموقف يصعب للغاية على خليفة ذي طبيعة عابثة أو فكر دنيء. وإذا كان كل شيء يعتمد على صبر الخليفة وقدرته على الإقناع فإن نظام الحكم كان سينهار عندما يكون الحاكم غبيًا. وهكذا فإن الخلفاء الذين لا يملكون الشخصية أو العقلية القادرة على الإقناع كانوا يواجهون ثورات، وعمومًا فإنه أثناء فترات حكم الخلفاء الضعاف كانت أشد أساليب الإكراه وحشية هي التي تستعمل.

وعلى الرغم من إخلاص عرب وسط الجزيرة العربية للحرية الشخصية فإنهم يخلصون للرجل الذي يعتقدون بصفة شخصية أنه مناسب للحكم. وعندما لا يترك الخليفة أي أثر طيب في رعاياه فإنه يضطر أن يلجأ إلى إجراءات متطرفة لحفظ النظام. وباختصار فإن حقيقة أن العرب من أكثر الشعوب التي تتمتع بالحرية الشخصية تسقط تدريجيًا في ظل أن الحكومة الاستبدادية هي حكومة غير منطقية كليةً للتعامل معهم. وحتى أيامنا هذه فإن الكثير من الحرية قد يؤدي إلى الفوضى، وإلى الاستبداد.

العامل الثاني الذي يؤدي إلى الحكم الاستبدادى هو أن الإمبراطورية البيزنطية والفارسية كانتا واقعتين تحت الحكم الاستبدادى. وفجأة لأن العرب فوجئوا بعبء حكم إمبراطورية، فقد كانوا مضطرين مبدئيًا للاستفادة من الموظفين المدنيين الذين تركهم أسلافهم. وكان هؤلاء يعتادون على نظام الحكم الاستبدادى. وظهرت أول حكومة يشكلها العرب في التاريخ. يظهر لنا أن أول الأخطاء السياسية الرئيسية أثناء حكم الدولة الأموية هو رفض المساواة الاجتماعية بين العرب المسلمين وغير العرب المسلمين، وهذا الخطأ يعزى إلى كبرياء الجنس العربي ككل أكثر منه إلى سياسة الخلفاء. وهي مشكلة يجب على كل إمبراطورية أن تواجهها سواء ظهرت قبل أو بعد العرب ولم يجد أحد حلًا كاملًا لها حتى الآن.

عندما نستعمل كلمة عربي بحرية شديدة يجب أن نحتاط أن عرب الدولة الأموية مع أنهم إلى قدر كبير قد اندمجوا مع الشعوب الأخرى ما زالت عندهم عمومًا صفات الفاتحين الأوائل الذين كانوا رجال قبائل ما نطلق عليه الآن المملكة العربية السعودية، واليمن وحضرموت وبالنسبة للشعوب المتعددة والكثيرة التي نطلق عليها الآن العرب فإنها ليست لها صلة أو صلتها قليلة بهؤلاء الفاتحين العرب الأوئل، فالثقافة العربية وصلت إليهم من سنوات الإسلام الأولى وهكذا وعلى الرغم من وجود عرب ذوي أصول جنسية مختلفة فإنهم يملكون صفات عاطفية ومتقلبة مثل العرب الأوائل بما فى ذلك عادة الموازنة بين الحرية الفوضوية والاستبداد. من الأسباب التي أدت إلى السخط على بني أمية الضرائب الباهظة. وكما وضحنا من قبل يرجع هذا النظام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر(*). وفي جهود بني أمية لتدبير أموال أكثر فرضوا ضرائب كثيرة ومتعددة كانت تفرض قبل الإسلام أو فرضتها الإمبراطورية الفارسية زيادةً على النظام الإسلامي الثابت. وأدت حقيقة أن الدخول في الإسلام يقلل من إيرادات بيت المال إلى تعقيدات أكثر بعد ذلك.

عند تقييم أداء بني أمية يجب أن نعطيهم فضل الفتوحات العسكرية. وتضاعفت مساحة الإمبراطورية العربية خلال التسعين عامًا التي حكم فيها بنو أمية. والأكثر إبهارًا هو أنه بعد سقوط الدولة الأموية لم تتوقف الفتوحات فحسب ولكن بدأت تتقلص مباشرة وأصبحت الإمبراطورية بعد ذلك تتخذ الموقف الدفاعي.

(*) (لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم أن يحمل غير المسلم الذي يدخل في الإسلام ضرائب وبمجرد أن يدخل في الإسلام فلا ضريبة ولا خراج عليه – المترجم).

تواريخ بارزة

- ٧٤٣ م...... تولي الوليد الثاني الخلافة.
- ٧٤٣ م..... ثورة يحيى بن زيد بن علي في خراسان.
- ١٧ أبريل ٧٤٤ م ..... خلع الوليد الثاني من الخلافة ووفاته.
- ٧٤٤ م..... تولي يزيد الثالث الخلافة.
- ١٢ أكتوبر ٧٤٤ م..... وفاة يزيد الثالث.
- نوفمبر ٧٤٤ م....... معركة عين الجر.
- ٢٣ نوفمبر ٧٤٤ م..... تولي مروان الثاني الخلافة.

الشخصيات

- الوليد الثاني بن يزيد الثاني الخليع
- يزيد الثالث بن الوليد الأول (يزيد الناقص)
- إبراهيم شقيق يزيد الثالث
- مروان الثاني بن محمد بن مروان الأول (مروان الحمار)

الفصل الثاني عشر

الثورة

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾« آل عمران – ٢٦».

أزال عني كرامتي ونزع تاج رأسي. هدمني من كل جهة فذهبت. وقلع مثل شجرة رجائي وأضرم عليَ غضبه. وحسبني كأعدائه معًا. جاءت غزاته وأعدوا عليَ طريقهم وحلوا حول خيمتي.قد أبعد عني إخوتي ومعارفي زاغوا عني أقاربي قد خذلوني. والذين عرفوني نسوني. نزلاء بيتي وإمائي يحسبونني أجنبيًا. صرت في أعينهم غريبًا. عبدي دعوت فلم يجب. بغمي تضرعت إليه. نكهتي مكروهة عند امرأتي وحممت عند أبناء أحشائي الأولاد أيضًا قد رذلوني إذا قمت يتكلمون عليّ.

(سفر أيوب – الإصحاح التاسع عشر)

كان غرب آسيا في حالة فوضى وفي كل أنحاء الإمبراطورية كان هناك توقع للثورة في الأجواء.

(أمير علي – تاريخ العرب)

ولكننا بحسب وعده ننتظر سماوات جديدة وأرضًا جديدة يسكن فيها البر.

(رسالة بطرس الرسول الثانية الإصحاح الثالث)

كان العباس رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم يلعب دورًا مريبًا أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان يساعد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم بينما يبعث بمعلومات عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم. وذكرنا قبل ذلك أن ابن هذا الرجل عبد الله بن عباس كان صديقًا للحسين، وحاول أن يثنيه عن سفره إلى كربلاء الذي مات فيه. وكان علي بن عبد الله بن عباس رجلًا معروفًا بأنسه وتقواه وعلمه. وكان قد قضى الجزء الأكبر من حياته في دمشق حيث كان لسنوات عديدة أقرب صديق للخليفة عبد الملك بن مروان. ثم أصبح مكروهًا من الخليفة بزواجه من زوجة كان قد طلقها الخليفة قبل ذلك. وكان عبد الملك قلقًا منه وكان ابنه الوليد الأول الذي نعرف عنه القليل يستشيط غضبًا من هذه الواقعة ولذلك عندما تولى العرش أمر بجلده وعرضه على الناس في شوارع دمشق. وهكذا لكي ينفس خلفاء بني أمية عن أحقادهم الخاصة احتقروا أقاربهم من قريش.

تحمل علي هذا الاضطهاد ولم يمت حتي عام ٧٣٥ م في عهد هشام بن عبد الملك ولكنه انسحب هو وأولاده من القصر وذهب إلى الريف لكي يستظل في سكونه. وغضب محمد بن علي غضبًا شديدًا من الطريقة التي عومل بها والده. وكان يطمح إلى القضاء على الأسرة الحاكمة الأموية. ولأنه كان يعيش في قرية بعيدة فلم يتلق أي دعم شعبي، ولكنه فكر في حملة سياسية سرية فدعا إلى بني العباس، وشكل شبكة سرية واسعة الانتشار باسم آل الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا الشعار الغامض ضلل كثيرًا من الشيعة وجعلهم يعتقدون أنهم يعملون لصالح آل علي بن أبي طالب وهو سوء فهم لم يتعجل شيعة بني العباس أن ينشروه حتى يأتي الوقت الذي يتم فيه كشف الحقيقة، وعلى أية حال فلقد أعد شيعة بني العباس قصة مفادها أن الإمامة قد توارثها من علي بن أبي طالب محمد بن الحنيفية ابنه من زوجة أخرى غير فاطمة الزهراء. وأن محمد بن الحنيفية قد ورثها إلى ابنه أبي هاشم والذي لم يكن له ولد من صلبه فورثها إلى علي بن عبد الله بن العباس وهو الرجل الذي أمر الوليد ابن عبد الملك بجلده في دمشق. وبهذه الطريقة انتقلت الإمامة من آل علي بن أبي طالب إلى آل العباس.

وعلى الرغم من أن محمد بن علي العباسي كان بالطبع عربيًا من العرب فلقد حقق شيعته أكبر نجاحاتهم في العراق وفارس، وخاصة في إقليم خراسان المليء بالعواصف. ولم يكن أهل خراسان فقط محاربين معروفين ولكن كان بينهم عدد كبير من الذين دخلوا في الإسلام من غير العرب والذين كانوا يغتاظون من ازدراء الطبقة الأرستقراطية العربية لهم. وفي عام ٧٤٣ م في عهد الوليد السكير والخليع مات محمد بن علي مورثًا قيادة الحركة إلى ابن عمه إبراهيم الذي أصبح معروفًا بعد ذلك بإبراهيم الإمام.

في تلك الأثناء، كما روينا، أصبح مروان سيد دمشق عام ٧٤٥ م، وأظهر نفسه كمناصر قوي لقبيلة قيس. ونتيجة لانحياز الخليفة المعروف لقبيلة قيس نشبت معارك في أماكن عديدة بين القيسيين واليمانيين. وفي البحرين وعمان كانت قد نشبت حروب قبلية هناك، وفي فارس وخوزستان أعلن اليمانيون رفضهم لمروان. ولما رأى الخوارج أن الاضطرابات تمزق البلاد كلها استولى خوارج العراق على الكوفة وطردوا الوالي. وغزا خوارج اليمن الحجاز واحتلوا مكة والمدينة فعليًا وحتى المناطق القريبة من دمشق كحمص نشبت فيها ثورات.

واجه مروان كجندي قديم كل أعدائه فسار بسرعة إلى حمص، واقتحمها قبل أن يعلم الساخطون أنه قادم إليهم، وصلب خمسمائة جثة خارج أسوار المدينة. ولكن عندما كان يسير إلى حمص نشبت ثورة في دمشق. وقبل أن ينظم المتمردون صفوفهم رجع جيش مروان إلى دمشق فانتهت الثورة وشنق زعيمها. وخشية ترويع سوريا بالثورات زحف الخليفة إلى الرقة، وأمر قواته أن تركز من هناك على إعادة الاستيلاء على العراق.

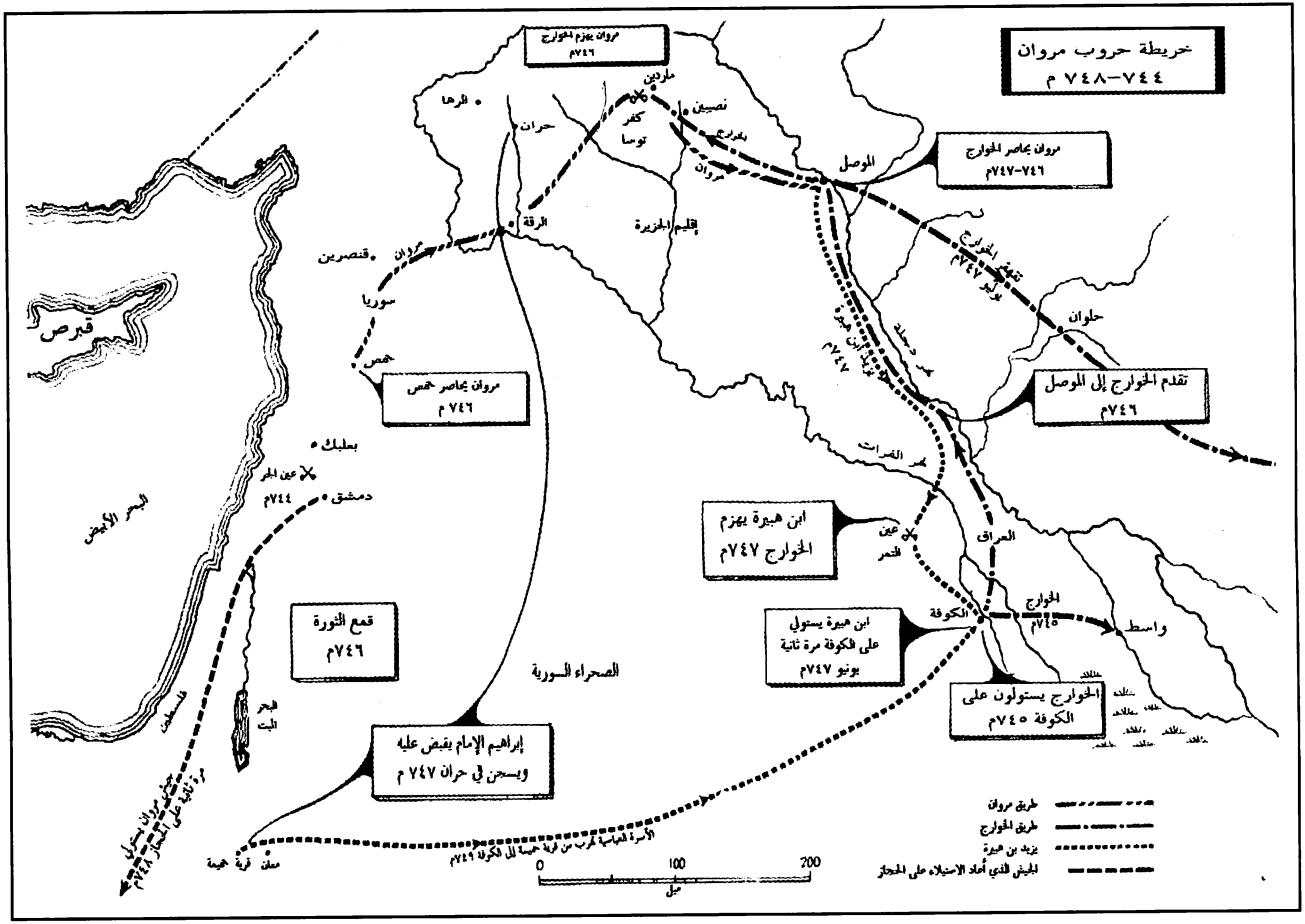
كان سليمان بن الخليفة هشام بن عبد الملك قد قاد جيش دمشق الذي هزمه مروان في معركة عين الجر. وبعد ذلك بايع مروان وصاحَبه مع من رافقه إلى الرقة. وعند وصوله إلى هناك أذن له مروان أن يرجع إلى دمشق. وعند عودته واجه قوة تتكون من عشرة آلاف رجل سائرة لتعزيز مروان. وعلى الرغم من أن سليمان كان قد بايع مروان قبل ذلك بأيام قليلة فإنه أغرى هذه القوة بأن تخلع مروان وأعلن نفسه خليفة واحتل قنصرين.

عاد مروان تاركًا فكرة غزو العراق، ولكن المتمردين احتلوا حمص، وأخروا تقدم الخليفة لمدة عام تقريبًا قبل أن يُخضع مروان المدينة بالحصار. أما سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان يقود هذه الثورة فقد ترك المتمردين في حمص وهرب إلى العراق حيث انضم إلى الخوارج الأعداء المتعصبين لكل الأمراء.

بالنسبة لخوارج العراق الذين استولوا على الكوفة في يونيو عام ٧٤٥ م فقد استولوا على واسط أيضًا ثم ساروا في اتجاه الشمال بينما كان مروان بن محمد لا يزال يحاصر حمص، واحتلوا الموصل في سبتمبر عام ٧٤٦ م. ومن هناك بعثوا جيوشًا عسكرية لمحاصرة الرقة ونصيبين. وفي تلك اللحظة نجح مروان في الاستيلاء على حمص وسار بسرعة في اتجاه الشرق وهزم الخوارج في معركة كبيرة في كفر توسا على بعد ثلاثين ميلًا غرب نصيبين.

انسحب الخوارج الذين كان معهم سليمان بن هشام بن عبد الملك من الموصل حيث حفروا خنادق وظلوا فيها على الشاطئ الغربي من نهر دجلة. وعندما اقترب مروان من آثار أقدامهم لم يستطع أن يستولي على معسكرهم بالاقتحام وكان مضطرًا إلى محاصرته. وفي أحد الأيام وفي غارة مفاجئة أسر جنود مروان بن عم لسليمان بن هشام اسمه معاوية، والتمس الصبي من مروان أن ينقذ حياته وصاح «أستغيث برحمتك يا عمي»، فرد مروان «لا مكان للرحمة بيني وبينكم».

اقتيد الصبي إلى أرض خلاء بين الجيشين فقطعت يده ثم رأسه. وهذا التصرف من مروان الذي يدل على عدم الرحمة من الممكن أن نفهم منه كيفية غضب مروان. وكما سنرى بدأت ثورة العباسيين في خراسان، وكان الخوارج قد استولوا على العراق والحجاز وأصبح بقاء بني أمية على كفة الميزان، وأصبح أبناء عم بني أمية الغيورين يقاتلون مروان. ولا شك في أن هذه الحروب الأهلية بين بني أمية أنفسهم هي التي أدت إلى حد كبير إلى القضاء عليهم وأخيرًا إلى تمزيق الإمبراطورية.


خريطة حروب مروان
٧٤٤–٧٤٨ م
مروان يهزم الخوارج
٧٤٦م
مروان يحاصر الخوارج
٧٤٦–٧٤٧م
تقدم الخوارج إلى الموصل
٧٤٦م
مروان يحاصر حمص
٧٤٦ م
ابن هبيرة يهزم
الخوارج ٧٤٧م
ابن هبيرة يستولي
على الكوفة مرة ثانية
يونيو ٧٤٧م
الخوارج يستولون على
الكوفة ٧٤٥م
قمع الثورة
٧٤٦م
إبراهيم الإمام يقبض عليه
ويسجن في حران ٧٤٧ م
ماردين
الرها
حران
كفر
توسا
نصيبين
الموصل
الرقة
إقليم الجزيرة
قنصرين
سوريا
حمص
بعلبك
عين الجر
٧٤٤م
دمشق
البحر الأبيض
قبرص
فلسطين
البحر
الميت
حلوان
نهر دجلة
نهر الفرات
عين
التمر
العراق
الكوفة
الخوارج
٧٤٥م
واسط
الصحراء السورية
معان
قرية حميمة
الأسرة العباسية تهرب من قرية حميمة إلى الكوفة ٧٤٩م
جيش مروان يستولي مرة ثانية على الحجاز ٧٤٨م
0
100
200
ميل
طريق مروان
طريق الخوارج
يزيد بن هبيرة
الجيش الذي أعاد الاستيلاء على الحجاز

بينما كان مروان لا يزال يحاصر جيش الخوارج الرئيسي في الموصل أرسل قوة عسكرية أخرى إلى العراق بقيادة يزيد بن هبيرة، الذي هزم الخوارج في معركة عين التمر وأعاد الاستيلاء على الكوفة في يونيو عام ٧٤٧ م. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الموصل هرب جيش الخوارج عبر نهر دجلة، وانسحب إلى حلوان ثم تفرق في جبال فارس. وهكذا عندما تم تأمين العراق كلها عاد مروان إلى مركز قيادته في حران. وبينما كانت الأحداث تتصاعد حدثت ثورة في الأردن وتم قمعها عام ٧٤٦ م.

عندما تم الاستيلاء على العراق مرة ثانية بعث مروان بجيش آخر إلى الحجاز وهزم الخوارج في معركة وادي القرى شمال المدينة المنورة في أوائل عام ٧٤٨ م. ولاحق جيش الخوارج المنهزم، وهزمهم مرة ثانية في مكة ومرة ثالثة في اليمن. وخضعت سوريا والعراق والحجاز واليمن في ذلك الوقت إلى سلطة الخليفة على حساب إضعاف الحدود الشمالية. وأصبح البيزنطيون يغيرون على الأراضي العربية. ولكن مروان نفسه كان لا يكل يهزم عدوًا بعد الآخر.

بمجرد أن تولى مروان الخلافة عام ٧٤٤ م كان ميله المعروف إلى قبيلة قيس قد تسبب في حرب أهلية في خراسان بين القيسيين واليمانيين كما حدث في أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية. وهنا كانت قبيلة بني تميم المدافع الرئيسي عن الشمال أو قبيلة قيس، بينما أيدت قبيلة اليمانيين قبيلة أسد. وكان حاكم إقليم خراسان نفسه نصر بن سيار قيسيًا.

كما سنذكر كانت خراسان المعقل الرئيسي لأنشطة شيعة بني العباس السرية الذين ملؤوا الإقليم بالخلايا السرية. وأقنعت الحروب الأهلية بين عرب الإقليم والاضطراب العام الذي حل بالإمبراطورية العباسيين بأن الوقت قد حان لتكوين دولتهم. وبناءً على ذلك أوفدوا رسلًا إلى إبراهيم الإمام الذي كان يعيش في الأردن. ووصفوا له الموقف المتردي في خراسان، وطلبوا منه أن يأذن لهم بأن يمضوا في سياستهم وتدبيرهم. ووافق إبراهيم على اقتراحاتهم ورشح أبا مسلم الخراساني لكي يقود الثورة. وفي أول الأمر نجد هذا الرجل يعمل على إطلاق سراح المحتجزين من العباسيين في سجن الكوفة. وكان اسمه

الحقيقي عبد الرحمن بن محمد، ويبدو أنه كان فارسيًا يعيش في الكوفة. وعلى الرغم من نشأته المتواضعة فلقد كان هذا الرجل الذي اختارته الأقدار لكي يقود ثورة العباسيين بطلًا بالفطرة وكان صغير القامة أسمر ذا ملامح وسيمة وأسلوب مقنع، ولم يره أحد يضحك. ولم يكدر صفاءه أخطر الأحداث، ولا سرته أكبر الانتصارات، ولا كدرت هدوءه أكبر المصائب.

عندما وصل في أول الأمر إلى خراسان كان مظهره الشاب يثير الشك فيما يتعلق بكفاءته بوصفه قائدًا للثورة، ولكن بعد ذلك هدأت قدراته الواضحة من حدة النقد الموجه إليه. وكرس نفسه قلبًا وروحًا لتنظيم الحركة العباسية. وعين القادة لكل مجموعة وخلية. وكان الاضطراب وبؤس الحروب الأهلية التي لا تنتهي قد جعل الناس متأهبين لأي نظام جديد ينتج عنه مخلصًا يجلب إلى البلاد حكمًا يتسم بالعدل والسلام فأعدت الحركة خطبًا تدعو إلى الخلاص مناسبة لهذا الشوق العام. وارتدى التنظيم ثوبًا إسلاميًا دينيًا يدعو إلى الإخلاص لبني هاشم وآل الرسول صلى اله عليه وسلم، الذين سيأتي منهم الإمام الموعود. وأن يد بني أمية المخضبة بالدماء الذين كانوا في بادئ الأمر ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم سيتم قطعها في النهاية، وسيتم إحلال السلام في النهاية.

لكن على الرغم من مظهره الذي يدل على التقوى كان أبو مسلم مستعدًا لأن يتلون مع كل الطبائع البشرية. وعلى الرغم من أن سكان فارس كانوا مسلمين في ذلك العصر، فقد كان كثير من الفلاحين متعلقين بديانتهم القديمة مثل تناسخ الأرواح وفكرة الخلق كصراع بين الضوء والظلام. وإلى هؤلاء نقل أبو مسلم الانطباع بأن إيمانهم هذا يحمل قدرًا كبيرًا من الصحة، ولكنه كان لبقًا مع طائفة الخراميين الخارجة على الدين، لدرجة أنهم بعد ذلك اعتبروه المخلص لهم. وأدت بعض الوعود والتصورات الخاطئة التي دعت إليها الدعوة إلى بني العباس إلى وجود ردود أفعال شديدة بعد ذلك ولكن في ذلك الوقت كان العباسيون يتولون السلطة بصورة مؤكدة.

على الرغم من أن أغلبية الشيعة السريين لبني العباس كانت من معتنقي الإسلام غير العرب فقد كان يوجد عرب بين الأنصار المتحمسين للدعوة. وكانت الدعوة المبدئية لبني

العباس تتكلم عن آل الرسول صلى الله عليه وسلم بدون ذكر آل العباس بصفة خاصة مما أمّن كثيرًا من الشيعة في معتقداتهم لأنهم اعتقدوا أنهم يعملون لصالح آل علي بن أبي طالب.

في يونيو عام ٧٤٧ م بينما كان مروان لا يزال يحاصر الخوارج في الموصل تلقى أبو مسلم في خراسان رسالة من إبراهيم الإمام يدعوه فيها إلى المجاهرة بالعصيان مستخدمًا شعار آل الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعث برايتين للحرب وتم عقد هاتين الرايتين مباشرة على الرماح وبدأت الثورة.

في إقليم خراسان تجمع الثوار وتسلحوا وتمركزوا في معسكرات محصنة. وعندما أمر أبو مسلم كل المؤمنين بالدعوة أن يلبسوا السواد كشف كثير من أنصار الدعوة الذين انضموا إلى التنظيم السري عن أنفسهم للوهلة الأولى.

مات أسد بن عبد الله الذي هزم خاقان الترك عام ٧٣٧ م في العام الذي يليه، وكان ممن ساهم في نجاحه كوالٍ على خراسان نصر بن سيار، وهو رجل كان يعمل لمدة ثلاثين عامًا في خراسان وكان عنده معرفة كاملة بالإقليم. وعندما تولى الولاية على هذا الإقليم تم إعادة فتح منطقة عبر الأوكسيانة بما فيها ساش وفرجانا. ونلاحظ أنه عندما انضم سكان خراسان إلى أبي مسلم في ثورته بقي سكان منطقة عبر الأوكسيانة مخلصين إلى نصر ابن سيار فكتب إلى مروان يصف له الأحوال المضطربة لهذا الإقليم والخطر المتنامي لأبي مسلم الخراساني ويطلب منه تعزيزات. وكان رد مروان عليه يتضمن اعتذارات ونصائح فلم يكن عنده جيش يوفره له. وعندما قرأ نصر رد الخليفة كان يعلق بمرارة ويقول لمن معه: «إن صاحبكم قد أخبركم أنه لا نصر عنده».

في تلك الأثناء كانت الحرب الأهلية ما زالت دائرة في خراسان بين القيسيين واليمانيين وبعد مدة أعلن أبو مسلم جهارًا تأييده لليمانيين ضد الوالي. وحدثت معركة كبيرة انتصر فيها اليمانيون وقتل قائدهم فيها. واضطر الوالي نصر بن يسار إلى ترك خراسان والانسحاب إلى الري. ولم يكن هناك ما يروق لأبي مسلم الخراساني أكثر من ذلك؛ فلقد انتصر اليمانيون المتحالفون معه ولكنهم الآن دون قائد يقودهم. وفي مارس عام ٧٤٨ م

دخل قصر الوالي في مرو وأصبح واليًا على خراسان. وكانت قد مضت ستٌ وعشرون سنة منذ أن استهل محمد بن علي العباسي حملة دعوته السرية.

في تلك الأثناء كان إبراهيم الإمام ما زال يعيش في عزلة في قرية حميمة بالقرب من معان في الأردن. وكان الذي يعرف أنه المهدي المنتظر حفنة قليلة من قادة الثورة العباسية ولكن حالف الحظ مروان للحظة؛ فقد وقعت في يده رسالة من إبراهيم لأبي مسلم الخراساني يحثه فيها على المضي قدمًا في الثورة فقبض على إبراهيم وسجنه في سجن حران.

بمجرد أن استقر أبو مسلم الخراساني في قصر مرو أخذ البيعة من الناس باسم بني هاشم ولم يذكر بني العباس بصفة خاصة، وبايع الشيعة بترحاب شديد. وكان قحطبة بن شبيب وهو عربي من قبيلة طيئ قد أحضر رايتي الحرب المذكورتين قبل ذلك من إبراهيم الإمام فرشحه أبو مسلم الخراساني لكي يكون قائد الجيش الذي يكونه. وفي تلك الأثناء عَيَّن أبو مسلم الولاة على أقاليم خراسان وبلاد ما وراء نهر الأوكسس، وعمل على جمع الضرائب والجزية وتجنيد الجنود كما لو كان هو الحكومة الشرعية. ويجدر بنا أن نسجل اسم اثنين من أنصاره: الأول هو محمد بن الأشعث وهو حفيد عبد الرحمن بن الأشعث زعيم قبيلة أسد، الذي قام بالثورة على الحجاج في العراق. وكان بنو الأشعث الذين كانوا يقيمون بفارس يكرهون بني أمية، وكانت قبيلة أسد العربية اليمانية تتزعم الثورة العباسية. والرجل الثاني هو خالد بن برمك من بلخ الذي سنقرأ عنه الكثير.

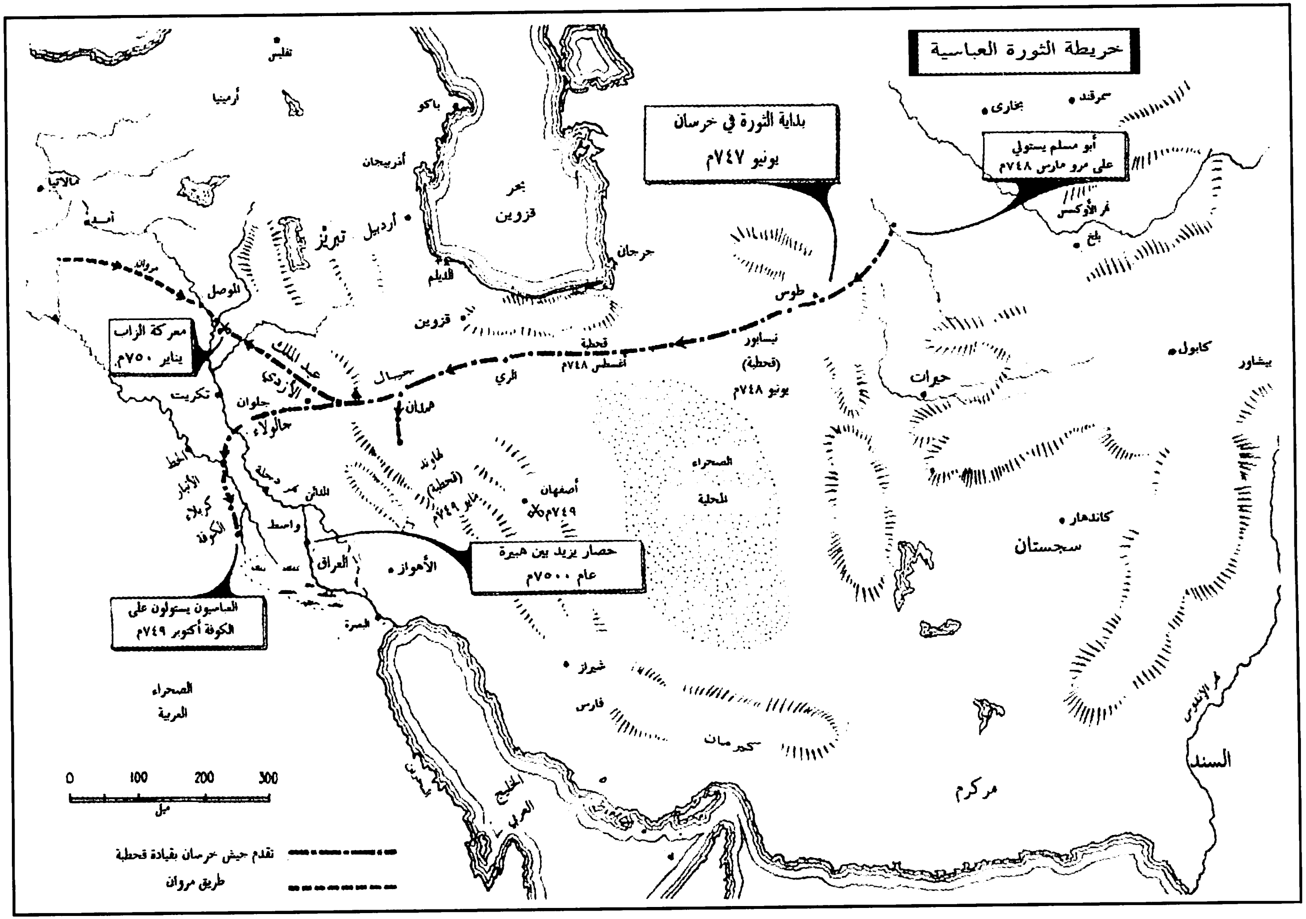
نظرًا لأننا نعيش في عصر انقسم فيه الجنس الإنساني إلى عدد من الأجناس المختلفة نميل إلى تفسير الحركات التاريخية بلغة الوطنية. ولكن في ذلك الوقت كان من المستحيل على ثوار الثورة العباسية أن يفكروا بتلك الطريقة. ولم تكن الحركة ثورة وطنية للفرس ضد العرب. ومعظم المشاركين فيها كانوا يفكرون بلغة الإسلام وليس الوطنية. وكلا الجانبين الفرس والعرب عندما كان يحاول أن يكسب أنصارًا كان يدّعي أنه يهتدي بالقرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم. وإذا كان الدافع للثورة هو الوطنية لكنا قد قرأنا نداء الفرس لبعضهم بعضًا للثورة ضد العرب. ولم تستخدم هذه الشعارات في الثورة. وكان

الثوار يثيرون حماس جنود الجيش بإخبارهم أن بني أمية كانوا يعارضون الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهم الذين قتلوا الحسين رضي الله عنه.

كان يوجد الكثير من العرب في خراسان. وقبل ذلك بخمسة وسبعين عامًا كان زياد ابن أبيه قد أسكن خمسين ألف عائلة عربية في الإقليم. وفي عام ٧٤٨ م كان يوجد مائتا ألف عربي في خراسان، وكانوا قد اندمجوا مع الفرس إلى حد ما. ويمكن أن نقارن وضعهم بوضع الطبقة الأرستقراطية النورماندية في إنجلترا بعد استيلاء النورمانديين عليها بمائة وخمسين عامًا. وكانوا لا يزالون يتكلمون اللغة الفرنسية ويفتخرون بأصلهم النورماندي، ومع ذلك فقد كانوا إلى حد ما قبل ذلك يستوعبون الثقافة الإنجليزية وكانوا مستعدين للقتال مع الإنجليز ضد الفرنسيين.

الثوريون سواء كانوا عربًا أو فرسًا أو خليطًا منهما عادة ما يضمون الساخطين على نظام الحكم. وكثير منهم كان من غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام والذين كما قرأنا عنهم لم يحصلوا على المساواة في وضعهم مع العرب سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية. وهؤلاء كان يؤيدهم الشيعة أو أنصار آل علي بن أبي طالب، الذين كانوا في الأصل رجال قبائل عربية من الكوفة. وأخيرًا كان هناك العرب اليمانية الذين كانوا ساخطين بسبب أن الخليفة كان يفضل القيسيين.

عندما استولى قحطبة على خراسان كلها وصل إلى نيسابور في يونيو عام ٧٤٨ م. وفي أغسطس عام ٧٤٨ م تقدم جيش الثوار إلى الري، ومن هناك انسحب نصر بن سيار إلى همدان فناشد ابن هبيرة والي العراق أن يبعث إليه بتعزيزات، ولكن لأنه لم يتلق أي رد على مناشدته ولأنه مل من سنوات طويلة من الحروب والقلق فقد توفي فجأة في همدان ولم يحل محله أحد وبقي أنصار الأمويين في فارس بدون زعيم. وكان هذا المناخ العام اليائس هو السبب الرئيسي لسقوط بني أمية. وربما يكون مروان نفسه قد استنفد جهوده لأنه كان قد تعدى الستين عامًا وقضى كل حياته في حروب وحرمان.


خريطة الثورة العباسية
بداية الثورة في خرسان
يونيو ٧٤٧م
أبو مسلم يستولي
على مرو مارس ٧٤٨م
سمرقند
بخارى
نهر الأوكسس
بلخ
طوس
نيسابور
(قحطبة)
يونيو ٧٤٨م
قحطبة
أغسطس ٧٤٨م
الري
جرجان
بحر
قزوين
باكو
أذربيجان
أردبيل
تبريز
الديلم
قزوين
تفليس
أرمينيا
مروان
الموصل
معركة الزاب
يناير ٧٥٠م
تكريت
جلوان
حالولاء
عبد الملك
الأزدي
جبال
همدان
نهاوند
(قحطبة)
مايو ٧٤٩م
أصفهان
٧٤٩م
الصحراء
الملحية
حصار يزيد بن هبيرة
عام ٧٥٠٠م
الأهواز
العراق
واسط
دجلة
المدائن
الأنبار
كربلاء
الكوفة
العباسيون يستولون على
الكوفة أكتوبر ٧٤٩م
البصرة
الصحراء
العربية
شيراز
فارس
كرمان
الخليج
العربي
حيرات
كابول
بيشاور
كاندهار
سجستان
مركرم
نهر الإندوس
السند
0
100
200
300
ميل
تقدم جيش خرسان بقيادة قحطبة
طريق مروان

في عام ٧٤٩ م حدثت معركة بالقرب من أصفهان بين قحطبة وقوة عسكرية أموية، وهزمت فيها القوة هزيمة كاملة، واستولى الثوار على كل إمداداتها ومعداتها وأسلحتها ويظهر لنا على الأقل وخصوصًا في فارس أن امتداد الثورة وتوسعها لمدة عامين قد أضعف الروح المعنوية للقوات الأموية. وحيث كانت هذه القوات قبل ذلك منتصرة أصبحت الآن منهزمة دائمًا.

في مايو عام ٧٤٩ م استولى قحطبة على نهاوند حيث واجهت الإمبراطورية الفارسية القديمة أعداءها قبل ذلك بقرن وهم العرب الفاتحون، وتقدم قحطبة بقواته إلى حلوان حيث اشتبك مع القواعد الأمامية لجيش الكوفة بقيادة يزيد بن هبيرة الوالي. وبحركة سريعة مر قحطبة من هناك إلى شمال المكان الذي يتحكم فيه ابن هبيرة في ممر جالولا وعبر نهر دجلة والفرات، وتعدى نهر الفرات إلى الكوفة. وفي شهر أغسطس عام ٧٤٩ م عندما رأى ابن هبيرة أن الوضع قد انقلب رجع بسرعة لكي يدافع عن الكوفة. وحدثت معركة شرسة على نهر الفرات في الظلام قتل فيها قحطبة، ولكن جيش خرسان بقيادة حسن ابنه واصل تقدمه واحتل الكوفة، وانسحب ابن هبيرة إلى واسط. وفي ذلك الوقت كان كل شيء في جنوب العراق مضطربًا حيث كان الجيش الخراساني يجري مطاردات ساخنة في كل مكان للعناصر الأموية.

من الجدير بالذكر أن إبراهيم الإمام أمر مروان بالقبض عليه وإلقائه في السجن في قلعة حران. وهذا الأمر كان متوقعًا لأن إبراهيم كان قد أعد وثيقة قبل ذلك يورث فيها الإمامة لأخيه عبد الله. وروينا قبل ذلك أن عبد الله عندما كان حديث الولادة قبل ذلك بسنوات كان والده يظهره لشيعته من خراسان وهو بين ذراعيه.

بمجرد أن ألقي بإبراهيم في السجن حتى ترك عبد الله وكل الأسرة العباسية منازلهم في قرية حميمة، وخرجوا عبر الصحراء إلى الكوفة حيث استقبلهم وأخفاهم واحد من شيعتهم غير معروف للسلطات أو أهل الكوفة. وعندما دخل جيش الثوار المدينة حاول واحد من الشيعة أن يقدم واحدًا مكان الخليفة لكي يصلي العيد بالناس. ولكن جيش خراسان

اعترض، فظهر الخليفة العباسي الجديد وركب منتصرًا إلى مسجد المدينة الكبير حيث صلى بالمسلمين صلاة الظهر جماعة بعد ذلك، وألقى خطبة شجب فيها ضعف بني أمية. وأعلن صعود أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم إلى السلطة الذين سينشرون حكم الدين والعدل فوق الأرض قاطبة. وفي نهاية الخطبة كان بأبي العباس السفاح وعك فجلس على المنبر فنهض عمه داود بن علي وتكلم فقال إن بني العباس سيهتدون فقط بالدين، وأضاف إن هذا الأمر لن يخرج عن أهل بيت النبي حتى يسلموا المسؤولية إلى عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة عند قدومه الثاني.

كان الموقف إلى حد ما خطيرًا لأن أغلبية الحاضرين كانوا من الشيعة، وهم أنصار آل بيت علي بن أبي طالب وليسوا آل العباس. وتركت شعارات مثل بني هاشم وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم الأمور تثير الشك عن قصد. وعلي أية حال كان بنو العباس في جيلهم أعقل من بني علي فلم يخرجوا من المدينة المنورة لكي ينصرهم أهل الكوفة دون أمل في ذلك كما فعل الحسين رضي الله عنه بل على العكس لم يظهروا أنفسهم حتى احتل جيش خراسان الكوفة قبل ذلك. وبعد أن رأى الكوفيون أن الثورة قد تمت حيوا بحماس الخليفة الجديد الذي وإن لم يكن من آل علي بن أبي طالب فإنه على الأقل هزم بني أمية والسوريين المكروهين في الكوفة وطردهم. ولبقية اليوم من الظهر حتى المساء تدفقت حشود كثيفة من الكوفيين لكي تبايع الخليفة الإمام الجديد. وكان ذلك يوم ٢٨ أكتوبر عام ٧٤٩ م.

في تلك الأثناء بعث أبو مسلم بجيش آخر من خراسان. وعندما اتجه قحطبة جنوبًا لكي يستولي على الكوفة مرت قوة عسكرية بقيادة عبد الملك بن يزيد الأسدى بالموصل. وهذا يظهر أن من يقول إن الثورة العباسية كان أصلها ثورة للفرس ضد العرب ليس محقًا لأن قائدي الجيشين العباسيين كانوا من العرب. قحطبة بن شبيب من طيئ وعبد الملك بن يزيد من أسد.

من الصعب أن نفهم لماذا ظل مروان الخليفة الذي أظهر حماسة ملحوظة عندما وصل إلى السلطة لأول مرة حتى تلك اللحظة لا يتحرك في حران. ولكنه في لحظة معينة

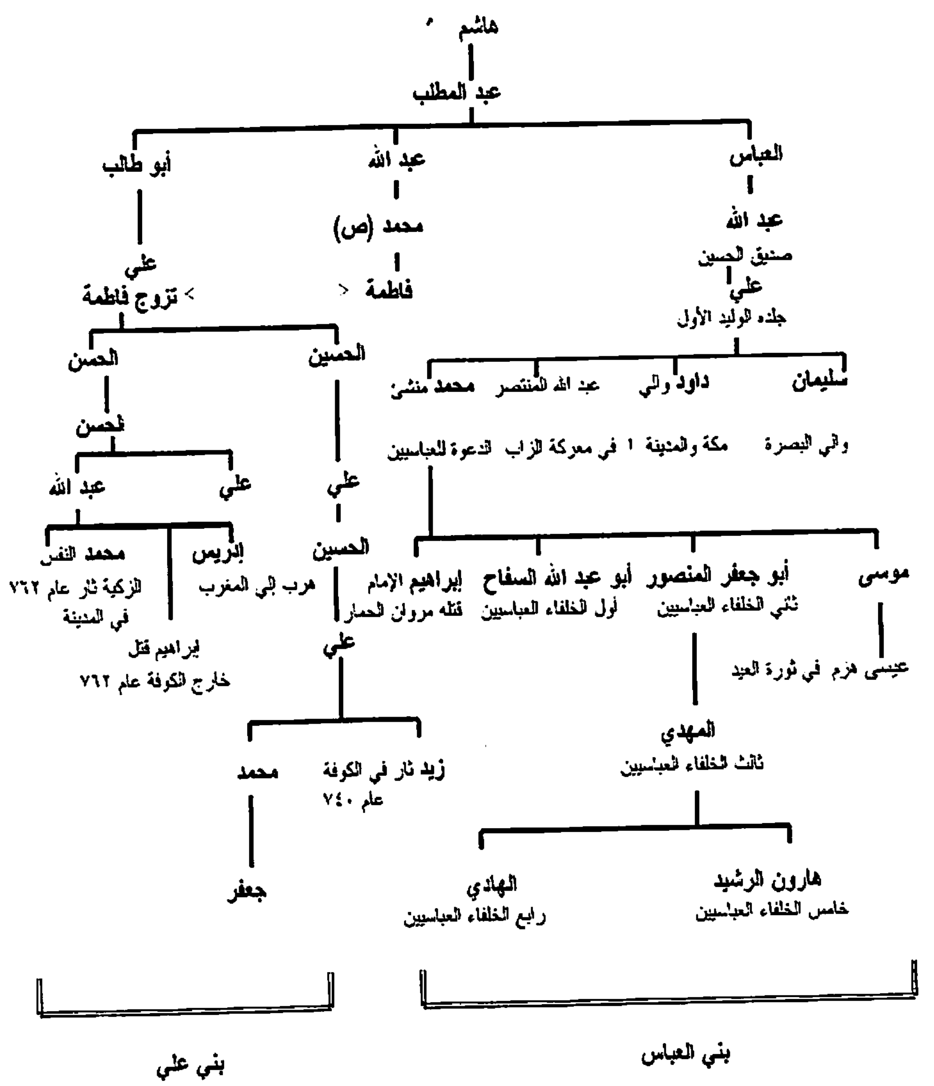
تحمس وخرج بجيشه لكي يواجه عبد الملك الأسدي. وعندما وصلت الأنباء إلى الكوفة بأن الخليفة يتقدم بعث الخليفة العباسي بكل القوات الممكنة لتعزيز جيش الثورة الشمالي، وتولى القيادة عبد الله بن علي بن عباس عم الخليفة الجديد والأخ الأصغر لمحمد بن علي المتوفى ومؤسس الحركة العباسية. وإذا كان مروان قد تحرك قبل أن يستولي الثوار على الكوفة لكان قد هزم جيش الثورة الشمالي بنفسه. ولكن لأنه تأخر حتى انتهى القتال جنوب العراق فقد سمح على أية حال للجزء الأكبر من جيش الحسن بن قحطبة أن ينضم إلى القوة الشمالية ضده.

كان مروان أول من وصل إلى الموصل بينما كان عبد الله بن علي يتحرك بجيشه على نهر الزاب وهو رافد لنهر دجلة على بعد ثمانين ميلًا أسفل الموصل. وفي الخامس والعشرين من يناير عام ٧٥٠ م تقدم الخليفة الأموي لكي يواجه الأعداء. والروايات عن هذه المعركة متناقضة ولا يمكن الاعتماد عليها. وكان النجاح غير العادي الذي حققته الثورة من قبل قد أضعف الروح المعنوية للجنود الأمويين، وبعضهم كان نصف مقتنع بأن إرادة الله شاءت أن يحكم آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. ورفضت وحدات كثيرة من الجيش الأموي أن تبادر بالهجوم وعصوا أوامر مروان في لحظة حرجة من المعركة، وتقول روايات أخرى إن اليمانيين في جيش الخليفة رفضوا أن يقاتلوا. ويقول المسعودي إن من المحتمل أنهم رفضوا ذلك لأن اضطراب الحكومة الأموية العام قد أخر دفع عطاء الجنود.

ولكن إذا كانت قبيلة بني أمية في أوج صعودها ما كان لتلك العوامل أن تحول بينهم وبين القتال. وهكذا كان إحجام الجنود عن القتال بسبب اقتناعهم أن الثورة قد انتصرت.

مهما كانت الأحداث الحقيقية للمعركة فقد هُزم الجيش الأموي هزيمة ساحقة. وعندما عبر مروان نهر الزاب لكي يقاتل العدو كانت النتيجة هزيمة الجيش الأموي وغرق الكثير من الجنود في محاولتهم الهروب عبر النهر. ومن العبث أن نكون غير عاجزين على متابعة مسار الأحداث في نهر الزاب لأنها واحدة من المعارك الحاسمة في العالم. وفي الحقيقة فإن انتصار العباسيين يعزى إلى الدعوة إليهم أكثر من الشجاعة العسكرية. وضعفت الروح المعنوية للجيش الأموي قبل أن تبدأ المعركة.

شجرة نسب بني علي وبني العباس



لم تغير معركة الزاب من شكل إمبراطورية العرب ككل، ولكنها أثرت بعمق على مستقبل أوروبا أيضًا. وكان العباسيون عكس الأمويين قد أهملوا التوسع في حوض البحر الأبيض المتوسط وركزوا اهتمامهم على فارس والشرق. وكان تهديد الفتح العربي لأوروبا الذي كان ينتاب أوروبا لمدة قرن قد زال وانقضى.

عندما رجع مروان إلى الموصل أغلقت المدينة أبوابها أمامه لذلك مر بها ومعه قوة حراسة صغيرة لكي يصل إلى مقره الأصلي في حران. وكان الجيش العباسي يطارد الأمويين، وكان مروان مضطرًا إلى الإسراع بالمسير إلى حمص ومن حمص إلى دمشق ثم إلى الأردن وفلسطين. وعندما قام الجيش العباسي المنتصر بمطاردته مدينة بعد مدينة كانت كل مدينة تفتح أبوابها ويخرج سكانها لابسين السواد لكي يبايعوا الخلفاء الجدد. أما دمشق التي كانت لمدة تسعين عامًا العاصمة الملكية لبني أمية فأغلقت أبوابها وأرغمت عبد الله بن علي على حصارها. ولكن بسرعة نشأت خلافات داخل أسوار المدينة ونشب قتال بين هؤلاء الذين يرغبون في الاستسلام وهؤلاء الذين ما زالوا مخلصين إلى الأسرة الأموية المهزومة. وفي يونيو عام ٧٥٠ م فُتحت أبواب المدينة ومزقت راية الأمويين البيضاء ورفرفت رايات العباسيين السوداء من أسوار المدينة. واحتفل عبد الله بن علي بسقوط دمشق عن طريق عمل مذبحة للأمويين والمخلصين لهم.

كان انهيار الدولة الأموية كاملًا ولا يمكن إصلاحه. وبعد أن هجره كل الناس وصل مروان السيئ الحظ إلى مصر وكان لا يزال مستمرًا في هروبه وخيل العدو في أثره. وتوقف لكي يستريح ليلة الخامس من أغسطس عام ٧٥٠ م في قرية أبي صير الصغيرة في الفيوم ثم فوجئ في الظلام بكتيبة فرسان فهرب حرس الخليفة الأموي مروان أما هو فكان نائمًا في كنيسة القرية، وخرج بمفرده لكي يواجه أعداءه الذين ألقوه على الأرض في النهاية وفي دقائق قليلة قُتل وبعث فارس خاص برأسه كعدو لله في نظره إلى عبد الله بن علي الذي كان قد احتل فلسطين بجيشه.

كان مروان في سن الستين عندما قتل. وقضى معظم حياته في شمال الجزيرة وفي أرمينيا وفي عمليات حربية ضد البيزنطيين والخزر. وعاش حياة متقشفة ومفعمة بالنشاط، وغالبًا ما كانت في جبهة القتال مع جنوده. وسأله مرة أحد أصدقائه لماذا لا يتنعم بالنساء أو العطور أو المتع الحسية الأخرى، فرد برواية قصة عن الخليفة عبد الملك ابن مروان:

«في أحد الأيام تلقى عبد الملك بن مروان رسالة من الحجاج أثناء ثورة عبد الرحمن الأشعث يخبره أن الجيشين يواجه بعضهما بعضًا في دير الجماجم؛ جيش الحجاج وجيش عبد الرحمن بن الأشعث وأن هناك معركة كبيرة. وبينما لا يزال يقرأ الرسالة دخلت أمة صغيرة السن بعثها إليه والي أفريقية كهدية. وكانت في وجهها وقوامها وطريقتها في الكلام أجمل امرأة رآها في حياته»، فقال لها: «أقسم بالله إنك أجمل فتاة يرغب أي إنسان في أن ينظرإليها»، ثم أطرق للحظة ثم رجع إلى الرسالة التي يقرؤها فقالت الفتاة: «لماذا لا يبدو أنك تريدني إذا كنت كما تقول»، وكانت الفتاة مرتاعة من قلة اهتمام الخليفة بها، فرد عبد الملك: «بالله كيف أفكر في امرأة بينما الحجاج وبن الأشعث يتقاتلان في المعركة وقادة العرب على وشك أن يذبح كل منهما الآخر؟»، ورد مروان الحمار «هذا هو السبب في أنه ليس عندي وقت للنساء».

كان كلام مروان صحيحًا فلقد قضى معظم وقته في حملات عسكرية ومعارك وقضى وقت فراغه في دراسة التاريخ وحروب الملوك الكبار وقادة العصور السالفة.

لأنه تولى الخلافة وعمره ستون عامًا فقد كان مروان أيضًا لا يعرف أي شيء عن القصور والسياسيين ولذلك كان غير كفء لحكم إمبراطورية كبيرة. ولم يكن قادرًا على منافقة أعدائه أو أن يوقع كل واحد بالآخر لكي يكسب وقتًا. وكان حادًا جدًا وينقصه التأييد على الأقل من العالم الخارجي.

لم يسكن مروان أبدًا في دمشق، ولكن حتى وهو خليفة كان يفضل أن يبقى في حران حيث قضى معظم حياته هناك. وكان نشاطه العسكري أثناء أول ثلاث سنوات من حكمه

حماسيًا ومتكاملًا، ولكن كان وضعه السياسي قبل ذلك ضعيفًا جدًا لدرجة أنه لا يمكن استعادته بالقوة. وكان فقط رجل دولة ذا نفوذ كبير استمتع بفرصة نجاح، وكانت شخصيته وعقليته محدوده جدًا بالنسبة لهذا المنصب الكبير. وبصفته حاكمًا كان أكبر خطأ ساذج ارتكبه هو انضمامه وتأييده لقبيلة قيس. ونتيجة لذلك لم يجد من يعاديه فحسب من أهل خراسان والشيعة والخوارج، ولكنه كان مكروهًا من اليمانيين الذين يكونون نصف القبائل العربية.

في مجال التكتيكات العسكرية كان له فضل إعادة تنظيم الجيوش العربية التي كانت تحارب في صفوف ثابتة منذ أيام النبي صلى الله عليه وسلم، فيروى أنه درب هذه الجيوش على القتال في طوابير عسكرية أكثر حركة وأكثر مناورة من الصفوف الثابتة، وهو تغيير معروف لنا عندما نتذكر صفوف الخنادق الثابتة في الحرب العالمية الأولى ونرى هذه الصفوف تتحول إلى طوابير عسكرية متحركة لحرب خاطفة.

بينما كان عبد الله بن علي عم الخليفة مشتركًا في تأمين الأردن وفلسطين لبس أهل قنصرين فجأة الزي الأبيض. وكان اللونان الأسود والأبيض يمثلان اللونين اللذين يرمزان إلى العباسيين والأمويين وكانت كل مدينة تدل على ارتباطها بأي من الدولتين بلون ملابس مواطنيها. وكما يروى أساء بعض الجنود العباسيين التصرف في البلاد التي حول قنصرين وهاجموا عددًا من النساء. وانتقم سكان هذه البلاد بقتل العديد من الجنود العباسيين، ولخوفهم من العقاب لبسوا ملابس بيضاء، وانتشرت هذه الحركة بسرعة إلى حمص وبالميرا، وسار عبد الله بن علي في اتجاه الشمال ولكن بمجرد أن مر بدمشق حتى ثارت العاصمة عليه وبعد قتال شديد في يوليو عام ٧٥١ م قمعت ثورة قنصرين وعاد أهلها مرة ثانية إلى ارتداء الملابس السوداء. وفي تلك الأثناء ارتدى أهل إقليم الجزيرة في سوريا ملابس بيضاء واستغرق الأمر شهورًا عديدة من القتال في الرقة وحران وماردين حتى تم إعادتها مرة ثانية إلى حظيرة الدولة العباسية وارتدى أهلها مرة ثانية الملابس السوداء.

يجب أن نذكر أن يزيد بن هبيرة كان والي مروان على العراق، وعندما احتل جيش خراسان الكوفة انسحب بن هبيرة إلى واسط حيث حاصرته قوة عسكرية عباسية. وكان ابن هبيرة زميل سلاح قديم لمروان في حملاته العسكرية العديدة في القوقاز وآسيا الصغرى وعلى الرغم من خضوع كل العالم للنظام الجديد فإنه استمر شهرًا بعد شهر يدافع عن واسط بصورة حماسية. وبعد ذلك بعث الخليفة عبد الله المعروف بأبي العباس السفاح أخاه أبا جعفر المنصور لكي يحاصرها، فأخذ أبو جعفر يتفاوض مع ابن هبيرة وبعد حصار دام لمدة عام تم الاتفاق على شروط الاستسلام. وأمن أبو جعفر خروج ابن هبيرة والحامية التي معه، وفتحت بوابات المدينة ونصب المحاصرون الخيام في العراء بجوار الذين حاصروهم قبل ذلك. ولكن الخليفة أبا العباس السفاح كتب إلى أخيه أبي جعفر المنصور أن يقتل ابن هبيرة وهو رأي قاومه أبو جعفر بشدة. ولكن أوامر الخليفة لا يمكن رفضها في النهاية، وعلى الرغم من تعهد أبي جعفر بخروج بن هبيرة آمنًا من واسط فإنه تم إعدام ابن هبيرة وجنوده بغدر.

لقد كسب الخليفة أبو العباس بحق واقتدار لقب السفاح أو سافك الدماء وهو اللقب الذي اكتسبه على مدار التاريخ والذي سنشير إليه في المستقبل؛ فلقد أمر بإعدام كل فرد من أفراد بني أمية سواء بوسائل شريفة أو غير شريفة. وذبح عددًا كبيرًا في البصرة وتركت أجسادهم لكلاب الصحراء لكي تلتهمهم. ولكن أسوأ من كل ذلك الأفعال التي ارتكبها عبد الله بن علي عم سافك الدماء وبطل معركة الزاب.

ولى الخليفة أبو العباس السفاح عمه واليًا على سوريا، وأمره أوامر خاصة بأن يقتل كل مَن تبقى من بني أمية. وفعل عمه ذلك بإعلان العفو ودعوة كل بني أمية إلى مأدبة كبيرة لكي يأخذ منهم البيعة للخليفة الجديد. وعندما امتلأت القاعة ببني أمية ومن يوالونهم أعطى عم الخليفة الإشارة للجند وذبح ما بين ثمانين وتسعين من بني أمية بدم بارد. وما كادت المذبحة أن تنتهي حتى أمر عبد الله بن علي بإحضار المأدبة أمام جثث المقتولين وتم انتشال الجثث. ويبدو الأمر مريعًا ولكنه كان حقيقيًا أن العباسيين وشيعتهم انهمكوا في تناول

طعام المأدبة بينما كانت أرضية القاعة لا تزال مغطاة بالجثث المشبعة بالدماء، وكان مرح الحاضرين تقاطعه أنات المقتولين. وبعث الخليفة العباسي أبو العباس السفاح داود بن علي أخاه لكي يكون واليًا على مكة والمدينة، وأمره أن يقضي على كل من يمت بصلة إلى بني أمية في المدينتين المقدستين بالأساليب نفسها.

كانت مشكلة اختيار مكان العاصمة تحير الأسرة الحاكمة الجديدة فقد كان السوريون يخلصون إلى بني أمية مدة طويلة لدرجة أنه من الخطر أن يخضع العباسيون لسلطتهم في دمشق. وتمت مبايعة أبي العباس السفاح في الكوفة ولكن كانت طبيعة أهل الكوفة متقلبة لدرجة أنها لا تصلح بوصفها عاصمة للدولة العباسية. وكان الخليفة الجديد قد أقام في بادئ الأمر في قلعة بالقرب من الكوفة وسماها الهاشمية، ولكن في عام ٧٥٢ م انتقل إلى مدينة الأنبار على بعد مئات الأميال من أعالي الفرات. وظل المكان النهائي للعاصمة مشكوكًا فيه.

بينما حدثت هذه الأحداث المثيرة في العراق وسوريا ومصر ظل أبو مسلم الخراساني مدبر الثورة الأصلي واليًا على خراسان وجبال. وفي عام ٧٥٠ م ظهرت فجأة قوة عسكرية صينية في فرجانا على نهر الجاكسارتس وهاجمت ساش فاستغاث واليها بأبي مسلم طلبًا للمساعدة. وكنتيجة لذلك عبرت قوة عربية نهر الجاكسارتس، وفي يوليو عام ٧٥١ م انهزمت القوة الصينية تمامًا في طالاس على بعد مائتي ميل وراء النهر. وبعد ذلك بفترة قصيرة نشبت حرب أهلية في الصين حيث انهارت أسرة التانج الحاكمة. وحددت معركة طالاس نهاية التدخل الصيني في منطقة عبر الأوكسيانة. وتحت حكم العباسيين نعم الإقليم بفترة طويلة من الازدهار وأنتج حضارة إسلامية باهرة.

في عام ٧٥٣ م كتب أبو مسلم الخراساني إلى الخليفة أبي العباس السفاح يطلب منه الإذن بزيارته، ووصل إلى العراق مبكرًا عام ٧٥٤ م. وحدث أن شقيق الخليفة أبي جعفر المنصور كان أيضًا في الأنبار حيث دعاه الخليفة أن يترك وظيفته كوالٍ لأرمينيا وإقليم الجزيرة لكي يقود بعثة الحج السنوية إلى مكة.

يعزى نجاح الثورة العباسية إلى حد كبير إلى جيش خراسان الذي قام جنوده في ذلك الوقت بالانتشار في سوريا وإقليم الجزيرة والعراق وأيضًا فارس. وكانت سلامة النظام تعتمد على إخلاص الخراسانيين. وعلى الرغم من أن بني أمية قد تم القضاء عليهم فإن الشيعة كانت لا تزال طائفة مشكوكًا فيها. لقد ساعد الكثير منهم في الثورة ضد بني أمية على أمل أن واحدًا من بني علي بن أبي طالب سيصبح خليفة، وكانت النتيجة أنهم خاب أملهم في وضع غير مؤكد بالنسبة لهم. وكانت هيبة أبي مسلم الخراساني في الجيش الخراساني كبيرة إلى درجة خطيرة.

اقترب أبو جعفر من أخيه الخليفة ورأى أن أبا مسلم يجب أن يقتل «إذا لم تتغذَ به اليوم فسوف يتعشى بك غدًا». وتردد أبو العباس السفاح قليلًا ليس من تأنيب الضمير ولكن من خوفه أن ذلك الفعل قد يعجل من الأزمة نفسها التي يخاف منها الأخوان؛ وهي انقلاب جيش خراسان عليهما. ونظر أبو جعفر إلى أخيه بارتياب.

في مايو عام ٧٥٤ م خرج أبو جعفر في رحلة الحج إلى مكة وكان أبو مسلم الخراساني يصاحبه. وقبل رحيل القافلة رشح أبو العباس السفاح أخاه لكي يتولى عرش الخلافة بعده ثم رشح ابن أخيه عيسى بن موسى لكي يخلفه. وفي الشهر نفسه سار والي سوريا عبد الله بن علي شمالًا بجيش معه وقاتل بني أمية. وكان هدف هذا الجيش هو إثبات الحماسة الدينية للأسرة الحاكمة الجديدة عن طريق استئناف عادة بني أمية في عمل غارات صيفية سنوية على الأراضي البيزنطية.

مات الخليفة أبو العباس السفاح من الجدري في ٩ يونيو عام ٧٥٤ م بينما كان أخوه ووارثه على عرش الخلافة لا يزال غائبًا في الحج. وكان عمره ثلاثًا وأربعين سنة وحكم لمدة أربع سنوات ونصف.

قد نكون خائفين من عنف بني أمية كقطع الرؤوس والأيادي والأقدام والمذابح التي تجرى للأسرى من المعارك بدم بارد، وخاصة عندما يكونون عربًا ومسلمين لذلك لم تتوقف شيعة بني العباس عن إبلاغ المتعاطفين معهم أن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم سيأتون

مرة ثانية ويضعون حدًا لكل مظاهر الرعب هذه. وفي رسائلهم استلهموا صورة المخلص من الأسرة الهاشمية آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي سيقيم على الأرض حكم السلام والعدل وفعل الخيرات. وفي تلك العصور الدموية كانت تلك الأماني والأحلام هي التي مكنت العباسيين من أن يصلوا إلى السلطة.

من المثير للسخرية أن أول ممثل لأهل البيت الذي بشر بهذا العهد الجديد كان أبا العباس السفاح القاسي والماكر سافك الدماء. وفي الحقيقة أن العباسيين وهم في قمة سلطتهم كانوا يحكمون بالقوة بصورة أكثر قسوة من الأمويين. ولم تستمر خيبة أمل الشيعة طويلًا برغم الدعاية التي نشرتها الأسرة العباسية الحاكمة. وفي ذلك يقول أبو العطار وهو شاعر حديث:

لن نتمكن من إعادة ظلم بني مروان

أو نودع عدالة بني العباس إلى جحيم النار(*)

سفك بنو أمية دماء الكثير من الناس ولكنهم كانوا يميلون إلى العنف وليس الغدر. وعمومًا فقد كانوا يطبقون التقاليد العربية من حسن الضيافة وعدم انتهاك حرمة الضيف. ورأينا كيف أن سليمان بن عبد الملك ناشد أخاه الوليد بن عبد الملك ألا يشينه بالقبض على ضيفه يزيد بن المهلب. ولكن العباسيين الأوائل دعوا بني أمية إلى مأدبة للصلح لكي يذبحوهم ومن المهم أن ندرك أن جدهم العباس رضي الله عنه كان شخصية ملتوية إلى حد ما (**).

(*) لم يتم العثور على مصدر هذا البيت من الشعر فقام المترجم بترجمته.

(**) (يفتري الكاتب افتراءً كبيرًا على العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصحيح أنه لم يؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم إلا متأخرًا وصحيح أنه أسره في غزوة بدر؛ لأنه أراد أن يقاتل النبي صلى الله عليه وسلم وصحيح أنه لم يجاهر بإسلامه ولكنه كان يؤدي دورًا كبيرًا في إبلاغ النبي صلى الله عليه وسلم بما تنتويه قريش نحوه – المترجم).

من المزعج أن نجد ذلك الغدر في الإمبراطورية؛ فقد كان المسلمون الأوائل يحترمون التزاماتهم إلى أبعد مدى، حتى لو أدى ذلك إلى إلحاق الضرر بهم. وبالإضافة إلى ذلك كانت معاملاتهم مع اليهود والنصارى والكفار هي المعاملة نفسها التي يعاملون بها إخوانهم المسلمين. وكانت تتسم بالصدق والبساطة والصرامة. وعندما جاء عصر الدولة الأموية كانت توجد حالات قليلة لشخصيات مريبة إلى حد ما، ولكن لا شيء في سجلات بني أمية يمكن أن نقارنه بمذبحة مأدبة دمشق أو قتل يزيد بن هبيرة في واسط.

هناك صفة خاصة بأبي العباس السفاح وهي عدم مبالاته بالنساء؛ فقد كان متزوجًا بامرأة واحدة كان يستشيرها باستمرار في الأحداث الجارية، ولكنه لم يتزوج امرأة أخرى أو لم يستمتع بمحظياته من الجواري والإماء. وكان سخيًا في الإنفاق ولطيفًا. وكان بارعًا في الحديث وكان يجلس تقريبًا كل الليل مع أصدقائه يقص ويسمع النوادر والفكاهات ويتلو قصائد الشعر ويناقش تاريخ الملوك القدامى الكبار. ونستنتج من ذلك أن أبا العباس السفاح كان مفكرًا يستعمل المنطق ولا يملك أي مشاعر أو أي مظهر من مظاهر الضعف الذي تكونه العاطفة أو الشفقة. وكل الروايات التاريخية تتفق على أنه كان رجلًا ذا عزيمة.

يجب علينا أن نتجنب خطأ مقارنة فجاجة الحكم العربي في القرن السابع بأنظمة حكم الدولة الحديثة ونستنتج أن العرب غير مؤهلين للحكم. ولكن لكي نضع هذه الأحداث التاريخية في مكانها المناسب يجب علينا أن نتتبع باختصار أحداثًا معاصرة في الإمبراطورية البيزنطية. ولقد أقر القرآن الكريم مبدأ مقابلة الجزاء بمثله العين بالعين والسن بالسن، ومع ذلك فلقد أضاف النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه أن الرجل الذي يتخلى عن انتقامه طواعية سينال جزاءه في الدار الآخرة. ولكن البيزنطيين الذين اعتنقوا المسيحية، ديانة الحب ديانة موعظة الجبل، حدثت في دولتهم أحداث قليلة من هذا القبيل على مر تاريخها، ولذلك كانت أعظم دولة متحضرة في عالم البحر الأبيض المتوسط(*).

(*) (يعجب الكاتب كثيرًا بالدولة البيزنطية التي كان يقتل الملوك فيها بعضهم بعضًا لكي يستولوا على العرش والتي كانت تستبيح الدول الأخرى وترغم رعاياها على اعتناق المسيحية على المذهب الذي يتراءى لها ولم تكن تسمح بحرية ممارسة العقيدة – المترجم).

قامت الإمبراطورة إيرين أرملة ليو الرابع ووالدة قسطنطين السادس بخلع وإعماء ابنها، ونصّب الجيش ليو الخامس الأرميني إمبراطورًا. وكان له صديق يسمى مايكل العموري، ولكن راودت ليو الخامس الشكوك بخصوص صديقه وأمر بالقبض عليه عشية عيد الميلاد بتهمة التآمر. وصدر عليه الحكم مباشرة بربطه مع قرد إلى عمود. ثم يتم إلقاؤه في الفرن الذي يقوم بتسخين حمامات القصر. وفي صباح اليوم التالي اُغتيل الإمبراطور في الكنيسة بينما كان يغني أنشودة عيد الميلاد. ووجد مايكل العموري نفسه فجأة يخرج من الزنزانة إلى منصب الإمبراطور. ونظرًا لخوفه من أن يحاول أبناء ليو استعادة عرش والدهم أمر مايكل بإخصاء أبناء ليو الأربعة. ومات واحد منهم أثناء العملية.

كان الإمبراطور مايكل الثاني العموري مثل الخليفة الوليد الثاني بن يزيد سكيرًا باستمرار وكان يتسرى مثل الوليد بالسخرية من الدين، ويروى أنه كان يلبس لباسًا يجعله يبدو مثل خنزير أو ربما جعل صديقًا مرحًا له يسمى الخنزير على سبيل التهكم وجعله يلبس لبس أسقف ويمارس الطقوس الكهنوتية. واغتال بازل المقدوني مايكل الثاني وخلفه على العرش كإمبراطور.

قُتل الإمبراطور نايسفورس فوكاس من زوجته عندما كان نائمًا. وبعد قتل زوجها بثلاث ساعات أمرت الإمبراطورة بتنصيب عشيقها جون زيميسيز إمبراطورًا.

عندما هزم الإمبراطور بازيل الثاني البلغار أسر خمسة عشر ألف أسير، وأمر بقلع أعينهم قبل إعادتهم إلى بلادهم.

هذه الوقائع التاريخية التي تبدو متشابهة في تاريخ جيران العرب المسيحيين قد تساعدنا على استكشاف عنف العرب في ضوء الأخلاقيات العامة لتلك العصور.

تواريخ بارزة

- ٢٣ نوفمبر عام ٧٤٤ م.......تولي مروان الثاني.

- يونيو عام ٧٤٥ م.........استيلاء الخوارج على الكوفة.

- ٧٤٦ م............ احتلال الخوارج للموصل.

- ٧٤٦ م........... معركة كفر توسا.

- ٧٤٦ م.............قمع الثورة في الأردن.

- يونيو ٧٤٧ م...... أبو مسلم يخرج في ثورة عامة.

- ٧٤٧ م............. ابن هبيرة يستولي على الكوفة مرة ثانية.

- ٧٤٨ م..........الخوارج يستولون على الحجاز مرة ثانية.

- ٧٤٥-٧٤٨ م.... الحرب الأهلية بين قبائل قيس واليمانية في خراسان.

- مارس ٧٤٨ م........ أبو مسلم والٍ على خراسان.

- أغسطس ٧٤٨ م.............الثوار بقيادة قحطبة يستولون على الري.

- ربيع ٧٤٩ م........... معركة أصفهان.

- مايو ٧٤٩ م...........قحطبة يستولي على نهاوند.

- أغسطس ٧٤٩ م...... مروان يعدم إبراهيم الإمام.

- أكتوبر ٧٤٩ م..........قحطبة يستولي على الكوفة.

- ٢٨ أكتوبر عام ٧٤٩ م.....مبايعة السفاح خليفة على الكوفة.

- ٢٥ يناير عام ٧٥٠ م..... معركة الزاب.

- يونيو عام ٧٥٠ م.........سقوط دمشق.

- ٥ أغسطس عام ٧٥٠ م..... وفاة مروان.

- ٩ يوينو عام ٧٥٤ م...... وفاة الخليفة السفاح.

الشخصيات

- الخليفة مروان الثاني المسمى بالحمار.
- إبراهيم الإمام بن محمد بن علي العباسي.
- يزيد بن هبيرة والي مروان على العراق.
- أبو مسلم الخراساني منظم الثورة العباسية في فارس.
- قحطبة بن شبيب قائد الجيش العباسي في فارس.
- خالد بن برمك من بلخ واحد من شيعة العباسيين.
- الخليفة السفاح (عبد الله أبو العباس) سافك الدماء.
- عبد الله بن علي العباسي بطل معركة الزاب ووالي دمشق عم السفاح.
- أبو جعفر شقيق الخليفة السفاح.

الفصل الثالث عشر

القطع النقدية القديمة

حيث إن الأمويين لم يكونوا أكثر قليلًا من طبقة أرستقراطية عربية متمردة، فإن من جاء بعدهم من الخلفاء عاد إلى النظام الاستبدادي الذي كان الفرس يألفونه منذ أيام دارا وإحشورش.

(نيكلسون– التاريخ الأدبي للعرب).

يصبح الملوك طغاة سياسيًا عندما تكون الثورة مبدأ من مبادئ الشعوب.

(إدموند بيرك).

عام ٧٦٢ م وضع المنصور حجر الأساس لعاصمته الجديدة بغداد. وعندما تحولت هذه المدينة إلى واقع بعصا ساحر فإنها أصبحت وارثة للسلطة ونفوذ تيسيفون وبابل ونانيفح وأور وعواصم الشرق الأخرى القديمة. وحصلت على درجة من الهيبة والروعة لا تقارن في العصور الوسطى فيما عدا القسطنطينية.

(حتي – تاريخ العرب).

كان أبو جعفر ما زال يحج في مكة عندما وصلته الأنباء عن وفاة الخليفة السفاح، فرجع بسرعة إلى الكوفة ثم إلى الأنبار حيث بويع خليفة وأخذ لقب المنصور بمعنى المنتصر، وقبلَ هو مبايعة الناس. وفي تلك الأثناء كان عبد الله بن علي قد خرج ليغير على الإمبراطورية البيزنطية. وقبل أن يصل إلى حدودها علم أيضًا بوفاة السفاح فاستدعى

جنود الجيش وضباطه إلى اجتماع جماهيري، وأعلن ترشحه للخلافة وبايعه جيشه كأمير جديد للمؤمنين. وعاد الجنود إلى إقليم الجزيرة، وأداروا ظهورهم للأعداء.

في تلك الأزمة لجأ الخليفة المنصور إلى أبي مسلم الخراساني الذي كان قد نصح أخاه قبل ذلك بثلاثة شهور أن يقتله ولأنه كان يوجد في جيش عبد الله بن علي كثير من العرب والسوريين أدرك المنصور مرة ثانية أنه لكي ينتصر يجب أن يعتمد على جيش خراسان الذي كان يتمتع فيه أبو مسلم الخراساني بسلطة مطلقة. وتقابل الجيشان بالقرب من نصيبين في إقليم الجزيرة ولكن كان الجيشان متساويين في كل شيء لدرجة أن كليهما لم يخاطر بالقتال في معركة ضارية. وبعد شهور عديدة من المناورة حدث قتال عام بعد ذلك في ديسمبر عام ٧٥٤ م، وكنتيجة لعلو هامة أبي مسلم الخراساني في مجال القيادة العسكرية حقق جيش الخليفة نصرًا كاملًا.

نادى عبد الله بن علي على واحد من أنصاره عندما لاذ جيشه بالفرار: «ماذا سنفعل الآن؟» فرد عليه صديقه الصريح: «إني أتذكر ما قلته بعد معركة الزاب فليلعن الله مروان لأنه كان خائفًا وهرب». ويبدو لي بعد تلك الملاحظة أنه من الأفضل لك أن تستمر في القتال حتى الموت»، فرفض عبد الله تلك النصيحة وأسرع عم الخليفة الشرير إلى الهروب من ميدان المعركة وبحث بعد ذلك عن مكان يلجأ إليه عند أخيه سليمان بن علي الذي كان واليًا للبصرة.

في ذلك الوقت لم يُطمئن الانتصار الكبير الذي حققه أبو مسلم الخرساني الخليفة المنصور كما سنسميه بعد ذلك؛ لأنه كان خائفًا من أبي مسلم الخراساني منه أكثر من عمه عبد الله بن علي. وكان أبو مسلم يمثل خطرًا على الخليفة نظرًا لنفوذه الكبير في فارس وفي جيش خراسان. وبناءً على ذلك كتب إليه الخليفة رسالة يتملقه فيها، ويهنئه على الانتصار الكبير ويعلمه أنه قد عينه واليًا على سوريا ومصر.

لكن على أية حال كان أبو مسلم ذكيًا جدًا ولا تخدعه هذه المناورة الواضحة التي تهدف إلى فصله عن جيشه في خراسان، والذي كانت هيبته فيه كبيرة جدًا. وبناءً على ذلك رد

باختصار أنه سيعود إلى خراسان، فأخذ المنصور يفكر أنه إذا فعل ذلك فسيكون في موقف يتحدى به الخليفة؛ لأن معظم الجنود الذين كان يعتمد عليهم العباسيون كانوا من الفرس فبعث إليه بوفد من شباب بني العباس ومعه دعوة لكي يزوره في طريقه.

كان أبو مسلم يرتاب في ذلك. ونصحه ضباط الجيش بألا يذهب. ولكن بعد مداولات طويلة قرر أن يقبل هذه الدعوة. وكان المنصور يجلس بمفرده في خيمة لكي يستقبله، وكان في بادئ الأمر قد أخفى أربعة موثوقًا بهم من حرسه الخاص خلف الستائر. وعندما يصفق المنصور بيديه يخرجون من خلف الستائر ويضربونه. وعندما دخل أبو مسلم الخيمة بدأ أمير المؤمنين الخليفة في توبيخه ولومه ولكنه رد بالاعتذار عما بدر منه وحاول أن يقبل يد الخليفة الذي تملص من الإيماءة وصفق بيديه معًا فخرج الحراس الأربعة من وراء الستائر وسقطوا على ضحيتهم بينما كان المنصور يصيح «اضربوه اضربوه». وكما يروى كانت آخر كلمات أبي مسلم الخراساني «سامحني»، ولا نعرف إن كان يقول هذه الكلمة لله بحثًا عن مغفرة الله له أو يطلب السماح من المنصور. ولف الحراس جسده في عباءة وألقي في نهر دجلة على الشاطئ الذي كان ينصب فيه معسكره بالقرب من المدائن.

حدث بعض القلق بخصوص نية جيش خراسان، ولكن وزع الخليفة بعض المبالغ المالية على عدد من الضباط الكبار ومرت الأمور بدون أي رد فعل مباشر غير متوقع. وشعر الخليفة بالاطمئنان أكثر لأنه تخلص من الرجل الذي يدين له بعرش الخلافة. ولا نعرف عما إذا كان أبو مسلم الخراساني في الحقيقة كان يمثل تهديدًا للأسرة العباسية أو كان خادمًا مخلصًا ومطيعًا.

أصبح اسم أبي مسلم الخراساني مذكورًا لفترة طويلة في فارس وخصوصًا من طائفة الخراميين الذين سنسمع عنهم الكثير في الفصول القادمة. وبعض من ينتسبون إلى هذه الطائفة يعتقدون أنه سيعود مرة ثانية كالمهدي الموعود الذي سيقود حكمًا يتسم بالعدل والسلام.

نظرًا لاشتراك الخلفاء العباسيين كلية في معارك لإنجاح ثورتهم ثم تخلصهم من أبي مسلم فإن ذلك أدى بهم إلى إهمال الغارات الصيفية على الأراضي البيزنطية. وفي أول

صيف تلى خلافة المنصور قلب الإمبراطور قسطنطين الخامس كوبرنيموس الأمور على العرب وأصبح البيزنطيون هم الذين يقومون بالغارات الصيفية واستولوا على مالاتيا ودمروها. وأعاد العرب تعمير المدينة في العام التالي ولم تعد هناك أي غارات صيفية فعلية على الأراضي البيزنطية لمدة سبع سنين قادمة.

كما نعلم فإن عبد الله بن علي عم المنصور كان يطالب بالخلافة لنفسه عند وفاة أبي العباس السفاح، ولكنه هُزم من أبي مسلم الخراساني ولجأ إلى أخيه سليمان بن علي في البصرة. ومن هناك بايع الخليفة المنصور. وفي عام ٧٥٦ م دعا الخليفة عبد الله بن علي والضباط الكبار الذين نصروه لكي يأتوا إليه في الكوفة ووعدهم بالعفو عنهم. وبمجرد أن وصلوا أُلقي عبد الله بن علي في السجن وقطعت رؤوس بقية الضباط. وبعد ذلك قُتل عبد الله ابن علي في السجن.

وما يثير الاستغراب كثيرًا أنه على الرغم من أن الخراسانيين كانوا الوسيلة التي مكنت العباسيين من الوصول إلى سلطة الخلافة فقد استمرت الثورات والانشقاقات في الإقليم كما كانت أيام الأمويين. وكانت هناك نقطة تثير التعاطف في الثورة التي نشبت في خراسان حيث أعلن الثوار أنهم مكنوا الأسرة الهاشمية من الوصول إلى السلطة لكي يقيموا حكمًا يتسم بالعدل والرحمة لا لإقامة حكم آخر من الطغاة المتعطشين للدماء. ولم يتسامح الخليفة مع تلك الملاحظات المتغطرسة من جانب الخراسانيين، وتم قمع الثورة بسرعة. وتبدد الحلم بالمخلص الذي أدى إلى الثورة العامة ضد الأمويين. وإذا لم يكن العباسيون أسوأ من الأمويين فإنهم بالتأكيد لا يبدو أنهم أحسن منهم. ولكنهم الآن في مركز السلطة ولم يعد يجدي الندم.

استفادت طبقة من الناس بالتأكيد من التغيير الذي صاحب الدولة العباسية وهي طبقة الفرس الذين اعتنقوا الإسلام والذين لم يعترف الأمويون بمساواتهم اجتماعيًا مع العرب، وتولوا الكثير من المناصب الحكومية الأكثر أهمية بما فيها منصب كبير جامعي الضرائب الذي شغله خالد بن برمك من بلخ والذي جاء إلى العراق في الجيش الذي بعث به أبو مسلم الخراساني.

بالنسبة إلى المذبحة الكلية التي وقعت لبني أمية فقد نجا منها أحد الشباب واسمه عبد الرحمن بن معاوية، وكان حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك. ويذكر أن عبد الله بن علي كان قد أصدر عفوًا عامًا عن بني أمية ودعاهم إلى مأدبة في دمشق فقبل ثمانون من بني أمية الدعوة وقتلوا في قاعة المأدبة. وكان عبد الرحمن وأخوه يحيى يرتابون في تلك الهدنة المعقودة مسبقًا ولم يذهبا إلى القصر. ولوحظ غيابهما، وبعث عبد الله بن علي بالجنود لكي يعتقلوهما ويقتلوهما فتم القبض على يحيى وقُتِل ولكن لحسن الحظ كان عبد الرحمن في الخارج يصطاد عندما وصل الجنود. وحذره خادم مخلص له فتمكن من الهرب إلى منزل ريفي كان يملكه على شاطئ الفرات. ولكن بعد أيام قليلة شوهد أصحاب الرايات السوداء وهم يقتربون من منزله، وكان عند الأمير الأموي وقت قليل لكي يهرب على قدميه مع أخ أصغر له ويختفي في غيضة أشجار على شاطئ النهر. وأرشد أحد العبيد الجنود إلى مكان اختفاء الهاربين وبسرعة وصلت فرقة فرسان تعدو وأحاطت بالغيضة (غابة صغيرة) فألقى الأميران بنفسيهما في الفرات، وتعب الأخ الأصغر بسرعة. ونادى عليه الجنود بأن يعود، ووعدوه بألا يؤذوه فعاد الشاب إلى الشاطئ. وبمجرد أن خرج من الماء قطعوا رأسه مباشرة. وخرج عبد الرحمن منفردًا على الشاطئ الآخر.

كان عبد الرحمن متعبًا، وسافر بنفسه متنكرًا، ووصل إلى فلسطين حيث انضم إليه خادمان مخلصان هما بدر وسليم، وأخفيا في ملابسهما الجواهر والنقود التي معه. ووصل الثلاثة بعد مطاردات ضيقة كثيرة إلى مصر، ومنها إلى برقة حيث اختفوا لفترة. وكان الوالي على أفريقية في ذلك الوقت عبد الرحمن بن حبيب الذي استولى على السلطة في الاضطراب الذي حدث بسبب الثورة العباسية. وكان أحد أحفاد عقبة بن نافع المشهور مؤسس القيروان، وكان يأمل في ظل تلك الظروف أن يؤسس لنفسه مملكة مستقلة في أفريقية (تونس). وعندما اكتشف وجود هاربين آخرين من بني أمية وبني الخليفة الفاسق الوليد الثاني في أفريقية قبض عليهما وقتلهما. وعندما علم عبد الرحمن بمصير أقاربه من بني أمية لجأ عبد الرحمن وخادمه المخلص بدر إلى بربر جبال الأطلس لأن خادمه الآخر سليم عاد إلى سوريا. وأخيرًا وبعد خمسة أعوام من التجوال العقيم وصل الهاربان المطاردان

إلى سيبتا بالقرب من مضيق جبل طارق، وجالت ببالهما فكرة العبور إلى إسبانيا حيث كان يوجد فيها العديد من وجهاء وموالي بني أمية. ورأينا قبل ذلك في المجتمع العربي أن الموالي لديهم التزام أخلاقي أن يخدموا من جيل إلى جيل بني الرجل الذي أعتق جدهم العبد.

بناءً على ذلك عبر بدر إلى إسبانيا لكي يبحث مدى استعداد الأمويين ومواليهم هناك لمساندة الأمير الأموي الهارب. وكان الموالي قد أعلنوا مباشرة كواجب مقدس استعدادهم للتضحية بأنفسهم في سبيل أسيادهم. وكان والي إسبانيا في ذلك الوقت من قبيلة قيس، وبذل اثنان من رؤساء الموالي محاولات للتقرب من تلك القبيلة ولكن بلا جدوى. وعرض اليمانيون الذين كانوا بلا مناصب مساعدتهم في ذلك. وأسرع بدر بالعودة إلى أفريقيا بعد غياب عدة أشهر حيث رحب به سيده المتلهف عليه عبد الرحمن. وقرر الاثنان السفر المباشر إلى إسبانيا على متن سفينة، وفي سبتمبر عام ٧٥٥ م نزل عبد الرحمن إلى المنيكر على بعد خمسة وأربعين ميلًا شرق ملقا.

كان والي الأندلس يوسف الفهري الذي كان أحد أحفاد عقبة بن نافع أول فاتح لأفريقية وعندما نزل عبد الرحمن في الجنوب كان يوسف يقود حملة على منطقة سارقسطة، ولكنه عاد إلى عاصمته في قرطبة عندما سمع بوصول الأمير الأموي. وكان يوسف رجلًا مترددًا وبدلًا من مهاجمة الغازي وأنصاره الذين يعدون على أصابع اليد بعث من ينوب عنه لكي يتفاوض عارضًا زواج بنته بعبد الرحمن وتقديم ممتلكات له إذا كان لا يطالب بمنصب والي البلاد. وفشلت المفاوضات وعاد الوفد الذي بعثه إلى قرطبة، ولكن عندما حل الشتاء أجل الوالي القيام بأي عمل عسكري حتى يكون الطقس في أحسن أحواله.

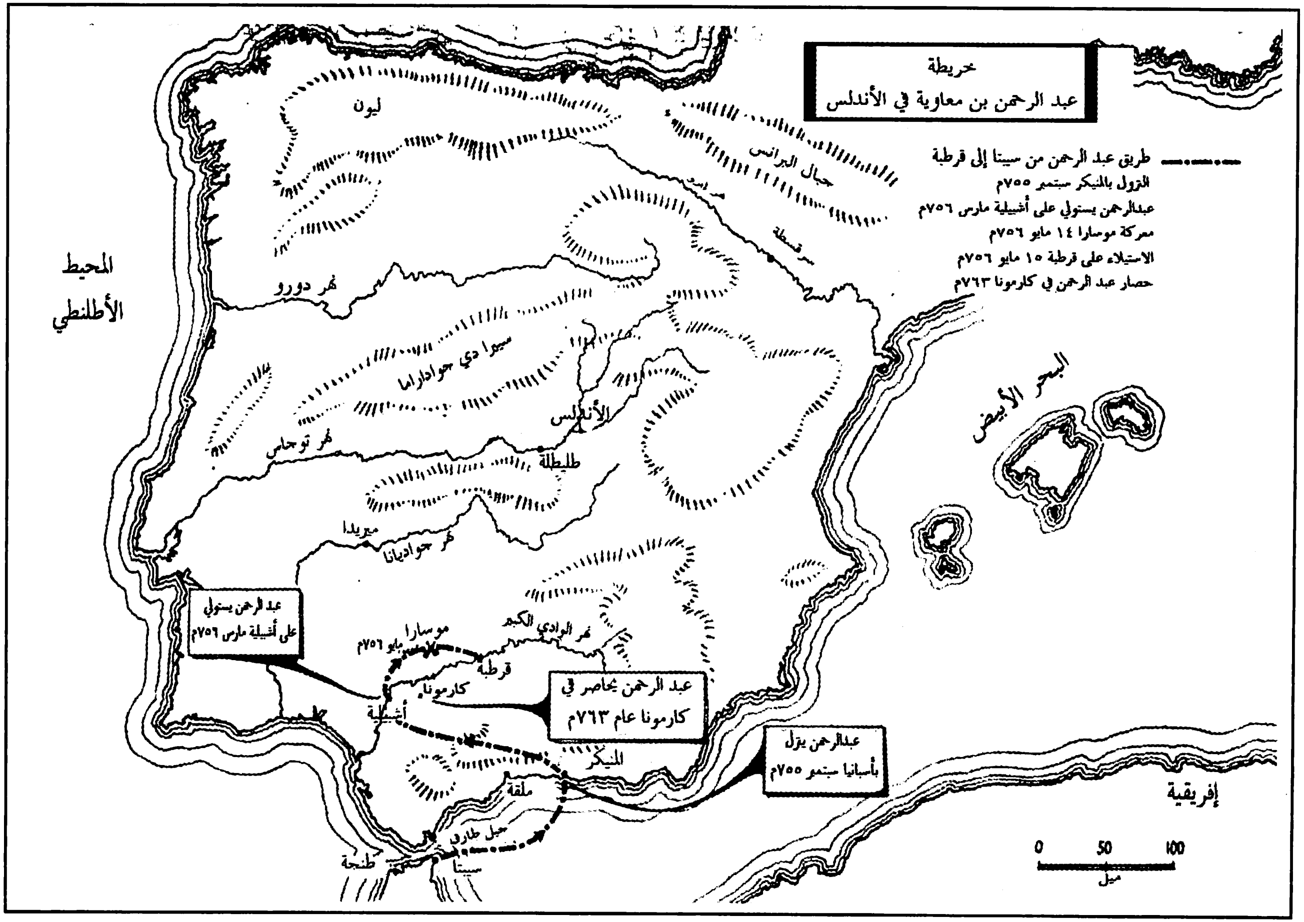
في الربيع كان عبد الرحمن أول من يملك زمام المعركة. ومن حسن حظه أن منطقة جنوب الأندلس كان يسكنها عرب من سوريا بكثافة بما فيهم فرق عسكرية من دمشق وحمص والأردن. وانضم كثير من هذه الفرق إلى قواته كما انضم إليها أغلبية العرب اليمانيين، وفي منتصف مارس احتل عبد الرحمن أشبيلية حيث بايعه الكثير من

الأنصار. وفي ذلك الوقت سار الوالي يوسف إلى أشبيلية حيث تبع الشاطئ الشمالي لنهر الوادي الكبير.

في يوم الجمعة ١٤ مايو عام ٧٥٦ م تلاقى الجيشان في الموسارا على شاطئ النهر. ولم تستمر المعركة طويلًا فقد اخترق أنصار الأمير الأموي خطوط العدو بسرعة، واضطر الوالي إلى الهرب ودخل عبد الرحمن قرطبة منتصرًا، وأدى الصلاة في الجامع الكبير وخطب في الناس. وكان العرب اليمانيون الذين قاتلوا لكي يرضوا نزاعهم القديم مع القيسيين أكثر من مساندة المدعي الأموي قد فروا في تلك الأثناء ونهبوا المدينة بما فيها قصر الوالي يوسف حيث كانت زوجاته وبناته وخدمه في خطر من تعدي الجنود عليهم. ووصل عبد الرحمن الداخل الشاب الذي كان عمره في ذلك الوقت ستة وعشرين عامًا في لحظة حرجة من الوقت لكي ينقذ النساء، وعاملهم باحترام كبير، ولكي يشكروه على ذلك قدمن له أمة شابة أصبحت بعد ذلك والدة هشام الأمير الأموي الثاني الأندلسي.

أصبح الوالي يوسف الآن محبطًا ومستعدًا للتفاوض مع عبد الرحمن فاعترف به كوالٍ على الأندلس بشرط العفو العام، وتحقق السلام بسرعة في يوليو عام ٧٥٦ م. ولكن لم يذعن الوالي يوسف بصورة كاملة لسلطة عبد الرحمن الداخل، ففر من قرطبة دون أن يراقبه أحد؛ حيث كون جيشًا جديدًا في ميريدا وتقدم نحو أشبيلية، فخرجت الحامية هناك لكي تواجهه واستعد الجيشان للقتال.

طبقًا لعادة عربية قديمة بدأ اليوم بمناوشات فردية. وتقدم مولى بربري ضخم الجثة للوالي يوسف وتحدى أي مقاتل من الجيش الأموي. وعندما لم يتقدم أي متطوع لكي يقبل التحدي أمر عبد الملك قائد الجيش الأموي ابنه أن يتقدم وينقذهم من العار. وعندما تقدم من الصفوف أوقفه مولى حبشي لعبد الملك، وأصر على أن يحل محله. وكانت المبارزة طويلة في وجود الجيشين، ولكن كانت الأرض مبللة من المطر فانزلق المولى البربري على الأرض، ووثب عليه المولى الحبشي في ضوء البرق وقتله، ورفع الجيش الأموي الصوت عاليًا الله أكبر. وهذا الحدث التاريخي ذو أهمية في توضيح إخلاص الموالي وغيرتهم على


خريطة
عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس
طريق عبد الرحمن من سبتا إلى قرطبة
النزول بالمنكر سبتمبر ٧٥٥م
عبدالرحمن يستولي على أشبيلية مارس ٧٥٦م
معركة موسارا ١٤ مايو ٧٥٦م
الاستيلاء على قرطبة ١٥ مايو ٧٥٦م
حصار عبد الرحمن في كارمونا ٧٦٣م
ليون
جبال البرانس
المحيط الأطلنطي
نهر دورو
سيرا دي جوادراما
الأندلس
نهر توجاس
طليطلة
البحر الأبيض
ميريدا
نهر جواديانا
عبد الرحمن يستولي على أشبيلية مارس ٧٥٦م
موسارا
نهر الوادي الكبير
قرطبة
كارمونا
عبد الرحمن يحاصر في كارمونا عام ٧٦٣م
أشبيلية
المنكر
عبدالرحمن ينزل بأسبانيا سبتمبر ٧٥٥م
إفريقية
ملقة
جبل طارق
طنجة
سبتا
0
50
100
ميل

شرف عائلات أسيادهم، ثم التحم الجنود في المعركة وانتصر الأمويون مرة ثانية. وقُتل الوالي يوسف في مطاردات.

استمرت الأندلس بعد ذلك تمتلئ بالثورات والحروب الأهلية. وفي عام ٧٦٣ م ثارت قبيلة الفهريين؛ قبيلة يوسف الوالي السابق وانضم إليهم العلاء بن المغيث. وفوضه الخليفة المنصور أن يستولي على إسبانيا لصالح العباسيين وحمل معه الراية السوداء التي أعطاها له الخليفة أمير المؤمنين. ووضع الثوار الفهريون والقبائل العربية الأخرى أنفسهم تحت قيادته. وبسرعة أصبح موقف عبد الرحمن الداخل يائسًا وحوصر من قوات الوالي العباسي المكتسحة لمدة شهرين في كارمونا وهي مدينة صغيرة بالقرب من أشبيلية.

قرر عبد الرحمن أنه لا يوجد حل بديل إلا الانتصار أو الموت، فاستدعى سبعمائة رجل من الأشداء، وأمر بإشعال نار بجانب بوابة أشبيلية ففتحت البوابة، وعندما خرج كل من فيها رمى بجراب سيفه على النار ثم هجمت مجموعة صغيرة يرأسها الأمير الشاب عبد الرحمن الداخل بتهور، واستطاعت هذه المجموعة الصغيرة سد الطريق على المحاصرين بصورة كاملة، وقتلت كل قادة الحصار. وتم قطع الطريق على مرشح الخليفة العباسي العلاء بن المغيث مع أنصاره الكبار، وغمس رأسه في كافور وملح وقيد براية الخليفة العباسي السوداء والوثيقة الرسمية التي توليه واليًا على الأندلس من قبل الخليفة. وبعد القبض عليهم علقت رقعة على أذن كل أسير تحدد اسمه ورتبته. وتم جمع الوثيقة والرقع في كيس وبعث بها عبد الرحمن مع رسول بعد أن أجزل له العطاء إلى الخليفة المنصور في النهاية، وبعد أن وصل هذا الطرد المروع إلى الخليفة المنصور روي أنه عندما تلقاه حمد الله أن عبد الرحمن الداخل الأموي هذا العدو الشرس بعيد جدًا عنه وراء البحر. وهكذا بعد ثلاثين عامًا من تولي العباسيين السلطة بدأت الإمبراطورية تتمزق.

في عام ٧٦٢ م حدثت ثورة أخرى من هذه الثورات غير الكاملة والمأساوية لآل علي ابن أبي طالب. ومن الجدير بالذكر أن الدعوةالتي كان يدعو بها أبو مسلم الخراساني لآل العباس استعملت شعار آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم. والتي اعتقد كثير من الشيعة

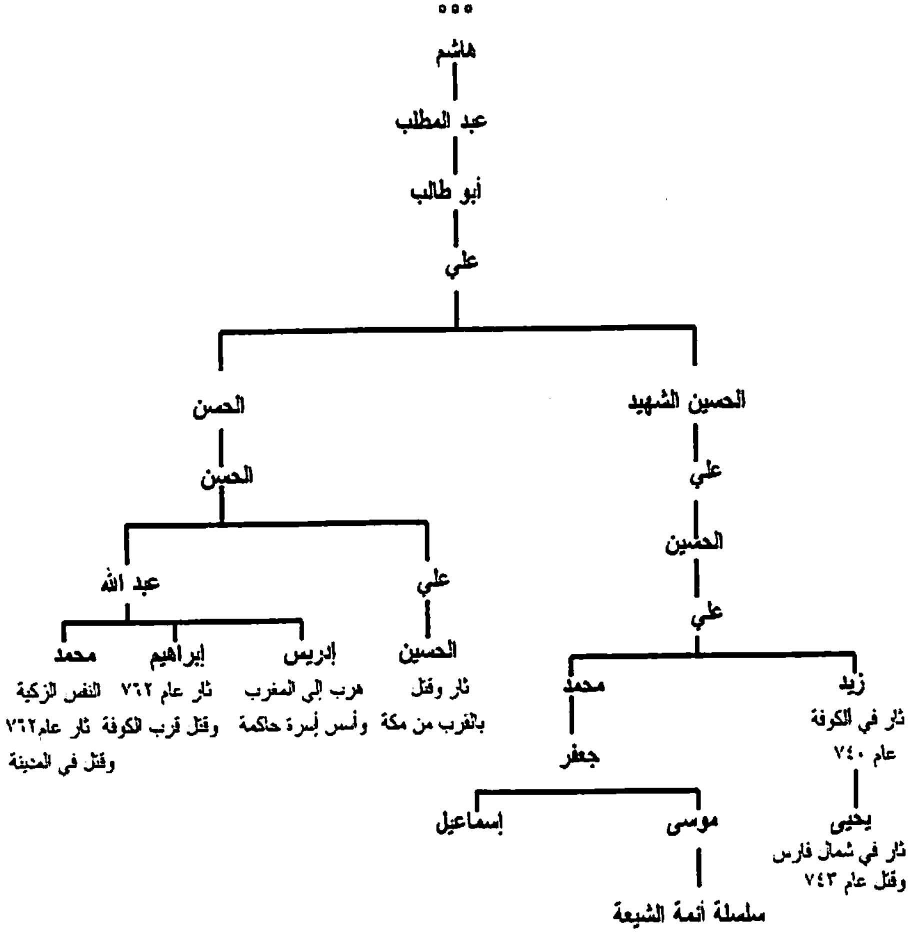
أنها تعني آل بيت علي بن أبي طالب. وعندما انتهت الثورة العباسية بخلافة آل العباس اعتبر شيعة علي بن أبي طالب أنهم قد خدعوا. وفي ذلك الوقت روي أنه كان هناك شابان في المدينة المنورة محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كانا يتزعمان هذه الثورة.

ذهب المنصور إلى مكة لكي يحج عام ٧٥٤ م كما روينا وكان منهمكًا في أداء المناسك عندما علم بوفاة السفاح واعتلائه الخلافة. وعندما كان في مكة يحج لاحظ أنه لا محمد ولا إبراهيم قد طلبا منه أن يقدم إليهما احتراماته.

في عام ٧٦١ م أدى الخليفة المنصور مرة ثانية شعائر الحج، وعندما كان في الحجاز طلب لقاء محمد وإبراهيم حيث عرض عليهما العفو والأمان. واستفسر محمد في رده بمرارة عما إذا كان العفو والأمان الذي عرضه الخليفة عليهما مثل ذلك الأمان الذي عرضه عم الخليفة عبد الله بن علي وأبو مسلم الخراساني على ابن هبيرة وقتل فيه. ولما لم يستسلم الشابان تم القبض على والدهما واثني عشر رجلًا من آل الحسن ابن علي بن أبي طالب. وتم جلد بعضهم مائة جلدة، واستولى الخليفة على ممتلكاتهم وبعث بهم إلى سجن الكوفة. أما عبد الله بن الحسن والد الشابين فجلد جهارًا في وجود الخليفة المنصور، وعلق على ذلك بتحدٍ: «ليس هذه الطريقة التي عاملنا بها أسراكم يوم بدر». يشير بذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعامل العباس عمه معاملة شائنة كهذه يوم بدر عند أسره، وعندما استشعر الشابان عنف الخليفة نحوهم لجآ إلى جبال الحجاز. ومات الكثير من آل الحسن ابن علي في السجن.

كان أحد الشابين وهو محمد قد أشار في الدعوة إليه أنه من آل فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم بينما أم المنصور كانت جارية بربرية. وكان رد المنصور على ذلك أن الشيعة أنفسهم يؤمنون أن الإمامة تنحدر من الأب إلى ابنه. وهكذا لا يجدي ذكر الأمهات. وبعد ذلك رفع محمد راية العصيان في الحجاز في نهاية سبتمبر عام ٧٦٢ م، واستولى بسرعة على المدينة المنورة ومكة. أما إبراهيم فقد ذهب إلى البصرة ناويًا أن يقوم بثورة هناك أيضًا. وكان أنصار بني علي بن أبي طالب يلبسون ملابس بيضاء.

ثوار بني علي بن أبي طالب



لما تلقى المنصور أنباء الثورة استشار قائدًا متمرسًا من قادة الحرب ضد مروان الحمار عن أي الأساليب العسكرية التي يجب اتباعها. وبعدما علم الرجل العجوز أن مركز الثورة في المدينة المنورة رد: «الحمد لله هذا مكان بلا زرع ولا أسلحة ولا رجال. ابعث بواحد من مواليك إلى وادي القرى واقطع اتصالهم بدمشق وسيرهقون جميعًا».

هذا العرض الموجز للموقف في القرن الثامن ذو أهمية خاصة إلينا لأنه حدث في الحرب العالمية الأولى أن وجه الأتراك قوة كبيرة إلى المدينة. وكان الأمير فيصل وتيه. إيه. لورانس يحاربان في منطقة شمال وادي القرى وتسببا في قطع عمليات الترك الحربية بقطع اتصالاتهم بدمشق. ولم تتغير هذه الإستراتيجية إلا قليلًا في القرون الاثنى عشر التي تلت ذلك.

لم يكن الخليفة المنصور مستعدًا لتجويع الثوار حتى الاستسلام فبعث بابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بجيش كبير من الكوفة عبر الصحراء العربية. وكان جزءٌ كبير من الجيش يتكون من الخراسانيين.

أصبح محمد بن عبد الله بن الحسن الذي بويع في المدينة يواجه صعوبات بعد وقت قصير وألح أحد أنصاره أن يسير إلى مصر حيث يستطيع أن يستولي عليها بسهولة ويستطيع هناك أن يأخذ منها المدد للحرب. ولكنه أعلن أنه كرجل من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم سيدافع عن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد أعداء الله. وقبل ذلك بقرن ونصف كان الرسول بنفسه – صلى الله عليه وسلم – يدافع عن المدينة ضد هجوم الكفار ولكي يفعل ذلك كان قد حفر خندقًا. ولأسباب دينية أعاد محمد حفر خندق الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن فتحة الخندق كانت عديمة الجدوى أمام الجيش العباسي النظامي.

في نهاية ديسمبر عام ٧٦٢ م ظهر عيسى بن موسى بجيشه خارج المدينة، وطالب الثوار بالاستسلام. ودعا كل من الطرفين الآخر لكي يقبل حكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو تقليد رسمي؛ لأن الطرفين كانا يدّعيان أنهما يفعلان ذلك. واختار الجيش العباسي مواقع القتال حول المدينة ثم ضرب المدينة بالمنجنيق والسهام لمدة ساعة.

وعندما تقابل الجيشان المتخاصمان برز الأبطال يتحدون بالمبارزات الفردية. وظهر فارس من الجيش العباسي يلبس درعًا فخرج إليه رجل مترجل من جيش المدينة لكي يواجهه داعيًا الفارس إلى أن ينزل من على فرسه، لأن متحديه ليس له فرس، فقبل الدعوة ونزل الفارس المدرع تاركًا فرسه فقتله خصمه في مبارزة فردية.

عندما انتهت المبارزات الفردية عزم الجيش العباسي على الهجوم وكان حميد بن قحطبة بن القائد الذي قاد جيش أبي مسلم الخرساني من خراسان إلى الكوفة مسئولًا عن الهجوم وعندما وصل الجيش إلى مكان الخندق وضع عددًا من أبواب المنازل القريبة كجسر على الخندق لكي يتمكن الفرسان من العبور. وتلاحم الجيشان في قتال ضارٍ يدًا بيد استمر من الصباح إلى المغرب.

أما محمد فقد أحل بشهامة مدهشة كل الذين بايعوه من بيعتهم وأخبرهم أنهم بإمكانهم الفرار إن أرادوا، فهرب كثير من أهل المدينة إلى الجبال المحيطة ومعهم نساؤهم وأطفالهم خشية قذف المدينة بالمنجنيق، أو استباحة المدينة. وكما يروى، كان الجيش العباسي يرتدي ملابس سوداء وعندما تحرك حركة جماعية نحو المدينة المنورة بدا كما لو أن منحدرات الحمم لجبال الحجاز البركانية تتدفق عبر سهل المدينة.

عند الظهر أضحى واضحًا أن المقاومة لن تستمر طويلًا، فأحرق محمد وهو مذهول مراسلاته السرية والوثيقة التي بها أسماء أنصاره. وكانت قبيلة جهينة من أوائل القبائل التي ساندت الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم، والآن تحتشد لتأييد حفيده محمد رضي الله عنه، واستعد ثلاثمائة من هذه القبيلة لاتخاذ موقف أخير. وأذن لهم محمد بالفرار ولكنهم رفضوا، وعندما امتطوا خيولهم نحو العدو كانت راية العباسيين السوداء ترفرف فوق مسجد النبي صلى الله عليه وسلم خلفهم. وكان طابور للعدو قد اقتحم صفوفهم وتقدم نحو المدينة فنزل الأبطال من على خيولهم، وقام كل واحد بربط فرسه لكي يجعل الفرار متعذرًا بالنسبة إليه، وقام أيضًا كل واحد برمي جراب سيفه. وحاولوا ثلاث مرات مهاجمة صفوف العباسيين السوداء بأعداد قليلة ولكن كان يتم صد هجومهم في كل مرة.

وضُرب محمد على رأسه بضربة سيف فنزل على ركبته وصاح من الألم: «ويحكم! ابن نبيكم مجروح مظلوم ومضطهد»، فجرى إليه أحد الجنود. وأسرع حميد بن قحطبة لكي يقطع رأسه، وبعث به إلى عيسى ثم الخليفة المنصور عن طريق رسول خاص. ولا نعرف الكثير عن محمد بن عبد الله بن الحسن الذي كان يسمى النفس الذكية، ولكن يبدو أنه كان متدينًا في الحقيقة. وهرب أخوه إدريس بن عبد الله إلى أفريقيا حيث سنسمع عنه مرة ثانية.

تبعا لأوامر الخليفة أعلن عيسى بن موسى العفو العام ومنع نهب المدينة. ولقد كسب الأمويون الكثير من الكراهية بقسوتهم على أهل المدينة المنورة والتي شجعت العباسيين على أن يحذوا حذوهم. وتمت مصادرة كل ممتلكات آل الحسن بن علي بن أبي طالب. وكان ذلك في ديسمبر عام ٧٦٢ م، ولقد استمرت ثورة محمد النفس الذكية أقل قليلًا من ثلاثة أشهر، وأظهرت هذه الثورة كل مظاهر البطولة المثالية وعدم الكفاءة القتالية لبني علي بن أبي طالب.

في تلك الأثناء قام إبراهيم شقيق محمد بثورة متزامنة في البصرة. وبدلًا من عبور الصحراء سافر خلال دمشق والموصل إلى أسفل نهر دجلة. وبسبب طول الرحلة من المدينة المنورة لم يصل إبراهيم إلى البصرة إلا في ديسمبر عام ٧٦٢ م، حيث كان الجيش العباسي قبل ذلك في المدينة المنورة. وبمجرد أن ارتفعت راية الثورة في البصرة حتى استدعى الخليفة المنصور عيسى بن موسى لكي يرجع على عجلة إلى الكوفة.

استولى إبراهيم على الأهواز وإقليم فارس وسار نحو الكوفة بجيش كبير. ووصل عيسى بن موسى في لحظة حرجة عندما كان جيش إبراهيم الثائر على بعد أميال قليلة من الكوفة، وكان الخليفة المنصور يكمل استعداداته لكي يهرب إلى الري في شمال فارس. وفي معركة خارج الكوفة دفع هجوم لجيش إبراهيم الجيش العباسي إلى التراجع وأصبح النصر للمرة الأولى، يبدو تقريبًا في متناول يد آل علي بن أبي طالب. ولكن سحب رجل من مكان ما قوسًا بمجازفة لكي يصوبه فضرب هذا القوس الشارد إبراهيم في رقبته، فسقط يعانق رقبة فرسه، فنزل أنصاره من على خيولهم بسرعة ووضعوه على الأرض، ولكنه

مات بعد لحظات قليلة فحدثت خلخلة في صفوف قواته، وقام العباسيون بهجوم مضاد. وفي صباح اليوم التالي في الكوفة استقبل الخليفة المنصور ضيوفه في قاعة الاستقبال ومعه رأس إبراهيم المقطوع حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم العظيم في يده.

عندما قام محمد وإبراهيم بثورتهما ضد المنصور بعث محمد بواحد من أبنائه إلى السند حيث كان واليها عمر بن حفص يؤيد قضية آل علي بن أبي طالب. وكان يتمتع بشهرة كبيرة كجندي فرحب بابن محمد والرسالة التي معه وبعد ذلك بيوم ظهر أمام الناس ومعه أعوانه يرتدي ملابس بيضاء وخلع ولاءه لبني العباس. وقبل ذلك بيوم وصلت الأنباء بهزيمة الثوار ووفاة محمد النفس الزكية فقام عمر بن حفص بإخفاء الملابس والراية البيضاء وإبعاد ابن محمد الذي لجأ إلى أمير هندي في الهند.

وصلت أخبار الانقلاب الذي حدث في السند للخليفة المنصور الذي بعث بتوبيخ شديد إلى الوالي فجمع عمر بن حفص أقاربه حوله وقرأ عليهم رسالة الخليفة طالبًا منهم آراءهم بشأن أي سلوك ينبغي عليه أن يتبعه، فتطوع أحد أفراد العائلة الشاب للتضحية بنفسه واقترح أن يقبض عليه الوالي ويودعه السجن ثم يكتب إلى الخليفة واضعًا اللوم عليه في التآمر على الخليفة. وقال الشاب: «إذا قتلني سأعرف على الأقل أني مت لكي أنقذكم جميعًا» وكان هذا الشاب نموذجًا واضحًا للإخلاص للعائلة. وبعد بعض التردد قبل الوالي عمر الاقتراح وأبلغ الخليفة بذلك، فرد الخليفة آمرًا عمر بأن يبعث بالأسير مقيدًا بالسلاسل، وبمجرد أن وصل أمر المنصور بقتله على الفور.

كان المنصور لا يزال قلقًا بخصوص ولاء والي السند له، وكان يبحث في باله عن مرشح مناسب يمكن أن يحل محله، عندما طلب هشام بن عمر من قبيلة تغلب لقاء الخليفة، وعندما دخل إلى الخليفة بدأ يقول: «يا أمير المؤمنين إني انصرفت إلى منزلي من الموكب فلقيتني أختي فلانة بنت عمرو فرأيت من جمالها وعقلها ودينها ما رضيتها لأمير المؤمنين، فجئت لأعرضها عليه». وبعد أن صرف الخليفة زائره وعده بأن يعلمه بقراره في ذلك فيما بعد،

والتفت إلى واحد من مؤتمني أسراره ثم قال: «لولا بيت قاله جرير في بني تغلب لتزوجت أخته، وهو قوله:

لا تطلبن خؤولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا (*)

فأخاف أن تلد لي ولدًا فيعيرنى بهذا البيت ولكن اخرج إليه فقل له يقول لك أمير المؤمنين لو كانت لك لله حاجة إلي لم أعدل عنها غير التزويج ولو كانت لي حاجة إلى التزويج لقبلت ما أتيتني به فجزاك الله عما عمدت له خيرًا وقد عوضتك عن ذلك ولاية السند». هذه القصة ذات أهمية كبيرة لأنها لا تبين كيف يختار العباسيون الولاة فحسب، ولكن توضح الخوف غير العادي الذي ينتاب العرب من أن يمتهنوا من أبيات ساخرة لشاعر؛ حتى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه كان حساسًا لهذه المواقف. وكانت قبيلة تغلب واحدة من أقدم قبائل العرب وأنبلها وذم الشاعر للقبيلة ليس له سبب كليةً. وبعث أبو جعفر بهشام واليًا على السند. ونقل عمر بن حفص مباشرةً من ولاية السند إلى ولاية أفريقية (تونس) حيث سنقرأ عنه مرة ثانية في الفصل التالي.

من أشهر الأعمال التي قام بها الخليفة المنصور والتي أثرت على المستقبل الكلي للإمبراطورية العربية، هو تأسيس مدينة بغداد فخلال الثلاثة عشر عامًا التي استولى فيها العباسيون على السلطة لم يكن لهم عاصمة لأن دمشق التي كانت مقر الأمويين لفترة طويلة كانت خطرًا عليهم ولأن العباسيين استولوا على السلطة عن طريق جيش من خراسان. ونوى المنصور كما رأينا أن ينسحب إلى شمال فارس عندما هزم من إبراهيم في بادئ الأمر صبيحة العيد. وأحس بالأمان عندما كان أنصاره الفارسيون قريبين منه، وبالنسبة لإمبراطورية تمتد إلى الغرب؛ إلى حدود المحيط الأطلنطي فإن العاصمة التي تقع خلف

(*) من كتاب تاريخ الطبري.

جبال فارس سيكون من المستبعد أن تكون بعيدة عن مركز سيادته. وهذه الاعتبارات كانت تشير إلى وادي دجلة والفرات الخصب كمكان لتلك العاصمة، وكما رأينا بدأ السفاح حكمه في قصر خارج الكوفة ثم انتقل إلى الأنبار. والكوفيون على أية حال لا يعتمد عليهم كثيرًا كجيران مسالمين، بالإضافة إلى أن كثيرًا منهم كانوا شيعة.

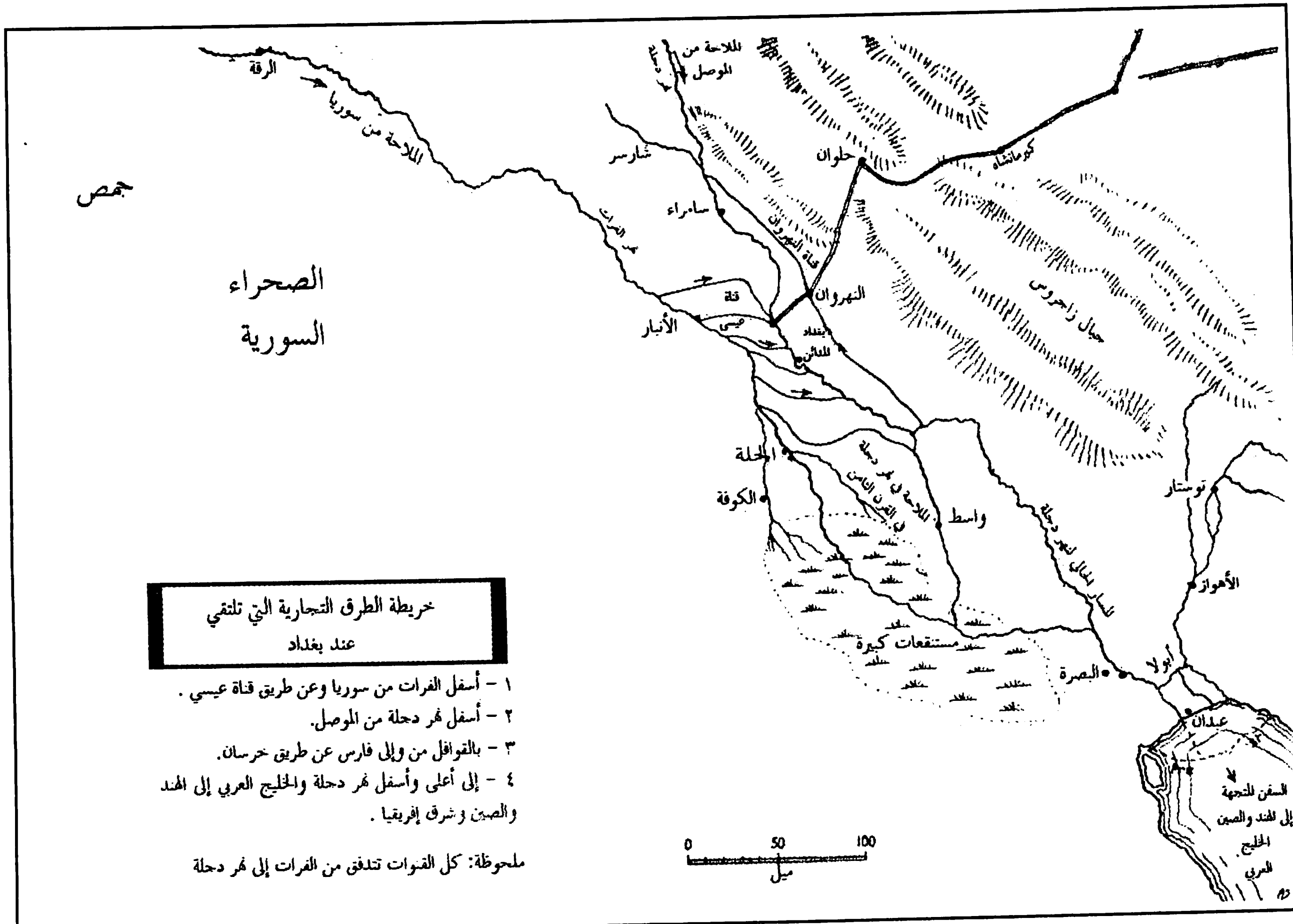
كون المنصور علاقات شخصية كبيرة مع شخصيات من الموصل وما حولها لكي يجد المكان النموذجي للعاصمة الجديدة، وأخيرًا اختار موقعًا على الشاطئ الغربي لنهر دجلة حيث تقع مدينة بغداد. وعند هذه المنطقة يقترب نهرا دجلة والفرات عشرين ميلًا بين كل نهر والآخر. وفي القرن الثامن أصبحت قناة عيسى الملاحية تربط بين النهرين عند ذلك المكان. وهكذا كانت منتجات سوريا تصل إلى بغداد بالسفن عن طريق نهر الفرات من حلب والرقة لأن هذا النهر في أيامنا هذه أصبح ملاحيًا. وبهذه الطريقة كانت التجارة مع الهند والخليج العربي تصل إلى نهر دجلة عن طريق السفن، بينما كانت المراكب التي تحمل الحبوب والمواد الغذائية من إقليم الجزيرة تبحر إلى نهر دجلة من الموصل. إلى الشرق ينحدر الطريق الرئيسي من فارس ويهبط من حلوان إلى السهول في الطريق المواجه للعاصمة الجديدة. وهكذا كان المنصور محقًا في مدحه للموقع المركزي لبغداد وفي تهنئته لنفسه على ذهنه الثاقب في أنه أول من لاحظ ذلك.

إذا كانت بغداد في موقع وسط بين سوريا وفارس فإنها بعيدة على أن تكون وسطًا بين إسبانيا والمغرب وفارس. وكما أوضحنا من قبل فإن الحدود بين الشرق والغرب في القرن الثامن وإلى حد ما اليوم لا تقع على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط ولكنها تمتد من أعالي الفرات إلى القوقاز والحدود القديمة لقرون عديدة بين الدولة الفارسية والدولة الرومانية. وكانت دمشق مدينة رومانية وسورية تطل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط أما بغداد فإنها تقع على بعد اثنى عشر ميلًا من المدائن العاصمة القديمة لفارس، وكانت مدينة شرقية. هكذا كان تغيير العاصمة يجعل الإمبراطورية العربية كليةً تحت تأثير الشرق وبمعنى أصح فإن ذلك التغيير نتج عنه مباشرة ضياع إسبانيا والمغرب الحديثة وبالتالي كل شمال أفريقيا.

بعد اندحار ثورة إبراهيم مباشرة انتقل المنصور في مايو عام ٧٦٣ م إلى بغداد، وخصص كل جهده لبناء عاصمته الجديدة. وكانت منطقة العاصمة مزروعة كليةً وتمتلئ بالقرى والأديرة المسيحية، وأقام الخليفة في إحداها على شاطئ دجلة.

كان التصميم الذي تبناه المنصور لمدينته تصميمًا معماريًا أصيلاً فقد صممت المدينة مستديرة داخل دائرتين من الأسوار، وبها أربع بوابات: بوابة خراسان وبوابة البصرة وبوابة الكوفة وبوابة سوريا. وفي وسط الدائرة الداخلية بُني قصر الخليفة بصورة مثالية في قلب مركز الإمبراطورية والناس. وفي ذلك الوقت كانت فكرة الشمس الملكة التي يدور حولها الفلك كله تدل على التغيير الكبير الذي حدث في مائة وإحدى وثلاثين سنة منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من الناحية المعمارية. وكان الخلفاء الراشدون قد اختارهم أهل المدينة لأنهم الأكثر صلاحية والأكثر قدرة عمن سواهم. وبتعبير حديث كانوا الأكثر إدارة للمجتمع الإسلامي الذين اختارهم أفراد هذا المجتمع لإدارة شئونهم. وكانوا يوميًا يحتكون بالناس في المساجد والشوارع، ويستشيرون أهل الحل والعقد قبل الوصول لأي قرارات مهمة، وكانوا متواضعين ومنفتحين ويلبسون ثيابًا رثة ودون بهرجة، وكانوا بحق قادة دينيين حازمين وعطوفين على الناس. وفي خلال قرن ونصف تغيرت الديمقراطية الخيرة لأبي بكر وعمر إلى مملكة العباسيين الكبيرة التي تشبه الاستبداد الطاغي للملك الملوك الفارسي أكثر من القيادة المتواضعة للنبي العربي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

كرس الخليفة المنصور نفسه نحو الإشراف على أعمال البناء، وكان يقدر بنفسه كميات الآجر والجبس ويضبط الحسابات ويراجع التكاليف وأجور العمال. وكان قد فكر في بادئ الأمر في إزالة قصر كسري في المدائن، ونقل مواد البناء إلى مدينته الجديدة، واستشار خالد بن برمك بخصوص هذا الأمر. وهذا الرجل كما سنذكر كان من بلخ، وكان يقود طابورًا من الجنود في جيش أبي مسلم الخراساني الذي قام بالثورة العباسية. وأصبح الآن أمين خزانة المنصور. وعندما استشاره المنصور في ذلك لم يوافق، ولكن الخليفة اتهمه بأنه فارسي يرغب في أن يحافظ على مجد الملوك الكبار وأمر بإزالة قصر كسرى. وبعد تكاليف



خريطة الطرق التجارية التي تلتقي
عند بغداد

١ – أسفل الفرات من سوريا وعن طريق قناة عيسى .
٢ – أسفل نهر دجلة من الموصل.
٣ – بالقوافل من وإلى فارس عن طريق خرسان.
٤ – إلى أعلى وأسفل نهر دجلة والخليج العربي إلى الهند والصين وشرق إفريقيا .

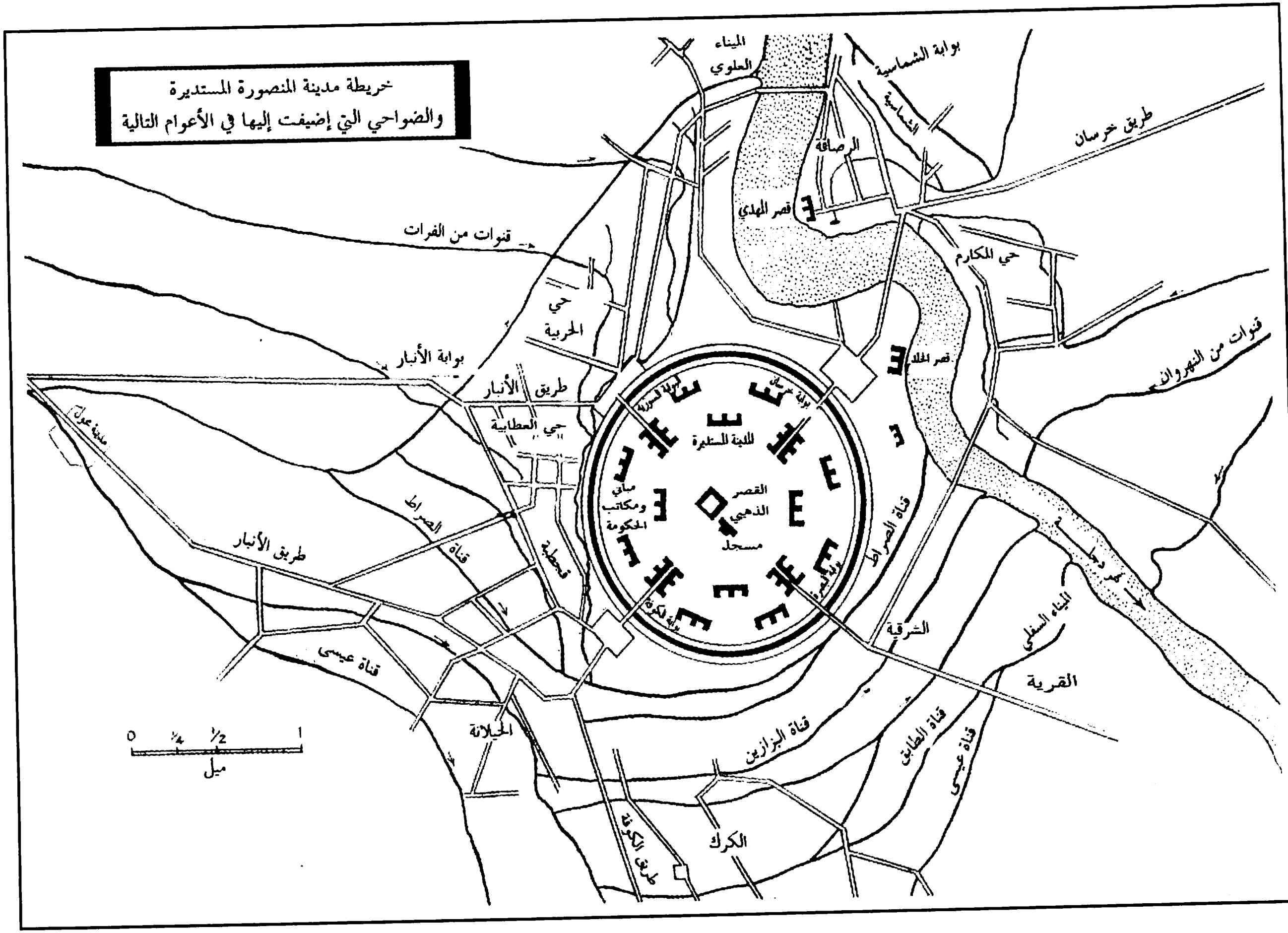
ملحوظة: كل القنوات تتدفق من الفرات إلى نهر دجلة

باهظة وجد أنه من الأرخص حرق طوب أو آجر جديد في موقع البناء من إزالة القصور القديمة ونقل مواد بنائها من المدائن. وكنتيجة لذلك بقيت قاعة مأدبة الطعام لكسرى إلى اليوم لكي تشهد على مجد الأسرة الساسانية القديم.

خصصت المساحة الدائرية داخل الأسوار الداخلية للمدينة الجديدة فقط للقصر الذهبي للمنصور وللمسجد الملحق به ومكاتب الإدارات الحكومية المختلفة ولثكنات الحراس. ولم يسمح إلا للخليفة فقط بركوب فرسه عبر هذه المدينة الداخلية؛ أما الآخرون فكانوا مجبرين على المشي على أقدامهم داخل بوابات الأسوار الداخلية، وعند اقترابهم من قصر الخليفة. أما المساحة ما بين الأسوار الداخلية والخارجية للمدينة فقد تم تصميمها من الأصل للبازارات ومحلات المدينة، ولكن نتيجة للشك من أن الجواسيس قد يخترقون ذلك المكان، أو أن الشغب الشعبي قد يهدد حرم الخليفة الداخلي فقد أبعدت بالتالي عن المدينة المسورة، وخصصت تلك المساحة لمساكن الضباط والموظفين. وسمى المنصور مدينته الجديدة مدينة السلام ولكن بقي الاسم القديم بغداد المستمد من الأصل الفارسي في الاستعمال العام حتى وقتنا الحاضر.

كان المنصور يهتم بشغف بالبناء وينفق الأموال الطائلة عليه. ولكنه أصبح في ذلك الوقت مشهورًا بالبخل. والويل كل الويل لمن كانت دفاتره غير منتظمة من الناحية المالية فيلقى على الفور في السجن ويخرج فقط منه عندما يدفع أقصى المبالغ المالية. وكان يسمى الخليفة حقيقةً أبو الدوانيق من جانب الدهماء من الناس؛ وهي القطع النقدية مع أنه كان في أوقات الضرورة مستعدًا أن ينفق بسخاء.

في إحدى المناسبات عندما كان يخطب في موسم الحج دافع عن نفسه ضد تهمة البخل فقال: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه ورشده وخازنه على ماله أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه وقد جعلني الله قفلًا فإن شاء أن يقفلني عليه قفلني». فعلق الناس بسخرية على هذه الخطبة أن أمير المؤمنين يحاول أن يلقي اللوم في بخله على الله. وهذه الخطبة تحدد تحديدًا دقيقًا الفرق بين العباسيين والأمويين؛ فالمنصور يدعي أنه


خريطة مدينة المنصورة المستديرة
والضواحي التي إضيفت إليها في الأعوام التالية
بوابة الشماسية
الشماسية
الميناء العلوي
طريق خرسان
الرصافة
قصر المهدي
قنوات من الفرات
حي المكارم
حي الحربية
بوابة الأنبار
طريق الأنبار
حي العطابية
قصر الخلد
المدينة المستديرة
القصر الذهبي
مسجد
مباني ومكاتب الحكومة
قنوات من النهروان
قناة الصراط
الشرقية
الميناء السفلي
القرية
قناة عيسى
قناة البزازين
قناة الطابق
الكرك
طريق الأنبار
قناة الصراط
0 ¼ ½ 1
ميل

مُؤتمَن الله وممثله على الأرض. ولم يزعم الخلفاء الراشدون ولا الأمويون أنهم أكثر من مدبرين لأحوال المسلمين الدنيوية.

يروى أن المنصور اتفق مع طباخ القصر اتفاقًا يتضمن أن يسمح له بأن يحتفظ برؤوس الحيوانات المذبوحة وأمعائها وجلودها بشرط أن يمد القصر بحطب الوقود مجانًا للطبخ.

في مناسبة أخرى عندما كان المنصور في رحلة سمع جمّالاً يغني وهو يسوق الجمل الخاص به. وسر الخليفة من الأغنية التي كان يرددها لدرجة أنه قدّم للرجل نصف درهم بما يعادل ستة بنسات، فرد الرجل ردًا غير لبق: «لقد سقت هذا الجمل للخليفة هشام بن عبد الملك عندما كنت شابًا وقدم لي عشرة آلاف درهم»، فرد المنصور بصورة غاضبة «ليس له الحق في أن يقدم لك المال من بيت مال المسلمين». ومن هناك استدعى أحد الكتبة وأمر بأن يدفع الجمالون عشرة آلاف درهم إلى بيت مال المسلمين، ثم يجبروا بعد ذلك على الاعتناء بجمال الخليفة دون دفع أي أجر لهم. وبالنسبة لقضية مخاطبة الحاكم من غير اللائق أن نضخم الأمور حول فضائل الخليفة السابق عليه.

تواريخ بارزة

- ٧٥٤ م........ تولية المنصور.

- ٧٥٥ م...... عبد الرحمن بن معاوية ينزل في إسبانيا.

- ٧٦٢ م....... ثورة محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن.

- ٧٦٣ م........ تولية عبد الرحمن حاكمًا على إسبانيا.

- ٧٦٣ م..... تأسيس بغداد.

الشخصيات

- الخليفة المنصور
- أبو مسلم قائد الثورة
- خالد بن برمك أول البرامكة
- عبد الرحمن بن معاوية الأموي الذي استولى على إسبانيا
- العلاء بن المغيث الذي عينه المنصور لكي يكون واليًا على إسبانيا
- عمر بن حفص والي السند

الفصل الرابع عشر

المهدي والهادي

من بين أغنياء الشرق سرعان ما أنف العباسيون من زهد وتقشف الخلفاء الراشدين وكانوا يطمحون في محاكاة أبهة ملوك فارس.

(جيبون – ضعف الإمبراطورية الرومانية وسقوطها)

اغتصب العباسيون الحكم من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وهم الخلفاء الذين يستحقون الخلافة؛ لأنهم من آل علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(حتي – تاريخ العرب)

كان علو الفرس على العرب أو علو الجنس المقهور على الجنس المنتصر يتم الإعداد له لفترة طويلة من الزمان، وتم ذلك عندما اعتلى العباسيون عرش الخلافة وكانوا يدينون بذلك للفرس. وجعل الأمراء العباسيون حراسهم من الفرس وكانوا يضعون ثقتهم في الأجانب فحسب.

(دوزي– تاريخ الإسلام)

عندما ذكرنا أفريقيا آخر مرة تركنا هندال بن صفوان واليًا عليها، وبعد هجماته الشجاعة على البربر من القيروان والتي نتج عنها قمع ثورة البربر من عام ٧٤٠ م إلى ٧٤٢ م بقى هندال واليًا حتى عام ٧٤٥ م، ثم نشبت حرب أهلية بين الخليفة مروان والعباسيين

أدت إلى فوضى في كل شيء. وغادر هندال القيروان إلى سوريا ثم استولى عبد الرحمن ابن حبيب على السلطة آملًا في ظل الفوضى العامة أن يؤسس أسرة حاكمة مستقلة. وقبض على الهاربين من بني أمية الذين شك فيهم كمنافسين على تأسيس مملكة أفريقية.

في عام ٧٥٥ م اغتيل ابن حبيب، وسقطت ولاية أفريقيا (تونس) مرة ثانية في الفوضى، وكان العباسيون مشغولين بتدبير أمر الثورة وليس عندهم الوقت للنظر في الأقاليم البعيدة فاستولت قبيلة بربرية من الصحراء على القيروان، وخضع أهلها الذين عانوا طويلًا من النهب والسلب والمذابح. وطردت قبيلة بربرية أخرى من طرابلس في ذلك الوقت القبيلة الأولى واستقرت في طرابلس والقيروان.

في أغسطس عام ٧٦١ م عين الخليفة المنصور محمد بن الأشعث واليًا على مصر، وقاد محمد جيشًا مكونًا من أربعين ألف رجل وهزم البربر في طوارقة بين برقة وطرابلس ثم استولى على القيروان وسيطر على أفريقية مرة ثانية.

في عام ٧٦٨ م عين المنصور عمر بن حفص واليًا على أفريقية والذي رأيناه يخطط لانقلاب في السند لصالح آل علي بن أبي طالب. وكان عمر حفيدًا للمهلب بن أبي صفرة العظيم مؤدب الخوارج ووالي خراسان. وبعد ذلك بثلاثة أعوام حدثت ثورة عامة أخرى لخوارج البربر. وأحاطوا بالقيروان مرة ثانية، وكان عمر يدافع عن المدينة السيئة الحظ ببطولة فذة. وبعد ذلك نفدت الإمدادات. وقل جنود الحامية التي تدافع عن المدينة إلى أقل مستوى، وفي كل ليلة كان السهل الذي يقع خارج أسوار المدينة يضيء من نيران معسكرات الحشود الكبيرة من البربر. وعلى الرغم من ضعف معنويات الحامية والسكان على السواء فإن عمر بن حفص الشجاع الفذ رفض أن يقبل إمكانية الاستسلام.

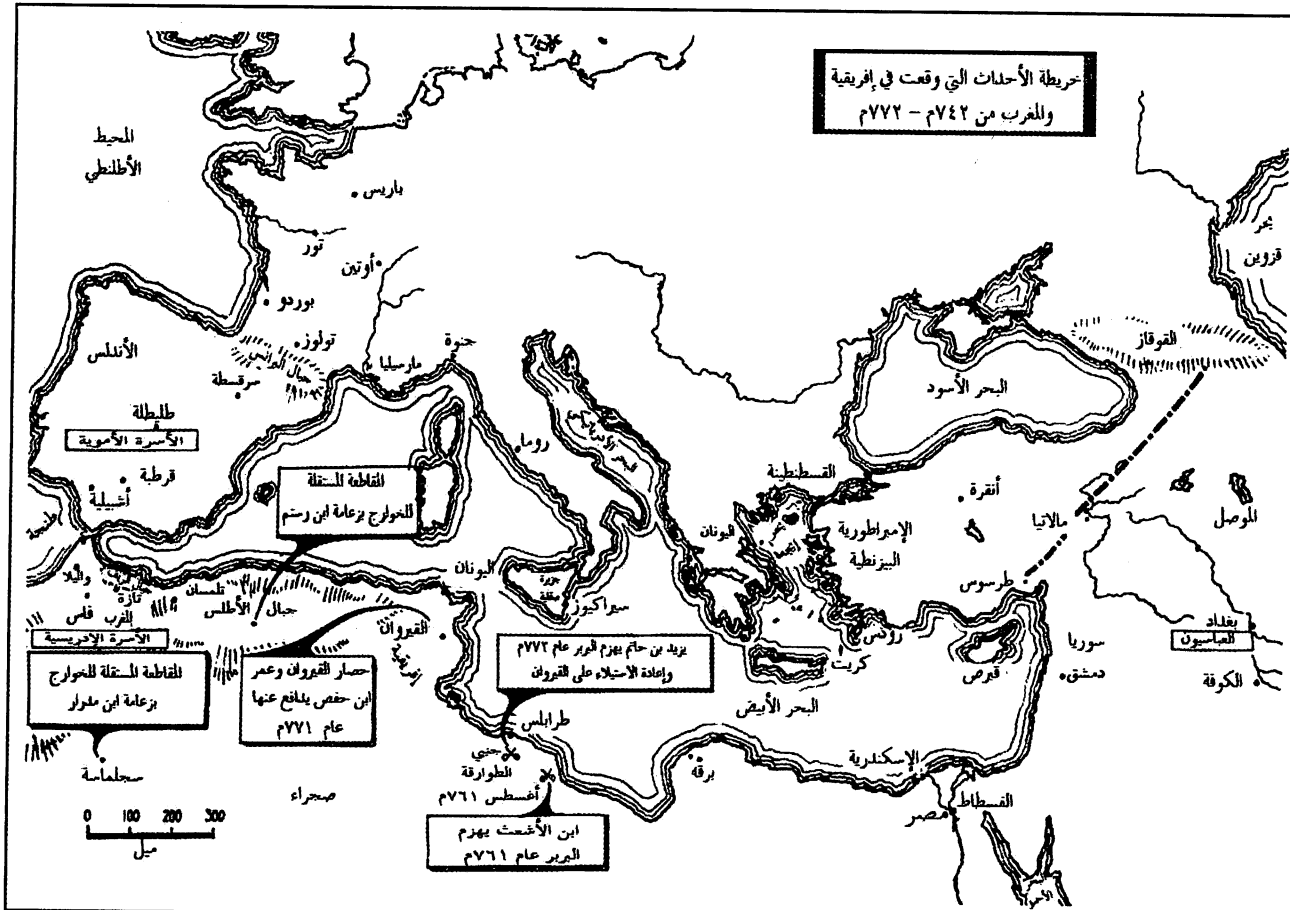
في أحد أيام أكتوبر عام ٧٧١ م وصل رسول إلى القيروان بعد أن زحف عبرالخطوط البربرية وهو يحمل رسالة إلى الوالي الشجاع من زوجته تخبره فيها أن الخليفة المنصور يستاء من ولايته وأنه سيبعث بوالٍ جديد ليحل محله. وعلى الأرجح فإن أمير المؤمنين كان لا يزال يشك في ولاء الحاكم السابق للسند.

بعد الأعمال البطولية التي قام بها عمر بن حفص لمدة ثلاثة أعوام في القيروان كان خلعه وتولية والٍ آخر مخيبًا للآمال بصورة مريرة، فقرر ألا يتحمل الإهانة التي لحقت به فركب فرسه ولبس درعه ومعه رمحه في يده واتجه إلى خارج بوابة المدينة، التي دافع عنها قبل ذلك ببسالة شديدة. وهاجم حشود البربر الكثيفة بمفرده، وحارب وحده حتى قهر وقتل. وبعد وفاة عمر بن حفص خضعت القيروان إلى البربر بالقوة.

عندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى الخليفة المنصور ذهب الخليفة بنفسه إلى دمشق. ومن هناك إلى القدس لكي ينظم بنفسه الجيش الذي أعده للاستيلاء على أفريقيا مرة ثانية. وولى الخليفة يزيد بن حاتم قيادة هذا الجيش وسار به من فلسطين إلى مصر وكان يتكون من خمسين ألف رجل. وفي عام ٧٧٢ م حقق نصرًا حاسمًا على البربر العصاة في جنبي في طرابلس.

وقَّع يـزيد عقـوبات شديدة على القبائل المنشقة على الخليفة. ولذلك يروي المؤرخ ابن خلدون: «إن روح الثورة والبدع التي ألهمت بربر أفريقية لمدة طويلة خمدت كلية». واستمر يزيد بن حاتم يحكم الإقليم بيد قوية لمدة خمسة عشر عامًا أخرى من عام ٧٧٢ م وحتى ٧٨٧ م.

كانت المنطقة التي نشأت فيها المقاومة البربرية تغطي فحسب أفريقية (تونس). ولم تجر أية محاولة لإخضاع جبال أطلس العالية حيث نشأت فيها مقاطعات مستقلة لخوارج البربر وخاصة في تاهرت وسجلماسة، وفي تاهرت أقام عبد الرحمن بن رستم وهو عربي من أصل فارسي مقاطعة لخوارج البربر حكمتها أسرته لمدة مائة وثلاثين عامًا. وكان شعب هذه الدولة الجبلية الصغيرة كله من الخوارج المتعصبين يعيشون حياة من الزهد والتأمل. وحكم بن رستم وهو يحمل لقب الإمام الديني. وكان مجتمع هذه الدولة يتساوى فيه الجميع وحقق فيه الإمام أعلى معدل للتزمت الديني ويروى أنه كان يشرب قسطًا من اللبن ثلاثة أيام وكان يعتبر ذلك طعامًا كافيًا له كأمير. وكان المجتمع كله يعيش بالحماسة الدينية، ويقضي معظم أوقاته في المناقشات الدينية، ويؤكد بها على الفروق بين العرب


خريطة الأحداث التي وقعت في إفريقية
والمغرب من ٧٤٢م - ٧٧٢م
المحيط
الأطلنطي
باريس
تور
أوتين
بوردو
تولوز
جبال البرانس
سرقسطة
الأندلس
طليطلة
الأسرة الأموية
قرطبة
أشبيلية
جنوة
مارسيليا
روما
القاطعة المستقلة
للخوارج بزعامة ابن رستم
اليونان
جزيرة
صقلية
سيراكيوز
تلمسان
تازة
فاس
جبال الأطلس
المغرب
الأسرة الإدريسية
القيروان
المقاطعة المستقلة للخوارج
بزعامة ابن مدرار
حصار القيروان وعمر
ابن حفص يدافع عنها
عام ٧٧١م
سجلماسة
صحراء
ميل
0 100 200 300
يزيد بن حاتم يهزم البربر عام ٧٧٢م
وإعادة الاستيلاء على القيروان
طرابلس
الطوارقة
أفسطس ٧٦١م
ابن الأشعث يهزم
البربر عام ٧٦١م
برقة
البحر الأبيض
الإسكندرية
الفسطاط
مصر
كريت
رودس
قبرص
القسطنطينية
الإمبراطورية
البيزنطية
أنقرة
طرسوس
مالاتيا
البحر الأسود
القوقاز
بحر
قزوين
الموصل
سوريا
دمشق
بغداد
العباسيون
الكوفة

والبربر. وكانت ديانة بن رستم في هذا المجتمع تتخذ الشكل العملي للأعمال الصالحة ونادرًا ما كانت تتطرق إلى تأمل ما وراء الطبيعة.

نشأت دولة صغيرة أخرى بارزة للخوارج عام ٧٥٧ م أثناء خلافة المنصور في سجلماسة وتقع في المنطقة شبه الصحراوية ذات السهل الواسع والواحات جنوب جبال الأطلس على الحافة الشمالية للصحراء الكبرى. وهذه المقاطعة الصغيرة ظلت مستقلة لمدة مائة وأربعين سنة بزعامة أسرة المدرار الحاكمة. وكانت مدينة سجلماسة ملتقى القوافل التي تعبر الصحراء من نيجيريا وغانا، ولذلك روي أنها كانت غنية بالحديد والرصاص والزئبق والعبيد السود والكهرمان والحرير والأقمشة. وربما بعض هذه المنتجات كانت تأتي من غرب أفريقيا إلى مناطق البحر الأبيض المتوسط ثم تتجه جنوبًا إلى أفريقيا السوداء. وكانت سجلماسة سوقًا ومكان تداول هذه المنتجات. وكانت المدينة تتمتع بموارد مائية كافية حولها، وفي الواحات الأخرى جنوب جبال الأطلس كانت تزرع التمور والفاكهة والأعناب. وكانت المدينة كلها محاطة بأسوار عالية، وخلال قرن ونصف من الرخاء روي أنها أصبحت واحدة من أغنى وأكثر المدن ازدهارًا في كل شمال أفريقيا.

أحد الملامح البارزة لعناد البربر في ذلك العصر هو أنهم على الرغم من استمرارهم في الثورة على الحكم العربي فقد رحبوا بالعرب بكل سعة كقادة لهم في الدين والسياسة، وهكذا بالرغم من المقاومة العسكرية التي تكاد لا تقهر من البربر فقد أقروا بتفوق العرب عليهم من الناحية الفكرية. وكان المنشقون العرب والخوارج والشيعة والذين لم ينجحوا في المطالبة بالخلافة هم الذين حرضوا الشعوب المفتوحة بلادها على الثورة ضد الإمبراطورية العربية حتى نجحوا أخيرًا في تمزيقها.

عندما رشح الخليفة العباسي السفاح أخاه المنصور كخليفة بعده كان قد أخذ البيعة أيضًا لابن أخيه عيسى بن موسى لكي يخلف المنصور بعد ذلك. وقرر المنصور في ذلك الوقت أن يورث الخلافة لابنه المهدي وأن يستبعد عيسى بن موسى على الرغم من أن عيسى بن موسى بهزيمته لثوار العيد (حدثت الثورة يوم العيد) محمد وإبراهيم كان قد

أنقذ عرش المنصور، وكان القادة الكبار للإمبراطورية قد بايعوا عيسى بن موسى من قبل في أيام أبي العباس السفاح. وكانوا قد أقسموا في تلك المبايعة أنهم إذا خانوا بيعتهم تطلّق زوجاتهم منهم على الفور ويعتق عبيدهم (لا يزال القسم بالطلاق عادة عند العرب).

نتيجة لهذه الأيمان البالغة كانت الطريقة الوحيدة التي يتم فيها تغيير ذلك هو تخلي عيسى بن موسى بإرادته عن تلك البيعة. وكان عيسى في بادئ الأمر لا يرحب بذلك، وكانت نتيجة ذلك أن القصر كان ينصب له المكائد. وكلما طلب منه الخليفة ذلك ولا يجد أي رد إيجابي منه كان يهدده؛ فوجد ابنه في أحد الأيام نصف مشنوق بين الحياة والموت، وكان الخليفة يأمر حرسه الخاص بصورة سرية بمهاجمته في الشوارع بينما، وفي الوقت نفسه، يعرض عليه مبالغ مالية كبيرة لكي يغريه بذلك. وكان الذي يتولى هذه الأعمال خالد بن برمك وكان مسئولًا عن نجاح المكائد. وانزعج عيسى بن موسى بالغ الانزعاج من اضطهاد الخليفة له، وكان يخشى أن يغتاله؛ لذلك خضع في آخر الأمر وتخلى عن فكرة خلافته للخليفة فرشح المنصور ابنه المهدي كوارث له في الخلافة.

كانت المكائد المتقنة التي دبرها خالد بن برمك لخضوع عيسى بن موسى وتخليه عن خلافة الخليفة بالغة الأثر في قلب الخليفة المنصور. وكان هذا يعني أن المهدي عندما يصبح خليفة سيدين بتوليه الخلافة لخالد بن برمك الذي سينال نفوذًا كبيرًا في الدولة العباسية، وخالد بن برمك هو الذي أسس أسرة البرامكة المعروفة إلى هذه الأيام في العرب بذلك.

بعد أن بويع للمهدي كوارث للخلافة اشترك في قمع ثورة في إقليم حيرات وسجستان وخراسان. وفي عام ٧٦٨ م رجع إلى بغداد وهو يقود جيشه المنتصر. وخصص الخليفة المنصور منطقة على الضفة الشرقية لنهر دجلة لإقامة معسكر لجيش المهدي خشية أن يدخل هذا الجيش مدينة السلام (بغداد) التي كان يحميها حرسه الخاص. وبعد أن استكمل الخليفة بناء عاصمته بدأ في تشييد قصر الرصافة على الضفة الشرقية لنهر دجلة مقرًا للمهدي.

هذا القلق الذي اعترى المنصور بخصوص ولاء الجيش يؤكد لنا الفرق الكبير بين الأمويين والعباسيين؛ لأن الجنود الذين كانت تجندهم الأسرة الحاكمة الأموية كانوا عربًا بينما كان الجيش الذي حمل العباسيين إلى السلطة قد تم تشكيله في خراسان وشمال فارس. ويجب أن نتجنب خطأ أن ننسب لهؤلاء فكر الوطنية الحديث وأن نفكر فيهم بوصفهم عربًا وفرسًا. ومنذ أن تم تشكيل جيش أبي مسلم الخراساني كانت أغلبية جنود الخليفة من شمال شرق فارس أما القبائل العربية التي فتحت بمفردها هذه الإمبراطورية الواسعة فقد توقف العباسيون عن تجنيد أفرادها في الجيش. ولجأ البدو مرة ثانية إلى الصحراء بينما استقر الجنود العرب في المدن واندمجوا في سكان الإمبراطورية. وبعد استكمال المدينة الدائرية للمنصور بأعوام قليلة انتشرت الضواحي إلى أبعد من الشاطئ الغربي لنهر دجلة. وكانت أسماء الذين يتلقون منح الأراضي في الضواحي والذين تخصص لهم الأراضي لمعسكرات الجنود تتم بأوامر الخليفة، ويكاد لا يوجد فيها اسم عربي. وكان أسماء المستفيدين الذين تخصص لهم الأراضي المملوكة من بلخ، بخارى، حيفا، صغد أنصارًا سابقين للثورة العباسية، وكانت الأسرة الحاكمة العباسية تدين لهم بالشكر. وكان يشغل معسكرات الجنود أساسًا جنود من فارس ومرتزقة أتراك. وكان رئيس شرطة المنصور من بلخ. وكان الخليفة لا يزال يحتفظ ببعض العرب بين حرسه في المدينة الدائرية.

كان البناء هو الشاغل الأساسي للخليفة العجوز المنصور. وبعد أن أكمل بناء قصر الرصافة على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة كمقر لإقامة ابنه المهدي بنى لنفسه قصرًا جديدًا على الشاطئ الغربي يطل مباشرة على نهر دجلة، وسماه الخلد أو قصر الخلد. ويروى أن الحدائق التي كانت تحيط به كانت تشبه حدائق الجنة. وسكن الخليفة في مقر إقامته هناك عام ٧٧٥ م قبل وفاته بوقت قصير. وأمر الخليفة بإحاطة مدن الكوفة والبصرة بأسوار وموانع مائية.

في أغسطس عام ٧٧٥ م خرج المنصور بقافلة كبيرة عبر الصحراء العربية لكي يؤدي فريضة الحج إلى مكة. وكان يعاني من عدة أعوام من اضطرابات معوية ويستشير الأطباء

دون نتيجة. وبعد أن غادر الكوفة اشتدت آلام المرض عليه، ولكنه شق طريقه بجهد عبر الصحراء حتى مسيرة يوم إلى مكة. وتوفي في الفجر في خيمته في اليوم الذي كان يأمل فيه الوصول إلى المدينة المقدسة. وكان ذلك في أول أكتوبر عام ٧٧٥ م، وكان عمره أربعة وستين عامًا وحكم لمدة اثنين وعشرين عامًا.

كان المنصور طويلًا ورفيعًا شاحب القوام. وعندما تولى الخلافة لأول مرة كان قد قتل عددًا كبيرًا من الناس، ومن الصعب أن نستبعد القتل المتعمد وبدم بارد لأبي مسلم الخراساني وهو الرجل الوحيد الذي يدين له العباسيون باعتلائهم للسلطة. وبمجرد أن استقر على عرش الخلافة بعد قمع ثورة العيد التي قام بها محمد وإبراهيم أصبح أقل تعطشًا للدماء.

كان المنصور جادًا ويقرأ ويهتم جيدًا بالأدب. وكان لا يسمح بالموسيقى ويتجهم أمام كل تصرف عبثي. وبمجرد أن أصبحت سلطته مستقرة كان يهتم بفرض العدالة ولا يسمح لحكام الأقاليم بتنفيذ أحكام الإعدام دون الرجوع إليه. وكان بلا شك حاكمًا متمرسًا وإداريًا مجتهدًا.

في إحدى المناسبات قيل له إن أحد ضحاياه قال: «إنه يعاقب كما لو لم يسمع عن الشيء المسمى بالعفو». فرد الخليفة: «إن بني مروان لم تبل رماحهم وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم ونحن قوم رأونا سوقة واليوم خلفاء فلن نتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو والشدة في العقوبة».

هذه القصة تتضمن المفتاح الذي يدل على تاريخ العباسيين الأوائل. ولأنهم استولوا على السلطة من أصحابهم من قريش فقد عاشوا في خوف دائم من المؤامرات ضدهم مثل تلك التي كانوا يدبرونها ضد الأمويين. وهذه الفكرة المسيطرة عليهم هي التي أدت بهم إلى تجاهل الفتوحات الخارجية لأنهم اعتقدوا أن أعداءهم الحقيقيين في أرض الوطن.

على الرغم من أن الدعوة السياسية الصريحة إلى بني العباس كانت مؤثرة لدرجة أن بني أمية أصبحوا أعداء الله، فإن المنصور كان يكن إعجابًا كبيرًا للخليفة هشام بن عبد الملك (الذي كما ذكرناه كان متهمًا بالبخل). وفي أكثر من مناسبة كان يبعث لكبار السن الذين كانوا يخدمون هشام بن عبد الملك ويسألهم عن طريقة إدارته للحكم.

كانت أم المنصور جارية بربرية. والمثير للدهشة أكثر أن أم عبد الرحمن الأمير الأموي الذي استولى على الأندلس كانت من الأصل نفسه؛ لذلك قيل إن بني محظيتين بربريتين حكما العالم.

كانت الفترة الكبيرة التي حكم فيهاالمنصور تحمل تغيرات بارزة في روح الإمبراطورية عند مقارنتها بما حدث أيام بني أمية؛ ففي عصره بدأ أول مؤرخي الإسلام في الكتابة وهو ابن إسحق الذي مات في عهده. وأصبحت مدارس البصرة مشهورة بنحاة اللغة العربية وهو موضوع مهم لدراسة القرآن، وازدهرت مدارس الفقه الدينية ومدارس الحديث.

عندما ازداد الاهتمام بتعلم الكتب قل الاهتمام بالنواحي العسكرية وهبط هبوطًا ملحوظًا وأصبحت الإمبراطورية في كل مكان تتخذ موقف الدفاع ولم يعد هناك أي ذكر لخطط تعد لفتوحات جديدة. وصحيح أنه كانت توجد معارك كثيرة، وكان الجيش في كل مكان ولكن المهمة الأساسية له كانت قمع الثورات. وبصرف النظر عن ثورة العيد فقد حدثت ثورة أخرى شرق فارس تسمى ثورة إستاذسيس والثورة الجماعية للبربر في أفريقيا التي نتج عنها حملات عسكرية طويلة ومريرة. وغزا الخزر أرمينيا وأذربيجان وتركهم الخليفة العباسي دون عقاب. وكان يدور قتال متقطع ضد البيزنطيين، ولكنه كان يفتقد الروح النضالية لغزوات الأمويين.

من الصعب أن نعزي هذه الأشياء إلى عامل واحد. فمن ناحية وصلت الإمبراطورية إلى قمة نضجها وتحولت من الروح النضالية العسكرية إلى الاهتمام بالثقافة والأدب والفنون وفي ذلك الوقت لعبت الصفات المميزة للأسر القرشية بعض الأدوار في هذا التحول. ولأن الأمويين كانوا جنودًا بصفة محضة، فإن العباسيين كانوا سياسيين ورجال دولة وأدباء،

والذين قاموا بثورة العيد كانوا صوفيين يهتمون بالآخرة. وتلك الصفات قد يكون فيها مبالغة في التبسيط، ولكنها كانت على العموم تمثل الصفات الحقيقية للقبائل المتنازعة.

هناك عامل في سياسة المنصور جلب عليه الكوارث في المستقبل؛ ألا وهو خوفه المستمر من الأمويين ومن آل علي الذين قاموا بثورة العيد، وهذا الخوف جعله يرتاب في العرب ونتيجة لذلك كان يتوسع في تقليد مواليه المناصب الكبيرة. وهؤلاء الموالي كانوا عبيدًا قبل ذلك وتم إعتاقهم، وفي الغالب لم يكونوا عربًا لأن العرب لا يمكن لهم أن يكونوا عبيدًا وهكذا قل عدد العرب في مواقع السلطة والمسئولية في كل من الحكم المركزي والجيش وفي الأقاليم. وقد ذكرنا أكثر من مرة خالد بن برمك باعتباره واحدًا من وزرائه الأساسيين. وكان أعوانه قد اشتروا أيضًا عبيدًا أتراكًا على الحدود الشمالية ليكونوا في خدمة الخليفة.

في النهاية وكنتيجة لهذه السياسة ضيع العباسيون فرصة سانحة لهم كأسرة حاكمة عربية؛ فقد حرموا أنفسهم من الاستفادة من ولاء العرب لهم اعتمادًا على الخدمات التي يؤديها لهم الأتراك والفرس الذين على المدى الطويل تمكنوا من الاستيلاء على السلطة عندما أصبح العرب الذين أضعفهم العباسيون غير قادرين على مقاومتهم.

أصبح المهدي ابن المنصور خليفة في أكتوبر عام ٧٧٥ م بدون أي معارضة. وكان عمره آنذاك ثلاثة وثلاثين عامًا وكان شابًا وسيمًا وكريمًا ومحبوبًا من الشعب. وكان ابن ابن حفيد للعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم. وفي العام الذي تلى توليه للخلافة بعث بحملة عسكرية بالبحر من البصرة لفتح الهند. واستولت على مدينة باراباد التي لا يعرف موقعها في الوقت الحالي بالتأكيد. ويروى أن الحملة كانت حملة تأديبية ضد القراصنة الهنود، الذين كانوا يهاجمون السفن التجارية العربية، فمات كثير من الجنود بأمراض غريبة، وتحطمت بعض السفن، ونجحت الحملة نجاحًا طفيفًا.

في عام ٧٧٧ م نشبت ثورة أخرى في خراسان بزعامة يوسف البرم. وبعد قتال شديد تم قمع الثورة، وأحضر يوسف وأنصاره إلى بغداد مقيدين بالسلاسل فقطعت أيديهم وأرجلهم ثم ضربت أعناقهم وصلبت جثثهم على أعلى جسر دجلة. وفيما بعد كانت تعلق

جثث الثوار الذين يخرجون على الخليفة ورؤوسهم على الجسور فوق النهر كما هو الحال في لندن على أبواب الكنائس. ومن المدهش أن يكون هناك ثورات في خراسان ضد العباسيين؛ لأن كثيرًا من الخراسانيين كانوا يتولون وظائف كبيرة في مواقع المسئولية وفي الجيش. وقبل وفاة المنصور بوقت قليل يروى أنه وصى المهدي أن يهتم بالخراسانيين الذين كان يدين لهم بعرشه.

في سبتمبر عام ٧٧٧ م حج المهدي إلى مكة ترافقه قافلة جمال تحمل الثلج في أوعية لكي تبرد مشروبات أمير المؤمنين في هذه الصحراء العربية التي كانت منذ مائة وخمسين عامًا موطن أجداده الشجعان.

كان للحرب الأهلية بين العباسيين والأمويين ثم بخل الخليفة المنصور وعدم إنفاقه على جنود القوات العربية على الحدود البيزنطية أثره في أن سُمح للإمبراطور المتحمس قسطنطين الخامس ابن ليو الآزوري أن يتوسع في الحدود نحو الشرق، وأن يتحكم في ممرات جبال طوروس. وفي عام ٧٧٨ م انهزم العرب بالقرب من بئر مرعش شرق جبال طوروس. وفي عام ٧٨٠ م أخذ البيزنطيون مرة ثانية بادرة الهجوم على الرغم من أن العرب فيما بعد نجحوا في إعادة حاديس إلى حوزتهم. وقرر المهدي أن يستعيد المبادرة والهيبة التي تمتع بها العرب خلال فترة الدولة الأموية. وعين الخليفة بنه الثاني هارون قائدًا للجيش ومعه خالد بن برمك وابنه يحيى للقيام بالمشورة من الناحية السياسية.

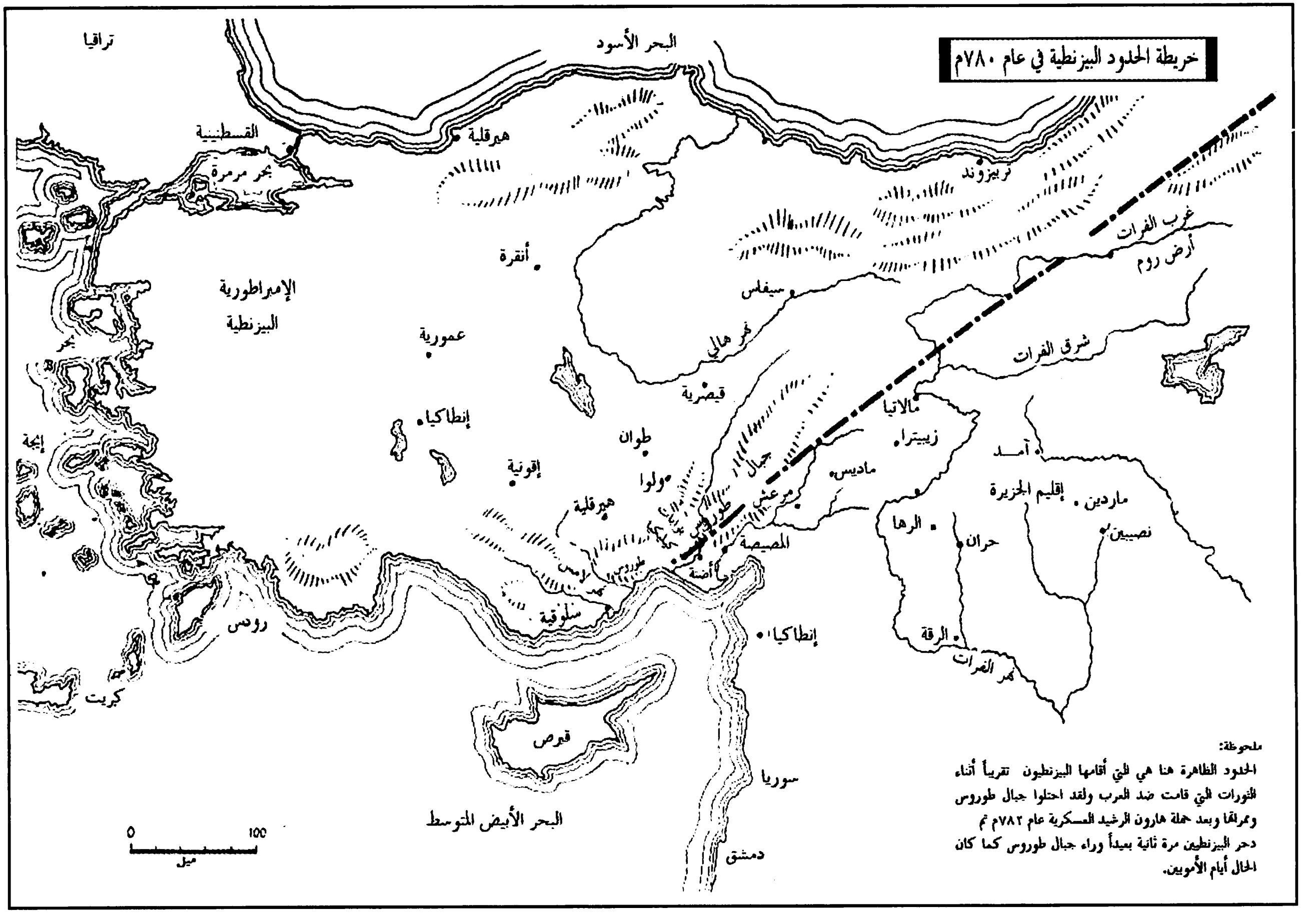
في صيف عام ٧٨١ م غزا هارون الرشيد الأراضي البيزنطية. وعلى الرغم من أنه لم يحدث أي شيء لافت للأنظار فإن العرب أخذوا زمام المبادرة بالغارات الصيفية. ومما سهل من مهمة الجيش العربي كثيرًا وفاة الإمبراطور ليو الرابع ابن قسطنطين الخامس عام ٧٨٠ م وتولي أرملته الإمبراطورة إيرين السلطة باسم ابنه الصغير قسطنطين السادس. في فبراير عام ٧٨٢ م خرج هارون الرشيد مرة ثانية ومعه جيش كبير مؤلف من خمسة وتسعين ألف رجل مسلحين بتكلفة باهظة. وزحف هذا الجيش عبر آسيا الصغرى ووصل إلى البسفور وعبر البحار الضيقة حول أسوار القسطنطينية ذاتها وأبراجها. ولذكاء إيرين

الحاد سعت إلى السلام وتبادلت إرسال الوفود مع هارون الرشيد. وبعد فترة من المداولات تم عقد اتفاق طبقًا له تدفع الإمبراطورية البيزنطية إلى الخليفة جزية سنوية تقدر بسبعين ألف دينار. وبخضوع البيزنطيين استعادت الخلافة المكانة العسكرية المسيطرة التي كانت لها إبان حكم الأمويين الكبار. ورجع هارون من جبهة القتال مرفوع الهامة وأصبح واليًا على أرمينيا وأذربيجان. وبقي يحيى بن برمك معاونه الرئيسي.

في عام ٧٨٢ م أمر المهدي بأخذ البيعة لابنيه لكي يخلفاه، وفي الوقت نفسه قدم لكل ابن لقبًا مميزًا فلقب ابنه الأكبر موسى بالهادي ولقب ابنه الثاني هارون بالرشيد. وفي عام ٧٨٣ م نشبت قلاقل في جرجان وطبرستان في الطرف الجنوبي لبحر قزوين فبعث الخليفة موسى الهادي بجيش لاستعادة النظام.

في يوليو عام ٧٨٥ م راودت الخليفة فكرة استخلاف ابنه هارون بعده متخطيًا أخاه موسى الهادي، ولكن الهادي رفض ذلك. وكما كان الحال في حالة عيسى بن موسى السابقة كان ممثلو القبائل والعشائر قد بايعوا موسى الهادي ولا يمكن لهم أن يتخلوا عن بيعتهم إلا إذا أعلن هو نفسه قبوله استخلاف أخيه قبله بطوع إرادته. وفي أغسطس عام ٧٨٥ م كان الخليفة المهدي في جبال فارس على بعد خمسين ميلًا جنوب كيرمانشاه وفي طريقه إلى شمال فارس لمقابلة موسى الهادي بنه الأكبر لكي يقنعه بخطته لكي يكون هارون الرشيد أول من يخلفه على عرش الخلافة.

خرج الخليفة في الصباح لكي يصطاد غزلان، وهي رياضة كان الخليفة شغوفًا بها إلى درجة كبيرة. وكانت بعض كلاب الصيد السلجوقية أو كلاب الصيد الفارسية تطارد غزالًا وكان الخليفة المهدي يتابع تلك المطاردة وهو على فرسه، الذي كان يجري بأقصى سرعة خلفهم، ومروا على مبنى مهدم. ويبدو أن الفرس كان يعدو تحت قنطرة فضربه الخليفة على رأسه أو ألقاه الفرس على الأرض فكسر ظهره ومات على الفور. وكان ذلك في الرابع من أغسطس عام ٧٨٥ م وكان عمره آنذاك أربعة وثلاثين عامًا وحكم لمدة عشر سنوات.


خريطة الحدود البيزنطية في عام ٧٨٠م
تراقيا
البحر الأسود
القسطنطينية
بحر مرمرة
هيرقلية
طرابزون
غرب الفرات
أرض روم
أنقرة
سيفاس
الإمبراطورية
البيزنطية
نهر هالي
شرق الفرات
عمورية
قيصرية
مالاتيا
إنطاكيا
طوان
زبيترا
إقونية
مولوا
جبال
ماديس
آمد
مرعش
إقليم الجزيرة
هيرقلية
ماردين
الرها
حران
نصيبين
المصيصة
أضنة
طوروس
بحر
إيجة
سلوقية
روس
إنطاكيا
الرقة
نهر الفرات
كريت
قبرص
سوريا
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
0
100
ميل
ملحوظة:
الحدود الظاهرة هنا هي التي أقامها البيزنطيون تقريباً أثناء الثورات التي قامت ضد العرب ولقد احتلوا جبال طوروس وممراتها وبعد حملة هارون الرشيد العسكرية عام ٧٨٢م تم دحر البيزنطيين مرة ثانية بعيداً وراء جبال طوروس كما كان الحال أيام الأمويين.

كان الخليفة المنصور البخيل قد ترك مبالغ مالية ضخمة في بيت المال. وعندما تولى المهدي السلطة كان أميرًا وسيمًا ولطيفًا. وكان متلهفًا على تجنب تهمة البخل التي لصقت بأبيه المنصور فكان كريمًا جدًا أو مسرفًا إلى حد كبير، وفي خلال وقت قصير كان قد أنفق غالبية الأموال التي ظل المنصور الحريص يجمع فيها طوال فترة حكمه الطويل.

نشأ السفاح والمنصور كخارجين على نظام حكم الدولة الأموية، وتأسست دعائم الثورة العباسية على كثير من سفك الدماء وخاصةً على حساب أبناء عمومتهم بني أمية وبني علي، وكان المهدي طفلًا وقت قيام الثورة ونشأ أميرًا. وكان أقل خوفًا من الدسائس والمؤامرات من أبيه وأقل حبًا للبطش ببني أمية وبني علي بن أبي طالب.

كان المهدي يتمتع بشعبية كبيرة لكونه ذا طباع لطيفة وهادئة. وكان يحاول أن يستمع إلى الشكاوى وينصف المظلومين، وكان يأمر بإطلاق سراح الكثير ممن سجنهم أبوه المنصور بمن فيهم هؤلاء المشتبه فيهم بمعارضتهم السياسية لنظام حكم الدولة العباسية. وكان كريمًا مع الباقين من آل مسلمة بن عبد الملك الجندي الأموي السابق الذي حارب لفترة طويلة ضد البيزنطيين، وعمومًا فإنه كان متلهفًا إلى التكفير عن المذابح الدموية التي ارتكبها المنصور والسفاح ضد بني أمية وبني علي بن أبي طالب. وعلى الرغم من أن المهدي كانت تنتابه أحيانًا نوبات من الغضب الجامح فقد كان حاكمًا متمرسًا وكريمًا ولينًا.

كان المنصور لا يحبذ الموسيقى ولا العبث، أما المهدي فقد كان عكس أبيه؛ لذلك فقد تمتع بالنساء والخمر والترف. وفي قصيدة له يحتفي فيها بمولاه المفضل وصديقه المرح قال:

رب تمم لي نعيمي	بأبي حفص نديمي
إنمـــا لـــذة عيش	في غـنـــاء وكـــروم
وجـــوارٍ عـطـرات	وسـمـاع ونـعيـم(*)

(*) من كتاب الأغاني للأصفهاني.

كان للمهدي جارية محظية مثل الخليفة يزيد بن عبد الملك وكان يبادلها الحب. ولم تعد جاريات الأغنياء في ذلك العصر فقط وسيلة لإرضاء شهوات ممتلكيها بل كنّ عازفات للموسيقى أو راويات للشعر العربي. وفي أي لحظة كان المهدي يقول لصاحبه أو جاريته «هذه ليلة سعيدة» أو«عندنا يوم صيد طيب».«ارتجل أو ارتجلي بعض الأبيات لي للاحتفال بهذه المناسبة»، وكان الخليفة نفسه يمتلك موهبة أدبية كبيرة، وكان من يصادقه يحتاج إلى تعليم جيد وعبقرية شعرية كبيرة لكي يتمكن من ارتجال الشعر على المستوى المطلوب.

كانت الدعوة إلى بني العباس التي قام بها أبو مسلم الخراساني، والتي أدت إلى ثورة كبيرة ضد الأمويين تشجب الخلفاء الذين يشربون الخمر وتبشر بالعودة إلى الديانة الحقة بحكم آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن هذه الوعود كانت وعودًا انتخابية فحسب تم نسيانها بمجرد أن تولى بنو العباس السلطة.

خلال العشرة أعوام التي حكم فيها المهدي كان كريمًا جدًا مع العرب ومقدرًا لفضلهم دون التخلي عن اعتماد أبيه الكبير على الخراسانيين، وكان يظهر كرمًا كبيرًا للعرب، وكان على عكس معظم العباسيين من أم أميرة عربية يمنية تزوجت من المنصور ولم تكن أمه محظية. وبنى لنفسه قصرًا في الرقة على شاطئ الفرات وقام بتوسيع فناء الكعبة في مكة توسعة كبيرة، وأمر بهدم منازل عديدة لكي يوسع المكان الذي يحيط ببيت الله. وشرع في إنشاء مكاتب بريد للحرس الخاص به وصهاريج للمياه عبر طرق الحج تمتد عبر الجزيرة العربية إلى المدينة ومكة.

على الرغم من أن المهدي تمتع بمباهج الحياة والترف فقد احترم الدين احترامًا ظاهرًا؛ ففي خلال حكمه ظهرت طائفة الزنادقة الجديدة في خراسان وانتشرت بسرعة. وكانت عقيدتها عبارة عن خليط من الإسلام ومؤثرات لعقائد شرقية قديمة، وعلى الرغم من أن هذه الكلمة كانت تعني الإلحاد أظهر المهدي تمسكه بالعقيدة السلفية باضطهاد أتباع هذه الطائفة اضطهادًا كبيرًا.

كان المهدي بطريقة أو بأخرى يختلف بصورة جوهرية في شخصيته عن والده، ولكنه استمر في الاتجاه نحو الشرق. وكان لنقل عاصمة الخلافة إلى بغداد تأثيره في أنه أحاط القصر بمؤثرات فارسية وفصله عن منطقة البحر الأبيض المتوسط والعالم الروماني. ومن الجدير بالملاحظة أن نقرأ في العدد الكثير من النوادر التي كان المؤرخون العرب يحبون أن يرووها أن الخلفاء كانوا يميلون أكثر إلى اختيار أصدقائهم وأصحابهم من مواليهم وعبيدهم ومحظياتهم وليس من الطبقة الأرستقراطية العربية. وكان نظام الحكم الفارسي يحيط الملوك القدامى بهالة من السمو شبه الإلهي وهو وضع غير مقبول للعقلية العربية الساخرة، التي كانت تحب النقد بصورة مستمرة وأيضًا تحب السخرية من زعمائها. وكان ضعف نفوذ الزعماء العرب وازدياد نفوذ الفرس يجعل العرب يتملقون العباسيين بطريقة لم يكونوا يرغبون فيها، ولكن يرغب فيها الموالي والعبيد عن طيب خاطر.

كانت واحدة من هذه الإشارات الظاهرة والمرئية لهذا الاتجاه نحو الاستبداد هي زيادة تعيين الخدم في الوظائف المهمة بما فيها ولاية الأقاليم. وفي الوقت نفسه أصبحت الحكومة المركزية في بغداد أكثر تنظيمًا. وما يمت بصلة إلى الوزارات في عصرنا الحديث مثل وزارة العدل والمالية والدفاع كانت تقام قبل ذلك تحت مسمى الدووابن، وكان يعمل فيها عدد كبير من موظفي الحكومة وكان كبير الوزراء يتحكم في كل الوزارات ومسئول فقط عند الخليفة. وهذا التقليد الذي يرجع أصله إلى المهدي جلب المصائب إلى أقصى درجة على العباسيين الذين مالوا أكثر وأكثر إلى إهمال شئون الدولة وتركها للوزراء. وكان عدد كبير من كبار الضباط في الجيش وولاة الأقاليم من موالي الخليفة. ورأينا أن الموالي كانوا ملتزمين أخلاقيًا بخدمة مصالح أسيادهم الذين أعتقوهم طوال فترة حياتهم. وأدى الاستخدام المفرط للموالي في مواقع المسئولية إلى أن يكون ولاؤهم بناءً على ذلك ليس للمجتمع المسلم ولكن للخليفة فحسب. وحتي لو لم يكن موظفو الدولة من الموالي فقد كانوا فحسب موظفين، وليس لهم مركز اجتماعى إلا المكاتب التي يعملون فيها. وفي عصر الأمويين على العكس كان موظفو الحكومة من الطبقة الأرستقراطية العربية التي تتكون إلى حد ما من زعماء القبائل العربية ومن أحفاد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وكان

أفراد هذه العائلات الكبيرة متكبرين ومتمردين، ولكن كان وجودهم يجعل الخليفة في مكانه الأول بين أقرانه. وكان إحلال هذه الطبقة الأرستقراطية بموظفين فحسب كان كثير منهم من الموالي لا يجعل أحدًا في الإمبراطورية يغامر بنقد أو معارضة أوامر أو هوى الخليفة. ولم تكن طبقة زعماء القبائل الأرستقراطية العربية طبقة مثقفة لأن هؤلاء قضوا معظم أوقاتهم في الحروب ولكن كان وجودها لمراجعة الخلفاء في استبدادهم. ليس للمرة الأولى فى التاريخ كان اختفاء طبقة أرستقراطية وتكوين مجتمع بلا طبقات لا يمهد الطريق أمام إصلاح الديكتاتورية. بينما نحن نندب هذا الاستبداد المفرط يجب أن نعرف أنه في جوانب أخرى كان العباسيون يمثلون النهضة والتقدم؛ فها هو ذا الخليفة المهدي كان ذكيًا ومطلعًا. وفي عهده استمرت المعرفة والعلوم والأدب في التطور بسرعة. وكانت الطبيعة المتنامية للإمبراطورية تترسخ أكثر بالأهمية المتزايدة للتجارة والصناعة ونمو طبقة التجار الأثرياء التي سنقرأ عنها فيما بعد. وكانت فترة حكم الأمويين تتميز بالفروسية والحرب والفتوحات أما فترة حكم العباسيين فكان يميزها تقدم التجارة والفنون والصناعة.

اعتلى موسى الهادي عرش الخلافة عند وفاة والده. وبينما كان المهدي على عكس المنصور يكرم آل علي بن أبي طالب ورد إليهم ممتلكاتهم التي صادرها أبوه وخصص لهم عطاءات ألغى موسى الهادي هذه الامتيازات وعاملهم بقسوة. وكنتيجة لذلك وبعد تسعة شهور حدثت ثورة أخرى في مكة في هذا الوقت باسم الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب. وتم قمع هذه الثورة بسرعة، وقتل الحسين في معركة صغيرة في الفخ على بعد ستة أميال خارج مكة. وعندما بعث برأس الحسين إلى الخليفة الهادي في بغداد انفجر بالدموع وقال «أتيتموني مبشرين كأنكم أتيتموني برأس رجل من الترك أو الديلم، إنه رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم». كان واضحًا أن سياسة موسى الهادي هي التي أدت إلى الثورة.

وعلى الرغم من أن الهادي كان هكذا على قدر من الشفقة فقد استمر في القتل والتعذيب والمصادرات لكل من قاموا بالثورة من آل علي بن أبي طالب في مكة والمدينة.

وبعد هذه الثورة هرب إدريس بن عبد الله بن الحسن من مكة. وكان شقيق محمد وإبراهيم اللذين ثارا عام ٧٦٢ م ضد المنصور. وسافر إلى مصر. وكان يرافقه أحد مواليه وساعده هناك (وديح) أحد موالي عائلة الخليفة، وكان مسئولًا عن البريد والاستخبارات في مصر. وكان آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من فاطمة يوقرهم الكثير من المسلمين البسطاء والموالين لهم، ولهذه الأسباب الأخلاقية والدينية سهل وديح لإدريس الهارب مهمة السفر إلى طنجة. وعندما علم الخليفة هارون الرشيد بما فعله وديح أمر بإعدامه على الفور وصلب جسده.

من طنجة سافر إدريس إلى فوليبيليس وهي مدينة رومانية قديمة على سفح تلال جبال الأطلس حيث بقايا الأشجار الساقطة والمعابد المهدمة التي لا تزال حتى اليوم تشهد على روعة روما القديمة. وبالنسبة للعرب كانت مدينة فوليبيليس معروفة باسم وليلة. وهناك استقبل استقبالًا حارًا. واستقبلته القبائل البربرية المسلمة باحترام كواحد من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وكعدو للحكومة القائمة؛ لأن البربر مثل الأيرلنديين الذين يضرب بهم الأمثال كانوا أعداء بصورة ثابتة لأي حكومة تتولى السلطة. وبعد وقت قصير انضم إليه عدد من العرب الذين كانوا يعادون الأسرة العباسية الحاكمة لسبب أو لآخر.

لأن إدريس كان رجلًا ذا شخصية أخاذة ففي خلال ثلاثة أو أربعة أعوام كان قد حصل على مبايعة العديد من القبائل البربرية في منطقة جبال الأطلس، واتسعت سلطته إلى منطقة المغرب الحديثة بكاملها وإلى شرق منطقة تلمسان في الجزائر الحديثة. ولأنه وجد مدينة وليلة صغيرة جدًا فقد احتاج إلى تأسيس عاصمة خاصة به فبنى مدينة فاس. وأجاد اختيار موقع المدينة على السفح الغربي لجبال أطلس، وكانت تصلها إمدادات مياه كافية، وكانت تتحكم في ممر تازة الجبلي وهو المر الذي يؤدي من ولاية أفريقية بين جبال الريف وجبال أطلس إلى المغرب.

هكذا في ذلك الوقت كانت ثلاث من قبائل قريش المتخاصمة تتحكم في دولة مستقل؛ ففي المغرب كان إدريس بن عبد الله من آل علي بن أبي طالب يحكم بلقب الإمام وهي كلمة

تعني في الأصل إمام المصلين في صلاة الجماعة فحسب والذي أضاف إليها الشيعة الآن معنىً روحيًا. وفي الأندلس كان عبد الرحمن بن معاوية الأموي الذي حكم بوصفه حاكمًا مستقلاً وأخذ لقب الأمير، بينما ما زال يحتفظ العباسيون في بغداد بأغلبية أجزاء الإمبراطورية ويستخدمون لقب أمير المؤمنين.

مهما كان تعلقه بالجواري فقد كانت هناك امرأة واحدة تسيطر على قلب المهدي الخليفة العباسي. وكان اسمها الخيزران وقد كانت جارية محظية في الأصل. وكانت أم الخليفة الجديد الهادي وأخيه هارون الرشيد. وكان تأثيرها كبيرًا على المهدي لدرجة أن أفراد الحاشية وقادة الجيوش والموظفين كانوا يعتادون على التماس عطفها على أمل أن تكلم الخليفة بالنيابة عنهم.

عندما تولى الهادي الخلافة استمرت الخيزران تستقبل الرجال البارزين لكي تتدخل في الشئون العامة أو لكي تؤمن تقدم الشاكي إلى الخليفة تحت حمايتها أو لكي تشير برأيها لابنها أو تأمر بشيء. وثار الخليفة الهادي الشاب بعد ذلك ضد هذه السلطة التي كانت تتمادى فيها وحدث موقف غاضب بين الأم وابنها منع فيه الخليفة أي ضابط أو موظف من زيارة أمه، بينما أقسمت الخيزران أنها لن تتكلم ثانية مع ابنها الكبير. وفي تلك الأثناء حدث توتر في العلاقة بين الخليفة الهادي وأخيه هارون الرشيد.

كان المهدي كما سنذكر قد أمر بأخذ البيعة لابنه موسى الهادي ولهارون الرشيد كخليفة للهادي. ولكن موسى الهادي كان مصممًا في ذلك الوقت على أن يحرم هارون أخاه من وراثته وأخذ البيعة لبنه جعفر. وهكذا مرة ثانية لا يمكن أن يحدث ذلك حتى يوافق هارون الرشيد على ذلك من تلقاء نفسه، وبذلك يعفى من بايعه من القسم الذي بايعه فيه في ذلك، وكانت الخيزران بعد مشاجرتها مع الهادي تؤيد هارون الرشيد. وكان يحيى بن برمك البرمكي مشغولاً بجمع الأصوات لتأييد سيده هارون الرشيد حتى سجنه الهادي. وفي تلك الظروف الصعبة كان هارون يتصرف بلباقة شديدة فبينما رفض أن يتنازل عن حقه في الخلافة عامل أخاه الهادي بتواضع جم ووعده أن يرعى أولاده ويزوجهم لبناته وأن يعاملهم كأولاده تمامًا.

عندما سرت الأمور بهذا الشكل سقط الهادي فجأة مريضًا بمرض معوي ومات بعد ذلك بأربعة أيام. ويروى أنه كان يعاني من قرحة معوية ولكن في ظل التوتر العائلي كانت الشائعات تقول إن أمه قد سمته. وكانت أمه في ذلك الوقت تقف بجانبه في مرضه الأخير ومات و يده في يديها. وكانت مدة خلافته عامًا وشهرين وكان عمره ستة وعشرين عامًا يوم أن مات. وتوفي في ١٥ سبتمبر عام ٧٨٦ م.

كان الهادي طويلًا وجميلًا ووسيمًا. وكانت نظراته الثاقبة تعطي له هيبة معينة ويبدو أنه كان مبذرًا وفاسقًا مع أنه كان لطيفًا وحسن النية. وكانت تتحكم فيه كلية والدته الخيزران حتى ثار عليها ونتج عن ذلك مواقف عائلية حادة.

من المهم أن نلاحظ أنه في عام خلافة الهادي أصبح طريق الحج عبر الجزيرة العربية من بغداد إلى مكة غير آمن بسبب غارات السلب والنهب التي كانت تقوم بها القبائل العربية البدوية. وكانت هذه القبائل لمدة مائة وخمسين عامًا من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى عهد الهادي أنصار الدين وعماد الإمبراطورية. ولكن كان في ذلك الوقت لسيطرة الموظفين غير العرب المتزايدة على الأمور أثره في دفعهم مرة ثانية إلى معارضة الحكومة وهي حالة بقيت تقريبًا حتى أوائل القرن العشرين. وحتى منذ انقلاب العباسيين على الأمويين قبل ذلك بخمسة وثلاثين عامًا بدأت لغة المؤرخين تتغير ففي الأيام الأولى كانوا يمدحون عرب الصحراء الأحرار، ولكن في ذلك الوقت بدأت الإشارات إلى رجال القبائل الأغبياء والجاهلين تظهر، وهي ملاحظات كانت تكمن في الكلمات نفسها التي نسمعها اليوم بين الطبقات الحاكمة في بغداد ودمشق والقاهرة.

خلال العام الأخير من حياة المهدي رفضت الحكومة البيزنطية الاتفاق المذل الذي عقد قبل ذلك بثلاثة أعوام بين هارون الرشيد والإمبراطورة إيرين. وكان هذا التغيير في السياسة يعزى إلى أن قسطنطين السادس ابن إيرين كان قد كبر واستولى على الحكم من والدته. واستؤنفت الحروب ولكن بصورة متقطعة على الحدود في عهد الهادي.

تواريخ بارزة

- ٧٦٨ م.......تعيين عمر بن حفص واليًا على أفريقيا.
- ٧٧١ م...... وفاة عمر بن حفص وخضوع القيروان.
- ٧٧٢ م..... معركة جنبي وخضوع البربر.
- ٧٧٥ م.......وفاة المنصور واعتلاء المهدي الخلافة.
- ٧٨٢ م.......حملة هارون الرشيد على البسفور.
- ٧٨٥ م.......وفاة المهدي واعتلاء الهادي الخلافة.
- ٧٨٦ م......ثورة الحسين بن علي في مكة.
- ٧٨٦.........وفاة الهادي.

الشخصيات

- ٧٦٨-٧٧١ م عمر بن حفص والي أفريقية.

- ٧٧٢-٧٨٧ م يزيد بن حاتم والي أفريقية.

- الخليفة المهدي ابن المنصور.

- ابن الخليفة المهدي – موسى الهادي.

- هارون الرشيد.

- خالد بن برمك.

- يحيى بن خالد بن برمك.

- الحسين بن علي وثورة آل علي بن أبي طالب في مكة (قتل في الفخ).

- إدريس بن عبد الله ثائر من آل علي بن أبي طالب هرب إلى المغرب.

- الخيزران جارية المهدي المحظية أم الهادي وهارون الرشيد.

الأباطرة البيزنطيين

- ٧١٦-٧٤١ م... ليو الثالث الآزوري.
- ٧٤١-٧٧٥ م....قسطنطين الخامس واسمه دانج.
- ٧٧٥-٧٨٠ م.....ليو الرابع.
- ٧٨٠-٧٨٥ م....إيرين الواصية على قسطنطين السادس.
- ٧٨٥-٧٩٧ م.... قسطنطين السادس.

الفصل الخامس عشر

العصر الذهبي

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

«آل عمران — ١٤٨»

ولدت على شاطئ نهر دجلة

في صباح صيفي براق

بجانب مزارات بغداد المرصعة بالذهب

والحدائق الخضراء القديمة ذات الأسوار العالية

في العصر الذهبي لهارون الرشيد الصالح

حيث تطفو الكثير من السفن الراسية

المكللة والمزينة بالورود المزخرفة والأشرعة الذهبية

ومن هناك تمتزج ضحكته العميقة

ببهجة الكبرياء الملكية

لقد رأيته في عصره الذهبي

نجمًا فريدًا لكل زمانٍ ومكان

هارون الرشيد الصالح

(تينيسون- ذكريات ألف ليلة وليلة)

تميل السلطة إلى الفساد والسلطة المطلقة تفسد الناس تمامًا. ويصبح الصالحون فاسدين.

(لورد أكتون)

في ١٥ سبتمبر عام ٧٨٦ م بويع هارون الرشيد خليفة بعد أخيه موسى الهادي. وكان عمره اثنين وعشرين عامًا عندما تولى الخلافة وحكم لمدة ثلاثة وعشرين عامًا وأصبح واحدًا من أشهر الأمراء في كل العصور. وكما رأينا حاول الهادي أن يحرم أخاه هارون من وراثته في الخلافة وأن يجعل ابنه جعفرًا هو الخليفة من بعده وأعد لذلك مجموعة من الناس لكي تبايعه. ولكن كان جعفر لا يزال طفلًا وزالت المعارضة لتولي هارون الخلافة من أول يوم.

كان الهادي قد أمر بسجن يحيى البرمكي للتدابير التي أعدها لتأييد حق هارون الرشيد في الخلافة. وكان أول شيء قام به الخليفة الجديد هارون الرشيد هو إطلاق سراح صديقه ومعلمه السابق ثم ولاه الوزارة بعد ذلك. ويروى أن هارون الرشيد الشاب كان قد قال ليحيي بن برمك: «قد فوضت إليك أم الرعية وخلعت ذلك من عنقي وجعلته في عنقك فولٍّ من رأيت واعزل من رأيت».

فرحت أم الخليفة الخيزران باعتلاء بنها الأثير لديها عرش الخلافة واختفاء الهادي العنيد، وشرعت في تدخلاتها المستمرة في شئون الدولة. ويبدو أن يحيى البرمكي كان يقدرها، وبينما كان يقبل أوامرها باحترام كبير كان يقوم بالتعاون معها مقابل أن ينال مساندتها له. ومن الغريب أن الجارية المحظية المتعجرفة قد ماتت بعد ذلك بفترة قصيرة.

تم العفو عن هؤلاء الذين كانوا يعارضون الحكومة السابقة، ومنح الجنود هبات كريمة وبدا الأمر كما لو أن عهدًا جديدًا سيبدأ بأحسن التدابير الممكنة. وكانت الحاجة ضرورية لتوزيع الأموال الفورية على الجيش لضمان ولائه للدولة، وذلك يذكرنا بالأباطرة الرومان فيما بعد. وكان ذلك يبرره أن معظم جنود الجيش كانوا مرتزقة، وكان الأغلبية من الترك أو الفرس الذين لم يكونوا يقاتلون من أجل الله ولا من أجل بلدهم ولكن من أجل المال فحسب، ورأينا كيف أن شارلمان بسبب نقص الأموال الفورية كان مضطرًا إلى أن يدفع عطاء الجنود أراضي (النظام الإقطاعي) بدلًا من الأموال. وفي عهد العباسيين رأينا الأمور تسير على العكس. ونتيجة لوفرة الثروة كون الخلفاء جيوشًا كانت تحارب فقط من أجل الأموال وليس من أجل الدين أو الوطنية. وفي صيف عام ٧٩١ م رشح هارون الرشيد بنه الأمين كوارث للخلافة بعده على الرغم من أن عمره كان خمس سنوات فقط. وهذه الواقعة تقدم لنا أمثلة أكثر على الشرخ الذي يتسع باستمرار مع العرب، ومع التقاليد الإسلامية فالعرب كانوا قبل الإسلام يعارضون بشدة مبدأ حق الابن البكر في وراثة الحكم. وكانت زعامة القبيلة تذهب إلى الفرد الأكثر كفاءة من العائلة الحاكمة وليس بالضرورة إلى الابن الأكبر لصاحب المنصب السابق ولا إلى طفل.

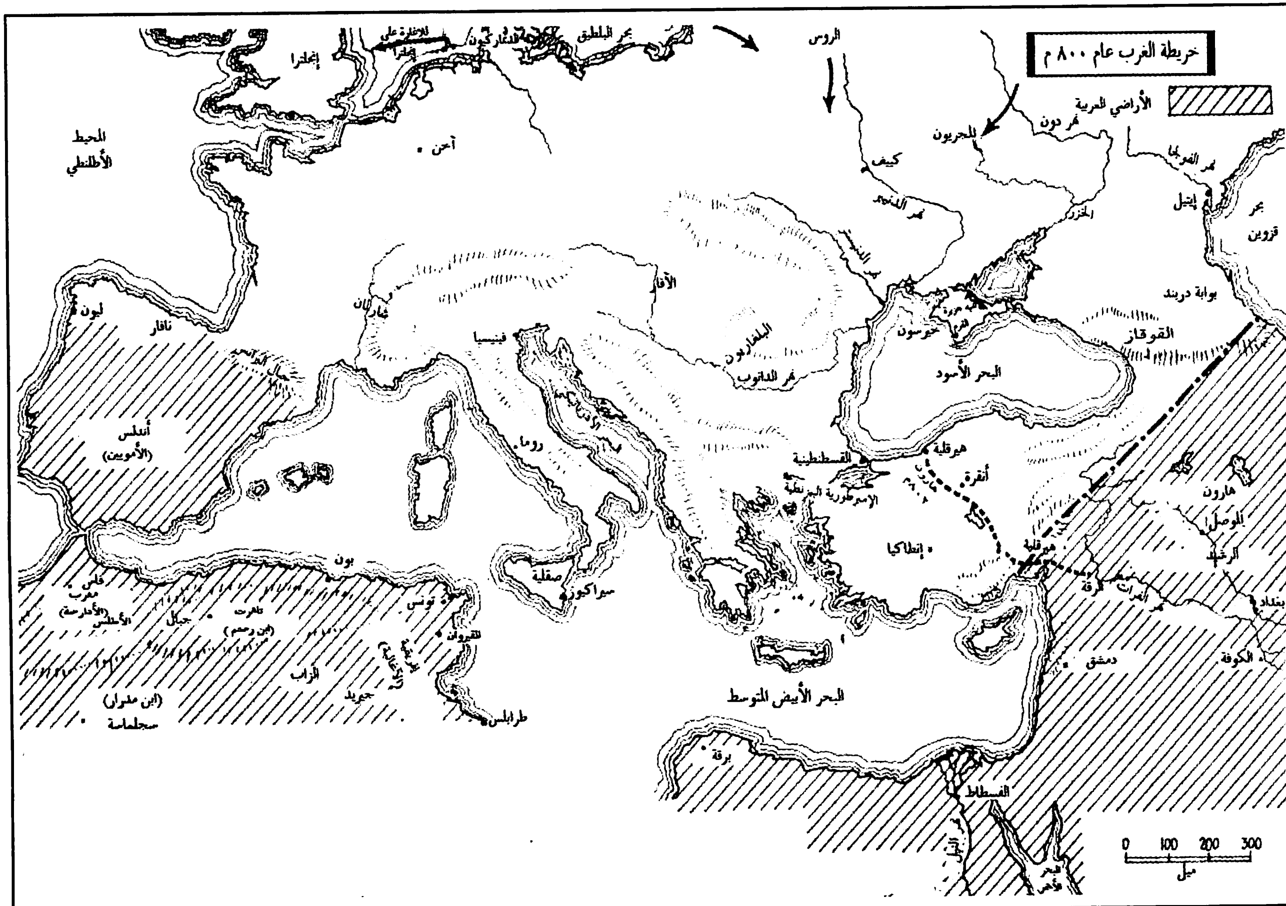
بعد الإسلام عُرف مبدأ أن الخليفة يجب أن يكون الفرد الأكثر كفاءة من قبيلة قريش ومن المجتمع الإسلامي. ولكن إذا طلب من الناس أن يبايعوا طفلًا عمره خمس سنوات فمعنى ذلك أن مبدأ الشخص الأكثر كفاءة واستحقاقًا قد تم تجاهله. وبمعنى أصح في أيام الإسلام الأولى كان المؤمنون يختارون الخليفة لكي يدبر الأمور الدنيوية للمجتمع الإسلامي، وكان ذلك مسئولية أكثر منه ميزة. وكان ترشيح هارون الرشيد لبنه الطفل كخليفة من بعده يتأثر أكثر بالطابع الدنيوي لملوك الشرق أكثر من تأثره ببساطة مدبر شئون الدولة الإسلامية الأولى. وفي خراسان تم ترشيح الأمين بعد توزيع هبات مالية على الجنود.

نذكر أن إدريس بن عبد الله من آل علي بن أبي طالب كان قد فر من مكة ووصل إلى المغرب عام ٧٨٨ م حيث أصبح رئيس دولة مستقلة عن الدولة العباسية ووضع أساس عاصمته الجديدة في فاس. وكان إرسال حملة عسكرية من بغداد إلى المغرب فوق طاقة الخليفة العباسي الذي كان اهتمامه على أية حال يتركز في الشرق بصورة متزايدة. ولكن كان السماح باستمرار دولة إسلامية مستقلة يحكمها واحد من آل علي بن أبي طالب خطرًا على الخليفة لأنها لو قويت ستغزو أفريقيا ومصر وتشجع الشيعة على القيام بثوراتهم في الجزيرة العربية وفارس. ولكن كان غزو البربر من قبل الجيش العباسي مستحيلًا، ولكن التخلص من إدريس قد يكون سياسة عملية جدًا.

بعث الخليفة هارون لذلك الغرض شاماخ مولى الخليفة المهدي الراحل إلى المغرب حيث انتحل شخصية طبيب وحظي عند إدريس. وعندما كسب ثقة ضحيته المرتقبة وصف له دواءً لتوعك الصحة وصاحبه في زياراته لتفقد أجزاء مملكته العديدة. وفي إحدى أمسيات عام ٧٩٢ م بعث إدريس إلى الطبيب وشكا له آلامًا في أسنانه فأعطاه شاماخ معجون أسنان مخلوطًا بسم مميت وطلب منه أن يستعمله في فجر اليوم التالي. ثم فر من سيده إدريس، وركب سفينة كان قد أعدها لمثل تلك الأحوال الطارئة، وأبحر طول الليل بأقصى سرعة نحو الشرق.

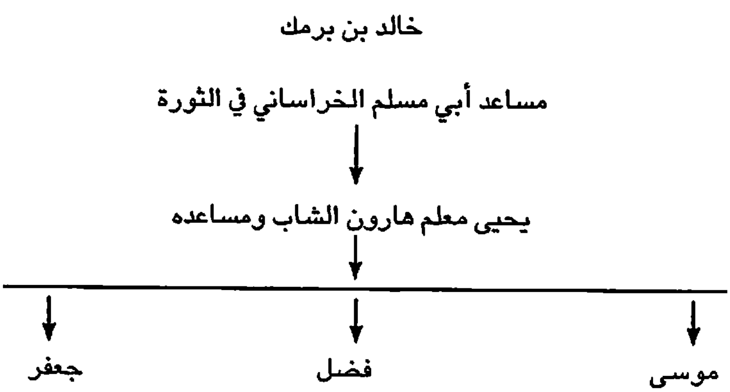
عند الفجر جرب إدريس السيئ الحظ المعجون على أسنانه، وكرر تلك العملية على فترات متقطعة على أمل أن يستريح من آلام أسنانه. وبعد عدة ساعات قليلة بدأ يشعر بتعب ومات قبل منتصف النهار. وكان موت الإمام والاختفاء المفاجئ للطبيب قد أثار الشك فخرجت كتيبة من الفرسان تطارد شاماخ، وعلى الرغم من أن الكتيبة قد قاربت أن تدركه عدوًا في الصحراء فإنه وصل سالمًا إلى القيروان. وكافأه هارون الرشيد بعد ذلك بمنحه وظيفة رئيس ديوان البريد والمخابرات في مصر.

كان إدريس قد مات ولم ينجب أولادًا ولكن كانت كينزا واحدة من جواريه من البربر حاملًا وبعد شهرين أنجبت ولدًا أسمته إدريس على اسم والده. ونشأ بعناية شديدة واهتمام


خريطة الغرب عام ٨٠٠ م
الأراضي العربية
المحيط الأطلنطي
إنجلترا
آخن
الروس
كييف
للبحرين
نهر دون
نهر الفولجا
إتيل
بحر قزوين
بوابة دربند
القوقاز
البحر الأسود
خرسون
الآفار
البلغاريون
نهر الدانوب
فينيسيا
روما
صقلية
سيراكوزه
القسطنطينية
هيرقلية
أنقرة
الإمبراطورية البيزنطية
إنطاكيا
هارون
الموصل
الرقة
بغداد
الكوفة
دمشق
الفسطاط
البحر الأبيض المتوسط
برقة
طرابلس
القيروان
تونس
بون
الزاب
جريد
تاهرت
فاس
سجلماسة
(ابن مدرار)
أندلس
(الأمويين)
ليون
نافار
0 100 200 300
ميل

من جانب رجال القبائل البسطاء الذين اعتقدوا أن البركة تأتي معه أو نقلت إليه من والده من خلال آل علي بن أبي طالب الشهيد وآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال فاطمة الزهراء. وعندما بلغ أحد عشر عامًا عرف بإدريس الثاني الأمير وارث مملكة أبيه.

حدثت ثورة في دمشق عام ٧٩٦ م وكانت نتيجتها أن الخليفة بعث جعفر بن يحيي البرمكي لاستعادة النظام وهو عمل أداه بكفاءته المعتادة. وأصبحت الأسرة البرمكية إلى أقصى حد أقوى جماعة في الحكومة. وكان يحيى بن خالد بن برمك لا يزال كبير الوزراء، بينما كان أولاده إما يحكمون الأقاليم أو كما في حالة جعفر في دمشق كان الخليفة يبعثه إلى أي جزء في الإمبراطورية تبدر منه أزمة. وأصبحت الأسرة البرمكية الآن في جيلها الثالث كأعوان للخلفاء.



يسجل الطبري وقائع عودة جعفر من مهمته إلى دمشق «لقد استقبله هارون الرشيد استقبالاً حارًا وعند دخوله الحجرة انحنى وقبل يديه ورجليه ثم وقف أمامه ثم حمد الله الذي أتاح له مرة ثانية أن يرى وجه سيده والذي أتاح بكرم منه أن يقبل يديه والذي أنعم عليه بنعمة أن يكون قريبًا من سيده مرة أخرى»، وقال: «لو طال مقامي عندك يا أمير

المـؤمنين – جعلـني الله فـداك – لـخفـت أن يذهـب عقلـي إشفـاقًا على قربك وأسفًا على فراقك». وهكذا صفحتان من الكلام المنمق بالطريقة نفسها. وعندما نذكر الأسلوب الذي اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم بخصوص تودده إلى أصحابه وكيف كان معاوية بن أبي سفيان يتحرك بين الناس بدون سلاح ويتقبل نقدهم لسياسته ندهش أن نرى هذه التغيرات غير العادية التي تحدث للمجتمع العربي الناتجة عن تأثره بطبائع الاستبداد الفارسية.

أدى هارون الرشيد الحج عام ٧٩٦ م كما كان يفعل كل سنتين أو ثلاث سنين من حكمه، وبهذه المناسبة نجد أنه سار مائتين وخمسين ميلًا عبر الصحراء من المدينة إلى مكة على قدميه لكي ينال احترامًا دينيًا كبيرًا. ويظهر لنا أن الخليفة على الأقل في هذه الفترة من حياته لم يكن يشرب المسكرات ولكنه كان يظهر تشدده الديني بجهد كبير. ويروى أنه كان يصلي في اليوم مائة ركعة بينما كانت الشعائر المفروضة على المسلمين في الصلاة سبع عشرة ركعة في اليوم. ويصوره المؤرخون وهو يبكي عندما يفكر في التبعات الثقيلة الملقاة على ظهره. وكان ينتقل خلال العام يزور الموصل ثم ينتقل إلى المدينة ومكة ثم يعبر الصحراء إلى البصرة، ويقضي أربعين يومًا في الكوفة ثم يعود إلى بغداد ثم إلى قصر جديد كان قد بناه لنفسه في الرقة على شاطئ الفرات. وكان لا يزال في أوائل الثلاثينات ويمتلئ بالطاقة والحماس. ولا شك في أن شهرته الكبيرة ترجع بصفة أساسية إلى نشاطه المستمر وإلى الزيارات الشخصية التي كان يقوم بها إلى مدن عديدة. وأعاد تنظيم الدفاع عن الحدود التي أمام الدولة البيزنطية، ووحد قيادة الحصون الحدودية وسماها العواصم. وفي عام ٧٩٨ م رشح هارون بنه الثاني المأمون لكي يلي الخلافة بعد الأمين.

في عام ٧٩٩ م ثار الخزر مرة ثانية، وقد كانوا لمدة مائة عام شوكة في جنب الإمبراطورية العربية، وكانت الثورة فيما وراء القوقاز، وأرمينيا، وأذربيجان، وكانوا يحرقون وينهبون ويسلبون الناس ممتلكاتهم. ولمدة سبعين يومًا ظلوا يخربون البلاد الإسلامية ولم يقف ضدهم أحد وساقوا أعدادًا كبيرة من المسلمين كعبيد. وعندما وصل جيش إسلامي لكي يطردهم هربوا إلى ما وراء القوقاز.

كنا قد ذكرنا قبل ذلك يزيد بن حاتم رجل أفريقيا القوي الذي حكم هذا الإقليم بيد قوية لمدة أربعة عشر عامًا. وفي عام ٧٨٧ م مات يزيد وحاول ابنه روح أن يتولى مسئوليات أبيه ولكنه كشاب لم تكن هيبته كهيبة أبيه فدبت الفوضى في الإقليم بسرعة مرة ثانية. وفي عام ٨٠٠ م عين هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب واليًا على أفريقيا. وكان أبوه يتولى منصبًا مهمًا في أفريقية في عهد المنصور وقتل في الاضطرابات التي حدثت في ذلك الزمان في الإقليم. وكان إبراهيم يعمل في ذلك الإقليم خلال فترة حكم يزيد بن حاتم وكان يتولى وظائف مهمة. وعندما نشبت قلاقل جديدة عند وفاة يزيد اتصل إبراهيم بالسلطات في بغداد عارضًا أن يتوسط لوأد الفتن في ذلك الإقليم. وقبل عرضه وعينه هارون الرشيد واليًا على أفريقيا.

كان إبراهيم بن الأغلب قد عقد اتفاقًا مع الخليفة يتعهد فيه بإحلال الهدوء في الإقليم دون أن يطلب أي تدخل عسكري من جانب قوات الخليفة بشرط أن يطلق الخليفة يده في أن يفعل ما يشاء. وسر هارون الرشيد لكونه أراد أن يتحمل المسئولية المباشرة عن شمال أفريقيا وهي بلاد لم يكن يهتم بها بصورة كبيرة وكانت تشكل نزيفًا مستمرًا لبيت مال الإمبراطورية.

حكمت أسرة الأغالبة الحاكمة أفريقيا لمدة مائة عام، وكانت تتمتع باستقلال كامل في الواقع، وكانت هذه الأسرة حريصة على الاعتراف بسيادة الخليفة السني هارون الرشيد في بغداد. وكان هذا الاتفاق البسيط مرضيًا لكل الأطراف. وتمتع العباسيون بالهيبة الناشئة من كون أفريقيا تدخل في قائمة أقاليم الإمبراطورية بدون التعرض لأي قلق أو دفع أي ثمن واعتبر الأغالبة أنفسهم دولة مستقلة فعليًا، ولكن كان اعترافهم بالولاء إلى الخلفاء العباسيين يعطي لهم الهيبة وأحيانًا هبات من الخليفة من وقت لآخر أو إعانات مالية من بيت مال الإمبراطورية.

كان قبول هارون الرشيد لتلك التسوية المؤقتة للأمور يبين أكثر تغير الروح في العاصمة؛ فكم مر من وقت من العصر الذي ركب فيه عقبة بن نافع فرسه متجهًا إلى

المحيط الأطلنطي معلنًا استعداده لمواصلة السير إلى أطراف الأرض مقاتلًا تلك الأمم التي ترفض الاعتراف بوحدانية الله، أو من اليوم الذي راودت فيه موسى بن نصير فكرة فتح فرنسا وإيطاليا والعودة إلى دمشق عن طريق بيزنطة. وأصبحت الإمبراطورية العربية أصولية من الناحية الدينية ومزدهرة ثقافيًا وترفيهيًا. ولم يعد حكامها أميين أو بسطاء متحمسين. ولقد حولت الموسيقى والتاريخ والفلسفة والأدب والترف الحسي الفاتحين البدائيين إلى أرستقراط مثقفين وجهابذة.

كانت حدود دولة الأغالبة من الصعب تحديدها لأن العرب كانوا يحسبون سيادتهم على الناس وليس على الأرض. وعمومًا يبدو أنهم كانوا يحكمون الشعوب الساحلية الذين كانوا مسلمين سنيين وكانوا خليطًا من أجناس متعددة بما فى ذلك أحفاد العرب الفاتحين الأوائل. وفي الشرق بايعت مدينة طرابلس الليبية الأغالبة على الرغم من أن قبائل البربر المجاورة كانت قبائل مستقلة وكانت من الخوارج. وفي الجنوب كانت منطقة الزاب وجيريد تحدد الحدود التقريبية بين الحكومة والقبائل بينما على شاطئ البحر الأبيض المتوسط لن تمتد في الواقع سلطة الأغالبة إلى أبعد من بون، وربما إلى ما بين خمسين ومائة ميل من الجزائر الحديثة. وكان بربر جبال الأطلس يتمتعون بالاستقلال وكانوا من الخوارج في الغالب، ومن هنا كانوا يعادون الأغالبة السنيين بكثرة كما كانت الأراضي الإسكوتلندية ذات مرة يعقوبية وكاثوليكية بينما كانت البلاد المنخفضة تتبع الهانوفرية وطائفة الكنيسة الحرة.

في بداية القرن التاسع توسع المسلمون في النشاط الديني والدعوة إلى الله في أفريقية وفي أي مكان آخر. وأخذ الحماس للدعوة شكل الزهد من جهة والمناقشات في علم الكلام من جهة أخرى. ومهما كانت الخلافات السياسية بين الدول الإسلامية المختلفة كان الطلاب من قرطبة والقيروان يذهبون أفواجًا إلى مكة والمدينة وبغداد والبصرة لكي يجلسوا مع أشهر علماء النحو واللغة وعلم الكلام لهذا العصر والذين كان لهم نشاط فكرى كبير. وكانت المسائل العويصة لعلم الكلام الموضوع الرئيسي للحديث بين شباب القيروان. وبقي

خوارج جبال الأطلس حقيقةً خارج التأثير المباشر لعلماء الدين من السنة، ولكننا رأينا كيف أن الحماس الديني والزهد كان في أوج شدته بينهم.

كانت واحدة من أكثر المؤسسات الدينية شهرة والتي أقيمت بعد وقت قصير في شمال أفريقيا هي الرباطات. ويمكن لنا أن نصفها بأنها مراكز عبادة إسلامية يلجأ إليها الأتقياء، ويتحررون من الإغراءات الدنيوية لكي يركزوا في الصلاة والتأمل. ولقد أشرنا قبل ذلك إلى الأسلوب الذي تحول فيه البحر الأبيض المتوسط من ممر روماني إلى جبهة معارك بين الإسلام والممالك المسيحية. ولم تكن الرباطات مراكز للعبادة والصوم فقط ولكنها كانت أيضًا حصونًا يحميها محاربون مسلمون مخلصون مثل التنظيمات العسكرية للأديرة المسيحية. وكما قال لي أحد العلماء من تونس: «إننا أكثر إخلاصًا لعقيدتنا من غالب الشعوب العربية وهم محاطون بمسلمين آخرين، ولكننا لمدة ألف سنة أو أكثر كنا ندافع عن الخط الأمامي للإسلام ضد الممالك المسيحية».

على الرغم من هذه الحالة من الجهاد في سبيل الله التي ليس لها نهاية كان لا يزال يوجد في عهد الأغالبة مسيحيون كثيرون في أفريقية بقايا المجتمعات البيزنطية والرومانية. ولم يعانوا من الاضطهاد على الرغم من أن المكاسب في الهيبة الاجتماعية التي يحققها لهم اعتناق الإسلام تقدم لهم إغراءات كبيرة. ومن الواضح أنه لم يبق أي مسيحيين أصليين في أفريقية، على الرغم من أن الكثير من المجتمعات المسيحية استمرت على المسيحية حتى اليوم في فلسطين والأردن ولبنان وسوريا والعراق. وفي مدن شمال أفريقيا شكل اليهود مجتمعًا ثريًا ومثقفًا.

في عام ٨٠٢ م أمر هارون الرشيد بأخذ البيعة لابنه الثالث وأعطاه لقب المؤتمن. وتولى الأمين الابن الأكبر ولاية سوريا والعراق، وتولى المأمون ابنه الثاني ولاية فارس أما الابن الثالث المؤتمن فقد تولى إقليم الجزيرة والحدود البيزنطية. وكانت هذه الترشيحات من قبل الخليفة اسمية فقط لأن الأبناء الثلاثة بقوا في بغداد. ويقع اللوم على هارون الرشيد في أنه لم يسمح لأولاده بأن يلعبوا دورًا بارزًا في الشئون العامة، وكان نتيجة ذلك أنه عندما مات كان لا يزال ينقصهم الخبرة ووقعوا تحت تأثير وزرائهم.

كان ترشيح أبنائه الثلاثة لكي يخلفوه على عرش الخلافة واحدًا بعد الآخر ولو بطريقة نظرية وتقسيم الإمبراطورية بينهم كولاة، يبدو للمراقبين في ذلك الوقت أنه يعرض الدولة إلى خطر الحرب الأهلية. وهذا الخطر كان يزداد اتساعًا بزيادة ميل هارون الرشيد إلى النظر إلى الإمبراطورية كواحدة من ممتلكات أسرته الحاكمة، وبدلًا من أن يحكم الخليفة مجتمع المسلمين كأول مواطن في الدولة يحدث لسوء الحظ خصام كبير ومواجهة بين بني الخليفة الكبار الأمين والمأمون. وكان هارون الرشيد قلقًا على مستقبل الإمبراطورية بعد وفاته وكان يعقد مناقشات متكررة ومستمرة حول الموضوع مع مؤتمني أسراره.

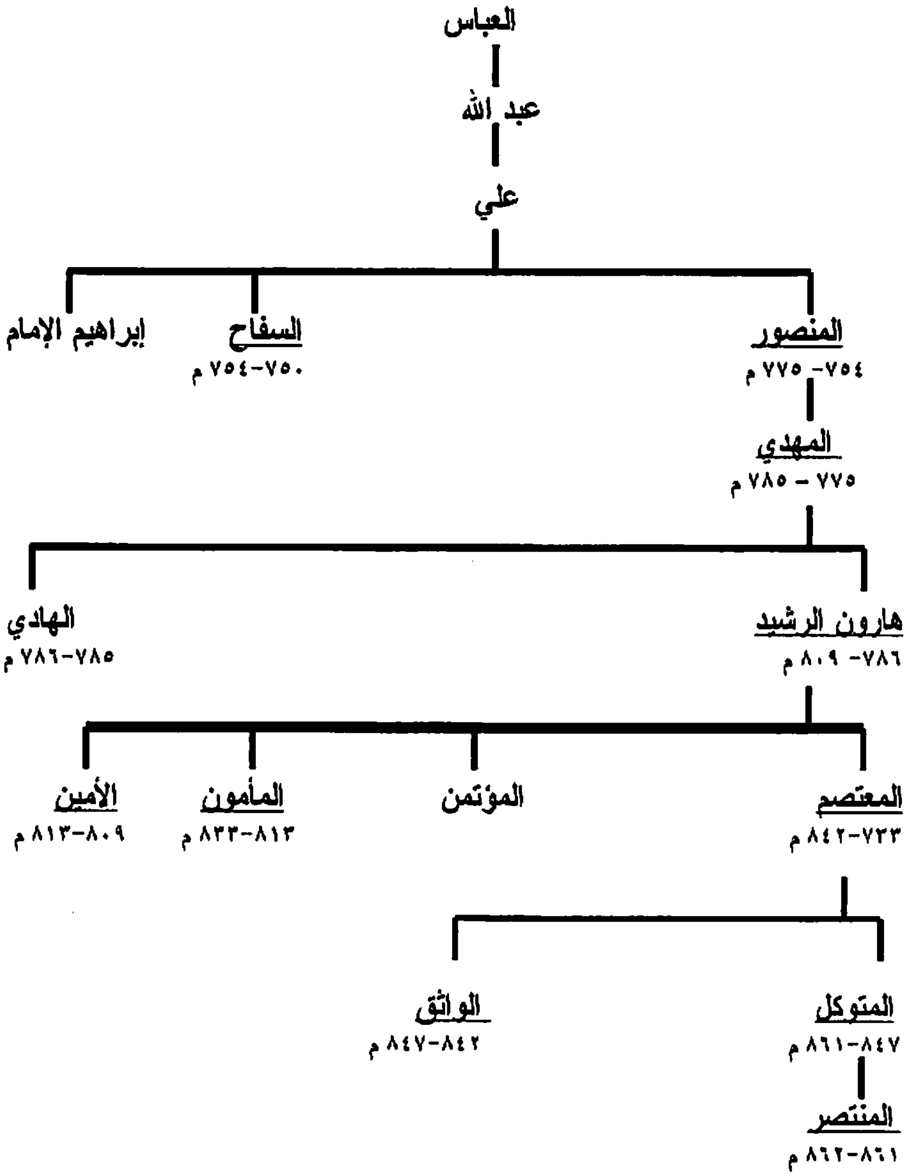
في عام ٨٠٢ م ذهب إلى مكة لكي يحج، وكان يرافقه ابناه الأمين والمأمون. وفي حرم الكعبة حدثت وعود وتعهدات طويلة ومعقدة بينهما. ولأن الأمين كان سيخلف أباه على عرش الخلافة فإنه كان سيولي المأمون ولاية فارس كلها شرق همدان ولن يتدخل بأي طريقة في شئون ولايته. وبالطريقة نفسها فإن المأمون والأمين لن يتدخلا في ولاية المؤتمن لإقليم الجزيرة. وفي الحقيقة كانت هذه التسوية فعليًا تقسم الإمبراطورية إلى ثلاث إمارات مستقلة. وتعهد الجميع بصب اللعنات على رؤوس من ينتهك هذا الاتفاق، بينما دُعي رجال الحاشية البارزون والقادة العسكريون والحجاب لكي يشهدوا على هذه الصفقات وإذاعة تفاصيل الاتفاق على كل الحجاج. وعلقت نسخة من وثيقة الاتفاق على الكعبة نفسها، ولكنها سقطت بعد ذلك؛ لذلك روى المؤرخون بسخرية أن هذا الاتفاق سقط بسرعة.

كان هارون الرشيد قد حكم لمدة سبعة عشر عامًا كان فيها يحيى البرمكي وأولاده هم أقرب معاونيه ومستشاريه.

وولد جعفر بن يحيى البرمكي بعد يوم أو يومين من هارون نفسه وكانت الأسرتان أسرة هارون الرشيد وأسرة يحيى البرمكي متحابتين ومتوافقتين لدرجة أن الخيزران أم هارون الرشيد كانت قد أرضعت جعفرًا بينما أرضعت زوجة يحيى البرمكي هارون الرشيد فأصبح جعفر بن يحيى البرمكي شقيق هارون في الرضاعة.

شجرة نسب الخلفاء العباسيين

***



وخلال العام العصيب من خلافة موسى الهادي وخاصة عندما صمم على استخلاف ابنه في الخلافة وخلع هارون الرشيد منها أيدت أسرة البرامكة هارون الرشيد وعانت من الحبس في السجون بسببه.

عندما تولى هارون الرشيد الخلافة بعد ذلك لم يتباطأ في الإعراب عن امتنانه ليحيى البرمكي وتسليم حكومة الإمبراطورية له ولأولاده الفضل وجعفر وموسى. وبقدر ما نتصور فقد أظهرت الأسرة ولاءها وإخلاصها للخليفة، ولكنها تباعًا أصبحت ثرية للغاية. ولم تكن هناك حسابات دقيقة تجرى كما هو الوضع الآن وأصبح الذين يتولون مراقبة الحسابات كما هو متوقع أغنياء كما هو الحال بالنسبة للبرامكة. وكبرت ثروة هذه الأسرة، وأصبحت قصورها فخمة مثل قصور الخليفة، وكثر عدد الخدم والموالي لديها. ولأن سلطة هذه الأسرة أصبحت غير محدودة كما كان الحال لديها لعدة أعوام فقد كانوا يستطيعون أن يعينوا ما يشاءون في الوظائف الحكومية وكان كرمهم وحسن ضيافتهم يضرب بهما الأمثال. وتحول ذلك إلى مثل يقال على ألسنة العامة من الناس: «كريم كجعفر البرمكي».

من المستحيل بلا شك أن تحكم إمبراطورية بدون أن يكون لك أعداء فلم يشذ البرامكة عن ذلك. وكان طبيعيًا أن يغير عدد كبير من أفراد الحاشية من هذه الأسرة التي من داخل الأسرة الحاكمة فساعدوا الشاكين منها أو ألقوا كلمة هنا وهناك لكي يسمموا عقل الخليفة ضد أصدقائه من هذه الأسرة أو لكي يثيروا غيرته ضدها. ولمدة سبعة عشر عامًا كانت جهود أعداء هذه الأسرة لإثارة حفيظة الخليفة ضدها غير مجدية لأن البرامكة كانوا ينتمون إلى أسرة فارسية نبيلة. وعلى الرغم من أن المؤرخين يشيرون إلى خالد بابن برمك فإنه يبدو أن برمك هذا هو اللقب الذي كان يتخذه الكاهن الأكبر المجوسي لمعبد النار في بلخ. وكان وجود الفرس في الوظائف المهمة في الدولة يساعد في اندماج الأجناس العربية والفارسية الذي كان يحدث قبل ذلك. ومع ذلك فإن عددًا من العرب في دوائر القصر كانوا يستاءون من تلك السلطة الممنوحة للفرس. وكان أحد أعداء هذه الأسرة الرئيسيين الفضل بن ربيع

حاجب القصر. وكان البرامكة من كبار الأدباء. وهذه الأبيات(*) قالها يحيى البرمكي إلى ابنه الفضل:

أنصب نهارًا في طلاب العلا ..... وأصبر على فقد لقاء الحبيب

حتى إذا الليل بدا مقبلاً ..... واستترت فيه وجوه العيوب

فبادر الليل بما تشتهي ..... فإنما الليل نهار الأريب

كم من فتى تحسبه ناسكًا ..... يستقبل الليل بأمر عجيب

ألقى عليه الليل أستاره ..... فبات في لهو وعيش خصيب

ولذة الأحمق مكشوفة ..... يسعى بها كل عدو رقيب

وهذه الأبيات تعبر بلا شك عن مشاعر كان يشارك فيها الخليفة وزراءه.

كانت حفلات هارون الرشيد الليلية تتميز بقدر كبير من روح الفكاهة والدعابة والشعر والموسيقى والمرح. وكان جعفر البرمكي من أكثر أصحاب هارون الرشيد مرحًا وكان يشاركه في أمسياته الصاخبة ليلًا. وكان مغرمًا بشدة بأخت هارون الرشيد العباسة التي لم تكن متزوجة وكان يطلب صحبتها. وطبقًا لتقاليد مجتمع هذه الأيام لا يمكن للعباسة أن تظهر متكشفة في وجود جعفر؛ لذلك كان هارون مضطرًا إلى أن يجالس إما العباسة أو جعفر بمفردهما.

للتغلب على هذه المشكلة اقترح هارون الرشيد في أحد الأيام على جعفر أن يتزوج العباسة، وهو ما يمكنها من أن تظهر متكشفة دون أي فضائح. ولكنه اشترط عليه أن يكون هذا الزواج مظهرًا يسمح لهما بأن يحضرا أمسياته الغنائية. ولكن لم يكن جعفر على علاقة

(*) من كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي.

حميمة مع أخت الخليفة فأقسم أن يسير على هذا الشرط ومضى يعقد مراسم هذا الزواج وبعد ذلك تمكن هارون وجعفر والعباسة من الاستمتاع بتلك الأمسيات معًا.

تبعًا لما قاله المسعودي فإن العباسة هي التي أقنعت جعفرًا بأن يتحلل من قسمه للخليفة وقد يكون هذا قد حدث، وعلمت العباسة في أحد الأيام أنها حامل من جعفر. وكان الرشيد قد اشترط عليه ألا يلمسها فأصابها الخوف، وطلبت من الخليفة أن يأذن لها بأن تؤدي فريضة الحج إلى مكة وأنجبت هناك ولدًا وسلمته بصورة سرية إلى مرضعة في مكة وعادت إلى بغداد وسار كل شيء كما كان من قبل حتى غضبت في أحد الأيام من إحدى وصيفاتها فكشفت الجارية الغاضبة كل هذه الفضائح لهارون الرشيد. وعندما ذهب للحج الذي علق فيه الاتفاق بين أبنائه على أستار الكعبة أمر بالبحث عن بن العباسة الصغير فلما عرف الحقيقة استشاط غضبًا وعاد إلى بغداد مصممًا على الانتقام.

عند وصول هارون الرشيد إلى العاصمة بعث مسرورًا، وهو أحد الخدم الموثوق بهم عنده، ومعه كتيبة من الجنود وأمره بالقبض على جعفر صديقه وخادمه السابق. وكان جعفر السيئ الحظ يشرب مع عدد من أصدقائه عندما ناداه مسرور وأخذه معه إلى القصر حيث قيده بالسلاسل وأبلغ هارون بذلك فقال الخليفة له بجفاء «ائتني برأسه». فعاد مسرور إلى البرمكي البائس وأخبره بأوامر الخليفة فالتمس منه جعفر الوزير السابق الذي كانت له كل السلطات أن يتمهل في ذلك «قد يغير رأيه أو ربما كان مخمورًا ويندم على أوامره عندما يفيق». فعاد مسرور إلى سيده الذي كرر عليه الأوامر نفسها. وبعد دقائق قليلة عاد مسرور برأس صاحب الخليفة الرئيسي. وكان جعفر في سن السابعة والثلاثين عندما مات.

قبل أن يستريح الخليفة هارون الرشيد أمر بالقبض على يحيى بن خالد والد جعفر والفضل ابنه وكل أفراد العائلة البرمكية وخدمهم، وعبيدهم، ومواليهم، وكتابهم، وعملائهم ومصادرة كل ممتلكاتهم. وفي اليوم التالي لإعدام جعفر علق رأسه في وسط جسر على نهر الفرات، وشقت جثته إلى نصفين عندئذ ربط نصفها على عمود بأعلى الجسر وربط النصف الآخر بأسفل الجسر. ولم يسجل لنا المؤرخون مصير العباسة أو مشاعرها. ويظهر أنه

حتى قبل هذه الواقعة كان هارون الرشيد قد ضج من البرامكة. وكان يحيي والد جعفر يملك مفاتيح حرم الخليفة وكان يضع النساء في نظام صارم ويغلق أبواب الحرم بالليل فشكت النساء إلى هارون الرشيد أكثر من مرة. ويروى أيضًا أن أموال الخليفة كان يتحكم فيها البرامكة كليةً لدرجة أنه كان ينقصه بعض الأموال أحيانًا وكان يضطر إلى طلب بعض الأموال من جعفر أو يحيي أبيه.

حكم يحيى بن خالد البرمكي وأبناؤه الإمبراطورية لمدة سبع عشرة سنة فعليًا اتسعت فيها ثروتهم وسلطتهم وكانوا يستخفون بكل شيء. وجعفر كمثال أنفق عشرين مليون درهم من بيت مال المسلمين لكي يشيد لنفسه قصرًا. وكان أعداؤهم يتهمونهم بالميل إلى التشيع وهي تهمة كان يؤيدها إطلاق جعفر سراح سائر آل علي بن أبي طالب، يحيى بن عبد الله، من السجن بدون إخبار الخليفة هارون الرشيد بذلك.

سواء أكانت هناك فضيحة تتعلق بأخت الخليفة أم لا، لا شك أن هارون كان قد ضج بصورة كبيرة من البرامكة لمدة أربع أو خمس سنوات قبل نهاية هذه الأسرة. وكانت هذه الأسرة قد أقامت نظامًا كبيرًا للمحسوبية ورثاها كثير من الناس ممن استفادوا من كرمها وحتى أبو نواس شاعر القصر الفاسق رثاها: (*)

ما رمى الدهر آل برمك لما..... أن رمى ملكهم بأمر بديع

إن دهرًا لم يرع حقًا ليحيى...... غير راع حقًا لآل الربيع

ذكرنا قبل ذلك أن هارون الرشيد أثناء عهد أبيه المهدي كان قد سار إلى البسفور بجيش كبير وأملى على الإمبراطورة إيرين شروط عقد السلام ودفع الجزية له وكانت في ذلك واصية على ابنها الصغير قسطنطين السادس.

(*) من كتاب البداية والنهاية.

كانت الإمبراطورية البيزنطية في ذلك العصر تمزقها الخلافات الدينية. وكانت القضية المثارة في هذا السبيل هو استعمال الأيقونات والصور. وأصر محرمو الأيقونات والصور على حرق الصور وتدميرها، بينما أصر مقتنو الأيقونات الإصرار نفسه على الاحتفاظ بها وكما هو الوضع دائمًا في بيزنطة يؤدي الانشقاق الديني إلى خصومات سياسية.

أما الإمبراطور الكبير قسطنطين الخامس الذي يلقب بدانج والذي حكم من ٧٤١ - ٧٧٥ م فكان من أنصار حرق الصور بصورة عنيفة. وحكم ابنه ليو الرابع لمدة خمس سنين فقط من ٧٧٥ - ٧٨٠ م ثم مات تاركًا أرملته إيرين وولده الصغير قسطنطين السادس. وكانت إيرين مغرمة بالأيقونات، ولذلك أعيد وضع الصور التي أزيلت أثناء حكم قسطنطين الخامس في عهد إيرين الواصية على العرش. وفي عهدها أيضًا من ٧٨٠ - ٧٨٥ م وافقت طواعية على دفع الجزية للخليفة هارون الرشيد. وفي عام ٧٨٥ م بلغ قسطنطين السادس سن الرشد وتولى الحكم ورفض اتفاق دفع الجزية الذي وقعته إيرين مع هارون الرشيد. وكان ذلك في آخر سنة من حكم المهدي ثم تلى ذلك حكم موسى الهادي الذي كان مشغولًا في ذلك الوقت بمحاولات إحلال ابنه مكان هارون الرشيد كوارث له على عرش الخلافة. وحدثت مناوشات متقطعة على الحدود.

في عام ٧٩٧ م سئمت الإمبراطورة إيرين من حكم ابنها فدبرت لانقلاب تم فيه إقصاء ابنها عن العرش وإعمائه. وتولت أمه القاسية الحكم وأخذت لقب أغسطسة. وبعد توليها جددت الاتفاق السابق مع هارون الرشيد، وأصبحت عبادة الصور عقيدة أرثوذكسية مرة ثانية.

كان عمل الإمبراطورة إيرين عملًا فذًا بطرق عديدة، فالنساء الأخريات اللاتي حكمن الإمبراطورية كن إما يحكمن باسم إمبراطور أو كواصيات على إمبراطور ولكن إيرين كانت أول امرأة تحكم من ٧٩٧ - ٨٠٢ م كإمبراطورة. وكان أمرها بإعماء ابنها لكي تؤمن لنفسها تولي السلطة هو أبلغ تعبير عن شخصيتها. وكان عدم قدرتها على قيادة جيوشها بصفة شخصية يمثل أكبر عائق تعاني منه امرأة حاكمة. وضمنت إيرين إحلال السلام في

إمبراطوريتها على حساب دفع الجزية ليس فقط إلى الخليفة على حدود بلادها الشرقية ولكن أيضًا إلى البلغار على الحدود الشمالية.

في عام ٨٠٢ م وبعد توليها الحكم بخمس سنين قامت ثورة أخرى بخلعها وتولى الحكم واحد من أفراد الطبقة الأرستقراطية وأخذ لقب نيسيفورس الأول. ويظهر أن الخضوع للخليفة هارون الرشيد كان واحدًا من الاتهامات التي ألقيت ضدها. وبناءً على ذلك كان لـزامًا على الإمبـراطـور الجديد أن يسير عكس سياستها. وتبعًا لذلك بعث نيسيفورس عام ٨٠٤ م بسفير إلى الخليفة يحمل رسالة تحوي الشروط الآتية:

«من نيسيفورس ملك الروم إلى هارون ملك العرب. أما بعد فإن الملكة التي قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل ضعف أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي هذا فرُدّ إليّ ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك به وإلا فالسيف بيننا وبينك». فلما قرأ الخليفة رسالة نيسيفورس كتب على ظهرها بخط يده «بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نيسيفورس كلب الروم قد قرأت كتابك يا بن الكافرة. والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام».

صدرت الأوامر في اليوم نفسه بتعبئة الجيش وقاده الخليفة بنفسه. ويروى أنه كان يتكون من مائة وخمسة وثلاثين ألف متطوع قوي أو من الملحقين بالمعسكرات الذين لم يكونوا متأهبين للقتال. وسار الجيش حتى عبر الحدود وأضرم النار والسيف عبر آسيا الصغرى حتى وصل إلى هرقليا على البحر الأسود على بعد مائة وخمسين ميلًا فقط من بيزنطة؛ ولأنه لم يكن مستعدًا تمامًا لهذا الرد العنيف على تحديه المتبجح فإن نيسيفورس الضعيف التمس الموادعة على جزية يؤديها له كل سنة. وعاد هارون الرشيد من الحملة لكي يستمتع بفترة راحة في قصره بالرقة والذي أصبح الآن مقره الأساسي.

كان لانسحاب العرب وقدوم الشتاء حيث يغطي الثلج جبال طوروس أثره في أن ينقض نيسيفورس الجرىء الاتفاق الجديد بعد أسابيع قليلة من التوقيع عليه، ولكنه وللمرة

الثانية قلل من قيمة عدوه فأمر هارون مرة ثانية بتعبئة جيشه وعبر جبال طوروس مرة ثانية على الرغم من الثلج والجليد وتقدم مرة ثانية عبر آسيا الصغرى.

هزم هارون الرشيد الجيش البيزنطي كليةً واستباح بلادهم كلها من البحر الأسود إلى البحر المتوسط بالسيف والنار فغنم وأسر واستعبد عبيدًا. وكان نيسيفورس المرتعش مرة أخرى مضطرًا إلى التماس السلام. وفي الاتفاق التالي وضع شرطًا إضافيًا من شروط الاستسلام وهو أن الأموال التي سيدفعها جزية لهارون الرشيد يجب أن تكون مختومة بأسماء هارون وأولاده الثلاثة وأيضًا إعادة كل الأسرى المسلمين في يد البيزنطيين إلى بلادهم. وبينما كانت تجري هذه العمليات العسكرية على البر أنزلت حملة عسكرية بحرية جيشًا آخر في قبرص. وغنم هذا الجيش ستة عشر ألف أسير مسيحي وبيعوا بعد ذلك كعبيد في أسواق سوريا.

بالنظر إلى أن عدم قدرة إيرين على قيادة جيوشها كان السبب الأساسي في سقوطها فإن سوء الحظ هو الذي جعل نيسيفورس على عكس الذين اغتصبوا عرش القياصرة من المدنيين ولم يكن جنديًا. وكان يعمل سابقًا كموظف مدني ووزير للمالية. وخلال التسع سنوات التي حكم فيها كان يمارس إشرافًا كاملًا على دواوين الإدارة. وكان يميل إلى الغدر والخداع.

كان نقص المهارة في إدارة الحكم هو الذي أدى إلى سقوطه بعد ذلك. وبعد تجرعه لهزيمتين مذلتين على يد هارون الرشيد دخل في مناوشات ضد البلغار الذين كانت تدفع لهم إيرين الجزية. وبعد عدد من الهزائم والمطاردات المتبادلة خرج في مايو عام ٨١١ م ومعه جيش كبير واستولى على عاصمة البلغار في باليسكا. ولكن عند عودته في مارس من العام نفسه تعرض جيشه لكمين في ممر جبلي. وفي ٢٦ يوليو عام ٨١١ م أبيد الجيش البيزنطي، وقتل نيسيفورس. واستخدمت جمجمته بعد حشوها بالفضة كوعاء يشرب منه ملك البلغار.

على الرغم من أن هارون الرشيد كان قد حقق هذا التفوق العسكري الساحق على البيزنطيين فلم يحاول أن يفتح القسطنطينية لكي يضم آسيا الصغرى أو يتخذ أي إجراء لكي يضمن الاستمرار الكبير للتفوق العربي. ونتيجة لذلك وبعد ستين عامًا استطاع البيزنطيون أخذ زمام المبادرة ومواصلة انتقامهم.

طبقًا لسجلات الفرنجة تبادل هارون الرشيد السفارات مع الإمبراطور شارلمان الذي تلقى هدايا قيمة من ملك فارس هارون بما فيها ساعة مائية وفيل. ولا يذكر المؤرخون العرب تلك الواقعة.

كان منظر الجيش العباسي وهو يسير في وقت الحرب منظرًا مؤثرًا؛ فكان الحرس المتقدم يتكون من كتيبة فرسان خفيفة ترتدي دروعًا مرنة وخوذًا من الصلب ورماحًا في أيديها، وكان الرمح العربي مرنًا وطوله أكثر من عشرين قدمًا ومزخرفًا بريش النعام. وكان الجزء الرئيسي من الجيش يتكون من المشاة المسلحين بالرماح والسيوف والرماة بأقواسهم الطويلة، وفي وسط الجيش تسير الجمال المحملة بالمؤن والخيام والأسلحة والمعدات. وتسير العربات فى شكل من أشكال المحفات التي تحمل الجرحى والمصابين. وكانت تحمل على الجمال معدات الحصار التي تتكون من المجانيق والقاذفات والمعدات الهندسية الأخرى والبغال والجياد.

في وسط الجنود كان يركب أمير المؤمنين على فرس مرصع بفرش من اللؤلؤ والذهب، ويحيط به أهل بيته وضباط الجيش الكبار. ويزيد من روعة هذا المنظر الزي اللامع للحرس الملكي وهو يبرق بأضواء ساطعة ويطرز بتطريز ذهبي. وفوق الجيش كله تتحرك غابة من الرايات والأعلام المطرزة بكثافة بخيوط من الذهب الرفيع. وخلف حاشية الخليفة يتحرك المخصيون وصف من المحفات المغطاة بستائر يسافر عليها عدد من السيدات المختارات من أهل بيت الخليفة.

عندما يصل الجيش إلى المكان المختار للمعسكر الليلي يقوم الحرس الأمامي بسرعة بحفر الخنادق وتحصين المنطقة. وفي وقت قصير يتم إفراغ الخيام وبعد ذلك بدقائق

قصيرة تظهر مدينة خيام بأكملها بشوارعها وأسواقها وميادينها. ويتم إيقاد النار في كل معسكر وتوضع عليها قدور كبيرة للغليان. وبعد تناول وجبة بسيطة يتجمع مجموعات من الناس حول كل نار يقضون الليل كله يحكون الروايات وينشدون الأغاني أو أبيات الشعر يصاحبهم العود أو الربابة (الكمان الشرقية). وفقط بعد منتصف الليل يخيم الهدوء والسكينة على مدينة الخيام الكبيرة حتى تعلن الطرقات الصاخبة للطبلات بداية يوم آخر من القتال.

يعزى السخط الشعبي ضد الأمويين الذي كانت نتيجته وصول العباسيين إلى السلطة بصورة كبيرة إلى الضرائب الباهظة. وكانت الأسرة الحاكمة الأموية الجديدة تتبع أساليب فرض الضرائب الباهظة نفسها. ولم تكن المبالغ المالية التي تحصلها الحكومة هي التي تسبب الغضب ولكن الطرق الشرهة والمستبدة لجامعي الضرائب الذين لم يترددوا في استعمال الجلد والتعذيب لتحصيل المزيد من الأموال من الفلاحين. وفي مصر على وجه الخصوص كان ظلم جامعي الضرائب يفوق كل الحدود على الرغم من الأوامر التي كان يصدرها العديد من الخلفاء من وقت لآخر والتي كانت تمنع استعمال العنف أو التعذيب من جانب جامعي الضرائب.

يعتبر هارون الرشيد معروفًا بصفة أساسية إلى القراء الإنجليز من خلال صفحات ألف ليلة وليلة حيث يمثل شخصية خليفة. وهذا الانطباع لم يكن عادلًا بالنسبة إلى رجل عظيم ونشيط بصورة لافتة للأنظار كهذا الرجل. وفي الواقع فإن هذا الرجل توقف عن الإقامة في بغداد في أيام حكمه الأخيرة ولم يزر المدينة إلا نادرًا حتى ولو ليقضي فيها ليلة.

أصبح مستقر هارون الرشيد الأساسي الآن في الرقة على شاطئ الفرات وهي على منتصف المسافة بين العراق وسوريا. وفي عام ٨٠٤ م التمس سكان بغداد من الخليفة أن يقيم في عاصمته. وفي رده على ذلك أعرب هارون عن حبه الشديد لمدينة آبائه، ولكنه اعتذر عن ذلك على أساس الحرب ضد البيزنطيين وأن الرقة قريبة من حدودهم. وإذا لم تكن لهذه الاعتبارات كما قال فإنه لم يكن ليترك مدينة بغداد المحبوبة إليه. وربما يكون ممكنًا أنه

اكتشف بالتجربة أن بغداد متأثرة جدًا بالنفوذ الفارسي وبعيدة جدًا عن البحر الأبيض المتوسط والأقاليم الغربية. وأن الرقة قد تكون عاصمة مركزية للإمبراطورية عن بغداد ولكنها لسوء الحظ تقع في بلدة شبه صحراوية وهو ما لا يجعلها تحظى بتأييد لكونها مدينة كبيرة. وفي عام ٨٠٧ م حدثت بعض الاضطرابات في خراسان. وكان والي الإقليم في ذلك الوقت علي بن عيسى بن ماهان وكان مثل البرامكة من أحفاد أحد الداعين لبني العباس في أيام أبي مسلم الخراساني. وهذا الوالي كان مثل البرامكة قد حصل على ثروة كبيرة بسبب حظوته لدى الخليفة ولكنه حصل عليها بالظلم والابتزاز. وبعد عشرة أعوام من ولايته في خراسان كان كما يروى قد جمع ثروة تقدر بثمانين مليون درهم. ولأن طغيان هذا الوالي كان معروفًا فإن تلك الحقيقة تلقي بظلالها على إهمال الخليفة لذلك الأمر. وبعد ذلك نشبت ثورة في منطقة عبر الأوكسيانة وبدأت تلقى تأييدًا لدرجة أن هارون الرشيد قرر أن يزورها بنفسه.

قدم هارون الرشيد من الرقة ومر عبر بغداد في فبراير عام ٨٠٨ م، وانتقل إلى شمال فارس. وروي أنه كان يعاني قبل ذلك من وعكة داخلية وكان يرتدي حزامًا من الحرير حول معدته لكي يخفف الألم. وكان مدركًا أن كل ولد من أولاده الثلاثة له جواسيس في حاشيته يراقب صحته، ويعد عليه أنفاسه، وكان واضحًا أن هؤلاء الأبناء كانوا ينتظرون وفاته لكي يشتركوا في حرب بين الأشقاء تضمن لكل واحد منهم تولي الخلافة. وعلى الرغم من هيبة الخليفة الكبيرة ومجده فقد كان حزينًا وقلقًا بخصوص إمكانية نشوب حرب أهلية بعد وفاته.

سافر هارون الرشيد عبر فارس ووصل إلى جرجان على الطرف الجنوبي الشرقي من بحر قزوين في نوفمبر عام ٨٠٨ م. وهناك لم يشعر الخليفة بأي تحسن في صحته فسافر إلى طوس في خراسان. واشتد عليه المرض هناك حتي إنه لم يعد قادرًا على أن يقف على قدميه، ولكنه بعث ببنه الثاني المأمون الذي كان يصحبه وكان واليًا على خراسان لكي يقيم مقر قيادته في مرو عاصمة الإقليم.

في الثالث والعشرين من مارس عام ٨٠٩ م مات هارون الرشيد أعظم الخلفاء العباسيين وأعظم إمبراطور في عصره في حديقة فارسية على بعد عدة أميال من طوس. وكان في الخامسة والأربعين يوم أن مات واستمر خليفة لمدة ثلاثة وعشرين عامًا.

يعرف عصر هارون الرشيد عمومًا بأنه العصر الذي حقق فيه العباسيون قمة المجد وربما حتى قمة مجد العرب خلال تاريخهم. وفي الحقيقة فإن الإمبراطورية بلغت أقصى امتدادها وأقصى تقدم لها من الناحية العسكرية في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي الذي حكم قبل ذلك بقرن من ٧٠٥ – ٧١٥ م. وعندما وصل هارون الرشيد إلى السلطة كانت إسبانيا والمغرب قد ضاعتا أثناء فترة حكمه. وفي الحقيقة فإن أفريقية قد ضاعت أيضًا من الناحية العملية وعادت حدود الإمبراطورية إلى برقة في قورينا. ونلاحظ بصورة واضحة نقص اهتمام هارون الرشيد بشمال أفريقيا بالنظر إلى الجهود الحثيثة التي كرسها لمحاربة البيزنطيين.

سقطت الهيبة العسكرية للخلافة كليةً بعد انقضاء الدولة الأموية، وخلال عهدي كل من السفاح والمنصور أصبح للبيزنطيين قصب السبق في هذا المجال. واستعاد هارون الرشيد بصورة كاملة للعرب السيادة العسكرية. وفي ثماني مناسبات مختلفة غزا الإمبراطورية البيزنطية وهو يقود الجيش بنفسه. وتشهد السرعة والحماسة اللتان تجاوب بهما مع التحدي الكبير لنيسيفورس وأتباعه وعبوره جبال طوروس المغطاة بالثلوج في فصل الشتاء على قوة شخصيته وقدرته على القيادة. وبصرف النظر عن كونه يستمتع بالشراب في بغداد فإن حماسه الذي لا يمل يجعله باستمرار في حالة تقدم. وقد حج إلى مكة والمدينة تسع مرات وكان يقضي أسابيع في كل مرة مسافرًا على جمل. وزار خراسان والأقاليم الفارسية عدة مرات.

هناك أبيات مديح فيه قالها شاعر معاصر له وهو يشير إليه لا تحمل مبالغة كثيرة:(*)

فمن يطلب لقاءك أو يرده.... فبالحرمين أو أقصى الثغور

(*) من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير.

ففي أرض العدو علي طمر.... وفي أرض الترفة فوق كور

وما حاز الثغور سواك خلق.... من المتخلفين على الأمور

لم يكن مجرد جندي أجش وكان ينصب معسكره في الرقة أكثر مما ينصبه في بغداد وكان على دراية كبيرة بالدين والأدب، وكان بحق أستاذ المثقفين والشعراء. وكان يقصد صحبة الزهاد والفقهاء في زيارته لمكة والمدينة ويرجع إليهم في القضايا الدينية التي تواجهه أحيانًا. وروي أنه كان معتادًا على الصلاة بركعات كثيرة والبكاء عند سماعه لموعظة دينية مؤثرة.

كان هارون الرشيد من أهل السنة. وكان عصره يحوي نشاطًا فكريًا كبيرًا وخاصةً في مجال علم الكلام والفقه. وكان العرب الأوائل يتقبلون الإسلام ببساطة دون أي رغبة في الانشقاق. ولكن في ذلك العصر وبعد مرور قرنين على هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، تعلم المسلمون الجدال في المسائل المعقدة لعلم الكلام. وانهمك عدد كبير من الكتاب في كتابة الكتب التي تجمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي تفسير القرآن وفي علم النحو واللغة العربية. وفي عصر هارون الرشيد كان يوجد اثنان من أكابر الفقهاء: أبو حنيفة النعمان ومحمد بن إدريس الشافعي. وولد البخاري أعظم من جمع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد بسنة.

كان يوجد عدد كبير من المعتقدات الدينية الحرة، ورفض بعضها لأنها بدع. وكان الخليفة يصيح مستاءً عندما تذكر هذه البدع أمامه. ومن المحال أن نحصر هل كان إخلاص الخليفة الديني حقيقيًا أو إذا كانت تقواه تتأثر بالسياسة.

على الرغم من أن هارون الرشيد كان لا يشرب في شبابه، فإنه عندما بلغ منتصف العمر انهمك بلا شك في الشرب وشرب الخمر محرم عند المسلمين. ولم تكن مسامراته الليلية مجرد جلسات شرب وانهماك في الملذات فحسب. وكان عصر هارون الرشيد يشبه

القرن الثامن عشر في أوروبا حيث كان ينظر فيه إلى الثقافة والحديث كنوع من أنواع الفنون، وكانت المناقشات الفكرية ذات المستوى الرفيع جزءًا من مسامرات الطبقات المتعلمة. وكانت الموسيقى والشعر على أعلى مستوى. وكان يوجد عدد كبير من الشعراء المشهورين في قصر الخليفة وكان إسحاق الموصلي لا يضارع في غنائه بمصاحبة العود.

كان أكثر الشعراء شهرةً في عصر هارون الرشيد هما أبو نواس وأبو العتاهية. وكان أبو نواس فاسقًا حبس أكثر من مرة لإدمانه الخمر وفسقه:(*)

ألا فاسقني خمرًا وقل هي الخمر ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهر

وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

أما أبو العتاهية فمن جانب آخر كان شخصية ذات مسلك ديني وجاد :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس

ولو تمتعت بالحجاب والحرس

وأعلم بأن سهام الموت صائبة

لكل مدرع منها ومترس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تجري على اليبس

(*) هذه الأبيات من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير.

أما الأبيات التالية فقالها هارون الرشيد بنفسه:(*)

ملك الثلاث الناشئات عناني

وحللن من قلبي بكل مكان

مالي تطاوعني البرية كلها

وأطيعهن وهن في عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى

وبه قوين أعز من سلطاني

تبدي الصدود وتخفي الحب عاشقة

فالنفس راضية والطرف غضبان

روي أن هارون الرشيد قد راودته فكرة حفر قناة تربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر على حدود قناة السويس الحالية نفسها التي حفرت بعد ذلك بألف سنة. ويروى أيضًا أن يحيى بن خالد البرمكي قد أقنعه بالعدول عن ذلك على أساس أن الأسطول البيزنطي في البحر الأبيض المتوسط سيكون قادرًا بذلك على دخول البحر الأحمر وتهديد مكة. وإذا كانت هذه القصة حقيقية فهي تظهر يحيى البرمكي بهذه الواقعة وكأنه رجل دولة مثل هارون الرشيد. وفي الحقيقة فإن عصرًا ليس فيه خرائط لتحديد حدود هذه القناة نفسها التي اختارها ديليسبس في القرن التاسع عشر سيكون ذلك شيئًا غريبًا بالنسبة لعقل خليفة بارع مثله.

عندما تولى هارون الرشيد الخلافة لأول مرة كان شابًا كريمًا متفتحًا ومتدينًا. وتولى السلطة لمدة ثلاثة وعشرين عامًا من الحكم الاستبدادي يحيطه التملق اللائق بالعبيد، وأصبح

(*) من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير.

هذا التملق عادةً في القصور اليوم، ونجح في أن يسبب بعض الفساد في شخصية هارون الرشيد. ولكنه لم يكن قاسيًا أو غادرًا كالسفاح أو المنصور.

هناك مثل غريب متداول بين قبائل الجزيرة العربية اليوم يقول «أحسن أولادي هو ما سمعت عنه». والشهرة التي تتضمن شيئًا بارزًا في الإنسان هي التي يحكمها هذا المثل؛ ولذلك يتفوق هارون الرشيد على أي خليفة آخر من الأربعة والخمسين خليفة الذين حكموا من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى نهاية الإمبراطورية العربية، وإن هارون الرشيد هو أكثر الخلفاء شهرة عند القارئ الغربي اليوم. وفي البلاد العربية فإن أكثر الفلاحين أو الرعاة أميةً يعرف قصص هارون الرشيد وزوجته زبيدة. ويروي لنا التاريخ مسامراته الليلية في بغداد وحملاته المجيدة ضد البيزنطيين وأشعار أبي نواس وغراميات طاقم القصر والفضة والجواهر والسجاجيد التي لا تقدر بثمن والجياد الرائعة، كما ترويها لنا الأساطير والقصص الرومانسية لكي نكوّن صورة أو ربما حلمًا عن العصر الذهبي لمدينة الخلفاء.

بمجرد أن لفظ هارون الرشيد آخر أنفاسه وفد رسول بسرعة من طوس إلى بغداد حيث كان وارث الخلافة الأمين مسئولاً أثناء غياب والده فقام أفراد الأسرة العباسية بمبايعته، وكذلك الموالي والخدم والضباط وجنود الحامية الذين كانوا طبقًا للعادة المتبعة في ذلك الوقت قد تلقوا هبات ملكية فخمة. وهكذا تمت مبايعة الأمين بن هارون الرشيد أميرًا للمؤمنين بدون أي اتجاه للمعارضة في عاصمة الإمبراطورية. وفي الوقت نفسه كان أخوه المأمون لا يزال في مرو عاصمة خراسان.

تواريخ بارزة

- ١٥ سبتمبر ٧٨٦ م..... تولي هارون الرشيد.
- ٧٨٨ م...... تولي إدريس بن عبد الله في المغرب.
- ٧٩٢ م..... وفاة إدريس بالسم.
- ٨٠٠ م.....إبراهيم بن الأغلب والٍ على أفريقية.
- ٨٠٣ م..... سقوط البرامكة.
- ٨٠٥ م......حملات هارون ضد نيسيفورس.
- ٢٣ مارس ٨٠٩ م.... وفاة هارون الرشيد.

الشخصيات

- الخليفة هارون الرشيد

- أبناؤه هم: الأمين – المأمون – المؤتمن

- يحيى بن خالد البرمكي

- أبناؤه هم: جعفر، الفضل، موسى

- إدريس بن عبد الله ... أمير المغرب

- إدريس الثاني... ابنه

- إبراهيم بن الأغلب... والي أفريقيا

- العباسة أخت هارون الرشيد

الأباطرة البيزنطيون

- ٧٧٥ - ٧٨٠ م.... ليو الرابع.

- ٧٨٠ - ٧٨٥ م....إيرين أرملة ليو الرابع والواصية على ابنها.

- ٧٨٠ - ٧٩٧ م..... قسطنطين السادس بن ليو الرابع، وإيرين (من ٧٨٠ إلى ٧٨٥ م كان قسطنطين صغيرًا وكانت أمه واصية عليه)، إيرين بعد إعماء ابنها.

- ٧٩٧ - ٨٠٢ م.... قسطنطين السادس.

- ٨٠٢ - ٨١١ م.......نيسيفورس الأول

الفصل السادس عشر

خلافات أخوية

يا ليت رأسي ماء وعيني ينبوع دموع فأبكي نهارًا وليلًا قتلى بنت شعبي. احترزوا كل واحد من صاحبه وعلى كل أخ لا تتكلوا لأن كل أخ يعقب عقبًا وكل صاحب يسعى في الوشاية.

(إرميا الإصحاح التاسع – ١ إلى ٤)

لا تعطي حيلك للنساء، ولا طرقك لمهلكات الملوك. ليس للملوك يا لموئيل ليس للملوك أن يشربوا خمرًا ولا للعظماء المسكر لئلا يشربوا وينسوا المفروض، ويغيروا حجة بني المذلة.

(الأمثال – ٣ إلى ٥)

مر خمسون عامًا في ذلك الوقت على آخر مرة ذكرنا فيها تاريخ الأندلس، حيث كان الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية قد نزل ساحل المحيط في سبتمبر عام ٧٥٥ م. وفي عام ٧٦٣ م هزم عبد الرحمن عليًا بن المغيث الذي بعثه الخليفة العباسي المنصور لكي يعيد الاستيلاء على الأندلس من أجل الخليفة.

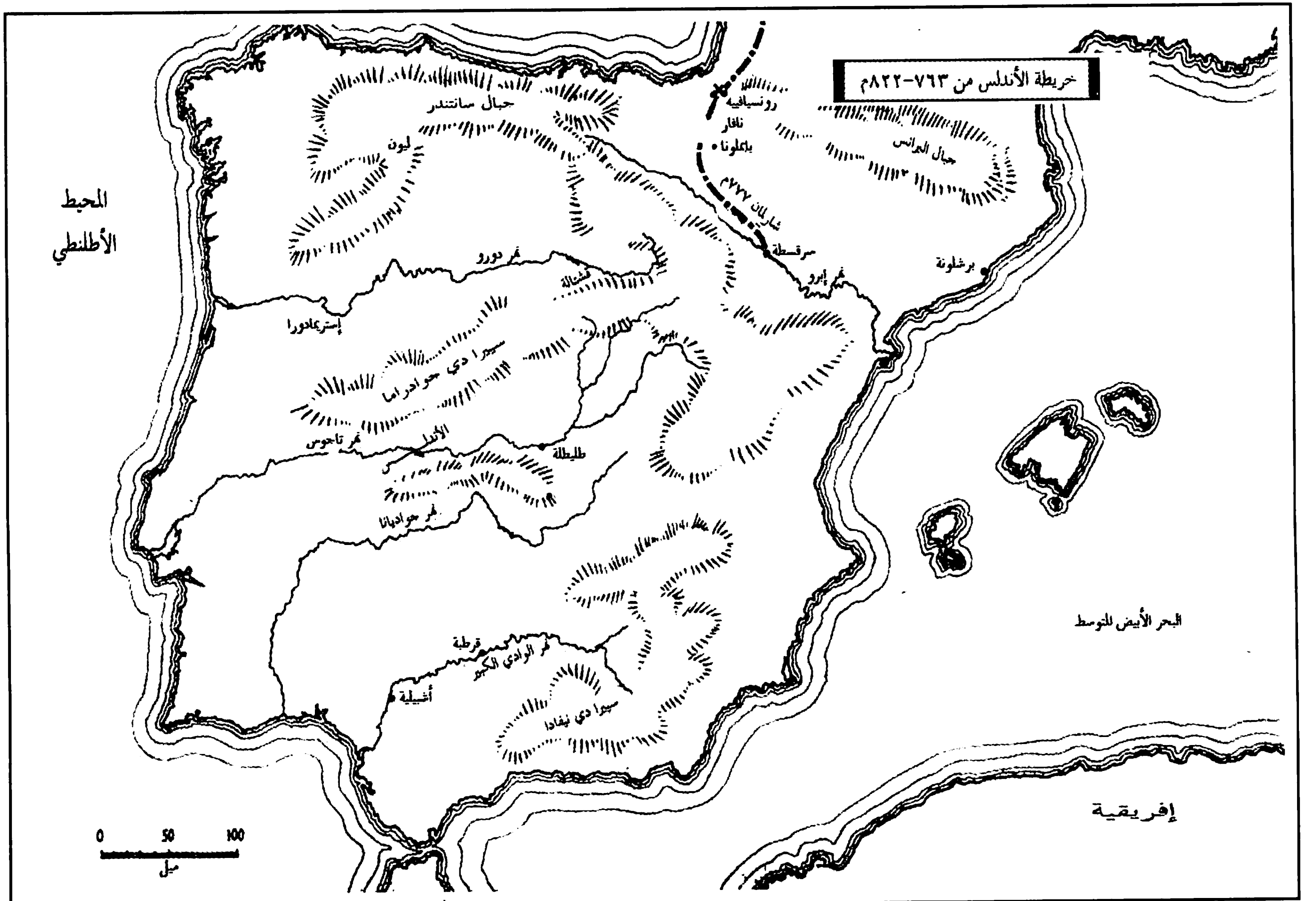
ومع كل هذه الظروف فإن عبد الرحمن انتصر على العباسيين، وأكد مكانته على عرشه الجديد. وكما ذكرنا قبل ذلك فإن القيسيين كانوا قد استولوا على السلطة في الأندلس وقت وصول عبد الرحمن وكان نتيجة ذلك أن هرع اليمانيون بسرعة إلى عبد الرحمن،

وفعلوا ذلك على أمل أن يحلوا محل القيسيين في السلطة. وبمجرد أن انتصر عبد الرحمن وأسس دعائم حكمه في الأندلس حتى ثاروا عليه.

كما يصوره المؤرخون فإنه كان في الأصل وسيمًا وشجاعًا وحاكمًا لطيفًا، ولكن نغصت الثورات الكثيرة التي قامت ضده من شخصيته ولكنه قمعها بدون أي تردد. وعفا عبد الرحمن عن زعيم اليمانيين أبي صباح ودعاه إلى اجتماع حيث تم اغتياله بصورة غادرة في قصر قرطبة.

كان البربر قد قاموا بدور بارز إن لم يكن رئيسيًا في فتح إسبانيا ولكن عندما جاء وقت تقسيم الغنائم احتفظ العرب لأنفسهم بأراضي الجنوب الخصبة وخصصوا لحلفائهم البربر سهول الإستريمادورا والكاستيل الجافة. وكان البربر هكذا يشتكون باستمرار من العرب أسيادهم، وقد كانوا كما رأيناهم في أفريقية ذوي عقلية بسيطة وساذجة. وأعلن أحد علماء الدين البربر أنه من آل علي بن أبي طالب، وقام بثورة كبيرة ومعه مواطنوه في إستريمادورا، وفي أعالي التاجوس. وحدثت مناوشات متقطعة بين البربر وبين عبد الرحمن ابن معاوية لمدة ست سنوات حتى أمكن له أن يطاردهم تدريجيًا باتجاه الشمال نحو جبال الكاستيل. وهناك استمر في مطاردتهم ولكن اختار اليمانيون هذه اللحظة لكي يقوموا بثورتهم للانتقام لدم زعيمهم أبي صباح فترك عبد الرحمن حملته ضد البربر، وعاد على أحر من الجمر إلى قرطبة لكي يواجه اليمانيين. ولقد كان ثاقبًا في ذكائه وشجاعًا في قتاله فبعث بوفود سرية لبذر الشقاق في صفوف العصاة. وعندما تقدم للقتال انحاز جزء كبير من قوات الثوار إلى جانبه. وهزم اليمانيين وكما يروى خسروا ثلاثين ألف قتيل، وهو حصر مبالغ فيه بلا شك.

كانت ثورة البربر في الشمال ما زالت مستمرة عندما هدد خطر بعيد كبير فجأة عبد الرحمن التعيس: فلقد تآمر سليمان العربي والي برشلونة وكان يمانيًا مع ابن حبيب زوج بنت يوسف الفهري والي إسبانيا عند وصول عبد الرحمن إلى هناك ضد عبد الرحمن؛ ونظرًا لعدم قدرتهما على مواجهة الأمير الأموي في ميدان المعركة وانتهاء فكرة الاستعانة



خريطة الأندلس من ٧٦٣-٨٢٢م
المحيط
الأطلنطي
جبال سانتندر
ليون
رونسيافيه
نافار
بامبلونا
شارلمان ٧٧٧م
جبال البرانس
سرقسطة
نهر إبرو
برشلونة
نهر دورو
قشتالة
إستريمادورا
سييرا دي جوادراما
نهر تاجوس
الأدل
طليطلة
نهر جواديانا
قرطبة
نهر الوادي الكبير
أشبيلية
سييرا دي نيفادا
البحر الأبيض المتوسط
إفريقية
0 50 100
ميل

بعون أجنبي ذهب المتآمران في عام ٧٧٧ م إلى بادربورن حيث كان الإمبراطور شارلمان يعقد اجتماعًا مع النبلاء واقترحا عليه غزو الأندلس. وكما تم تسليم إسبانيا المسيحية إلى أيدي المسلمين من خلال كراهية الكونت جوليان للملك رودريك لذلك أيضًا كان الفهريون واليمانيون الساخطون على أتم استعداد لإعادة إسبانيا إلى المسيحيين للتنفيس عن حقدهم على عبد الرحمن. (وفي بغداد كان يعتلي عرش الخلافة الخليفة المهدي والد موسى الهادي وهارون الرشيد).

كان شارلمان قد هزم الساكسونيين من وقت قليل الذين كانوا على أتم استعداد لاعتناق المسيحية. وهرب ملك الساكسونيين ويتيكند من بلاده ولجأ إلى الدانمارك. وكانت البلاد التي يسيطر عليها الإمبراطور تعيش حالة هادئة، وواتته فكرة الاستيلاء على إسبانيا من المسلمين فسار خلال جبال البرانس بجيش كبير. واستولى سليمان العربي في الوقت نفسه على سرقسطة بمساعدة الحسين بين يحيى وهو رجل من المدينة وحفيد مباشر لواحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولكن عندما وصل جيش الفرنجة أمام أسوار سرقسطة لم يرض الحسين أن يخضع المدينة لسلطان أعداء الدين والأمة، واضطر شارلمان أن يحاصر الحصن الذي يتحصن فيه المتحالفون معه قبل ذلك.

في تلك اللحظة الحاسمة وصلت إلى شارلمان الأنباء بأن ويتيكند قد استغل غيابه وعاد إلى بلاده، ونتج عن ذلك ثورة عامة للساكسونيين وأن جيشهم يخرب البلاد التي يسير فيها وأنه قد اقترب من كولونيا فتخلى شارلمان على الفور عن مغامرة الاستيلاء على إسبانيا وخرج بقواته العسكرية نحو نهرالراين. ومر على ممر رونسيسافاييه الضيق في جبال البرانس، وأصبح جيش الفرنجة يتحرك بطريقة غير ملائمة في صف طويل. وكان الباسك أعداء الفرنجة الألداء يكمنون حول هذا المر. وسمحوا بمرور القوام الرئيسي للجيش دون مضايقة ثم انقضوا على المؤخرة وهاجموها بقيادة رولاند. وسار القوام الرئيسي للجيش وهو لا يدري بالكارثة التي حلت به، وتم تصفية مؤخرة الجيش. وفي قمة المعركة نفخ رولاند في بوق كبير كعلامة على المحنة التي حلت بالمؤخرة ولكن الصوت لم يصل إلى الجيش الرئيسي ولم يأت أي رد لمشاركة الجنود المنكوبين.

وهذه هي الاغنية (يا إلهي كم كان صوت هذا البوق حزينًا داخل الغابة)

كان موت رولاند قد ساهم في إحياء الأدب الرومانسي وأدب الفروسية. ويبدو أن الباسك هم الذين قتلوه ولكن الموروث الشعبي كان ينسب موته إلى المسلمين. وعندما تقدم الفرسان النورمانديون بعد ذلك بثلاثة قرون إلى ميدان معركة هاستينج غنوا أغنية رولاند لتنشيط روحهم القتالية.

ابتسم الحظ مرة ثانية للأمير عبد الرحمن، فلقد انتهى الغزو لبلاده إلى لا شيء بدون أي تأثير فيه. وأخيرًا وبعد مغامرات عجيبة استقر الأمير الشاب الذي كان هاربًا يائسًا والذي عبر الفرات وشرد مثل المتشردين بين قبائل البربر الأفريقية على عرش خلافة بلد جميلة وغنية. ولكن السعادة ما زالت تراوغه فقد قاتل كل مجموعة من شعبه على حدة؛ القيسيين والفهريين واليمانيين والبربر قاتلهم بشجاعة وعزيمة وضراوة وبغدر في ميدان القتال وهددهم ولكن كثيرًا منهم ناصبوه العداء سرًا بضراوة.

لكي يزيد من عدد أنصاره ويزيد من بريق العاصمة التي أنشأها وبعيدًا عن العاطفة الأسرية دعا عبد الرحمن بقايا بني أمية المشتتين الذين كان بعضهم لم يستقر بعد في أفريقيا أن يلجؤوا إلى قصره. ولكنهم بدلًا من أن يشكروه على بسط حمايته لهم فإنهم تآمروا في مناسبتين على اغتياله وتنصيب واحد منهم على عرشه فسعى إلى تأمين سلامة حكمه باستئجار جنود من المرتزقة. ولذلك اشترى عبيدًا وجنّدهم كجنود، وجند هو كثيرًا من رجال قبائل البربر الذين جلبهم من أفريقيا. وبهذه الوسائل شكل جيشًا مكونًا من أربعين ألف رجل يدينون له بالولاء وحده.

كان عبد الرحمن يعترف بأن نجاحه في ذلك لم يجلب له السعادة ولكنه على عكس ذلك جلب عليه الحسد من أعدى أعدائه. وفي بغداد البعيدة سأل الخليفة المنصور ذات مرة حاشيته من يعتقدوا أنه يستحق لقب صقر قريش فردوا: «أنت يا أمير المؤمنين»، وهم يتملقونه، فرد الخليفة: «لا ليس أنا»، فأشار البعض بأنه معاوية وأشار الآخر بأنه عبد الملك ابن مروان فرد المنصور: «صقر قريش هو عبد الرحمن في الأندلس وهو الرجل الذي شرد

وحده في صحراء آسيا وأفريقيا، وكانت عنده الجرأة لكي يسعى إلى الملك دون جيش في بلاد غير معروفة له فيما وراء البحار. ولم يكن عنده شيء يعتمد عليه إلا ذكاؤه ومثابرته، ومع ذلك فقد أذل أعداءه المتكبرين، وقضى على الثوار، وأمن حدود بلاده ضد المسيحيين، وأسس إمبراطورية كبيرة، وأعاد توحيد مملكة تحت سلطة كانت قبل ذلك يتنازع عليها زعماء ضعاف. ولم يعمل أحد قبله مثل هذه الأعمال». في ذلك الوقت كان ابن حيان المؤرخ العربي الأندلسي يقدم لنا صورة مختلفة فهو يقول إن عبد الرحمن بن معاوية كان طيب القلب يميل إلى الرحمة، وكان فصيح اللسان سريع الفهم يتمهل في إصدار قراراته، ولكنه يثابر ويسارع إلى تنفيذها. وكان متحمسًا ونشيطًا؛ ولا يستكين ولا يترك لرغباته العنان. وكان محاربًا شجاعًا دائمًا أول المقاتلين. وكان شديد الغضب، وكان هدوؤه يوحي بالرهبة. وكان يزور المرضى ويختلط بالناس في أفراحهم.

توفي عبد الرحمن عام ٧٨٨ م بعد عامين من تولي هارون الرشيد الخلافة في بغداد، وتبعه على عرش الخلافة ابنه هشام الذي كان عمره ثلاثين سنة عندما تولى الخلافة. وكان الأمير الجديد يختلف كليةً عن أبيه في الطباع فقد كان شابًا يحب معاشرة المتعلمين. وعندما تولى السلطة كان شاغله الرئيسي هو زيادة الوعي الديني وتأمين العدل لكل الشعب. وبعث بعملاء إلى كل أجزاء بلاده، وأمرهم بألا يكشفوا المؤامرات ضده فحسب، ولكن أن يبحثوا عن المظالم أو ما يقوم به الذين يستنزفون الناس. ووجد الفقير والمظلوم فيه حاميًا. وكان يخرج بنفسه أثناء الليل لكي يزور المرضى أو يحمل الطعام إلى منازل الفقراء الذين يستحقونه، وهو تقليد كان يقوم به كثيرًا من قبل في المدينة عمر بن الخطاب الخليفة الثاني بعد النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يكن متعصبًا لجنسه العربي. وزاد من تسليح الحرس من الجنود والعبيد وحارب بنفسه ضد المسيحيين في الشمال.

لسوء حظ بلده مات هشام بعد حكم دام تسع سنوات وتبعه في الحكم ابنه الحكم عام ٧٩٦ م. وكما نظرنا إلى حكم إبراهيم بن الأغلب الذي تولى حكومة أفريقية عام ٨٠٠ م وسمعنا من قبل عن النشاط الفكري والديني الكبير في ذلك العصر وتدفق الدارسين من

قرطبة إلى المدينة المنورة؛ لدراسة الدين عند الأساتذة العظام في ذلك العصر. كانت أشهر مدرسة لدراسة الفقه هي التي أسسها مالك بن أنس الذي توفي عام ٧٩٥ م. وكانت أغلبية دارسي الفقة من الأندلسيين الذين وفدوا إلى المدينة ليسوا من العرب، ولكن من الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام وكما يحدث دائمًا فإن تقواهم كانت أشد من العرب الذين أدخلوهم في الإسلام.

كان معتنقو الإسلام من غير العرب في الأندلس يعانون من المظالم نفسها التي أدت إلى الثورة العباسية في الشرق. وعلى الرغم من أن جميع المسلمين سواسية من الناحية النظرية فإن العرب المتسلطين أصروا على معاملة غير العرب المشاركين لهم في دينهم معاملة الأدنى في المرتبة. ولكن في ذلك الوقت عاد أولاد الإسبان المعتنقون للدين الإسلامي من دراستهم في المدينة المنورة أكثر تقوى وأكثر صلابة في الدين وأكثر علمًا من حكامهم العرب المتسلطين. وكل هذه الأحداث والتطورات مرت أثناء حكم هشام الصالح، ولكن كان الحكم بن هشام الشاب الذي اعتلى عرش الخلافة بعد أبيه اجتماعيًا ومرحًا وكان مغرمًا بالصيد وشرب النبيذ. ولم يكن في الحقيقة عابثًا جهارًا ولكنه على العكس كان يؤدي واجباته بدقة. وكان يحترم معلمي الدين ويدخل في جدال مع علماء الفقه. وقد يبدو لنا أن المتع التي كان يستمتع بها الحكم كانت بريئة، ولكن نتيجة لتأثير دارسي علم الكلام والتوحيد الذين درسوا في المدينة المنورة تحولت البلاد إلى نهضة روحية ودينية. وكان الحكم يعتبر بالنسبة لعلماء المذهب المالكي رجلاً تتجسد فيه الخطيئة. وكان زعيم هؤلاء المصلحين الدينيين يحيى بن يحيى وهو رجل بربري كان قد درس في المدينة المنورة.

كما ذكرنا من قبل كانت الدولة الإسلامية النموذجية ليست تلك التي يتمتع فيها الناس بالحكم الذاتي ولكن الدولة التي تطبق القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم. والحاكم فيها هو الذي يطبق الشريعة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى، واعتبر علماء الفقه أنهم هم المنوط بهم تفسير هذه الشريعة. أما الخليفة سواء كان سلطانًا أو أميرًا فهو مجرد منفذ لهذه الشريعة، وعمله هو أن يلاحظ أن القواعد الفقهية التي يفسرها الفقهاء قد تم تنفيذها

كما ينبغي وهو نظام كان يقدم لعلماء الدين الفرصة للتدخل في السياسة، وهو ما فعله يحيى ابن يحيى. واستاء كل من البربر والإسبان الذين اعتنقوا الإسلام من قبل من رفض العرب منحهم المساواة الاجتماعية معهم. وكان نتيجة ذلك أن أصبحت العاصمة قرطبة تعتريها القلاقل باستمرار، ولكن كان مرتزقة الأمير الأفارقة يتدخلون لقمعها.

نظرًا لأن مدينة طليطلة كانت عاصمة إسبانيا في عهد القوطيين الغربيين فقد استاء سكانها من نقل العاصمة إلى قرطبة. وكما كتب أحد المؤرخين العرب (إن رعايا أي حاكم مسالمون ولا يميلون إلى إثارة الفتن). وقرر الحكم أن يلقنهم درسًا عام ٨٠٨ م فبعث ابنه إلى طليطلة في زيارة وأمره أن يدعو كل أعيان طليطلة إلى وليمة في قلعة المدينة، وفي صباح اليوم التالي لوصوله وأثناء الليل تم حفر خندق كبير في فناء القلعة. وعند إشراق صباح اليوم التالي دعا الضيوف واحدًا بعد الآخر. وبمجرد دخول كل واحد منهم كان يقطع رأسه ويلقي جسده في الخندق حتى تم إعدام كل ذوي النفوذ في طليطلة، ووصل عددهم إلى عدة مئات. ونظرًا لأن أهل طليطلة قد حرموا من زعمائهم كلهم في ساعات قليلة فقد تخلوا عن كل محاولات الثورة منذ ذلك الحين. وهذه الواقعة كانت تذكر في التاريخ بيوم الخندق. يعتبر حسن الضيافة ولا يزال واحدًا من الفضائل العربية التي تفوقوا فيها على كل الأجناس، ولا يرحب فقط ساكنو الخيام البسطاء في الصحراء بكل عابر سبيل لكي يشاركهم في طعامهم البسيط، ولكنهم على أتم استعداد للمخاطرة بحياتهم لحماية ضيفهم من الخطر أو الانزعاج. ومما يثير دهشتنا أن العرب بعد خروجهم من الصحراء في أقل من قرنين قد تخلوا عن هذه الصفة التي كانت مبعث فخر آبائهم.

بعد ستة أعوام من يوم الخندق في طليطلة اندلعت ثورة في مايو عام ٨١٤ م في العاصمة قرطبة، ووجد السلطان نفسه محاصرًا في القلعة التي كانت في خطر أن يخترقها الثوار. وإذا كانت السلطة هي التي جعلته قاسيًا وغادرًا فإنها لم تحرمه من الشجاعة. وبرباطة جأش رسم الحكم خطته للنجاة. ولم تكن الحامية كثيرة العدد لكي تدفع الثوار إلى الخلف ولكن يمكن لمجموعة صغيرة قوية من الفرسان أن تخترق صفوف الثوار. وهذه المجموعة كان

الأمير قد دربها على اختراق صفوف المشاغبين وإشعال النيران في الضواحي. وفتحت بوابة القلعة واخترق الفرسان هذه الحشود وبسرعة صعد الدخان إلى السماء من أحياء المدينة السكنية. واستدار الذين يهاجمون القلعة وأسرعوا عبر الشوارع لكي ينقذوا أسرهم وممتلكاتهم من اللهب. ومن القلعة خرج المرتزقة الأفارقة يطاردونهم ويضربونهم بالسيف بدون رحمة كلما هربوا.

هزم الثوار كليةً وأمرهم الأمير أن يتركوا الأندلس في خلال ثلاثة أيام مع عائلاتهم وزوجاتهم فأبحر بعضهم إلى مصر، واحتلوا مدينة الإسكندرية، وتم طردهم منها بعد ذلك بأحد عشر عامًا عام ٨٢٥ م. ثم قاموا بعد ذلك بغزو جزيرة كريت، وأقاموا حكومة هناك لمدة قرن ونصف تقريبًا حتى استولى عليها البيزنطيون بعد ذلك عام ٩٦١ م. وعبرت ثمانية آلاف أسرة قرطبية تم نفيها المحيط إلى المغرب حيث رحب بهم إدريس واستقروا في عاصمته الجديدة فاس. والشيء الغريب في الذين نفوا من قرطبة هو أن القليل منهم كانوا إما عربًا أو بربرًا. وكانت أغلبيتهم من الإسبان الذين دخلوا في الإسلام.

مات الحكم عام ٨٢٢ م بعد أن حكم الأندلس لمدة ستة وعشرين عامًا. وفي خلال الثمانية أعوام الأخيرة من حكمه تمتعت البلاد بالسلام والازدهار. وأصبح الأمير نفسه لطيفًا ورحيمًا عندما أخمد هذه الثورة. وفي قصيدة شعر ألقاها قبل وفاته بوقت قصير أعلن أنه كان يعمل السيف مثل الخياط الذي يستعمل إبرته لكي يربط معًا أقاليم مملكته: «إذا لم أكن أصفح عن زوجات الثوار وأطفالهم فذلك بسبب أنهم كانوا يهددونني ويهددون أسرتي. ومن لا ينتقم للإهانات الموجهة إلى أسرته فهو ناقص الشرف».

عندما يطالب العرب بالحرية فإنهم يعارضون أي حكومة تحاول أن تحكمهم، ولكنهم في ذلك الوقت كانوا يكنون إعجابًا حقيقيًا بالرجل الذي يستطيع الانتصار على أي معارضة سواء بالوسائل الصالحة أو السيئة. ولذلك كسب الحكم احترامهم وعاش السنين الأخيرة من حياته في سلام وشرف.

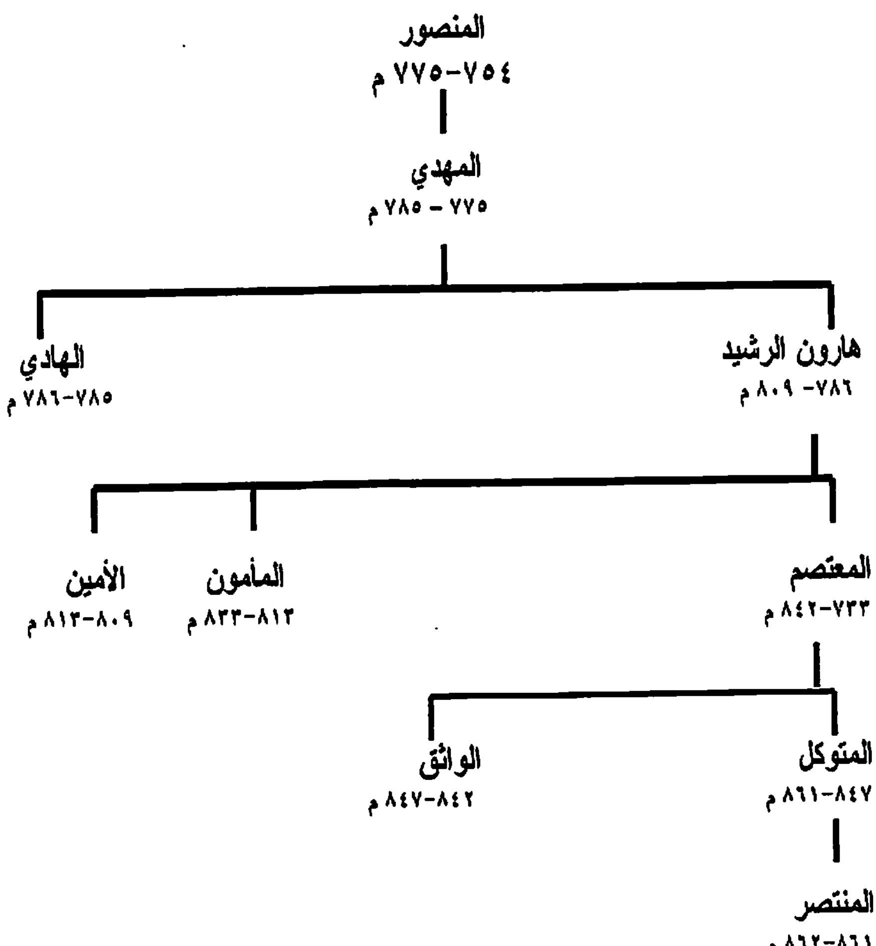
بعد أن روينا قصة الأندلس وحتى وفاة الحكم عام ٨٢٢ م نعود إلى أمير المؤمنين في بغداد.

بمجرد أن وصلت أخبار وفاة هارون الرشيد بغداد في مارس عام ٨٠٩ م تبادل الأمين والمأمون الرسائل الودية، وبدا الأمر لفترة قصيرة كما لو أن الترتيبات الكبيرة التي أعدها الخليفة الراحل سيتم وضعها موضع التنفيذ بالنسبة لموضوع الخلافة. ولكن بعض أفراد الحاشية في بغداد وخاصة كبير الوزراء الفضل بن الربيع خشي من تولي المأمون الخلافة نهائيًا فاقترح على الأمين تولية ابنه موسى بعده في الخلافة. بدا الأمين في بادئ الأمر ميالًا إلى تنفيذ رغبات والده الراحل ولكنه اقتنع تدريجيًا بوجهة نظر الفضل بعد ذلك. وكانت أول خطوة فعلها هي إزاحة أخيه المؤتمن من ولاية أرمينيا والجزيرة اللتين كانتا ورثًا له بوصية من أبيه. وأمر ابنه موسى أن يصلي مع المصلين يوم الجمعة أولًا وراءه ووراء المأمون والمؤتمن، ثم يصلي هو إمامًا وحده. ويذكر في هذا السبيل أن هارون الرشيد في سفره الأخير إلى مكة أمر بإخراج وثيقة يعلن فيها ما ينويه بالنسبة لأبنائه وعلقها على الكعبة فبعث الأمين برسول لكي يزيل هذه الوصية ويحضرها إلى بغداد حيث قطعها، ثم كتب إلى المأمون يأمره أن يبعث بفائض دخل خراسان إلى بغداد ويخبره أنه قد عين موظفين من طرفه على البريد في ذلك الإقليم. وكانت هذه الإجراءات بالتأكيد مناقضة لوصية هارون الرشيد التي تجعل المأمون يستقل ببغداد فعليًا. وهذا ينبئ أن الترتيبات التي أعدها هارون الرشيد بخصوص الميراث كان من المستحيل تنفيذها.

كان المأمون حذرًا وميالًا إلى الخضوع لهذه الأوامر، ولكن وزيره الفضل بن سهل أقنعه أن يقاوم. وبناءً على ذلك رد بأسلوب محترم ولكنه أخذ حذره ووضع مخافر عسكرية على الطرق القادمة من العراق وأمرهم بالقبض على كل من يدعو إلى الأمين وعلى الوافدين أو المتآمرين الذين يأتون إلى خراسان من العراق لكي يخرجوا الناس عن بيعتهم له. وفي عام ٨١٠ م استمر التوتر بين الأخوين يتصاعد وأغلقت الحدود بينهما فعليًا. ثم بعث المأمون بطاهر بن الحسين في قوة مسلحة للاستيلاء على الري بينما بدأ جيش الأمين يتأهب للقتال.

شجرة نسب خلفاء بني العباس بعد المنصور

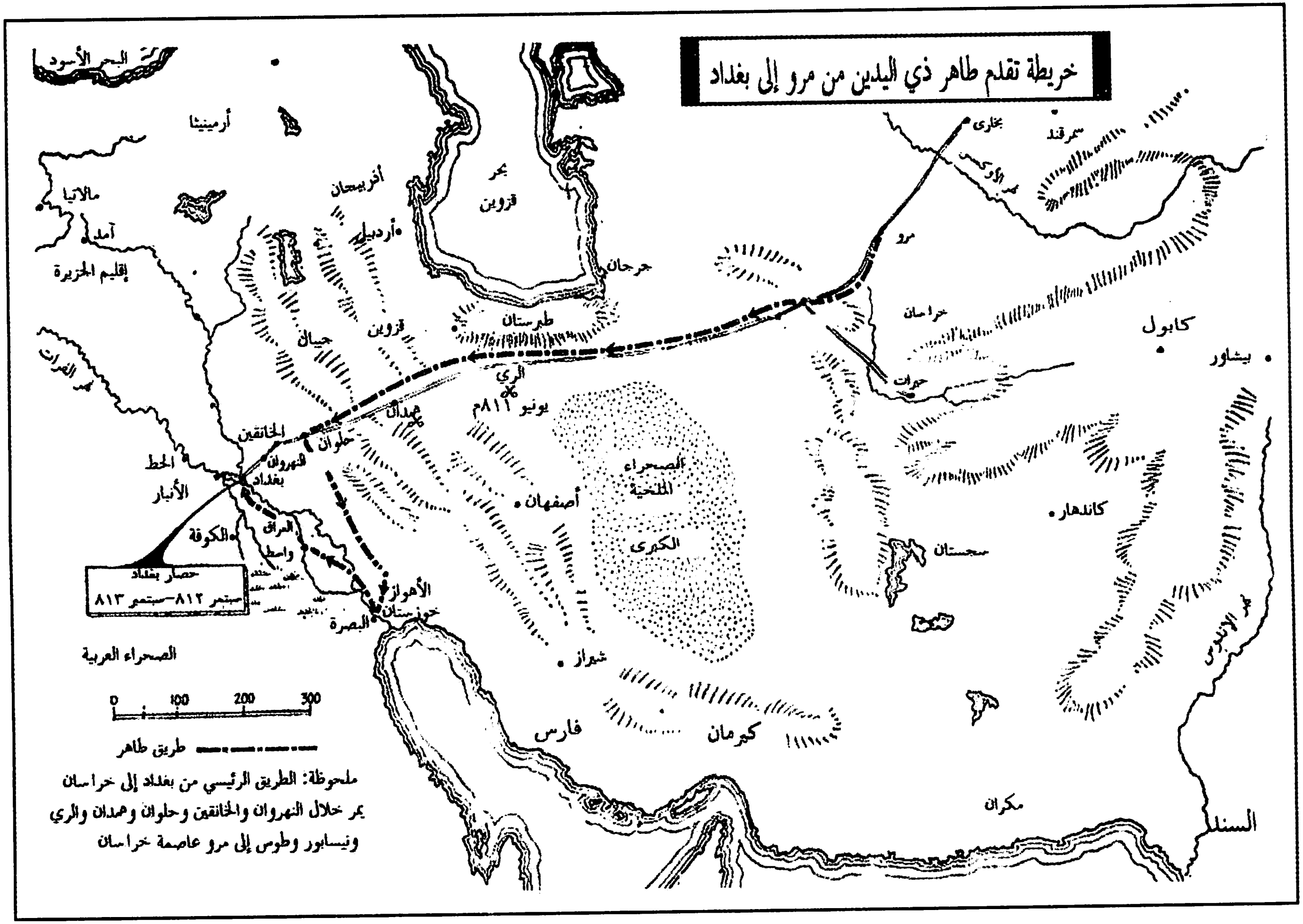
*****



في أوائل أبريل عام ٨١١ م استعرض الخليفة الأمين جيشه المكون من أربعين ألف رجل في النهروان شرق بغداد. وأعطى القيادة لهذا الجيش إلى علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان السابق الذي عزله هارون الرشيد من هذه الوظيفة لسوء إدارته لهذا الإقليم. وكان هذا في حد ذاته خطأ شنيعًا؛ لأن عليًا بن عيسى كان مكروهًا في خراسان لاستبداده وطغيانه، ثم سار الجيش إلى همدان ومن هناك إلى الري حيث كان ينتظره طاهر بن الحسين ومعه قوات المأمون.

كان جيش الأمين أكثر عددًا من جيش المأمون. وفي يونيو عام ٨١١ م تقابل الجيشان وقتل علي بن عيسى بن ماهان في مناوشات مبدئية وانسحب جيش الأمين مضطربًا بعد قتال حاد. ولما أحضر الجنود رأس علي إلى طاهر قام على الفور بإعتاق عبيده شكرًا لله القدير، وبمجرد تبشير المأمون بالنصر في مرو بايعه أنصاره خليفة. وفي خطبة له استهلالية وعد بأن يحكم فقط لأجل الدين وبأن يكرس نفسه لعبادة الله وحده فقط. وأثارت هذه الوعود التقية حماسًا كبيرًا وكانت هي السبب في انتصاره. ولكن التأثير النهائي لهذه الوعود كان جالبًا للويلات لأنه بمجرد أن أصبح خليفة نسي كل هذه الوعود. وفي تلك الأثناء ولأن الأمين كان قد بعث بجيشه إلى فارس فقد كرس نفسه للعبث والمتع.

سببت أنباء هزيمة علي بن عيسى وموته على يد قوة صغيرة بقيادة طاهر بن الحسين الرعب بين أنصار الأمين. وانتهز الجنود المرتزقة الفرصة للتمرد وطلبوا دفع عطائهم مقدمًا. وبدلًا من أن يلجأ الخليفة إلى الله أو يعدل ويعاقب الخائنين أمر على الفور بإعطائهم ما طلبوه. بعد ذلك أعد عشرين ألف رجل كتعزيز وبعث بهم بكل العجلة إلى همدان ووصل طاهر بسرعة واندلعت معركة. وفي آخر الأمر تم دحر جيش الأمين وأجبر على اللجوء إلى داخل أسوار المدينة. وفرض طاهر الحصار على المدينة بكل حماس لدرجة أن جنود الأمين الذين تم تجنيدهم من أجل النقود وليس من أجل الدفاع عن المبدأ طلبوا الاستسلام بشروط، وبعد أن وعدهم طاهر بأن ينقذ حياتهم فتحوا أبواب المدينة له.



خريطة تقدم طاهر ذي اليدين من مرو إلى بغداد

لم يكن طاهر بن الحسين من قبل بين أكثر القادة المعاصرين شهرة. ولكن رفعته انتصاراته في الري وهمدان فجأة على قمة القادة العسكريين. وأخذ لقب صاحب اليدين أو ذي اليدين، وليس ذلك لأنه كان كذلك فقط حرفيًا ولكن بسبب قوة هجماته على أعدائه.

بعد سقوط همدان تقدم طاهر ذو اليدين بدون مقاومة إلى حلوان حيث توجد جبال فارس وسهل العراق الكبير. وفي تلك الأثناء وفي اتجاه الشمال خضع إقليما قزوين وجبال فارس إلى المأمون. وانتشر الاضطراب واليأس في بغداد لأن الأمين كان ضعيفًا وعابثًا، ووسط الفوضى والخوف كان كل إنسان يستفيد من الخليفة السيئ الحظ إما لطلب أموال أو امتيازات أخرى. وجاءت تعزيزات أخرى إليه من سوريا ومن القبائل العربية ولكن عندما وصلت إلى بغداد نشبت حرب في الشوارع بينهم وبين الفرس والأتراك. وكان الأمين ابن زبيدة الزوجة العربية المشهورة لهارون الرشيد بينما كانت أم المأمون جارية فارسية. وهكذا أصبح الأخوان معروفين بالعداء العنصري. وكان الخراسانيون يسمون المأمون (ابن أختنا). وفي بغداد انقض الفرس على قصر الخلد، وقبضوا على الأمين وأعلنوا خلعه من الخلافة. وعندئذ قام العرب بهجوم مضاد. وأطلقوا سراح الخليفة البائس وأجبروا الفرس على التراجع عبر الفرات.

وفي تلك الأثناء سار طاهر إلى الأهواز واستولى عليها وعلى مدينة البصرة معها، وهناك ولّى ولاة باسم المأمون على جنوب فارس والبصرة والبحرين وعمان. ثم تقدم عندئذ إلى بغداد خلال مدينة واسط. وفي الوقت نفسه وفي أبريل عام ٨١٢ م أعلنت كل من الموصل والكوفة خلع الأمين واعترافهما بالمأمون. وبعد ذلك بسرعة وصلت الرسائل تعلن أن مكة والمدينة قد بايعتا المأمون.

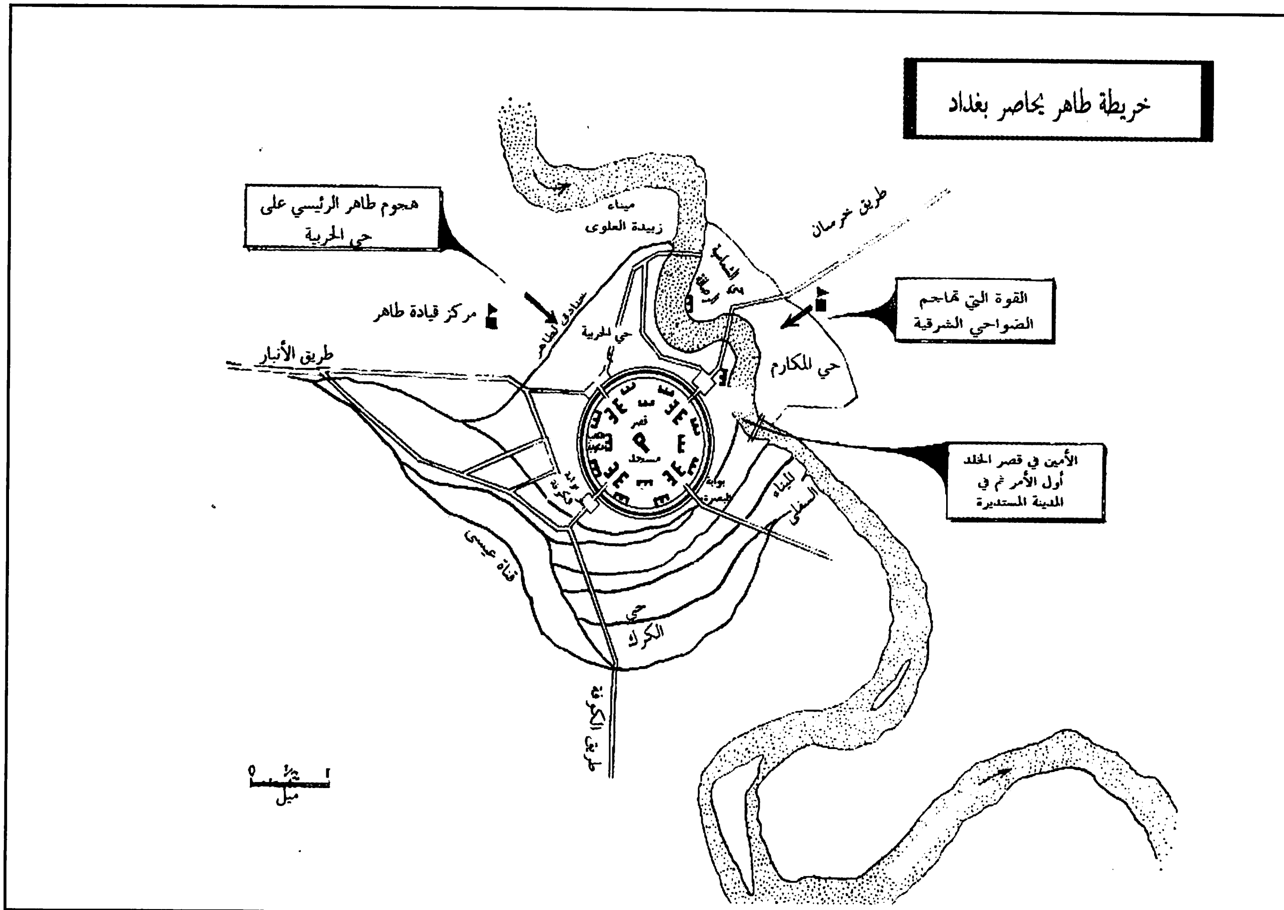
في تلك الأثناء تقدم جيش آخر للمأمون من حلوان إلى ضواحي بغداد على الشاطئ الشرقي، بينما وصل طاهر ذو اليدين في أول سبتمبر عام ٨١٢ م خارج بغداد من جهة الغرب وسعى إلى تطويق المدينة. وداخل العاصمة كان كل شيء يسير في فوضى عارمة بينما كان كل شيء يسير على ما يرام في معسكر طاهر، وكانت كل الأمور منتظمة وكان الجيش على

استعداد للقتال. وبعد وقت قصير نصب المنجنيق والقاذفات حول عاصمة الرشيد الرائعة وطوال اليوم كانت الصخور والسهام تنهال خلال الهواء وترتطم بالمنازل وتنشر الموت في الشوارع. واحترق حي الحربية على الشاطئ الغربي لنهر دجلة وأصبحت المدينة التي كانت من أعوام قليلة العاصمة الغنية لإمبراطورية كبيرة خرابة كبيرة. واستمر المحاصرون في فرض الحصار، وتدمير المنازل حجرًا حجرًا، وتحصين الأراضي التي استولوا عليها قبل شن هجوم آخر وتحقيق الهدف التالي. وفي تلك اللحظة كان الأمين المرتبك داخل بغداد يفتح بيت مال الإمبراطورية الكبير، ويسعى إلى الاحتفاظ بولاء أنصاره الباقين بتقديم الأموال المتراكمة من سنين الرخاء إليهم. وأصبحت بغداد التي كانت إلى وقت قريب جنة العالم والتي كانت تلبس لبس العروس التي تنتظر عريسها الآن كما قال شاعر محلي يرثيها ممزقة ومخربة في التراب والرماد.

في سبتمبر عام ٨١٣ م استمر الحصار لمدة عام كامل، واقتحم المهاجمون المدينة بحماس شديد. واستولوا على الأحياء الشرقية لنهر دجلة ثم ضاحية الكرخ فهرب الخليفة الأمين مع أمه زبيدة من قصر الخلد، ولجؤوا إلى مدينة المنصور المستديرة. ويروي لنا عم الأمين إبراهيم بن المهدي أمسية قضاها مع الأمين في ذلك الوقت محاصرًا داخل المدينة المستديرة. وكتب الرجل العجوز: «لقد تلقيت رسالة من الأمين يطلب مني أن آتي إليه وعندما وصلت إليه قال لي يا لها من ليلة جميلة يا إبراهيم! انظر إلى جمال القمر وانعكاسه على مياه النهر ألا تبقى وتشرب معي؟، فرددت: كما تحب، فطلب نبيذًا وضع أمامنا واستدعى الشاب السيئ الحظ فتاة لكي تغني شيئًا ما ولكنها غضبت فأمرها بالانصراف».

«ثم سمعنا أصواتًا فجأة تأتي من النهر، فسألني هل سمعت شيئًا يا إبراهيم؟»، «فرددت: لم أسمع شيئًا»، على الرغم من أنني سمعتها. وبعد ذلك بدقائق قليلة عادت الأصوات مرة ثانية فقفز من مكانه وعاد مسرعًا إلى القصر. وبعد ذلك بليلتين كان قد قتل.

نظرًا لأن كل الناس كانوا قد هجروا الأمين الآن فقد قرر أن يعبر النهر بمركب في المساء ويستسلم لقائد القوات على الشاطئ الشرقي. وكان هذا الضابط مولى أسرة ملكية كان يأمل في أنها ستنقله بسلام إلى المأمون الذي كان يأمل في أنه بكرمه سيعفو عنه ويجعل


خريطة طاهر يحاصر بغداد
هجوم طاهر الرئيسي على
حي الحربية
مركز قيادة طاهر
طريق الأنبار
ميناء
زبيدة العلوى
طريق خرسان
القوة التي تهاجم
الضواحي الشرقية
حي المكارم
الأمين في قصر الخلد
أول الأمر ثم في
المدينة المستديرة
الميناء
السفلي
حي
الكرك
قناة عيسى
طريق الكوفة
حي الحربية
قصر
مسجد
ميل

له عطاءً. ولكن باعه خادماه إلى طاهر الذي نصب كمينًا على شاطئ النهر. وبعد عراك صغير تم القبض على الأمين وسحبه إلى منزل في الكرخ. وهناك جلس الذي كان ذات مرة ملك إمبراطورية فرط فيها بعبثه وضعفه فقال: «ماذا ستفعلون بي؟ لا تتركوني وحيدًا ولا تذهبوا بعيدًا فإني خائف»، أخذ الأمين يردد هذه الكلمات لمرافقه ثم سمع جيادًا تجري في الشوارع الضيقة قبل الفجر تمامًا. وفتح الباب واندفعت مجموعة من الفرسان إلى داخل الحجرة وسيوفهم في أيديهم. وقفز الأمين على قدميه ممسكًا بوسادة، وحاول وهو هائج أن يصد أطراف السيوف الحادة صائحًا «من الله وإلى الله نعود».

بعد ذلك بثوان قليلة سقط ميتًا وهومغطى بالجروح. وقطع الجنود رأسه بسرعة وبعثوا بها إلى طاهر ذي اليدين الذي قدمها إلى المأمون في خراسان. وحمل الرسول نفسه شارة الخليفة ومعطفه وخاتمه وصولجانه والحصيرة التي كان يصلي عليها. وحملت جثة الخليفة دون رأس خلال الشوارع مربوطة بحبل وذلك في ٢٥ سبتمبر عام ٨١٣ م.

كان عمر الأمين يوم أن قتل سبعة وعشرين عامًا وحكم لمدة أربعة أعوام وثمانية شهور وكان مشهورًا بوسامته وكان طويلًا جميلًا ذا قوام حسن. وكان على قدر من العلم والفصاحة الكاملة وكان يلقي شعرًا جيدًا ولكن كانت شخصيته ضعيفة وعابثة وكان وزراؤه ينصحونه نصائح سيئة لأنهم كانوا يبحثون عن تحقيق مصالحهم الخاصة. وكان لطيفًا وودودًا مع أصدقائه ولكنه فشل في الزعامة. وبدلًا من البحث عن سبب روحي وأخلاقي لكي يقاتل من أجله كان هدفه هو منح الأموال لشراء التأييد والمساندة. وكانت نصيحة وزيره الفضل بن الربيع هي التي جعلته يخلع أخاه عن وراثة الخلافة ويستبدل به ابنه مع أن ابنه كان لا يزال طفلًا رضيعًا؛ لذلك كتب شاعر من بغداد يهجوه:(*)

أضاع الخلافة غش الوزير..... وفسق الإمام ورأي المشير

(*) من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير.

وما ذاك إلا طريق الغرور.... وشر المسالك طرق الغرور

فعال الخليفة أعجوبة..... وأعجب منه فعال الوزير

وأعجـــب من ذا وذا أننـا..... نبايع الطفل فينا الصغير

ومن ليس يحسن مسح أنفه.... ومن لم يخل من متنه جحر طير

كان الناصح الرئيسي للمأمون ووزيره في خراسان هو الفضل بن سهل. وبمجرد أن وصلت الأنباء إلى مرو بوفاة الأمين حتى بعث المأمون بالحسن بن سهل شقيق الفضل لكي يستولي على العراق والجزيرة العربية. وأمر المأمون طاهر ذا اليدين أن يسلم كل شيء إلى الحسن وأن ينسحب إلى الرقة. وقد كان أبو مسلم الخراساني الرجل الذي مهد الخلافة للعباسيين أكثرمن أي رجل آخر مصيره القتل من الخليفة المنصور. أما طاهر ذو اليدين الذي مكن المأمون من تحقيق سلطة الخلافة فكان ينظر إليه بعين الشك. وبالنسبة لأي حاكم مستبد فإن وجود رجل يدين له بتحقيق سلطته يعتبر وضعًا غير ملائم. وأثارت ترقية الفضل والحسن أخيه إلى أعلى وظيفتين في البلاد استياءً شديدًا في بغداد، وخاصة بين أفراد الأسرة العباسية نفسها.

في فبراير عام ٨١٥ م بدأت سلسلة كاملة من الثورات وكان الذي يقودها عدد كبير من آل علي بن أبي طالب. وبدأت الأولى في الكوفة تأييدًا لحفيد حفيد حفيد حفيد علي بن أبي طالب، وتبع تلك الثورة ثورات مماثلة في مكة والمدينة وواسط والبصرة، وكل مدينة كان يستولي عليها مجموعات مختلفة من الثوار. واحتل الشيعة اليمن أيضًا. وفي العام التالي أمر الخليفة المأمون بإحضار علي بن موسى بن جعفر، وهو رجل بارز من آل الحسين الشهيد إليه في خراسان حيث استقبله بحفاوة. وفي الكوفة والبصرة ومكة والمدينة نُهبت ممتلكات العباسيين وأنصارهم، وأحرقت منازلهم وقتل كل من يلبس السواد شعار العباسيين وقد يكون آل علي بن أبي طالب قد ارتكبوا خطأً تكتيكيًا في لجوئهم إلى الناس بناءً على العاطفة

الدينية وحدها وبإظهارهم الرغبة في الانتقام من أعدائهم لذلك خسروا مصدر قوتهم، ويؤيد استياء العرب من أن المأمون كان يدين بانتصاره على الأمين إلى الدعم الفارسي إلى قيامهم ببعض الأدوار في هذه الثورات. ومر أكثر من عام قبل أن يتم استعادة النظام.

في تلك الأثناء وعلى الرغم من أن المأمون تم الاعتراف به في كل مكان بوصفه خليفةً فإنه ظل في مرو وكانت الكراهية تزداد في العراق ضد والي العراق الحسن بن سهل. وبعد فترة ثار كل سكان بغداد واضطر الحسن إلى الهروب إلى واسط، وتمرد الجنود أيضًا بسبب التأخير في دفع عطائهم. ومن الجدير بالذكر أن الرجل الذي كان قادرًا على قهر هذه الثورات وهو طاهر ذو اليدين كان منهمكًا في أداء أعمال غير مهمة في الرقة. وفي يناير عام ٨١٧ م حاول سكان العاصمة بغداد مبايعة المنصور بن المهدي عم المأمون خليفةً، وأعلنوا أنهم لن يقبلوا أن يحكمهم المجوس. وهذا المصطلح كان يشير إلى الوالي الحسن بن سهل الذي لم يكن فارسيًا فقط ولكنه كان من الداخلين الجدد في الإسلام.

رفض المنصور بن المهدي أن يقبل وظيفة الخليفة، ولكنه وافق على أن يكون واليًا لبغداد باسم المأمون. وهكذا نشأ عن ذلك وضع سخيف أدى إلى حرب أهلية فعلية في العراق بين الحسن بن سهل والي المأمون والمنصور بن المهدي عم المأمون الذي كان يعمل لحساب نفسه. وفي الوقت نفسه كان الحكم معطلًا، ولم يتم جمع الضرائب، وتم نهب قرى أسفل العراق من مرتزقة يعملون لهذا الجانب أو ذاك. وأصبحت الأوضاع في بغداد لا تطاق؛ فقد احتشد قطاع الطرق والجنود الذين توقف عطاؤهم في الشوارع، وكانوا يقتلون النساء وينهبون المحلات على الطرق ويبتزون الناس وأصحاب الأملاك الذين كانوا مضطرين إلى دفع أموال للعصابات لتأمين ممتلكاتهم.

عندما أصبح كل شيء في العراق خارج السيطرة تلقى الحسن بن سهل الوالي الذي كان يعيش في واسط ولم يكن قادرًا على دخول بغداد رسالة من المأمون يبلغه فيها أنه قد عين عليًا بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب وارثًا له

على الخلافة. وأمر الخليفة بمبايعته في كل مكان. وأمر بالإقلاع عن لبس السواد ورفع الرايات السوداء شعار العباسيين ولبس الملابس الخضراء على كل رعايا الخلافة. وهذا الأمر غير المتوقع انتشر كالقنبلة في شوارع بغداد التي كانت تسودها الفوضى فقبله الشيعة على الفور ولكن البعض رفض باستهجان أن يتخلى عن قضية بني العباس لصالح أعدائهم الألداء بني علي. ولبس البعض الزي الأخضر والآخرون رفضوا طواعية التخلي عن اللباس الأسود شعار بني العباس. وبعد ذلك في نهاية يوليو عام ٨١٦ م تم اتخاذ القرار في بغداد بمبايعة إبراهيم بن المهدي لكي يكون خليفة (وسمعنا عنه قبل ذلك بليلتين يشرب الخمر مع الأمين قبل وفاة الأخير). ورغب البعض في تولية إبراهيم بن المهدي خليفة للمأمون بينما رغب الآخرون بخلع المأمون مباشرة على أساس خيانته للعرب ولبني العباس. واشتكى الآخرون من التأثير الضار للفضل والحسن بني سهل الناصحين المجوسيين على الخليفة الشاب.

صرح المأمون بأنه اختار عليًا بن الرضا كأحق شخصية من بني العباس وبني علي بن أبي طالب لتولي الخلافة. ويقول ميوري إن الاختيار كان بسبب مكيدة رائعة من الفضل بن سهل. وكما هو معروف فإن بغداد من الناحية الجوهرية مدينة العباسيين ولا يمكن لها أن تقبل بحاكم علوي. وإذا كان الخليفة التالي من بني علي بن أبي طالب فإنه سيختار عاصمة ثانية وسيكون من السهل عليه أن يختار واحدة من مدن فارس. ثم تصبح إمبراطورية العرب إمبراطورية للفرس تمامًا.

لأن المأمون كان يقيم بخراسان فقد كان مضطرًا لأن يستمر في تهدئة الفرس الذين كانوا ساخطين على العباسيين. وكان الغضب يعم فارس كلها بسبب القتل الغادر لأبي مسلم الخراساني وإبادة البرامكة بدون رحمة.

من الصعب أن نفهم لماذا بقي المأمون لمدة أكثر من أربع سنوات في خراسان بعد مقتل الأمين وقعت فيها الإمبراطورية في فوضى. والتفسير الوحيد لذلك هوأن الفضل بن سهل

كبير الوزراء كان لا يعلم الخليفة الشاب بحقيقة الأمور. وبعد فترة في أوائل عام ٨١٨ م أخبره علي بن الرضا أن هناك حربًا أهلية تحدث في العراق بين عمه إبراهيم بن المهدي والوالي الذي عينه وهو الحسن بن سهل وأن الفضل بن سهل كتم عنه حقيقة الموقف. وأمر المأمون على الفور بالاستعداد للتحرك إلى بغداد. وبعد بداية الرحلة بوقت قصير في فبراير عام ٨١٨ م فاجأت مجموعة من أربعة رجال مسلحين الفضل بن سهل وهو يستحم وقتلته بعلم أو بدون علم الخليفة. وتم القبض على القتلة وقطع رؤوسهم ولكنهم أعلنوا جهارًا أن المأمون بنفسه هو الذي أمرهم بقتله.

في أكتوبر عام ٨١٨ م كان المأمون لا يزال في طوس حيث زار مقبرة أبيه هارون الرشيد. وهنا مات فجأة علي بن الرضا المطالب بالخلافة الذي كان المأمون قد اختاره خليفة بعده بعد تناول بعض العنب. ويزعم الشيعة أن عليًا بن الرضا قد تم تسميمه عمدًا في مدينة طوس وأعادوا تسمية المدينة التي مات فيها بمدينة مشهد مدينة الاستشهاد، وما زالت ملجأً للزائرين الذين يصبون اللعنات على المأمون في قبره. وهكذا مات الفضل بن سهل الوزير وعلي بن موسى وارث عرش الخلافة وكانا الرجلين المسئولين عن عدم شعبية المأمون وقد ماتا بصورة غير متوقعة. ووصل المأمون إلى همدان عام ٨١٩ م. وعند وصول الأخبار بقدومه قرر جنود الجيش المتقلبون وسكان بغداد خلع إبراهيم بن المهدي الذي بايعوه من قبل سنتين. وأعيد ذكر اسم المأمون أمير المؤمنين مرة ثانية في صلاة الجمعة في المساجد.

في سبتمبر عام ٨١٩ م دخل المأمون إلى المدينة. وكانت ملابسه وملابس خدمه وأعلامهم وشعاراتهم خضراء. ولم يجتمع الخليفة مع أحد إلا إذا لبس الملابس الخضراء. وأتاه الكثير من المحتجين وخاصة من الأسرة العباسية وأنصارها، وبعد أسبوع لان لرأيهم ولبس السواد بنفسه. وفي خلال عدة ساعات تمت إزالة كل الملابس الخضراء من بغداد. ويمكن أن نستنتج أن المأمون كان يطمح إلى مصالحة بني علي بن أبي طالب، ولكنه بعد حين أدرك عمق مشاعر الكراهية لهم عند بني العباس فقرر أن يتخلى بحكمة عن موضوع تغيير الألوان.

كما روينا من قبل فإن الشيعة كانت في الأصل جماعة سياسية يؤمن أعضاؤها أن الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم تؤول إلى علي بن أبي طالب وبنيه. وفي تلك الأيام زاد عدد أفراد بني علي زيادة كبيرة وانقسمت الشيعة نفسها إلى عدة طوائف كل طائفة تؤيد مبايعة عضو مختلف عن الآخر من بني علي أو تتبنى بعض النقاط العقائدية التي يرفضها الآخرون. وروي أنه في عصر أو في آخر كان يوجد حوالي سبعين طائفة شيعية مختلفة.

وعلى الرغم من أن أصل الشيعة بناءً على ذلك هو قضية سياسية تخص الوارث الشرعي للنبي صلى الله عليه وسلم فإنها أصبحت حركة دينية عاطفية بمرور الزمن. وأدت الهزائم المختلفة التي مُني بها الشيعة إلى اهتمامهم المتزايد بعقائدهم الروحية السرية، وإلى تخليهم التدريجي عن الأمل في منافسة السلطة الدنيوية.

تبعًا للعقيدة التي يؤمن بها الشيعة فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد رشح عليًا وبنيه لكي يخلفوه كأئمة. وكل إمام عين واحدًا من أبنائه لكي يخلفه. ويؤمن الشيعة أن كل إمام بدوره ورث عن سلفه قسطًا من القداسة. والإمام الشرعي في أي لحظة هو إلى حد ما تجسيد للنور الإلهي. وبمعنى أصح والحالة كهذه فإن الإمام معصوم من الذنوب والأخطاء، لا يخطئ، ورباني.

هذا المفهوم يعارض بصفة أساسية الفكرة السنية عن الخليفة التي تعتبر الخليفة مجرد زعيم للمجتمع الإسلامي طالما أنه يراعي كثيرًا شئون المجتمع الدنيوية. وواجب الخليفة السني أن ينفذ قوانين الشريعة المستمدة من القرآن والسنة. وأن يدير الشئون المالية للمسلمين ويقودهم في الحرب. وليس له تشريع روحي. أما إمام الشيعة فعلى العكس هو فيض من فيوضات الله، وله سلطة روحية معصومة.

كانت طوائف مختلفة من الشيعة تؤمن بفروع مختلفة من آل علي بن أبي طالب كسلسلة للأئمة الشرعيين. ونشأت مشكلة جديدة بعد ذلك عندما مات الإمام الشرعي دون

أن ينجب ذرية لأن العقيدة الشيعية تقول إن النور الإلهي يسير من الإمام إلى واحد من أبنائه. وهذه المشكلة نشأ منها عقيدة الإمام الغائب؛ فالإمام الذي يموت دون ذرية يعتقد الشيعة أنه حي على الرغم من غيابه. وهذا الإمام الغائب؛ سيعود في صورة المهدي لكي يبشر بحكم السلام والعدالة في العالم. ويؤمن السنة أيضًا بعقيدة عودة المهدي ولكنه يلعب دورًا أقل أهمية من الذي يؤديه في عقيدة الشيعة.

يؤمن الزيدية أن زيدًا حفيد الحسين المقتول في الكوفة هو الإمام الغائب. ويؤمن الإسماعيلية أن الإمامة تسير في آل إسماعيل. وتزعم مجموعة أخرى أن محمدًا بن إسماعيل كان آخر الأئمة وأنه هو الذي سيعود في صورة المهدي. ولأن إسماعيل هو السابع من آل علي عُرف هؤلاء باسم مجموعة السبعة. وترفض أغلبية الشيعة ذرية إسماعيل وتتبع ذرية الأئمة من خلال ذرية أخيه موسى الكاظم. والثاني عشر من آل علي في هذه السلسة هو محمد بن العسكري الذي يروى أنه اختفى في سرية عندما كان شابًا وتعتقد هذه الطائفة من الشيعة أنه الإمام الغائب والمهدي المنتظر (اختفى محمد عام ٨٩٠ م بعد العصر الذي نكتب عنه). ولأنه كان الثاني عشرمن آل علي يعرف أنصاره بالشيعة الاثنى عشرية.

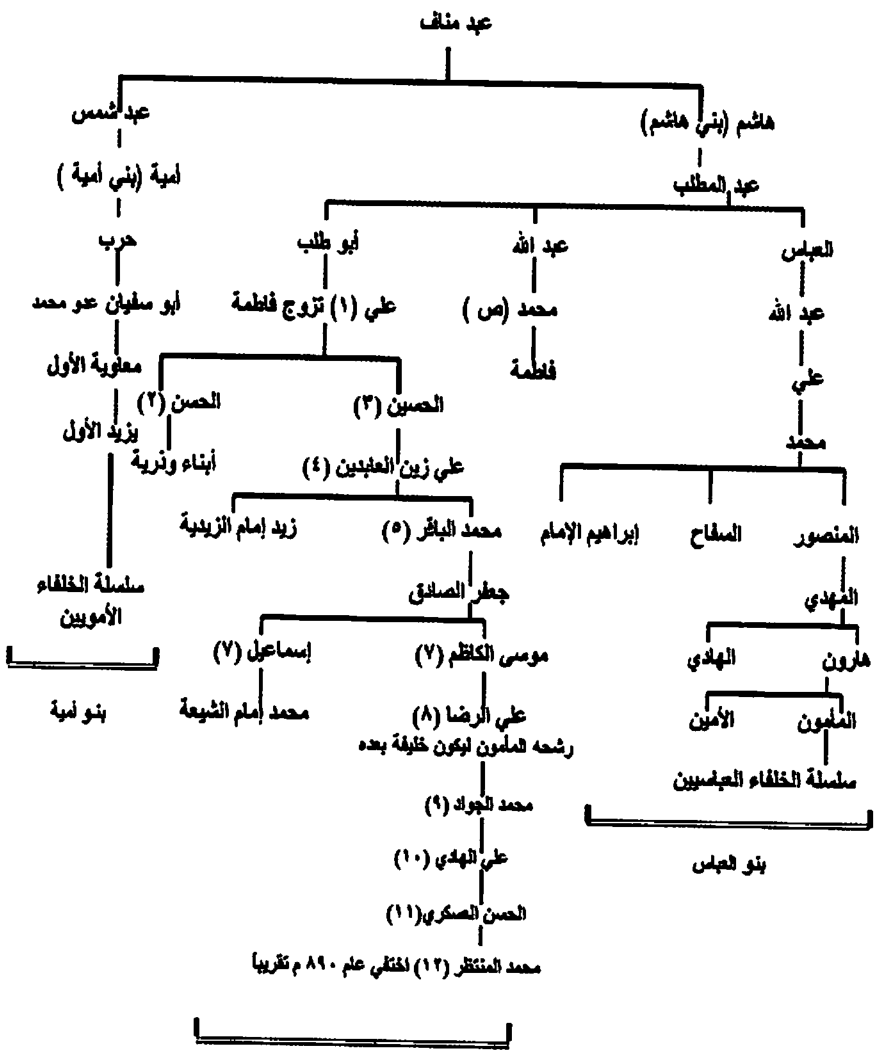
كان علي بن الرضا بن موسى الكاظم هو الرجل الذي رغب المأمون في الاعتراف به كخليفة بعده. ولأن عليًا كان في ذلك العصر إمام الشيعة الذي يتجلى فيه النور الإلهي تبعًا لعقيدتهم فإن الاعتراف به كخليفة لكل بلاد المسلمين كان سيوحد العالم الإسلامي من الناحية النظرية. وفي الحقيقة فقد كانت هناك مصالح كثيرة ثابتة يجب مراعاتها وأرصدة قديمة كثيرة يجب دفعها لجعل هذا الأمر ممكنًا.

نلاحظ أن عقائد الشيعة مثل تجسيد الأئمة، وتجلي الله في الأئمة وعودة المهدي في اليوم الأخير قد تكون إلى حد ما نتيجة تأثير العقيدة المسيحية(*). وفي بعض الأماكن يعتقد المسلمون أن المسيح سوف يعود في اليوم الأخير، والتمييز بين دوره ودور المهدي قد يكون غامضًا إلى حد ما فيما عدا مجموعة واحدة تعتقد أن المهدي سيكون هو المسيح.

(*) (لا تقول العقيدة المسيحية بعودة المهدي في آخر الزمان – المترجم).

شجرة نسب أئمة الشيعة

•••



ملحوظة: ١- علي بن موسى كان هو الذي رشحه المأمون لكي يتولى الخلافة بعده .
٢- الأرقام التي تظهر بعد الأسماء تتابع أئمة الشيعة .
٣- كل إمام للشيعة له لقب مثل الصادق المقبول الكريم ..... إلخ .

كما رأينا فإن طاهرًا ذا اليدين بعد وفاة الخليفة الأمين عاش مغمورًا في الرقة بسبب غيرة الوزير الفضل بن سهل، وبعد قتل الأخير استدعى المأمون طاهرًا إلى بغداد. وربما كان نفيه إلى الرقة من تدبير الفضل بن سهل ولكنه الآن في بغداد، ووجد الخليفة أن وجوده قد يكون مربكًا له لأن طاهرًا صار عظيمًا جدًا. وبمعنى أصح فإن الارتباك كان متبادلًا. وفي أحد الأيام قيل لطاهر إن المأمون يبكي لذكرى أخيه الأمين (الذي تسبب طاهر في قتله) وكانت ذكرى مصير أبي مسلم الخراساني لا تزال حية في نفوس الناس فقرر طاهر أن يسافر بعيدًا عن العاصمة لكي يضمن سلامته. ودفع رشوة كبيرة لأحد أفراد الحاشية من ذوي النفوذ لدى المأمون فولاه المأمون واليًا على خراسان وجبال من حلوان إلى الشرق. وفي مايو عام ٨٢١ م غادر طاهر بغداد على رأس كتيبة عسكرية لكي يباشر مهامه. وكان ممتعضًا من نقص معرفة الخليفة بالخدمات التي قدمها له. وبعد أن وصل إلى خراسان بوقت قصير أمر بحذف اسم المأمون من خطبة الجمعة، وهناك أعلن استقلاله فعليًا عنه وكان الخراسانيون يشعرون بأنهم خدعوا مرتين من العباسيين فقد وعد السفاح والمأمون بتحقيق العدل والتقوى ولكنهما تخليا عن وعدهما بمجرد أن توليا السلطة. وبناءً على ذلك رحبوا بوجود أسرة محلية حاكمة مستقلة عن بغداد. وبعد ذلك بوقت قصير مات طاهر ذو اليدين على الأرجح مسمومًا بأمر من المأمون الذي كان مضطرًا إلى الاعتراف بابنه طلحة كخليفة بعده.

الذي يعرف القصة الكاملة لإمبراطورية العرب من الغريب بالنسبة له أن يرى أسباب انحلالها تظهر وتزداد على الرغم من أن هؤلاء الذين كانوا يعيشون في تلك الفترة كانوا يرون الإمبراطورية في قمة مجدها وسلطتها. فالفترة الأولى من حكم المأمون وهي فترة الأربع سنوات التي قضاها مع كبير وزرائه الفضل بن سهل وهو يتحكم فيه كليةً ولا يدري الخليفة أي شيء عما يحدث في خلافته تنذر بقدوم عصر الخلفاء الألعوبة الذي سيأتي.

أدى التقلب المستمر لأحوال الجنود المرتزقة الذين حاولت كل الأطراف أثناء هذه السنوات من الاضطراب والحرب الأهلية شراءهم بالهبات المالية، والذين اتفقوا في تلك الأثناء على السلب والنهب والقيام بالشغب إلى توقع انفلات عسكري في المستقبل. وكانت بذور كل هذه المشاكل مرجعها إلى الثورة العباسية نفسها. وكان العباسيون في المعارك التي كانوا يخوضونها ضد الأمويين وآل علي بن أبي طالب لا يثقون في الجنود العرب، ووصلوا إلى الخلافة بأسلحة المرتزقة الفرس والأتراك الذين كان يقودهم زعماؤهم العباسيون. وعندما حققوا الانتصار شغل الجنود المنتصرون المراكز المهمة في الدولة وتم إقصاء زعماء القبائل العربية.

في معظم الأحوال يميل المؤرخون الغربيون إلى اعتبار أفول نجم الطبقة الأرستقراطية العربية ميزة وليس عيبًا. والابتهاج بقمع قادة الحرب العرب المتعجرفين في ذلك الوقت يجعلنا ننسى أن القواعد السياسية هي أمور متوازنة إلى حد كبير. وأدى زوال الطبقة الأرستقراطية العربية إلى خلو الجو للمرتزقة الأجانب الذين أصبحوا بسرعة الحكام الحقيقيين. ولو كان العرب يشاركون بفاعلية في المضمار السياسي لكانوا قد تساووا مع الجنود غير العرب حتى لو كانوا بدون قصد يدافعون عن حرية كل من الخليفة والناس. ونظرًا لزيادة سلطة الأجانب فإن الرجال الذين كانوا من قرن ونصف قد أقاموا إمبراطورية بذلك الاتساع يشير إليهم الكتاب المعاصرون في ذلك الوقت بأنهم رجال القبائل المتشردون أو الدهماء.

السبب الثالث لانحلال الإمبراطورية هو ما قام به الخلفاء بالسماح لرجل بارز إلى حد ما بتولي ولاية إقليم وتوريث ذلك إلى ابنه. وحتى هارون الرشيد في ذلك السبيل سمح لإبراهيم بن الأغلب بأن يقيم أسرة حاكمة مستقلة تمامًا في أفريقيا. وبعد ذلك أقام طاهر ذو اليدين في خراسان مقاطعة شبة مستقلة شبيهة بدولة الأغالبة في أفريقيا. ومهما كان التملق الذي تبديه هذه الأسرة الحاكمة التابعة للخليفة فإن سيطرة الخليفة الفعلية عليهم قد تقلصت بثبات. ولم تكن حركات الاستقلال المحلية سببًا في تمزيق الإمبراطورية. ولم

تكن هذه الأفكار معروفة في القرن التاسع الميلادي. وكان من أسباب تمزيق الإمبراطورية تراخي وترف الخلفاء الذين كانوا يفتحون أقاليم بعيدة يتلقون منها الجزية بدون تحمل مشقة الحكم أو قيادة وإرسال الجنود. ومن المهم أن نتذكر أنه عندما سأل أحد الناس عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين كيف نجح في حكم العرب قال: «بالتغيير المستمر لقادتهم». ولم تكن فكرة الخدمة المدنية المنتظمة معروفة في القرن التاسع، ولكن إذا كان الخلفاء جادين أكثر في تغيير ولاة الأقاليم في فترات منتظمة لم تكن تلك الأسرات الحاكمة الصغيرة لتثير الشغب.

يشار إلى طائفة الخرَّامية بسبب صلتها بوفاة أبي مسلم الخراساني. واسم هذه الطائفة يستمد من مكان يطلق عليه خرَّام في إقليم أردبيل في أذربيجان. ويبدو أنها فرقة من الفرق الخارجة عن الإسلام كانت تؤمن بتناسخ الأرواح وبرجوع أبي مسلم في المستقبل في صورة المهدي.

كان عام ٨١٩ م عام المجاعة والأوبئة في فارس عانى فيه الفقراء كثيرًا. واحتجاجًا على هذه الأوضاع نشبت ثورة في أذربيجان بزعامة بابيك من طائفة الخراميين. واستمر البابيك في ثورته في بلاد جبلية صعبة، وكان يقود حرب عصابات رائعة وأصبح بطلًا في نظر الفلاحين، واستمر يقاوم الإمبراطورية لمدة اثنتين وعشرين سنة. وسنسمع عنه أكثر في الفصول التالية.

في عام ٨٢٥ م سلم إبراهيم بن المهدي شقيق هارون الرشيد نفسه أو قبض عليه. وكان مختفيًا لمدة ست سنين. وكان هو الذي بايعه الناس في بغداد خليفة أثناء وجود المأمون في خراسان. ورحب به المأمون وعفا عنه. ومن المأثور في هذا العصر ألا نسمع عن بتر الأيدي والأقدام وقطع الرؤوس التي اعتدنا عليها في العصور السابقة. وعفا المأمون تقريبًا عن كل العصاة والخصوم السياسيين الذين ظهروا في عهده.

في يناير عام ٨٢٦ م تزوج المأمون بوران ابنة كبير الوزراء الحسن بن سهل. وفي مساء يوم العرس نثرت ألف لؤلؤة على رأس العروس. وروي أن الحسن بن سهل أنفق

خمسين مليونًا من الدراهم على الاحتفال بينما ألقيت رقاع تحمل أسماء واحد أو آخر من ضياع الوزير وأملاكه على الناس لكي يجمعوها، ومن تقدم منهم بعد ذلك ومعه رقعة استلم ما هو مدون فيها. ومن الغريب أن نعتقد أن هذه الثروة والمظاهر الكبيرة قد وفدت على بني العباس على أساس أنهم آل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم الذي اعتبر الخلود للراحة في الليل إذا كان هناك طعام أو مال في المنزل إثمًا لأن الله سبحانه يرزق الإنسان كل يوم ولذلك حتى تخزين كيس من التمر كل يوم يدل على نقص الإيمان(*). كانت الثروات الكبيرة التي كان يمتلكها الخلفاء ووزراؤهم والتي نتج عنها التراخي والترف بالطبع ثمرة من ثمار نظام الضرائب. ولا نستطيع في ذلك الوقت أن نحكم على هذا النظام طبقًا للأفكار الحديثة للمالية العامة والتي ترجع إلى قرنين أو ثلاثة على أقصى تقدير؛ ففي المجتمعات السابقة كانت الشئون العامة والخاصة غالبًا ما تكون مختلطة في أذهان الناس والحاكم. ومنذ مائتي عام أو أكثر قال لويس الرابع عشر إنه هو الدولة. ولا يوجد أي دليل يظهر أن شعوب الإمبراطورية العربية كان عندهم أدنى وعي أن الدخل العام لا ينبغي أن ينفق على ملذات الخليفة. وقد يستهجنون شربه للنبيذ على أساس ديني ولكنهم لم يتصوروا أن الأموال التي تجبى من الضرائب يجب أن تنفق بصورة منفصلة عن خزانة الخليفة الخاصة.

في تلك الأثناء قامت ثورة في كل من سوريا وإقليم الجزيرة وكان الوضع في مصر مضطربًا. ورأينا قبل ذلك الثوار المطرودين من إسبانيا يستولون على الأسكندرية ويقيمون حكومة خاصة بهم هناك. وفي عام ٨٢٥ م بعث الخليفة بعبد الله الابن الثاني لطاهر ذي اليدين ومعه جيش لإعادة البلاد إلى سيطرة الخليفة. وتمكن من ذلك بدون صعوبة واستولى على الفسطاط وبعدها الأسكندرية. وترك الثوار الإسبان الإسكندرية بالبحر وفتحوا جزيرة كريت حيث أقاموا حكومتهم الإسلامية المستقلة هناك.

(*) (المقصود بذلك السعي على الرزق بالنهار وعدم الاعتماد علي وجود الطعام أو المال في المنزل – المترجم).

عندما أعاد عبد الله بن طاهر مصر إلى حوزة الإمبراطورية عينه الخليفة المأمون واليًا على إقليم الجزيرة وسوريا وفلسطين ومصر، وأصبح أخوه طلحة في الوقت نفسه واليًا على فارس بعد أبيه طاهر ذي اليدين.

تواريخ بارزة

- ٧٧٨ م...... غزو شارلمان لإسبانيا، ووفاة رولاند في رونسيسفال.

- ٧٨٨ م..... وفاة عبد الرحمن بن معاوية حاكم إسبانيا.

- ٧٩٦ م......وفاة هشام بن عبد الرحمن.

- ٨٢٢ م.......وفاة الحكم بن هشام.

الخلافة

- ٨٠٩ م.....تولي الأمين.
- ٨١١ م.....الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون.
- أبريل ٨١٢ م......الكوفة والموصل والبصرة ومكة، والمدينة تبايع المأمون.
- سبتمبر ٨١٢ م......طاهر ذو اليدين يحاصر بغداد.
- سبتمبر ٨١٣ م..... سقوط بغداد، ووفاة الأمين.
- ٨١٥ م......ثورات الشيعة المتعددة.
- ٨١٦ م...... الثورة في بغداد، ومبايعة إبراهيم بن المهدي.
- ٨١٩ م...... المأمون يدخل بغداد.
- ٨١٩ م.......ثورة البابيك في أذربيجان.
- ٨٢١ م.......تولية طاهر ذي اليدين واليًا على خراسان.
- ٨٢٢ م.......وفاة طاهر وابنه طلحة يخلفه.
- ٨٢٥ م.......عبد الله الابن الثاني لطاهر والي مصر.

الشخصيات

الأندلس

- الأمير عبد الرحمن الأول
- الأمير هشام بن عبد الرحمن
- الأمير الحكم بن هشام
- شارلمان إمبراطور الغرب

الخلافة

- الخليفة الأمين بن هارون الرشيد
- الخليفة المأمون بن هارون الرشيد
- طاهر ذو اليدين القائد الذي عينه المأمون
- علي بن موسى المطالب بالخلافة من آل علي بن أبي طالب وإمام الشيعة
- الحسن بن سهل كبير وزراء المأمون
- البابيك الخرامي ثائر في أذربيجان
- طلحة بن طاهر، وعبد الله بن طاهر أبناء ذي اليدين

الفصل السابع عشر

عصر الثقافة

من غير المجدي ولو كان الأمر تسلية سارة تحليل شخصية الأمم؛ نظرًا لأن الأمة أعقد من أن تتعرض لأي اختبار إحصائي مفصل. وأول ما يلفت الأنظار في ذلك هو القوة الاستيعابية الفريدة للثقافة العربية، ويسيء المؤرخون تمثيلها كثقافة تقليدية محضة. وحدت الفتوحات العربية للمرة الأولى في التاريخ كلاً من عادات شعوب البحر الأبيض المتوسط التي ترجع إلى ألف عام وحضارة فارس الغنية. وانبثقت حضارة جديدة من تعايش شعوب عديدة داخل المجتمع الإسلامي تحمل البصمة المميزة للإسلام العربي.

(الأستاذ برنارد لويس – العرب في التاريخ)

لم يكن يعتقد أنه من الضروري أن يتعذب في هذه الدنيا لكي يتمتع بالجنة في الآخرة.

(ويليم بيكفورد)

كان المأمون شغوفًا منذ صغره بالكتب والقراءة ودراسة الفقه والتاريخ، وكان يتكلم ويتحدث بالعربية الفصحى وكان شاعرًا مجيدًا. وكشاب لم يكن يبالي بالجنس اللطيف ولكنه لم يكن منغمسًا في الشهوات.

في إحدى المناسبات كانت إحدى الجواري تصب الماء للخليفة هارون الرشيد لكي يغسل يديه عندما قبلها ابنه المأمون الشاب الذي يقف خلف أبيه فاستنكرت ذلك وعبست في وجهه قليلًا وابتسمت سريعًا، ولكنها عندما فعلت ذلك توقفت ثواني قليلة عن صب الماء

فنظر هارون الرشيد إليها وقال: «ما خطبك؟» فتلعثمت الفتاة واحمر وجهها ثم همست: «لا شيء» فانتاب الخليفة القلق وقال: «ما كل هذا؟» «قولي الحقيقة مباشرة أو سآمر بتعذيبك وقتلك» هكذا بعد أن هددها اعترفت بالأمر لكي تحرج المأمون، وقالت بأنه قبلها فوق ظهر أبيه فقال له الرشيد «هل تحبها؟» «إذا كنت تحبها يمكن أن تكون لك بشرط أن ترتجل أبياتًا من الشعر (*) على تلك الواقعة» فقال دون تردد:

ظبي كنيت بطرفي.... عن الضمير إليه

قبلته من بعيد........ فاعتل من شفتيه

ورد أخبث رد...... بالكسر من حاجبيه

فما برحت مكاني....... حتى قدرت عليه

قدم تاجر عبيد ذات مرة للمأمون جارية طلب فيها ألف دينار. وفي تبريره للسعر قال إنها خبيرة فذة في ارتجال الشعر وإنها فصيحة ولها عادات معينة ولاعبة شطرنج جيدة فقال له المأمون «إذا كانت تستطيع أن تكمل بيت الشعر الذي سأرويه لها ببيت من عندها فسأشتريها بالسعر الذي تحدده، ثم التفت إلى الفتاة وروى لها بيتين من الشعر فأكملت الفتاة مباشرة البيتين اللذين رواهما ببيتين من عندها بالقافية والوزن أنفسهما».

من المهم أن نلاحظ أنه في تلك الفترة كان وارثو عرش الإمبراطورية البيزنطية يختارون زوجاتهم في عروض العرائس. وكان رسل الإمبراطور يرسلون إلى كل الأقاليم للبحث عن العذراء المناسبة التي لها جمال فريد، وتتمتع بالذكاء والأخلاق الحميدة التي تجعلها تستحق أن تكون زوجة الإمبراطور. وكان يلي ذلك إجراءات مادية مطلوبة في الأنظمة ولجنة الاختيار التي كانت تقيس فعليًا الوجه والرأس والقوام وقدمي المرشحة.

(*) من كتاب (مصارع العشاق) للسراج البغدادي.

وفي اليوم المحدد تتجمع المرشحات في حجرة من حجرات القصر تحت إشراف الإمبراطورة الحاكمة أو الإمبراطور.

عندما أراد الإمبراطور ثيوفيلس الذي جاء بعد ذلك اختيار عروسته قدمت له أمه تفاحة ذهبية لكي يقدمها إلى عروسه. وعندما مر خلال هذا الفوج من الجميلات توقف أمام امرأة شابة اسمها كازيا وتلى تلك الأبيات من الشعر:

المرأة هي المعين والمصدر .... لكل محن الإنسان

فأكملت كازيا مباشرة البيت:

المرأة ينبع منها مسار........تجديد نسل الإنسان

على الرغم من سرعتها في الإجابة لم يقدم ثيوفيلس لكازيا التفاحة ولكنه استمر في المسير وقدم التفاحة إلى تيودورا التي تزوجها بعد ذلك.

تقدم لنا هذه القصة مثالًا آخر من أمثلة عديدة تظهر لنا أننا يجب ألا ننظر إلى الإمبراطوريتين العربية والبيزنطية باعتبارهما إمبراطوريتين مختلفتين ومتناقضتين فعليًا ليس بينهما شيء مشترك فكل إمبراطورية كانت تؤثر في الأخرى بصورة عميقة. وكل واحدة كانت تقلد عمارة الأخرى وأزياءها. وحتى الأسلحة وتنظيم الجيوش والبحرية كانت متماثلة في الاثنتين. وكل منهما كان يأسر الكثير من الأسرى في الحروب ويبيعهم عبيدًا». كلتاهما كانت تستعمل التعذيب القاسي وبتر الأعضاء. وكلتاهما كانت تقوم ضدهما ثورات باستمرار وبالأسلوب نفسه كانت تكملة أبيات الشعر وسيلة من وسائل التسلية الأنيقة ولكن كانت هناك سمة من السمات البارزة عند البيزنطيين هي أنهم عندما ينهمكون في التسلية كان الموضوع المختار لأبيات الشعر هو موضوع ديني عويص.

عندما نضج عمر المأمون اهتم بنشر الفلسفة وأصبح راعيًا للشعراء. وكان بذكائه الحاد مهتمًا بكل فروع المعرفة وكرس وقته لدراسة الفلك والطب وأيضًا الشريعة والدين والفلسفة، وكان مهتمًا بصفة خاصة بفلسفة اليونان القديمة وكان عنده عدد لا بأس به من المترجمين قدموا مؤلفات يونانية كثيرة في ترجمات عربية نسمع عنها كثيرًا بعد ذلك.

أطلق على المأمون لقب حكيم العباسيين. وكان أكثر إنسانية وتسامحًا ممن سبقه من الخلفاء وحتى الثوار كان نادرًا ما يعدمهم. وروي أنه قال في إحدى المناسبات: «والله إني لأسير في العفو إلى ذلك المدى الذي يجعلني أخشى ألاّ يجازيني الله عليه لأني أفعل ذلك لتسرية نفسي ولو علم الناس كم أحب كثيرًا العفو لأتى إليّ كل المذنبين».

كما أشرنا من قبل كان يبدي في بداية حكمه ميلًا كبيرًا لآل علي بن أبي طالب الذين قاموا على مدار قرن ونصف بسلسلة غير منتهية من الثورات غير المجدية. وكما رأينا فإنه ذهب إلى أبعد من ذلك بأن نوى أن يعقد الخلافة من بعده لعلي بن الرضا من آل علي بن أبي طالب. ولكن عند وصوله إلى بغداد أقنعه السياسيون الخبراء بأن هذا التعاطف الذي يزيد عن حده مع آل علي ليس عمليًا من الناحية السياسية.

قبل نهاية حياته سببت الدراسات الفلسفية للمأمون في أن يؤمن بعقيدة طائفة المعتزلة ومن جانب علم أصول الدين نشأت حركة المعتزلة من تعريف منزلة المسلم الذي يرتكب الكبيرة فالخوارج يقولون إن هذا المسلم خرج عن الإسلام وأصبح كافرًا. أما الآخرون فيقولون إنه لا يزال مسلمًا. ووضع المعتزلة هذا المسلم في منزلة بين المنزلتين فهو ليس مسلمًا صالحًا ولا كافرًا.

في عصر المأمون نادى المعتزلة بقضية أخرى من قضايا العقيدة. وكانت العقلية البسيطة للمسلمين الأوائل تقبل بلا شك عقيدة أن القرآن كان يوجد منذ الأبد في السماء وأضاف المعتزلة في ذلك العصر أن القرآن يجب أن يكون مخلوقًا منذ الأبد. وبذلك يتعرض مبدأ وحدانية الله وهو أكثر الأركان الرئيسية في العقيدة الإسلامية للخطر في سبيل عقيدة أخرى لا يمكن إثباتها.

قبل وفاته اعتنق المأمون بحماس عقيدة خلق القرآن. وأمر باستدعاء الفقهاء الكبار إلى العاصمة بغداد واستجوابهم عما إذا كان القرآن مخلوقًا أم لا. وبعد تهديدهم بضرب أعناقهم أجابت الأغلبية العظمى منهم بأن القرآن مخلوق.

من المهم أن نلاحظ أن المناقشات الحادة التي أثارتها الفلسفة وعلم الكلام تمثل جانبًا آخر من تطور الطرق العربية في التفكير؛ ففي أيام الإسلام الأولى انقسم البيزنطيون عن طريق الخلافات اللاهوتية الحادة، ولكن العرب من الناحية الجوهرية كانوا شعبًا عمليًا يهتمون فقط بما كان يريده الله منا أن نفعله. ولكن في ذلك العصر أدت مصاهرة العرب الأصليين لليونانيين والفرس إلى إدخال مناقشات فكرية مشابهة إلى الإمبراطورية العربية. روينا قبل ذلك كيف أن الإمبراطور ليو الخامس أمر بربط مايكل العموري مع قرد وإلقائه في فرن القصر وكيف أن ليو نفسه قد تم اغتياله صباح اليوم التالي ونُصِّب مايكل إمبراطورًا. وكان مايكل ضابطًا بالجيش وأدى ارتقاؤه المفاجئ لعرش الإمبراطورية إلى إثارة غيرة أقرانه من الضباط وهي مشكلة واجهت الكثير من الحكام العسكريين المستبدين في منطقة الشرق الأوسط في أيامنا هذه.

في عام ٨٠٣ م كان توماس أوف جازيرا قد اتحد مع مايكل العموري للقيام بثورة عسكرية ضد الإمبراطور نيسيفورس. وعندما فشلت هذه الثورة لم يجد الملك أي دليل ضده، وحظي عنده ودخل في خدمته مما أدى به في النهاية إلى اعتلاء عرش الإمبراطورية البيزنطية. أما توماس فتم نفيه إلى سوريا لأنه لم يكن المخطط الرئيسي للثورة، وبقي هناك لمدة عشرة أعوام من ٨٠٣ م إلى ٨١٣ م. وفي عام ٨٢٠ م قاد توماس ثورة عسكرية أخرى ضد ليو الخامس الذي كان قد تم اغتياله قبل قمع تلك الثورة. وعندما اعتلى مايكل العموري عرش الإمبراطورية كان رفيق سلاحه الضابط توماس ما زال ثائرًا وكان يقود جيشًا على حدود أرمينيا. وكانت أول خطوة اتخذها ألا يسير إلى القسطنطينية ولكن يغزو الإمبراطورية العربية. وفي عام ٨٢٣ م كان المأمون لا يزال في خطر وكانت ثورة بابيك في أذربيجان لا تزال في أوج ذروتها. وكان الخليفة يجد صعوبة في القيام بحملة عسكرية ضد توماس.

بدأت المفاوضات بين الخليفة وتوماس كما كان ينوي بلا شك؛ لأنه عاش لمدة عشرة أعوام في المنفى بين المسلمين. وكان معتادًا على سياسات العرب. وتم التوصل إلى اتفاق

بسرعة تعهد فيه المأمون بمساعدة الثائر توماس لكي يصل إلى عرش الإمبراطورية البيزنطية، وفي المقابل وافق توماس على استسلام حصون حدودية معينة ووافق أيضًا على دفع الجزية للخليفة. وتم تتويج توماس إمبراطورًا بيزنطيًا وقام بذلك البطريرك كريستيان الأرثوذكسي بطريرك إنطاكيا في البلاد العربية.

كان من المتوقع أن إبرام تلك الصفقة مع أعداء شعبه التقليديين ستفقد توماس تأييد البيزنطيين، ولكن العكس هو الذي حدث فقد انضم إليه تقريبًا كل قوات آسيا الصغرى البيزنطية وفي ديسمبر عام ٨٢١ م حاصر القسطنطينية نفسها. واستمر الحصار لمدة خمسة عشر شهرًا حتى ربيع عام ٨٢٣ م عندما وصل البلغار إلى مكان الحصار بناءً على طلب مايكل على الأرجح، وهزموا توماس في قتال ضارٍ. وخرج مايكل من القسطنطينية لكي يتولى أمر هذه الواقعة الحاسمة. وقام بأسر توماس أوف جازيرا. وسحب مقيدًا بالسلاسل إلى مكان وجود مايكل الذي لم يخف فرحه بذلك، ووطئ بقدمه على رقبة خصمه الساجد. وأمر بقطع يديه ورجليه، وإدخال خازوق في جسده.

تعتبر دراسة الحرب الأهلية بين توماس أوف جازيرا ومايكل العموري مهمة بالنسبة إلينا في دراستنا للإمبراطورية العربية المعاصرة. فمن ناحية يتبين لنا أن الإمبراطورية المسيحية البيزنطية كانت تحت تأثير الاغتيالات والحروب الأهلية والثورات مثل الإمبراطورية العربية تمامًا. ومن ناحية أخرى عندما ننظر إلى حقيقة أن توماس كان حليفًا للخليفة العربي وكان يحوز على تأييد شعبي كبير من البيزنطيين فإن ذلك يثبت أن الشعب البيزنطي لم يكن ينظر للعرب كأعداء مكروهين لوطنه. ومن ناحية ثالثة وأخيرة نلاحظ أن إعدام توماس كان يصاحبه قطع يديه ورجليه وتخوزقه بخازوق بكل القسوة الانتقامية التي تثير الاشمئزاز عندما يطبقها العباسيون.

في عام ٨٢٩ م مات طلحة بن طاهر ذي اليدين في خراسان وخلفه أخوه عبد الله واليًا على شرق فارس. وعين الخليفة شقيقه الآخر لكي يكون نائب الخليفة على مصر وسوريا. ومن الغريب أن الخلفاء العباسيين المتأخرين لم يسمحوا فقط لولاة الأقاليم لكي يكوّنوا

ولايات مستقلة فعلية بل أيضًا عينوا مرارًا أفرادًا من عائلة الولاة نفسها في كثير من الوظائف المهمة في الإمبراطورية في الوقت نفسه. وفي الوقت نفسه وفي أذربيجان بدأ عام ٨٢٩ م بقتال شديد ضد الثائر بابيك الخرامي.

بصرف النظر عن مكيدة المأمون مع توماس لم يحاول العرب فتح أي بلاد بيزنطية لمدة ثمانية عشر عامًا ؛ وبمعنى أصح منذ الحملات الهجومية لهارون الرشيد في آسيا الصغرى وكانت الحرب الأهلية بينه وبين الأمين يليها الصراعات في العراق وفي أماكن أخرى تشغل بال الخليفة. ومع ذلك فإن الغارات الصيفية على الإمبراطورية البيزنطية كانت عادة عربية متأصلة. ويمكن أن تقنع الأعداء بأن سلطة المأمون آمنة وقد قاد هو بنفسه غزوًا جديدًا لآسيا الصغرى في صيف عام ٨٣٠ م. ودخل أراضي الأعداء عن طريق طرسوس، بينما عبر ابنه العباس الحدود الشرقية لمالاتيا على الأرجح عن طريق حاديس على رأس جيش ثانٍ. وفتحت بلاد عديدة وتم تدمير بعضها قبل انسحاب الجيوش الإسلامية في الخريف عبر الحدود. وعند عودته قام الخليفة بزيارة إلى دمشق ومصر.

بعد انسحاب المأمون قام البيزنطيون ببعض الهجمات الانتقامية ضد المصيصة، وكان نتيجتها أن المأمون عاد للهجوم في السنة التالية. وفي تلك الأثناء في القسطنطينية مات الإمبراطور مايكل العموري وتولى العرش ثيوفيلس ابنه. ولقد كان مايكل عنيفًا وقاسيًا ولكن كان ثيوفيلس عقلانيًا. وفي أضنة استقبل الخليفة وفودًا من الإمبراطور تسعى إلى السلام ولكنه رفض طلبهم، وعبر المأمون الحدود في يوليو عام ٨٣١ م، وتقدم إلى هيرقليا في كيليكيا التي استسلمت دون مقاومة. وانقسم الجيش الإسلامي عندئذ إلى جيشين حملا النار والسيف إلى قلب آسيا الصغرى. وفي الخريف عاد المأمون إلى دمشق ومن هناك إلى مصر حيث نشبت فيها بعض القلاقل.

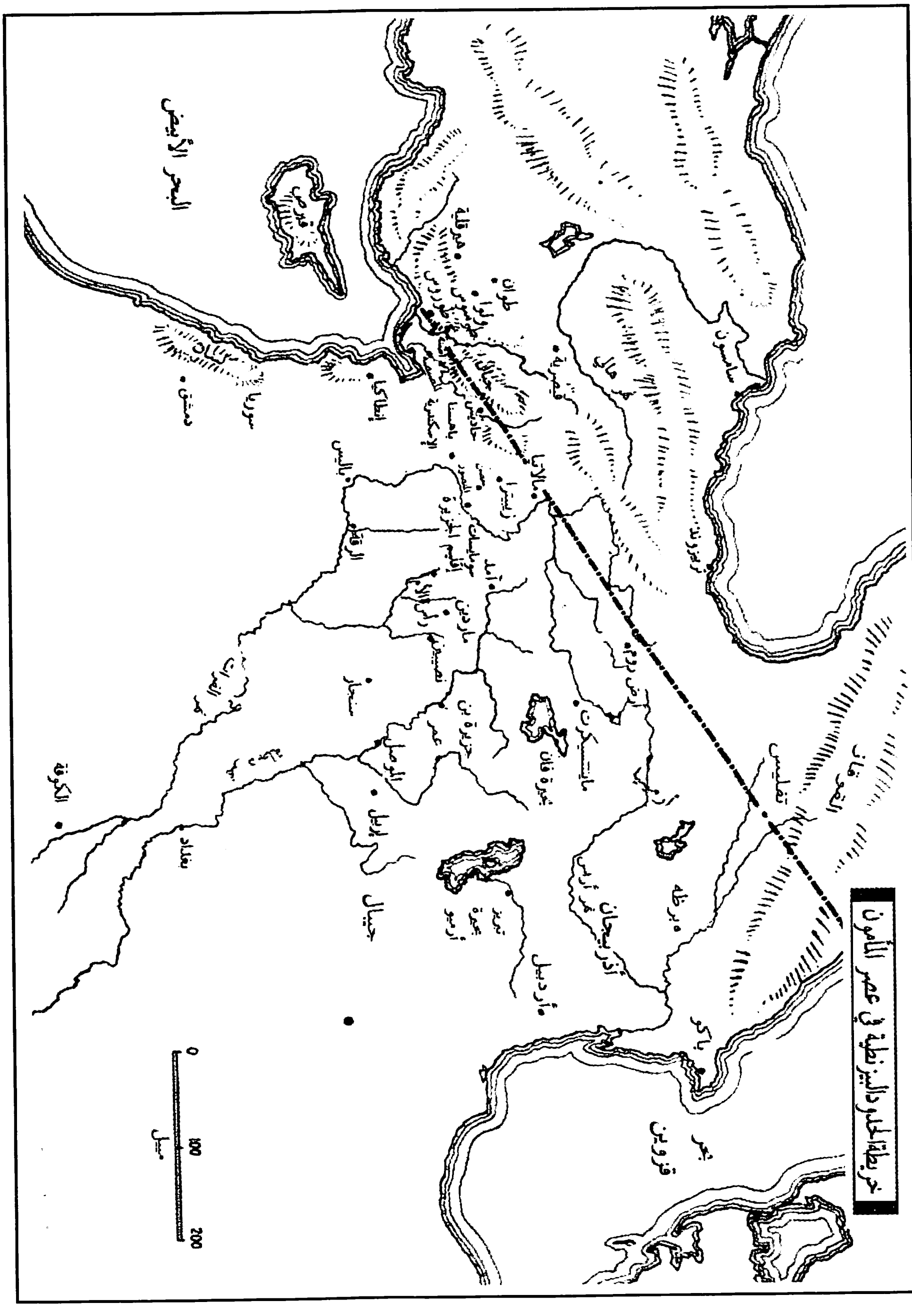
عام ٨٣٢ م عبر المأمون مرة ثانية الحدود البيزنطية. وفي هذه المرة كان الإمبراطور ثيوفيلس قد سبقه إلى جبهة المعركة بجيشه، وعلى الرغم من أنه لم يحدث قتال كبير لم تكن تلك الحملة مفيدة كليةً للعرب كما كان في السنوات السابقة. وفي الخريف قدم وفد من طرف

ثيوفيلس يسعى للسلام. ولكي يحفظ الإمبراطور ماء وجهه أنهى رسالته بتهديد، وكانت النتيجة أن الخليفة رد عليه بالأسلوب نفسه واستمرت الحروب. وفي أوائل عام ٨٣٣ م استقر العباس بن المأمون في طوان غرب جبال طوروس حيث بنى حصنًا كبيرًا.

في يوليو عام ٨٣٣ م قاد المأمون جيشًا لغزو الأراضي البيزنطية خلال طرسوس، وفتح بلادًا عديدة. وبعد حملة قصيرة بصورة واضحة عاد إلى الحدود وعسكر على نهر صغير يتدفق من الثلوج التي تغطي جبال طوروس. وفي أمسية صيفية كان الخليفة يجلس بجانب النهر مع أخيه المعتصم، وكلاهما يدلي بقدميه في الماء فسأله المأمون وهو يدعو أحد رجال الحاشية للانضمام إليهم: «هل سبق أن رأيت مثل ذلك الماء البارد الصافي الجميل؟».

بينما كانوا يجلسون محركين أقدامهم في الماء سمعوا صوت جلجلة بغال قافلة محملة بالبريد والأطعمة الشهية من بغداد، فنادى المأمون على الخادم لكي يتبين إذا كان هناك تمر جديد آتٍ من العراق فعاد الخادم بسرعة يجري ومعه سلتان مملوءتان بالتمر الطازج اللين الذي جمع حديثًا من النخل. وجلس الثلاثة يأكلون التمر ويدلون أقدامهم في الماء ويعجبون بمياه النهر الصافية والأمسية الصيفية الجميلة. وقفز أحد الخدم في الماء واصطاد سمكة كبيرة في يديه: «اقلها على الفور وسنأكلها الآن»، ناداه الخليفة وهو مبتهج.

قبل تقديم السمكة إليه شعر الخليفة بوعكة. وفي وقت قصير كان يرتجف من الحمى الشديدة فوضع الخدم أكوامًا من البطاطين عليه وأشعلوا النيران للتدفئة ولكنه ظل على حاله وظل نبضه يتزايد، وأخذ العرق يتصبب من كل أنحاء جسده. واعترف أطباء القصر بأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا أي شيء. ورقد الخليفة بعض الوقت وعيناه مغلقتان ثم فتحهما فجأة وصاح «يا من لا يموت ارحم من يموت». وبعد ثوانٍ قليلة توقف عن التنفس. ونظرًا لأنه جلس بجانب النهر في أمسية صيفية فقد يكون قد أصابه نوع من أنواع الملاريا الخبيثة. وفي يوم ٩ أغسطس عام ٨٣٣ م رشح المأمون قبل أن يموت أخاه المعتصم لكي يكون خليفة من بعده. وحملت جثة الخليفة ودفن في طرسوس في بلد عربي. وكان عمره سبعة وأربعين عامًا عندما مات وحكم لمدة عشرين عامًا وخمسة شهور.


خريطة الخلافة والبيزنطية في عصر المأمون
البحر الأبيض
قبرص
سوريا
دمشق
إنطاكية
الكوفة
بغداد
إربل
الموصل
تفليس
باكو
بحر قزوين
أذربيجان
أرمينية
سامسون
ميل
0
100
200

يعتبر أكثر العصور روعة في التاريخ الطويل للخلافة العباسية هو عصر هارون الرشيد وعصر ابنه المأمون. وفي الوقت نفسه أصبحت الإمبراطورية تجارية وصناعية بصورة متزايدة. وأصبحت بغداد ميناءً مزدحمًا، وكان يدخل ويخرج منه عدد كبير من السفن التجارية إلى أعلى وأسفل نهري دجلة والفرات من سوريا. وكانت قوافل كبيرة من الجمال المحملة تحمل تجارة العاصمة بغداد نحو الطريق الرئيسي الذي يمر من حلوان إلى فارس.

كانت نهضة إمبراطورية العرب كما أوضحنا من قبل قد أدت إلى عزل أوروبا عن بقية العالم. ولكن بالنسبة إلى الإمبراطورية العربية كان العالم كله مفتوحًا لسفنها وتجارتها وأدى هذا الموقف إلى توقف تجارة أوروبا ونتج عن ذلك النظام الإقطاعي الذي كانت الثروة فيه الأرض وليس المال، وكان أكثر الناس ثراءً في أوروبا هم البارونات مالكو الأراضي وليس تجار المدن.

في منتصف القرن التاسع الذي نتحدث عنه كانت السفن العربية تبحر بانتظام إلى كانتون في الصين، وتقوم بالتجارة مع ملقا ويافا وسومطرة وأيضًا سيلون والهند. وكانت هناك مستعمرة غنية يعيش فيها التجار العرب بالقرب من بومباي حيث أقاموا فيها مصنعًا شبيهًا بذلك الذي أقامته شركة الهند الشرقية البريطانية بعد ذلك بتسعمائة عام. وكان التجار والبحارة العرب معتادين على الذهاب إلى الساحل الشرقي لأفريقيا وإلى أقصى الجنوب حيث تقع مدغشقر. وكانت الوكالات التجارية الكبيرة في بغداد تستورد الحرير من الصين والتوابل والعطور والأخشاب الاستوائية والكاكاو والقصدير من الهند. وكان أكبر عدد من السفن العربية التجارية يبحر من بغداد والبصرة وبعضها كان يبحر في البحر الأحمر نحو كلظوم (السويس الحالية) وإلى الموانئ الأخرى. وكان التجار المسلمون من المغرب وأفريقيا يستوردون الذهب من ساحل الذهب الآن (غانا).

كان من أكبر الملامح المميزة للإمبراطورية العربية خاصة في العصر العباسي، هو الوفرة الغزيرة للذهب فلم يستخدمه الخلفاء العباسيون صك العملة فحسب ولكن استعملوه

كلاصق على أسلحتهم، وعلى حدايد وإبزيمات لجام الخيل وعلى أحزمتهم. وكانوا يأكلون ويشربون من الآنية الفضية والذهبية وكانت بعض الأوعية تطعم بالذهب. وفي الفترة نفسها كان من المتعذر الحصول على الذهب تقريبًا في أوروبا الغربية.

حدثت اكتشافات بارزة في هذا المجال في الأعوام الأخيرة فقد اكتشف السيد تويتشيل وهو مهندس مناجم أمريكي الذهب في غرب الجزيرة العربية. وتم إيفاد فريق عمل لاستطلاع الأمر وتم اكتشاف مناجم الذهب في منطقة واسعة. وعندما قام مهندسو المناجم في وقتنا هذا بفحص المصنوعات الذهبية القديمة وجدوا أن عمال المناجم العرب القدامى كانوا فنيين وعلى قدر كبير من الكفاءة. وتوقف العمل في المناجم في فترة ضعف الدولة العباسية، وذلك بلا شك لأن النظام والقانون انهارا في الجزيرة العربية وأصبحت القبائل البدوية معادية للحكومة. وظلت هذه المناجم مهملة لمدة ألف سنة حتى تم اكتشافها في أيامنا هذه.

كانت هناك تجارة قليلة أو انعدمت التجارة بين الإمبراطورية العربية وأوروبا، ونظرًا للعداوة المستمرة بين الإسلام وبلاد الغرب المسيحي أصبح البحر الأبيض المتوسط الذي كان في العصر الروماني أكبر ممر تجاري في العالم مهملًا فيما عدا الأساطيل الحربية أو سفن القراصنة التي تبحر على مياهه الزرقاء. وكان هناك طريق تجارى يمر من البلاد العربية عن طريق البحر الأسود إلى بيزنطة، ويمر بصفة أساسية على بلاد الخزر أسفل نهر الفولجا.

كان اليهود هم المحايدون بين الإسلام والغرب المسيحي، ولذلك سمح لهم بالعيش والتجارة في كلتا الإمبراطوريتين البيزنطية والعربية. وسمح لهم أيضًا بدخول إسبانيا وفرنسا والقسطنطينية ومصر وسوريا والهند. وسافر التجار اليهود بصورة فردية من فرنسا إلى السويس ومن هناك إلى الهند وعادوا من الطريق نفسه.

الذي يثير الدهشة أكثر هو مدى التجارة العربية مع روسيا وبلاد سكاندينافيا: فقد تم العثور على عدد كبير من العملات المعدنية العربية في فنلندا والسويد والنرويج وبريطانيا وأيسلندا وتعود هذه العملات إلى العصر الذي تم فيه صك أول عملة معدنية عربية عصر

عبد الملك بن مروان من ٦٨٥ م – ٧٠٥ م حتى عصر ضعف الإمبراطورية العربية في القرن الحادي عشر. وكان هناك طريق تجارى يمر من نهر الأوكسس خلال خوارزم إلى وسط نهر الفولجا ثم في اتجاه الشمال نحو البلطيق. وكان العرب يستوردون الفرو وفرو الثعالب والفراء الثمينة والسهام والأخشاب والقبعات وغراء السمك والكهرمان والعبيد والماشية وكانوا في حاجة ماسة إلى العبيد السلافيين ذوي البشرة البيضاء والشعور الجميلة. وكانت توجد أيضًا تجارة مباشرة مع بلاد الخزر حيث كانت عاصمتها إتيل في مقدمة نهر الفولجا في الطرف الشمالي من بحر قزوين.

هذه التجارة الواسعة الانتشار كانت تستلزم ترتيبات مالية متوافقة معها ونظامًا للبنوك وخطابات الاعتماد والشيكات التي كانت متاحة لدى التجار. وفي الحقيقة فإن الكلمة الإنجليزية شيك مأخوذة من الأصل العربي سك.

لم تكن ثروة الإمبراطورية العربية مستمدة فحسب من التجارة ولكن كانت الصناعة أيضًا مزدهرة ومتقنة إلى حد كبير. وكانت صناعة المنسوجات على الأرجح أكثر الصناعات ثراءً وتطورًا. وكانت الإمبراطورية إلى أقصى حد أكبر منتج عالمي للحرير والملابس على الرغم من أنها كانت بسيطة إلى حد ما، وكان لبس الحرير محرمًا من النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ترف دنيوي. وكانت المدن الصناعية الكبرى في أحوال عديدة تصدر عنها كلمات أصبحت من ذلك الوقت جزءًا من اللغة الإنجليزية فكلمة Fustian مستمدة من الفسطاط في القاهرة الحديثة. وكلمة Muslins مستمدة من الموصل، وكلمة Damask مستمدة من دمشق. وكلمة Taffeta كلمة فارسية. وكان السجاد يستخدم في كل مكان في الإمبراطورية العربية على الرغم من أنه لم يكن مستعملًا على أرضيات المنازل في أوروبا بصورة واسعة لعدة قرون بعد ذلك. وكانت المنسوجات القطنية والأبسطة والمفروشات المصورة والأعمال المصقولة من الصين، والصبغات، والأدوية، والتوابل، وحجر الشب، والقرنفل، والمرايا، والزجاج، والذهب والأباريق، والصحون الفضية تستعمل في مدن الإمبراطورية. والكلمة الفرنسية Jupe وتعني الجزء السفلى من الفستان مستمدة من الكلمة العربية جيبا.

في مجال الفنون الجميلة كانت الإمبراطورية العربية على رأس من ينتج المنسوجات العادية. وحقق العرب مهارة كبيرة جدًا في المنسوجات المطعمة بالذهب والفضة. وكان البلاط الملون المصقول ينتج في الشرق الأوسط من أزمنة قديمة جدًا، وقدّم وسع الإمبراطورية وثروتها قوة دافعة كبيرة لهذه الصناعة. وبالمثل صناعة الخزف المصقول والنجف مهما كان أصلها (نعلم أن العباسيين كانوا يستوردون البورسلين من الصين) كانت مشهورة في شمال فارس والفسطاط والأندلس وما زالت بقايا من هذه الصناعات الفنية موجودة في جميع أنحاء العالم العربي. وأدت المساحة الكبيرة للإمبراطورية إلى نقل الصناعات المقصورة على بلد معين إلى أكبر المدن في أنحاء الإمبراطورية من الهند إلى إسبانيا. وعلى الرغم من أن إسبانيا وأجزاء من شمال أفريقيا كانت مستقلة سياسيًا فإن توحيد اللغة والديانة نتج عنه تطور موازٍ في الفن والصناعة والتجارة والعلم في كل أنحاء البلاد المتكلمة بالعربية.

كانت واحدة من أكبر الصناعات التي برع فيها العرب هي صناعة الزجاج المزخرف والمطلي، وكانت مراكز هذه الصناعة في سوريا والعراق. وبعد ذلك بعدة قرون وصلت هذه الصناعة إلى فينيسيا من الحرفيين السوريين، وما زالت فينيسيا مشهورة بهذا النوع من الزجاج إلى اليوم على الرغم من مقولة أنه إلى اليوم لم يصل الحرفيون الفينيسيون إلى المقاييس التي استعملها العرب في أيام الإمبراطورية الأولى. ودمرت هذه الصناعة بأكملها فعليًا أثناء غزو التتار بزعامة تيمور لانك.

في أيام الدعوة الإسلامية الأولى في الجزيرة العربية كان الأعداء الرئيسيون للنبي صلى الله عليه وسلم عبدة الأصنام وليس المسيحيين. وبعد ذلك حرم النبي صلى الله عليه وسلم تصوير الكائنات الحية سواء في صورة تماثيل أو رسومات خشية أن يعبد المسلمون هذه الصور لأغراضهم الخاصة. وهذا التحريم قصر مجال الفن الإسلامي على جانب واحد، وفي الوقت نفسه شجع على تطوير الزخرفة والنقوش سواء بأشكال هندسية أو نباتية. وساعدت الحروف العربية نفسها على تعقيد التصميمات. وكان الزي الرسمي

للأباطرة الجرمانيين في العصور الوسطى يكتب عليه نصوص عربية ممزوجة بتصميمات متقنة.

تقدم العرب الذين نسوا الصحراء من وقت بعيد في مجال الزراعة والصناعة. وإلى يومنا هذا تستمد المفردات الإسبانية في مجال الري من اللغة العربية، وأيضًا أسماء الورود والفاكهة والخضروات والأشجار. وأشجار البرتقال كان موطنها الأصلي في الصين، وأحضرت إلى فارس ولكن كان اتساع مساحة الإمبراطورية العربية يساعد على نشر زراعتها في شمال أفريقيا وجزيرة صقلية وإسبانيا. وكانت محاصيل أخرى مثل السمسم، والخروب، والذرة، والأرز، والليمون، والبطيخ، والمشمش، والبرتقال تزرع في البلاد العربية وبعد ذلك انتشرت زراعتها في أوروبا. وكان الفرس يجيدون زراعة البساتين وكانوا مسئولين عن بساتين قصر بغداد. ووصلت زهور مثل الليلج والتوليب وغيرها إلى أوروبا من الإمبراطورية العربية بعد ذلك بعدة سنوات.

من المهم بالنسبة إلينا اليوم أن نعلم أن الصناعة العربية كانت تحت سيطرة الدولة، أما التجارة فتركت للمشاريع الخاصة. وجمع التجار الذين يتاجرون مع الشرق الأدنى والهند وأفريقيا أو روسيا ثروات طائلة، ولكن كانت الحكومة تمول الصناعة. وكان الحرفيون على أتم درجة من الدقة والمهارة وكانوا أثرياء بدرجة كبيرة ويشتركون في مشيخة أو نقابة تجمعهم. وعلى الرغم من أن كل تجارة الشرق الأوسط وصناعتهم قد تم تدميرها تمامًا بعد ذلك من التتار فإن البلاد العربية في أيامنا هذه يبدو أنها تعود إلى النظام نفسه، فكل عربي يعمل بالتجارة والمحاولات الجديدة للتصنيع تتكفل بها الحكومات المعنية.

تعتبر مساهمة العرب في العمارة بارزة كما في المجالات الأخرى للنشاط الحضاري وهم مثل الأوروبيين ورثوا نماذج معمارية عديدة من الماضي، وهذه النماذج مستوحاة من إمبراطوريات مصر القديمة وروما وفارس وأجزاء من الهند. وهكذا يملك العرب نماذج وموادًا ومهارات معمارية كثيرة ومتنوعة للاختيار منها. والآن دمجوا هذه النماذج في نموذج واحد مميز خاص بهم.

عندما ننظر إلى أن عددًا كبيرًا من العرب قبل الإسلام كانوا يعيشون في خيام أو أكواخ من الطوب اللبن فإننا نندهش عندما نعلم أنهم تمرسوا بسرعة على فنون العمارة الرائعة لأنهم في عهد عبد الملك بن مروان كانوا يبنون القصور الفخمة والقلاع والمساجد. وخير شاهد على ذلك مسجد قبة الصخرة الجميل في القدس وهو مبنى له نظائر قليلة في العالم وبناه عبد الملك بن مروان. واستخدمت المساجد الأولى مثل مسجد عقبة بن نافع في القيروان ومسجد قرطبة الكبير الأعمدة والتيجان الرومانية، ولكن طور العرب بعد ذلك نماذج أصلية خاصة بهم. وتستحق المجموعة المتنوعة من المآذن في البلاد العربية من الحجارة والطوب والرخام أو المغطاة بالبلاط المصقول وبعضها المستدير وبعضها المربع كتابًا في حد ذاته. وتعتبر فنون مثل أقواس نعل الفرس وثقب الشبابيك الحجرية وزخرفة الجص المعقد وفوق كل هذه الفنون فن تغطية الأسطح الكبيرة بالتصميمات الهندسية الجميلة فنونًا مميزة في حد ذاتها.

كانت الحاجة إلى وجود مكان للتسرية في الهواء الطلق للنساء وللبنات في المنازل الكبيرة تؤدي إلى نشوء شكل خاص من أشكال العمارة المنزلية تبنى فيه حجرات المعيشة حول ساحة مركزية يظهر فيها جدار مصمت على الشارع. وكانت تبدو هذه الساحات الهادئة بأشجارها وزهورها وتكعيباتها ونافوراتها المتدفقة وحرارتها المنخفضة بالداخل جنات أرضية متنوعة. ومن المحزن أن نرى هذه المنازل مهدومة الآن وقد حل محلها فيلات يحل فيها تكييف الهواء محل تكعيبات العنب وصوت المياه الباردة للنافورة.

بالنسبة للعمارة العسكرية لم يكن العرب أقل تميزًا في ذلك السبيل. وكانت القلاع الأوروبية في العصور الوسطى تدين بفن بناء الشرفات الواسعة والكوات إلى العرب. وأول مثال على مدخل قلعة بزاوية أو شرفة مغطاة بفتحات الرمي داخل المبنى كان يوجد في مدينة المنصور المسورة ببغداد.

من كل الفنون التي برع فيها العرب في الأيام الأولى قبل الإسلام وحتى تدمير المغول النهائي للحضارة العربية كان فن الشعر. وكان بعض الشعراء الأوائل الكبار أميين ولكنهم

يملكون ذاكرة قوية. وكانوا يقرضون قصائدهم الشعرية التي كان يتذكرها الإنسان ويروونها بالكلمة من بلد إلى بلد ومن جيل إلى جيل.

كانت رواية القصص العاطفية من أفضل وسائل التسلية العربية وهو ما كان يدين له الأدب الأوروبي الغربي بالفضل الكبير. وفي الأدب الأصيل كانت الحكاية النثرية لابد أن يكون فيها مقتطفات شعرية. وفي كل أزمة تحدث في القصة يقول الراوي: «عندما يهاجم البطل في المعركة أو يتعرض لأزمات»، من هنا تبدأ قصيدة طويلة. وبعض رواة القصص ما زالوا على قيد الحياة حتى الآن. وأنا بنفسي جلست طول الليل في خيمة بعيدة في الصحراء أستمع إلى إنسان يروي حكايات ويروي الشعر المصاحب لها بصفة مستمرة لمدة ثماني أو تسع ساعات.

ربما الأكثر غرابة بالنسبة إلينا هو أنه ليس فقط الرومانسيين ولكن المؤرخين العرب الجادين ينسبون الشعر إلى الشخصيات التاريخية التي يذكرونها، وفي كل أزمة أو مشكلة تمر في حياتهم. وكلما مر واحد من أبطال المسلمين الأوائل خلال صفوف الكافرين محركًا سيفه يمينًا وشمالًا كان يصيح ويتلو أبياتًا من الشعر. ومن الصعب الآن أن نقرر إذا كان قرض هذه الأبيات الشعرية يعتبر تقليدًا أدبيًا أو إذا كان العرب يرتجلون الشعر في تلك المناسبات سواء لذلك الغرض أو لا. ولكن يعتقد أن المقاتل العربي كان يقرض الشعر إذا جرح في المعركة أو أثناء هجوم الفرسان، ولا شك في أنهم كانوا قادرين على إبراز مهاراتهم غير العادية بارتجال الأبيات الشعرية وأن هذا الفعل يعتبر إنجازًا حضاريًا أساسيًا. ويروي المؤرخون أمثلة غير منتهية لهذه القصائد المرتجلة في مواقف اجتماعية عادية أو عن الخلفاء أو بعض المسئولين يأمر الشعراء أن يرووا مباشرة قصائد عن هذا الموضوع أو ذاك. ورأينا الجاريات والمحظيات يرتجلون الأبيات الشعرية للتسرية عن أسيادهم.

مهما كانت مهارة العربي في ارتجال الشعر فلا شك أن العرب جميعًا المتعلم منهم أو الأمي كانوا يحفظون قدرًا كبيرًا من الشعر لأنهم يحتاجون إلى اقتباس أبيات شعرية مناسبة من الشعراء في كل مناسبة في حياتهم العادية.

كان الشعر الأصلي للصحراء قبل وبعد الإسلام يتعامل بصورة رئيسية مع موضوعات الحب العربية المفضلة والحرب والكرم ممزوجًا بوصف الطبيعة والحيوانات. وفي العصر العباسي تطورت أبيات الغزل والحب إلى مثال من أمثلة الحب الأفلاطوني. وهذا التفضيل للشعر يرجع إلى رقة مشاعر المجتمع العربي الكبيرة أو زيادة النفوذ الفارسي؛ لأن الفرس كانوا أقل واقعية من العرب. وكان الشعر يقدم مجالًا للنخوة والشهامة في العلاقات بين الأجناس.

لم تكن معرفة المأمون وأدبه مقصورتين على الشعر كما كان الأمر عند العرب الأوائل وكان نشاط الخليفة الفكري يتركز باستمرار في تتبع كل أنواع المعرفة. وعين بنفسه حنين ابن إسحاق (٨٠٧-٨٧٧ م) في بغداد مترجمًا لترجمة المؤلفات الفلسفية والعلمية اليونانية إلى اللغة العربية. وكان يساعده عدد كبير من المعاونين، وترجمت تقريبًا كل الكتب الفلسفية والعلمية اليونانية المعروفة إلى اللغة العربية. وقام المسيحيون بترجمة معظم الكتب وكثير منهم كان من طائفة النساطرة الذين اضطهدتهم الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وطردتهم من الإمبراطورية البيزنطية. وكان حنين بن اسحاق نفسه طبيبًا ماهرًا وكانت بحوثه العشرة عن العين هي أول الكتب الدراسية المنظمة المعروفة لطب العيون.

في عصر المأمون كانت المدارس الطبية نشيطة للغاية في بغداد. وفتحت أول ثلاثة مستشفيات عامة في المدينة أثناء خلافة هارون الرشيد. وتطورت الأمور فأصبح الأطباء والجراحون المعينون يحاضرون لطلبة الطب ويصدرون الشهادات للأطباء الأكفاء لممارسة المهنة. وكان الأطباء والصيادلة والحلاقون والمجبرون يخضعون للإشراف الحكومي، وفتحت أول مستشفى في مصر عام ٨٧٢ م وبعد ذلك انتشرت المستشفيات العامة في كل أنحاء الإمبراطورية من إسبانيا إلى المغرب وفارس.

كما ذكرنا من قبل نشأت في البصرة مدرسة مميزة للنحاة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إلى تعقيدات اللغة العربية. وألف الأصمعي (٧٤٠-٨٢٨ م) من البصرة كتبًا عن التاريخ الطبيعي للحيوان والنبات، وظهرت مؤلفات أخرى في الميكانيكا والري والهندسة.

سهل من كل هذه الأنشطة الفكرية الكبيرة إنشاء أول مصنع ورق في بغداد عام ٧٩٤ م وكما ذكرنا من قبل تعلم العرب صناعة الورق من منطقة عبر الأوكسيانة؛ حيث عثروا على مصنع كانت مجموعة من الصينيين قد أقامته. وبسرعة أصبح الورق يصنع في معظم مناطق الإمبراطورية تقريبًا. وانتهى عصر الترجمة بسرعة بعد المأمون، وبعد ذلك بدأت الكتب العلمية الأصلية تظهر للوجود باللغة العربية.

أصبحت العقلية العربية مهيأة لدراسة الرياضيات بصورة خاصة، وفي هذا المجال برع العرب كثيرًا. وكانت عندهم موهبة النظرة الثاقبة للأمور، وكانوا يصنفون وينظمون الأشياء بصورة ملفتة للأنظار وهي صفات مهمة لدراسة الرياضيات. وجمع المنصور كثيرًا من العلماء في بلاطه وخاصة المهندسين والفلكيين. وكان يهتم كثيرًا بعلم دراسة التنجيم والطالع، وكان كثيرًا ما يستشير المنجمين عن المستقبل. وفي خلافة المأمون أُقيم أول مرصد فلكي. وكان الكتاب العربي (خلاصة الفلك) للفرجاني يدرس في أوروبا حتى القرن السادس عشر.

جعل العرب الجبر علمًا واسم هذا العلم باللغة العربية الجبر. ووضعوا أيضًا أساس علم الهندسة التحليلية.

كانوا بلا منازع مؤسسي علم حساب المثلثات الكروية والمستوية الذي لم يعرفه اليونانيون حقيقة.

هناك بعض المتناقضات فيما يتعلق بمن اكتشف الصفر، ولكن من المرجح أن العرب عرفوه من الصين أو الهند. واستعمال الصفر يمكننا أن نحسب بالعشرات والمئات وهذه من أساسيات الرياضيات الحديثة. وحتى إذا لم يخترعه العرب فقد كانوا يستعملونه من مائتين وخمسين عامًا قبل أن يصل إلى غرب أوروبا.

اكتشف البطاني (٨١٧-٩١٨ م) النسب المثلثية واخترع الظل وظل تمام الزاوية والجيب وجيب تمام الزاوية. وهذا الاكتشاف وصل إلى أبعد بكثير مما اكتشفه اليونانيون وفتح المجال لعصر العلوم الحديثة.

مما يؤكد حقيقة أن كل تلك العلوم كانت متداولة كثيرًا بين الناس هو أنه في ذلك العصر لم تكن توجد أقل من مائة مكتبة لبيع الكتب في بغداد في ضاحية الكرك فحسب. وكانت توجد مكتبة تابعة لكل مسجد. وفي عام ٨٢٠ م أسس المأمون مكتبة مركزية في بغداد سماها (بيت الحكمة). وفي قرطبة في الوقت نفسه لم تكن توجد أقل من سبعين مكتبة.

بالنسبة إلى هؤلاء الذين يسمعون البرامج الموسيقية لكل محطات الإذاعة العربية اليوم من المدهش أن يعلموا أن الحضارة العربية في قمة تطورها كانت تخصص اهتمامًا كبيرًا بالموسيقى. وكان صوت المطرب يقدره العرب أكثر من الموسيقى ربما إلى حد ما بسبب أن الصوت يمكن له أن يمزج الموسيقى بالشعر الذي كان الحب الأول لكل عربي. وكانت الجيوش العربية لها فرق موسيقية عسكرية.

بالنسبة للأغنياء من العرب كان المغنون هم تسرية المساء المفضلة. وكان معظم من يقوم بالغناء من الإماء والعبيد المخصيين. وكان هؤلاء لهم شعبية كبيرة؛ لأنهم كانوا يحتفظون بأصواتهم العذبة، ولأنهم كانوا قادرين على الغناء أمام الأسرة بأكملها، ويمكن للنساء المحجبات أن يشاهدنهم.

أصبحت صناعة الآلات الموسيقية فنًا من الفنون الجميلة وكان العرب يعرفون الآلات المنقورة مثل الكمان، والآلات الوترية مثل العود والجيتار وكلا الاسمين مستمد من اللغة العربية. واخترعوا أيضًا الأورج سواء الأورج المائي أو الهوائي. وكانت حفلات المساء واحدة من المباهج الرئيسية للعرب. وكان الناس أثناء النهار مشغولين لا محالة بأعمالهم العادية وبمجرد غروب الشمس يعدون أنفسهم للأمسيات الليلية. ونظرًا لأن العرب يملكون ذكاءً سريعًا ولغة مرنة مدهشة رنانة ولأنهم كانوا بطبيعتهم متحدثين على درجة عالية من الفصاحة؛ فقد خصصوا هذه الحفلات الليلية بصفة أساسية للحديث. وهذا هو ما يحدث اليوم فيما عدا تلك الأطراف التي تسعى حرفيًا إلى محاكاة العادات الغربية.

من الصفات الأكثر بروزًا التي تميز العرب الحقيقيين عن الأجناس الأخرى صفة الكرامة الشخصية. ولا يجب لنا بناءً على ذلك أن ننظر إلى أمسيات الخلفاء أو الأغنياء

على أنها طبقات رفيعة تتحول تسريتها إلى ضوضاء صاخبة أو غناء أو صياح لأنهم أفراد أرقى العائلات سواء في عصر الأمويين في دمشق أو العباسيين. في بغداد كانوا خبراء في فن الحياة المترفة والبديعة. وكانت مناقشاتهم يلوح منها الذكاء والفكر. وكانت النساء جميلات والطعام شهيًا ورواية الشعر أو ارتجال الأبيات الشعرية المناسبة للواقعة هى التسرية الوحيدة التي يتمتع فيها كل أفراد المجتمع بالمساواة. وكان بعضهم في هذه المناسبات يشرب الخمر أما الآخرون فكانوا يشربون ماء الورد أو المشروبات الملونة المستخرجة من فواكه متعددة. وكان العبيد يلبسون ملابس رائعة من الحرير والأربطة الذهبية، ويقومون بخدمة أفراد الحفلة.

هذه الأمسيات الاحتفالية كان المدعوون فيها لا يلبسون ملابسهم اليومية وإنما يظهرون بملابس خاصة ذات ألوان ناصعة، ويجلسون على أريكات منخفضة في قاعات ينتشر فيها السجاد والوسادات والمواد الأخرى التي كانت تصنع بكميات كبيرة. وكانت الحجرة ينثر فيها الآس والياسمين والزهور العطرة، بينما يتم إحراق المسك والكهرمان والعطور العبقة الأخرى في أوعية ذهبية أو فضية توضع باستمرار تحت وجه الضيوف لكي تمكنهم من تنفس الدخان المعطر الذي يضفي رائحة معطرة جميلة على شعورهم وملابسهم وذقونهم. وكان النبيذ أو المشروبات الحلوة تقدم في فناجين مطعمة بزرقشة من الذهب أو الفضة أو الزجاج الناعم المثقوب. وإذا كان صاحب المنزل غنيًا فإنه كان يملك فرقة موسيقية تعزف خلفية موسيقية أو تغني الإماء على العود أو الجيتار. وكان الحديث العام أو الشعر أو رواية القصة يشغل بسرور من الجميع ساعات الليل الطويلة. ونظرًا لأن حرارة الشمس الساطعة في النهار تكون شديدة فإن العرب يحبون أن يسهروا إلى وقت متأخر من الليل في المسامرات.

في الفصل الثاني عشر قدمنا وصفًا مختصرًا لمدينة بغداد الأولى مدينة المنصور المستديرة. وبعد ذلك بمائة سنة ظهرت العاصمة بمظهر مختلف. وما إن تم استكمال بناء المدينة المستديرة حتى بدأت الضواحي تنمو من كل اتجاه. وكانت أكثر الضواحي امتدادًا

هي الكرخ التي كانت تمتد عدة أميال مربعة جنوب مدينة المنصور إلى الشاطئ الغربي من نهر دجلة. وكانت المنطقة التجارية الرئيسية تتضمن عدة أسواق منفصلة تحمل تجارات مختلفة. وكانت قناة عيسى الملاحية تمتد من الفرات وتسير خلال مربع الكرخ إلى الميناء السفلى على نهر دجلة. وشمال المدينة المستديرة كان يقع حي الحربية والذي كان يسكنه بكثافة الأتراك والفرس والذي كان باستمرار يسبب المشاكل بسبب الشغب والقلاقل. وبعد انتهاء المنصور من بناء المدينة المستديرة بنى قصر الرصافة على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة من أجل المهدي، وبنى قصر الخلد لنفسه على شاطئ النهر.

يقع حي الشماسية خارج حي الرصافة. والشماس هي الكلمة العربية للفظ Deacon بالإنجليزية وهذا الاسم يذكر بوجود عدد كبير من المسيحيين. وكانت توجد في بغداد ستة أديرة نسطورية على الشاطئ الشرقي لنهر دجلة فقط. وكل هذه الأحياء كان يحيط بها حدائق غناء يزورها سكان بغداد باستمرار. وفي مناسبات عديدة كان الخلفاء بأنفسهم يقيمون في واحد أو آخر من هذه الأديرة. وكان البطريرك النسطوري له مقر إقامة رسمي في بغداد، وكان معظم المسيحيين يقطنون حي الشماسية. وكان أكبر دير مسيحي هو دير الروم وبُني في عهد المهدي. وكان البطريرك النسطوري وهو شخص له بعض الأهمية يبعث بالإرساليات المسيحية ويعين الأساقفة في الكنائس النسطورية إلى حدود الهند وآسيا الوسطى والصين. وكل هذه الأمور تبين أن المسيحيين تمتعوا بدرجة كبيرة من التسامح في عهد الدولة العباسية الأولى.

في عصر كل من الرشيد والمأمون كانت بغداد والقسطنطينية أكبر مدينتين في العالم. ومن المهم أن نلاحظ أن الإمبراطور ثيوفيلس قد أنفق مبالغ كبيرة لتوسيع قصر القسطنطينية الكبير وزخرفته لكي يضارع مباني بغداد الرائعة. وأقام مقر إقامة للضواحي على الشاطئ الآسيوى أمام القسطنطينية على النموذج نفسه الذي أقامه الخليفة، وبعد ذلك اعترف بهدوء بعظمة العرب في مجال العمارة. ويمكن لنا حقيقةً أن نقارن المدينة على نهر دجلة في أيام مجدها بمدينة روما القديمة ومدينة باريس في عصر لويس الرابع عشر أو لندن القرن التاسع عشر كواحدة من أجمل العواصم الإمبراطورية في التاريخ.

كثير من المؤرخين الغربيين ينكر الدور الذي لعبه العرب في الإمبراطورية التي أقاموها ويشير إلى أن الفنانين والفلاسفة والمؤرخين أو العلماء كانوا من أصل غير عربي إما فارسي أو أرميني أو يوناني أو إسباني. وصحيح بالطبع أن عرب الجزيرة العربية الأصليين الذين قدموا القوة الدافعة الحاسمة الأولى للفتوحات العربية كانوا أقل في العدد من سكان الإمبراطورية ككل. وأنه عندما كانت الفتوحات العربية في أقصى امتدادها من عصر عبد الملك بن مروان إلى نهاية الدولة الأموية كان السكان العرب يشكلون على الأرجح نسبة ٢ أو ٣ ٪ فقط من سكان الإمبراطورية ككل بالرغم من أنهم كانوا لا يزالون يشكلون إلى حد كبير الطبقة الحاكمة. وعندما استولى العباسيون على السلطة فقد العرب مراكزهم المميزة وأصبحوا شعبًا عاديًا على المستوى الاجتماعي نفسه للأجناس الأخرى الكثيرة في الإمبراطورية. وهكذا إذا كانت مواهب العرب تضارع مواهب الشعوب الأخرى فإنه من المتوقع أن يخرج منهم ٢ أو ٣ ٪ من الشخصيات الفذة للدولة العالمية الجديدة.

هذه الجملة تحمل تبسيطًا أكثر من اللزوم لأنه كيف كان حال العرب بعد مائتي سنة من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؟. كان لا يزال يوجد قبائل بدوية في وسط الجزيرة العربية تشبه في صفاتها صفات الفاتحين العرب الأوائل ولكن عزلتها في الصحراء الكبرى منعها من أن تمارس أي دور في الحياة العامة. وفي تلك الأثناء كان العرب الذين كان أسلافهم قد أدت بهم الفتوحات إلى أن يذهبوا إلى العراق وفارس وأفريقيا وإسبانيا قد تزاوجوا بنساء الشعوب الأخرى العديدة. وكل عربي يُعرف بنشأته من ناحية الأب لذلك كل عربي يحمل اسم قبيلة عربية قديمة مثل التميمي والكندي أو التغلبي وأصبح كل عربي يحمل في عروقه ٥ أو ١٠ ٪ من الدم العربي. وحتى الخلفاء وحتى قريش لم يعودوا عربًا بمعنى أنهم من عرب الجزيرة العربية الوسطى. وبناءً على ذلك يجب علينا أن نتبع واحدًا أو آخر من هذين المسارين فإما أن نقبل بأن العرب الحقيقيين هم هؤلاء الذين يعيشون مع قبائل الجزيرة العربية البدوية وأنه فعليًا لا يعتبر سكان العراق أو سوريا أو مصر أو أفريقيا أو إسبانيا عربًا على الإطلاق، أو نقبل بتعريف جديد للعرب ونطبق هذا التعريف على كل إنسان يتكلم العربية كلغة أم سواء كان في ذلك الوقت تركيًا أو فارسيًا أو حتى قوطيًا. ويعتبر نظام تصنيف الناس في أيامنا هذه إلى قوميات تبعًا لاسمهم مضللاً.

تعتبر أي محاولة في غاية البساطة لتقييم الأحداث التاريخية من الأسباب العامة للوقوع في الخطأ. وفي الحقيقة من المتعذر حل ألغاز الأصول الجنسية للعراق وشمال أفريقيا أو إسبانيا سواء في القرن التاسع أو اليوم.

تبقى حقيقة أن الفتوحات الأولى التى بدأت عام ٦٣٢ م كان الذي يقوم بها عرب صرف من وسط الجزيرة العربية. وبعد ذلك بخمسين سنة في عهد عبد الملك بن مروان أقام العرب إمبراطورية رائعة تمتد من الهند إلى المحيط الأطلنطي، وشيدوا مباني عظيمة وزادت الثروة والتجارة والثقافة بسرعة. ومن الممكن أن نقول إن المهندسين الذين أقاموا المباني كانوا يونانيين، وإن الأطباء كانوا مسيحيين أو يهودًا، وأن موظفي الحكومة ومعاونيهم كانوا فرسًا، ونصل إلى نتيجة أنه لا فضل للعرب في أي شيء، وهذا الجدال يشبه القول بأن أعضاء مجلس إدارة شركة هندسية كبيرة أو شركة لتدشين السفن ليس لهم الفضل في نجاح الشركة؛ لأنه لا يوجد منهم أحد يركب الماكينات أو يدق المسامير أو يقوم بالبياض أو يفرش السجاجيد.

يمكن لنا أن نقدر عظمة إنجازات الفاتحين العرب الأوائل إلى حد ما بمقارنتها بغزوات المغول في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر الميلادي. وبعد خمسين سنة من خروج رجال القبائل العرب من الصحراء أصبحوا يحكمون إمبراطورية رائعة متقدمة وممتدة. وعندما انسحب الغزاة المغول من البلاد نفسها لم يتركوا شيئًا إلا أكوامًا من الدخان والخراب وتلالاً من الجماجم. ومحوا حضارة ثقافية قديمة لم يتم إحياؤها إلى هذا اليوم ودمروا المكتبات والقصور والمصانع والصناعات والجامعات والمستشفيات، وقضوا على الحرفيين والفنانين والأساتذة، وقضوا على مهارتهم وضاع علمهم، وخربوا أنظمة الري العربية إلى حد أنه بعد بزوغ شمس الحضارة العظيمة نزل الضحايا لمدة خمسة قرون متتابعة إلى مرتبة الشعوب المتخلفة والخاضعة. وكانت القبائل الفاتحة الأولى أمية ولكنها تحب الحرب والنزاع، وتحولت في ذلك العصر العباسي إلى قبائل تجمع ما بين الذكاء الحاد والقدرة على التكيف مع الواقع بصورة غير عادية. وبدلًا من

النهب والتدمير تحولت بسرعة إلى حضارة فذة. وبدلًا من قتل العلماء والفنانين استفادت منهم. ولم تحاول في ذلك العصر أن تقلد من سبقتها فحسب كما فعل القوطيون بحضارة إيطاليا. وبقي رجال هذه القبائل أساتذة العصر بحق والسادة والنبلاء العظام. وحتى في ذلك العصر العباسي عندما تم إقصاء الأسر العربية من المناصب المهمة بصورة كبيرة فقد اعترفت شعوب الإمبراطورية القديمة والمتعددة باللغة والعادات العربية وإلى حد كبير بالثقافة والفنون التي طورها العرب وقبلتها بدون شك.

استمد الفن الإسلامي طبيعته الروحية كما قيل من الجزيرة العربية؛ ولكن تطور بنيانه المادي في مكان آخر. وهذه الجملة قد تكون صحيحة إذا كانت تشير إلى الحضارة الإسلامية ككل بدلًا من الإشارة إلى الفن فقط. ولقد ساهم عدد كبير من الحرفيين الفرس واليونانيين، والبيزنطيين، والمصريين، والبربر، والقوطيين، والرومان في التركيبة الرائعة للحضارة الإسلامية ولكن كان العربي هو المهندس الأصلي للبنيان الفخم.

تواريخ بارزة

- ٨٣٠-٨٣٣....غزو المأمون للإمبراطورية البيزنطية.
- ٩ أغسطس عام ٨٣٣ م.... وفاة المأمون.

الشخصيات

- طلحة وعبد الله... ابنا طاهر ذي اليدين وحكما خراسان.

- بابيك الخرامي.... يثور في أذربيجان.

- حنين بن إسحاق..... المترجم الرئيسي للكلاسيكيات اليونانية إلى العربية.

- المعتصم بن هارون الرشيد...... الذي تولى الخلافة بعد المأمون.

الفصل الثامن عشر

المعتصم يبيع المصير

جمع المعتصم قوة عسكرية كبيرة مكونة من العبيد الأتراك، وأعد نفسه لكي يستقبل عددًا كبيرًا منهم كل عام كجزء من الجزية المفروضة على الأقاليم الشرقية للإمبراطورية. وأصبح حراس الخلفاء العباسيين القدامى الأتراك مستعربين وكانوا معروفين للسكان المحليين. ومن ذلك الوقت فصاعدًا اعتمد الخلفاء على عدد متزايد من القوات والقادة الأتراك مما أدى إلى إلحاق الضرر بالشعوب الإسلامية المثقفة القديمة العرب والفرس.

(أ/ برنارد لويس – العرب في التاريخ)

نترك الآن الخلافة في بغداد بوفاة المأمون عام ٨٣٣ م، ونعود إلى أفريقية. ولقد تركنا هذا الإقليم عام ٨٠٠ م تحت الحكم المستقل فعليًا لإبراهيم بن الأغلب ابن الضابط العربي الذي قتل عام ٧٦٧ م في ثورات شمال أفريقيا. وكان إبراهيم الذي حكم هذا الإقليم من ٨٠٠ م إلى ٨١٢ م رجلاً ذا قدرات خاصة ورجل دولة حكيمًا وسياسيًا ماهرًا وجنديًا ماهرًا، وكان عصره فاتحة عصر يتسم بالسلام والازدهار المتجدد وهو الذي أسس سياسة بعد النظر والتي تعترف بسيادة الخليفة العباسي الذي كانت عاصمته في بغداد بعيدة جدًا لكي تمكنه من ممارسة أي تأثير مباشر على القيروان.

في أفريقيا مارس الأغالبة عمومًا سلطتهم التي لا ينازعهم فيها أحد فعليًا على السهول الساحلية من وسط الجزائر إلى طرابلس. واحتفظ الخوارج البربر المقيمون بجبال

الأطلس باستقلالهم التام كما فعلت أيضًا القبائل البدوية في الطرف الشمالي للصحراء الكبرى وعوملت الأقلية اليهودية والنصرانية في السهول الساحلية بتسامح كبير.

مع ذلك فقد كانت هذه الفترة تتسم بالحماسة الدينية الكبيرة بين مسلمي السهول الساحلية السنيين. وأصبحت القيروان مركزًا للدراسات الدينية بقدر شهرة قرطبة والفسطاط أو بغداد فيما عدا مكة والمدينة. وبعث التهديد بالهجوم البحري من البحر الأبيض النهضة في سلسلة كبيرة من الحصون الساحلية أو الرباطات التي تمتد من ساحل الأطلنطي إلى تونس وطرابلس على بعد أميال قليلة. وكان يوجد أيضًا نظام كفء للإنذار بإضاءة نار على برج للتحذير وكل حصن ساحلي أو رباط يتضمن برجًا مصممًا خصيصًا لحمل النار.

كانت الرباطات يحرسها رجال مسلمون يرغبون في نيل فضل الجهاد في سبيل الله. وفي أول الأمر لم يتقاضوا أي عطاء ولكنهم كانوا يستريحون كل ثلاثة أو أربعة أشهر. وأثناء مناوباتهم في الحصون كانوا يستطلعون البحر وأي نار تحذيرية، ويتدربون على السلاح والتمارين التكتيكية، ويكرسون أنفسهم للصلاة والتأمل.

مات إبراهيم بن الأغلب عام ٨١٢ م وخلفه بنه عبد الله الأول الذي حكم من ٨١٢ م إلى ٨١٧ م، وتدنت شعبيته بسبب بخله. وجاء بعده زيادة الله الأول الذي كان أمير أفريقيا لمدة عشرين عامًا من ٨١٧ م إلى ٨٣٨ م، وكان شاعرًا ومصلحًا عظيمًا. وفي عهده بدأت أسرة الأغالبة في مغامرة عسكرية جديدة وهي فتح جزيرة صقلية. وكانت الجزيرة خاضعة للبيزنطيين اسمًا فحسب، ومع ذلك فقد كان الأباطرة عندهم من المشاغل الكثيرة في بيزنطة وكانت جزيرة صقلية تلقى اهتمامًا ضئيلًا من الحكومة البيزنطية.

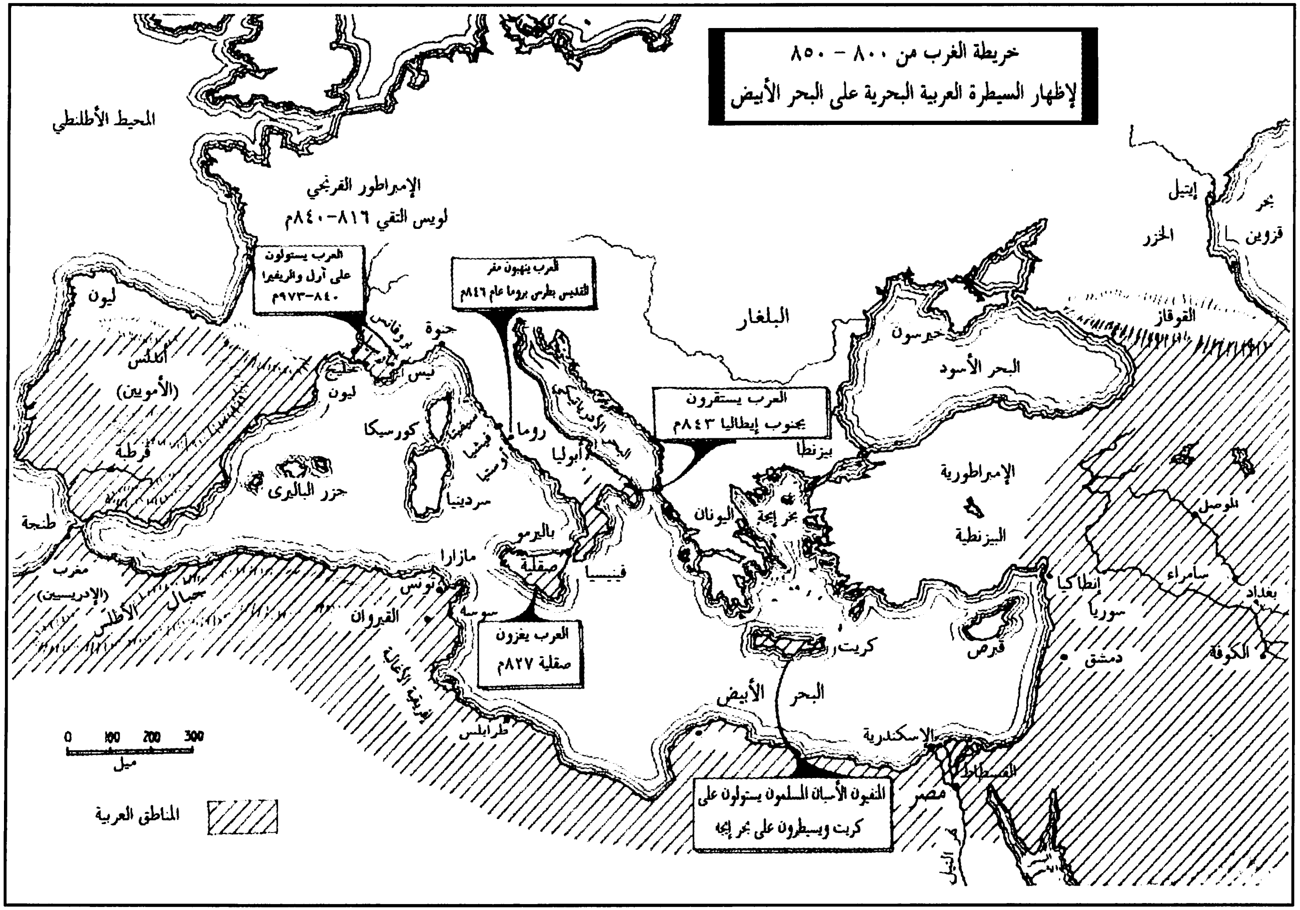
مثلما دعا الكونت جوليان أوف سيتا (السبتاوي) العرب إلى غزو إسبانيا دعا ضابط يوناني محرض على الفتنة الأغالبة إلى فتح جزيرة صقلية. وفي عام ٨٢٧ م أبحر أسطول وجيش من سوسا ونزل في مازارا بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان الذي أعلن في خطبة أن هذه الحملة هي جهاد في سبيل الله. وكان تقدم الجيش العربي بطيئًا ولكن تم

الاستيلاء على باليرمو بعد ذلك بأربع سنوات وأصبحت عاصمة عربية. ووصلت تعزيزات من الأندلس بصورة غير متوقعة، وهذه التعزيزات في أول الأمر قدمت قوة دافعة جديدة للعمليات العسكرية، ولكنها فيما بعد ولدت الخلاف بين الجنود الأفارقة والإسبان. وفي عام ٨٤٣ م فتحت ميسينا وبدأ العرب العبور إلى جنوب إيطاليا. وفي أفريقية كان الأمير محمد ابن الأغلب ٨٤١- ٨٥٦ م يقضي أيامه في تراخٍ وانغماس في الملذات ولم تساعد أي قيادة نشيطة في الوطن الحملة العسكرية في جزيرة صقلية.

من الغريب أن شخصية الحاكم العربي في هذه القرون الأولى كانت مختلفة تمامًا بصورة مستمرة عن الحاكم الذي سبقه، وربما لأن صفات الأبناء تختلف عن صفات الآباء. وخلف الأمير محمد بن الأغلب السكير الأمير أحمد الفاضل ٨٥٦ – ٨٦٣ م وجاء بعده الأمير محمد الثاني الذي كان يقضي معظم أوقاته في الصيد وشرب الخمر.

لم ينتظر العرب استكمال فتح جزيرة صقلية قبل غزو إيطاليا. وفي أغسطس عام ٨٤٦ م استولوا على أوسيتا وقاربوا على مشارف أسوار روما نفسها. وانسحبوا قبل مهاجمة المدينة ولكن بعد نهب مقر القديس سان بطرس على الشاطئ الأمامي لنهر تيبر. واحتلت حامية عسكرية عربية مدينة باري واستولت على اثنين وأربعين حصنًا في إقليم أبوليا فقط. وكان إستقرار العرب في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا في لحظة ضعف الدولة العباسية يتيح للمسلمين أكثر من ثمانمائة وخمسين موقعًا للسيطرة البحرية على البحر الأبيض أكثر من ذي قبل. وفي الوقت نفسه أقيمت مستعمرات عربية في جنوب فرنسا مرة ثانية. ومن جزيرة كريت أغار اللاجئون المسلمون الذين قدموا من الأندلس في بادئ الأمر على جزر بحر إيجه ودمروا بصورة كاملة تجارة القسطنطينية المحمولة على البحر.

خلال القرن التاسع أرهبت أساطيل القراصنة العرب خليج ليون بأكمله، وبعض هؤلاء القراصنة كان من إسبانيا والآخرون من أفريقيا ومن جزيرة صقلية. ولم يتم نهب السفن التي تمر بجزر الباليري وكورسيكا وسردينيا فحسب ولكن أيضًا السفن التي تمر بجنوة ونيس وسيفيتا فيشيا ومارسيليا. وفي عام ٨٤٢ م وفي عام ٨٥٠ م أيضًا


خريطة الغرب من ٨٠٠ - ٨٥٠
لإظهار السيطرة العربية البحرية على البحر الأبيض
المحيط الأطلنطي
الإمبراطور الفرنجي
لويس التقي ٨١٦-٨٤٠م
العرب يستولون
على آرل والريفيرا
٨٤٠-٩٧٣م
العرب ينهبون مقر
القديس بطرس بروما عام ٨٤٦م
البلغار
العرب يستقرون
بجنوب إيطاليا ٨٤٣م
إيتيل
الخزر
بحر
قزوين
القوقاز
خيرسون
البحر الأسود
ليون
أندلس
(الأمويين)
قرطبة
خليج
ليون
جنوة
نيس
كورسيكا
روما
سردينيا
جزر البالبرى
أبوليا
بيزنطا
اليونان
بحر إيجة
الإمبراطورية
البيزنطية
طنجة
مغرب
(الإدريسيين)
جبال الأطلس
مازارا
باليرمو
صقلية
تونس
سوسة
القيروان
فينيسيا
العرب يغزون
صقلية ٨٢٧م
كريت
قبرص
إنطاكيا
سوريا
دمشق
سامراء
بغداد
الموصل
الكوفة
البحر الأبيض
طرابلس
الإسكندرية
مصر
الفسطاط
النفيون الأسبان المسلمون يستولون على
كريت ويسيطرون على بحر إيجه
0 100 200 300
ميل
المناطق العربية

اخترق العرب الأراضي الداخلية حتى وصلوا إلى آرليس. وفي عام ٨٩٠ م استولوا على ساحل الـريفـيرا، وسيـطروا على بروفانس ودوفينيه مرة ثانية. وفي عام ٩٧٣ م طُردوا من آرليس. وعندما ندرك أن الغزو المستمر لإيطاليا وجنوب فرنسا يكاد يكون ليس أكثر من مشاريع قرصنة خاصة يديرها الأمراء المحليون لا يمكن لنا أن نشك أنه إذا لم يفقد العباسيون اهتمامهم بالغرب عندما استولوا على السلطة بتأثير الفرس لكانوا قادرين بسهولة على فتح إيطاليا وجزء كبير من فرنسا.

مهما كانت مزايا أو عيوب الأغالبة فقد تمتعت أفريقية خلال هذا القرن بالسلام والازدهار، وبعد الحروب بين البربر والعرب الرهيبة التي سبقت هذه الدولة أصبح أمراء الأغالبة يشيدون بحماس المساجد الرائعة والقصور الخاصة بهم وخاصة قصر الرقادة خارج القيروان وما زالت القلاع والحصون التي شيدوها على طول الساحل ضد الغارات البحرية وفي المناطق الداخلية ضد قبائل البربر موجودة إلى اليوم. ولم يعتمد الأغالبة مثل كل حكام الإمبراطورية العرب على إخلاص الشعب ولكنهم اعتمدوا بصفة أساسية على القوة العسكرية للجنود والعبيد مع أن الأفارقة السود كانوا يشكلون العناصر الغالبة في الجيش، وتلك الطريقة كانت أسلم من تجنيد العبيد اليونانيين والأتراك والفرس لأنهم كانوا لا يميلون إلى الثورة أو تولي السلطة.

إذا كان الأغالبة ليسوا مثالًا للتقوى فقد كانت أفريقية ككل والقيروان بصفة خاصة على درجة عالية من التدين. ومن الممكن عكس هذا الجو الديني المشحون بصورة كثيفة أن يكون الانهماك في الأمور الدنيوية من جانب الأمراء يقابل بنقد أشد مما كان يوجه لظاهر عبث الأمويين في دمشق أو العباسيين في بغداد أو الأمويين في قرطبة. وعلى الرغم من زلات الأغالبة الأخلاقية لم يهملوا في أداء واجباتهم العامة، ولم يتخلوا عن الاستعانة بكل الوزراء الكبار الأقوياء كما فعل العباسيون. وتجنبوا إيفاد جيش لقمع زعماء القبائل الثائرين واستعملوا الخدم المدنيين. وقدروا أهمية الماء في بلد شبه صحراوي، وبقايا القنوات المائية والمجاري والصهاريج التي شيدوها تشهد على تفوقهم في ذلك المجال.

بمجرد تفسخ الإمبراطورية العربية كانت توجد قناتا اتصال مفتوحتان لنقل العلوم والمعرفة ومهارات العالم الإسلامي إلى أوروبا. ومن المدهش أن نلاحظ كيف أن هاتين القناتين في إسبانيا وجزيرة صقلية فُتحتا في وقتها لكي تمكن أوروبا من أن ترث الحضارة العربية لأن المصادر الأساسية لتلك الحضارة في سوريا والعراق قضت عليها بسرعة حشود التتار والأتراك الذين دمروا فعليًا كل تلك الثقافة. وكانت البلاد العربية الشرقية صحراء منذ ذلك الوقت، وبدأت في عصرنا تستعيد مجدها بعد ستة قرون من الظلام والتي نتجت من تلك الصدمة.

قبل ذلك الاضمحلال للحضارة العربية بدأت بوابات إسبانيا وصقلية تنفتح ببطء وأصبحت المهارات والمعرفة والعلوم العربية والشرقية التي نضجت في دمشق وبغداد وحملت من هناك إلى القيروان وقرطبة تصل إلى أوروبا في اللحظة نفسها التي انعدمت فيها مصادرها، والتوقيت المناسب لنقل المعرفة لا يمكن وصفه إلا إذا شاءت العناية الإلهية ذلك. ولا أحد الآن يتذكر الأغالبة مع أن فتحهم لجزيرة صقلية في الوقت المناسب لعب دورًا كبيرًا في ذلك.

صحيح أن أغلبية الكتاب الأوروبيين اعتبروا فتح العرب لجزيرة صقلية كارثة، ولكن يمكن لنا أن نقول اليوم إن الغرب المسيحي على المدى الطويل استفاد من ذلك أكثر مما استفاد منه المسلمون لأنه إذا بقي العرب في تونس والمسيحيون في صقلية لم تكن إحدى القنوات الرئيسية للحضارة التي من خلالها أثرت الحضارة العربية حياة الغربيين لتفتح.

نعود الآن لكي نفكر في تاريخ إسبانيا. وسنحاول في سطور قليلة تلخيص تاريخ حكام إسبانيا الأمويين الذي رويناه في الفصول السابقة. الأول هو عبد الرحمن بن معاوية الذي هرب من مذبحة الأسرة الأموية في دمشق، ونزل في إسبانيا في سبتمبر عام ٧٥٥ م وتولى حكمها. وتوفي عبد الرحمن عام ٧٨٨ م وتبعه على الخلافة بنه التقي هشام الذي حكم بالعدل والتقوى حتى عام ٧٩٦ م، ثم تبعه بنه الحكم. وعلى الرغم من أن الأمير الجديد لم يكن شريرًا بصورة ملحوظة فإنه لم يكن مخلصًا وصالحًا مثل أبيه؛ ولذلك واجه معارضة

من أساتذة الفقه المسلمين المتعصبين. وحكم لمدة ستة وعشرين عامًا ومات عام ٨٢٢ م وتركنا الكتابة عن الأندلس منذ ذلك الوقت في الفصل السادس عشر.

تبع الحكم في الخلافة ابنه عبد الرحمن الثاني. وبالرغم من قسوة الحكم وغدره في قمع الثورات لم يكن حاكمًا ظالمًا أو غير كفء وترك البلاد تنعم بالازدهار والسلام. وأصبح الأمويون منذ ذلك الوقت مقبولين عمومًا من جانب جميع السكان باعتبارهم حكامًا شرعيين وكانوا قد حكموا إسبانيا لمدة سبعين عامًا منذ عصر الحكم. والأكثر أهمية من كل ذلك هو أنه كان قد مرت مائة وأحد عشر عامًا منذ فتح العرب لإسبانيا ولم يعد معروفًا بدقة الفرق بين العرب والبربر والإسبان الذين اعتنقوا الإسلام. وكانت هناك أمة أندلسية في طور التكوين واختفت النزاعات القبائلية العربية بين اليمانيين والقيسيين. وصحيح أنه ما زالت توجد أقلية مسيحية كثيرة ولكن المسلمين كانوا عقلاء ومتسامحين وكان المسيحيون قادرين على الوصول للمناصب العليا في الدولة أو المشاركة الكاملة في الرخاء المتزايد للبلاد بوصفهم تجارًا أو مزارعين.

كان عبد الرحمن الثاني الأندلسي ابن هذا العصر الجديد الذي يتسم بالسلام والثروة والحضارة. وفي بغداد كان المأمون يتزعم عصرًا يتسم بالثقافة والأدب والفن والعلوم، ولم يستطع الحكام الأمويون في إسبانيا أن يقاوموا إغراء منافسة أعدائهم العباسيين في الشرق فشرع عبد الرحمن الثاني بناءً على ذلك وهو ينعم بالسلام مع شعبه ومع جيرانه في أن يجعل قرطبة بغداد الثانية. وكان مثقفًا وكان ذوقه رفيعًا وكان اجتماعيًا لطيفًا. ومثل كل الأمراء العرب كان مغرمًا بالشعر يقرض الشعر ويرعى الشعراء والموسيقيين. وكان الذي يرشده إلى تلك المساعي صديقه الذي كان يرعاه زرياب وهو عربي من أصل فارسي كان تلميذًا لإسحاق الموصلي عازف القصر لهارون الرشيد نفسه. وكان زرياب يعزف بنفسه في إحدى المناسبات أمام هارون الرشيد البارع.

في قرطبة أصبح موضع حب عبد الرحمن الثاني؛ فلم يكن عازف القصر فحسب ولكنه أصبح حقيقة رجلاً يمتلك مواهب ثقافية وفكرية مختلفة وباهرة؛ فكان يستطيع

إلقاء الخطب عن الشعر والتاريخ والأدب والحياة الاجتماعية اليومية، وكان معروفًا بنكته وحضور بديهته السريعة. وفي ملابسه كان نموذجًا للأناقة وكان يضع نموذجًا لتفصيل ملابسه يقتدى به، وكانت طريقته في تسريح شعره وإعداد طعامه نموذجًا.

نحن في القرن العشرين اعتدنا على سيادة الحضارة الغربية لدرجة أننا نميل إلى الشك في أن حضارة الأندلس الرفيعة استمدت كينونتها من فرنسا أو إيطاليا. ولكن لا شيء يمكن أن يبعدنا عن الحقيقة؛ فقد كان جيران عرب شمال إسبانيا بلادًا جاهلة ريفية ساذجة بالمقارنة بالسادة المثقفين بقصر قرطبة. ولم يتميز فقط بلاط عبد الرحمن الثاني بالموسيقى العابثة والشعر والأزياء والطعام، بل انتشرت في الأندلس ترجمات الكتب اليونانية القديمة التي تم إنجازها بدقة ومثابرة في عهد المأمون، وانتشرت حركة الترجمة ووصلت إلى إسبانيا حيث تبع ذلك دراسات علمية نشيطة. وكانت سلسلة توارث العلم التي استعادت بها أوروبا حضارتها قد خرجت من اليونان القديمة إلى بغداد ومن بغداد إلى قرطبة ومن قرطبة إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا الغربية. وعندما فصل العرب بعض أجزاء أوروبا عن العالم تسببوا في عصور الظلام التي في نهايتها أعاد العرب لأوروبا مرة ثانية نور المعرفة.

مات عبد الرحمن الثاني في ٢٢ سبتمبر عام ٨٥٢ م بعد فترة حكم رشيدة لمدة ثلاثين عامًا تمتعت فيها الأندلس بالسلام والازدهار والتقدم الكبير في الثقافة والمعرفة والذوق الرفيع. وفي عصر ابنه محمد الضعيف والفقير كانت الأسرة الحاكمة الأموية لإسبانيا تنحدر إلى السقوط. ولكن المظاهر كانت خادعة لأن العصر الذهبي للعرب في الأندلس لم يأت بعد. وبعد مائة عام من العصر الذي نكتب عنه أصبح مسلمو إسبانيا من الناحية العسكرية والثقافية من القوى العظمى في ذلك العصر. واستوعبت حضارة أوروبا الغربية بصورة مستمرة الكثير من رحيق زهرة الثقافة والفروسية الأندلسية.

من الجدير بالملاحظة أن العرب بسطوا سيادتهم الكاملة على البحر الأبيض المتوسط في الفترة من ٨٥٠ م إلى ٩٥٠ م عندما كانت الخلافة العباسية تتداعى قبل ذلك وتتجه إلى السقوط. وهذه القوة البحرية العربية الغربية كوّنها حكام إسبانيا وشمال أفريقيا

دون مساعدة بغداد. ولم يكن عرب الشرق بحارة ضعفاء ولكن على العكس كانوا يبحرون بانتظام إلى الهند والصين وإندونيسيا. وعلى الرغم من أن قصص السندباد البحري في ألف ليلة وليلة تمتلئ بالسحر والخرافات من أجل الاستهلاك الشعبي فإنها تقدم فكرة ما عن هذا العصر الذي كان يتسم بالمغامرات البحرية التجارية الكبيرة. ويرجع ضعف القوة البحرية للعباسيين في البحر الأبيض إلى عدم اهتمامهم بالغرب ككل والذي يفسره تخلي هارون الرشيد الفعلي عن إقليم أفريقية إلى الأغالبة.

لم يكن الفرنجة يرتادون البحر، وأدى ذلك إلى أن بيزنطة وفينيسيا وموانئ قليلة في جنوب إيطاليا كانت الموانئ الوحيدة الغير عربية التي حاولت بوهن أن تقاوم القوة البحرية العربية. وأدى هذا إلى وجود تجارة بحرية غير مشروعة محفوفة بالمخاطر حول اليونان والبحر الأدرياتيكي، وهذه التجارة كانت كافية للحفاظ على المجتمعات التجارية في مدن قليلة وتجنب نشوء نظام إقطاعي وزراعي كامل في اليونان وإيطاليا مثل الذي ظهر إلى الوجود في فرنسا وإنجلترا. وكان النصف الأول من القرن العاشر والأخير من التاسع يؤذن بأن القوة البحرية المسيحية قد بلغت أقل درجة لها. وبعد ذلك مع الحروب الصليبية بدأت تستعيد عافيتها مرة ثانية. ومن الجدير بالتأمل أنه في أيامنا هذه أجمل القصور القديمة في إنجلترا ممتلكات ريفية، بينما في إيطاليا توجد أجمل قصور الأسر القديمة للأمراء التجار في المدن التجارية والبحرية مثل فينيسيا وجنوة.

اقتبست فنون الملاحة الأوروبية من العرب بصفة أساسية على الرغم من وجود مدرسة مستقلة في أقصى شمال غرب أوروبا حول بحر الشمال. وتعلم البحارة الإيطاليون والإسبان والبرتغاليون فن التجارة من العرب وهم الذين اكتشفوا أمريكا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح.

في ٩ أغسطس عام ٨٣٣ م في معسكر الجيش حيث توفى المأمون بويع أخوه المعتصم خليفة. ولقد كان الابن الثامن لهارون الرشيد وثالث أولاده من الخلفاء بعد الأمين والمأمون وبايع العباس بن المأمون عمه خليفةً.

مرت سبعون سنة منذ أن شيد المنصور مدينة بغداد واستقر فيها الجنود الخراسانيون الذين اعتمد عليهم. ولكن الخراسانيين تخلوا عن إخلاصهم وولائهم المعتاد للعباسيين بعد الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون. ووجد المعتصم نفسه مضطرًا إلى البحث عن مكان آخر فيه جنود مخلصون. ويبدو أنه كان لا يحب العرب ولذلك اعتمد بصفة كلية على المرتزقة الأتراك. وكان كثير منهم مجندًا في الجيش قبل ذلك ولكن زادهم المعتصم بصورة كبيرة. وجلب الكثير منهم من وراء نهر الأوكسس حتى كون لنفسه قوة حراسة خاصة به تتكون من عشرة آلاف رجل، وألبسهم زيًا رائعًا، والبعض منهم كان يلبس زيًا حريريًا، بينما كانت أسلحتهم وأحزمتهم مطعمة بالذهب والفضة. وكان تجنيد الأتراك يختلف تمامًا عن تجنيد الخراسانيين السابق لأن الفرس والعرب كانوا مسلمين وكانوا أصحاب حضارة راقية. أما الأتراك فكانوا من قبائل بربرية.

أصبح الأتراك متعجرفين؛ لأنهم تمتعوا بحظوتهم عند الخليفة، فكانوا يمرون بخيولهم خلال شوارع بغداد، وهم يركبون خيولًا رائعة، ويدقون عنق من يقف في طريقهم من الأطفال والنساء. وكان أي جندي تركي يغامر بالمشي وحيدًا في شوارع بغداد الخلفية بعد حلول الظلام يتم قتله انتقامًا من الجماهير الغاضبة. وبعد ذلك أصبحت العلاقات بين الأتراك وسكان بغداد محتقنة لدرجة أن المعتصم قرر أن يترك بغداد ويبني لنفسه عاصمة جديدة في سامراء على بعد سبعين ميلًا في أعالي نهر دجلة.

لأن المعتصم كان مهتمًا بالعمارة والزراعة معًا فقد كرس نفسه بحماس لتشييد القصور وتصميم الحدائق والبساتين والمناطق الخضراء لعاصمته الجديدة. وكان المعتصم رجلًا ذا قوة بدنية كبيرة وحضور طاغٍ، وكان مشهورًا بشجاعته. وكان ينقصه الثقافة والتعليم وعلى عكس المأمون في هذه الناحية.

يروى أنه عندما كان صغيرًا كان أحد عبيد القصر يتردد معه إلى الكتاب. وفي أحد الأيام مات هذا الخادم بعد شعوره بالمرض. وجاء والد المعتصم هارون الرشيد لكي يطلع على الأخبار الحزينة فقال له: «ما فعل غلامك؟ »، فقال المعتصم: «مات فاستراح من

الكتاب»، فقال الرشيد: «قد بلغ منك كراهة الكتّاب إلى أن تجعل الموت منه راحة؟ والله يا بني لا تذهب بعد اليوم إلى الكتّاب». وأمر هارون الرشيد بألاّ يذهب المعتصم إلى الكتّاب بعد ذلك وأدي ذلك إلى أن المعتصم كبر وأصبح لا يحسن القراءة ولا الكتابة.

ذكرنا قبل ذلك ثورة بابيك الخرامي في أذربيجان. وكانت هذه الثورة قد بدأت عام ٨١٦ م أثناء فترة الفوضى العامة التي تلت وفاة الخليفة الأمين وكان المأمون لا يزال في خراسان. وانتشرت الفتنة بعد ذلك إلى همدان وجرجان. وفي تلك الفترة وبعد مرور اثنين وعشرين عامًا كان بابيك لا يزال قويًا.

استفاد الثوار من وحشية الجبال والممرات والشعاب التي كانوا يألفونها ولأنهم تجنبوا وقوع قتال ضارٍ في وضح النهار فقد كانت إستراتيجيتهم تهدف إلى قطع طرق القوافل وعمل كمائن في ممرات الجبال ومفاجأة كتائب الجنود ليلًا. وكان الجيش مضطرًا إلى الانتقال في تشكيلات كبيرة فحسب وحراسة كل قافلة تمر عبر البلاد. وأي غفلة سريعة قد تؤدي إلى حوادث لا تحمد عقباها.

كان الثوار الذين نالوا تأييد سكان القرى والأرياف وحبهم على علم مستمر بكل حركة للجيش النظامي ويمكن لهم أن ينقضوا بسرعة على أي كتيبة ضعيفة. وكان الجيش يسير خلال البلاد نهارًا وهو يقرع الطبول ويحمل الرايات، وصدرت الأوامر له بأن يعسكر مبكرًا في الصحراء وأن يحصن معسكره بقوة؛ لأنه بمجرد حلول الظلام سيسيطر الثوار على المنطقة بأكملها.

صمم المعتصم الجندي الماهر الذي لم يكن يهتم بالثقافة التي تشتت اهتمامه عن النواحي العسكرية على وضع نهاية لتلك الحرب الصغيرة التي تطاولت، فبعث بأحسن قائد عنده؛ حيدر الأفشين. وكان القائد الجديد جنديًا متمرسًا وحذرًا. ولذلك فتر من حماسة أكثر الجنود القليلي الاحتمال ورفض أن يجازف بمباغتة العدو. ولكنه تدريجيًا استعاد سيطرته ياردة بياردة وميلًا بميل.

أدرك بابيك بسرعة أنه في هذه المرة يعارض قائدًا يعرف ما الذي يفعله. وتبعًا لذلك كتب إلى الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلس يبلغه أن الجيش العربي بأكمله يحتشد ضده في أذربيجان ويرى أن هذه اللحظة هي اللحظة المناسبة للهجوم البيزنطي على العرب.

في النهاية، في عام ٨٣٧ م حوصر بابيك، واقتحم الجيش عاصمته الحصينة وأحرقها بالنار وبُعث وهو مقيد بالسلاسل إلى الخليفة في سامراء. وكان يوم وصوله يوم فرح عام وكان يرتدي أروابًا حريرية رائعة وعلى رأسه تاج واقتاده الجنود عبر الشوارع إلى القصر على فيل. وفي وجود الخليفة سلب الجنود الحلي التي كانت معه. وتم قطع يديه وقدميه، وغُرست السيوف ببطء في جسده، وتجنب الجنود الأعضاء الحساسة لكي يطيلوا لحظات العذاب الأخيرة. واعترف أعداؤه بأنه تحمل العذاب بثبات غير عادي دون حتي التنفيس عن ألمه. وأرسل رأسه إلى بغداد بينما عرض جسده دون رأس مربوطًا على خشبة في سامراء. وبعد ذلك بأكثر من قرن أصبح المكان معروفًا بخشبة بابيك.

أثناء ثورة بابيك التي امتدت لاثنين وعشرين عامًا قُتل حوالي مائتا ألف من العرب وعندما استولى الجنود على حصنه كان فيه سبع آلاف امرأة مسلمة وطفل يعملون عبيدًا له وهذه الأرقام قد تكون غير موثوق بها دون شك ولكنها كافية لتظهر أن عملياته الحربية كانت على نطاق كبير.

تحت قيادة المعتصم المتحمس والمحارب فرضت الحملات العسكرية الأخرى الناجحة سلطة الخليفة على الأقاليم الجبلية والبعيدة مثل: طابرستان، وتوخارستان، وكابول، وكاندهار. والذين يعرفون الحملات التأديبية المستمرة التي نفذها في أفغانستان الجيش البريطاني القادم من الهند سيهتمون بمعرفة أنه قبل ذلك بألف سنة كانت الإمبراطورية العربية مضطرة إلى القيام بعمليات عسكرية مشابهة في البلد نفسه.

في ذلك الوقت وافق الإمبراطور ثيوفيلس على اقتراح بابيك وسار بجيش مكون من سبعين ألف رجل إلى حدود سوريا، وفي صيف عام ٨٣٧ م حاصر زيبيترا وهي مدينة على بعد ثلاثين ميلًا جنوب مالاتيا. وولد المعتصم في هذه المدينة نفسها؛ لأن هارون الرشيد

كان معتادًا على مرافقة بعض الجاريات المحظيات لديه في حملاته العسكرية. وكان الجيش البيزنطي لا يزال في أذربيجان وشرق فارس، وبعض المؤرخين يروي أن المعتصم بعث برسالة إلى ثيوفيلس يطلب منه فيها أن يتغاضى عن زيبيترا لأنها مكان ميلاده. وإذا كان هذا قد حدث فإن ثيوفيلس لم يهمل طلب المعتصم فحسب ولكنه تعامل بعنف خاص نحو هذه المدينة التي اقتحمها بالقوة وسواها بالأرض. وساق أكثر من ألف امراة مسلمة أمامه كجاريات، ولم يتم حصر الأطفال، وقتل بالسيف كل رجال المدينة.

أغار الإمبراطور عندئذ على البلاد المحيطة بمالاتيا وساق نساءها. وأعميت أعين الرجال وجدعت آذانهم وأنوفهم. وبمجرد أن وصلت الأنباء إلى المعتصم في سامراء انتقل فورًا إلى معسكر على الضفة الغربية لنهر دجلة ونشر رايات الحرب. واستدعى كل رجل في الإمبراطورية من مصر والجزيرة العربية وسوريا والعراق إلى جانب الوحدات التركية المجندة.

في ربيع عام ٨٣٨ م تحرك المعتصم على رأس أكبر جيش قاده خليفة في تاريخ الإسلام، ويروي المسعودي قوته الكلية التي يمكن أن نقبلها بتحفظ بمائتى ألف رجل على أقل تقدير. وعبر المسلمون جبال طوروس في جيشين؛ الأول يقودة المعتصم شخصيًا وسلك الطريق الساحلي عبر طرسوس. والآخر يقوده أفشين وعبر الجبال من خلال ممر حاديس. والتقى الجيشان خلف جبال طوروس وسارا معًا إلى أنقرة. وكلما كان كل ممر مساحته مائة وخمسون ميلًا كلما كانت العمليات الحربية تحمل بعض المخاطر.

كان العرب في ذلك الوقت قد حصلوا على سر النار الإغريقية التي أنقذت القسطنطينية من جيوش معاوية وسليمان بن عبد الملك. وكانت هناك وحدات خاصة من حاملي الزيت تسير مع جيش المعتصم مدربة على إضاءة سائل اللهب وتفريغه.

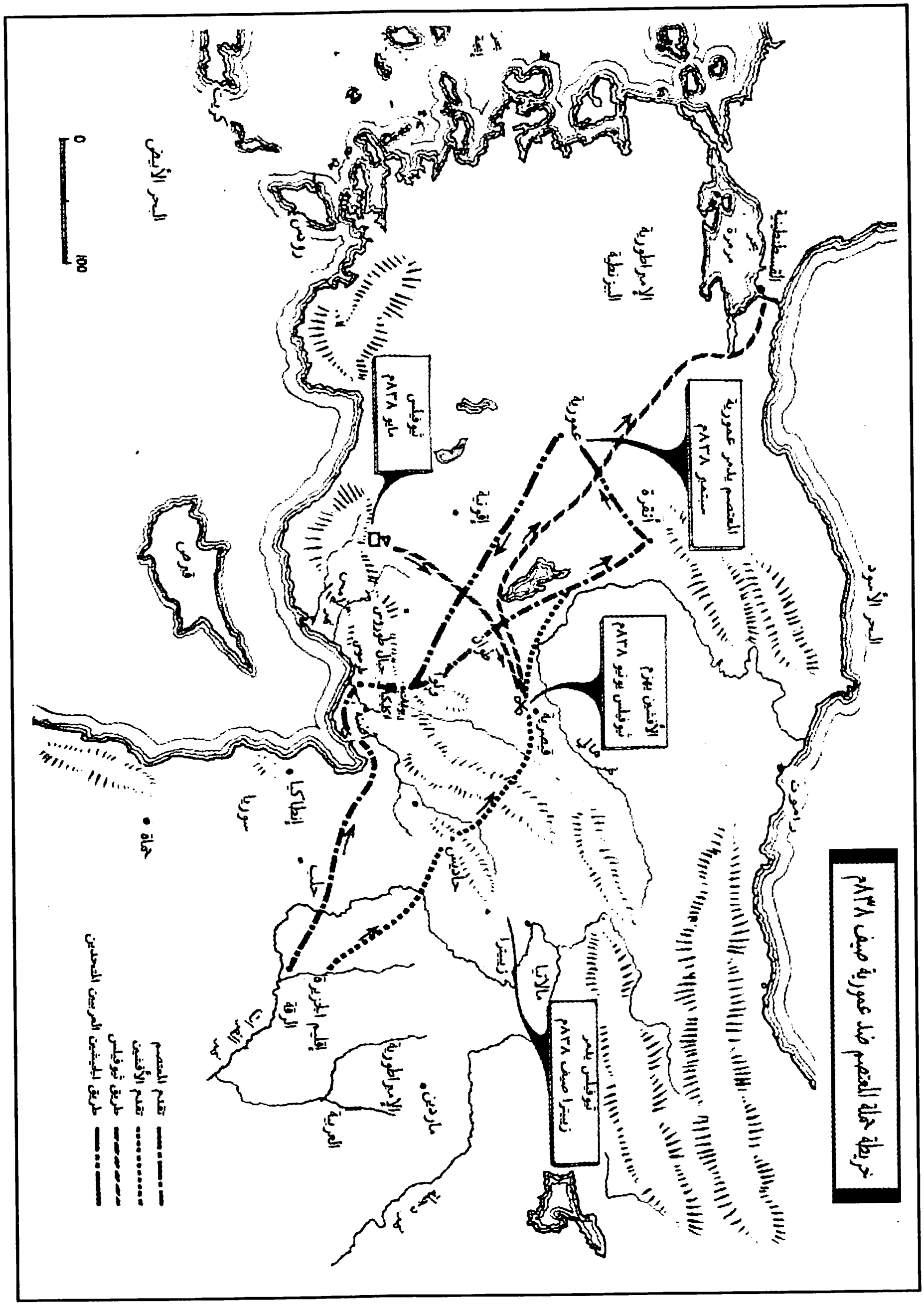
كان الإمبراطور ثيوفيلس قبل ذلك في ميدان المعركة مع جيشه وكان ينتظر أن يغير المسلمون على نهر لامس. وعبر الجيش العربي جبال طوروس في يونيو عام ٨٣٨ م وتلقى الإمبراطور ثيوفيلس تقريرًا من كتائب الاستطلاع الخاصة بجيشه أن هناك جيشًا عربيًا

آخر وهو الذي يقوده أفشين قد عبر الجبال إلى أقصى الشمال في حاديس فقرر على الفور أن يدمر هذا الجيش الشمالي بكل ما فيه قبل أن يلتقي الجيشان. وبناءً على ذلك ابتعد بجيشه عن نهر لامس وسار بسرعة في اتجاه الشمال.

أبلغ المعتصم باختفاء جيش ثيوفيلس، ولم يكن قادرًا على ملاحقته نظرًا لأن معدات الحصار وكتائبه كانتا لا تزالان تتهاديان خلال جبال طوروس، ولكنه بعث بمن يحذر الأفشين على وجه السرعة. وقبل أن تصل إليه الرسالة فاجأ الإمبراطور الأفشين وحدث بعض الاضطراب في جيشه. ولكن الأفشين الذي كان محاربًا قديمًا كان مستعدًا للمباغتة فاستجمع قواته مرة ثانية وقام بعمل هجوم مضاد على الجيش البيزنطي وألحق به هزيمة ثقيلة أدت إلى انسحابه غربًا وهو يعاني من بعض الاضطراب. وحدث ذلك في نهاية يونيو عام ٨٣٨ م.

التقى الجيشان العربيان في أنقرة وسارا من هناك إلى عمورية التي كانت موطن ميلاد ثيوفيلس، أو على الأقل موطن أسرته. (وكما نعلم فإن والده معروف بمايكل العموري) وصمم المعتصم بناءً على ذلك على تدمير عمورية كما دمر الإمبراطور زيبيترا، فأحضرت سلاسل الحصار على الفور ونصب المنجنيق. وقضى المعتصم على ثيوفيلس والجيش البيزنطي. وبسرعة تم عمل ثغرة في الأسوار واقتحم المسلمون أسوار المدينة. وطبقًا لما رواه المؤرخون العرب قتل ثلاثون ألف بيزنطي وسويت المدينة بالأرض. واستمر الحصار لمدة خمسة وخمسين يومًا من بداية أغسطس إلى نهاية سبتمبر عام ٨٣٨ م. وكما يروي المؤرخون العرب سيقت ثلاثون ألف امرأة وطفل إماءً وعبيدًا. وهكذا انتقم المعتصم للفظائع التي ارتكبها ثيوفيلس في زيبيترا.

بينما كان الجيش عائدًا خلال ممرات جبال طوروس دبرت مؤامرة؛ ذلك بأن عددًا من كبار الضباط كان قد بايع العباس بن المأمون سخطًا وغضبًا من الحظوة التي يحظى بها الأتراك عنده فتم قتل المتآمرين بمن فيهم العباس، ولكن المعتصم لم ينعم بالسلام بعد


خريطة حملة المعتصم ضد عمورية صيف ٨٣٨م
البحر الأسود
البحر الأبيض
الإمبراطورية البيزنطية
قبرص
رودس
أنقرة
عمورية
قيصرية
إنطاكيا
حلب
سوريا
حماة
الرقة
إقليم الجزيرة

وصول الأفشين إلى أعلى درجات المجد فهو الذي هزم بابيك في النهاية وهزم ثيوفيلس والجيش البيزنطي بجيشه فحسب، ولا يستطيع الخليفة أن يرقي قائده لأكثر من ذلك.

لم يثق المعتصم في الأفشين لأكثر من مرة أو مرتين ولم يكن راضيًا عن عبد الله بن طاهر حاكم خراسان. وثار رجل يسمى مازيار في طبرستان. وكان حليفًا لبابيك وخراميًا أيضًا. وكان الأفشين فارسيًا من إقليم عبر الأوكسيانة وكان يزعم أنه من نسل ملوك فارس القدامى.

سواء كان الأفشين بوصفه فارسيًا نبيلاً يتعاطف مع مازيار أم لا أو أنه كان يأمل في أن يكون واليًا على خراسان إذا هزم ابن طاهر لا نعلم على وجه التأكيد. وعلى أية حال فقد كتب الأفشين إلى مازيار يحثه على ألا يثور. وهزم ابن طاهر مازيار واستولى على مراسلاته مع الأفشين. ومن هذه المكاتبات كان واضحًا أن الأفشين لم يساعد مازيار على الثورة فقط ولكنه كان يعمل بصورة قاطعة على الانقلاب على الأسرة العباسية الحاكمة واستعادة مملكة الفرس والديانة المجوسية. ومات الأفشين في السجن بعد أن قُبض عليه.

عندما نبحث في الأعمال التي كان يقوم بها الأفشين، فهناك عدد من القرائن التي تدل على أن كثيرًا من جنود الخليفة المرتزقة لم يكونوا مسلمين؛ لأن المعتصم اشترى كثيرًا منهم من القبائل التركية خلف نهر الأوكسس، وهذه الحقيقة لا تدهشنا ولكن توجد مفارقة في الموقف لأن أساس الخلافة كله كان دينيًا مع أن الخليفة أمير المؤمنين يستخدم جنودًا كفارًا للحفاظ على حكمه على المسلمين. وقبل ذلك بمائتي عام سحق المسلمون العرب الأوائل جيوش الكفار أمامهم مثل القش.

مات المعتصم في ٥ يناير عام ٨٤٢ م وعمره سبعة وأربعون عامًا. وكان رجلًا يتسم بالشجاعة الكبيرة، وكان يكرس وقته للحرب والصيد وكان يلعب البولو بمهارة. وكانت لا تشغل باله الاهتمامات الثقافية التي كانت تميز المأمون عنه. وكانت أبرز صفاته حبه وافتتانه بالجنود الأتراك. وكان أول خليفة يرقي الأتراك إلى المناصب العليا للدولة.

كان المعتصم بقوامه الرشيق وشجاعته الكبيرة شخصًا مهيبًا يوحي بالمهابة. وعندما حدثت بعض القلاقل في معسكره خارج عمورية قدم وهو يركب فرسه وسيفه في يده، وكان يتبعه فارس واحد فانكمش الجنود خوفًا أمام هذا الرجل الكبير الذي يتوعدهم على فرسه وفض الخليفة المشاغبين خالي الوفاض. ويمكن لنا أن نتنبأ بأن هؤلاء المرتزقة القساة لم يعد ممكنًا التحكم فيهم إذا جاء خليفة ضعيف بعد هذه الشخصية القوية.

عندما مات المعتصم يروى أنه ترك ثمانية ملايين دينار من الذهب، بالإضافة إلى أن أسلحة الجنود الأتراك ومعداتهم كانت مطرزة بالذهب. ومن المهم أن نذكر أن شارلمان الذي كان قد مات قبله بعدة سنوات عام ٨١٤ م كان مضطرًا إلى استعمال عملة فضية لعدم وفرة الذهب.

هكذا عندما مات المعتصم عام ٨٤٢ م لم يكن ظاهرًا لأعداء الإمبراطورية أن هناك ضعفًا فيها لأن الخليفة كان يملك أقوى جيوش العالم، وكان جيش واحدٌ فقط كافيًا لهزيمة الجيش البيزنطي. وكان الوضع المالي قويًا، وكانت الصناعة والتجارة مزدهرة والإمبراطورية تنعم بالأمن في الداخل والخارج. وأثبت المعتصم أنه حاكم قوي وقدير، وكان هو السبب الرئيسي في ذلك الوقت لانهيار الإمبراطورية التي دافع عنها بكل قوة وجرأة.

في إمبراطورية العرب نشأ حكم الرجل الواحد؛ الخليفة من بعد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان معلمًا دينيًا وقائدًا عسكريًا وزعيمًا سياسيًا لقومه. وكانت هيبته كبيرة جدًا لدرجة أن الخلفاء الراشدين بعده كانوا يسعون إلى تخليد نظامه السياسي. ومن ذلك الوقت وحتى سقوط دولة بني أمية بقي قدر كبير من الديمقراطية القديمة والزعامة الدينية.

كان خوف العباسيين من خصومهم من قريش هو الذي أدى بهم إلى الاعتماد فحسب على الفرس، وإضعاف قوة الطبقة الأرستقراطية العربية وإهمال القبائل العربية كمصدر من مصادر إمداد الجيش بالجنود. وفقد عرب الكوفة والبصرة ودمشق مزاياهم العسكرية فيما عدا القبائل.

لا داعي لأن نقول إن اعتماد العباسيين على الفرس كان حتميًا؛ لأن الفرس كانوا مسلمين وكانوا قد اندمجوا كليةً في الإمبراطورية لأن النفوذ الفارسي أدى في النهاية إلى كارثة وإلى حكم استبدادي مطلق. ولم يعد يوجد من يعارض الخليفة إذا ارتكب خطأ سياسيًا كبيرًا، وكما رأينا كره شعب الإمبراطورية بمرارة الأتراك الذين جلبهم المعتصم، ولكن لم تعد توجد أي جماعة قوية للغاية لكي تمنع الخليفة من فعل ما يريده.

نسأل أنفسنا لماذا كان الخلفاء في ذلك الوقت يحتاجون إلى مرتزقة أجانب؟ وعندما ننظر إلى البلاد العربية الآن بالانقلابات العسكرية المتكررة التي حدثت فيها، هل يقدم ذلك لنا تبريرًا في أن نشك أن الخلفاء كانوا مضطرين إلى تجنيد الجنود الأجانب لأنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على ولاء الجيوش العربية؟.

كانت الفترة الزمنية التي مرت بين المجد الإمبراطوري لهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وبين انهيار الخلافة تبدو مدهشة للوهلة الأولى. وإذا تذكرنا لويس الرابع عشر سنجد أنه احتكر كل قدرات الدولة ووصل إلى قمة مجد غير عادي. ولكنه عندما مات مثل هارون الرشيد كان قد ترك حكومة ضعيفة. وعند وجود ملك ضعيف غير قادر على تحمل عبء الخلافة نقول إن المبنى المحروم من الخدمات ينهار على أعقابه.

ظلت الإمبراطورية العربية لمدة قرنين تقاتل البربر الشماليين كما كانت تفعل روما، وجلب المعتصم إلى قلعة الإمبراطورية جيشًا كاملًا من الأجانب كان كثير منهم لا يتكلم العربية وكانوا إلى حد ما مسلمين. وبعد ذلك باع مصير العرب إلى الأعداء ووضع مصير الامبراطورية في يد رجال لا يرتبطون بها بأي رابطة روحية أو عاطفية. وإلى يومنا هذا لم يتعاف العرب من الكوارث التي تلت ذلك.

تواريخ بارزة

- ٨٠٠ م....تنصيب إبراهيم بن الأغلب واليًا على أفريقية.
- ٨٢٢ م.....تولي عبد الرحمن الثاني حكم الأندلس.
- ٨٢٧ م......غزو العرب لجزيرة صقلية.
- ٨٣٣ م......وفاة الخليفة المأمون.
- ٨٣٣ م.....مبايعة المعتصم.
- ٨٣٧ م.......هزيمة بابيك ووفاته.
- ٨٣٧ م......تدمير ثيوفيلس لزيبيترا.
- ٨٣٨ م......تدمير المعتصم لعمورية.
- ٨٤٢ م......وفاة الخليفة المعتصم.
- ٨٤٣ م......فتح العرب لمسينا.
- ٨٥٠ م...... نهب العرب لمقر القديس بطرس بروما.
- ٨٥٢ م....وفاة عبد الرحمن الثاني الأندلسي.

الشخصيات

- ٨٣٣-٨٤٢ م الخليفة المعتصم
- بابك الخرامي ثائر أذربيجان
- حيدر الأفشين قائد الجيش

سلاطين الأندلس

- ٨٢٢-٨٥٢ م......عبد الرحمن الثاني.

- ٨٥٢-٨٨٦ م......محمد.

أمراء أفريقية من الأغالبة

- ٨٠٠-٨١٢ م.....إبراهيم بن الأغلب.
- ٨١٢-٨١٧ م.....عبد الله الأول.
- ٨١٧-٨٣٩ م.....زيادة الله الأول.
- ٨٣٩-٨٤١ م....أبو العقال.
- ٨٤١-٨٥٦ م......محمد.
- ٨٥٦-٨٦٣ م......أحمد.

الأباطرة البيزنطيون

- ٨١٣–٨٢٠ م..... ليو الخامس الأرميني.

- ٨٢٠–٨٢٩ م........مايكل الثاني العموري.

- ٨٢٩–٨٤٢ م.......ثيوفيلس.

الفصل التاسع عشر

نهاية عظمة

كان القادة الأتراك في ذلك العهد هم الذين يحكمون فعليًا على مصير الخلافة، وتحول ولاة الأقاليم تدريجيًا إلى إقطاعيين وتضاءلت سلطة الخلفاء إلى سلطة اسمية.

(أمير علي– تاريخ موجز للعرب)

حي هو الله، إنه لو لم تتكلم لكان الشعب في الصباح قد صعد كل واحد من وراء أخيه.

(صموئيل الثاني – الإصحاح الثانى ٢٧)

الزمن مثل النهر يتكون من أحداث وبمجرد أن يحدث شيء يزول ويأتي حدث آخر يحل محله ويزول أيضًا.

(ماركوس أوريليوس أنطونيوس)

خلف الواثق بن المعتصم والده دون معارضة في يوم وفاته في ٥ يناير عام ٨٤٢ م ومات الإمبراطور ثيوفيلس في العام نفسه وخلفته زوجته تيودورا في الحكم كواصية على ابنه مايكل. وفي عام ٨٤٥ م توفى عبد الله بن طاهر والي خراسان.

في عام ٨٤٥ م بدأ بدو الحجاز من بني سليم في نهب القوافل والحجيج في مكة والمدينة، فبعث الخليفة لهم قوة تأديبية تتكون بصفة أساسية من قوات تركية يرأسها قادة من الأتراك، وقامت هذه القوات بمهاجمة بني هلال وبني فزارة وقبائل الحجاز الأخرى، وبعد

ذلك غزت نجدًا حيث حدث قتال ضارٍ. ونظرًا لأننا تعودنا على الشكوى من سوء الحكم التركي في الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر فقد ندهش لوجود جيش من الأتراك في الجزيرة العربية في القرن التاسع.

تـرك الواثـق شئون إدارة الإمـبراطـورية لاثنـين من وزرائه الأسـاسـيين: محمد ابن الزيات وأحمد بن أبي داود. ويروى أنه لم يصدر أمرًا دون الرجوع إليهما ولم يعارضهما على الإطلاق.

كان الواثق بطرق كثيرة مناقضًا تمامًا لأبيه العنيف والمتحمس وأحيانًا القاسي. وربما كان المعتصم يتحكم فيه وهو صغير ولكنه بعد ذلك كان مجبلًا على صفات معارضة تمامًا لصفات أبيه. وبدلًا من إصدار الأوامر والسيطرة على الحكم ترك السيطرة على الشئون العامة للآخرين. وكان يقضي معظم فترات حكمه في سامراء ولم يحاول أن يسافر ويزور الأقاليم أو القيام بحملة عسكرية. وكان طيبًا بهيجًا يرعى حقوق أهل بيته، وكان خيرًا نحو رعاياه على الرغم من أنه لم يقدم أي شيء لزيادة عطائهم. وكان مغرمًا بالطعام والشراب وكان يفرط في الاستمتاع بهذه المتع.

كان الواثق مثل عمه المأمون مفكرًا وباحثًا، وكان يحب أن يسمع وجهات نظر مختلفة أو أفكارًا جديدة. وكان يرحب بالعلماء والحكماء في قصره، وكان الحديث الذي يدور في حضرته رفيع المستوى. وكان يهتم بالفلسفة ويرحب بأي مناقشات حول صفات الفلاسفة القدماء والمعاصرين ومزاياهم، وكان شغوفًا بالاستماع إلى أحدث التطورات في مجال علمي الطبيعة والتاريخ الطبيعي، وكان يهتم بالطب بصفة خاصة.

كان الواثق يتميز بموهبة أدبية مبكرة وكان شاعرًا فصيحًا وعازفًا باهرًا يعزف بنفسه على العود، وروي أنه لحن أكثر من مائة لحن موسيقي. وحينما كان وزراء الخليفة الفرس والأتراك والقادة منهم يدبرون شئون الدولة كان الخليفة يستغل وقته في ممارسة هذه الهوايات اللطيفة وتشجيع العلم والأدب.

بعد حكم هادئ لمدة ستة أعوام مات عام ٨٤٧ م وعمره ستة وثلاثون عامًا. ومن حسن الحظ أنه في أثناء حكمه كان يحكم بيزنطة امرأة؛ فلم تحدث أي معارك بين المسلمين والبيزنطيين.

كان ينظر للخلفاء العباسيين كحكام عرب، ولكن هذه الحسبة البسيطة تظهر أنهم في هذا العصر لم يكونوا عربًا على الإطلاق من الناحية الجنسية.

١- الخليفة المنصور كان بن محمد بن علي الخليفة العباسي وجارية بربرية. وبناءً على ذلك كان نصف عربي ونصف بربري.

٢- تزوج المنصور امرأة عربية يمنية. وكان المهدي بنه بناءً على ذلك ثلاثة أرباع عربي وربع بربري.

٣- هارون الرشيد كان ابن المهدي والخيزران أمة بربرية. وكان بناءً على ذلك ثلاثة أثمان عربي وخمسة أثمان بربري.

٤- المأمون كان ابن هارون الرشيد وجارية فارسية. وبناءً على ذلك ٣ / ١٦ عربي و١٣ / ١٦ غير عربي والمعتصم كان كذلك.

٥- كانت أم الواثق جارية يونانية. وبناءً على ذلك تقريبًا ١ / ١٠ عربي و٩ / ١٠ غير عربي.

علم الوراثة بلاشك موضوع معقد جدًا ولا يتم التعامل معه بتلك الحسابات البسيطة. ومع ذلك فإن تلك الحسابات تقدم لنا فكرة ما عن سريان الدم العربي القليل في عروق الخلفاء العباسيين. وبلا شك كان كثير من الرجال من أسر الأعيان وكان الذين يحملون الأسماء العربية منهم من ذوي الأصل المختلط.

كان الاتجاه العام للإسلام في بادئ الأمر كما لاحظنا قبل ذلك يؤكد على الفروض التي يأمر بها الدين أكثر منها تشجيع أي محاولة من الفرد للاتصال بالله(*)، وكان التشديد على وحدانية الله وقدرته وعظمته يشمل تعذر الوصول إليه.

(*) (كان الدين في بادئ الأمر يشجع على العبادات ويأمر بها ومنها الصلاة. والصلاة أكبر صلة بين العبد وربه وليس كما يقول المؤلف - المترجم).

من الصعب أن نعرف تمامًا ماذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتقد في هذا السبيل(*) وبعض سور القرآن تشجع المسلمين على الاستمتاع بطيبات هذه الحياة الدنيا، وبعض آيات هذه السور استشهد بها بشغف الكثير من العرب الذين حصلوا على نصيب كبير من هذه الطيبات نتيجة للفتوحات الكبرى ولا الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر وعمر انغمسوا في هذه الملذات فيما عدا تعدد الزوجات. ولم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم ثروة ولا استفاد من أكثر ضروريات الحياة الأساسية. وكان طعامه وملابسه ومنزله وأثاث بيته بسيطًا للغاية حتى لو توافر المال إذا كان مهتمًا بذلك.

بعد إرساء دعائم الخلافة في دمشق كانت الآراء الرسمية والدينية تقول إن التمتع بمباهج الحياة حلال شرعًا بشرط الالتزام بالقواعد التي وضعها القرآن الكريم والسنة المطهرة بطريقة صحيحة. وعلى الرغم من ذلك كان يوجد الكثير من الزهاد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وفي عصر الخلفاء الراشدين؛ بعضهم كان يعيش في الصحراء، وكانوا فقراء ومتزمتين ويكرسون وقتهم للصلاة. وإلى حد ما كان الخوف من النار كما هو مذكور في القرآن الكريم هو المسئول عن ذلك السلوك. وكان يطلق على بعض الزهاد القدامى لفظ البكائين لأنهم كانوا يبكون بحرارة أثناء التوبة والخوف من العقاب الأخروي.

لكن تدريجيًا تمادى الزهاد ورغبوا في الاتصال بالله للحب الإلهي، والاشتياق إلى الله، وتقوى القلوب. ولم يرحب أهل السنة والجماعة بتلك الأفكار؛ لأن الإسلام يصف الله بأنه إله عظيم وقدير وبالتالي فإن الحب المتبادل بين العبد وربه قد يصل إلى الكفر

(*) (كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا في هذا السبيل ما ينبغي أن نعرفه عن الله سواء في السنة الصحيحة أو القرآن أما الأمور الأخرى التي اختص بها علم الكلام نفسه فلا ينبغي لنا أن نبحث فيها لأنها من الأمور الغيبية التي لا نعلم عنها شيئًا — المترجم).

والتجديف على الله. وقال أهل السنة إن الإنسان عبد لله، وواجبه قاصر على الشهادة لله بالوحدانية، وإطاعة أوامره وتحمل تقلبات الحياة بصبر ورضا. وكان الفقهاء السنيون وعلماء أصول الدين مستائين مما يقوله الزهاد من استشارة ضمائرهم(*)؛ لأنه بالنسبة لعلماء الدين الرسميين فإن القرآن والسنة يشتملان على كل ما هو ضروري لخلاص الإنسان، وإن الإنسان عندما يستشير ضميره فإن ذلك يؤدى به إلى البدع.

كان الحسن البصري واحدًا من أوائل علماء هذا التصور الداخلي للإسلام وتوفي عام ٧٢٨ م في عهد هشام بن عبد الملك. وكان الخوارج يعادون بصورة قصوى هذا الاتجاه النسكي للزهاد الذين أصبحوا يعرفون بالصوفية طبقًا لعادتهم في ارتداء الصوف. ورفض الشيعة أيضًا فكرة الاتصال المباشر بين العبد وربه، وطبقًا لمعتقداتهم فإن أئمتهم هم المكلفون بدور العلماء، وهم يقومون بدور الوسيط بين الله والجنس البشري.

فعل علماء السنة ما بدا لهم لكي يقبلوا الصوفيين ثم يتحكموا فيهم بعد ذلك. وكما فعل القادة الدينيون بنصب العداء لمن يخالفهم واتهامهم بالبدعة وسلوك بعضهم هذه المسالك وكان واحد من أكثر زهاد الأيام الأولى هو ذو النون وهو مولى سوداني اعتزل الدنيا. ونظرًا لاتهامه بالبدع فقد تم إحضاره أمام الخليفة المتوكل مقيدًا بالسلاسل. وتكلم بتقوى شديدة ورضا لدرجة أن الخليفة بكى وأمر بإطلاق سراحه مباشرة.

اتسم حكم المتوكل بالكوارث السياسية والفقر والصعوبات الناتجة من سنوات الفوضى وأدت مخاوف الناس ومعاناتهم إلى البحث عن الناحية الروحية أكثر وتنقية الذات طبقًا للدين وهي أشياء أخمدتها مادية سنوات الرخاء.

بعد أن قرأنا كثيرًا عن مادية القصر والخلفاء ورفاهيتهم فمن الجدير بالذكر والتقدير أن نرى اتجاهًا روحيًا يميل أكثر للدين. وخلال الفترة من ٦٦٠ م إلى ٨٦٠ م دخلت إلى الحضارة الإسلامية اتجاهات مختلفة للزهد في الدنيا والالتجاء إلى الدين.

(*) (لم يقل أهل السنة ذلك ولم ينكروا الحب بين العبد وربه، وهذا الكلام ليس صحيحًا - المترجم).

جاء بعد الواثق أخوه المتوكل. وخلال عهد الواثق كان المتوكل مكروهًا منه وكان يعاني من قدر كبير من الذل والإهانة على يد أخيه ووزرائه. وبمجرد أن تولى الخلافة بدأ يطرد ويعذب ويقبض على وزراء الواثق. وكان يميل في كل شيء إلى السير عكس سياسة هؤلاء الذين انقلبوا ضده قبل أن يتولى السلطة. وكان الخلفاء الثلاثة السابقون عليه يؤيدون مذهب المعتزلة؛ لذلك أيد عقيدة أهل السنة من قلبه، وهو اتجاه أكسبه شعبية كبيرة بين أغلبية الناس.

كان الواثق يرعى بصفة خاصة آل علي بن أبي طالب، ويبحث عمّن هو في ضائقة مالية منهم ويوزع عليهم عطاءً كافيًا. أما المتوكل فسار عكس هذا الاتجاه وكان ينظر للشيعة بكراهية شديدة. وفي عام ٨٥٠ م أمر بتسوية مقبرة الحسين الشهيد في كربلاء بالأرض. وحرم زيارة هذا المكان وزرع فيه محاصيل؛ ولذلك كرهه الشيعة. وفي المساء كانت تكتب شعارات تلعنه لعدم تقواه على أسوار بغداد ومساجدها. وقام بإعداد قوانين مهينة للمسيحيين، وكان الكثير منهم حينما تولى السلطة يتولون مناصب مهمة في الدولة فمنع توظيفهم في الوظائف الحكومية. وكانوا مضطرين إلى ارتداء ملابس معينة، وركوب خيول بركاب خشبي والخضوع إلى أمور مهينة أخرى. ويلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعامل النصارى باحترام، ولم يتم مضايقتهم خلال العصر الأول للحماس الديني الحقيقي. وكلما أصبح الخلفاء أقل تدينًا كلما عاملوا المسيحيين بسوء أكثر.

ذكرنا قبل ذلك أن العباسيين أهملوا في الحفاظ على سيادتهم البحرية على البحر الأبيض المتوسط. أما الأساطيل العربية التي سيطرت على ذلك البحر عام ٨٥٠ م فكانت أساطيل أفريقية والأندلس. ولم يهتم العباسيون كثيرًا بشمال أفريقيا، ولكن كان الخلفاء الأوائل والأقوياء يزورون فارس وسوريا وفلسطين ومصر. وكان كل من الواثق والمتوكل يميل إلى قضاء حياته في المنزل في سامراء، يحيط به حرسه التركي وأصحابه وعبيد وإماء القصر، ولم يهتما بشئون الإمبراطورية. وكان الخلفاء الكبار قد كسبوا شهرتهم وولاء الشعب بزياراتهم المتكررة للأقاليم، وبتعريف العامة بهم شخصيًا وبقيادة جيوشهم أثناء القتال.

في عام ٨٢٥ م أدى إهمال الحكومة للبحر الأبيض إلى وصول الأسطول البيزنطي فجأة وبصورة مدهشة إلى دلتا نهر النيل. ونزل عدة آلاف من الجنود البيزنطيين على الشاطئ واقتحموا دمياط بالقوة فقتل عدد كبير من الناس وحمل البيزنطيون معهم كميات كبيرة من السلع التجارية والثروات الأخرى، وحملوا معهم أيضًا ستمائة امرأة ما بين مسلمة ومسيحية، وكانت دمياط مدينة صناعية مزدهرة مشهورة بالمنسوجات. وكان السبب في هذا العمل المخزي يعود كليةً إلى إهمال الحكومة المركزية لواجباتها.

رشح المتوكل ثلاثة من أبنائه لكي يتولوا الخلافة بعده طبقًا لأعمارهم. المنتصر الأكبر هو الذي يخلفه مباشرةً وبعده المعتز ثم المؤيد. ولسوء الحظ كان الخليفة يحب أكثر أم المعتز ابنه الثاني. وكانت أمة يونانية محظية تسمى قبيحة. وفي أحد الأيام ظهرت هذه الجارية الجميلة أمام المتوكل واسم جعفر مكتوب بالمسك على خدودها (كان الاسم الشخصي للخليفة جعفر ولقبه المتوكل). وبعد ذلك قام أمير المؤمنين بارتجال هذه الأبيات الشعرية (*):

وكاتبة في الخد بالمسك جعفرا

بنفسي تحط المسك من حيث أثرا

لئن أودعت سطرًا من المسك خدها

لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا

كان سحر قبيحة قويًا جدًا لدرجة أن الخليفة المتوكل قرر أن يجعل ابنها المعتز هو الذي يخلفه مباشرةً على عرش الخلافة وأن يحرم المنتصر من ذلك. ونتج عن ذلك التعقيدات المعتادة؛ لأن البيعة كانت قد أخذت للمنتصر ورفض أن يتخلى عن حقه في خلافة أبيه مباشرة. وروي أن المتوكل كان يتصرف بقليل من الحكمة في ذلك الشأن.

(*) من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير.

وربما كان خائفًا أن تتكلم قبيحة الجميلة عن عدم قدرته على كفالة الطاعة لأوامره فاستدعى المنتصر إليه وهو غاضب ومثبط العزم وأبلغه مباشرة أنه عقد العزم أن يجرده من حقه في خلافته.

لم يكن أحد يتوقع وجود أزمة. ولم يكن هناك شعور بالتوتر والقلق بين الناس مثل ذلك الذي حدث بعد انهيار حكم بني أمية. صحيح أن الجنود الأتراك كانوا مكروهين، وكان هناك سخط عام على السلطة الممنوحة لهم، ولكن كان الخليفة وجنوده يعيشون في سامراء في شبه عزلة ولم يكن معظم الناس على دراية كاملة بمكائد القصر. وهنا يكمن موضع الخطر. وحتى منذ بداية الإمبراطورية كانت كل السلطات الدينية والسياسية والعسكرية تتركز في يد الخليفة. وحدثت ثورات كثيرة ولكن هذه الثورات لم تكن موجهة مباشرة إلى شرعية الخلافة كما تفعل الحركات اليسارية الحديثة ضد الحكام المستبدين. وتقريبًا كانت كل الثورات تأخذ شكل مطالب إلى الخليفة وليس تقليص سلطته، ولكن لأن الخليفة القائم لم يكن الرجل المخول بهذا المنصب فلا أحد من هؤلاء الساخطين كان يتصور أنه إذا كان الخليفة يملك كل السلطات فإن الطريق إلى السلطة المطلقة هو السيطرة على الخليفة شخصيًا.

هذا الطريق كان مغلقًا طالما أن الخليفة يعيش في عاصمته، تحيطه الحاشية الخاصة به ونقل المعتصم عاصمة الخلافة فعليًا من بغداد إلى سامراء يحيطه فقط بطانته من الأتراك ولم يكن يخشاهم فقد كانوا أحبابه وأعزاءه، ولكن عندما جعل عاصمة الخلافة في سامراء واستقر هناك يحيط به حرسه وجنود القصر الأتراك كان يضع ورثته تحت رحمتهم. ولم يدرك أحد ذلك ولا حتى المرتزقة الأتراك في بادئ الأمر.

كان الضباط الأتراك يدبرون مكائد قبل ذلك في جو سامراء الحار. وبعضهم كان يغير من بغا الشرابي وهو تركي أصبح بنفوذه أقوى رجل في القصر وموضع ثقة الخليفة. وكان عبدًا وساقيًا للقصر ثم رقاه الخليفة إلى مرتبة عليا. وهنا أيضًا يكمن خطر آخر: لأنه لا يوجد إنسان بطل لمجرد أنه كان خادمًا. وكانت الثورات التاريخية مرارًا وتكرارًا يقوم بها

جنود الحرس الإمبراطوري المميزون والمدللون على الرغم من أن الجنود العاديين المهملين والمحتقرين على الحدود البعيدة ما زالوا يدينون بالولاء والإخلاص إلى الإمبراطور. وكان المتوكل رجلًا عاديًا، وكان الأتراك يحيطون به من كل جانب. وكان شغفه بالمحظيات من الجواري وانغماسه في الشراب وعدم قدرته على السيطرة على أبنائه لا يوحي بالاحترام في الأوساط المحيطة به بل بقلة الاحترام.

أبلغ الضباط الساخطون بغا برقاع مجهولة المصدر أن الخليفة ينوي قتله. وفي الوقت نفسه حذر الضابط نفسه المتوكل أن بغا يريد أن يقتله. وهكذا أصبح الخليفة وصديقه التركي يشك كل واحد منهما في الآخر. وكان الشجار الذي حدث بين الخليفة والمنتصر ابنه لم تبرد ناره بعد. وقرر بغا أن يتصرف أولًا بعد علمه بنية الخليفة قتله عالٍ فقرر أن ينصّب المنتصر خليفة متوقعًا أن تسير الإمبراطورية كما كانت من قبل.

بعد ذلك بعدة أيام كان المتوكل مزاجه عالٍ، وكان يتحدث بسعادة مع أصدقائه وحاشيته وندمائه. وبمجرد أن حل المساء أصبح الخليفة مبتهجًا أكثر وظل يطلب الكثير من النبيذ حتى سكر تمامًا. أو ربما أثقله بغا بالشراب متعمدًا. وعندما خرج أفراد الحاشية لم يبق إلا بغا وفاتح بن خاقان. وبقي غلام يحيط بهم لكي يخدمهم.

فجأة دخل خمسة أتراك وسيوفهم مرفوعة إلى الحجرة فصاح الخليفة في حذر «ما هذا يا بغا؟»، فرد عليه: «هؤلاء هم الحرس وسيناموت خارج باب سيدي يا أمير المؤمنين».

تراجع القتلة عند استماعهم لهذه الكلمات وعندما رأوا بغا يشرب مع الخليفة بصورة ودية لأنه هو الذي أخبرهم أن يأتوا في تلك الساعة ويقتلوه. ونتيجة لذلك تراجعوا مضطربين فأسرع بغا خلفهم وأخبرهم بلهجة قوية أن يؤدوا عملهم.

رجع الخمسة إلى الحجرة ورفع أحدهم سيفه وضرب الخليفة على رأسه فقطع أذنه فصاح أحدهم: «حسنًا يا رجل صوب بدقة هذه الضربة لم تفلح». ورمى واحد من هؤلاء الخمسة نفسه على الخليفة المرعوب المتوكل الذي حاول أن يدفعه بعيدًا بيديه. وصاح فاتح

صـديق الخليـفة: «بالله عليكم إنه أمير المؤمنين»، فصاح بغا التركي: «ألا تصمت أيها الأحمق»، وجرى إليه ليضربه بسيفه. وفي ثوانٍ قليلة رقد الخليفة وصاحبه بلا حركة على الأرض في برك من الدماء. واختفى الغلام النديم خلف الستائر وبقي سليمًا.

خرج بغا من الحجرة، وأسرع إلى ممر القصر فقط لكي يقابل المنتصر وهو يجري نحوه فصاح وهو يلهث: «ماذا حدث؟» فرد عليه بغا وهو يحييه بوصفه خليفةً: «كل شيء على ما يرام يا أمير المؤمنين». وبسرعة تم استدعاء أفراد الحاشية والخدم وطلب منهم أن يبايعوا الخليفة المنتصر.

في صباح اليوم التالي ١١ ديسمبر عام ٨٦١ م تجمع حشد كبير من الناس خارج القصر في سامراء وطلبوا تولية المعتز. ولكن لم يكن المعتز موجودًا؛ لأن الترك كانوا قد سجنوه قبل ذلك. وأصبح بغا يسيطر سيطرة كاملة على الموقف وأصبح المنتصر خليفة بقدر ما كان الأتراك راضين عنه. وهذا لم يدم طويلًا.

بعد ذلك بستة أسابيع مات الخليفة المنتصر. ولم تعرف طريقة موته ولكن الإشاعات رجحت موته بالسم بطريقة حتمية. وروي أنه أزعج الأتراك بطريقته المستقلة في التفكير. ولمدة أربعين سنة أصبح المرتزقة الأتراك هم الذين يحددون الخلفاء على حسب أهوائهم، وعندئذ فقد جيش المرتزقة الأتراك المحترف الذي كونه المعتصم المستبد تماسكه. وعاد الخلفاء إلى بغداد لكي يستمتعوا بصيف هادئ قصير في السلطة في بغداد. ومع ذلك فإن الإمبراطورية كانت قد انحلت أثناء سنوات اغتصاب الأتراك للسلطة.

نلاحظ أن المؤرخين العرب متفقون على أن حكم المتوكل كان فترة سعادة كاملة. وأن الموقف الاقتصادي كان مزدهرًا، وأن التجارة والصناعة كانت رائجة وأنه لم تكن توجد حروب كبيرة في عهد الواثق أو المتوكل. وكان الإمبراطور ثيوفيلس الذي كان نشيطًا وعدوانيًا قد مات. وأثناء خلافة المتوكل كانت بيزنطة هادئة تحت حكم تيودورا الواصية والفترة الأولى من حكم ابنها مايكل السكير. وإذا كان المتوكل يبدو لنا إلى حد ما ضعيفًا فإنه كان طيبًا وخيرًا وفي عهده حدثت ثورات قليلة: ربما لأن الكوارث التي أعقبت حكمه

جعلت الناس فيما بعد ينظرون إلى الماضي بحنين؛ إلى أيام المتوكل السلمية كما اعتاد الكثير من الأوروبيين أن ينظروا إلى الماضي إلى أعوام ما قبل ١٩١٤.

حدد اغتيال المتوكل نهاية حكم الخلفاء المستبد، وربما يكون هذا الحادث نقطة فاصلة نلخص فيها إنجازات العباسيين الكبار كما فعلنا قبل ذلك بالنسبة للأمويين. ولقد تابعنا قصة العباسيين لمدة مائة وإحدى عشرة سنة من تولي السفاح الخلافة عام ٧٥٠ م إلى مقتل المتوكل عام ٨٦١ م. ومن العشرة خلفاء الذين حكموا أثناء تلك الفترة كان المنصور وهارون الرشيد وهما رجلان بارزان بكل ما يمتلكانه من قدرات. واستمرت فترة حكمهما ستة وأربعين عامًا أو تقريبًا خمس فترة حكم العباسيين كلها. وكان السفاح والمهدي والمأمون والمعتصم حكامًا نشطين ومتمكنين بأساليب مختلفة. واستمرت فترة حكمهم ثلاثًا وأربعين سنة أو خمسين سنة أخرى. أما الهادي والأمين فكانا ضعيفين، خصوصًا الأمين، ولكن استمرت فترة حكمهما خمسة أعوام. والاثنان كانا سيئَي الحظ بوجود إخوة أقوياء إلى جانبهما في ميراث الخلافة، وأدى ذلك إلى أن تكون فترة حكمهما إما قلاقل أو حربًا أهلية. وفي فترة حكم العباسيين كلها كانت أتعس السنوات هي على الأرجح ٨١١ – ٨١٣ م؛ وهي سنوات الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون وحصار بغداد.

آخر من تولى الخلافة في الفترة التاريخية التي نكتب عنها الواثق والمتوكل، واستمرت فترة حكمهما تسعة عشر عامًا، وكانت تختلف في طبيعتها عمن سبقهما فلم يكن كلاهما شخصية بارزة. وقضيا عهدهما في قصر سامراء دون زيارة الأقاليم. وخلال حكمهما استمرت إمبراطورية العرب تنعم بالسلام بسبب القوة الدافعة التي أضفاها على الإمبراطورية أسلافهما الخلفاء الكبار. وكان سكون الخليفتين يزيد سعادة الناس في ذلك العصر؛ لأنه لم تكن هناك حروب وكانت توجد ثورات قليلة. وازدهرت التجارة والصناعة وانتشرت الثروات والرفاهية والتعليم. ولم يكن يدري أحد أن قلب الإمبراطورية سيتوقف عن النبض يومًا ما.

من وجهة نظر الإمبراطورية فإن العباسيين كانوا في أمس الحاجة إلى الأمويين في إسبانيا؛ لأن إسبانيا ضاعت بسرعة بعد وصولهم للحكم، وفي عام ٨٠٠ م أصبحت أفريقيا فعليًا ولاية مستقلة تحت حكم الأغالبة. وفي عصر المأمون نصب آل طاهر ذي اليدين أنفسهم حكامًا لولاية شبه مستقلة في خراسان.

لم يجر الخلفاء أي محاولة لاستعادة الأقاليم الضائعة على الرغم من أنهم من هارون الرشيد إلى المعتصم كانوا يقودون أقوى الجيوش التي لم تكن عند أسلافهم من الخلفاء. وزال التصميم على الحفاظ على الإمبراطورية مع أن القوة كانت متوافرة. وكثير من الشعوب الإمبراطورية في التاريخ تبذل كل ما في وسعها للسيطرة على إمبراطوريتها ولكن بمجرد أن تصل إلى الحكم تفقد الاهتمام بالمحافظة على سيادتها الكبيرة. وبنو العباس خير مثال على هذه الظاهرة.

في مساء ١٠ ديسمبر عام ٨٦١ م دمرت سيوف بغا والقتلة الخمسة إمبراطورية العرب الكبيرة. ولم يعلم القتلة في تلك اللحظة أنهم يشتركون في صراع داخلي في القصر، وما فعلوه هو أنهم فتحوا أعين العالم على حقيقة جديدة؛ أن الطريق إلى السلطة يكمن في الاستحواذ والسيطرة على الخليفة. وبعد ذلك بدأت سلسلة متتابعة من المغامرات العسكرية التي يسيطر فيها المغامرون على الخلفاء ويجعلونهم قوى عاجزة في قصورهم، بينما يحكم القادة العسكريون الأتراك والفرس باسمهم. وكانت فكرة بسيطة لم يكن أحد يفكر فيها حتى ارتكبها بغا بالصدفة.

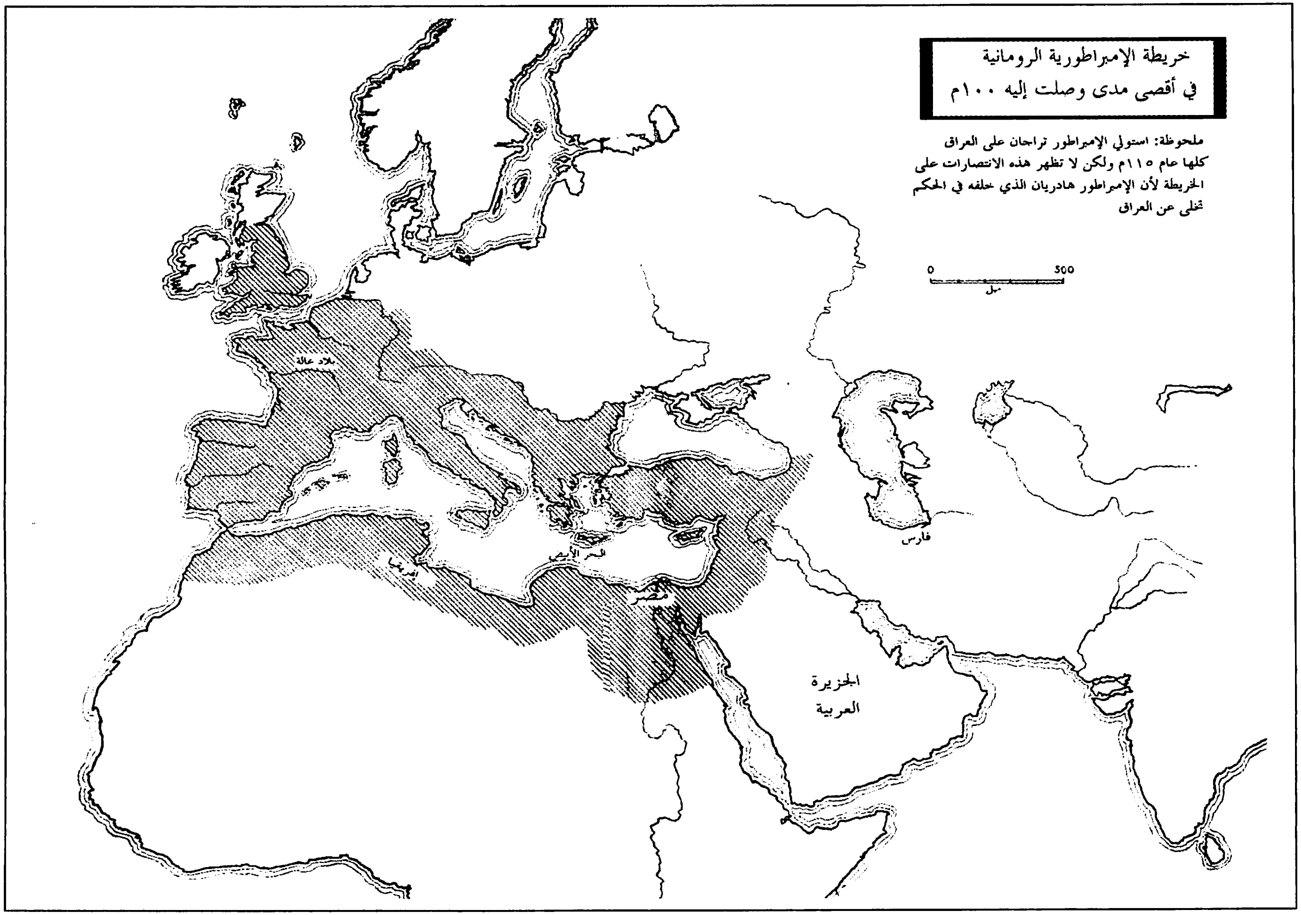
أصبح الخلفاء العباسيون خلفاء مشلولين لمدة أربعة قرون أخرى، ولكن عندما وضح أن الخلافة لم تعد حرة، بل أداة في يد جنود متتابعين حسني الحظ انفصلت البلاد الكثيرة التي كانت جزءًا من الإمبراطورية. ولم يتوقف العرب عن السعي إلى ريادة الأمم واستمرت الثقافة العربية والعلوم والصناعة في التقدم وفي تحقيق إنجازات كبيرة عما سبق. وكثير من الدول العربية تطمح في أن تكون قوى عظمى وفي التأثير على مجالس الأمم، ولكنها تفعل ذلك كحكومات منفصلة. ولأن الخلافة كانت قلب الإمبراطورية فعندما يصاب هذا القلب بالشلل فإن إمبراطورية العرب تنقضي من سجل التاريخ.

تواريخ بارزة

- ٨٤٢ م..... تولي الخليفة الواثق
- ٨٤٧ م.....وفاة الخليفة الواثق
- ٨٤٧ م.....تولي الخليفة المتوكل
- ٨٥٢ م.....إغارة البيزنطيين على دمياط
- ٨٦١ م....اغتيال الخليفة المتوكل

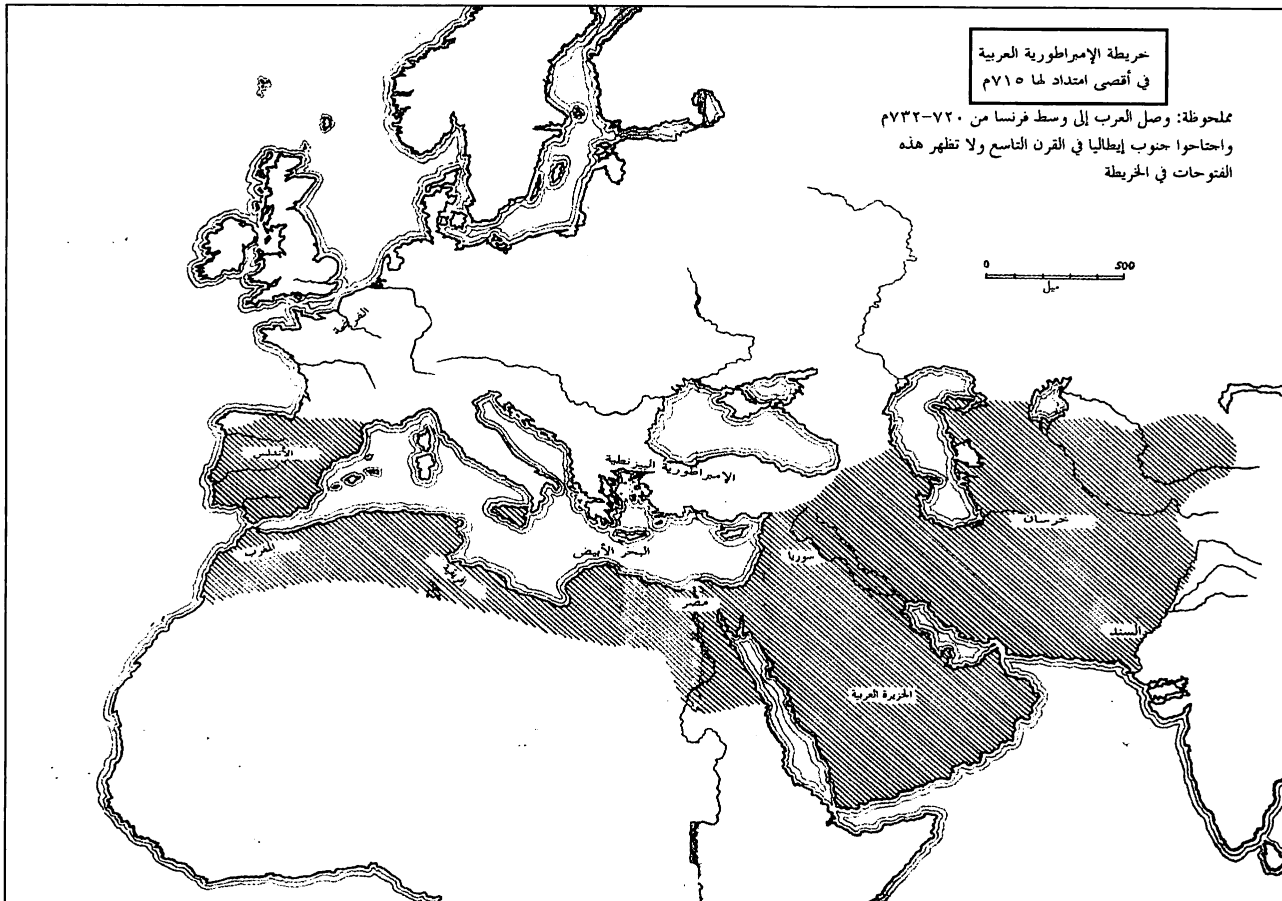
الشخصيات

- الخليفة الواثق
- الخليفة المتوكل شقيقه
- الخليفة المنتصر بن المتوكل
- بغا الشرابي التركي عبد القصر وساقيه وقائد الجيش



خريطة الإمبراطورية الرومانية
في أقصى مدى وصلت إليه ١٠٠م

ملحوظة: استولي الإمبراطور تراجان على العراق كلها عام ١١٥م ولكن لا تظهر هذه الانتصارات على الخريطة لأن الإمبراطور هادريان الذي خلفه في الحكم تخلى عن العراق


خريطة الإمبراطورية العربية
في أقصى امتداد لها ٧١٥م
ملحوظة: وصل العرب إلى وسط فرنسا من ٧٢٠-٧٣٢م
واجتاحوا جنوب إيطاليا في القرن التاسع ولا تظهر هذه
الفتوحات في الخريطة
0
500
ميل
الأندلس
المغرب
مصر
سوريا
البحر الأبيض
الإمبراطورية البيزنطية
خرسان
السند
الجزيرة العربية

الخاتمة

الشيء الوحيد الذي يمكن لنا أن نتعلمه من التاريخ كما يقال هو أن الإنسان لا يتعلم من التاريخ. وإذا كنا نقبل أو لا نقبل هذه الحكمة فإننا نسعى إلى أن نستلهم من العصور الماضية دروسًا قد تساعدنا في حل مشاكل العصور الحالية. وعندما نفكر في العرب فإن هذا الدافع يكون شديدًا لأنه لم يتغير فيهم الكثير منذ القرن التاسع.

من الواضح أن الشعوب المسماة اليوم العرب التي تمتد من فارس إلى المغرب هي خليط من جنسيات مختلفة، ولمدة ألف وثلاثمائة سنة يشتركون في ديانة واحدة ولغة وثقافة واحدة وهذه الحقائق تعطي لهم ظاهريًا شكلًا مشابهًا يشبه الذي يوجد بين الدول الأوروبية التي تتمتع بنفس الديانة والثقافة ولكن رد فعلها يكون مختلفًا على أي موقف يؤثر فيها.

كل دولة عربية يفصلها عن الثانية مئات الأميال الصحراوية. والعراق على سبيل المثال يفصل بينه وبين سوريا والأردن خمسمائة ميل من السهول الواسعة كما هي المسافة من لندن إلى سويسرا. ويفصل الأردن وسوريا عن مصر صحراء سيناء. ويفصل مصر عن طرابلس ألف ميل بما فيها الصحراء الغربية. ومهما تشدق السياسيون فإن هذه الحواجز الصحراوية الكبيرة لا يمكن اجتيازها.

قاوم البربر الذين يسكنون الجزائر الآن كل الفاتحين العرب لمدة ستين عامًا مثلما قاوموا الفرنسيين بالقدرة على المثابرة نفسها. أما البلاد العربية الأخرى فلم تقاوم الفاتحين العرب في القرن السابع. وهذه الدول إلى اليوم نادرًا ما تنجح مشاريعها العسكرية. وكل هذه الأمور لم تتغير في الألف سنة الأخيرة.

على الرغم من أن الدول العربية اليوم ذات أصول عرقية مختلفة فإن هناك بعض صفات عرب القرن السابع تتجلى فيهم. وهذه الظاهرة سببها أنه في السنين الأولى تداخلت هذه الصفات بصورة قاطعة في الديانة الإسلامية. ومن هذه الصفات يمكن أن نلاحظ صفتين أكثر بروزًا هما إعجابهم بالكرم وحسن الضيافة وتصميمهم على رد الانتقام. وهذا الأمر يقودنا إلى أمور تتعلق بالشرف والحرية الشخصية والكرامة والرغبة العارمة في محو الإهانة.

هذه الصفات كانت تميز شعوب غرب أوروبا وخاصة الطبقات العليا في العصور الوسطى وانتهى النزاع بين النبلاء منذ قرن ونصف وليس بسبب تأثير الحب المسيحي، ولكن نتيجة سيطرة النزعة التجارية على فكرة الشرف. وسيطرة هذه النزعة الفردية على الشعوب العربية يؤدي إلى نشوء بعض الأمور مثل فرار بعض الضباط إلى الأعداء نتيجة للظلم الذي وقع عليهم شخصيًا. وهذه الأشكال الوجدانية للنزعة الفردية تجعل البلاد العربية في حالة اضطراب. وإذا كانت الأحزاب المتنافسة تأخذ مسميات مختلفة كالأحزاب الاشتراكية والشيوعية والقومية فإن قضايا مثل الكرامة الشخصية تربض خلف العداء المتبادل بينهم والذي يتم حله بالأسلحة النارية داخل صناديق الاقتراع.

تبعًا لما يبدو لنا وضعًا مؤقتًا أصبح النبي صلى الله عليه وسلم في حياته حاكمًا وقائدًا عسكريًا ومعلمًا وحاول من جاء بعده من الخلفاء أن يقتدوا بسنته وهكذا أصبح حكم الفرد نموذجًا جامعًا للدول الإسلامية. وهكذا كان الحاكم يخلط بين القيادة السياسية والعسكرية، ولم يكن منصبه متوارثًا، وكانت سلطاته واسعة ولكنه كان على الأقل من الناحية النظرية ديمقراطيًا منفتحًا وقائدًا دينيًا. وهذا المفهوم العربي للحكم الفردي كان مع ذلك وكما رأينا أحيانًا يتم تجاهله لصالح الحكم الفارسي أو حكم الفرد الاستبدادي قبل الإسلام. وفي تاريخ العرب ككل أو حتى المسلمين في القرن الحالي لا يوجد أي أثر لأي بلد حكمتها هيئة تشريعية منتخبة. وفي هذا السبيل فإن تصورنا أن تطور الأساليب الحكومية في الحكم قد يرحب به العرب سيكون غير مكتمل.

واحدة من أكثر الملامح التي تميز الكتاب الحالي هو التناقض الكبير بين زهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وإخلاصهم وثروة الخلفاء الذين أتوا بعد ثلاثين عامًا من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وترفهم وأهوائهم. ومن المهم أن نلاحظ أن هذه السرعة الكبيرة التي كون فيها العرب إمبراطوريتهم لم تكن كارثة على الإسلام. والثلاثة قرون والنصف من الاضطهاد التي عانتها المسيحية حتى تم الاعتراف بها كديانة للإمبراطورية الرومانية قد تكون مظهرًا كاذبًا فهل نجح العرب بصورة فائقة فيما فشل فيه الآخرون؟ وهل ما زالت حقيقة أن المأمون أكبر عدو لله موجودة اليوم كما في السابق؟

قائمة الأباطرة البيزنطيين
ومن يعاصرهم من الحكام الأمويين والعباسيين

م	الاسم	طريقة تولي الحكم	العرب المعاصرون	مدة الحكم
١	هيراكليوس	ثورة	محمد(ص) وأبوبكر وعمر بن الخطاب	٦١٠-٦٤١م
٢	قسطنطين الثالث		عمر بن الخطاب	٦٤١-٦٤٢ م
٣	قسطنطين الثاني		عمر - علي- معاوية	٦٤٢-٦٦٨ م
٤	قسطنطين الرابع		معاوية -يزيد الأول- مروان	٦٦٨-٦٨٥ م
٥	جوستنيان الثاني سليتنوز		عبد الملك بن مروان	٦٨٥-٦٩٥ م
٦	ليونتيس	ثورة	عبد الملك بن مروان	٦٩٥-٦٩٨ م
٧	تيبريس		عبد الملك بن مروان	٦٩٨-٧٠٥ م
	جوستنيان الثاني سليتنوز الحكم الثاني		الوليد الأول	٧٠٥-٧١١ م
٨	فيليبيكس	ثورة	الوليد الأول	٧١١-٧١٣ م
٩	أنيستاسيوس الثاني	ثورة	الوليد - سليمان	٧١٣-٧١٦ م
١٠	تيودوسيوس الثالث	ثورة	سليمان	٧١٦

م	الاسم	طريقة تولي الحكم	العرب المعاصرون	مدة الحكم
		أسرة الآزوري الحاكمة		
١١	ليو الثالث الآزوري	ثورة	سليمان – عمر – يزيد الثاني – هشام	٧١٦–٧٤١ م
١٢	قسطنطين الخامس		يزيد الثالث – مروان الحمار	
١٣	كوبرونيمس واسمه دانج		السفاح – المنصور	٧٤١–٧٧٥ م
١٤	ليو الرابع		المهدي	٧٧٥–٧٨٠ م
١٥	إيرين الواصية		المهدي	٧٨٠–٧٨٥ م
١٦	قسطنطين السادس		الهادي – هارون الرشيد	٧٨٥–٧٩٧ م
١٧	إيرين (باسمها)		هارون الرشيد	٧٩٧–٨٠٢ م
١٨	نيسيفورس الأول	ثورة	هارون الرشيد – الأمين	٨٠٢–٨١١ م
١٩	ستوريكيوس بن نيسيفورس		الأمين	٨١١ م
٢٠	مايكل الأول (أخو زوجة ستوريكيوس)		الأمين	٨١١–٨١٣ م
٢١	ليو الخامس الأرميني	ثورة	المأمون	٨١٣–٨٢٠ م
		الأسرة الحاكمة العمورية		
٢٢	مايكل الثاني العموري	ثورة	المأمون	٨٢٠–٨٢٩ م

م	الاسم	طريقة تولي الحكم	العرب المعاصرون	مدة الحكم
٢٣	ثيوفيلس بن مايكل الثاني	.	المأمون – المعتصم	٨٢٩–٨٤٢ م
٢٤	تيودورا الواصية على مايكل الثالث		الواثق	٨٤٢–٨٥٦ م
٢٥	مايكل الثالث السكير		الواثق – المتوكل	
	مايكل الثالث السكير (كان صغيرًا من ٨٤٢–٨٥٦ م)		المنتصر	٨٤٢–٨٦٧

ملحوظة:- الأباطرة الذين استولوا على الحكم بالعنف يظهرون في العمود الثاني كثورة وحيث يكون العمود الثاني خاليًا فإن الإمبراطور يكون وارثًا شرعيًا للعرش ومن الخمسة والعشرين إمبراطورًا تولى عشرة العرش بالعنف.

ملحق (ب)

قائمة زمنية عامة

من النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الخليفة المتوكل

السنة بالميلادي	الأحداث
٥٧٠	ولادة النبي صلى الله عليه وسلم
٦٢٢	النبي صلى الله عليه وسلم يهاجر إلى المدينة
٦٣٠	فتح مكة
٦٣٢	وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم
٦٣٦	موقعة اليرموك وفتح سوريا
٦٣٧	موقعة القادسية وفتح العراق
٦٤٠-٦٤٢	فتح مصر
٦٤٢	موقعة نهاوند وفتح فارس
٦٥٦	اغتيال الخليفة عثمان
٦٥٦-٦٦١	الحرب الأهلية بين علي ومعاوية
٦٦١	اغتيال علي بن أبي طالب
٦٧٠	تأسيس القيروان
٦٧٠-٦٧٧	الحصار الأول للقسطنطينية
٦٨٠	وفاة معاوية بن أبي سفيان
٦٨٠	مذبحة قتل الحسين وأتباعه في كربلاء
٦٨٣	مبايعة عبد الله بن الزبير خليفة في مكة
٦٨٤	مبايعة مروان خليفة في دمشق

السنة بالميلادي	الأحداث
٦٨٥	مبايعة عبد الملك خليفة في دمشق
٦٨٥–٦٨٧	ثورة المختار في الكوفة
٦٩٢	وفاة عبد الله بن الزبير
٧٠٥	تأمين وحماية شمال أفريقيا
٧٠٥	وفاة عبد الملك بن مروان
٧١١–٧١٣	فتح إسبانيا
٧١٢	قحطبة يصل إلى كاشجار
٧١٢	محمد بن القاسم يفتح السند
٧١٦–٧١٧	الحصار الثاني للقسطنطينية
٧١٧–٧٢٠	عمر بن عبد العزيز الخليفة الطيب
٧٢٤–٧٤٣	الخليفة هشام
٧٣٢	موقعة تورز
٧٣٨	هزيمة الخاقان
٧٤٣–٧٤٤	الخليفة الوليد الثاني الخليع
٧٤٤	تولي الخليفة مروان الحمار
٧٤٧–٧٤٨	ثورة أبي مسلم الخراساني
٧٥٠	موقعة الزاب
٧٥٠	تولي الخليفة السفاح
٧٥٤	تولي الخليفة المنصور
٧٥٥	عبد الرحمن بن معاوية يستولى على إسبانيا

السنة بالميلادي	الأحداث
٧٦٣	تأسيس بغداد
٧٧٥	وفاة المنصور
٧٧٨	موقعة رونسيسفاليس
٧٨٦	تولي هارون الرشيد
٨٠٠	إبراهيم بن الأغلب حاكم أفريقية
٨٠٩	وفاة هارون الرشيد
٨١١–٨١٣	الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون
٨١٩	دخول المأمون إلى بغداد
٨٢٧	غزو العرب لجزيرة صقلية
٨٣٠–٨٣٣	غزو المأمون للإمبراطورية البيزنطية
٨٣٣	وفاة المأمون
٨٣٧	هزيمة ووفاة بابيك
٨٣٨	حملة المعتصم ضد عمورية
٨٤٢	وفاة الخليفة المعتصم
٨٤٢–٨٤٧	حكم الخليفة الواثق
٨٤٧	تولي المتوكل الخلافة
٨٥٠	عرب من جزيرة صقلية ينهبون سان بطرس بروما
٨٥٢	غارة البيزنطيين على دمياط
٨٦١	اغتيال المتوكل

ثبت بالمصطلحات التاريخية
المطلوبة لفهم حقائق هذا العصر في هذا الكتاب

م	المصطلح في ذلك العصر	المصطلح الحالي	المصطلح باللغة الإنجليزية
١	يخلع الطاعة	يرفض الولاء	Renoynce Allegiance
٢	يولي	يعين	Appoint
٣	عطاء	مرتب	Salary
٤	الوالي	الحاكم	Governor
٥	نائب الخليفة	نائب الملك	Viceroy
٦	ديوان	إدارة	Department
٧	قسم الطاعة أو البيعة	قسم الولاء	Oath of Allegiance
٨	يبايع	ينادي	Proclaim or Acclaim
٩	قصر الإمارة	قصر	Palace
١٠	يفتح	يستولي على	Take-Hold-Conquer
١١	الفاتحون	الغزاة	Conquerers
١٢	الجزية	الضريبة	Tribute
١٣	الغنائم	المسلوبات	Booty or Plunders
١٤	الجزية	ضريبة الرأس	Poll Tax
١٥	الخراج	ضريبة الأرض	Land Tax
١٦	بيت المال	الخزانة العامة	Treasury

١٧	المكاتبات	المراسلات	Correspondances
١٨	مولى	عبد محرر	Freedman
١٩	أوامر	تعليمات	Instructions
٢٠	يخلع أو يقصي	يزيل	Eliminate or Remove

المؤلف في سطور:

سيرجون جلوب:

والمعروف أكثر بجلوب باشا، ولد في ١٦ أبريل عام ١٨٩٧ م ببرستون لانكشاير وهو عسكري بريطاني معروف بقيادة الفيلق العربي للضفة الغربية وتدريبه من عام ١٩٣٩م وحتى ١٩٥٦م كقائد عام له، واشترك في الحرب العالمية الأولى والثانية فتعلم أولًا في كلية تشيلتهام ثم عمل في كتيبة المهندسين الملكية البريطانية عام ١٩١٥ م وجرح في الجبهة الغربية ثم نقل إلى العراق عام ١٩٢٠م والذي كان في ذلك الوقت تحت الحماية البريطانية طبقًا لقرار عصبة الأمم في ذلك الوقت، وأصبح ضابطًا في الفيلق العربي عام ١٩٣٠م ثم شكل هو في العام التالي قوة الصحراء وهي قوة تتكون من البدو خاصة لكي يواجه مشكلة غارات القبائل على بعضها بعضًا في الجزء الجنوبي من العراق وفي عام ١٩٣٩م خلف هو فريدريك بك كقائد للفيلق العربي، وخلال تلك الفترة حول هذا الفيلق إلى أحسن قوة مدربة في العالم العربي، وقاد الفيلق العربي للدفاع عن الضفة الغربية عام ١٩٤٨م قبل انعقاد الهدنة في مارس ١٩٤٩م ثم عزله الملك، حسين ملك الأردن في ١ مارس ١٩٥٦م وقضى بقية حياته بعد ذلك يكتب كتبًا ومقالات عن الشرق الأوسط وتجاربه مع العرب ومات عام ١٩٨٦م في منزله في ميفيلد شرق ساسيكس إنجلترا.

ومن كتبه التي تتناول العالم العربي:

- حياة محمد وزمنه – ستن أند دي – ١٩٧٠ م.
- مشكلة الشرق الأوسط – هدروستاوتون – ١٩٦٧م.
- الفتوحات العربية الكبرى – هدروستاوتون – ١٩٦٣م.
- مسار إمبراطورية – هدروستاوتون – ١٩٦٥م.
- هارون الرشيد والعباسيون – هدروستاوتون – ١٩٧٦م.

المترجم فى سطور:

عادل حامد محمد

حاصل على ليسانس آداب قسم مكتبات، وله المؤلفات التالية:

* عجائب وأسرار سورة الكهف (معتمد من الأزهر الشريف) – دار غريب.

* عجائب وأسرار سورة يوسف (معتمد من الأزهر الشريف) – دار الكتاب المصري اللبناني.

* الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام (معتمد من الأزهر الشريف) – دار الكتب العلمية.

* عيسى المسيح والتوحيد (مترجم عن الإنجليزية) – مركز الحضارة العربية.

* تحت الطبع: رجال مجهولون في التاريخ.

التصحيح اللغوى : رفـيـق الـزهـار
الإشـراف الفنـى : محســن مـصطفى